خلف أسوار الحصار



تأليف
حسن عصام الدين طلبة

طلبة، حسن عصام الدين.
خلف أسوار الحصار: قصة من واقع صراع المرابطين مع الإسبان بشرق الأندلس ونهاية عصر إمارات وممالك الطوائف/ تأليف: حسن عصام الدين طلبة ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.
٥٣٦ ص ؛ ٢٤سم .
تدمك ٢ ٣٣٣ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القصص العربية التاريخية.
أ ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٨٢٨٩/ ٢٠١٠
I. S. B. N 978 - 977 - 421 -333 -2
ديوى ٨١٣,٠٨١

خلف أسوار الحصار

خلف أسوار الحصار

تأليف

حسن عصام الدين طلبة

الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠١٠

الإخــراج الفــنى: مــادلين أيــوب فــرج

تصمـيم الغـلاف: صبـرى عبد الواحد

الإهـــــداء

إلـى كل مناضل ومجاهد لا يفتر ساعده، ولا تخبو النخوة والمروءة فى قـلبه .. إلى من لم ينهه خوف المرجفين ، وتردد الخائفين عن مواصلة الجهاد فى سبيل الله ، لعودة الحق لأصحابه.. إلى كل من قال فيهم الله تعالى .. ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.. إليهم جميعاً أهدى قصتى ..

مقــــدمـة

فى نهاية العقد الثامن من القرن الحادى عشر الميلادى كانت الأندلس (شبه جزيرة أسبانيا) تنقسم إلى قسمين .. ففى القسم الشمالى كانت هناك ممالك وإمارات من القوط والفرنج .. ففى الشرق تواجد الأفرنج [1] فى مملكة برشلونة (قطلونيا) التى تطل على بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط)، يليها إلى الشمال الغربى مملكة أرجون ثم غربا مملكة نافار، يليها أخيرا مملكة قشتالة وليون وجليقيه تحت حكم الملك الفونسو السادس ..

أما فى القسم الجنوبى :. فقد كانت هناك الأندلس الإسلامية .. ففى الشرق مملكة بالنسيه وإلى الشمال الغربى منها مملكة سرقسطة ثم الجنوب الغربى إمارة قرطبة التابعة لمملكة أشبيلية وهى فى أقصى الغرب، وفى الجنوب من ناحية الشرق مرسيه وألميرية ثم غرناطة فى أقصى الجنوب ..

لقد كان خط الحدود الذى يفصل بين الشمال المسيحى والجنوب المسلم يبدأ من الشرق ما بين مدينة طركونة الأفرنجية وطرطوشة الإسلامية ويمتد غربا إلى شمال مدينة «وشقة» ثم «تطيلة» الإسلاميتين ثم إلى الغرب قليلا حيث يتحرك إلى الجنوب الغربى أسفل مدن .. قلعة أيوب، ومدينة سالم، ومدينة وادى الحجارة وكلها خاضعة للمملكة الأسبانية المسيحية .. ثم يمتد خط الحدود إلى الغرب موازيا لنهر وادى آنه شمال مدن قلعة رباح وماردة وبطليوس وكلها خاضعة

---

١ - الفرنجة Francos اسم كان يطلق على سكان قطلونيا Catalonia، مقاطعة اسبانية فى الشمال الشرقى عاصمتها برشلون حتى القرن الثانى عشر فى المؤلفات الأندلسية، إسلامية أو مسيحية، وكان يطلق أطلا على سكان جنوب فرنسا، وأحيانًا على أى أوروبى .

للأندلس المسلم .. ثم إلى ساحل البحر على المحيط الأطلنطى شمال مدينة شنترين ..

لم يكن الشماليون أكثر طهرا أو نقاء من أعدائهم المسلمين فى الجنوب .. فرغم الاختلاف الظاهرى بينهما إلا أنهما كان بينهما الكثير المشترك فى الصفات والخلال .. فكلاهما كان فاسدا وغادرا وقاسيا ..

وإذا كان المسلمون لا يكادون يهتمون بتطبيق نصوص الشريعة فى الحياة العملية، ويفضلون إستشارة المنجم على الفقيه، فقد كان بين المسيحسيين من لا تعنيه الكنيسة ويدير ظهره للقسيس، وإذا كان بين المسلمين من لا يجد غضاضة فى أن يقاتل تحت راية قائد مسيحى مأجورا كان أو هاويا، فقد كان هناك من المسيحيين أيضا من لا يجد حرجا فى أن يقاتل تحت راية مسلم، وضد شريكه فى الدين [١] ..

أما تصوير العرب بأنهم غزاة، وأنهم احتلوا أسبانيا، وأقاموا فيها محتلين، حتى جمع الأسبان شملهم والقوا بهم فى البحر، فشىء صنعه رجال الدين الكاثوليك فيما بعد انتصار المسيحيين على المسلمين، عندما نشأت القوميات فى أوربا، ولم يعد الدين يلعب الدور الأول، وغير كاف وحده لإثارة العامة، فاقتضى سد المنافذ أمام الإسلام بوصفه دينا ً، أن يصور للجماهير على أنه دين العرب المستعمرين .

وأرضت الفكرة، وصيغت فى مهارة فائقة، الغرور العربى فاطمأن إليها، وانساقت البقية وراء المغرورين جهلا.

والحق أن من يتتبع تاريخ الأندلس أيام المسلمين، فسيجد أن الصراع بين الطوائف، عنصرية أو طبقية أو دينية، لم يتوقف لحظة واحدة، لا عند المسلمين ولا المسيحيين .

حتى بعد إجلاء المسلمين من الأندلس، فقد قامت الحروب الأهلية بين الأسبان أنفسهم، وكلهم من الكاثوليك، وكان آخرها الحرب الأهلية التى امتدت

(١) من دراسة للدكتور الطاهر احمد مكى فى كتاب «ملحمة السيد» ـ دار المعارف ص ١٢ طبعة ١٩٩٠ .

لأربع سنوات ما بين سنة ١٩٣٦ إلى ١٩٣٩ وخسر فيها الأسبان قرابة المليون من البشر .. وكانت لوناً من صراع العصور الوسطى بين المسلمين والمسيحيين فى الأندلس .

لقد كان الصراع فى الأندلس بين المسلمين والمسيحيين، وكلا الجانبين ينتميان إلى وطن واحد، وإن فرقت بينهما العقيدة، وانتهى الصراع لصالح الطرف الأخير، وكان سقوط الإسلام الأندلسى إلى جانب صقلية، الاستثناء الوحيد من القاعدة التى تقرر «حيثما انتشر الإسلام استقر إلى الأبد».

المؤلف

هــذه القصــة

مع بداية العقد التاسع من القرن الحادى عشر، بدأ الشمال المسيحى والجنوب المسلم فترة من الهدوء النسبى استغلها كل طرف فى إعادة تنظيم نفسه استعدادا للجولة التالية فى مسلسل الصراع الطويل بين الطرفين .. فالشمال يريد أن يستكمل سياسة الاسترداد La reconequista التى وضعها لنفسه لطرد المسلمين من شبه جزيرة الأندلس .. بينما استعان مسلمو الأندلس فى البداية بدولة المرابطين فى شمال أفريقيا لحمايتهم من أطماع الشمال فيهم، ثم انقلب المرابطون على مُسلمى الأندلس لما تبين لهم ضعفهم وتهاونهم فى حقوق شعوبهم .. فقرروا وضع أسس جديدة لإمارات وممالك الأندلس تحت لوائها لتستطيع أن تواجه أطماع الشمال المسيحى ..

إزاء هذه الأوضاع وجد المرابطون أنفسهم أمام خيار وحيد، وهو تطهير الأندلس المسلم من الحكام الضعفاء الذين نقضوا العهد الذى التزموا به بعد واقعة الزلاقة، حيث عادوا إلى التحالف مع أعدائهم الشماليين، وضد بعضهم البعض، فى سبيل أطماع رخيصة للاستيلاء على السلطة أو الأرض أو النفوذ ..

تدور أحداث القصة مع بداية الصراع بعد فترة الهدوء النسبى بين الشمال والجنوب حيث ارتكز فى شرق الأندلس .. وبدأت الأحداث فى التصاعد واتخذت المواجهات فيها طابعا دراميًا مأسويًا ..

وجد المرابطون أنفسهم تارة أمام ضعف حكام الأندلس ومحاولاتهم المستميتة فى الحفاظ على ثرواتهم، وتارة أخرى يتصدون لأطماع الشمال فى بلاد المسلمين .. وظهر جليا تحدى الإرادات بين الطرفين .. أراد فيها المسيحيون الاستيلاء على كلّ شىء فى شرق الأندلس حيث كانت المعركة الحاسمة تدور هناك ..

وقد اشترك الشمال المسيحى مع حكام الأندلس المسلم فى غاية الاستئثار بما فى أيدى غيرهم من ثروات أو أراض أو نفوذ .. حيث حاول هؤلاء الحكام المسلمين الضعفاء المحافظة على ما حصلوا عليه بالمكر والخديعة من جيرانهم المسلمين أو ما ورثوه من أسلافهم .. كما حاول المسيحيون الاستيلاء على ما فى أيدى هؤلاء الحكام الضعفاء الجشعين مستغلين الخلافات التى بينهم ..

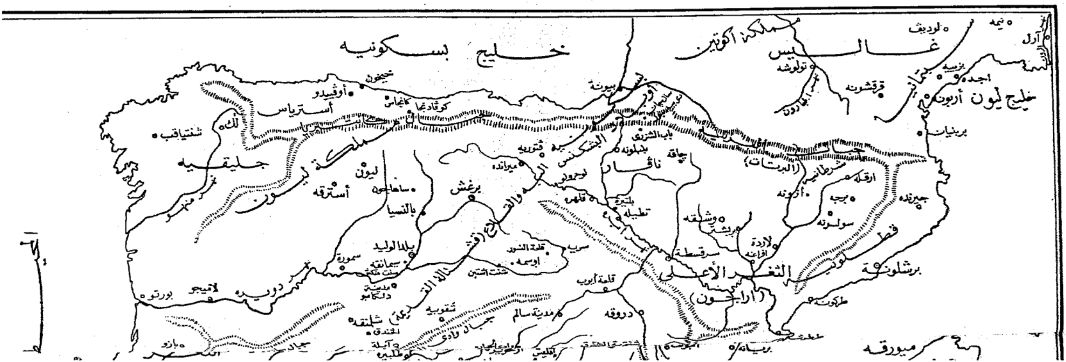
ترى هل نجحت محاولاتهم فقبضوا عليها واستأثروا بها !.. ؟ .. أم كانت هذه المحاولات مثل .. «قبض الريح» ..

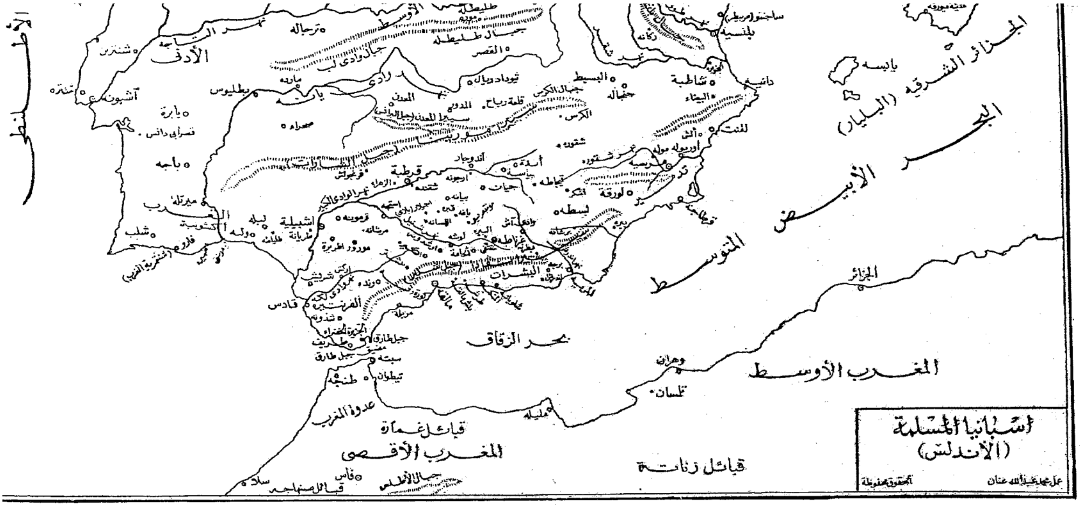
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾. صدق الله العظيم

المؤلف

١ ـ سورة الرعد (الآية ١٧).


خليج بسكونيه
مملكة أكوتين
غاليس
خليج ليون
أوقييدو
أستورياس
جليقيه
شنتياقب
ليون
أستورقه
برغش
بالنسيا
بلد الوليد
سمورة
دويره
بورتو
لاميجو
بيونة
بنبلونه
ناقار
تطيله
قلهرة
سرقسطة
وشقه
لاردة
برشلونة
طركونه
ميورقه
جيرنده
أربونة
قرقشونه
تولوشه
دروقه
قلعة أيوب
مدينة سالم
شقوبية
شلمنقه
الثغر الأعلى
(أرابون)
(البرتات)
أوسمه
قلعة النسور
ميرانده
بربنيان
اجده
نيمه
لوديف
آرل



إسبانيا المسلمة
(الأندلس)
علي محمد عبد الله عنان
الحقوق محفوظة
البحر الأبيض المتوسط
الجزائر الشرقية (البليار)
بحر الزقاق
المغرب الأوسط
المغرب الأقصى
قبائل غمارة
قبائل زناتة
عدوة المغرب
قرطبة
اشبيلية
غرناطة
طليطلة
بطليوس
بلنسية
شاطبة
مرسية
المرية
مالقة
قادس
شريش
رندة
جبل طارق
الجزيرة الخضراء
طريف
سبتة
طنجة
تيطوان
وهران
تلمسان
الجزائر
مليلة
فاس
سلا
جبال الأطلس
باجه
يابرة
شنترين
أشبونة
شلب
ترجالة
مارده
القصر
جبال طليطلة
جيان
بياسة
أبدة
لورقة
لقنت
دانية
يابسة

مهمة شاقة

أخذت السماء ترعد وتبرق بينما السفينة المرابطية ترسو على شاطئ البحر عند مدينة سبتة .. وتحت وابل المطر حطت قدما أمير المسلمين يوسف على شاطئ البحر الهادر وسار مبتعدا عن مياه الشاطئ بخطوات واثقة بينما الأمواج تلاحقه فتضربه من الخلف، دون أن يلتفت إليها وكأنها صديق قديم تعود على مزاحه من حين إلى آخر كلما كان عائدا من مهمة له على الجانب الآخر من البحر ..

بجسد نحيل وبقامة معتدلة سار الأمير بخطوات واثقة ومن خلفه ثلة من الجنود الأشداء ومن الحرس التابعين له من جيش المرابطين .. وانشغل يوسف بمحاولة تثبيت اللثام الذى يغطى وجهه الأسمر من أسفل العينين بعد أن سقط بفعل الريح الشديدة، ثم عبر حاجز حجرى بارتفاع قصير يمتد يمينا ويسارا لمسافة طويلة، حيث كانت الأحجار وبقايا مواد البناء متناثرة بعد أن تركها العمال القائمون على تشييد سور الميناء السفلى الذى أمر يوسف بتشييده، وبحثوا عن مكان يختبئوا فيه من شدة الريح وكثرة الأمطار ..

دخل يوسف إلى ساحة الجامع المغطاة حيث كان لا يزال تحت التشييد وهو من الأعمال التى سعى إلى بنائها فى نفس الوقت مع سور الميناء السفلى .. وكان فى انتظاره جمع من القادة وشيوخ القبائل جاءوا لاستقباله، حيث رحبوا به ورحب بهم، وراحت عيناه تتفقدان ما تم من أعمال البناء داخل الجامع، وتابع مسيره إلى الميضة هو ورفاقه ليتوضأ الجميع استعدادا لصلاة الظهر ..

فى آخر شهر نوفمبر من عام ١٠٩٠ ميلادية (٤٨٣ هجرية) وبعد أيام من عودته وفى مدينة مراكش عاصمة دولة المرابطين جلس يوسف بن تاشفين مع كبار القادة الموجودين معه بالمغرب وفى حضور بعض شيوخ القبائل أو من يمثلهم من لمتونة وجدالة وصنهاجة وزناتة وغيرها من قبائل الصحراء وأخذ يشرح لهم ما تم له فى عبوره الأخير إلى بلاد الأندلس وما أنجزه هناك بعد أن عاث فى أراضى مملكة طليطلة وحاصرها مدة، فأبى الملك ألفونسو أن يخرج له لقتاله خوفا من جيش المرابطين الكبير، حيث لزم مكانه داخل القصر بالمدينة محتميا بأسوارها العالية المنيعة ..

ثم قص عليهم ما كان عليه الوضع فى الأندلس حيث لم يقدم له أى أمير أو ملك هناك أى دعم من قوات أو سلاح لقتال الأعداء فى الشمال، وكأنه يجاهد وحده فى سبيل الله وكأن هؤلاء الحكام على رءوسهم الطير، فقرر أن يفك الحصار عن طليطلة عائدا إلى غرناطة وهناك أتم عزل أميرها عبد الله بن بلقين ثم من بعده عزل أخيه أمير مالقة تميم بن بلقين ..

بصوت خافت كعادته وبنبرة هادئة واثقة حدثهم يوسف عن خطته فى عزل باقى الملوك والأمراء فى الأندلس المسلم، تصديقا لفتوى علماء المسلمين على ضرورة عزل هؤلاء الحكام (١) لأن الوقت قد حان لتوحيد كلمة المسلمين تحت راية المرابطين، لمواجهة أعدائهم فى الشمال، ولا مفر من ذلك..

---

(١) قبل عدة أشهر اجتمع علماء الإسلام في بلاد الأندلس والمغرب مع أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وطالبوه بضرورة عزل حكام الأندلس الضعفاء استجابة لرغبة شعوبهم وكتبوا له وثيقة بذلك ووقعوا عليها وقد جاء فيها «... إن هم إلا قوم لا تحل طاعتهم، ولا تجوز إمامتهم، لأنهم فساق فجرة، فاخلعهم عنا فإن كانوا عاهدوك فها هم قد ناهضوك، وأرسلوا إلى أذفونش (الفونسو) أن يكونوا معه عليك حتي يوقعوك بين يديه، ويعود أمرهم إليه فبادر بخلعهم، ونحن بين يدي الله المحاسبون، فإن أذنبنا فنحن لا أنت المعاقبون، فإنك إن تركتهم وأنت قادر عليهم أعادوا بلاد الإسلام إلى الروم، وكنت أنت المحاسب بين يدى الله... ـ كتاب «المسلمون في الأندلس» «رينهرت دوزي ـ ج٢ ص ١٤٩ ـ طبعة هيئة الكتاب المصرية ـ القاهرة.

لم يكن يوسف فى حاجة إلى تفويض جديد لكى يبدأ حملته العسكرية لعزل حكام الأندلس .. ولكن على سنة الرسول صلى الله عليه وسلم كان أمير المسلمين يرجع إلى كبار القوم من علماء وقادة ليتشاور معهم فى مستقبل الأمة، ولم يكن يتصلب فى رأى أو قرار ولكنه كان حريصا على مبدأ الشورى فيما يخص بلاد المسلمين ..

فى اليوم التالى انشغل يوسف مع رجال دولته فى كتابة الرسائل إلى قادة الجيوش المرابطية الموجودة بالأندلس ليعطيهم أمرا بالتحرك لعزل الأمراء والملوك هناك .. سلما، فمن أطاع .. يأمن على نفسه وأهله ويعيش فى كنف أمير المسلمين، ومن يرفض منهم ذلك يتعرض للحرب والحصار ثم يعزل من الحكم وتصادر أمواله ويسجن ..

وعلى ذلك فقد صدر تفويض إلى القائد العام للجيوش المرابطية الأمير سير ابن أبى بكر أن يحرك جيشا بقيادة يطى بن إسماعيل لحصارمدينة جيان والاستيلاء عليها وعلى ما حولها من بلدات وقرى ..

وأن يحرك جيشا آخر بقيادة أبا عبد الله بن الحاج لحصار قرطبة والاستيلاء عليها، وكذا جيشا بقيادة قرور لحصار بلدة وحصن رندة، وجيشا رابعا بقيادة أبى زكريا بن واسينو لمحاصرة مدينة ألمرية ..

وأخيرا الأمير سير بن أبى بكر بنفسه للاستيلاء على أكبر الممالك فى غرب الأندلس وهما «أشبيلية» و «بطليوس» وعزل ملكيها المعتمد بن عباد، وعمر المتوكل ..

تحدث أمير المسلمين لمن حوله بعد أن فرغوا من صياغة أوامر التحرك للجيوش المرابطية وقال لهم وقد سرحت عيناه بعيدا ..

.. لا تظنوا أننا قد انتهينا من أعدائنا ودنىَ لنا الأمر واطمأنت نفوسنا .. لا والله أبدا لن تكون المهمة الموكلة إلى الجيوش المرابطية بالسهولة التى تم بها عزل الأميرين عبد الله، وتميم من قبل، ولكن هناك قدرا غامضا يلف مصير الأندلس .. ولابد أن تكتب صفحة جديدة لتاريخ هذه البلاد ..

بالنسيه الجميلة

راحت الشعاعات الأولى لشمس الخريف .. ترمى بضوئها فوق بنايات المدينة، كاشفة لها بعد آن نفضت عنها عتمة الفجر، فبدت كفتاة حسناء تتثاءب بعد غفوة ليلة هانئة ..

كان الصباح الدافئ يغطى المدينة الجميلة، بينما الماء يتدفق فى نهر طورية الذى التف حولها مخترقا ضواحيها الشمالية.. فبدت بالنسية(١) التى تبعد نحو أربعة كيلو مترات من شاطئ البحر .. بقصورها العالية وبيوتها البيضاء وأشجارها الخضراء الكثيرة الوارفة، والعامرة بالثمار.. وكأنها نهدٌ كاعب لفتاة بكر يلفها الجمال والغموض فى آن واحد ..

كانت بالنسيه على استدارتها فى أرض مستوية، تبدو لمن يراها كأنه لم يرها.. فقمم بيوتها الجميلة ومآذن المساجد، والأبراج العالية لسور المدينة، هى فقط ما تراه العين .. فقد سترت المدينة نفسها بسورها العالى المنيع الذى يحيط بمعظم أحيائها، وبأشجارها العالية الكثيفة المنتشرة فى كل بقعة فيها .. وهى حقا كما قال الشاعر :

كأن بالنسيه كاعب ... وملبسها سندس أخضر

إذا جئتها سترت نفسها ... بأكملها فهى لا تظهر(٢)

---

(١) هى عاصمة مملكة بالنسيه فى شرق الأندلس، وهى مدينة ذات أشجار وبساتين وأنهار وتعرف عند العرب بمدينة التراب فهى موصوفة بكثرة التراب لاتساع محارثها ومزارعها.. كتاب «الحلل السندسية» لـ«شكيب أرسلان» ـ ج ٣ ص ٣٤ ـ طبعة ١٩٩٧ لدار الكتب العلمية ببيروت.

(٢) بيتان من تأليف أمير بالنسيه السابق مروان بن عبد الله بن عبد العزيز.

وحول المدينة تناثرت البساتين الواسعة والممتدة لمسافات كبيرة حيث ذخرت بصنوف أشجار فاكهة البرتقال والنارنج والتفاح والقرصيا الناضجة.. وإلى الغرب منها ظهرت قمم جبال بالنسيه، ونحو الشمال منها تراءت تلال مدينة مربيطر التاريخية .. وإلى الجنوب ألقت أشعة الشمس بضوئها فوق قمم جبال «لقنت» المغطاة بالثلج فانعكست أشعتها عليها فتألقت وكأنها تاج مذهب مرصع بالألماس الأبيض والرمادى ..

انطلقت البغال مسرعة تجر العربة ذات المظلة المستطيلة بعد أن عبرت باب المدينة الجنوبى حيث جلس فى الأمام سائس العربة وبجواره أحد الخدم، وخلفهما جلس الشيخ أبو عمر بن عتبة وعن يمينه بنته نائلة .. حيث قصدا البستان الكبير فى الضاحية الجنوبية الغربية والمسماه " ريوسه " ليقابلا الشيخ مسعود القيسى صاحب البستان وابنه سالم ..

اخترقت العربة البساتين الخضراء الرائعة وسارت بسرعة أقل كلما خاضت فيها لمسافة أكبر حيث ضاقت الدروب التى تتخلل البساتين واقتربت المسافة إلى المكان اللذان يقصدانه .. ومع اقترابهما كانت آذانهم تسترق أصوات المزارعين وهم يغنون أغنيات الحصاد بترنيماتها المحببة والتى تضفى السعادة على الجميع..

وقفت العربة أمام بيت ريفى صغير من طابقين، بنيت جدرانه من الأخشاب المغطاة بعجين طينى ذو ملمس صلد، بينما سقفه مغطى بالقرميد الذى يكسو عروق الخشب الطويلة المنحدرة قليلا لأسفل لتساعد على تدحرج مياه الأمطار لتلقى بها بعيدا عن جدران البيت ..

نزلت نائلة ووالدها الشيخ ابو عمر وقد سبقهما السايس والخادم ثم مضى الشيخ وبنته من خلفه وصعدا سلمًا خشبيًا عريضًا من أربع درجات يتلوه شرفة صغيرة تحيط بمدخل البيت من الأمام، لها درابزين خشبى متوسط الارتفاع .. حيث خرج أحد عمال البيت ويدعى بدران على ضجيج صوت العربة وهى تقف أمام البيت، وما أن شاهد الضيوف حتى صاح .. مرحبا سيدى أبو عمر .. مرحبا

بكم، وعلى أثره خرج الشيخ مسعود مبتسما ومرحبا أهلا أهلا ثم تعانق الشيخان وتقدم صاحب الدار إلى نائلة وقال لها :

مرحبا بك يا بنيتى .. يا مرحبا بكم .. تفضلوا ..

ثم استدار ناحية مدخل البيت وتراجع قليلا مفسحًا الطريق للضيوف، فسار الشيخ أبو عمر ومن خلفه نائلة وعبرا باب البيت ومن خلفهما صاحب الدار والخادم .. ودخلا إلى باحةٍ واسعة مغطاة بحصير ريفى جميل ملون بألوان داكنة وزاهية، وعلى الأجناب وضعت آرائك خشبية ريفية التصميم أمامها مناضد متوسطة من الخشب وقد بسط فى وسطها مفارش من النسيج المجدول يدويا بصنعة بسيطة ولكنها جيدة الحبكة والمظهر .. ثم جلس الضيوف والشيخ مسعود ودعا بدران ليسقيهما شراب البرتقال ..

آخذ الشيخ مسعود القيسى يحملق فى عينى نائلة وهو يبتسم، ولاحظت هى ذلك فابتسمت ابتسامة خجولة أضاءت وجنتيها بحمرة خفيفة ونظرت إلى أسفل وتحاشت النظر له .. فلاحقها قائلا :

ـ أراك وكأنك تبحثين عن شىء تفتقديه .. ! فقالت نائلة من فورها: لا .. لا شىء فقال لها يداعبها: ولا سالم .. فسكتت ولم تنطق بشىء، فتدخل فى الحديث والدها فقال:

ـ بالتأكيد فلم يبق إلا أسابيع قليلة ويلقى كل حبيب حبيبه .. فزادتها كلمات أبيها خجلا وارتباكا .. وراحت تتلفت برقة ولم تدر كيف تسكتهما لتزيل الحرج، ولم ينقذها إلا دخول بدران حاملا طس نحاسى كبير به أكواب من شراب البرتقال وتقدم إلى الضيوف ثم إلى صاحب الدار وعاد إلى الداخل.. ثم تحدث أبو عمر فقال للشيخ مسعود:

ـ جئتك اليوم على موعدنا وتحينت الفرصة لآخذ معى نائلة عندما علمت أن سالم موجود معك اليوم فهى تسأل عنه كثيرا.. ولم تره منذ أسبوعين لانشغاله بموسم الحصاد، وهذا شىء طبيعى لنا يا معشر الرجال، ولكن

بالنسبة للمحبين، ففراق يوم واحد مثل مائة يوم .. وضحك الشيخان، وازداد ارتباك نائلة من جرأة أبيها فى الحديث عنها، وتمنت لو أن الأرض ابتلعتها.. وتمتمت بكلمات قليلة مبهمة مرتبكة .. فقال له الشيخ مسعود:

- صدقت والله يا أبا عمر، فسالم يشرف على قطف الثمار ووضعها فى السلال وما هى إلا دقائق قليلة ويهبط علينا، فلابد أنه قد رأى العربة وسمع ضجيجها .. وقطع الحديث دخول سالم مسرعا، فضج الجميع بالضحك .. وتورد وجه نائلة مرة أخرى .. فقال لهم سالم ..

- أهلا ومرحبا بكم .. ولكن علام تضحكون فور أن رأيتمونى.. ؟ .. فحكى له أبوه ما كان يقوله قبل دخوله مباشرة وقد صدق حدسه .. فاستمر الجميع فى الضحك وتناولوا أطراف الحديث الودى لدقائق .. ثم قطعها الشيخ مسعود وقال موجها حديثه إلى سالم :

- اذهب بعروسك لتشاهد المزارعين وهم يجنون الفاكهة، فلدى حديث مع حماك فاتركانا وشأننا .. فقامت نائلة مستئذنة من والدها فقال لهما :

- خذا العربة والخادم معكما ليستمتعا هو والسائس بالحصاد والغناء .. ثم خرج سالم وخطيبته نائلة من خلفه .. ثم استدار أبو عمر وقال لمسعود :

- جئتك اليوم لأعطيك المال اللازم كمربوط اتفاقنا على توريد البرتقال والنارج .. ومع بداية الشتاء فى أول ديسمبر أعطيك مربوط القراصيا والتفاح معا ثم أخرج من داخل جلبابه كيسين من الدنانير الذهبية ووضعها على المنضدة أمام مسعود .. فقال له :

- ولم العجلة أيها الرجل الطيب .. ؟ .. فقال له أبو عمر :

- لا عجلة ولا استعجال ولكنى أريد أن أسدد ما يجب على سداده والمال موجود والحمد لله .. فتمتم معه مسعود قائلا .. الحمد لله وبارك الله لك فى بضاعتك .. ثم قاطعه أبو عمر وقال :

- ما هى إلا أسابيع قليلة وتدفع لى أنت مهر نائلة وهدايا زواجها فاستعد ياصاحبى .. وضحكا معا وتناولا أطراف الحديث الودى ..

نـزل سـالم ونـائلـة من الـعربـة التى أوصلـتهـمـا إلى حيث يقف المزارعون وهم يـغـنـون أنـاشـيـد وأزجـال الـحـصـاد المعروفـة .. وابـتـعـدا قـلـيـلا وسـارا تحت ظلال الأشجار العالية المزروعة على جانبى الدروب الترابية للبستان ونظر إليها وقال :

ـ كم كنت مشتاقا إليك وأتمنى أن ألقاك يا نائلة .. فقالت له بدلال ورقة :

ـ إسبوعـان كـامـلان لا تـأتـى إلى بيتنا لتسأل عنى .. وتقول إنك مشتاق إلى .. مـا أقسى قـلبك .. أنـنى كنت أريد أن أطـمـئن عـليك فجئت لـكى أراك .. ولأنك والحمد لله على أفضل حال، فإننى أعدك ألا آتى إليك مرة أخرى لأراك .. فقال لها :

ـ وهل تهون عليك نفسى فتحرميها منك.

ـ لقد هـنت أنا عليك .. قالتها وقد أدارت له ظهرهـا .. فأمسك بخفة بذراعها وحـاول أن يعيدهـا ليرى وجهها فـأبت بدلال .. فـأمسك بيدهـا فقبضتها .. وراح يفتح أصـابـعهـا فـأرختهـا له فـأدارهـا وقـد طـاوعته ومـا زالت لا تـنـظـر إلى وجهه، فرفع يدهـا وقبلهـا برقة .. فـنظرت إلى عينيه تتفقد صـدق مشاعره ورفع عيناه ونظر إلى عينيها السـوداوين الواسعتين وقـد غطتهمـا مسحة دموع تعلقت داخلها .. فقال لها بصوت رقيق:

ـ لن أغيب عنك يا حبيبتى مهما كان السبب .. لن أغيب عنك ..

ـ أتعدنى بذلك ..؟

ـ أعدك بذلك.. ؟ ... قالهـا وقـد أمسك بيدهـا، ومـال بـرأسه وقبَل يدهـا قـبلة خفيفـة، ولـكنهـا مستعرة .. فنظرت له نظرة عتـاب وتـأنيب .. فقال لها معتذراً بأبيات من الشعر الذى يعشق قراءته وحفظه..

سَأقنعُ مِـنكَ بلحْظِ البَصرْ ... وأرضَى بتَسليمِك المختَصَرْ
ولا أتخـطى الـتـمـاسَ المُـنَى ... ولا أتعدَّى اختلاسَ النظرْ
أصونُك مِن لحظات الظنون ... وأعْليكِ عَن خطرَاتِ الفكرْ

---

(١) من قصيدة قالها الشاعر الشهير المعاصر لأحداث القصة أبو الوليد بن زيدون لحبيبته ولادة بنت الأمير المستكفى.

وأحذَرُ من لحظاتِ الرقيبِ   وقد يُستدام الهَوَى بالحَذَرْ (١)

فابتسمت وتشابكت يداهما قليلا ثم أفاقا على صوت الخادم المرافق لها يدعوها للعودة حيث أرسل أبوها الخادم بدران ليعجل بعودتها فركبا معا عائدين إلى أبيها .. وفى الدار حيا الشيخ مسعود وابنه سالم الضيوف ورافقوهم إلى العربة فركبوها وانطلقوا عائدين إلى بالنسيه

عاش.. «السيد»

بدا شبح فارس قشتالى على قمة التل الموحش بقامة طويلة وقد كسى وجهه شارب عريض ولحية مرسلة كثيفة، وقد اكتست الأرض بصنوف من العشب الخشن الملئ بالصخور والحجارة، بينما عباءته الحريرية الزرقاء الداكنة تتطاير من خلفه ..

وقف سيدى [1] القنبيطور [2] (رودريجو) أمام الخيمة القرمزية الفخمة المزدانة بنقوش وطرز لرسوم وأحرف لأبيات من الشعر العربى .. وراحت أصابعه تعبث بلحيته، بينما كان يرتدى لباس المحارب، حيث تدلى من خصره سيفه الطويل الصلد ذو المقبض الصليبى، وأخذ يتأمل حركة الجنود التابعين له، وهم

---

١ - منذ سنوات طويلة مضت خدم رودريجو لصالح الملك الراحل المقتدر بالله ملك سرقسطة مقابل أجر هو ومن معه من فرسان .. كان يناديه المسلمون البربر والمغاربة بلفظ سيدى رودريجو.. وهو يطلق على الأشخاص ذوى المكانة العالية.. وقد استحب رودريجو هذا اللقب وفضله عما سواه.. وسار هو اللقب الذى يناديه به الكافة بعد مدة وجيزة .. وكان الأسبان ينطقونه" Mon Cid بمعنى سيدى، ومع مرور الوقت استغنوا عن لفظ Mon وبقيت كلمة Cid أى السيد.. من الملحمة الشعرية «ملحمة السيد» للدكتور / الطاهر أحمد مكى .

٢ - وهو لقب قديم سابق على لقب سيدى أطلق على رودريجو حينما عمل قائدا للجيش الملكى وأتيحت له الفرصة سريعا كى يدافع عن المصالح القشتالية عند حدوث الخلاف بين مملكتى نافار وقشتالة، وكان الطريق إلى إنهائه إما تحاكم قضائى ، أو مبارزة حربية ، طبقا لتقاليد العصر، فدخل رودريجو ممثلا للجيش القشتالى ضد خمينو جرثيس ممثل جيش نافار ، وانتصر رودريجو عليه فأطلق عليه لقب القنبيطور .. ومعناه الذى انتصر فى المعركة .. كتاب «ملحمة السيد» ص ـ١٢١ ـ للدكتور الطاهر أحمد مكى ـ دار المعارف طبعة ١٩٩٥ .

ينصبون الخيام الخاصة بهم حيث بدأوا فى تشييد معسكرهم الجديد على التلال القريبة من موقع خيمته ..

كان الوقت قد اقترب من الغروب وحجبت السحب الرمادية أشعة الشمس فلم تلامس الأرض ولكنها اكتفت بإضاءة هذه السحب بلون برتقالى ممزوج بخيوط سوداء متحركة متراكمة ترسم حدود السحاب بطول السماء وعرضها، وتنذر بعاصفة قادمة فى طيات هذه السحب ..

كان الجنود يعملون بهمة قبل أن يتلاشى الضوء المتبقى من أشعة الشمس وهى تميل إلى الغروب .. وتابع سيدى صنوف جنده وقد تجمع كل صنف منهم مع بعضهم البعض .. تكاد عيناه تتعرف عليهم .. نعم هؤلاء من رجال قشتالة، وهؤلاء على التل الآخر من قلعة أيوب ومدينة سالم، وهؤلاء من ليون وجليقيه .. أما هؤلاء فهم خليط من العرب والبربر من بلاد سرقسطة وطليطلة منهم المسلم ومنهم المسيحى .. وقد فضلوا إقامة خيامهم أسفل التلال بالقرب من مجرى الوادى فهذا سلوهم، حب الزرع والقرب من مجرى النهر ..

هذا خليط عجيب لصنوفٍ من الجند لا تجمعهم بقائدهم إلا حب المغامرة والبحث عن الثروة.. ولكن ما هى قضيتهم..؟ وما هو هدفهم..؟ ولماذا أتوا إلى هنا..؟

كان القدر رحيما حين أمهلهم وقتا يسيرا حيث فرغوا من نصب خيامهم بعد الغروب بدقائق، وهطلت الأمطار بغزارة كبيرة صاحبة معها كرات الثلج البيضاء معلنة بداية فصل الشتاء الصارم فى هذا المكان العالى بالقرب من مدينة مربيطر[1] Murbiter التاريخية إلى الشمال من مدينة بالنسية عاصمة المملكة ..

---

١ - مربيطر : مدينة تاريخية معناها «الأسوار العالية» يسميها الأسبان ساقنتو Sagonto وهى تقع إلى الشمال من مدينة بالنسية وعلى مسافة نحو ٢٥ كيلو متر منها ، والمدينة تقع بجوار هضبة عالية مشيد عليها قلعة ذات أبراج بها حامية عسكرية تابعة لحاكم المدينة .. وبها آثار لمسرح رومانى مشيد فى المسافة بين المدينة والقلعة ، والقلعة الحالية شيدت أيضا على أنقاض قلعة رومانية أثرية ، كانت قد تصدت لقوات الفاتح الكبير هانيبال قائد جيش القرطاجيين وصمدت أمامه لمدة ثمانية أشهر حتى نجح فى اختراق حصونها.

بعد أن تم توزيع نوبات الحراسة فى كل أرجاء المعسكر دخل سيدى القنبيطور الخيمة بعد أن أوقد الخدم النار للتدفئة، وأمضى الليل مع كبار قادته يتسامرون ويحتسون الخمر.. استعدادا للقاء الغد..!

قبل انتصاف النهار بنحو ساعتين خرج سيدى القنبيطور ومعه فرقة من الفرسان المدججين بالسلاح، وعبروا حدود المعسكر قاصدين مشارف مدينة مربيطر على مسافة نحو كيلو مترين من موقع المعسكر، حيث كان القنبيطور فى الأمام وعن يمينه ويساره اثنان من معاونيه وباقى الفرسان تتبعهم من خلفهم .. وتحرك الركب على مهل ولكن دون إبطاء ..

سار سيدى بفرقته متخللا التباب عبر الدروب المكسوة بالعشب الأخضر إلى أن اقترب الجميع من خيمة كبيرة زرقاء قاتمة تبدو عليها الفخامة محاطة بالجند فى لباس التشريفة، حيث مد السجاد أمام مدخل الخيمة ووقف الحرس يمين ويسار المدخل ..

ترجل سيدى ومعه مساعداه وساروا متوجهين إلى مدخل الخيمة حيث كان ينتظرهم خارجها رجل تبدو من هيئته وملامحه الوقار والهيبة .. واصطحبهم إلى الداخل حيث أعدت بعض الأرائك جيدة التنجيد، وأمام كل منها منضدة صغيرة عليها قصعة دائرية بها بعض الفاكهة الطازجة من البرتقال والتفاح والكرز، وعلى كرسى عريض فخم جلس الأمير أبو عيسى بن لوبون حاكم مربيطر، فقام من مجلسه وحيا القنبيطور ورفيقيه بحفاوة حيث أجلسه على الأريكة التى بجانبه مباشرة ثم قال له :

ـ لعل سفركم كان موفقا .. فقال القنبيطور

ـ نعم كان موفقا جدا، لم أتعود الفشل فيما أسعى إليه

ـ لقد وصلتنى رسالتك، وما جاء فيها يصعب تحقيقه

ـ مولاى الأمير أنت وإن أنفقت مالا قد يبدو لك كثيرًا فإنك تؤمن بلادك شر الأعداء الذين قد يطمعون فيها، وكما تعلم فإن المدينة والقرى المحيطة بها تكثر فيها الغلال والأشجار المثمرة والنباتات النادرة والمراعى الواسعة

والماشية، وغيرها من الخيرات الكثيرة .. وخير أن تصونها من أن تفقدها على يد أعداء لك طامعين فى ثرائك فيسلبوها منك ومن أهلها ..

ـ لقد عشنا هنا عقوداً من الزمان لا نعادى أحدا أو نطمع فيه، ولم يعادينا أحد أو يطمع فينا .. وعلى كل حال فإن مبلغ ثلاثة آلاف دينار تكفى وتزيد..

ابتسم القنبيطور وقال :

ـ حسنا لن أشق عليك .. فلتكن أربعة آلاف دينار بدلا من ستة آلاف .. وهذا.. فقاطعه أبو عيسى قائلا

ـ بل ثلاثة آلاف هى كل ما أستطيع فلا تشق على ..

سكت سيدى القنبيطور قليلا ثم قال .. حسنا فلتكن أنت الرابح فى هذا العهد الذى بينى وبينك

ـ بل أنت الذى تقبض المال .. ومن يحصل على المال يبقى دائما هو الرابح

ـ اعلم يا مولاى أن العهد الذى بينى وبينك يحتم على نفقات باهظة لحماية أراضيك، ولدى سبعة آلاف مقاتل منهم ثلاثة آلاف فارس أدفع لهم جميعا رواتب دائمة بالإضافة إلى المأكل والمشرب، انظر إلى خيامهم إنها تغطى التلال القريبة..

ـ نعم أدرك هذا جيدا .. كما أدرك أنك تتحصل على الكثير من الأموال من المدن والبلدات القريبة .. فها هى «أشكرب»، وكذا المنارة القريبتان وقد علمت بأنك عائد منهما بعد أن حصلت على أموال وفيرة .. ومن نفس موقعك هنا تحقق لهما الحماية .. ولن أتحدث عن الممالك والإمارات الكبيرة .. وال .. هنا وقف القنبيطور مقاطعا يريد أن ينصرف حتى لا يواصل أبو عيسى حديثه عما يحصل عليه من أموال .. فقال :

ـ حسنا .. حسنا لا تنس أن هذا الجيش كل فرد فيه يعمل معنا من أجل أن يسد رمق عائلة جائعة تبقى منتظرة أن يعود عائلها بما يسد حاجتها، وربما لا يعود أبدا .. فأجابه أبو عيسى :

ـ أجل .. أجل ..

ثم تحدثا حديثا وديا خرج بعده سيدى وصاحباه من الخيمة متوجهين إلى الفرسان المنتظرين بعيدا ثم مضوا جميعا عائدين إلى المعسكر ..

كان القنبيطور قائدا لجيش جرار بدأ أولا بثلاثمائة فارس حينما خرج مطرودا ومنفيا من مملكة قشتالة بناء على طلب الملك الفونسو حينما وشى به بعض الكونتات المقربين من الملك وأوغروا صدره بأن القنبيطور (رودريجو) قد استولى على أموال وهدايا كان قد بعثها معه الملك المعتمد هدية للملك ألفونسو، وأن السيد اكتفى بتسليم الفونسو أموال الجزية المتفق عليها دون أن يسلمه الهدايا(١) ..

كما أن الملك ألفونسو لن ينسى أبدا أن رودريجو هذا كان نائبا لأخيه الأكبر الملك الراحل سانشو وحارب فى صفوفه ضده حينما وقعت الحرب بينهما بعد وفاة أبيهما الملك فرناندو (٢) .

وصل سيدى القنبيطور ورفاقه إلى المعسكر، وسرعان ما طلب من قادة السرايا جمع الجنود والفرسان فى منطقة الوادى أسفل التل المقام عليه خيمته ..

بعد العصر بقليل وقف سيدى على الربوة العاليه وعلى يمينه وإلى الخلف قليلا ابن أخيه الفارس القشتالى بدرو برمودث وعلى يساره بمحازاة بدرو وقف الفارس المسلم ابن غلبون صاحب وقائد حصن مولينا ... وتحدث سيدى رودريجو إلى الجند والفرسان فقال :

---

(١) فى عام ١٠٧٩ ميلادية (٤٧٢ هجرية) أرسل الملك الفونسو القائد رودريجو (القنبيطور) رسولا إلى الملك المعتمد ليحصل على الجزية السنوية المفروضة على مملكة أشبيلية ، وفى هذه الأثناء وقعت حرب بين مملكة غرناطة ومملكة أشبيلية فاستعان الملك المعتمد بقوة الفرسان المرافقة للقائد رودريجو (القمبيطور) وقاتل رودريجو تحت قيادة قوات الملك المعتمد وذلك طبقا لاتفاقية الدفاع المبرمة بين الفونسو والمعتمد والتى على أساسها يتقاضى الفونسو مبلغ الجزية سنويا مقابل الدفاع عن مصالح الملك المعتمد .. فلما أنتصرت قوات الملك المعتمد، فإنه قد أجزل العطاء والهدايا لـ رودريجو فلما عاد إلى قشتاله أتهم بعد فترة بأنه قد استولى على الهدايا المرسلة إلى الملك الفونسو وتم نفيه من مملكة قشتالة لهذا السبب ولأسباب أخرى كثيرة ..

(٢) عندما توفى الأمبراطور فرناندو حاكم ممالك قشتالة وليون وجليقيه قسم قبل وفاته الإمبراطورية على أبنائه الثلاثة، فاختص الابن الأكبر الملك سانشو بمملكة قشتالة والابن الأوسط الفونسو بمملكة ليون والأصغر بمملكة جليقيه.. وبعد وفاته رفض سانشو هذا التقسيم وأعتبره خروجًا عن التقاليد المتعارف عليها بتولى الأبن الأكبر الحكم وحارب أخاه الفونسو وإنتصر عليه ثم وضعه فى السجن ، حيث تمكن الفونسو بعد ذلك من الفرار من السجن وهرب إلى مملكة طليطلة المسلمة، وبقى هناك حتى وفاة أخيه سانشو مقتولا، حيث تولى الحكم من بعده وقام الفونسو بنفى الأخ الأصغر إلى خارج البلاد حيث رحل إلى مملكة بطليوس المسلمة..

أيها القادة والجنود الأعزاء.. لقد خرجتم من دياركم وقراكم وتركتم أعمالكم ومصالحكم وسلمتم لى مصائركم ووضعتم أرواحكم بين يدى ورأيت فيكم الحب والتفانى والإخلاص .. ماذا تظنون بى!! .. فورب موسى وعيسى ومحمد لأضعن حياتى وروحى فداء لكل جندى فيكم، وليكن مصيرى هو مصيركم ودمى فداء لدمائكم ..

صاح الجنود بصوت عال جهور .. عاش السيد القنبيطور .. عاش السيد القنبيطور .. عاش السيد القنبيطور

ثم واصل حديثه وقال :

الجميع الآن صاروا يتحسبون منا، ومن كان يعادينا بالأمس سعى إلى رضانا اليوم ومن جهل قوتنا صار يخشى سطوتنا ..

لقد وهبنا الله المال فسار الجميع يغدقون علينا ويطلبون عوننا وحمايتنا ..

مالى هو مالكم وكل ما أملك من غنائم أنتم شركائى فيه ..

لقد تجولنا فى بلاد عديدة منذ ستة أشهر ونحن نرحل من واد لنحط فى آخر ومن تل إلى تل ومن درب إلى درب لا نهدأ ولا نكل ولذلك فإن الله دائما ما يعطينا ..

جمعتكم اليوم لأجدد عهدى معكم .. مصيرنا واحد وطريقنا طويل لكن طريقنا هو طريق المجد والبطولة ..

(الجنود تصيح وتضرب الدروع بمقابض السيوف فى صوت واحد مدو.. المجد للقنبيطور .. المجد للقنبيطور .. المجد للقنبيطور..)

جمعتكم اليوم لأعطيكم حقوقكم .. سوف توزع الأموال عليكم كل على قدر النصاب المحدد له فهنيئا لكم .. هنيئا لكم ..

(الجميع يصيح فى نشوة وفرح .. المجد للقنبيطور .. المجد للقنبيطور .. المجد للقنبيطور..)

ثم رفع لهم يده محييا لهم ثم استدار عائدا إلى خيمته ..

فى المساء أوقدت النيران وعلقت عليها الذبائح وراح الجميع يأكلون اللحم المشوى على الحطب، ويحتسون الخمر بكثرة، فاليوم هو يوم الاحتفال بالغنائم التى اكتسبوها خلال الأشهر الماضية وراح كل منهم يمنى نفسه بالثراء والغنى بعد الحرمان والفقر والجوع .. فلقد كان غالبية المقاتلين فى حقيقة الأمر من الفقراء المعدمين فى بلادهم، دفعهم الحرمان والجوع والجشع إلى الانضمام لجيش السيد ليصبح بحق جيشا رهيبا من المرتزقة القتلة ..

فى مهب الريح

أخفى جمال مدينة بالنسية وهدوء أجوائها ما اكتنف المدينة فى الواقع من أحوال مضطربة .. فلم تكن إلا مثل النار تحت الرماد تنتظر هبوب الريح ليرتفع لهيبها لتلسع كل من اقترب منها أو أحاط بها ..

لقد عم الناس السخط بعد أن تبدلت أحوالهم، فبعد فترات الاستقرار التى عاشتها البلاد لحقبة طويلة من الزمان تغير الحال وبدأ التشاحن بين جموع الشعب من جهة وجند الحاكم القادر بالله ومن يدعمه من الجند الأجانب من جهة أخرى..

لم يتعكر صفو الحياة من قبل إلا فى فترات تغيير أمرائها بصرف النظر عن أحقية أى منهم بالحكم أو جدارته.. فكان الصراع على السلطة لا يلبس أن يهدأ وتعود المملكة إلى الهدوء والاستقرار من جديد..

لقد كان كل ما يهم الناس أكثر من أى شىء هو الحال التى عليها حياتهم من سهولة العيش وتوافر الأقوات وتجانس العلاقات التى تجمع الناس بعضهم ببعض فى صفاء اجتماعى يحسدهم عليه الكثيرون حيث لم يكن بينهم أى غرباء..

مضت خمسة أعوام إلا حفنة أشهر منذ دخل الملك القادر حفيد الملك المأمون إلى المدينة (فبراير ١٠٨٦ ميلادية) مدعما بفرقة من القوات القشتالية للملك

ألفونسو لتساعده على تدعيم الحكم فى المملكة [1]، حيث كان الشعب كارها له، عالما بضعفه وتخاذله منذ كان حاكما لمملكة طليطلة إلى أن خلع منها ..

أدرك الشعب أن وجود القادر على رأس السلطة فى المملكة سوف يكون بداية لسقوطها فى براثن الملك القشتالى الفونسو، فكما خلعه من الحكم فى طليطلة بعد حصارها، فهاهو قد دفع به إلى سلطة الحكم فى مملكة بالنسيه بعد وفاة أميرها عبد العزيز ليكون السبيل إلى تغلغله مستقبلا إلى قلب السلطة، ثم التضييق على الملك الضعيف بكل السبل فتسقط فى براثنه دون قتال أو حرب[2]..

لاحظ الناس حجم التغير الكبير فى سلوك الحامية الأجنبية التابعة للملك القادر والموجود جزء منها فى معسكر خارج أسوار المدينة، والجزء الآخر يقيم فى ثكنة عسكرية تابعة لقصر الحكم ..

١ـ كان الملك الفونسو لاجئا إلى مملكة طليطلة المسلمة فى عهد الملك المأمون بن ذى النون (جد الملك القادر) مطاردا من أخيه الملك سانشو بعد أن انتصر عليه فى صراعهما على حكم ممالك قشتالة وليون .. وبعد مقتل سانشو فجأة عاد الفونسو إلى قشتالة وتولى السلطة فيها وكان قد عاهد الملك المأمون على حسن الجوار وعدم الاعتداء على بلاده .. فلما مات الملك المأمون اعتبر نفسه فى حل مما عاهد عليه الملك المأمون واستولى على طليطلة بالمكر والخديعة من الملك الضعيف القادر، وحاول أن يسترضيه بأن وعده بأن يساعده على استرجاع الحكم فى مملكة بالنسية مرة أخرى بعد أن خرج عن طاعته أميرها عبد العزيز لمعرفته بضعف الملك القادر .. فأرسل الفونسو أحد قادته فى فرقة من الفرسان ليساعده على دخول المدينة ، وتم لهما ذلك فى فبراير ١٠٨٦ميلادية ..

٢ـ سقطت مدينة طليطلة بدون حرب بعد أن حاصرها الفونسو سنين طويلة بدأت بمنع وصول أى إمدادات إليها إلا مقابل أموال تدفع إليه، ثم حصارها إقتصاديا ثم الحصار الكامل بعدم السماح لأحد بالخروج من المدينة أو الدخول إليها .. بعد أن طال الحصار دون أن تأتى أى قوات لنجدتها اتفق سادة المدينة على تسليمها سلما مقابل أن يأمن الجميع على ممتلكاتهم وأموالهم مع حرية العقيدة وعدم المساس بدور العبادة والمساجد وكان ذلك فى ٦ مايو ١٠٨٥ ميلادية (٤٧٨هجرية) .. وهو ما التزم به الملك الفونسو السادس لفترة قليلة ثم تراجع عن عهوده استولى على الجامع الكبير وحوله إلى كنيسة.. وخضعت للحكم المسيحى المطلق ـ دولة الإسلام فى الأندلس ـ د/محمد عبد الله عنان ـ ج٣ ص ـ ٩٤ هيئة الكتاب المصرية.

فقد عاهد قائد الحامية الأجنبية ألبيرهانيس الملك القادر على عدم تواجد أى من جنود الحامية فى أى شارع أو زقاق أو حى من الأحياء فى كل مدينة بالنسيه وذلك حفاظا على مشاعر الناس، وحتى لا تثور ثائرتهم ويعتقدوا يقينا أن هذه الحامية ليست إلا مقدمة لقوات أخرى سوف تأتى لتكرث التواجد الأجنبى بالمدينة تمهيدا لضمها إلى الملك الفونسو ..

فى البداية التزم القائد بذلك هو وجنوده، ولكن مع مرور الأشهر والسنوات بدأ الجنود الأجانب فى التجوال بشوارع المدينة، وتقدم الأهالى بشكاوى إلى الملك عن طريق رجال الدولة من قضاة أو أشراف أو علماء، فكان الملك القادر يطلب من القائد الأجنبى أو من يمثله إن كان غائبا، أن يلزم الجنود حدودهم ويمتنعوا عن السير فى طرقات المدينة أو النزول إلى الأسواق والاختلاط بالرجال والنساء، حتى لا تحدث مشاكل قد لا يحمد عقباها ..

أما فى الآونة الأخيرة فقد استمر نزول الجنود الأجانب إلى الطرقات والأسواق مستغلين ما تمر به البلاد من مشكلات سياسية وأطماع عديدة سواء كانت أجنبية أو من الجيران المسلمين القريبين [1].. مما شتت جهود الملك القادر ولم يعد قادرا على السيطرة على الأمور فى أحيان كثيرة كالتى يغيب فيها قائد الحامية عن التواجد بالمملكة لأى طارئ يحدث أو حينما يستدعيه الملك الفونسو لأمر هام كما حدث أن استدعاه خلال فترة حرب الزلاقة ..

وسرعان ما اشتعلت المشاحنات بين سكان المدينة والجنود الأجانب، تطورت فى أحيان كثيرة إلى تناحر دموى، ولكن سرعان ما كان يجرى التحقيق فى كل جانب، ويتم تسوية الأمور بطريقة أو بأخرى ..

---

١ ـ كانت مملكة بالنسيه تشطر أراضى إمارة لاردة عن مملكة دانيه والجزائر وهما تابعتان للملك المنذر ورثهما عن أبيه وقد اختصه بهما ، بينما اختص ابنه الأكبر المستعين بمملكة سرقسطة الكبيرة .. ونظرا لكون بالنسية تشطر البلاد التابعة للملك المنذر فإنه قد تحين فترة انشغال الملك الفونسو بحرب الزلاقة مع المرابطين وجيوش الأندلس (أكتوبر ١٠٨٦) وأعد حملة للاستيلاء على مملكة بالنسيه.. مما دفع الملك القادر بالاستعانة بالملك المستعين لحمايته وكذا استعان بقوات سيدى رودريجو المختلطة، وطمع جميعهم فى الاستيلاء على بالنسيه ، ولم يبد أى منهم نيته إلى الآخر حتى ولو كان حليفه .

مضت السنوات الأخيرة عصيبة على الملك القادر حاكم بالنسيه فقد فرض الملك المنذر حاكم مملكة دانية والجزائر، وكذا إمارة لاردة الحصار على المدينة للاستيلاء عليها سنة ١٠٨٨ميلادية (٤٨١ هجرية) .. وقد فضل الكثير من شعب بالنسيه أن تكون المملكة تحت حكم ملك قوى من أن تكون تحت حكم ملك ضعيف..

وعلى ذلك فما أن علمت الجماهير بتواجد الملك المنذر خارج أسوار المدينة حتى دب الفرح فى أرجائها وتم الاتصال به ووعدوه بالمساعدة فى دخول المدينة..

وبدأ القادر فى قبول الأمر الواقع والرضوخ إلى الضغوط وهم فى الاستسلام وتسليم المدينة .. إلا أن عبد الرحمن بن طاهر (الحاكم السابق لإمارة مرسيه) وهو من أشراف المدينة الحاليين والمقربين من الملك القادر .. وقف إلى جانبه وطلب منه أن يصبر حتى تأتى قوات الملك المستعين لتفك الحصار عن المدينة ..

لبى الملك المستعين نداء الاستغاثة التى بعثها إليه الملك القادر ووصلت قواته مدعمة بقوات من المرتزقة ونجحت فى فك الحصار عن المدينة ..

تلى ذلك مساومات بين القادر من جهة والمستعين من جهة ليعاود أدراجه من حيث أتى .. إلا أن المستعين ماطل ورغب فى الاستيلاء على المدينة، فاضطر القادر للتفاوض سرا مع قائد جيش المرتزقة الموجود مع المستعين ليتسلم أموالا كثيرة مقابل الانسحاب من جيش المستعين ..

ولأن المال هو إله المرتزقة فقد قبل سيدى رودريجو بالانسحاب من مهمة دخول المدينة مبررا ذلك للملك المستعين، بخشيته من أن ذلك قد يغضب الملك الفونسو، الذى يضع الملك القادر تحت حمايته .. ولم يستطع الملك المستعين إقناع رودريجو بدخول المدينة معه فلما يأس من ذلك .. عاد بعد فترة إلى بلاده ..

بقى جيش المرتزقة بمنطقة الكودية وهى إلى الشمال الغربى من المدينة، وبدأ قائده يساوم القادر على مبالغ تدفع له بصفة دورية كجزية مقابل حماية المدينة من أطماع الملوك والأمراء فيها، ووافقه القادر على ذلك مع السماح له وقواته أن يقيموا بالقرب من ضاحية الكدية كمكان تعسكر فيه قواته من آن لآخر حينما

يأتى بقواته لمهمة الحماية .. ثم رحل جيش القنبيطور إلى الشمال حيث مدن «المنارة» و «أشكرب» و «مربيطر» ..

وجد القادر نفسه معاهدا الملك الفونسو على دفع الجزية مقابل حمايته.. وفى نفس الوقت يدفع جزية أخرى إلى قائد جيش المرتزقة.. ويهادن قائد الحامية الموجود بثكنة القصر خوفا على حياته .. وفى الوقت نفسه عليه أن يرضى الجماهير الغاضبة عليه لسماحه بتدخل الأجانب فى شئون البلاد، وما قد يسببه ذلك من مخاطر كبيرة عليها مستقبلا، وأصبح مصير المدينة فى مهب الريح... وما يوم سقوط طليطلة ببعيد..

نفوس مشتعلة

وصلت إلى الملك القادر عريضة مكتوبة من كبار رجال الدولة يطلبون منه أن يلقاهم على وجه العجلة ليناقشوا معه الأوضاع الخطيرة الناجمة عن استهتار الجنود الأجانب بما هو متفق عليه من ضرورة التزامهم بعدم السير فى طرقات المدينة أو دخول أسواقها .. وهو ما لم يلتزموا به، وأدى ذلك إلى حدوث مشاكل كثيرة مع أهل المدينة، حيث اعتبروه انتهاكًا لحرمة المدينة وفيها الفتيات والنساء والجوارى..

وافق الملك القادر على اللقاء وتأهب سادة المدينة ليجتمعوا معه فى قصره الفاخر المطل على نهر طورية فى الضاحية الشمالية الشرقية والمسماة «بلا نويه» أى المدينة الجديدة ..

تجمع سادة المدينة فى الساحة الواسعة أمام المسجد الجامع حيث أعدت لهم عربات خشبية مجهزة بالأرائك المريحة والمظلات المزركشة بألوان زاهية تجرها خيول عربية ملكية ألبست سروج مطهمة بالحلى الفضية والمذهبة وزينت نواصيها السعفاء [1] بالأشرطة الملونة المعقودة وقد تدلت منها حلقات فضية ونحاسية صغيرة كانت تعطى صليلاً محببا ..

---

١ ـ الأسعف من الخيل هو الأضيب الناصية .. والأشيب الناصية ، وناصية سعفاء ما دامت فيها لون غير الأبيض فإذا ابيضت كلها فهو الأصْبَعُ ـ معجم «لسان العرب».

جلس فى العربة الأمامية الأمير عبد الرحمن بن طاهر، وهو من أشراف المدينة وإلى جواره جلس القاضى أبو الوليد الوقشى، وأمامهما على الأريكة المقابلة جلس ابن الفرج ساعد الملك وحليفه القديم، وبجواره جلس ابن عبدوس وهو من بطانة الملك ومقرب من رجال قشتاله سيدى القنبيطور وألبير هانيس قائد الحامية القشتالية، والأخيران ابن الفرج، ابن عبدوس قدما من القصر الملكى ليصطحبوا سادة المدينة معهم ..

بينما جلس فى العربة الخلفية القاضى أبو أحمد بن جعفر بن عبد الله وكنيته ابن جحاف وهو قاضى القضاة فى المملكة، وجلس بجواره صديقه الحميم الأديب والشاعر أحمد بن عبد الولى البتى .. وعلى الأريكة المقابلة جلس العالم الجليل أبو بكر حمدون بن محمد والمعروف بابن المعلم وهو إمام المسجد الجامع ومتولى الصلاة والخطبة فيه .. وبجواره جلس ابن أبو عامر التاكرنى من أعيان المدينة ..

ولأن الطيور على أشكالها تقع .. فلقد كانت الصحبة فى كل عربة تعبر عما جمعها فى الأهواء والميول .. لم يختر أى منهم مكانه ولا العربة التى يركبها، ولكنها الأقدار ترمى الناس بما ألفته عقولهم وما تهواه أنفسهم ..

فى العربة الأولى تجمع عبد الرحمن بن طاهر وهو بمقام الأب للملك الشاب القادر بالله، وكان صديقا لجده الملك المأمون حاكم طليطلة الراحل، وقد هرب من السجن الذى أودعه فيه ابن عمار تابع الملك المعتمد حينما انقلب عليه، فى مرسيه وعزله من الإمارة .. فقصد بالنسيه وعاش فيها معززا مكرما ..

وكان أبو الوليد الوقشى قاضيا وعالما فقيها فى أمور الشريعة والفقه وأحد قضاة المملكة المحترمين ذوى المكانة الرفيعة بين الناس، ولكنه بطبعه محايد لا يهوى المواجهة .. لذا فقد كان الملك القادر يقربه من مجلسه ويستمع إلى رأيه ..

أما أبو الفرج فهو الحاكم السابق لقلعة ومدينة كونكة التابعة لمملكة طليطلة، وقد لجأ إليها الملك القادر بعد أن عزل عن حكم طليطلة، وساعده أبو الفرج فى مداخلة أهل بالنسيه بعد وفاة حاكمها، وخدع سكان بالنسيه وأقنعهم بقبول الملك

القادر حاكما عليهم حتى يأمنوا غضب الملك ألفونسو .. فدخل القادر المدينة برفقة فرقة من جند قشتاله ..

وابن عبدوس هذا .. ما هو إلا رجلا مجهولا من أهل بالنسيه لا عراقة له ولا عشيرة ينتسب إليها، ولكنه الآن يتولى شئون المملكة المالية وجمع الضرائب [1] .. وهو من المقربين إلى الملك ويقوم بأعمال الوساطة بين الملك والقنبيطور، وغيرها من الأمور السرية الأخرى التى لا يعرفها إلا القادر والقنبيطور وابن عبدوس هذا..

أما فى العربة الخلفية فقد جلس أربعة من الرجال جمعتهم النخوة والمروءة والشرف كل منهم لا يرضى إلا بقول كلمة حق، حتى ولو كان ذلك فى مواجهة سلطان جائر ..

تحركت العربتان تجرهما الخيول وعبرت الشوارع مبتعدة عن قلب المدينة حيث المساكن والمساجد والحوانيت ومضت نحو الباب الشمالى لسور المدينة حيث كان عليه حراسة مشددة وفتحت الضلفة اليمنى للباب الخشبى العملاق وقد كسيت عروقه الخشبية الغليظة ببراويز عريضة من الحديد المصقول حول إطاره الخارجى، وقوائم سميكة من الحديد بفواصل لا تزيد عن بوصات قليلة ..

وقد ثبتت ضلفتا الباب بمزاليج سميكة، مثبتة على قائمين عريضين من الحديد الخالص على اليمين واليسار من كل ضلفة، حيث ثبت كل قائم بدوره فى الجدار بقضبان حديدية عرضية سميكة مرت مختفية مثبتة داخل البناء المشيد من الأحجار الصلدة القديمة لسور المدينة ..

---

١ - كان بن عبدوس منذ سنوات مضت يعمل كجندى تحت راية القوات المسلمة لجيش الملك المقتدر حاكم مملكة سرقسطة فى حروبها مع الأعداء من مملكة أرجون ونافار وبرشلونة ، وترقى فى الجيش حتى أصبح أحد المقربين إلى سيدى القنبيطور ، الذى كان فى هذا الوقت يقاتل أيضاً لصالح الملك المقتدر .. ثم عاد ابن عبدوس إلى بالنسيه ليعمل ضمن حاشية الملك .. وترقى وأصبح من المقربين للملك ويقوم بمهام الوساطة بين القادر بالله وسيدى القنبيطور .

عبر الركب سور المدينة العالى بأبوابه المهيبة المحيط بالقصر الملكى ويفصله بحدائقه عن باقى المدينة.. ومضت الخيول تتبختر برشاقة محدثة صليلا مرافقا لها أينما مضت، يزداد ويعلو صوته كلما انطلقت تعدو مسرعة، ويقل ويخفت كلما تهادت خطواتها وقلت سرعتها ..

امتدت حدائق القصر لمساحات واسعة تتخللها برك المياه المحاطه بالأحجار المزينة بالفسيفساء الملونة، واحتوت الحدائق على صنوف من الأشجار البديعة النادرة لم يكن لها مثيل بالأندلس قاطبة .. وهى نتاج عناية الملوك والأمراء القدامى بهذه الحدائق وما بذلوه من مال وجهد فى سبيل الحصول على هذه النباتات والأشجار والشجيرات الرائعة النادرة ..

نزل الجميع من العربتين وعبروا الباب ودخلوا إلى ردهة القصر الفخم .. وبرفقة رجل من الحاشية التابعين للملك ساروا خلفه إلى حيث قاعة كان يجلس فيها الملك وبعض أتباعه كانوا على وشك الانصراف .. فما أن دخل الجميع حتى انصرف أتباع الملك وتقدم الحاضرين عبد الرحمن بن طاهر، فاستقبله الملك القادر بحرارة، تلاه قاض القضاة ابن جحاف فحياه الملك، يليه القاضى أبو الوليد الوقشى حيث ضم الملك يد أبو الوليد بكلتا يديه معبرا عن وده له ثم حيا الباقين تباعا ..

جلس الجميع إلى يمين ويسار الملك الشاب على مقاعد وثيرة مطرزة بفخامة وكسيت جدران القاعة بستائر عالية غطت أجزاء من هذه الجدران بينما انحسرت فى أماكن أخرى لتظهر ملامح من جمال القاعة حيث وضعت قدور نحاسية بداخلها نباتات الظل ذات الأوراق الوارفة العريضة فى الفواصل بين الأعمدة الرخامية بتيجانها ذات النقوش الرومانية وبقواعدها المحلاة بالدوائر المذهبة ..

بينما مد أسفل المقاعد وبطول القاعة وعرضها بساط كبير ناعم، بألوان هادئة زاهية، رسمت فى الوسط برسوم الطير والحيوان بطابع فارسى بينما كانت أركانه مزدانة برسوم لأوراق ونباتات مختلفة أحاطت بالبساط وشكلت بروازا رائعا ..

بعد عبارات الترحيب والود تحدث الملك القادر وقال موجها حديثه إلى الجميع:

ـ تعلمون أننى والحمد لله قد عودتكم على أن نجلس من آن لآخر لنتحدث عن شئون المملكة والمشاكل التى يشكو منها الناس، فنقرر ما نراه من أجل راحة الجميع .. وقد أرسل إلى بعضكم عريضة موقعة باسم مجلس شورى المملكة .. تطلبون فيها لقائى، ولكن حينما سألت ابن عبدوس وابن الفرج عن هذه الرسالة قالا لى إنهما قد سألا كل من القاضى أبو الوليد والأمير عبد الرحمن بن طاهر .. فقالا إنهما لا يعلمان عنها شيئًا فلم يبق إلا ابن جحاف و..

فقاطعه أبو أحمد بن جحاف قائلا :

ـ نعم يا مولاى كتب هذه الرسالة الشيخ أحمد البتى وقد أمليتها أنا عليه ومعى الشيخ أبو بكر والشيخ التاكرنى ... فقال الملك :

ـ حسنا لماذا لم تخطر باقى رجال مجلس الشورى ؟

ـ لم يبق منهم لم أخبره إلا القاضى أبو الوليد، والأمير عبد الرحمن .. ولا آظنهما يمانعان فى مناقشة ما جاء بالعريضة الآن، وكنت قد تحدثت معهما فيما جاء بها صباح اليوم قبل قدومنا إلى هنا .. أما ابن الفرج وعبدوس (هكذا قالها) فهما من رجالك وليسا من رجال مجلس الشورى ..

فسأل الملك الأمير عبد الرحمن والقاضى أبو الوليد :

ـ لماذا لم تبديا رأيكما فيما جاء بها؟

فقال القاضى الوقشى :

ـ لا مانع فى أن نناقش ما جاء فيها مع جلالتكم ..! ...

ثم تابع الملك حديثه قائلا :

ـ حسنا لقد علم الجميع فحوى العريضة التى كتبها القاضى ابن جحاف، فماذا تقترحون إذًا ..

فقال ابن جحاف:

ـ إن للمدينة حرمة وقد عاهدك هؤلاء العلوج القشتاليون على عدم دخول المدينة .. وإن رجالنا ونساءنا لا يمكنهم أن يرضوا بوجود أجانب بيننا .. فالبداية مرور بالأسواق ثم حديث مع الأهالى يتبعه والعياذ بالله النظر إلى حرماتنا ..

ـ ولكن لما لا تتجنبونهم وتعتزلونهم؟ .. (هكذا قال الملك) .. فقال ابن جحاف:

ـ سبحان الله .. من يعتزل من؟ .. هذه بلادنا وهذه مدينتنا .. لا يشاركنا فيها أحد فلم لا نشدد عليهم بعدم الدخول بدلا من أن نبحث فى كيفية تجنبهم أو اعتزالنا عنهم؟

ـ ولكن قائدهم ألبير طلب منى تحديد بعض الساعات من يوم عيدهم (الأحد) ليتمكنوا فيه من التبضع والابتياع فى السوق .. فمن غير المعقول أن يبحثوا على حوائجهم فى مدن وبلدات أخرى وهم قائمون بيننا ويعيشون معنا ..

فقال له القاضى ابن جحاف محتدا :

ـ ما هذا الذى تقوله يا مولاى .. ؟ إن ما يطلبوه اليوم منا سوف يكون حقا لهم غدا .. ثم من جاء بهؤلاء العلوج إلينا (فى إشارة إلى الملك أنه كان السبب فى تواجد هؤلاء الجند الغرباء) .. نحن لم ولن نقبلهم فى بلادنا فعلى من جاء بهم أن يخلصنا منهم..

شعر القادر بالإحراج الشديد ولم يدر ماذا يقول ولكنه فى النهاية كابر واحتد ووجه كلامه للحضور:

ـ لماذا تلوذون بالصمت، ولا يتكلم هنا إلا هذا القاضى الذى ظن نفسه متحدثا باسم الشعب .. لماذا لا تتكلمون .. وتحولت عيناه ناحية الأمير عبد الرحمن والقاضى أبو الوليد وكأنه يستجدى منهم الكلام .. فقال الأمير عبد الرحمن بن طاهر:

ـ مولاى إن ما يقوله قد ردده الكثير من الناس .. ولكن يمكن أن نصل إلى حل معقول يرضى الجميع ..!

فقال له الملك :

- وما هو .. ؟ ... فانتظر لحظات وقال الأمير عبد الرحمن :

- فلنحدد كما قلت جلالتكم ساعتين من نهار الأحد من كل إسبوع ليبتاعوا فيه..!

- حسنا حسنا أنا أوافق على ذلك (قالها الملك) وتمتم معه أبو الفرج وابن عبدوس وقالا معا : نعم الرأى نعم الرأى .. كما أومأ أبو الوليد برأسه بحركة لا تدل على الرفض أو الممانعة ولكنه تمتم بكلمات مضغومة مبهمة .. فقال ابن جحاف محتدا ومقاطعا لهم جميعا :

- لن أقبل هذا أبدا ولن أرضى به ... فقال الملك حسنا فلنأخذ الأصوات

فاعترض كل من ابن جحاف، والأديب الشاعر أحمد البتى، والشيخ أبو بكر بن حمدون، ورابعهم ابن أبو عامر التاكرنى .. بينما وافق الملك، والأميرعبد الرحمن ابن طاهر، وأبو الوليد الوقشى ومعهم كل من أبو الفرج وابن عبدوس ... فقال الملك نحن خمسة وأنتم أربعة .. وعلى هذا يسرى هذا القرار .. وعلى الجميع الطاعة .. وهم بأن يقوم من مجلسه ولكن قاطعه القاضى بن جحاف وقد احتد فى حديثه وقال:

- بل نحن أربعة وهما اثنان، وليس فى مجلس الشورى لا ابن الفرج ولا ابن عبدوس هذا ... فقال له الملك :

- بل هما فى مجلسنا وأنا قد عينتهما .. فقال له

- عينتهما دون أن تستشيرنا؟ ... فقال :

- أنت تنسى نفسك..؟ .. فرد عليه محتدا :

- أهذه الشورى التى تتحدث عنها..؟ ... فقال له القادر:

- إن من حقى أن أعين من أراه مناسبا فى مجلس الشورى، ونستفيد من خبرتهم ..

ـ لا .. هذان ليسا بأفضل من علماء نابغين ورجال أجلاء كثيرين لم نضمهم إلى مجلسنا ، ونحن فى حاجة إليهم .. وقد وضعنا من قبل أسس الاختيار لمن نريد أن نضمهم إلى مجلسنا .. وليس لأحد منا أن يستأثر بالاختيار وحده .. وإلا خرج هذا المجلس عن الغاية التى أنشىء من أجلها .. وهى الشورى ..

ـ أنت تتكلم وكأنك حاكم هذه البلاد ... فقال له ابن جحاف محذرا :

ـ نعم أنا قاضى القضاة، وقريب من نبض الجماهير الثائرة .. أما أنت فلا نعلم من أين أتيت بهؤلاء الجند الغرباء .. والله لإن سمحت لهم بدخول مدينتا فنحن كفيلون بهم .. !

ظل الملك واقفا للحظات ينظر إلى القاضى بغضب وتابعه بعينيه وقد قام خارجا من القاعة إلى خارج القصر بينما وقف الباقون يحاولون أن يلطفوا الأجواء المضطربة .. فقال لهم الملك موجها حديثه إلى الأمير عبد الرحمن والقاضى أبو الوليد:

ـ حاولا أن تقنعاه بذلك فنحن لا نريد أن يستفيد عدونا من تفرقنا وتشتتنا ..

فقال ابن الفرج ملطفا الحديث ولكن برياء ظاهر:

ـ ليس هذا من سبيل الفرقة أو التشتت يا مولاى ولكنها الشورى التى حدثنا عنها القرآن الكريم، وهذا هو رأى الأغلبية، وعلى الجميع أن ينصاع لها..

فأرضت هذه الكلمات الملك.. ثم حياهم وانصرفوا ليلحقوا بالركب العائد إلى المدينة..

«القنبيطور».. رودريجو

مضت أيام على تواجد القنبيطور رودريجو بقواته على التلال المحيطة بمدينة مربيطر استغلها وقواته كفترة للراحة والاستجمام استعدادا لمهام أخرى عديدة فى شمال شرق الأندلس ..

جلس سيدى القنبيطور متكئًا على كرسى قصير من الخشب العتيق بمسند عريض.. أمام خيمته فى أمسية شتوية قارسة، وأمامه أوقدت نار قوية من أحطاب الأشجار المشتعلة، وجال ببصره يتأمل معسكر جيشه وقد أطبق عليه الليل بسواد حالك بددته مواقد الحطب أمام خيمات المعسكر، لتبعث الضوء فى أنحائه، وتدثر الجنود بلظاها ..

أضفت الأضواء المنبعثة من مواقد الحطب فى أنحاء المعسكر شعورا بالراحة والطمأنينة فى نفس القائد القشتالى وقد تناثرت مشاعلها، وامتدت يمينا ويسارا، شمالا وجنوبا، تعلو وتهبط متباينة باختلاف مكان الخيمات أعلى التلال أو أسفلها وكأنها غلالة سوداء متموجة مرصعة بنجمات برتقالية امتدت على رقعة واسعة من التلال والوديان..

تعلقت عينا رودريجو بمشهد المعسكر أمامه .. ورويداً رويداً بدأت تتلاشى الصورة التى أمامه ويرى نفسه فى ذكريات الماضى منذ أكثر من تسع سنوات ..

ها هو الفارس القشتالى الذى يدعى رودريجو أو روى دياث دى بيبار وقد لقب بالقنبيطور لشجاعته فى ساحة القتال وقد أصبح من رجال البلاط للملك سانشو، ثم من بعد مقتله أصبح فارساً فى بلاط الملك الفونسو ..

وهـا هـو الـفـونـسـو الـسـادس قـد وثق فـيـه وكـلـفه بمهـام الـسـفـارة لـدى الـبـلاد الأندلسية المسلمة ليجلب الجزية من ملوكها وأمرائها ..

يحل القنبيطور كسفير لدى مملكة أشبيلية وينال عظيم التقدير والاحترام، ويُحَمَّل بالهدايا تقديراً لدوره البطولى فى ساحة القتال بعد أن شارك فى هزيمة الأمير الغرناطى عبد الله بن بلقين تحت راية جيش أشبيلية فى المعركة التى نشبت بالقرب من مدينة «قبرة»..

بعد الهزيمة شاءت الأقدار أن يقع فى الأسر الكونت القشتالى جرسيه آوردنييث الذى كان يقاتل فى صفوف الجيش الغرناطى ويلقى المهانة والذل على يد القنبيطور .. وبعد ثلاثة آيام يُطلقُ سراح الكونت ومن معه من فرسان ليعودوا إلى برغش عاصمة قشتالة ..

ولأن الكونت كان مقرباً إلى الفونسو فقد أوغر صدره بالأحقاد على القنبيطور، وأشاع عنده أن رودريجو قد استولى على الهدايا التى بعثها المعتمد معه واستأثر بها لنفسه .. ولم ينس الفونسو الماضى المؤلم حينما قاتل رودريجو فى صفوف قوات أخيه الملك سانشو ضده، وأنه كان من أكثر المعارضين له عند تولى العرش .. وادعى رودريجو أن الفونسو دبر حادثة مقتل أخيه، وأرغمه على قسم اليمين أمام أساقفة الكنيسة بأنه برئ من حادثة الاغتيال، وأن لعنة الله عليه إن كان كاذباً ..

غُصّ حَلْقه وهو يجتر الذكريات وقد رأى نفسه يخرج من بيبار منفياً بأمر الملك وبرفقته أحباءه الذين أبوا أن يتركوه يرحل وحده، وقالوا له «لن ندعك أبداً ما دام البدن صحيحاً معافى .. وحتى تهلك فى خدمتك الخيل والبغال .. وتبلى ملابسنا وتنفد أموالنا» ..

وها هو يمضى تاركاً خلفه قصوره مهجورة خالية ..

وها هو يمضى فى موكبه خارجا من بيبار وعلى يمينهم الغربان، وعلى مشارف برغش رأوها على يسارهم .. فالتفت إلى ابن أخيه المخلص ألبير هانيس وقال الوشاية .. أخرجتنا من أرضنا، ولكن وبشرف عظيم سوف نعود ...

وانطلقت الخيل إلى سان بطرس دى كاردينا .. وحوله رجال يحبون آن يفتدونه .. وفى الكنيسة كانت تنتظره زوجته خامينا وبنتاه .. كل طفلة مع حاضنتها تحملها بين ذراعيها .. واقتربت زوجته دونيا خامينا وأمامه جثت على ركبتيها وفاضت عيناها بدموع غزيرة وأمسكت بيده تريد تقبيلها .. فيمسح شعرها بكفه ويقبل جبينها ... وأخيراً يرحل [1] ومعه ابن أخيه ألبير هانيس، وفرقة من الفرسان القشتاليين ..

ومن بلدة إلى أخرى تقاطر الفرسان إليه على طول الطريق .. وبعد أن كانوا مائة .. هاهم الآن قد اقتربوا من الثلاثمائة مقاتل ..

وبعد أن عبر النهر ومن بعده سلاسل الجبال دخل ومن معه أراضى طليطلة .. وليلاً أغارت عصابته على قسطلون فسلبوها، وبعدها حصن القصير .. والأهالى تفتدى الأسرى وتدفع المال للقنبيطور .. وعاث فى بلاد سرقسطة واجتاح مدينتى أتيكا، وتيرير وجنى الأموال الكثيرة .. وها هو السيد يوزع الأسلاب وينتشى قلبه بالسعادة لأول مرة منذ رحيله ..

ومن معركة إلى أخرى زاعت شهرته وضربت الآفاق .. ثم يحل ضيفاً فى بلاط سرقسطة ويقدم الخدمات عاملاً بجيشه تحت إمرة الملوك المسلمين .. الملك المقتدر ومن بعده ابنه المؤتمن، وأخيرا المستعين .. تحت رايتهم راعياً لمصالحهم ..

سنوات وسنوات تمضى .. والأسلاب والغنائم تزداد، ويتوافد الفرسان والجند من كل قرية أو بلدة طمعا فى الثراء .. فما أسهل العمل فى جيش مهنته السلب والنهب طالما كان هناك سلاح وطالما كان المسلوب مستضعفاً ذليلاً ..

واجتاح أراضى السهلة والبونت وبالنسيه فأصبح الجميع يؤدى إليه الجزية .. وكثرت الأموال وتوالت الهدايا التى بعثها رودريجو للملك الفونسو حتى تعاظم

---

١ ـ من وحى الملحمة الشعرية الأسبانية لسيرة «السيد» باسم (ملحمة السيد) ترجمة الدكتور / الطاهر أحمد مكى ـ دار المعارف.

قدرها .. وأخيراً الملك الفونسو يستقبل رودريجو ويعفو عنه ويرد له أملاكه .. يا لها من فرحة ويا له من مجد .. ها هو قد رُد له لقبه ورُد إليه كبرياؤه ..

وها هو رودريجو يرسل إلى الفونسو ليخبره أنه جندى تحت طاعته ورهن إشارته بكل ما لديه من قوات، وها هو الفونسو يسمح له بامتلاك كل ما يقع تحت يديه من أملاك لتبقى له ولورثته من بعده ..

سنوات وسنوات مضت، ولكن مازالت هناك أمنية .. واغرورقت عيناه بالدموع وهو يشاهد طيف ابنتيه وقد كبرتا واشتاق لهما ولزوجته البعيدة عنه .. فهو لا يراهم إلا لفترات قليلة خلال كل عام ..

ليتهم بجوارى .. ! ليتهم بجوارى .. ! هكذا همست له نفسه وهو يخرج من صمت ذكريات الماضى ليعود إلى حاضره، جالساً أمام بقايا الحطب المشتعل .. على تلال مربيطر وقد أوشكت الشمس على الشروق.

بعد العِشاء .. «حديث المساء»

كانت دار الشيخ أبو عمر بن عتبة والد نائلة تقع على ناصية الميدان الكبير بالمدينة القديمة فى بالنسية .. وفى يوم الأربعاء ٢٥ديسمبر ١٠٩٠ ميلادية (٤٨٣هجرية) وبعد صلاة العشاء جلس سالم وأبوه مسعود، فى غرفة الضيوف بالطابق السفلى بدار الشيخ أبو عمر، ليتحدثان معه عن موعد عقد القران ..

وبعد كلمات الود والترحيب، قدم له سالم ثلاثمائة دينار مهراً لها .. كانوا قد اتفقوا عليه .. وقرأ الجميع الفاتحة فى حضور العروس .. واتفق الجميع أن تكون ليلة الزفاف فى عيد الأضحى (الثانى أو الثالث من فبراير ١٠٩١ميلادية)، ثم قام الشيخ أبو عمر من مقعده وقام سالم وأبوه وقبّلهما وتبادل الجميع التهانى..

ابتهج الشيخ عمر وقد أحس بالاطمئنان على كريمته وقد اقترب موعد زفافها إلى نجل صديقه .. وأنه قد أزاح حملاً ثقيلاً عن كاهله، بعد أن تحمل وحده مسئولية تربيتها بعد وفاة أمها منذ سنتين وما هى إلا أسابيع قليلة وتنتقل إلى منزل زوجها فى أمان وسلام، ليتمكن من أن يكمل المشوار بتربية أختها الصغيرة إلى أن يطمئن عليها هى الأخرى ..

وفى هذه الأثناء انطلقت من خلف الجدران الزغاريد تجلجل فى المكان وسرعان ما حضر الجيران المقربون من العروس فجاءت رضوى مع والدتها، وهما تسكنان فى المنزل المقابل لمنزل العروس.. وتلاها ماتيلدا صديقتها المسيحية والتى تسكن فى المنزل الملاصق مباشرة لمنزل نائلة ثم أقبل جاسر صديق سالم المقرب إليه، وتوافد أناس آخرون من أهل الحى ووزعت الحلوى ودارت الطسوس

المكدسة بأكواب شراب البرتقال والفراوله حيث قدمت للحاضرين، وضربت الدفوف وعلا الضجيج، وملأت الفرحة المكان وتبادل الحاضرون الحديث والمزاح والتمنيات بالزواج السعيد..

فى مساء اليوم التالى التقى سالم بصديقه جاسر عند صلاة المغرب فى ساحة مسجد رحبة القاضى بالميدان الكبير للمدينة القديمة حيث يقع منزل سالم على الجهة المقابلة لمنزل خطيبته نائلة بنفس الميدان وخلف منزل سالم وعلى مسافة عدة شوارع تقع دار جاسر صديقه الحميم ..

بعد تمام الصلاة خرج الصديقان وسارا معا فى شوارع المدينة وهما متجهان إلى حيث المسجد الجامع بالحى الجديد للمدينة وتحدث جاسر إلى سالم وقال له :

ـ لدينا موعد اليوم بعد صلاة العشاء بالمسجد الكبير .. ! فقال سالم :

ـ مع من هذا الموعد ؟

ـ مع درس للشيخ ابن المعلم (أبو بكر حمدون) ..! .. فقال له سالم:

ـ لم تحدثنى من قبل عن هذا الموعد..!

ـ يا صديقى العزيز منذ أسابيع وأنا لا ألقاك إلا لدقائق بعد صلاة المغرب ثم تنصرف مباشرة ولا أعرف ماذا يشغلك إلى هذا الحد .. ؟ .. فقال سالم :

ـ الزواج .. الزواج يا عزيزى .. عقبالك إن شاء الله ونفرح بك أنت ورضوى .. فابتسم جاسر وانفرجت أساريره وقال :

ـ آه .. كم أنا مشتاق إليها ليتنا كنا قد تزوجنا معكما ..

ـ إن شاء الله قريبا يتمم الله لكما بالخير وتهنأ بها ..

ـ آه .. سمع اللهُ منك وأجاب .. ثم قاطعه سالم وقال :

ـ بحق .. ما هى أحوالكما معاً الآن ..

ـ كما تعلم فإن موعد عقد القران قد تأجل أكثر من مرة بسبب الخلافات التى تنشب بيننا من آن لآخر، حتى لقد سأم أبى من ذلك وأصبح يتردد فى الذهاب إلى والدها للاتفاق على عقد القران ..

ـ أتعلم يا جاسر أن أفضل حل لمشاكلكما معاً هو أن تسارعا بالزواج ..

ـ لا يا سالم .. ليست المشكلة بهذه البساطة .. فهى مغرورة، وأحياناً أشعر باستحالة التفاهم معها .. وكم من مرة قررت أن أبتعد عنها نهائياً، ولكننى أجد نفسى وقد غفرت لها وسامحتها من جديد .. وهكذا يتكرر الأمر ..

ـ قل لى يا جاسر ما هى حقيقة المشاكل بينكما ..

ـ تعرف أننى كنت أعرفها منذ زمن حينما كانت طفلة صغيرة، وعندما ارتبطت أنت مع نائلة ورأيتها أكثر من مرة مع نائلة .. فإننى بهرت بجمالها ودلالها، وربما ما تتمتع به من خفة الدم وروح الدعابة كانت هى السبب الرئيسى الذى جذبنى لها فتقدمت لخطبتها .. ولكن وللأسف وبعد أن تم ذلك، فإن ما شدنى لها هو نفسه سبب شجارى معها .. فهى لا تفرق بين غريب وصديق .. فما يمكن أن يكون بينى وبينها من مزاح مثلا لا يجوز أن يكون مع الغرباء .. خاصة بعد أن ارتبطنا وأصبحت خطيبتى .. وحذرتها أكثر من مرة بضرورة أن تفرق فى المعاملة بين الناس حتى لا يطمع فيها الغرباء ولكنها تلتزم لفترة قصيرة ثم تعود إلى مزاحها المستفز مرة أخرى .. وهى تتهمنى بالتزمت والعصبية، والحقيقة أنها بتصرفاتها تصل إلى حد الاستهتار .. ولـ .. فقاطعه سالم وقال :

ـ من ناحية العصبية فأنت والحمد لله لا ينقصك منها شىء ..

ـ المشكلة ليست فى العصبية ولكنها تأخذها كسبب للتهرب من أصل شكواى منها، وهى ثلاثة أسباب .. الاستهتار، وكذا عدم التفريق فى المعاملة بين الأقرباء والأصدقاء من جهة والغرباء من جهة أخرى، وثالث هذه الأسباب أنها معجبة بتصرفات ماتيلدا جارتها المسيحية، وتقلدها فى الكثير من الأشياء وخاصة فى ارتداء الملابس السافرة وكثيراً ما أشعر بالنار تأكل صدرى وأنا أراها ترتدى

بعض الملابس التى تكشف قدميها، أو تنحصر عن أكمامها وتتعرى ذراعاها من تحت العباءة التى ترتديها وتتعمد أن تظهرها عن قصد .. وتك.. فقاطعه وقال :

- كل هذا يمكن إصلاحه بالصبر والحكمة، وليس بالعصبية والتوتر .. فإنها تزيد الأمور تعقيداً بينكما .. والزواج كفيل بحل كل الخلافات ..

- ليت كلامك يكون صحيحا .. وأخشى ما أخشاه أن تزداد الأمور سوءًا بعد الزواج ..

ما كاد أن ينهى عبارته الأخيرة حتى كانا قد وصلا إلى حارة المدينة، سميت بذلك لأنها تفصل بين الأحياء القديمة والأحياء الحديثة للمدينة والتى يقع فى إحداها المسجد الجامع .. فعبرا الحارة حيث أفضت إلى ساحة واسعه تسمى ميركادا، فعبراها ومرا إلى أحد الشوارع الواسعة فى الجزء الحديث من المدينة حتى وصلا إلى المسجد الجامع، فدخلاه واستعدا للصلاة خلف إمام الجامع الشيخ ابن المعلم (أبو بكر حمدون) ..

وظل الناس يتوافدون إلى المسجد الجامع حتى أذن المؤذن بإقامة الصلاة فتراصوا فى صفوف كثيرة خلف الإمام حتى كاد المسجد أن يمتلىء عن آخره ثم أقيمت الصلاة ..

بعد الفراغ من الصلاة وما تلاها من نوافل جلس الشيخ ابن المعلم يتحدث مع من بقى من المصلين وهم كثيرون من مريديه ليلقى عليهم حديث المساء الذى يواظب عليه يوما الإثنين والخميس من كل أسبوع ..

بدأ الشيخ حديثه بحمد الله وشكره، ثم صلى وسلم على النبى وآله وصحبه..

ثم تحدث عن التزام المؤمن نحو ربه وإصلاح ذاته أولا وأن على المؤمن قبل أن ينتقد تصرفات الناس وسلوكهم عليه أن يصلح ذاته أولا .. وتكلم عن رب البيت المسلم، وكيف أنه فى هذا الزمان قد فقد الصفات الحميدة التى تؤهله لأن يكون قدوة أمام أبنائه ..

وقال .. أقول لكم هذا لأننا مقبلون على تحديات خطيرة .. فالأعداء يحومون من حولنا، ويتربصون بنا، ونحن مازلنا على حالنا من العزلة والانكفاء على متطلبات الحياة، ولم ننظر لأبعد من موقع أقدامنا .. بينما عدونا يدبر، ويتربص، ويتحين الفرصة لكى ينقض علينا ..

أيها الإخوة .. لابد من أن نغير من أنفسنا حتى ينصلح حالنا، فالله عز وجل لا يغير ما بقوم حتىَ يغيروا ما بأنفسهم .. ولما كان جهاد أعداء الله فى الخارج فرعاً على جهاد العبد لنفسه فى ذات الله فهذه هى البداية .. وكما قال الرسول عليه الصلاة والسلام المجاهد من جاهد نفسه فى طاعة الله، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه .. وتابع قائلا ..

كان جهاد النفس مقدما على جهاد العدو، وأصلاً له، فإنه ما لم يجاهد نفسه أولاً لتفعل ما أمرت به، وتترك ما نهيت عنه، ويحاربها فى الله، لم يمكنه جهاد عدوه فى الخارج، فكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصاف منه، وعدوه الذى بين جنبيه قاهرٌ له، متسلط عليه، لم يجاهده، ولم يحاربه فى الله، بل لا يمكنه الخروج إلى عدوه، حتى يجاهد نفسه على الخروج .

فهذان عدوان قد امتُحن العبد بجهادهما، وبينهما عدو ثالث، لا يمكنه جهادهما إلا بجهاده، وهو واقف بينهما يثبت العبد عن جهادهما، ويخذله، ويرجف به، ولا يزال يخيل له ما فى جهادهما من المشاق، وترك الحظوظ، وفوت اللذات، والمشتهيات، ولا يمكنه أن يجاهد ذينك العدوين إلا بجهاده، فكان جهاده هو الأصل لجهادهما، وهو الشيطان ..

قال تعالى {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ}.. والأمر باتخاذه عدوٌ تنبيه على استفراغ الوسع فى محاربته ومجاهدته، كأنه عدو لا يفتر، ولا يقصر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس ..

فهذه ثلاثة أعداء أمر العبد بمحاربتها وجهادها، وقد بلى بمحاربتها فى هذه الدار، وسلطت عليه امتحاناً من الله له وابتلاء، فأعطى الله العبد مدداً وعدةً وأعواناً وسلاحاً لهذا الجهاد، وأعطى أعداءه مدداً وعدةً وأعواناً وسلاحاً، وبلا

احد الفريقين بالآخر، وجعل بعضهم لبعض فتنة ليبلو أخبارهم، ويمتحن من يتولاه .. وكما قال تعالى ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ .. وقال تعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُم﴾ ..

فأعطى عباده الأسماع والأبصار والعقول والقوى، وأنزل عليهم كتبه، ورسله، وأمدهم بملائكته وقال لهم ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ .. وأخبرهم أنهم إن امتثلوا ما أمرهم به، لم يزالوا منصورين على عدوه وعدوهم .. ولا يسلطه عليهم إلا بتركهم بعض ما أمروا به، ولمعصيتهم له، وعلى الرغم من ذلك، لم يؤسهم، ولم يقنطهم، بل أمرهم يستقبلوا أمرهم، ويداووا جراحهم، ويعودوا إلى مناهضة عدوهم فينصرهم عليهم، ويظفرهم بهم، فأخبرهم أنه مع المتقين منهم، ومع المحسنين، ومع الصابرين، ومع المؤمنين.. والله يدافع عن عباده المؤمنين، وهذه المدافعة عنهم بحسب إيمانهم، وعلى قدره، فإن قوى الإيمان، قويت المدافعة، فمن وجد خيراً، فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه...

وأمرهم أن يجاهدوا فيه حق جهاده، كما أمرهم أن يتقوه حق تقاته، وكما أن حق تقاته .. أن يطاع فلا يعصى .. ويذكر فلا ينسى .. ويشكر ولا يكفر، فحق جهاده .. أن يجاهد العبد نفسه ليسلم قلبه ولسانه وجوارحه لله، فيكون كله لله، وبالله، لا لنفسه، ولا بنفسه ..

كما يجاهد الشيطان .. بتكذيب وعده، ومعصية أمره، وارتكاب نهيه، فإنه يعد الأمانى، ويمنى الغرور، ويعد الفقر، ويأمر بالفحشاء، وينهى عن التقى والهدى، والعفة والصبر .. فجهاده بتكذيب وعده، ومعصية أمره .. فينشأ له من هذين الجهادين قوة وسلطان، وعدة يجاهد بها أعداء الله فى الخارج بقلبه ولسانه ويده وماله، لتكون يد الله هى العليا [1]..

ثم ختم الشيخ بن المعلم حديثه بأن قال.. ألا هل بلغت اللهم فاشهد ..

---

١ ـ كتاب «زاد المعاد» لـ شمس الدين أبى عبد الله محمد ابن قيم الجوزية – ج٢ باب مراتب الجهاد.

خرج الناس يفكرون فيما قاله لهم الشيخ كل منهم يقلب الأمر على هواه، فمنهم من تذكر واتعظ، ومنهم من لم يكن الحديث بالنسبة له إلا تسرية وتسلية ونوع من أنواع إقناع الذات بالتقوى والصلاح ولا أكثر من هذا، وآخرون بدا عليهم عدم الاكتراث، فكما جاءوا كما ذهبوا..

أمسك جاسر بذراع سالم وجذبها لأسفل عندما هَم بالنهوض كباقى الحاضرين .. فلما انصرف الناس، نهض جاسر ومعه سالم وسارا خلف الشيخ يتابعانه وهو يكمل بعض الحوارات مع بعض الناس إلى أن اتجه الشيخ إلى حجرته فقابله جاسر وسلم عليه وقدم له صديقه سالم، فرحب بهما ودعاهما إلى حجرته ..

قدم جاسر صديقه سالم إلى الشيخ ابن المعلم وقال له :

هذا يا سيدنا سالم بن مسعود ابن الشيخ مسعود صاحب بستان الفاكهة الكبير بضاحية ريوسه وهو من الشباب المتمسك بالخلق الحميد، ولديه نخوة المؤمن الغيور على دينه .. فقال ابن المعلم :

ما شاء الله .. ما شاء الله .. وهل أنت متزوج يا سالم .. ؟

إن شاء الله قريباً جداً ..

ومن تكون عروسك .. ؟

تدعى نائلة بنت أبو عمر بن عتبة ..

نعم المصاهرة ويبارك الله لكما بإذنه وحوله وقوته ... فقال جاسر :

لقد كان حديثك اليوم يا سيدنا صريحًا وواضحًا.. ولابد لكل رجل منا أن يعد نفسه لأعدائنا المتربصين بنا.. ولابد لنا من أن ننظم أنفسنا من الآن .. ولا نكتفى بالكلام.. فالوقت يمر ونحن لا حراك لنا، وسالم يريد أن يكون واحدا منا... فرد الشيخ

صدقت يا بنى .. وقريباً بعد أن يجتمع لنا مائة رجل، نتقدم بطلب لعسكرتهم وتدريبهم على القتال كنواة لفرقة دفاع عن المدينة تمهيداً لتعميمها على باقى

مدن المملكة .. ونحن الآن فى نحو تسعين رجلاً، وخلال أيام يكتمل العدد، ونناقش الأمر مع القاضى أبى أحمد بن جحاف لعرضه على الملك القادر .. ونحن نرحب بسالم ليكون واحدا منا ..

ثم قاما بالسلام على الشيخ وانصرفا عائدين إلى حيهما بالمدينة القديمة ..

انتفاضة المرابطين

من مواقع تجمعها داخل حدود مملكة غرناطة وبعد خلع الأمير عبد الله وأخيه الأمير تميم .. تقدمت سرايا الفرسان والجند الراجلة لجيش المرابطين لإسقاط حكم الملك المعتمد فى سائر البلدات التابعة لمملكة أشبيلية ..

فى ديسمبر ١٠٩٠ ميلادية (٤٨٣ هجرية) استولى الأمير سير بن أبى بكر على ثغر طريف إلى أقصى الجنوب من مملكة أشبيلية .. ومن هناك أصدر قائد الجيوش أوامره فتحركت جيوش متفاوتة القوة والكثافة وفى وقت واحد ولعدة اتجاهات .. فكانت أكبرها وأكثرها عدة وعتاداً تحت قيادته واتجه إلى الشمال الغربى، حيث تحرك قاصداً حاضرة أشبيلية، وبها الملك المعتمد .. والجيش الذى يليه فى القوة والعتاد تحرك إلى الشمال من غرناطة بقيادة على بن الحاج قاصداً قرطبة ويحكمها الأمير الفتح ابن الملك المعتمد والملقب بالمأمون، وتحرك جيش ثالث شرقاً قاصداً مدينة وحصن جيان وما حولها من بلدات وقرى .. وإتجه جيش فرعى إلى مدينة وحصن رندة تحت قيادة قرور ، وبها الأمير الراضى بن الملك المعتمد ..

عبر الوديان الخضراء تقدمت القوات المرابطية كل إلى الغاية التى رسمت له.. وارتبك الملك المعتمد وقد وصلته أخبار الحشود وتحركات القوات المرابطية، وأزعجه كثيراً سقوط ثغر طريف على مضيق بحر الروم (مضيق جبل طارق) .. ولكن المعتمد لم يكن يعول عليه كثيراً على أساس أن يكون تركيز دفاعاته فى المدن الأساسية، التى يتواجد بها أبناؤه الأمراء ..

لم يكن تحرك المرابطين مفاجئًا للملك المعتمد، فقد كان اللقاء الأخير الذى جمعه مع أمير المسلمين منذ نحو أشهر قليلة مضت، ينم على ما يضمره يوسف إلى سائر ملوك الطوائف، وقد استشعر تخاذلهم وتفرقهم وتحالفهم سراً مع الأعداء وعلى رأسهم الملك الفونسو ..

كان اللقاء الأخير مع أمير المسلمين يكتنفه التجاهل والخشونة فى المعاملة من قبل يوسف تجاه المعتمد ومعه فى المعسكر الملك عمر المتوكل، وكانت قمة المأساة،حينما تم القبض على الأمير عز الدولة بن الأمير المعتصم بن صمادح أمير إمارة ألميرية حينما أتى إليه عز الدولة حاملاً رسالة من والده، فاعتقله أمير المسلمين واتخذه أسيراً إلى أن يقبل والده التنازل عن إمارة ألمرية للمرابطين ..

فى هذه الأثناء ووسط الأجواء المحمومة .. خشى المعتمد والمتوكل أن يلجأ يوسف إلى اعتقالهما فغادرا مكان معسكر المرابطين فى غرناطة، وسارعا كل إلى مملكته.. وأما المعتمد فقد ذهب إلى قرطبة محذراً نجله من عواقب المستقبل ومن أن المواجهة مع المرابطين آتية لا ريب .. وطالب كل أبنائه بالإعدادالسريع للدفاعات والتحصينات، والاستبسال فى الدفاع عن البلاد فى كل أنحاء المملكة .. ثم عاد سريعاً إلى أشبيلية ليعد نفسه والعاصمة أشبيلية للدفاع ..

وأما المتوكل فقد عاد إلى بطليوس ليعد نفسه أيضاً لقتال المرابطين ولكن المشكلة أن ما يملكه من قوات لا يتناسب بأى حال من الأحوال مع ما لدى المرابطين من عدة وعتاد .. فأخذ يبحث عن حل لهذه المشكلة المستعصية ..

عرج أمير المسلمين يوسف فى طريق العودة للمغرب إلى أراضى مملكة أشبيلية ودعا المعتمد إلى لقائه.. فرد عيه المعتمد بدعوته للقدوم إلى أشبيلية لإنشغاله بأمور الحكم هناك، فاعتبر يوسف أن ذلك بمثابة رفض من المعتمد للقائه .. فضمرها فى نفسه وعاد إلى العدوة ..

كان مما زاد الطين بلة .. ما وقع فى يد يوسف من أن المعتمد طلب محالفة الفونسو سراً للدفاع عن أشبيلية ضد المرابطين .. وذلك مقابل تنازل المعتمد عن

حصون وبذة، إقليش، أوكانيا، كونسويجرا، وغيرها من الحصون الشمالية التابعة لملكة أشبيلية ..

وما أن علم أمير المسلمين بذلك حتى ثارت ثائرته وأقسم على عزل المعتمد وأرسل له قائلاً ظفرت بكتبك إلى الرومى وإرسالك عنه.... إلى آخر الخطاب «فرد عليه المعتمد برسالة قال فيها» .. لو فعلته قبل أن تأخذ بلادى (يقصد استيلاء يوسف على بعض ثغور أشبيلية عنوة، ومنها طريف) بطراً وشراً لكنت آلام .. ! وأما بعد أن رأيت طلبى فى الروح، اضطرتنى الضرورة إلى ذلك للمدافعة .. ولو ليوم واحد..

هذه كانت أسباب عدم شعور الملك المعتمد بالمفاجأة حينما تحركت الجيوش المرابطية لغزو بلاده .. وكان لكل طرف من طرفى الصراع مبرراته ..

فى هذه الأجواء استغل الملك الفونسو فرصة الشقاق بين حلفاء الأمس من المسلمين، لكى يزيد هوة الخلاف بينهما، فأرسل إلى المعتمد رسالة يجيبه فيها على طلبه بعودة المحالفة بينهما، وهذه المرة سوف يكون التحالف بينهما ضد المرابطين[1] .. وقال له .. «آن الأوان لكى تعرف من هو العدو ومن هو الصديق .»

أعد الأمير الفتح أمير قرطبة كافة التحصينات اللازمة لمواجهة المرابطين، وشدد الحراسات على كافة الجسور المشيدة على نهر الوادى الكبير [2] والمؤدية إلى قرطبة وعلى الأخص قنطرة قرطبة الرئيسية المواجهة للمدينة حيث أقام تحصينات قوية على بوابة القنطرة الجنوبية ..

---

١ ـ كان هناك تحالف قديم بين الملك الفونسو والملك المعتمد وقع منذ نحو خمسة عشر عاماً بعدم الاعتداء .. وكذا مساندة الفونسو للمعتمد فى صراعه ضد الأمير عبد الله حاكم مملكة غرناطة .. وقد ألغى هذا التحالف لاحقاً للخلاف بين المعتمد والفونسو بشأن الجزية المفروضة على مملكة أشبيلية ..

٢ ـ نهر الوادى الكبير : هو نهر عريض وطويل ينبع من جبل الثلج (جبل شلير) وهو إلى الجنوب من غرناطة .. ثم تجرى مياهه نحو الوديان شمالاً ثم ينعطف إلى الغرب لمسافة طويلة ماراً بقرطبة، حيث تقع المدينة على الضفة الشمالية من النهر ، وتمتد على النهر عدة جسور لتصل بين ضفتيه، وأهمها قنطرة قرطبة .. ثم يمتد النهر غرباً حتى مدينة أشبيلية ، ثم ينعطف جنوباً إلى أن تصب مياهه فى المحيط الأطلنطى بعد مضيق جبل طارق بمسافة نحو ثمانين كيلو متراً (على ساحل البحر فى المسافة بين أركش ولبة).

ساد الهرج أنحاء مدينة قرطبة، وعلم الناس أن المرابطين قادمون لفتح المدينة، وأن الأمير الفتح قرر مواجهتهم وعدم التسليم مهما كان الثمن ..

وانقسم الجميع بين مؤيد للمواجهة، وهم أنصار الملك المعتمد ورجال العلم والأدب والثقافة، والتجار وأصحاب الحرف، والعائلات ذات الأصول العربية وهم أغلبية السكان ..

أما الفقراء والمعدمون، والكثير من رجال الدين فقد كانوا مؤيدين للمرابطين .. ووجدوا فيهم الأمل والخلاص من تردى أوضاع المعيشة وكثرة الحروب، وزيادة الفقر، وأخيراً والأهم هو سقوط المعتمد فى شرك التحالف مع أعداء البلاد، عناداً وإثماً، بدعوى الدفاع عن البلاد من أطماع المرابطين ..

وصل الجيش بقيادة قرور إلى حصن رُندة وطالب الأمير الراضى بالتسليم سلماً، فأبى الراضى وقررالدفاع باستماتة عن الحصن المنيع، حيث يعلو قمة تل يفصل عن الوادى الذى أمامه جرف كبير .. وبعد محاولات هجومية من المرابطين، شعروا بمناعة الحصن، فشيدوا معسكرا لهم مواجها للجسر الذى يعبر الجرف ويؤدى إلى الحصن، وانتظروا أن تتغير الأحوال، وربما يرجع الأمير الراضى عن عناده ويسلم الحصن، وبدا أن اقتحامه درب من المستحيل ..

على شاطئ البحيرة

سعى سالم وخطيبته نائلة إلى تهدئة الخواطر، وإعادة المياه إلى مجاريها بين رضوى صديقة نائلة وجارتها، وبين جاسر صديق سالم ورفيق صباه .. وعادت المودة بينهما على أفضل ما يكون .. وانتهز سالم ونائلة الفرصة ودعواهما لنزهة فى منطقة البحيرة المجاورة لبستان المدينة الكبير والمسمى بـ «الغوطة»..

استأذنت نائلة ورضوى من والديهما للخروج فى نزهة مع خطيبيهما بعد صلاة الجمعة، فأرسل والد رضوى أخيها الصغير، والجارية «بهارة» معها، وأرسل والد نائلة جاريتها «بهجة» معها، ودبر لهم ما يلزمهم من عربات مجهزة بمظلات وتجرها البغال، ويقودها السياس لتقلهم إلى حيث يرغبون ..

بعد الصلاة من يوم الجمعة ركب الجميع حيث جلس سالم بجوار نائلة ومعهما الجارية بهجة .. بينما جلس جاسر وبجواره خطيبته رضوى ومعهما أخيها الصغير محمود ذو العشر سنوات وجاريتها السمراء بُهارة ..

مضت العربات من خلال شوارع المدينة وأزقتها ومرت بحى الشريعة، حيث يشتهر بالدور الصغيرة المعنية بتعليم القرآن (الكتاتيب) وتكثر به المساجد الصغيرة، وبه أيضاً بيت القاضى، الذى يسكنه قاضى القضاه وبجواره دار الفتوى .. ثم خرجت العربات من الباب الشرقى للمدينة، وانطلقت عبر الطريق المُعَبد المحاذى للضفة الجنوبية لنهر طورية أو النهر الأبيض كما يحب أهل المدينة أن يسموه بذلك :.

تحت سماء زرقاء صافية تخللتها سحابات رفيعة سارحة، فرشت الشمس أشعتها الدافئة، ولم تبخل على موكب المحبين بضوئها المبهج .. وترامت على مدى البصر مشاهد البساتين الخضراء اليانعة والأشجار الكبيرة مختلفة الأشكال والأحجام، وتألق النهر الأبيض بلونه الفضى، وتدفقت مياهه تتساقط من جداوله المتتابعة على هيئة موجات قصيرة متتالية والتفت حول الصخور الصلبة التى اعترضت مجراه فأضفت عليه حيوية وجمالاً ..

ومن خلال البساتين العامرة بصنوف الفاكهة، انفرج المكان لتطالع الأعين فجأة بحيرة هائلة مترامية الأطراف يفصلها عن البحر لسان ضيق، ويلتصق شاطئها بالبساتين والمزارع الممتدة على مدى البصر (١) ..

تحت ظلال الأشجار الكبيرة المتلاصقة وقفت العربات، ونزل الجميع حيث افترشوا المكان بأغطية عريضة من القماش الملون مدت على الأعشاب الخضراء القصيرة الناعمة، وكأنها بساط من الحرير الأخضر .. وجرى محمود الأخ الأصغر لرضوى نحو البحيرة ليلعب هناك، وجرت خلفه بهارة الجارية السوداء المعنية برعايته هو وأخته رضوى، وسارت خلفهما بهجة جارية نائلة لتلهو معهما ..

جلس سالم وجاسر كل بجوار خطيبته، وتبادل الجميع الأحاديث المرحة .. ثم قام جاسر ورضوى وسارا ببطء بمحاذاة شاطئ البحيرة على العشب الأخضر القصير .. كانت البحيرة باتساعها وهدوء أجوائها وصفاء مائها وكأنها نبع السعادة .. وبدا خيالهما من بعيد وهما يتهاديان ومن خلفهما مياه البحيرة بعرض الأفق كأنهما يسيران عليها بقلب مفعم بالأمل، وبأقدام وكأنها تطأ نبع السعادة .. وأخذا يتناجيان بحديث الحب والشجن، وقد امتلأت عيناهما ببريق الأمل فى المستقبل القادم ..

---

١ ـ البحيرة هى بقية من البحر المتوسط انفصلت عنه بلسان من الأرض وتحولت مياهها إلى العذوبة باستمرار تدفق مياه النهر إليها جارفاً التربة الخصبة، وطولها عشرون كيلو متراً، ومنها إلى البحر قناة، وفيها أنواع مختلفة من الأسماك، ويحوم فوقها من الطيور المائية شىء كثير . (من كتاب الحلل السندسية للأمير شكيب أرسلان ـ ج ٢ ص١٦٢ـ دار الكتب العلمية.. طبعة ١٩٩٧م)

نظر جاسر إلى عينى رضوى بلونهما الأزرق كلون السماء الصافية، وتأمل وجنتيها المستديرتين بلونهما الخمرى، وقد تدلت خصلة قصيرة من شعرها الأسود الحريرى على جبينها العريض، وتابعها وهى تتحدث إليه فرأى البراءة والنقاء يقطر من خلجاتها، فسرح بخياله عن كلماتها وعاتب نفسه على قسوته معها أحياناً، وحدثته نفسه تعاتبه.. رباه .. ما خطبك يا رجل .. ألا ترى الوجه الصافى البرئ .. ألا ترى الدنيا تتراقص وتضحك على ثغرها الجميل.. لماذا تهرب منك كلمات الود والحب .. لماذا تستعذب أحياناً وأحياناً الهجر والبعاد .. أيها المسكين أفق، واقترب، وهات ما عندك من كلمات .. أحلى الكلمات .. وامنحها ولا تبخل، فما أقصر العمر .. وما أندر لحظات السعادة فى هذه الحياة..

ثم تنبه إلى رضوى تناديه وهى تبتسم وتضحك فبرزت نغزتان صغيرتان على خديها .. جاسر جاسر أين ذهبت بعقلك وماذا سرح بخيالك .. فقال لها

- أتصدقينى لو قلت لك أننى سرحت بخيالى فيكِ ..

- وماذا رأيت فى خيالك ..

- كنت ألوم نفسى ..

- على ماذا ..

- حينما نظرت لعينيك الصافية، ووجهك الصبوح الضاحك .. شعرت أننى كنت قاسياً معك فلمتُ نفسى على لحظات السعادة التى تهرب منا، ونحن قادرون على أن نتمسك بها ولا نفرط فيها ..

- أرأيت أيها الجانى على حبنا .. أخيراً لدىّ من يدافع عنى وينصفنى ..

- نعم، ولكن عزائى، أن نفسى هى التى تعاتبنى ولا أحد آخر

- المهم أنك متهم بتعذيبى فى حبك .. ولابد من عقابك .. فقال لها جاسر

- وأنا أتحمل العقاب ..

ـ هكذا .. دون أن تعرف العقوبة التى سأوقعها عليك ..؟

ـ أنا مستسلم لمصيرى .. فما هى العقوبة ..؟

ـ العقوبة يا حبيبى هى .. هى

ـ قولى لى فأنا راض بها ولا تعذبينى ..

ـ عقوبتك .. قبلة على خدك يا حبيبى .. قالتها برقة وعذوبة ألهبت قلبه فقال

ـ آه .. يا لها من عقوبة رائعة .. ولكن هل أسألك أن تكون على فمى ..

ـ آه .. أيها الطماع المتهور .. سوف ألغى العقوبة فوراً

ـ لا .. لا .. فى عرضك

ـ إذن أغمض عينيك ... فأغمضها .. فقبلته فى خده واستدارت تجرى ..

صاح سالم يستدعى الجميع لتناول الغذاء السريع الذى أحضروه معهم .. وعاد الجميع وجلسوا متجاورين يتناولون الطعام وهم يتبادلون النكات والضحكات والمداعبات ..

ومرت الساعات مسرعة تعدو وكأنها تبخل بلحظات السعادة التى يحياها الإنسان .. وأخذت الشمس تميل نحو الغروب، بينما العربات تعدو مسرعة عائدة إلى المدينة ..

المتطوعـون

أمام دار الإفتاء بحى الشريعة توقفت الخيل التى تجر العربة وترجل منها القاضى أبو الوليد الوقشى وصعد درجات السلم ومضى داخلاً الدار، حيث صعد إلى الطابق الأعلى حيث تتواجد غرفة قاضى القضاة لمملكة بالنسية الشيخ أبو أحمد بن جعفر بن عبد الله بن جحاف ..

نهض ابن جحاف من مكانه مرحباً بالشيخ أبو الوليد، وقدم له الحاضرين الذين يعرفهم وهم الشيخ الأديب الشاعر أحمد بن عبد الولى البتى، والشيخ بن أبو عامر التاكرنى، والشيخ العلامة الفقيه أبو بكر حمدون إمام وخطيب المسجد الجامع ..

تحدث الشيخ أبو الوليد إلى ابن جحاف فقال:

ـ جئتك على موعدنا معاً، فما أن أنهيت صلاة الضحى حتى أتيتك من فورى .. فقال له ابن جحاف ..

ـ بارك الله فيك يا شيخنا .. شرفتنا بمجيئك، وهأنذا قد دعوت هؤلاء الرجال الطيبين لكى يتابعوا معنا ما نتفق عليه .. فرد عليه الشيخ أبو الوليد

ـ كما تعلم فقد حضرت للقائك بناء على طلب الملك القادر بأن نصل جميعاً إلى حل فى موضوع تواجد جند الحامية الأجانب بالمدينة وعدم السماح لهم بالتواجد إلا لمدة ساعتين من يوم الأحد .. فما رأيك ؟

ـ أنت تعلم رأيى فى ذلك .. وهو أننى أرفضه تماماً .. فتدخل الشيخ أبو بكر فى الحديث فقال:

- يمكن أن نصل إلى حل وسط ..

- وما هو ... يتساءل الشيخ أبو الوليد ..

- يمكن أن نوافق على ذلك بشرط أن يتواجد رجال من أهل المدينة محايدون أشداء داخل الأسواق أثناء تواجد الجند، ويكونوا مزودين بالسلاح .. فسأله أبو الوليد

- ولماذا لا يكونون من رجال الملك ..؟

- لا .. لأن الملك تربطه علاقات مع هؤلاء الجند ورئيسهم ولن يجرؤعلى مواجهتهم .. فقال أبو الوليد :

- ولكن الملك لن يوافق على ذلك ... فتدخل إبن جحاف وقال:

- هذه هى شروطنا .. ففكر أبو الوليد للحظات ثم قال:

- كم سيكون عددهم ؟ ... فقال أبو بكر:

- نحو مائة رجل

- وماذا يفعلون لو قاتلهم الجنود الأجانب ..؟

- سوف يقاتلوهم فوراً ... فقال أبو الوليد:

- وكيف يكون لهم القدرة على مواجهة هؤلاء الجنود المحترفين

- سوف ندرب رجالنا على أفضل حال ليكونوا قادرين على ذلك ... فقال أبو الوليد متسائلاً :

- ما رأيكم أن يكون ذلك سراً، ولا يكون لهم زى كزى الجنود بل أن يتولى ذلك واحد منا، بدون علم أحد غيرنا، ولا حتى الملك .. فقال له ابن جحاف ..

- هذا حل معقول وسوف اتابع أنا هؤلاء المتطوعين، وأتولى جمع الأموال سراً لهذا الغرض، وسوف أعين الشيخ بن أبو عامر التاكرنى مشرفاً على تجهيزهم وتدريبهم على الوجه اللائق..

فأيد الجميع ما إتفقوا عليه .. وموافقتهم على نزول رجال الحامية لمدة ساعتين من كل إسبوع فى يوم الأحد ..

التقى جاسر بسالم بعد صلاة المغرب وأخبره أن الشيخ أبو بكر إمام المسجد الجامع قد أرسل فى طلبهما، فذهب سالم معه إلى الشيخ ليقابلاه بعد صلاة العشاء ..

بعد صلاة العشاء التقى الشيخ أبو بكر بجاسر وسالم، وأخبرهما بأنهما مرشحان ليكونا ضمن مائة رجل يتم إعدادهم وتدريبهم على القتال وفنون الحرب بواسطة مدربين محترفين كانوا يعملون فى جيش غرناطة قبل تسريحهم بعد سقوط المملكة فى يد المرابطين .. وأن التدريبات سوف تبدأ بعد نحو أسبوع يومياً بعد صلاة المغرب ويستكمل لمدة ساعة بعد صلاة العشاء عدا يومى الإثنين والخميس حيث يحضران حديث المساء الذى يلقيه بالمسجد الجامع ..

سألهم الشيخ أبو بكر عن استعدادهما للانضمام فوافقا على الفور، وطلب منهم أن يكون الأمر سراً حتى عن أقرب الناس إليهم، وحدد معهم مكان التدريب، وهو فى أحد الساحات المغلقة، والملحقة بأحد المساجد الصغيرة بحى الشريعة ..

مكث القاضى ابن جحاف وصديقه ومساعده الشيخ أحمد البتى، والشيخ بن أبو عامر التاكرنى طوال اسبوع يعدون العدة، ويعقدون الاجتماعات السرية مع المدربين المحترفين، لإعداد برنامج التدريب لهؤلاء الرجال المتطوعين من أهل المدينة ..

طلب المسئول عن تدريبات المتطوعين من ابن جحاف أن يقابل هؤلاء المتطوعين ليختار المناسب منهم .. فلما طالبه ابن جحاف أن يدرب الجميع على القتال رفض ذلك معللاً بأن نفقات التدريب عالية وتأخذ وقتاً وجهداً، ولا يجوز أن يذهبا هباءً .. فوافقه ابن جحاف على ذلك، وبدأت الاختبارات للمتطوعين، حيث نجح فيها كل من جاسر وسالم ومعهم ثلاثة وستون آخرون، ليكون مجموع نواة قوة المتطوعين خمسة وستين رجلاً ..

بعد صلاة العصر بنحو ساعة، ذهب جاسر ليلتقى بخطيبته رضوى فى منزل أسرتها المقابل لمنزل نائلة، وجلس قليلاً يداعب محمود أخيها الأصغر، ويلهو معه.. ثم حضر أبوها أبو عبد الله بن مروان الجزيرى صاحب الورشة الأكبر للحدادة وصناعة السيوف والخناجر بالمدينة، وتبادل الحديث الودى معه فقال له أبو عبدالله :

ـ لم نرك يا جاسر منذ فترة ، باستثناء اليوم الذى ذهبتم فيه للنزهة عند البحيرة ..

ـ لقد انشغلت فى الفترة الماضية، أثناء مرض والدى .. حيث قمت بمهام عمله فى الاتفاق ليلاً مع مراكب الصيد الخارجة فجراً لشراء ما توره من أسماك فى الصباح وقبل الضحى، وما يتلو ذلك، ثم أقوم بما أنا مسئول عنه أصلاً من حيث تصنيف أنواعها المختلفة والإشرف على تجميعها وتعبئتها، ثم توريدها للتجار قبل صلاة الظهر .. وكل ذلك طوال الإسبوعين الماضيين دون انقطاع .. وكما تعرف يا شيخ أبو عبد الله فإن أخى الأصغر منصور ما يزال غير قادر على مثل هذه الأعمال والمهام ..

ـ نعم .. نعم .. وكيف حال الوالد الشيخ جابر الآن ..

ـ بخير والحمد لله ..

ـ إذن قل له إننى أسأل عنه، وأريد أن أراه قريباً لنتحدث فى شأنكما أنت ورضوى ..

ـ سوف أخبره بذلك من فورى يا عماه ..

ـ حسنا، وفقك الله فى عملك ... قالها وهو يقوم من مقعده وينصرف صاعداً إلى الطابق العلوى للدار ..

مضت دقائق أتت بعدها رضوى تتهادى على درجات السلم ثم تدخل الغرفة الملحقة بالردهة الواسعة للدار بالطابق السفلى، حيث يجلس جاسر وجلست على

الأريكة المجاورة حيث يفصلهما منضدة صغيرة فى الركن، وُضِع عليها مفرش مطرز مستدير صغير الحجم ..

وبوجه تعلوه بسمة رقيقة .. طالعته رضوى وقد تعلقت أهدابها، وهى ناظرة إليه بحب وقالت له مرحبة ..

ـ أهلاً بك يا جاسر .. ألم تشتق إلى هذة الغرفة، التى طالما كنا نجلس فيها معاً ..

ـ أجل، بلا شك .. اشتقت لكل ركن بهذه الدار .. أليست دار أعز إنسانة فى الوجود ..

ـ ولكنك مع ذلك استطعت أن تغيب أكثر من ثلاثة أسابيع ..

ـ سبق أن عاتبتينى .. كما عاتبت نفسى أنا من قبلك، والحمد لله على كل حال..

ـ ماذا قال لك أبى ..؟

ـ طلب منى لقاء والدى ليتحدثا عن زواجنا ..

ـ وبماذا أجبته ..

ـ قلت له سوف أخبره بذلك من فورى ليأت و يلقاك ..

ـ ومتى سوف يأتى أبوك ..؟

ـ أنت تسألينى كما سألنى والدك .. ما الأمر أهناك شىء لا أعرفه ..؟

ـ لقد سألنى أبى عن سبب تأخرك فى الحديث معه على موعد الزفاف .. وقد علم من أمى بكثرة شجارنا .. وهو يشعر بالضيق من ذلك .. وقد نهرنى أكثر من مرة وهددنى برفض هذا الزواج إذا ما تمادينا فى شجارنا، وما يتلوه من خصام قد يطول أو يقصر .. وهو يعتبر ذلك نوع من اللهو غير المقبول ...

ـ صمت جاسر للحظات ثم قال بعد أن هرش بطرف إصبعه على جبينه من أعلى ..

ـ وأنا آخشى عناد آبى .. بعد أن هددنى بأنه لن يذهب إلى والدك، مادمنا نتشاجر كثيراً .. مدعياً أنك فتاة ليست مؤهلة لمسئوليات الزواج ... فنظرت رضوى إليه وقد آمسكت بأعصابها وسيطرت على ألفاظها، وقالت ..

ـ ومن المسئول عن ذلك ألست أنت ..؟

ـ نحن الاثنين مسئولان، ويجب أن نتدارك الأمر سريعاً حتى لا يحدث ما نكره..

ـ يجب أن تسرع، وأن تصلح ما أفسدته أنت، وإلا لو عرف أبى بما يقوله والدك، فسوف يرمينى إلى أول رجل يطرق الباب طالبا الزواج ..

ـ هل هددك والدك بذلك ..؟ .... سكتت رضوى ولم تجب، فعاد وقال لها جاسر

ـ وهل آنت تسمحين بذلك ..؟

ـ أنت تعلم أننى لن أرضى إلا بك .. ولكن لابد لك من أن تتدارك ما حدث مع والدك، حتى لا نندم مستقبلاً ..

اقترب موعد صلاة المغرب .. فنهض جاسر من مقعده، وأخفى فى نفسه ما ساوره من قلق بسبب ما سمعه من رضوى .. ثم سلم عليها وودعها وقد تكدرت نفسه .. ولكن سرعان ما لامست كلماتها العذبة الحلوة وهى تودعه أعماق قلبه فاندملت جراحه وذابت ..

واظب جاسر وصديقه سالم على حضور التدريبات العسكرية لفنون القتال فى سرية تامة كما طلب منهما ذلك الشيخ أبو بكر بن حمدون، وتم تسليم كل رجل منهم سيفاً صلباً ودرعًا سميكًا، وبدأت تدريبات الدفاع بالدرع، وتلاها تدريبات حركة السيف لصد الضربات، وأخيراً التدريبات الخاصة بفنون الطعن بالسيف، وتوجيه الضربات للخصم ..

كان تفوق جاسر وسالم على أقرانهما من شباب ورجال المدينة واضحاً، ولكن تفوق جاسر على الجميع كان ملفتاً .. مما كان له تأثير على تحديد درجة كل مقاتل ورتبته بين أقرانه ..

فتولى جاسر قيادة الجميع كمساعد أول للقائد العسكرى البربرى القادم من غرناطة، وعُين سالم كقائد لفيصل من فصائل القوة المشكلة من فصيلين، وأصبح هناك فيصل ثالث يتم إعداده من المتطوعين الجدد، الذين انضموا للقوة خلال الفترة الأخيرة .. لتصبح كامل القوة للمتطوعين أقل من مائة متطوع مقسمة على ثلاث فصائل كل منها تضم نحو ثلاثين رجلاً بخلاف قائد كل فيصل، وجاسر مساعد القائد العسكرى الغرناطى المسئول عن قوة المتطوعين..

اختار رجال الحامية الأجنبية الصغيرة، التابعة للملك الفونسو والمخصصة لحماية الملك القادر، منطقة حى الرصافة جنوب شرق بالنسية مكاناً للإقامة والمعيشة فى خيام على طرف هذا الحى الراقى (خارج أسوار المدينة) ولم يكن يسمح لهم بدخول الحى أو السوق بداخله إلا يوم الأحد من كل إسبوع ..

أصبح رؤية الجند الأجانب فى شوارع وأسواق المدينة أو أحيائها سواء داخل أسوار المدينة أو خارجها، بعد صلاة الظهر لمدة ساعتين من كل يوم أحد من كل أسبوع، من المشاهد الغريبة، التى لفتت أنظار الناس لهؤلاء الغرباء وهم يرتادون الأسواق..

لم يكونوا فرادى ولكن على هيئة مجموعات تسير جنباً إلى جنب فى أسواق المدينة، بزيهم العسكرى وسيوفهم المتدلية من الأجناب، والصدارى الجلد على أجسادهم، بينما طهمت الأكتاف بزرد من المعدن الرقيق ..

وقد رحب الكثير من التجار بتواجد هؤلاء الجند الأجانب، على أساس أنه يزيد من دخولهم وأرباحهم، ورواج تجارتهم .. بينما تعامل غالبية الناس مع هذا المشهد الذى يتكرر كل إسبوع، بالكثير من التوجس والحذر..

حرص الأهالى على عدم السماح للنساء والفتيات بالنزول إلى شوارع المدينة فى هذا اليوم، وسمحوا فقط للجوارى والإماء بالنزول للسوق لشراء ما هو ضرورى، وعلى وجه السرعة ..

لم يكن الحظر فقط أثناء تجول هؤلاء الغرباء .. ولكن كنوع من الحيطة، لم تسمح العائلات بتواجد بناتها ونسائها فى طرقات المدينة فى هذا اليوم حتى يغادرها هؤلاء الغرباء، وعندئذ تسرع النساء والفتيات إلى النزول لشراء ما يلزمهن قبل أن يحل الظلام..

وداعًا.. «سيدة»

حطت طيور الحمام الزاجل بقرطبة، كل منها إلى المكان الذى تقصده مع اختلاف الراسل، واختلاف المآرب..

وصل حمام المرابطين حاملاً الرسائل إلى بعض رجال المدينة ممن يدعون الناس إلى الانقلاب على حكم المعتمد، أو من ينوب عنه فى حكم المدينة وهو الأمير الفتح الملقب بالمأمون..

ودعت الرسائل هؤلاء الرجال لمواصلة التحريض، ودعوة الناس للخروج على المأمون وإسقاطه..

وعلى الجانب الآخر وصل حمام الملك المعتمد حاملاً رسائله إلى الأمير المأمون يدعوه فيها إلى الصبر والصمود فى مواجهة المرابطين.. وقال له فى رسالة منها.. ولا تجزع فالموت أهون من الذل.. وليس السلطان إلا من القصر إلى القبر..

كان جيش المرابطين قد أتم، بقيادة على بن الحاج، الحصار حول مدينة قرطبة التالدة [1] .. وعلى الضفة الجنوبية لنهر الوادى الكبير عسكرت القوات وأقامت مخيمها الواسع عند منعطف النهر إلى الشرق من القنطرة العربية

---

١ ـ تالدة : يقال للشىء الدائم الذى لا يزول تالِدٌ بالِدٌ .. فالتالد القديم والبالد اتباعٌ له - معجم (تهذيب اللغة) ، ومعجم (لسان العرب) .

الرومانية [1]، وعلى مسافة نحو كيلو متر واحد منها وامتد المخيم ليشمل منطقة شقندة حتى موقع المقابر الرئيسية للمدينة [2] ..

حاولت القوات المرابطية بعد مناوشات عديدة، عبور النهر إلى ضفته الشمالية، فتصدت لها القوات المدافعة عن المدينة بضراوة، فأعاد المرابطون تنظيم القوات لشن هجمات أكثر قوة وشراسة ..

احتضنت الأميرة الشقراء الجميلة «سيدة» أطفالها الثلاثة وأخذت تقبلهم بحنان وخوف، وهم يسمعون دوى الانفجارات الناجمة عن قصف المجانيق لكرات اللهب على أسوار قرطبة ..

وفى الوقت نفسه انشغل الخدم فى تجهيز الملابس والمتعلقات الخاصة بالأميرة ذات الأصول الأوربية وأطفالها، وأخذوا يضعونها فى صناديق خشبية قوية ذات أغطية مقوسة ومدعمة فى أركانها بقطع حديدية مثبتة بمسامير معدنية لتعطى الصناديق حماية ووقاية عند التنقل بها ..

بكى الأطفال وهم يتطلعون إلى وجه أمهم وقد تساقطت العبرات على خديها، وبدت على وجوههم الحيرة والقلق مما يسمعون من دوى الانفجارات التى تهز المدينة، أو مما يشاهدونه من خوف قد تبدى على وجه أمهم وقد فاضت الدموع بسخاء من عينها ..

انشغل الأمير المأمون وأمضى معظم يومه يتفقد الجنود والفرسان، وهم يردون على قصف المرابطين لهم، بقصف مضاد من المجانيق، وأضحت ضواحى قرطبة الجنوبية القريبة من الأسوار تحت مظلة من اللهب تبدى وميضه المرعب مع غروب الشمس، وتردد صدى القصف فى جنبات المدينة البائسة ..

---

١ ـ بنيت القنطرة العربية العظيمة على أنقاض القنطرة الرومانية المتهالكة القديمة، ولذا كان يطلق عليها البعض القنطرة العربية الرومانية.

٢ ـ تقع منطقة شقندة بمساحة ثلاثة كيلو مترات مربعة إلى الجنوب الشرقى من قنطرة قرطبة ، وهى منطقة يلتف حولها نهر الوادى الكبير عندما يغير اتجاهه إلى الجنوب الغربى بدلاً من الاتجاه إلى الغرب .. متخذاً مساراً جديداً حتى يصل إلى مدينة أشبيلية الواقعة إلى الجنوب الغربى من قرطبة وعلى مسافة نحو خمسة وستين كيلو متراً منها..

بعد ساعة من غروب الشمس وتحت وابل المطر هدأ القصف المتبادل بين الفريقين وعاد الهدوء الموحش يلف المدينة .. وفى غرفة مخدع الأمير المأمون اجتمعت الأسرة حيث قبّلَ الأمير أبناءه، وزوجته سيدة مودعاً لهم قبل أن ينطلقوا إلى حيث حصن المدور المنيع إلى الغرب من المدينة ليبقوا فيه بعيداً عن القصف الذى تتعرض له قرطبة ..

وأضحى القصر الذى يعيش فيه الأمير الواقع فى الضاحية الجنوبية معرضاً للخطر باقتراب المرابطين من الأسوار، وذلك لاستمرار تدفق المجانيق ذات المدى البعيد إلى معسكرهم ..

وقفت العربات التى تجرها الخيول الملكية عند الباب الخلفى للقصر تنتظر الأميرة وأولادها، بينما سار الأمير المأمون محتضناً طفلته الصغيرة ذات السنوات الثلاثة، وقد نامت مستغرقة على كتفه، وتهدل شعرها الذهبى فغطى جانباً من وجه أبيها الأمير، بينما فضحت العبرات النصف الآخر لوجهه وقد تدحرجت برقة عليه، بينما الصدر يئن لوعة وحسرة على فراق الأميرة الحبيبة، وأطفاله أفلاذ كبده، وهم فى عمر الزهور ..

وعَبْر ممرات القصر ودهاليزه سار الأمير وأسرته الصغيرة حتى وصل إلى مكان العربات .. وبعد أن حملت سيدة طفلتها من كتف الأمير، مضت لخطوات إلى حيث تقف العربات، فتناولت إحدى وصيفاتها الطفلة النائمة التى تحملها فأخذتها منها فى حين توقفت الأميرة برهة، واستدارت لتودع الأمير .. فعادت إليه وقد زاغت عيناه ولم تنطق شفتاه بكلمة ..

فطوقته بذراعيها وتشبثت به للحظات طال معها العمر، وقصر .. ثم تراجعت لتخطو مسرعة وتدخل العربة المخصصة لها وأطفالها، حتى لا تترك لنفسها العنان، فتنهار صلابتها ومقاومتها عند لحظات الفراق فى هذا الوقت العصيب ..

تحركت العربات والفرسان المرافقون لها واخترقت شوارع المدينة وقد انتصف الليل وخلت الشوارع إلا من جند الحراسة وبعض الخيول التى يمتطيها الفرسان تعدو هنا وهناك .. وبعد أن مرت العربات بقصر المنصور، وهو من القصور الملكية انحرفت العربات يساراً ومضت إلى أن وصلت إلى الباب الغربى للمدينة،

وهو باب بطليوس حيث فتحت الأبواب بسرعة ثم أغلقت بعد مرور الموكب .. وانطلق الركب مسرعاً عبر الحدائق الشاسعة التى تقع خارج الأسوار على الجانب الغربى، وما هى إلا نصف ساعة من الزمان، حتى كانت العربات تعبر البوابة الشرقية لحصن المدور المنيع ..

سرت أخبار تحالف الملك المعتمد مع الفونسو فى كل أنحاء قرطبة، وتناقل الناس هذه الأخبار بكثير من الارتياب والامتعاض ..

فإذا كان الناس قد تقبلوا ذلك الأمر فى الماضى على أساس أن ذلك كان ضمن مسلسل للصراع الداخلى بين إمارات وممالك الأندلس المسلم من أجل بسط النفوذ والسيادة .. لذا فقد استعان المعتمد فى ذلك الحين، بالقوات الأجنبية المسيحية حيث كانت تحارب تحت رايته مقابل المال ..

وسعى المعتمد لمد نفوذه على مملكة غرناطة وضم أراضيها إلى مملكة أشبيلية ليتسع نفوذها ويمتد سلطانها إلى مساحات شاسعة من الأراضى، فيكون من أهم آثاره زيادة قوة المملكة بين سائر الممالك الأندلسية، أملاً فى توحيد الأندلس وعودته إلى مجده العظيم ..

وأصبح الأمر مختلفاً الآن .. فالتحالف هذه المرة ضد مصلحة الإسلام والمسلمين، وهو ما لا يقبله أحد .. فالصراع الآن لم يعد صراعًا بين الممالك والإمارات من أجل النفوذ والسلطة، ولكن أصبح بين الممالك والإمارات المسيحية من جهة، وإن اختلف حكامها بين بعضهم البعض .. وبين الإمارات والممالك الإسلامية من جهة أخرى، ولا يفترض، وإن اختلف حكامها بين بعضهم البعض، أن يستعين أى منهم بالخصم المسيحى .. لأن الصراع أصبح بين قوتين متصارعتين تحاول كل منهما القضاء على القوة الأخرى .. وهو صراع الوجود .. صراع الحياة أو الموت .. والمنتصر فيه سوف يفرض إرادته على الطرف الآخر

لأمد بعيد ..

تنامت الروح العدائية من شعب قرطبة ضد المعتمد وحلفائه .. وفَتُر تأييد الشعب للحرب ضد المرابطين .. وهو ما انعكس على الأوضاع فى القتال الدائر حول المدينة ..

ونجح المرابطون فى عبور نهر الوادى الكبير باستخدام القوارب، كما استطاعوا الوصول إلى الضفة الشمالية للنهر من خلال السيطرة على قنطرة المنصور الواقعة إلى الغرب من القنطرة الأساسية المواجهة لأبواب قرطبة ..

بدأ المرابطون فى نقل المجانيق إلى جوار أسوار المدينة مباشرة، وهو ما يعنى أن أسوار المدينة معرضة بصورة خطيرة لضربات المجانيق القوية، كما أصبح قلب المدينة معرضاً للأضرار الجسيمة إذا ما استمر القتال لفترة طويلة..

تحت سماء ملبدة بالغيوم تساقط البرد برقة كشعيرات طائرة من القطن الأبيض الناصع، فكسى الأرض والأشجار، وطغى اللون الرمادى بدرجات متفاوتة على امتداد الوادى والنهر .. ومن بعيد وقفت سلسلة الجبال الشامخة [1] تطل على نهر التاجو أمام مدينة طليطلة العاصمة الأمامية لقشتالة ..

منذ الساعات الأولى للصباح الباكر، توالى وصول الوفود من أنحاء مملكة قشتالة، وليون، وجليقيه للقاء الملك الفونسو ..

مرقت الخيول القوية وعليها الفرسان والأمراء عابرة للقنطرة العتيقة، مسرعةً حاملة الفرسان بالبيارق والشارات التى تشير إلى شعار المدينة أو المقاطعة القادم منها كل فرقة، وقد انتصبت الأعلام ترفرف بقوة من شدة الريح ..

خيم الوجوم والقلق على وجوه الحاضرين وقد أحاطوا بالملك الفونسو وهو

---

١ ـ سلسلة جبال طليطلة ، وتقع إلى الجنوب من نهر التاجو .. وعلى مدى البصر ونحو الشمال البعيد تظهر بوضوح قمم سلسلة جبال وادى الرملة..

جالس على رأس منضدة طويلة من الخشب السميك مرتدياً عباءة قرمزية من القطيفة المحلاة بخيوط مذهبة بسيطة ومن تحتها قميص أسود من الصوف السميك له ياقة عالية مستقيمة مطرزة بالخيوط المذهبة، أحاطت بها سلسلة غليظة من الذهب السميك تدلت إلى منتصف الصدر وفى وسطها صليب من الذهب الخالص نهاياته الأربعة على شكل ورق الشجر ..

سكت لدقائق طويلة.. وقد ارتكز بمرفقيه على المنضدة ومد ساعديه للأمام.. وتهدلت خصلات من الشعر الأشقر على جبينه.. وبعيون زرقاء حادة، أخذ يتأمل وجوه الحاضرين وكأنه يراهم للمرة الأولى.. ولكن كعادته راح يقرأ الأفكار والخلجات فى عيون الجالسين حوله، فهو يستعين بما لديه من ملكة الفهم والحدس فى التنبؤ بتصرفات الآخرين وذلك لاختيار الأشخاص المناسبين منهم للمهام التى يوكلها إليهم..

ثم طلب من الحاضرين تقارير بأحوال المقاطعات والبلدات والحصون .. فتكلم الكونت بدرو انسوريث [1] الصديق المقرب من الملك الفونسو وحاكم سلدانيا وليبنا، وتلاه أخوه الكونت جنثالبو، حاكم مقاطعة كاريون .. ثم الكونت جرسيه اوردنيث، حاكم مقاطعة ريوخا وعاصمتها جرانيون .. ثم الكونت مارتين مونيوث، حاكم مدينة مونت ميور فى منطقة جليقيه .. فأخذ كل منهم وحسب أقدميته يتلو على الملك تقريراً عن ما تحت إمرته من مسئوليات.. ثم التفت الفونسو إلى القائد ألبير هانيس وقال له:

ـ هل أتممت حشد القوات..؟

نعم يا مولاى..

ـ كم عددهم وعتادهم..

---

١ ـ كان الكونت بدرو انسوريث وأخيه الكونت جنثالبوانسوريث فى صف الفونسو، وقت النزاع على الحكم بين الفونسو، واخيه الأكبر سانشو.. فلما هُزم الفونسو هربا معه إلى مملكة طليطلة لدى الحاكم المسلم فى ذاك الوقت وهو الملك المأمون بن ذى النون .. فلما قتل سانشو أثناء حصاره لمدينة سمورة، عاد الجميع إلى المملكة الموحدة قشتالة وليون وجليقيه وأصبح الكونتان من المقربين للملك الفونسو السادس (ملحمة السيد) ترجمة الدكتور / الطاهر أحمد مكى ـ دار المعارف ١٩٩٥.

- استدعينا نحو خمسة آلاف فارس، ونحو عشرة آلاف مقاتل بكامل عدتهم من السيوف والرماح والسهام .. وما زال يتوافد إلينا الأمراء بقواتهم من مختلف المقاطعات، ونتوقع أن يصل العدد إلى عشرة آلاف فارس ونحو ثلاثين ألف مقاتل..

- متى يكتمل العدد؟

خلال أسبوعين، وعلى أقصى تقدير، ثلاثة أسابيع..

- حسنًا.. حسنًا

ثم التفت الفونسو ووجه حديثه لكل الحاضرين وقال:

- الملك المعتمد يتعرض لهجوم ضار من المرابطين، وقد حاصروا قرطبة، وجيان وحصن رُندة، وإستولوا على أراضى الجزيرة الخضراء وفيها مدينة طريف فى أقصى الجنوب .. بينما تحركت حشود ضخمة إلى أشبيلية لإسقاط الملك المعتمد.. والموقف أصبح فى غاية الخطورة..!

قاطعه عندئذ الكونت جرسيه اوردنيث صاحب الفم الأعوج، حاكم مقاطعة ريوخا فقال:

- مولاى نحن رهن إشارتك، ومستعدون فوراً للتحرك لمهاجمة المرابطين والقضاء عليهم ..

- هكذا أنت دائماً يا جرسيه .. تتسرع وتقرر دون أن تعطى الأمر ما يحتاجه من فهم ودراسة .. هل تعلم عدد جيوش المرابطين الموجودين الآن فى قلب الأندلس المسلم..؟ .. إنهم يزيدون عن مائتى ألف مقاتل، منهم نحو خمسة وثلاثين ألف فارس على الأقل .. هل تريد أن نهاجمهم الآن؟ هاه ..

تلعثم أوردنيث.. وتمتم قائلاً :

- أقصد أن نهاجمهم بعد أن نطلب حشود أخرى من جيراننا فى الشرق فى ممالك أرجون ونافار وقطلونيا..

- أرجوك يا جرسيه الوقت لا يحتمل الحديث بهذه السطحية.. إن ما تقوله

يحتاج إلى أسابيع طويلة، ولا نستطيع أن ننتظر حتى يستولى المرابطون على كل الأندلس..

ـ مولاى.. أين القنبيطور رودريجو وقواته التى تعربد فى شرق الأندلس متقمصاً دور الشرطى الحافظ للنظام، وما هو إلا قاطع طريق يجرى وراء الأسلاب والأموال.. أليس هذا هو الوقت المناسب ليأتى هنا بكل ما لديه من قوات خاضعاً ملبياً لندائكم للحرب على المرابطين..

ـ أيضاً ليس هذا هو الوقت المناسب لتصفية الحسابات بينك وبينه، وردريجو سبق لنا أن طلبنا منه العون، وقت حصار المرابطين لحصن ليبط، وقد تأخر علينا.. وهو كعادته دائما لا يمتنع عن المساعدة، ولكنه دائماً يأتى إلينا متأخراً وكأنه يتعمد ذلك، ولا أستطيع أن أعتمد عليه فى الوقت الحالى..

ـ حسناً يا مولا.. حسناً.. فقط أحاول أن أقدم بعض الحلول للمأزق الحالى..

تجاهل الفونسو رد الكونت جرسيه وتابع قائلاً

ـ على كل حال فليستعد ألبير هانيس ليقود القوات الحالية الموجودة لدينا، وليتحرك خلال ثلاثة أيام لإغاثة المعتمد، وفك الحصار عن أشبيلية، وذلك باستدراج المرابطين شرقاً على قدر الإمكان لتدور المعركة بعيداً عن أشبيلية... ثم سكت قليلاً وقد نظر إلى ألبير هانيس ليسمع منه ما قد يود أن يبديه من ملاحظات... فقال ألبير:

ـ أنا جاهز منذ اللحظة للتحرك، وسوف أتابع خلال اليومين القادمين أحوال القوات، وأخطر جلالتكم اولا بأول بما قد نحتاجه قبل التحرك بالقوات لمواجهة المرابطين... فقال ألفونسو وهو يتابع نقاشه مع الحاضرين..

حسناً يا ألبير.. وأنت يا جرسيه إكمالاً لما أشرت إليه اكتب صيغة خطاب إلى القنبيطور رودريجو واطلب منه العون فوراً، وإرسال جزء من قواته إلينا لتكون مع باقى القوات التى سترد إلينا خلال الأيام القادمة بمثابة احتياطى لدينا نوجهه وفقًا لتطورات الموقف مستقبلاً.. ولتعيد إلىّ نص الخطاب لأراجعه وأوقعه.. ولكن ما هو موقعه ومكانه بالتحديد يا جرسيه..؟

- آخر ما لدىّ من معلومات أنه موجود الآن بالقرب من بالنسيه يحاول فرض الجزية على إمارات شرق الأندلس..

- ماذا .. أتقول آنه يفرض الجزية..؟ .. إن هذه المنطقة هى موقع نفوذى، ولا يجرؤ أحد على العبث فيها، وقد أمنت هذه الإمارات على السلام مقابل ما آخذه منهم من آموال .. فماذا يقولون علىّ، وكيف سيدفعون لى مستقبلاً..؟

- لا أدرى يا مولاى، فقد اعتقدت أنه يعمل طبقاً لتوجيهاتكم..! (قالها وهو يستدرج الملك الفونسو إلى مزيد من التساؤلات ليحرضه على القنبيطور) ..

- توجيهاتى..! ما هذا الهُراء؟.. ارسل له فوراً أمراً بالكف عن تحصيل الجزية، وإلا سوف أسلبه ما قد منحته له من عفو، وسأعاود الكرة عليه إن لم يكن قد إتعظ من عقابى له فى الماضى.. (فقال له جرسيه باسلوب تحريضى)

- مولاى أخشى آن يستفذه هذا التهديد، فلا يقدم العون لنا أو يتقاعس عنه..

- ماذا .. فليفعلها إذن، وسوف يكون ذلك عليه وبالا وسخطاً منى، ولن أغفر له بعدها أبداً ... ثم نظر الفونسو إلى الحاضرين وقال لهم بنوع من التهكم:

- أتدرون ما هى مشكلة القنبيطور أو عقدته ..؟ إنه يريد أن يكون له دور محسوس فى مملكتنا الموحدة.. يريد أن يشار إليه بالبنان كبطل، أو كفارس لا منازع له أو ربما كأسطورة.. أتعرفون لماذا..؟ لأنه أدرك أنه لن يكون يوماً ملكاً أو أميراً، وقد رأى فى نفسه أنه ربما يكون أفضل منا جميعًا.. وقد استغل فرصة نفيى له لكى يحقق نوعاً من النجاح قد يحقق له مجداً، ولكن بالرغم مما قد يراه البعض أنه قد نجح فى ذلك، فأنا أنظر للأمر من منظور آخر.. فهو قد يكون بطلاً فى معركة، أو يكون مقاتلاً مغواراً فى نظر البسطاء.. ولكنه أبداً لن يكون رمزاً كبطل فى التاريخ.. فالتاريخ لا يمجد اللصوص والمخربين، وهو يحاول أن يصنع مجده بالترهيب والتخريب، وهى أعمال لا يمجدها التاريخ أو تحترمها الأعراف.. وكل ما سوف يجنيه اليوم من أموال وأسلاب وغنائم ليس نتيجة حرب أو صراع مشروع، وإنما نتيجة سلوك اللصوص وقطاع الطرق.. ولأنها كذلك فلن يدوم زهوه ولن يبقى عزه.. فهو إلى زوال وإن طال الأمد..

ثم نهض الفونسو من مقعده ودعى الحاضرين للاستراحة قبل التوجه لمآدبة الغداء التى قد أعدها لهم ...

لقاء .. «الكدية»

سارت الأمورعلى قدم وساق مع اقتراب يوم الزفاف للعروسين سالم وخطيبته نائلة .. وعلى الرغم من تلاقى جاسر وسالم من بعد صلاة المغرب من كل يوم للتدريب على القتال سراً فى حى الشريعة، إلا أن جاسر قد رافق صديقه ايضاً فى كل خطوة للإعداد للزفاف ..

أما نائلة فقد كانت تحيا أجمل وأحلى لحظات حياتها .. فقد اقترب اليوم الذى يلقى كل محب حبيبه، وتصبح الدنيا ملكاً لهما بحلوها ومُرها .. ولكن حتى لحظات المرارة والشقاء لها مذاق آخر مع الحبيب وتحت ظله..

وأصبح منزل نائلة عند الظهيرة، ملتقى لجارتيها رضوى وماتيلدا الجارة المسيحية من أصل إسبانى وأخريات يأتين من آن لآخر وكن جميعهن يساعدن فى التطريز للمفارش والأغطية أو حياكة فستان الزفاف أو غيرها من أمور التجهيز للزفاف.. وكن يتبادلن النكات والقفشات أثناء قيامهن بهذه الأعمال فى جو من الصفاء والود.. وكانت تنطلق الزغاريد من آن لآخر تجلجل فى المنزل على عادة المسلمين فى مثل هذه المناسبات السعيدة..

فى عصر يوم السبت الأخير من يناير ١٠٩١ (٤٨٣ هجرية) تعاطى بعض جند الحامية الأجنبية الموجودون بالرصافة خارج أسوار بالنسيه، الخمور بكثرة .. وظلوا يتمازحون ويلهون مع بعضهم البعض، وهم يتنزهون بين المزارع والبساتين ، وقبل غروب الشمس بدقائق، ابتعد أربعة منهم عن مكان المعسكر وقد حملتهم أرجلهم إلى داخل أحد بساتين الفاكهة بمنطقة الريوسة إلى الغرب من بالنسية ..

وقع بصر الجند الأربعة على جاريتين تتمازحان وتغنيان بعض الأغانى الحالمة الرقيقة .. حيث حملت كل منهما مقطفا به بعض الثمار الناضجة، وكانتا عائدتين إلى الدار داخل البستان ..

وللحظات دارت رءوس الجند وسال لعابهم وقد تلاقت أعينهم، ولم تنطق ألسنتهم بشيء .. فقد تسللوا بين الحشائش التى تكسو أرض البستان حتى اقتربوا منهما ثم انقضوا عليهن وكتموا أنفاسهن وسحبوهن بعيداً إلى حيث الزراعات الكثيفة، وبعد أن جردوهن من ملابسهن بالضرب واستخدام الخناجر، أخذ كل اثنان منهم يتناوبان الاعتداء والاغتصاب على الجارية التى أمسكوا بها..

بعد صلاة العشاء خرج أصحاب الدار للبحث عن الجاريتين بعد أن بحثوا عنهن بعد الغروب فلم يسمعوا لهن صوتاً، فاستعانوا ببعض الفلاحين العاملين بالبستان وقد حملوا المشاعل، وأخذوا ينادون عليهن عبر المدقات والدروب التى تتخلل البستان دون جدوى ..

بعد شروق الشمس بدأت عملية البحث عنهن على نطاق أكبر، وشارك فيه مع أصحاب الدار أعداد كبيرة من الفلاحين والعمال، حتى عثر بدران عامل الشيخ مسعود القيسى على بقايا ثياب ممزقة ملقاة على بعض المزروعات.. فصاح على الناس فأتوا إليه، وظلوا يبحثوا بهمة حتى عثروا على الجاريتين وهما ملقاتان على الأرض فى حالة إغماء كامل وفقدان للوعى ولا يسترهما إلا النذر اليسير من الثياب..

وصل سالم وأبوه إلى بستانهما بعد شروق الشمس بساعتين، فوجدا زحاماً وصراخاً ونساءً تنتحبن ورجالاً يبكين وهم جميعاً يحملون جسدين فوق الأكتاف، فأسرعا إلى هذا الجمع، وسمعوا منهم ما قالته إحدى الفتاتين التى بقيت على قيد الحياة، وقبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة لتلحق بالأخرى التى سبقتها إلى الموت ..

لم يتوان للحظة الشيخ مسعود القيسى وابنه سالم وحملا الفتاتين على العربة التى أقلتهم إلى البستان وانطلقوا بالجثتين إلى بالنسية للصلاة عليهما فى

المسجد الجامع، عند صلاة الظهر، ولحق بهم جمع من أهل البستان والأهالى، وما فى الجوار من بساتين ومزارع ..

اكتظت الشوارع المؤدية إلى المسجد الجامع وقد انتشر الخبر فى أرجاء المدينة وتوافد الناس من كل مكان إلى حيث المسجد ليتأكدوا من الخبر، وعلا الصياح والصراخ وكثر النحيب والبكاء .. حتى أذن المؤذن لصلاة الظهر فتوافد الجميع داخل المسجد، وأتبعوا صلاة الظهر بالصلاة على الأموات ثم حملوا النعوش وساروا إلى مقابر المدينة، ثم عادوا وقد تجمعوا فى الساحة الكبيرة أمام المسجد الجامع ..

بدأ توافد جند الحامية إلى شوارع المدينة كالعادة كل يوم أحد وبينما يتوافدون كمجموعات لاحظوا الوجوم على وجوه الناس وتكونت حولهم حلقات وحاصرهم الناس من كل جهة.. والجند لا يدرون ما يدور حولهم فبدأوا يتوجسون من الناس وقد بدا العبوث على وجوههم، وتعالت الصيحات من حولهم، وشيئاً فشيئاً انقض الناس بالضرب بالعصى والأيدى والأحذية على الجنود الذين فوجئوا بذلك .. فبدءوا فى العدو بسرعة والناس تلاحقهم واستطاع الكثيرون منهم الفرار، باستخدام السلاح لحماية أنفسهم بينما تعرض الكثيرون منهم إلى الضرب المبرح، وكادوا يهلكوا لولا توافد شرطة المدينة، حيث أبعد جنود الشرطة الناس وفرقوهم، وقاموا بسحب الجند المصابين وحملوهم إلى المشفى الخاص بالمدينة وقد آحاطها العسكر لمنع الناس من الاقتراب ..

فى المساء توجه قاضى القضاه أبو جعفر بن جحاف ومعه الشيخ أبو بكر بن حمدون والشيخ أبو الوليد الوقشى إلى الملك القادر بن ذى النون، مطالبين بالقصاص من الجند، لحفظ حق المواطنين..

هَدَّأ الملك القادر من خاطرهم ووعدهم بالقصاص بعد أن يقابل قائد الحامية .. فانصرفوا على وعد بإخبارهم ما تم التوصل إليه مع قائد الحامية فى شأن هذا الحادث، على أن يكون ذلك فى أسرع وقت ممكن حتى تهدأ ثورة الجماهير الغاضبة ..

كان لهذا الحادث أثر كبير فى عامة الأحداث بمدينة بالنسية .. فقد هز الحادث أفئدة الناس، وشعروا بوطأة تواجد الجند الغرباء على أهل المدينة .. كما شعر الناس بالخطر على نسائهم وبناتهم فمنعوهن من النزول تماماً طوال يوم الأحد من كل إسبوع ولا يقتصر النزول بعد المغرب كما كان يحدث من قبل ..

كما تأثر مسعود وابنه سالم بما حدث فى قريتهم وأقاموا العزاء فى القرية وتوافد الناس للتعزية، ولم يكن هناك مفر من تأجيل موعد زفاف سالم إلى عروسه نائلة .. واتفق أن يكون ذلك بعد مرور شهر من تاريخ الحادث ..

أما فى المدينة وما يحدث فى حى الشريعة فقد كانت الصدور تشتعل بالثورة وطالب الكثير من المتطوعين أن يتم الرد على الحادث بالتعرض علانية لجند الحامية ومنعهم من دخول المدينة على الإطلاق ..

على أنه قد هدأ من ثورتهم أن اجتمع بهم القاضى بن جحاف والشيخ أبو بكر والشيخ بن أبو عامر التاكرنى ووعدوهم بالقصاص، وحذروا أى فرد منهم أن يتصرف منفرداً وبدون أوامر .. فالانضباط شرط أساسى فى الرجل العسكرى.. ولابد أن تغلب مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد، وتم تحذير الجميع من الخروج على الأوامر، ومن يخرج عنها فإن مصيره الفصل من مجموعة المتطوعين..

ومضت أيام ولم يحرك الملك القادر ساكناً، ولم يستدع أحدًا من مجلس الشورى ليعلمه ما تم الاتفاق عليه مع نائب قائد الحامية الأجنبية، حيث إن قائدها (ألبير هانيس) كان فى مأمورية بطليطلة .. فطلب القاضى بن جحاف لقاء الملك، فلم يجب طلبه، ولم يرد عليه الملك ..

استدعى القاضى بن جحاف كلا من .. الشيخ أبو الوليد الوقشى والأمير عبد الرحمن بن طاهر، وابن الفرج (نائب الملك)، وابن عبدوس (متولى بيت المال ومقرر الضرائب) وهم بطانة الملك المقربة إليه .. كما استدعى الشيخ آبو بكر بن حمدون، والشيخ بن أبو عامر التاكرنى، والشيخ أحمد البتى، وذلك للقاء عاجل بدار القضاء والإفتاء بحى الشريعة بالمدينة..

وصل الرجال والشيوخ إلى دارالإفتاء والقضاء فى يوم السبت الأول من فبراير، وبعد السلام والتحية فيما بينهم تحدث القاضى أبو جعفر بن جحاف فقال :

ـ لقد اكتمل نصاب مجلس شورى البلاد، ولا ينقصه إلا الملك القادر بالله .. وقد طلبت منه أكثر من مرة لقاءه ولكنه ماطل ورفض، وأـ ... فقاطعه آبو الفرج قائلاً

ـ لم يمانع الملك، ولم يرفض، ولكنه انشغل بأمور هامة تخص أحوال البلاد، وقد ـ ... فقاطعه القاضى بن جحاف

ـ وهل دم الناس وأرواحهم وأعراضهم، ليست مما يخص آحوال البلاد وشئونها التى يجب على الملك أن يصونها ويحميها ..؟ فقال أبو الفرج

ـ لم أقصد ذلك ولكن الملك، علم أنك قد طلبت لقاءنا فطلب منا أن نخطرك أنه لم ينس موضوع حادث الأحد الماضى، ولكنه لم يتثن له الاجتماع مع نائب قائد الحامية ... فرد ابن جحاف :

ـ اسمع .. يا ابن الفرج .. لسنا هنا نتشاور فى موعد يكون فيه الملك مشغولاً أو خالياً ليقرر شيئًا اسمه الشرع والقضاء .. وأمور القضاء لابد فيها من الفتوى فوراً، فالقضاء البطىء ظلم .. وهذا ما لا أرضاه لنفسى ولا لشعبنا فى بالنسيه، وقد حثنا الله تعالى .. بأنه كتب عليكم العدل في القصاص أيها المؤمنون، حركم بحركم، وعبدكم بعبدكم، وأنثاكم بأنثاكم، ولا تتجاوزوا وتعتدوا كما اعتدي من قبلكم وغيروا حكم الله فيهم ... فقال ابن الفرج:

ـ لقد أخطرنى الملك أن الأمر يمكن تسويته عن طريق الدية لأن الحادث وقع على جاريتين، وهو ما نص عليه الشرع، ويمكن للملك أن يكون ضامناً لهذه الدية، وتفسير ذلك يمكن أن يوضحه القاضى أبو الوليد ... فقال القاضى أبو الوليد الوقشى:

ـ تعلم يا أبا جعفر أن القرآن قد نزل بحكم القتل بآيات القصاص كقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى﴾ (١) وما علينا إلا القضاء بما شرعه الله ... فقال القاضى أبو جعفر بن جحاف :

ـ وما رأيكم أيها القاضى أبا الوليد ..

ـ علينا أن ندعوا أصحاب الأمر، وهم أصحاب الجاريتين ونقدم لهم قيمة الجاريتين كتعويض لهم .. وذلك على سند ما أجمع عليه الجمهور فقالوا لا يقتل الحر بالعبد ,لأن العبد سلعة، وإنما تجب فيه قيمته ولأنه لا يقاد بطرفه ففي النفس بطريق الأولى وكفى الله المؤمنين شر القتال ...

ـ فسكت القاضى بن جحاف قليلاً وقد اصفر وجهه ثم ضحك ضحكة ضجر وعدم الرضا وقال للقاضى أبو الوليد ..

ـ أعزك الله يا أبا الوليد .. القتل الخطأ لا يجب فيه دية .. أما وهذا قتل عمدى، فإما القصاص وإما الدية .. ولا تجوز الدية إلا برضا صاحب الأمر، فإن رضى فله دية المرأة، وهى أكبر من قيمة الجارية والشرط هو رضى أصحاب الأمر .. فلو كانتا قد قتلتا خطأً لما استحق صاحبهما إلا قيمتهما .. أما وأن القتل عمدى فهناك مسألتان .. الأولى القصاص وهو قتل القتلة .. والثانية الدية إن قبل صاحب الأمر ..

ـ فتدخل فى الحديث ابن الفرج فقال:

ـ وماذا إن لم يقبل صاحب الأمر الدية وطالب بالقصاص ..

ـ يجاب إلى طلبه .. وقوله تعالى ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ وفي شرع الله القصاص، وهو قتل القاتل وهذا لحكمة عظيمة وهي بقاء المهج وصونها، لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل كف عن صنيعه، فكان فى ذلك حياة للنفوس ... فقال ابن الفرج:

---

(١) سورة البقرة ـ الآية ١٧٨ .

ـ وكيف يكون القصاص ..؟

ـ ننهج هنا نهج سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه فقد قال (إذا قتل رجل امرأة فإن آراد أولياؤها قتلوا صاحبهم ووفوا أولياءه نصف الدية، وإن أرادوا استحيوه وأخذوا منه دية المرأة) ... فقال ابن الفرج:

ـ ولكننا لا نعرف من هم القتلة بالتحديد حتى نقتص منهم، وخير لنا أن نقبل بالدية وقد تعهد الملك بدفعها ... فقال له ابن جحاف:

ـ أوتقول أن الملك سيدفعها عنهم ... فارتبك ابن الفرج وقال:

ـ أقصد أنه ضامن لدفعها إن تأخروا فى ذلك..؟ ... فقال ابن جحاف:

ـ لا تعنينا الدية بقدر ما يعنينا القضاء بما أمر به الله سبحانه وتعالى، ولكى يرتدع الجميع ويعلموا أن شرع الله سوف يطبق عليهم ويأخذ المسلمون حقهم منهم، وفقاً لشرع الله ... فقال ابن الفرج:

ـ نعم .. هذا ما لا خلاف عليه ... فقال القاضى إبن جحاف:

ـ إذًا نسأل أصحاب الأمر فإن قبلوا.. فلابد للملك أن يأخذ من الأجانب، الدية مهما كان الثمن ..

ووافق الجميع على ما انتهى به قضاء القاضى بن جحاف وقرروا أن يطلعوا أصحاب الأمر بما قرره قاضى القضاة عن طريق الشيخ أبى بكر حمدون إمام وخطيب المسجد الجامع ..

وبعد أن التقى الشيخ أبو بكر بالشيخ مسعود القيسى وابنه سالم باعتبارهما أصحاب الجاريتين، وبعد أن حكى لهما ملابسات الموضوع وحكم الشرع، وافقا على الدية لعدم إدراكهم من هم القتلة، وعاهدوا الشيخ على عدم النكوص بعد الدية لأن فى ذلك خروج عن الشرع .. فوافقاه على الذهاب لقاضى القضاة ليبلغاه بما اتفقوا عليه، ليتم توثيقه ورفعه إلى الملك، بصفته ولى الأمر ..

تحركت قوات القنبيطور رودريجو، مغادرة لأراض مُربيطر واتجهت جنوباً .. وبعد يوم طويل حطت القوات فى منطقة الكدية، وهى ضاحية من ضواحى

بالنسية تقع خارج أسوار المدينة إلى الشمال الغربى منها .. وأقام السيد القنبيطور معسكره هناك وأرسل يطلب لقاء مندوب الملك القادر بالله، للتفاهم على أوضاع الحماية اللازمة لمملكة بالنسيه ضد أطماع الغرباء .. هكذا ادعى رودريجو فى رسالته إلى الملك القادر بالله ..

قرأ القادر بالله رسالة السيد القنبيطور .. وقد غص حَلقه، وجف ريقه، وقال لابن عبدوس:

ـ ماذا يريد منا القنبيطور ؟ .. ألم نعطه ما طلب من أموال ..؟ ... فقال ابن عبدوس:

ـ لعله يريد أن يطلعنا على شأن ما أو شىء من هذا القبيل ..

ـ إذن اذهب إليه فى معسكره وتقصى الأخبار وعد إلينا لتطلعنا عليها ..

ـ السمع والطاعة يا مولاى ..

ـ استقبل رودريجو .. ابن عبدوس بترحيب شديد .. فهو يعرفه منذ زمن بعيد حينما خدما معاً تحت راية الملك المقتدر ملك سرقسطة فى حروبه ضد مملكة أرجون ونافار .. وها هو الآن يعمل فى بلاط الملك القادر بالله حاكم بالنسيه، وأصبح موثوق به، ويرسله الملك فى أعمال السفارة والوساطة نيابة عنه ... فقال رودريجو له:

ـ أهلاً بك يا أبن عبدوس .. اشتقت لرؤياك .. كيف حالك ..؟ وكيف حال الملك القادر بالله..؟

ـ على خير ما يرام.. ولقد قلق الملك حينما طلبت أن تلتقى مندوباً عنه لتحدثه فى أمر هام .. فما هو الأمر ..؟ لعله خيراً

ـ نعم خيراً.. كل ما هنالك أننا كنا قد اتفقنا على أن يقوم الملك بسداد أموال لى مقابل حماية البلاد ضد أطماع الطامعين .. فهناك الملك المنذر ملك لاردة ودانية، وهناك كونت برشلونة .. وهناك الملك المستعين .. وغيرهم كثيرون ..

ـ ألم يدفع لك الملك ما اتفقتم عليه..؟

ـ لا لم يدفع لى إلا خمسة آلاف دينار ..!

ـ وعلى كم اتفقتم ..؟

ـ الحقيقة أننا لم نناقش هذا الأمر بالتحديد .. فقط تكلمت عن أموال تُعيننى على نفقات جندى، ووافق الملك على ذلك، ولم نحدد المبلغ المطلوب .. ودفع لى فقط خمسة آلاف دينار ..؟

ـ أوليست كافية ..؟ ... نظر القنبيطور إلى ابن عبدوس وقال :

ـ إن هذا المبلغ لا يكفينى لعشرة أيام ..!

ـ ماذا تقول يا رودريجو .. عشرة أيام ..؟

ـ نعم .. عشرة أيام .. فالمملكة واسعة، وأراضيها خصبة .. وخراجها كبير، فلماذا يبخل علينا الملك، ونحن نتحمل عنه مشاق حماية البلاد وتأمينها من خطر الحرب والدمار ..

ـ إذًا قل لى ولا تبالغ كم تطلب من الملك مقابل ما تقوله وتتعهد به من حماية ودفاع عن البلاد ..

ـ لن أطالب بخمسة عشر ألف دينار فى الشهر، ولكن سوف أطلب فقط عشرة آلاف دينار كل شهر تدفع لى أو لمندوبى الذى أرسله إليه ..

ـ هذا مبلغ باهظ لا يمكن أن يدفعه ولا تستطيع خزانة الدولة أن تتحمله ..

ـ من يسمعك يا ابن عبدوس يخيل إليه أنك تدفع من مالك الخاص ..

ـ لا أدفع من مالى الخاص، ولكنى أدرى الناس بما نستطيع أن ندفعه ..

ـ حتى وإن لم يكن لديك فى بيت المال .. فالملك يستطيع أن يدفع مما لديه من أموال وهى على ما أدرى أكثر من أن تحصى أو تعد .. أليس كذلك ..؟

ـ وكيف لى أن أدرى يا رودريجو .. على كل حال سوف أخطره بمطالبك، وسوف نرى ما يمكن لنا تدبيره لك من أموال ..

ـ اسمع يا صديقى ابن عبدوس .. ليس لك أن تتدخل فيما أدركه أنا، وأعرفه .. واترك لى الملك أتفاوض معه ..

- حسناً سوف أعود لك غداً بالرد ..

ووقف ابن عبدوس، وحياه رودريجو، وعانقه مودعاً على موعد للقاء فى اليوم التالى ..

ذهل الملك القادر مما سمعه من ابن عبدوس عن مطالب القنبيطور المالية، ولم يدر كيف يتصرف إزاء شراهة هذا الرجل، وسأل نفسه .. هل أدعو مجلس شورى البلاد وأطلعهم على الأمر ..؟ .. آه سوف يرمقنى المدعو ابن جحاف بنظراته الحادة، ويجدها فرصة للتشفى، وإعطاء النصائح، وغير ذلك كثير .. لا لا لن أطلعهم بهذا الأمر، فأنا لا اريد أن أزيد المشاكل .. إذن ما الحل ..؟ .. تساءل الملك القادر بينه وبين نفسه فلم يجد إجابة ..

فى غرفة الاطلاع والقراءة فى قصر المملكة بضيعة بلا نوبة .. وقف ابن عبدوس يحملق فى وجه الملك وهو شارد بذهنه، يريد أن يعرف ماذا يدور برأسه، ولكنه لم يدر هو الآخر شيئًا، وكل ما فعله أنه أخذ يتابع الملك وهو يروح ويجيء فى الغرفة، ويشاور بأصابعه أحياناً، وكأنه يحدث نفسه ..

شغل ابن عبدوس نفسه بالتطلع إلى محتويات الغرفة المخصصة للقراءة والاطلاع وتوقيع الأوامر والنواهى، وراح يسلى نفسه بمتابعة جدران الغرفة وعليها أرفف خشبية رصت عليها مئات الكتب القيمة من كل صنف ولون، وقد جلدت بأفخم أنواع الجلد والورق المقوى والمصقول، وعليها كتبت أسماء الكتب بالأحرف المذهبة والنقوش الفضية والذهبية ورصت بعناية فائقة، ومنها المجموعة الكاملة للمؤرخ الإسلامى الأندلسى الشهير أبو مروان بن حيان، وتحتاج إلى نحو ثلاثة وأربعين صندوقاً لتعبأ فيها (١) .. فلقد كان الملك شغوفا بجمع الكتب ولكنه لا يقرأ منها إلا النذر اليسير ..

بعد دقائق جلس الملك الشاب منهكاً محطماً على كرسيه الفخم أمام مكتبه الخشبى المصنوع من أخشاب المآوجنا والأبانوس القاتمة والسوداء وقد طعمت أركان المكتب بالعاج الأبيض، وقال لابن عبدوس

---

١ - (ملحمة السيد) ص١٤٦ترجمة الدكتور / الطاهر أحمد مكى - دار المعارف ١٩٩٥.

- قل لى يا ابن عبدوس ماذا أفعل مع هذا الكلب المسعور ..؟

- لا سبيل لنا إلا أن نسايسه ..

- وكيف ذلك ..؟

- ندفع له أقل مما يطلب ولا حيلة لنا الآن سوى ذلك .. ولا نريد أن نغضبه .. وكما ترى جلالتكم، فلا توجد قوات يعمل لها حساب إلا قواته الموجودة بصفة شبه دائمة فى شرق الأندلس، وهى الأسرع فى تلبية نداء الاستغاثة، والجميع يحسب له ألف حساب ..

- فكم ندفع له إذن

- فليكن ثمانية آلاف دينار .. وسوف أقنعه بالقبول .. وسوف يعمل حسابا لصداقتى معه ..

نظر الملك إليه ولم ينطق بكلمة، ثم أمره بدفع هذا المبلغ من خزانة المملكة على أن يدبر له الملك بعد ذلك باقى الأقساط من ماله الخاص ..

غادر ابن عبدوس معسكر السيد القنبيطور بعد أن سلمه خمسة آلاف دينار من الملك القادر بالله، وامتلأت نفس القنبيطور بالسعادة الغامرة لما أحرزه من انتصار لم يصل إليه احد من قبله .. ألا وهو فرض جزية مالية باهظة على القادر بالله .. وقرر السيد أن يطالبه فى خلال أشهر قليلة بمبالغ مضاعفة، وأيقن بموافقة القادر على طلباته فى المستقبل .. لأنه أضعف من أن يرفض الخضوع لطلبات القنبيطور ..

لم تدم لحظات السعادة والنشوة عند السيد إلا لوقت يسير .. فسرعان ما وصل رسول من الملك الفونسو حاملاً رسالة مكتوبة بعناية وحذر .. فعلى الرغم من كثرة عبارات الود التى ترد فى معظم سطورها، إلا أن لهجة التهديد والتحذير أيضاً لم تبرح صفحاتها ..

لقد كانت طلبات الملك الفونسو محددة وواضحة، فأولاً طلب الفونسو من السيد أن يقدم ما يستطيعه من عون ودعم لمملكة قشتالة وليون وجليقيه فى

الحرب ضد المرابطين بعد أن اتسع نفوذهم، وتحركت جيوشهم إلى سائر بلاد الأندلس المسلم، وتساقطت المدن والقلاع الواحدة تلو الأخرى، وقد حازت ثقة وتأييد شعوب الأندلس بعد أن يأست من أمرائها وملوكها الفاسدين ..

وشملت الرسالة طلباً ثانياً ومحدداً .. فقد أمر الفونسو القنبيطور رفع يده مباشرة عن إمارات وممالك شرق الأندلس وحددها بالاسم، وجاءت بالنسبه فى المقدمة، وتلاها إمارة القنت، وإمارة البونت، وإمارة شنتمرية الشرق بمنطقة السهلة، وكل البلدات والمدن والقلاع والحصون التابعة لهذه المناطق ..

لم يصدق القنبيطور نفسه وهو يقرأ رسالة الملك الفونسو .. فهى بمثابة حكم بالإعدام على كل انتصاراته وطموحاته .. فكل ما ذكره الفونسو فى رسالته من إمارات وممالك هى بالفعل قد خضعت له، فكيف يمكن أن يترك هذا المجد والنفوذ بسهولة، وتضيع سنوات التشرد والنفى هباء، ودون جدوى ..

فكر السيد كثيراً وأعاد قراءة محتويات الرسالة مرات ومرات، وهو لا يكاد يصدق نفسه .. وحدث نفسه فقال .. لا .. لا .. لن أقبل هذا أبداً وإن أنفقت عمرى وروحى .. ولكن ماذا أفعل ..؟ وكيف يمكننى أن أوقف ذلك الذى يطلبه منى الملك الفونسو .. لابد لى من التمرد وإعلان العصيان مهما كلفنى من أمر .. آه .. لا أستطيع ذلك، فلديه بنتاى دونيا ألبيرا، ودونيا سول .. فلذتا كبدى .. وأمهما الحبيبة زوجتى دونيا خامينا .. آه يا للشقاء إنه يقبض على قلبى ولا أملك شيئاً حيال ذلك .. إذًا لابد لى من التحايل عليه إلى وقت ما حتى أخلِص بنتاى وزوجتى من قبضته، ولكن كيف السبيل إلى ذلك .. آه لا أعرف .. لا أعرف..

مكث رسول الملك الفونسو يومين منتظراً رد القنبيطور على رسالة الملك، وطلب رسول الفونسو من السيد الإذن له بالرحيل حاملاً رده إلى الملك .. فماطله السيد ليومين آخرين ثم قال له .. ارحل أنت وسوف يذهب للملك رسول منا خلال يومين، فلدينا الكثير لكى نرسله إلى الملك .. فحياه مندوب الملك وقفل عائداً إلى طليطلة ..

بعد صلاة العيد وذبح الأضاحى، رحب الشيخ أبو عبد الله مروان والد رضوى .. بالشيخ جابر بن حسن الفهرى تاجر الأسماك الكبير، وبولده جاسر خطيب رضوى .. وفى أجواء من الود والألفة تبادل الشيخان التمنيات الطيبة بعيد الأضحى المبارك .. ثم قال الشيخ أبو عبد الله مروان:

ـ لقد طال غيابك عنا يا شيخ جابر، وشفاك الله وعافاك مما أصابك من برد هذا الشتاء القارس .. ويبدو عليك أنك قد كبرت، وودعت الشباب ..

وهنا دخلت رضوى الغرفة وقد أمسكت بيدها أخيها الصغير محمود، حيث سلما على الضيوف

ـ نعم .. لقد كان برد هذا الشتاء قارساً، والحمد لله على كل حال فقد تماثلت للشفاء، ولا يخفى على أحد أننا قد كبرنا والبركة فى هؤلاء الشباب .. وما أن استطعت الخروج حتى أتيت إليك، وإنها المصادفة الطيبة أن يكون ذلك مع حلول عيد الأضحى المبارك أعاده الله عليكم جميعاً باليمن والبركة ..

ـ بارك الله فيك يا شيخ جابر ..

وفى هذه الأثناء دخلت الجارية بهارة تحمل طسا به أكواب عصير البرتقال، وقدمتها للضيوف ووضعت الطس على المنضدة التى تتوسط الغرفة ثم خرجت .. فتابع الشيخ جابر حديثه فقال:

ـ إننا نغتنم فرصة العيد المبارك لكى نتفق على موعد زفاف رضوى لجاسر .. فما رأيك يا شيخنا العزيز ..؟

ـ رضوى بنتك كما هى ابنتى، ونحن أهل يا شيخ جابر ..

ـ حسناً يا أبا عبد الله .. ما رأيك أن يعقدا القران فى عيد الفطر المبارك إن شاء الله .. أحيانا الله وأحياكم ..

سكت الشيخ أبو عبد الله ليستوعب المدة المتبقية على عقد القران والزفاف، فوجدها تتجاوز التسعة أشهر فقال مستغرباً:

ـ هذا معناه تسعة أشهر يا شيخ جابر ..!

ـ نعم .. نعم .. يا أبو عبد الله، ولكنها تمر سريعاً بإذن الله ..

امتعض وجه الشيخ أبو عبد الله وقال وكأنه يأنب الشيخ جابر:

ـ ألم أقل لك إنها مثل بنتك يا شيخ جابر .. أهذا ما ترضاه لبنتك .. تسعة آشهر أخرى من الانتظار .. وما الذى يضطرنا إلى هذا .. إن كنتم لستم مستعذين للزواج فقولوا هذا صراحة ..

شعر الشيخ جابر بالإحراج، وابتلع ثورة الشيخ أبو عبد الله، وقال:

ـ الموضوع وما فيه يا أبو عبد الله وبصراحة .. إنهما ما زالا على عدم وفاق، ويتشاجران أكثر مما يتوافقان .. ولعل مدة الأشهر التسعة تساعد على التفاهم بينهما أكثر ويستطيعان خلالها أن يقوما من تصرفاتهما تجاه بعضهما البعض ..

ـ بنتنا يا شيخ جابر ليست للتجربة، وصون الفتاة عندنا بزواجها .. وعلى كل حال عندما تكونوا على يقين من رغبتكم فى الزواج فأهلاً وسهلاً ..

ووقف الشيخ أبو عبد الله وكأنه ينهى الزيارة .. فقام الشيخ جابر وقد أشاح بوجهه وغادر الغرفة وهو يقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. ولم ينظر للشيخ أبو مروان وهو يقولها .. بينما توقف جاسر للحظات وقال موجهاً حديثه إلى الشيخ أبو عبد الله

ـ اعذر والدى يا شيخ أبو عبد الله .. فالخطأ خطؤنا أنا ورضوى، ويصلح الله الأحوال إن شاء الله ...

وخرج مسرعاً يتبع والده دون أن ينتظر رداً من الشيخ أبو عبد الله .. وجلس جاسر بجوار والده فى العربة دون أن ينطقا بكلمة، وابتعدت عن الدار بعد أن ساد المكان السكون والوجوم ..

ما أن سمعت رضوى صوت العربة وهى تبتعد حتى وضعت وجهها بين كفيها وأخذت تبكى بحرارة وأسى، بينما قدمت أمها من داخل المنزل لتسأل عما حدث .. فلم يجبها أحد وراحت عيناها تتطلعان إلى زوجها تارة وإلى بنتها وهى تبكى

تارة لتعرف الجواب، فلم تهتد للسبب حتى قال الشيخ أبو عبد الله موجهاً حديثه إلى ابنته رضوى ..

- لن أعطى ابنتى إلا لمن يستطيع ان يعرف قدرى ومكانتى .. ولن أسمح لأحد أن يمن علىّ فى زواج إبنتى .. فهناك العشرات من الرجال يتمنون اللحظة التى أجيبهم فيها على طلب اقترانهم بابنتى ..

فقالت الأم .. من هؤلاء الذين قد نسوا أنفسهم ولم يدركوا إلى من يطلبون النسب والمصاهرة .. سوف يندمون كثيراً على غرورهم، وصلفهم .. من هم هؤلاء أصحاب الروائح النتنة (نسبة إلى رائحة السمك التى تظل متعلقة بملابسهم وإن جاهدوا فى إخفائها) وقد تحملناهم على نتانتهم ..

وعند هذه اللحظة لا تتحمل رضوى الإهانة فتجرى وهى تبكى مسرعةً إلى حجرتها..

فى دار الشيخ أبى عمر بن عتبة كانت الأجواء مختلفة .. حيث أمضت عائلة مسعود القيسى وابنه سالم يوم العيد بدار الشيخ وعائلته، ولم تبدد من مشاعر السعادة ضرورات تأجيل الزفاف لما بعد العيد، وكما قال سالم لخطيبته نائلة.. عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم .. فردت نائلة .. إن غداً لناظره قريب ..

وغردت الفرحة وتناجى الحبيبان بعيونهما، واستعانا بالصبر والتقوى .. فكانا الزاد الذى لا ينضب والحصن الذى يهدى ويصون ... ومرت الساعات وكأنها دقائق .. فلحظات السعادة كوميض البرق يخطف البصر ويسرق لحظات العمر..

ومع غروب الشمس كان وداع الأحباء .. ولكنه وداع لأجل اللقاء .. فما أقربك أيها الليل الطويل الحالك .. وما أبعدك أيها الغد العريض المشرق ..

ستارة.. آل رزين

بعد أن احتل المرابطون الضفة الشمالية لنهر الوادى الكبير، أصبحت قواتهم على مقربة من حصن المدور (الواقع إلى الغرب من قرطبة) حيث كانت الأميرة سيدة قد هربت بأولادها إليه .. فأرسل لها زوجها الأمير المأمون حاكم قرطبة يطلب منها أن تغادر الحصن فوراً إلى البلدة التى تحمل نفس الاسم «المدور» .. حيث تقع على مسافة تزيد عن مائة وعشرين كيلو متراً شمالاً خلف سلسلة جبال سييرا مورينا (جبل الشارات) ..

وصلت فرقة صغيرة من الفرسان المدججين بالسلاح والدروع إلى حصن المدور ليلاً وأحاطت بالعربات التى تحمل الأميرة وأولادها ومتاعهم الذى خف وزنه وغلى ثمنه .. ورافقت فرقة الفرسان العربات فى رحلتها إلى مخبئها الجديد ..

بعد يومين من المسير المتواصل ليلاً ونهاراً توقفت خلالها القافلة سويعات قليلة للراحة، ولإطعام الخيل .. وصلت القافلة أخيراً عند المساء إلى بلدة المدور الواقعة فى منتصف المسافة ما بين قلعة رباح فى الشرق من وادى يانة وبين مدينة المعدن إلى الغرب من نفس الوادى .. حيث تطل عليها القمم البيضاء الشاهقة لسلسلة جبال المعدن، المتفرعة من سلسلة جبال سييرا مورينا (جبل الشارات) ..

بعد يوم من الراحة تركت فرقة الفرسان الأميرة وأطفالها بالقصر الصغير التابع للملك المعتمد فى رعاية حراس القصر وحاشيته .. وقفلت الفرقة عائدة

إلى قرطبة، حيث القتال الدائر بين الأمير المأمون وقواته المدافعة عن المدينة من جهة، وطلائع جيش المرابطين من جهة أخرى، حيث مازالت قواته تتابع العبور إلى الضفة الشمالية للنهر لتحكم الحصار حول المدينة ..

انتظر القائد المرابطى على بن الحاج، حتى اكتمل عبور قواته لنهر الوادى الكبير، وأخذ يبعث بسرايا الجيش إلى كل المواقع التى يدافع عنها الأمير المأمون حاكم قرطبة فاحتلت القوات منطقة وادى الرصافة (شمال غرب المدينة)، وأرض الريض الغربى، وربض بلاط مغيث (إلى الجنوب الغربى من المدينة)، ومنطقة ربض البرج (شرق المدينة القديمة) ذات الدفاعات الضعيفة ومعظم هذه المناطق تقع خارج أسوار قرطبة ..

حانت ساعة الهجوم الكاسح على المدينة.. واستعرت السماء بكرات اللهب تتساقط على أحياء المدينة، وفى نفس الوقت ضربت المجانيق الأسوار بالكتل الصخرية الهائلة، فتهدمت بعض الأجزاء منها محدثة ثغرات كبيرة، ولكنها لم تكن كافية لدخول القوات منها إلى المدينة ..

فى هذه الأثناء قامت القوات المدافعة عن المدينة بأعمال بطولية رائعة، واستغل المدافعون فترات الراحة بين كل قصف، والقصف الذى يليه، فى رأب الصدوع بالأسوار، وإصلاح الثغرات على وجه قياسى فى السرعة والبراعة الهندسية العسكرية ..

شعر القائد المرابطى بالإحباط، بعد أن لمس بسالة المدافعين ,ومناعة الحصون وقال قولته الشهيرة «لو كنا نقاتل بلاد الشرك ما استعصت علينا كما تستعصى علينا الآن هذه البلاد»..

ولم يجد سبيلا إلى إحراز النصر إلا باستخدام الجانب المعنوى لشعب قرطبة.. مرة بمداخلتهم والاتصال بحلفاء المرابطين داخل المدينة، لتحريضهم ضد أميرهم المأمون .. ومرة أخرى باستغلال وطأة الهجوم على المدينة وقسوته بزيادة سخط الناس مما تحدثه الهجمات من دمار .. ليطالبوا حاكم المدينة بتسليم المدينة سلماً، مع العهد بالسلامة فى المال والأهل ..

فى هذه الأثناء .. واصل الأمير سير بن أبى بكر قائد الجيوش المرابطية، زحفه لإسقاط الملك المعتمد بحاضرة أشبيلية والقلاع المحيطة بها.. فحاصر قلعة ومدينة قرمونة شرق أشبيلية، وقلعة جابر إلى الجنوب منها، كما تقدمت القوات محاولة التسلل ما بين غرب المدينة والنهر (امتداد نهر الوادى الكبير) (١) للوصول إلى باب جوليس ..

فوجئت القوات المرابطية المتسللة بوابل من القصف بكرات اللهب تنطلق من حشد سفن الأسطول البحرى لمملكة أشبيلية داخل النهر وقد شكلت حائطا دفاعيًا منيعًا لكامل منطقة غرب المدينة .. فانسحبت القوات إلى الجنوب لتعيد تنظيم نفسها استعداداً لقتال طويل ضار ..

عند حصن مدينة رندة (إلى الجنوب الشرقى من أشبيلية بنحو مائة كيلو متر) قنع القائد المرابطى قرور بالمكوث فى معسكره المقابل للحصن ناحية الجنوب بعد أن استعصى عليه الحصن بموقعه الفريد المنيع، والجرف الهائل الذى يفصله عن الوادى ويحميه من أطماع الطامعين، وقد تزود الحصن بما يكفيه لسنوات من مياه ومؤونه وسلاح..

فى هذا الوقت.. حاصر القائد يطى بن إسماعيل حصن ومدينة جيان، وبدأ سلسلة من المفاوضات لتسليم الحصن سلماً بدون قتال .. واستجاب قائد الحصن وسكان المدينة لهذه المفاوضات، وبدأت المراسلات لوضع الشروط الخاصة بالتسليم..

لثلاثة أيام أقيمت الزينات وعلت الزغاريد وقد إقترب موعد الزفاف، وتهيأت نائلة لعُرسِها السعيد، وراحت الماشطات يمشطن الشعر ويجدلنه، وتضعن العجين الممزوج بالكافور والعنبر تارة، وأخرى يضعن يداها وقدماها فى ماء الورد الممزوج بأجود العطور وأطيبها ..

---

١ - يسير مجرى نهر الوادى الكبير شمال مدينة أشبيلية ، وينعطف فجأة عند حد المدينة الغربى ، إلى اتجاه الجنوب ليعطى المدينة مانعًا طبيعيًا من ناحية الغرب..

وفى يوم الزفاف .. فرشت الأرض بالأبسطة الحمراء والزرقاء بدرجات من الألوان الزاهية، وامتلأت الدار بباقات الورد والريحان .. وتقاطر إلى الدار النساء والرجال والفتيات والفتيان من أقارب وأصدقاء العروسين .. وبدا وكأن الحى كله يحتفل بالعرس السعيد ..

وقفت العربة التى تجرها أربعة من البغال المفتولة أمام دار الشيخ أبو عمر بن أبى عتبة، والد العروس .. وقد زينت مظلة العربة بصفوف من الورد الأحمر القانى تليها صفوف من عناقيد الفل الأبيض والياسمين فى تناسق بديع ..

وترجل من العربة العريس سالم بن مسعود القيسى، وقد ارتدى سروالاً وقميصا وفوقه صديرى كلها بالون الأبيض الناصع، وقد طرز الصديرى بخيوط مذهبة على الصدر وأطراف الأكمام، وقد وضع عمامة بيضاء صغيرة، تدلى منها الشال الأبيض على كتفه الأيسر وتبعه صديق عمره جاسر ..

وما كاد يخطو العريس خطوة على البساط الأحمر الممدود أمام مدخل دار العروس حتى علا الضجيج والتصفيق والتهليل والتكبير من الأهالى والأصدقاء والأحباء .. حيث جلس فى الردهة الواسعة للدار بالطابق الأرضى، فى المكان المعد له وسط الرجال، وقد تتابعوا إليه يقدمون التهنئة له بالزفاف الميمون ..

بينما جلست العروس فى الطابق العلوى للدار وبجوارها صديقتها رضوى وتوسطت العروس قريباتها وصديقاتها وجيرانها من أهل الحى .. فتألقت بقوامها الممشوق فى فستان الزفاف المطرز بالخرز والترتر، وتجلت روعة التطريز، ودقته فزادها فتنةً وجمال وكأنها قمر بدر مكتمل، أضاء بريقه مكان العرس فزاده سَناءً وسَنا ..

لاح وجهها الأبيض وعيناها السوداوان الكحيلتان وقد زاد بريقهما .. ومن فوق جبينها تزينت بطرحة بيضاء مزدانة بعناقيد الفل والياسمين فتدلت على كتفيها .. وتردد الغناء بصوت الجوارى الحالمات فى جنبات الدار، وهن يصفن العروس بأبيات من الشعر جاء فيها:

رَبيبُ مُلكٍ .. كـان اللهَ أنـشأهُ ‏ ‏ ‏ ‏ من ناصع التبرِ إبداعا وتحسينا

كانت له الشمس ظئراً، فى أكلتهِ ‏ ‏ ‏ ‏ بل ما تجلى لـها إلا أحـاييـنا

كـأنما أنبتت فى صَحنِ وَجَـنته ‏ ‏ ‏ ‏ زُهرُ الكـوَاكبِ تعويذا وتزيينا (١)

وحضر العرس، الكثير من وجهاء المدينة والتجار، حيث حضر القاضى بن جحاف، والشاعر الأديب أحمد البتى .. وعقد القران الشيخ أبو بكر حمدون إمام المسجد الجامع ..

ودارت الطسوس على الحاضرين بأنواع العصائر والمشروبات حلوة المذاق متعددة الألوان ..

وذرفت عينا الشيخ أبو عمر بدمعات قليلة، وهو يتذكر أم نائلة وقد تمنى أن تكون معه فى هذه الليلة المشهودة لترى بعينها أحلى لحظات العمر ..

واستمر غناء الجوارى .. وقامت مجموعات منهن، ليرقصن على ألحان القيثارة والرق، ورحن يتمايلن وهن ضاحكات باسمات .. فأشعن جوا من البهجة والسرور فى نفوس المدعوين .. ثم أعدت الولائم، ودعى إليها الضيوف، فالنساء مع بعضهن البعض، والرجال معاً فى الطابق الأرضى للدار ..

وبعد العشاء بساعتين ضربت الدفوف بقوة، وقامت العروس لتزف إلى عريسها .. فشهقت الكثير من الفتيات شهقة خفية، وسرت بأجسادهن رجفة قصيرة، واقشعرت أبدانهن، ورحن يقبلن العروس وقد فاضت عيونهن بدموع الفرحة والسعادة، ورحن يتخيلن أنفسهن مكانها .. فزادت دقات القلب، وعادت الرعشة إلى الأجساد .. فيالها من لحظات لا تنسى ..

تحت دقات الدفوف الصاخبة سارت العروس إلى عريسها الواقف تحت درجات السلم ينتظرها، وتهادت على السلم بخطوات هادئة ولكنها مرتجفة، والكل من حولها يحدثها، ولا تسمع شيئًا إلا دقات القلب وقد علت خفقاته، وطل عرق خفيف على جبينها وأطل .. واتسعت عيناها لترى كل شىء .. فلم تر شيئًا سوى عريسها المتوثب لها والقابع عند نهاية السلم ..

فسارت إليه تحملها قدماها، ولم تدر .. أتهرع إليه وتضمه إلى صدرها أم تفر منه وقد تحفزت عيناه لها ..

بعد خطوات قليلة سار فيها عريسها سالم إلى جوارها، وما أن عبرت قدماها خارج الدار لتركب العربة التى ستقلها وزوجها إلى دارهما .. حتى فاجأها سالم .. ولم تدرى بنفسها وقد خطفها من يدها ورفعها على ذراعيه، وقد فاجأها بجرأته وودت لو لطمته على خده .. فقد أذهلها حينما انقض عليها ليحملها إلى العربة .. ورمقت بعينيها وجه أبيها، فلم تره يثور على عريسها .. بل رأته باسماً وقد تهدلت أجفانه بنظرة الرضا والقبول .. فاستسلمت لفارسها الجرىء، وأسكنت رأسها على صدره ..

استغل رودريجو فترة تواجده بمنطقة الكدية فبعث مندوبيه ممن يجيدون العربية إلى القرى والبلدات فى أحواز بالنسيه، ليدعوا الشباب مما لديهم القوة والشجاعة للانضمام إلى جيش السيد ..

وأخذ مندوبو السيد يعددون المزايا التى يجنيها كل فرد ينضم إلى تلك القوات .. وتوافد الفقراء والمعدمون وهم كثيرون من كل حدب وصوب باحثين عن لقمة العيش التى تسد رمقهم حتى وإن كان السبيل إليها بمعصية الخالق .. وتطلع الكثير منهم إلى غاية الفوز بالمال والثراء العاجل ..

وبدأ رودريجو يعد العدة للرحيل إلى مملكة سرقسطة، بعد أن أرسل إليه الملك المستعين بالله يطلب منه التعجيل بالقدوم إليه .. وتذكر السيد ما كان يربطهما من أواصر الصداقة المتينة منذ أن كان المستعين ولياً للعهد فى ظل ولاية أبيه الملك المؤتمن، ثم من بعد توليه حكم المملكة .. وتذكر رودريجو كيف كان ينهل من عطاء المقتدر ثم المؤتمن، وأخيراً المستعين .. وفتحت عليه خزائن سرقسطة فنهل من مالها الكثير بسبب الخدمات التى قدمها والحروب التى خاضها بقواته تحت راية بلادهم ..

مع بداية فصل الربيع تحرك السيد بالقوات ماراً بإمارة ألبونت[1]، والتقى بأميرها عبد الله بن محمد القاسم، وطالبه بالنصف الباقى من الجزية السنوية المتفق عليها وقدره خمسة آلاف دينار (إجمالى الجزية السنوية عشرة آلاف دينار) فأطاع الأمير صاغراً ليشترى لنفسه البقاء والراحة ..

كان الأمير يرفل فى سكون بعيداً عن أحداث الأندلس ومشاكل أمرائها وملوكها، وتوارث عن عائلته [2] الانعزال والمسالمة للحفاظ على العرش .. فرأى فى الخضوع والاستكانه السبيل الوحيد للاستقرار والبقاء ..

أكمل السيد رحلته إلى إمارة شنتمرية الشرق ناحية الشمال الشرقى من إمارة ألبونت، وعلى مسافة نحو خمسين كيلو متراً منها، وأرسل مندوباً عنه ليطلب تحديد موعد للقاء الأمير أبو مروان عبد الملك بن رزين حاكم الإمارة ..

كانت إمارة شنتمرية الشرق بسهلها الخصيب وموقعها الفريد عند منابع نهر خالون أحد فروع نهر إبرة أحد أجمل وأمتع الأماكن التى يهوى السيد أن يعسكر فيها بقواته .. ولولا خضوع الأمير لطلبات السيد، ودماثة خلقه لبقى شهوراً فى أراضيها لا يغادرها .. ولكن منعه من ذلك وفاء الأمير بالتزاماته نحو السيد أولا بأول ..

تبعد العاصمة شنتمرية الشرق، الواقعة فى منتصف أرض السهلة الخصيب، على مسافة نحو تسعين كيلو متراً إلى جنوب غرب مدينة سرقسطة .. كان رودريجو متشوقاً لضيافة الأمير .. فكرمه الحاتمى، وإسرافه فى الترحيب بالسيد وقواته، كان له أبلغ الأثر فى عشق السيد لهذه الإمارة ..

---

١ ـ تقع مدينة ألبونت فى منتصف الطريق ما بين قسطلونة على شاطئ البحر ، وقلعة كونقه على مقربة من نهر طورية فى حمى سلسلة جبال بالنسيه ..

٢ ـ حكم عبد الله بن قاسم الإمارة حتى توفى سنة ١٠٣٠ميلادية ، وتولى الإمارة من بعده ابنه محمد الملقب بـ يمن الدولة حتى عام ١٠٤٢م ، تلاه ولده الأحمد الملقب بـ عز الدولة وتوفى سنة ١٠٤٨م وآلت أخيراً بعد تقلبها لعدد من الأمراء إلى عبد الله بن محمد القاسم .. وحتى هذا التاريخ ١٠٩١م كان مستمراً فى الحكم زهاء أربعين عاماً متصلة ـ من كتاب دولة الأسلام فى الأندلس. محمد عبد الله عنان ـ ج٣ ص٢٦٠ ـ هيئة الكتاب المصرية .

بوادى اذكون [1] الممتد .. بقممه الخضراء وسهوله الواسعة، نزل السيد بقواته، واتخذوا من الأخبات [2] مواقع للخيام ليعسكروا فيها .. بينما كعادته اتخذ السيد.. قمة من القمم الخضراء المتعددة مكاناً لخيمته، ليتاح له رؤية معسكره الكبير..

امتلأت الأرض بالحشائش الخضراء الزاهية، حيث تفتحت زهور الربيع، بألوانها البيضاء، والصفراء، والزرقاء، والحمراء على طول السهول وعرضها وتمايلت مع نفحات الريح المتقطعة، فبدت الزهور وكأنها تختال بنفسها وتغنى .. وحملت نسمات الهواء أريجُها [3] الرقيق فانتشت الصدور بعبقها العاطر الطيب..

وما كادت القوات أن تكمل معسكرها وتعده للمبيت، حتى هلت فرقة صغيرة من الفرسان تحمل بيارق وأعلام إمارة شنتمرية، يقودها فارس يرتدى لباس التشريفات بألوانه الزرقاء والحمراء المحلاة بالأوشية الذهبية والفضية، واتخذت الفرقة سبيلها إلى مكان خيمة السيد أعلى القمة الجبلية فى منتصف المعسكر .. بود ظاهر وبشاشة تعلو وجهه .. تقدم السيد ليحيى الفارس الذى يعرفه جيداً، فهو الذى صاغ من قبل وثيقة العهد والأمان بين السيد وحاكم الإمارة .. فقال له السيد، وهو يمد يداه إليه مرحباً ومعانقاً له ..

- مرحباً عبيد الله .. مرحباً

- أهلاً بك وسهلاً يا قنبيطور ..

---

١ - منطقة اذكون أرض خصبة مرتفعة قليلاً ، بها سهول واسعة وتكثر فيها القمم الجبلية المكتسية بالعشب الأخضر خاصة فى فصل الربيع والصيف .. وهى تشغل الشمال الشرقى لإمارة شنتمرية الشرق ..

٢ - الخَبتُ : هو ما اطمأن من الأرض واتسع .. وجمعه أخْباتٌ .. وهو ما اتسع من بطون الأرض ، فإذا ما خَرَجت منه أفضيت إلى سعة، ويقال أخبَتَ إلى ربه أى اطمَأنَ إليه - المعجم (تهذيب اللغة).

٣ - الأرجُ : نفحة الريح الطيبة .. والأريجُ والأريجةُ هى الريح الطيبة ، وجمعها : الأرائجُ -المعجم (لسان العرب) .

- ما أحلى بلادكم يا عبيد الله .. ما أحلاها، وما أجمل نسيمها وهواءها، وأرضها والنهر وينابيع الماء التى تجرى فيها .. ما أحلاها، وما أطيبها إلى قلبى من دون كل أراضى وسهول الأندلس ..

- بلادنا بلادكم، وأنتم دائماً على الرحب والسعة ..

- بارك الله فيك يا عبيد الله

- لقد تغير شكلكم، ومظهركم عن آخر مرة رأيناك فيها أيها القنبيطور

- إلى الأفضل أم إلى الأسوأ ..

- بالتأكيد إلى الأفضل، وسبب ذلك أنه من الصعب تمييزك عن أى فارس عربى فى الشكل والمظهر واللسان ..

- لعل هذا هو ما يشعره المسلمون نحوى من تقدير وحب ..!

- نعم هذا مؤكد، ولا شك فى ذلك .

- إذن كيف حال صهرك[1] أمير البلاد ..؟

- الحمد لله .. هو فى أفضل حال، وأتم صحة .. وقد بعثنى إليك لأدعوكم للقائه غداً بقصر الحكم، فهو فى شوق للقائك ..

- كم أشتاق أنا أيضاً للقائه، فبغض النظر عما بيننا من مصالح وتعاهدات، فهو قريب إلى نفسى وإلى قلبى ..

- لا شك فى ذلك .. لا شك ..

- ومتى يكون اللقاء غداً ..؟

- سوف تحضر إليك تشريفة الأمير لتصحبكم أنت وأصدقاءك المقربين، إلى القصر عند انتصاف النهار ..

---

١ ـ عبيد الله هو حاكم منطقة اذكون شمال شرق إمارة شنتمرية ، وهو أخو زوجة حاكم الإمارة.

ـ بارك الله لنا فى الأمير وأطال عمره ..

نهض عبيد الله من مقعده وحيا القنبيطور .. فرافقه السيد حتى ركب هو وفرسانه الجياد، وغادروا المعسكر عائدين إلى قصر الحكم بالإمارة ..

وما كاد عبيد الله حاكم منطقة اذكون يخرج من نطاق حدود معسكر السيد، حتى التفت بعينه، واستدار قليلاً بجواده وتطلع إلى مكان خيمة السيد بالمعسكر، وبصق فى الأرض، ثم عاد متخذاً سبيله إلى قصر الحكم بالإمارة ..

لقد أجْبِرَ عبيد الله أن يكون مُرائياً للسيد، حسب رغبة الأمير، وذلك لدرء شره .. ولكى تبتعد الإمارة بنفسها عن الحصار والحرب إن هى تصدت لرغباته، ورفضت دفع الجزية له ..

فلم يكن هناك من سبيل إلا أن يبرم الأمير وثيقة عهد الأمان، بلا قيمة فى نظر الآخرين .. ولا ترتب أى حقوق للإمارة إلا درء شر السيد لا أكثر ولا أقل ..

كان عبيد الله يصطنع الحب والمودة والترحاب بالسيد القنبيطور.. بينما قلبه مثقل بالكراهية والبغض له، ولكل من معه سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين خونة..

فإن كان هناك مبرر للمسيحيين الذين يعملون فى جيش السيد وقد آمنوا به وبأهدافه من أجل كسر شوكة الإسلام والمسلمين، حتى وإن ادعى غير ذلك رياءً ونفاقاً وغدراً ..

فما هو المبرر الذى يدفع أى مسلم سواء كان مُوَلداً (1) أو بربرياً أو عربياً .. لكى يرتضى لنفسه أن يكون سوطاً وسيفاً على رقاب إخوانه المسلمين فى كل بقاع الأندلس .. إذن فهؤلاء فى رأيه قد باعوا ضمائرهم واشتروا دنياهم بآخرتهم ..

– المولدون هم من كان أجدادهم فى الأصل ذوى أصول إسبانية ، ثم أسلموا ، فكان أولادهم وأحفادهم من بعدهم على دين الإسلام ..

مضت قوة حرس الشرف مصاحبة للقنبيطور وكبار قادته، وعبرت السهول المنبسطة والبساتين الجميلة وقد امتلأت أغصانها بالزهور البيضاء والحمراء والصفراء والبنفسجية والحمراء القرمزية لأشجار المشمش، الخوخ، البرقوق .. واقتربت من أسوار القلعة الحصينة المنيعة المحيطة بمعظم أحياء مدينة شنتمرية الشرق .. حيث نصبت الأعلام والبيارق المثلثة على الأسوار بألوانها البيضاء والزرقاء والحمراء ..

وعند مسافة مائتى متر ضربت الأبواق النحاسية نوبة استقبال الزائرين الكبار .. ففتحت أبواب القلعة، حيث مرق منها الموكب بسرعة خاطفة وأسرعت الخيل من خطواتها حتى وصلت إلى مشارف القصر، فمرت من الأبواب الخاصة بقصر الحكم بحراساته المشددة الكثيفة إلى أن توقفت أمام مدخل القصر، حيث مدت الأبسطة على درجات السلم، ووقف حرس الشرف لأمير البلاد، وأطلقت الأبواق النحاسية الطويلة ترنيمات الترحيب بالضيوف ..

ترجل القنبيطور وكبار قادته ومساعدوه، وسار أمامهم فارس التشريفة الملكية بخطوات عسكرية سبقهم بها حتى باب القصر فوقف هناك واستدار معطياً جانبه للجدار، ورفع سيفه فى حركات محكمة مرتبة ووقف مكانه شاهراً السيف قائماً أمام صدره بحيث علت طرفه مستوى الرأس قليلاً .. ثم تسمر فى مكانه صامتاً لا يحرك ساكناً ..

وما أن عبر الضيوف مدخل القصر .. حتى استدار قائد حرس التشريفة عائداً إلى فرقته .. بينما تابع الضيوف المسير داخل ردهة القصر، ومنها إلى غرفة الاستقبال الملكية، فجلس الجميع على المقاعد والأرائك الوثيرة الأنيقة، فى انتظار حضور الأمير ..

دخل الأمير أبو مروان عبد الملك بن هذيل [1] حاكم الإمارة ومن خلفه ولى العهد يحيى الملقب بحسام الدولة، وبعض خاصته المقربين ومنهم عبيد الله حاكم منطقة اذكون وابنه محمد ثم الحاجب ..

---

١ ـ الأمير أبو مروان عبد الملك بن هذيل بن رزين .. تولى الإمارة بعد أبيه الحاجب عز الولة أبى محمد هذيل فى سنة ١٠٤٥ميلادية (٤٣٦هجرية) ، حيث مكث فى الحكم حتى أحداث القصة .. ستة وأربعون عاما.

فقام السيد ومرافقوه حيث تقدم إلى الأمير ليصافحه ويعانقه، ثم جلس الأمير فى مقعده وسط القاعة وأشار للسيد للجلوس بجواره، وتبعهم باقى الحاضرين .. ثم تكلم الأمير فقال للسيد:

- كيف كان سفرك إلينا .. وهل تحملتم أى مشقة ؟

- لقد جرى كل شىء على ما يرام .. والحقيقة قد قلتها أمس لعبيد الله، وهى أننى أشعر بحنين، وشوق دائم لبلادكم .. فأجواؤها وسهولها الخضراء، وينابيع الماء فى كل مكان .. والنهر الذى تتدفق مياهه عبر الوديان .. والبساتين العديدة بثمارها اليانعة المثمرة.. كل ذلك يبعث فى قلبى النشوة والحنين إلى هذه البقاع الجميلة ..

- ونحن نرحب بك فى كل وقت .. فأنت ضيف عزيز لدينا ..

نظر محمد لأبيه نظرة خاطفة ذات معنى .. وهو يجز على ضرسه .. وأبوه عبيد الله يتابع الحديث وقد تلقت عيناه نظرة ابنه محمد إليه وفهم مغزاها .. وشعر السيد بتلك النظرات، والتلميحات ما بين الابن وأبيه .. فقال موجهاً حديثه للأمير ولعبيد الله فى وقت واحد ..

- أرجو يا مولاى أن يكون هذا الشعور هو نفسه شعور الشيخ عبيد الله ..

فرد عليه عبيد الله من فوره ..

- بلا شك بلا شك ... ثم تابع الأمير حديثه وقال للسيد

- وما هى وجهتكم أيها القنبيطور ..

- بعد أن يأذن لى مولاى بالمكوث بالوادى لعشرة أيام للراحة من السفر، فسوف نستأنف المسير إلى سرقسطة ..

- كما تشاء .. بلادنا بلادكم وأنتم بمثابة الأهل لنا .. وهذه فرصة لنا لنلقاكم أكثر من مرة ..

فكرر محمد نظرته إلى أبيه، وتكرر نفس المشهد مرة ثانية، وتابع نظراتهم القنبيطور .. وأدرك أن محمد وأبيه يضمران له الكراهية والبغض .. فحاول القنبيطور تجاهل هذه النظرات ..

وفى هذه الأثناء دخل الخدم يرتدون سراويل زرقاء فضفاضة، ومن فوقها قمصان بيضاء، وعلى خصورهم أحزمة عريضة من القماش الأحمر اللامع .. وفوق رءوسهم طواق حمراء بلون قان، وهم يحملون أباريق من العصائر الطازجة، حيث قدموها للضيوف وكل الحاضرين .. وتابع السيد حديثه قائلاً للأمير:

- نشكركم على كرمكم وحفاوتكم بنا أيها الأمير الكريم ..

- على الرحب والسعة .. على الرحب والسعة ..

ثم دُعى الجميع إلى وليمة غداء أعدها لهم الأمير ..

وما هى إلا أياماً حتى لبى السيد دعوة للأمير أبو مروان لقضاء أمسية من أمسياته التى اشتهر بها بنو رزين .. فلبى رودريجو الدعوة هو ورفاقه، حيث جلس الجميع فى ساحة الاحتفالات بقصر الإمارة وجاء مقعد رودريجو بجانب مقعد الأمير ..

واصطحب الأمير أبو مروان عبد الملك كلبان كبيران معه، من كلاب الصيد .. فراؤهما من اللونين الأسود والأبيض جلسا أمام قدميه، بينما كان الأمير حسام الدولة ولى العهد، قد جلس ومعه قرد داكن اللون، مُسَيّسٌ ومدرب .. يحوط عنقه سوار من الجلد مطعم بالفضة مربوط بسلسلة معدنية مطلية بماء الفضة، وجلس القرد على حجر الأمير حسام الدولة خائفاً من الكلبين الكبيرين ..

وبينما جلس الجميع يستمعون إلى عزف الجوارى على القيثارة والقانون .. تحدث رودريجو إلى الأمير فقال:

- ها قد عادت أمسيات النور والجمال آل رزين ... فضحك الأمير وقال:

- أهكذا تسميها يا رودريجو ..

- ومن ينافسكم فيها يا مولاى

- بالأندلس قصور تذخر بأمسيات الفن والثقافة والأدب والشعر ..

- هذا صحيح .. ولكن هنا الأمسيات لها مذاق خاص ... فابتسم الأمير وقال:

- حدثنى يا رودريجو .. فأنا أعيش هنا بين جدران القصور، تحيط بى مراسم الإمارة، وأصول وأعراف السياسة ولا أدرى ما يقوله الناس عنا آل رزين ..

مولاى .. دعنى اقول لجلالتكم، إن لبنى رزين سمات تعرفها العامة قبل الخاصة ... ولا أكون مبالغاً إن قلت عنكم أنكم قد توارثتم عن أبيكم هُذيل المروءة، وطلاقة اللسان، والكرم ... فقاطعه الأمير قائلاً:

- إن لى شعر أصف فيه البخل فأقول

فاهدم بناء البخل وارفض به   مَن هدمَ البخلَ بنى مجدَه

لا عاش إلا جائعاً نائعاً   مَن عاش فى أمواله وحدَه

وتدخل بالحديث .. ولى العهد حسام الدولة حيث قال

- نعم يا مولاى .. ولك من الشعر تصف فيه ذاتك، وجاء يعبر عن واقع ملموس حيث تقول جلالتكم

أنا ملك تجمّعتْ فىَّ خمسٌ   كلُها للأنام مُحْيٍ مُميتُ

هى: ذهن، وحكمة، ومضاء   وكلام فى وقته، وسكوتُ

- أعزك الله يا حسام .. ثم تحدث الأمير موجهاً حديثه لرودريجو، مادحاً لابنه فقال

- أوتدرى أن الأمير حسام ولى عهدنا له حظوة ومكانة لدى الملك الفونسو دون سائر أولياء العهد فى كل ممالك وإمارات الأندلس..؟! ... فقال له رودريجو متسائلا.

- كيف هذا يا مولاى

لقد زاره حسام الدولة .. فى معسكره امام طليطلة ذات يوم، وتصادف أن تواجد وفود من سائر بلاد الأندلس قد أتت لتقدم الهدايا لالفونسو ولتتقرب له .. فأعجبته الهدايا التى قدمها له ولى عهدنا، من دون باقى الهدايا، واختصه بقرد كان يربيه ويعتنى به .. فقدمه هدية لولى عهدنا [1]..

قرد .. (يقول رودريجو متعجبا)

نعم قرد .. وهو الذى تراه معه الآن فهو يعتز به، ويصطحبه معه أينما ذهب صمت رودريجو ولم يدر ماذا يقول للأمير على هذا الهراء ... فواصل الأمير عبد الملك كلامه قائلاً:

- ولكنى أريد أن أعرف ما يقال عن قصورنا، وأمسياتنا التى تعقد فيه

- وهل يخفى القمر يا مولاى .. ولا ينسى الناس أن والدكم رحمه الله كانت لمجالسه ستارة [2] لا تضاهيها أى ستارة فى الأندلس كله .. وقد سمعنا عن القينات بارعات الجمال والثقافة والأدب ..

- نعم وأشهرهن كانت جارية الطيب أبى عبد الله الكنانى .. وقد عجز عظماء الأندلس وملوكها عن شرائها لغلو ثمنها .. فدفع فيها والدى هُذيل ثلاثة آلاف دينار من الذهب .. ولم لا .. فقد كانت وحيدة عصرها فلم يكن هناك جارية أخف منها روحاً، ولا أسرع حركة، ولا ألين عطافاً، ولا أطيب صوتاً، ولا أحسن

---

١ - عندما حاصر الملك الفونسو مدينة طليطلة وأراد لها الاستسلام له دون حرب .. فإنه شدد عليها الحصار ومنع عنها الأقوات ، وعول أهل طليطلة على أمراء وملوك الأندلس لكى يهبوا لنجدتهم ، ولكن لا حياة لمن تنادى ..! وأثناء هذا الحصار كان يحضر إلى الفونسو رسل من أمراء وملوك الطوائف ليتقربوا إليه بالهدايا والأموال ، وكان ممن حضر منهم لتقديم فروض الطاعة والولاء الأمير حسام الدولة نائباً عن والده ، حيث لم يكن الفونسو يحترمه ، وأراد ان يزدريه ويهينه فقدم له مقابل الهدايا والتحف التى بعثها معه والده قرداً .. فبدل من أن يشعر حسام الدولة بالمهانة لذلك فإنه قد سعد بالهدية لسفاهته ، وراح يحكى لكل ذى شأن هذا الأمر على انه نوع من التبجيل والاحترام من الملك الفونسو له على غير الحقيقة .. فكانت هذه الحادثة من نوادر الأندلس فى عصر الطوائف «المسلمون فى الأندلس» رينهرت دوزى ج - ٣ طبعة هيئة الكتاب المصريه - القاهره.

٢ - الستارة : المجالس الفنية ، التى تعزف فيها الجوارى وتغنى ، ويلقى فيها الشعر ، وغيره ..

غناءً، ولا أجود كتابة، ولا أبدع أدباً، مع سلامة فى اللحن، ومعرفة بالنحو واللغة والعروض، وغير ذلك من العلوم كالطب والتشريح، وغير ذلك ..

ـ يا الله .. ولكن كيف كان يجتمع فيهن كل هذا ..

ـ لقد بدع فى ذلك رجال متخصصون فى تعليم وتدريب القينات بارعات الجمال، ومنهم الطيب أبى عبد الله الكنانى ... ثم سكت الأمير برهة واسترسل وهو يضحك فقال:

ـ لقد كان يقول فى ذلك عن نفسه (أى الطيب أبى عبد الله الكنانى) عندما رغبنا فى شراء جوار أخريات منه، فقال لنا وقد امتلك أربع من الجوارى الروميات .." .. فى ملكى الآن أربع روميات كن بالأمس جاهلات، وهن الآن عالمات .. حكيمات .. منطقيات .. فلسفيات .. هندسيات .. موسيقاويات .. إسطرلابيات .. يكتبن بخطوطهن الدواوين الكبار فى معانى القرآن، وغريبه، وكل ما يتعلق بفنونه، وعلوم العرب من الأنواء، ويكتبن فى الهندسة، والفلسفة، وهن يتعاطين إعراب كل ما ينسخنه ويضبطنه فهماً لمعانيه .. وفى ذلك أعظم الشهود على أنى وحيد عصرى ونسيج وحدى، أفنيت الزمان تجربة، والدهر تبصرة، ولا يطمع أحد بأن يظفر بعالم مثلى .. [1] ... هكذا كان يتحدث عن نفسه ...

ثم ضحك الأمير لذلك كثيراً فقاطعه رودريجو قائلاً وهو يشير إلى الجوارى اللاتى يعزفن على القيثارة والقانون:

ـ وهل هؤلاء الجوارى منهن ... فضحك الأمير وقال :

ـ إنهن كثيرات من كل صنف ولون .. فوالدى الأمير الراحل هذيل كان يملك ستارة من الجوارى عددهن مائة وخمسين جارية كلهن بديعات الحسن طليقات اللسان فيهن من الصفات التى ذكرتها لك الكثير والكثير ..

ـ ما أبدعكم آل رزين .. تعرفون كيف تنعمون بالحياة ولذاتها ...

فاعتبر الأمير كلام رودريجو مدحاً فضحك مسروراً وارتسمت على خلجات وجهه علامة الرضى والاستحسان لما يسمعه من مدح وإطراء.

---

١ ـ وصف المؤرخ الأندلسى الشهير أبو مروان بن حيان فى تاريخه ، هذه القينة .. كما جاء بكتاب الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ج٢ ص٧٠ ـ ٧١ (ابن بسام الشنترينى).

سقوط قرطبة

توغل بعض المقاتلين من جيش المرابطين، فى منطقة الحى القديم لقرطبة، وقد ارتدوا اللباس المدنى لسكان المدينة، وأفلحوا فى المرور من بعض الثغور التى أحدثها القصف العنيف بالمجانيق على أسوار قرطبة بالحجارة الكبيرة ..

اشتبك المقاتلون مع الحراس المدافعين عن الأسوار، وتمكن الكثير منهم من الدخول إلى المدينة بعد أن تسللوا إلى بعض الأحياء السكنية ومكثوا بها بعيداً عن الأنظار داخل أوكار أعدت لهم بواسطة حلفائهم، وذلك إستعداداً لمهاجمة أسوار المدينة من الخلف عند اندلاع أى قتال جديد، ليكونوا بمثابة الشوكة فى ظهر المدافعين عنها ..

عند فجر يوم الأربعاء ٢٦ مارس (٣ صفر ٤٨٤ هجرية) تعرضت قرطبة لقصف رهيب من كافة الأنحاء والاتجاهات، فضربت الأسوار بالحجارة، وقذفت أحياء المدينة بكرات اللهب، فانتشرت الحرائق، وعلا صريخ النساء والأطفال، وخرج الكثيرون من دياره المحترقة، ولاذ معظم سكان المدينة يحتمون بجدار منازلهم ..

بينما تحركت الفرق المتسللة لتهاجم بوابات المدينة، وتمكنت من فتح إحدها، واندفعت القوات المرابطية بالمئات إلى الداخل، وبدأ انهيار الدفاعات عن الأسوار جلياً بتوالى الاستيلاء على الأبواب الرئيسية الأخرى، وفتحها أمام القوات المرابطية المنتظرة لحظات الاقتحام ..

بتوالى انتشار المرابطين بشوارع المدينة والاستيلاء على المرافق والدواوين والقصور .. انهارت الدفاعات تماماً وبدأت القوات المدافعة عن الأسوار فى الاستسلام ..

واقتحمت قوة رئيسية قصر الحكم حيث الأمير المأمون قد وقف شاهراً سيفه، ممزقاً لأجساد الجند المرابطين المهاجمين للقصر .. فصرع الكثير منهم، وقاتل بجسارة لا مثيل لها، وجرت الدماء المشتعلة فى عروق الجند المهاجمين للقصر وقد صرع الكثير منهم .. فاحتشدوا بكثافة وقاموا بهجمة كاسحة طغت على بسالة المدافعين .. وأخيراً سقط الأمير المأمون قتيلاً .. فانقض عليه أحد الجند وحز رأسه ورفعها على رمح وجرى بها ومن خلفه جند كثيرون، وأخذوا يهللون ويكبرون لسقوط رمز سلطة الفساد والخيانة فى قرطبة ..

بعدها تمكن القائد على بن الحاج من نشر الجند فى الأزقة والشوارع والميادين، وأحاط القصور الملكية بالحراسات الكثيفة، وسارت بعض الجند فى شوارع المدينة تعلن على الناس مصرع الأمير وتأمنهم فى النفس والمال .. وتطالبهم بالخضوع للأوامر والبقاء فى المنازل حتى صباح اليوم التالى ..

أرسل القائد على بن الحاج رسائله إلى الأمير سير بن أبى بكر قائد الجيوش المرابطية فى الأندلس والموجود بقواته على مشارف أشبيلية، وكذا أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الموجود بأرض العدوة بالمغرب ليخبرهم بأول فتح كبير للمرابطين فى الأندلس المسلمة ..

انهارت الأميرة سيدة من وقع الحدث الفادح، وقد قتل زوجها وعلقت رأسه على حربة وطيف بها بأنحاء المدينة .. وشعرت بالحقد والألم لفعلة المرابطين بزوجها، وأقسمت أن تنتقم منهم شر انتقام ..!

ولكن راحت تسأل نفسها كيف يكون لامرأة مثلى أن تنتقم من هؤلاء الأوغاد الأجلاف بجيوشهم الجرارة كثيفة العدد والعتاد ..؟

كيف يكون الانتقام، وأنا لا حول لى ولا قوة .. أسيرة المكان والجدران السميكة الصماء .. أعيش فيها وحدى مع أطفالى وهم فى عمر الزهور، وقد فقدوا أباهم

منذ ساعات .. ومُزق جسده بلا رحمة أو شفقة .. كيف وأنا أعيش قلقة خائفة تعتصرنى المرارة والألم ..

ألقت برأسها على ساعدها وقد ارتكز على مقبض المقعد الوثير الذى تجلس عليه، فاختفى ساعدها ورأسها بين ثنيات شعرها الذهبى الطويل المنسدل حتى لامست أطرافه ركبتيها واستقرت عليها ..

وسرحت بأفكارها حيث ماضيها الغامض الذى لا تتذكر منه شيئًا سوى أنها من عائلة ذات أصول أسبانية تعرضت للرق، وانتهى بها المطاف جارية أم ولد للأمير المأمون .. حيث شغفه جمال منظرها وحسن قوامها، وعذوبة صوتها وسحر عينيها الزرقاوين كنهرين من فيروز صاف ..

هل أحبنى زوجى الأمير ..؟ هذا لا شك فيه .. نعم فقد أحبنى زوجى وعشق التراب الذى اسير فوقه .. نعم أحبنى زوجى، وإن كان لديه من الجوارى الكثيرات مثلى .. لا .. ولكنهن لم يكنّ فى مثل جمالى وروعة طلعتى .. هكذا قال لى زوجى الأمير.. وهكذا عبرت عنه نظرات الحب فى عينه .. فأنا لا أخطأها أبداً ..

ولكن هل أحببته أنا ..؟ .. نعم .. هكذا شعرت، وهكذا قربنى حب أطفالى إليه .. هل أحببته بصدق .. نعم .. وربما..! ولكن فى كل الأحوال أخلصت له .. وفى كل الأحوال كان حبى لأطفالى تجسيداً لحبى له ..

هذه لحظات الصدق مع النفس .. فلا رقيب علىّ ولا حسيب .. وراحت تسأل نفسها .. هل طاف بخيالك رجل ما .. فى وقت ما ..، وتمنيتيه لك حبيباً أو ربما عشيقاً..؟ ما هذا .. ولماذا الآن يطاردنى هذا الهاجس..؟.. لا أدرى .. لا أدرى..

مر ألبير هانيس بقواته التابعة للملك الفونسو، بأراضى وادى يانة التابعة للملك المعتمد، متوجهاً إلى أشبيلية وذلك للقاء جيش المرابطين المحاصر للمدينة هناك ..

فوجئ ألبير هانيس برسالة أتت إليه يحملها فارس عربى من فريق الحراسة المكلف بحماية الأميرة سيدة الموجودة بمدينة المدور، حيث طلبت منه لقاءها لأمر هام، عندما يمر بالمدينة فى طريقه إلى أشبيلية ..

وصلت قوات ألبير هانيس إلى مشارف مدينة المدور، فتركها لساعة ليلتقى الأميرة سيدة لعلها تطلعه على خبر هام ..

بعد استئذان الحرس، دخل القائد القشتالى إلى الردهة الواسعة عند مدخل القصر، وانتظر لدقائق حتى أتت الأميرة وجلست أمامه، وقد تماسكت وخرجت الكلمات من فمها واضحة محددة فقالت له بالقشتالية التى تتقنها:

- مرحبا بك أيها القائد

- مرحباً سيدتى الأميرة .. أراك تتكلمين القشتالية بطلاقة

- نعم فأنا أهلى من هناك ..

- من اين أنت إذن ؟

- .. صدقنى لا أتذكر شيئًا

- حسناً وماذا تطلبين منى ؟

- لقد قتل زوجى، واستولى المرابطون على قرطبة .. وهربت أنا وأطفالى إلى هنا .. وما هى إلا أيام وتأتى طلائعهم إلى هنا .؟.، وكما تعلم فإن الملك المعتمد محاصر فى أشبيلية ولا سبيل للذهاب هناك وقد سُدت كل الأبواب فى وجهى ..

- هلى تطلبين منى أن أساعدك للدخول إلى أشبيلية ..؟

- هذا محال .. فبالإضافة إلى صعوبة ذلك، فأنا لا أستطيع أن أجازف بحياة أطفالى وقد ينجح المرابطون فى دخول أشبيلية، كما نجحوا فى دخول قرطبة .. فلا يمكننى الهروب من سجن إلى سجن أكبر وخطر أشد ..

- فكيف ستتصرفين إذن ..

- هذا هو سبب طلبى لقاءك ..

ـ كيف .. آنا منصت لك ..

ـ أريد أن أذهب إلى طليطلة فى حماية الملك الفونسو ..

ـ طليطلة ... قالها ذاهلاً .. ذهول غير المصدق ..

ـ نعم .. لقد فكرت فى ذلك طوال فترة تواجدى هنا، ولكن منعنى صعوبة الوصول هناك وحدى ومعى هؤلاء الأطفال الذين قد يتعرضون لمخاطر الطريق .. لذا فعندما علمت أنكم ماضون بقواتكم إلى أشبيلية، وأنكم سوف تمرون على مدينة المدور فى طريقكم إلى هناك .. لذلك طلبت لقاءك .. فلا يمكن لأحد فى مثل مكانتك لا يستطيع أن يؤمن لى طريق الذهاب إلى هناك ..

ـ نعم .. ولكنى متجه إلى وجهة أخرى ... (ثم تذكر أنها قالت له أنها تعلم وجهته فقال) .. آه تقصدين أن أدبر لك من يرافقك إلى هناك ..

ـ نعم هو كذلك ...

ـ سكت ألبير قليلاً ورمقها بنظرة تقييم لجمالها، وما سوف يكون ردة فعل الفونسو إذا لاقاها هناك .. ثم قال:

ـ لك ما تطلبين يا سيدتى ... فقام وقبل يدها برقة متناهية، فلعلها المرة الأخيرة التى يُسمح له بهذه القبلة .. بهذه الطريقة ..

ـ آشكرك إيها القائد الرقيق الهمام ... قالتها بعذوبة ورقة متناهية .. وكأنها تدرب نفسها لرحلتها المثيرة إلى طليطلة .. فى حضرة الملك الوسيم الفونسو ..

عاش المعتمد وأسرته، نكبة فقدان ابنه الأمير فى قرطبة، وسط أجواء من الاضطراب والقلق داخل أسوار أشبيلية المحاصرة، وحاول أن يتماسك حتى لا تنهار الأسرة وينهار من حولهم الأمراء من أبنائه فيتسرب اليأس إلى كل رجال المدينة وكبرائها فتنهار مقاومتها للقوات الغازية ..

أرسل الأمير سَير بن أبى بكر عدة رسائل إلى الملك المعتمد يطالبه فيها بتسليم المدينة سلماً مع العهد بالأمان فى الأهل والأموال، وإلا دخل المدينة عنوة .. وسقط حق المعتمد فى أى عهود مع المرابطين ..

أرسل المعتمد ردوده على رسائل القائد سير .. وطلب منه مغادرة أراضى المملكة فوراً .. ويذكره بعهد أمير المسلمين الذى كان قد قطعه على نفسه بعدم مخاصمة أمراء وملوك الأندلس أو قتالهم .. وها هو قد نكث بالعهد، فلا يستحق أمير المسلمين منا ولاء .. ولا طاعة ..

وفى رندة علم الأمير الراضى بمقتل أخيه، فلم يدر كيف يتصرف وهو محاصر داخل قصره بقلعة المدينة، وأمضى الليل ساهراً شارداً ممسكاً بقلمه ليكتب شعراً يعبر عما يجيش فى نفسه من حزن وألم فكتب يقول

هى الدارُ غادرةٌ بالرجال وقاطعة لحبال الوصالْ
وكلُّ سرورٍ بها نافدٌ وكلُّ مقيم بها لإرتحالْ
فمن رام منها وفاءً يدوم ومكثاً لها رام عَينَ المُحالْ (١)

ومنها قوله

يحل زمان المرءِ ما هو عاقدُ ويسهر فى إهلاكه وهو راقدُ
ويفترق الآلآف من بعد صحبةٍ وكم شهدَتْ مما ذكرتُ الفراقدُ (٢)

فى هذه الأثناء .. فى منطقة شرق الوادى الكبير .. وَقعٌ قائد حصن جيان وحاكم المدينة على وثيقة اتفاق لتسليم المدينة إلى القائد المرابطى يطى بن إسماعيل، ودخل الجيش المرابطى إلى القلعة، والمدينة، ولم تجر أى مصادمات، وحافظ القائد المرابطى وجنوده على العهد مع أهل المدينة المسالمين ..

بمعسكره الكبير أمام شاطئ النهر أمام مدينة أشبيلية، وصلت الأخبار للأمير سَير بن أبى بكر بتحرك قوات كبيرة من الفرسان والجند الراجلة بأرض وادى يانة متوجهة إلى أشبيلية لرفع الحصار عنها، وذلك بناءً على استصراخ الملك المعتمد للملك الفونسو ..

١ ـ الحلة السيراء ـ ج٢ ص ٧٤ .
٢ ـ الفراقد: الكواكب ـ معجم (لسان العرب).

حيث تنازل الملك المعتمد لالفونسو فى مقابل ذلك عن بعض القلاع والحصون المهمة، وهى حصون وبذة، أقليش، أوكانيا، كونسويجرا.. كفداء لبقاء المملكة وما يتبعها من ولايات ومدن وقلاع وأرباض، وهى بالعشرات..

ما أن وصلت هذه المعلومات إلى الأمير سَير حتى أصدر أوامره بتكوين جيش مستقل من القوات القائمة على حصار أشبيلية، وتأجيل اقتحام المدينة لحين حسم المعركة مع الجيش الأسبانى..

مضى أسبوع حتى اكتمل فيه تكوين جيش المرابطين الذى سيواجه جيش الملك الفونسو، فأصبح قوامه نحو ثمانية آلاف فارس، وعشرة آلاف جندى يقودهم القائد إبراهيم بن إسحق اللمتونى.. وتحرك ليمنع الجيش الأسبانى من الاقتراب من حصون أشبيلية المحاصرة، حتى لا ينجح الجيش الأسبانى فى فك الحصار عنها فيزيدها منعة وقوة.. فتقدم الجيش المرابطى قاصداً وادى يانة لتدور رحى المعركة هناك..

علم المعتمد بأنباء اقتراب الجيش الأسبانى لأشبيلية لفك الحصار عنها، فأسعدته هذه الأنباء سعادة بالغة، وراوده الأمل فى النجاة من جديد بعد أن كاد أن يتبدد هذا الأمل.. ولاحظ نقصان أعداد القوات المرابطية المحاصرة للمدينة بشكل واضح فتهيأت نفسه للاخبار السعيدة الآتية إليه فى المستقبل القريب ..

مضت أسابيع منذ أرسل الملك الفونسو رسالته التحذيرية إلى التنبيطور رودريجو ليطلب منه رفع يده عن إمارات وممالك شرق الأندلس، وعدم جلب أى أموال منها لأن هذه البلاد تقع تحت حماية الملك .. فجلْب الأموال منها يهز من ثقة هذه البلاد فى مصداقية الفونسو نحو تقديم الحماية لها .. كما طلب منه فى الرسالة تقديم العون الذى يراه لمساعدة المملكة فى حربها ضد المرابطين ..

استشاط الملك الفونسو غضباً من موقف القنبيطور حياله .. فهو لم يرد على رسالته، والموقف لا يحتمل التأخير، وخطر المرابطين فى تزايد .. فقرر دعوة مستشاريه للاجتماع لبحث هذا الأمر ..

فى قاعة الإجتماعات بالقصر الملكى بطليطلة.. جلس الملك الفونسو، ومعه الكونت جرسيه أوردنيث، والكونت بدرو، وأخوه الكونت جونثالو وتحدث الفونسو إلى الكونت بدرو فقال له:

ـ أولاً أريد أن أطمئن على الموقف العسكرى للمملكة... ما هو عدد القوات المتوفرة لدينا الآن بعد رحيل ألبير هانيس بقواته للقاء المرابطين ..؟

ـ لدينا الآن نحو سبعة آلاف فارس، وخمسة عشر ألف جندى .. وكلهم جاهزون للقتال فى أى موقع ..

وتحدث الفونسو إلى جرسيه أوردنيث فقال له:

ـ ما تقريرك عن الرسالة التى بعثناها إلى القنبيطور رودريجو ..؟

ـ وصلت له الرسالة، وبعد أربعة أيام من الانتظار قضاها حامل الرسالة لحمل الرد عليها، طالبه القنبيطور بالانصراف والعودة إلى طليطلة، بدعوى آنه سيرسل الرد عليها خلال أيام ..

هل هناك معلومات أخرى ..

ـ نعم يا مولاى .. فقد علمنا أن القنبيطور تحرك بقواته إلى إمارة البونت، وحصل على أموال من هناك .. وتابع مسيره إلى شنتمرية الشرق، حيث وصلها منذ أيام، ويبدو أن الهدف من الزيارة هو أيضا جلب الأموال وابتزاز أميرها ..

ـ إذن فهو لم يتعظ.. بل تمادى فى طغيانه وفساده..! ... فتحدث بدرو فقال:

ـ لابد لنا أن نعرف ما هو سبب تأخره فى الرد... فقال الملك

ـ التأخر يا سيد بدرو معناه التجاهل.. والتجاهل معناه الرفض.. وفوق هذا وذاك.. فقد استمر فى تحصيل المال من شرق الأندلس.. وقد كنت قد أوضحت له صراحة بأن يكف فوراً عن ذلك.. فما قولك فيما فعله من بعد وصول رسالتى إليه وقد قام بتحصيل الأموال..؟

ـ لا ادرى يا مولاى .. وأحاول أن أجد مبرراً مقنعاً فلا أجد..؟

ها أنت قد قلتها .. لا يوجد مبرر مقنع .. وأزيد على ذلك بأنه قد خالف صراحة تعديلات قانون الاريك [1].. ولذلك فسوف يكون عقابى له صارماً وشاملاً ..

فتدخل الكونت جونثالو فقال:

- مولاى .. البلاد تمر بظروف صعبة، ولابد لنا أن نتكاتف .. فلا نريد أن نأجج الصراع فيما بيننا بحروب أهلية .. ويمكن أن تؤجل العقاب لما بعد حرب المرابطين أو حسم الصراع معهم أيهما أقرب .. وبعد ذلك لك أن تعاقبه أشد العقاب ويكون ذلك فى حضور مجلس كورتيس[2].

- ولكنى لا أستطيع الانتظار، وهو لم يحترم أوامرى ولابد من عقاب له ..

تكلم جرسيه بخبث ظاهر (وهو العدو اللدود للقنبيطور) .. وقال:

فليكن عقابك له بأن تؤجل ذهاب زوجته وأولاده إليه، بعد أن طالب بإخراجهم من الدير الموجودون به .. وفى ذلك عقاب معنوى كبير ..

- هذا أيضاً لا يكفينى، ولا يرد لى اعتبارى أمام أمراء وملوك الأندلس .. لذا فإننى سوف أكتب لإمارتى جنوة، وبيزة الإيطاليتين ليرسلوا لنا دعما من سفن الأسطول والجند لحصار مملكة بالنسيه من البحر، ونقتحمها من البر .. فهى دُرة ممالك الأندلس الشرقية .. وسوف ندفع مقابل هذه المساعدة من الأسطول من اقتسام الكنوز والذخائر التى بحوزة حاكمها الملك الضعيف القادر .. وهى تزيد عن مائتى ألف دينار من الذهب ..

---

١ - قانون الاريك هو قانون قوطى قديم .. قام الملك الفونسو بإلغاء بعض مواده وإضافة تعديلات إصلاحية إليه، بمجموعة من التشريعات أطلق عليها اسم «القوانين الطيبة» Buenos Fueros وأهم ما فيها المساواة فى الحقوق بين البنين والبنات فى الميراث.. وسلب حق اليهود فى الدفاع عن أنفسهم.. ولكل إنسان حر الحق فى أن يدافع عن نفسه أمام القضاء، وله أن يختار محامياً أو وكيلاً للدفاع عنه .. (دولة الإسلام فى الأندلس - د. محمد عبد الله عنان) ومنه إلى تلخيص أعمال الفونسو وإصلاحاته الداخلية من كتاب (تاريخ المرابطين والموحدين ج ٢ اشباخ) .

٢ - كان يشترك فى وضع القوانين عظماء المملكة وأكابر رجال الدين والأشراف .. وتعقد إجتماعاتهم فى صفة هيئة تشريعية أو برلمان يسمى «كورتيس» . Cortes

رد جرسيه أوردنيث

- رائع .. رائع يا مولاى .. وهكذا تكون قد ضربت عصفورين بحجر واحد.. آولاً الاستيلاء على بالنسيه وزيادة مناطق النفوذ التابعة للمملكة، وما فيها من كنوز وأموال .. وثانياً تؤدب القنبيطور، وتظهره أمام بلاد شرق الأندلس بمظهر العاجز .. وهذا لن يعفيه من الخضوع للمحاكمة تهم إنتهاك قانون ألاريك ..

وافق الحضور على ما قاله الفونسو، وانتهى الإجتماع إلى تكليف جرسيه بكتابة رسالة إلى الإمارتين الإيطاليتين، وقيام الكونتان بدرو وجونثالو بدراسة محتويات الرسالة والموعد المناسب لوصول السفن، وليكن فى منتصف أشهر الصيف (منتصف يوليو القادم) ..

كما تم تكليف الكونت بدرو، والكونت جرسيه بدراسة موقف جيش المملكة تحت قيادة ألبير هانيس فى المعركة التى سيخوضها قريباً ضد المرابطين للإعداد لكل الاحتمالات..

أوضاع مضطربة

بعد انتهاء لقاء جاسر ووالده مع الشيخ أبو عبد الله والد رضوى .. طالبها والدها باعتبار أن الخطبة بينها وبين جاسر لم تعد قائمة .. واعتبر والدها أنه حر فى آن يرتبط مع أى شخص آخر ويعقد معه القران على رضوى ..

استمرت القطيعة بين رضوى وخطيبها جاسر، وقد توقعت منه أن يكون له موقف قوى تجاه ما قاله والده فى عيد الأضحى الماضى، إلا أن جاسرا وقد مضت أسابيع على اللقاء الأخير .. لم يبد منه أى تصرف يشعر رضوى بإصراره على الارتباط بها رغم ما حدث من سوء فهم بين والده ووالد العروس الشيخ أبو عبد الله ..

أخذت رضوى تتردد على منزل صاحبتها ماتيلدا الفتاة الأسبانية الأصل، التى تقيم فى المنزل المقابل لمنزلها، والملاصق لمنزل والد صديقتها نائلة، واستعاضت بها عن نائلة بعد انتقالها إلى منزل أهل زوجها سالم بعد الزواج ..

شعرت رضوى بالسعادة من الاقتراب من صديقتها ماتيلدا، لأسلوبها المتحرر فى الحديث، ولمظهرها المتبرج وهى ترتدى الملابس التى تظهر مفاتنها وجمالها، بالرغم من عدم قدرة رضوى فى مجاراتها فى ذلك إلا أنها كانت تتمنى أن تصبح مثلها ..

وأخذت رضوى تقص على ماتيلدا أسباب الخلاف بينها وبين عائلة خطيبها جاسر، وماتيلدا تستمع إليها باهتمام، وأصبحت شيئاً فشيئا الصديقة المحببة إلى قلب رضوى ومصدراً لثقتها بها، وراحت تحكى لها أدق الأسرار التى تخصها أو تخص أسرتها ..

ذهبت رضوى إلى منزل صديقتها الأسبانية فى صباح أحد الأيام، وجلستا معاً تتبادلان الحكايات والأسرار، وكان والد ماتيلدا قد ارسل كعادته أحد الخدم العاملين فى متجر الأقمشة الذى يمتلكه بسوق المدينة بالحى القديم حيث يسكنون، ومعه بعض المشتريات للمنزل كانت قد طلبتها منه زوجته ..

فذهب العامل الشاب ذو القامة الطويلة ويدعى شقوان، حاملاً المشتريات المنزلية، وطرق على باب المنزل ففتح له أحد الخدم، ثم أدخله بما يحمله من بضائع وخضراوات وفاكهة إلى حيث غرفة الطهى فقامت ماتيلدا تجري إلى داخلها لتشاهد ما جاء به من طلبات كعادتها، ثم تبعتها رضوى ..

وأخذت ماتيلدا تتفقد المشتريات وتقلبها بينما عينا العامل شقوان تتفحصان ما برز من مفاتن جسدها وهى ترتدى ملابس النوم، فلاحظت ذلك رضوى فرمقته بنظرة غاضبة وقالت له وهو سارح بخياله يتفحص فى جسد ماتيلدا

ـ انت يا هذا .. أنت ... فتنبه شقوان وقال:

ـ نعم يا سيدتى ..

ـ ألا تحترم سيدة المنزل .. فقال لها وقد تلعثم لسانه

ـ نعم يا سيدتى .. نعم

ـ إذن كف عن النظر إليها وإلا قطعت رقبتك ... قالتها بصوت عال وبلهجة حادة مما زاده اضطراباً وخجلاً، فتابعت كلامها له

ـ إذن لماذا تنتظر ..؟ .. ألم تنه ما أتيت من أجله ..؟

ـ نعم .. نعم يا سيدتى... فسألت رضوى صديقتها إن كانت تحتاجه، فأجابتها بالنفى وقد علت وجنتيها ابتسامة خفيفة يكتنفها الغموض .. فقالت له رضوى

ـ إذن أذهب من حيث أتيت فوراً

فخرج مسرعاً وقد شعر بالخجل والغضب من حدة هذه الفتاه، وقد أدهشه جرأتها، وأحزنه أنها حرمته من متعة مشاهدة مفاتن بنت صاحب الدار .. وقد

تعود أن يمتع عينيه منها لدقائق طويلة فى كل مرة يأتى فيها إلى المنزل، دون أن تكترث لذلك أو تعترض ..

وسرعان ما عاتبت رضوى صديقتها ماتيلدا، وقالت لها:

- لابد لك أن تحذرى نظرات هذا الخادم، التى يختلسها من آن لآخر، مستغلاً انشغالك بفحص البضائع ... فقالت ماتيلدا.

- وماذا فى ذلك ..؟

- إنه خادم لابد له أن يحترم سيدته، ولا يخون أهل الدار وهو يعمل لديهم، وقد استأمنوه على أنفسهم وأموالهم وأسرارهم ..

- لا يا رضوى.. ليس إلى هذا الحد .. فأنت تعطى الموضوع أكثر مما يستحق

- لا يا ماتيلدا .. لابد من وضع حد له فى تصرفاته معكم وإلا طمع فيكم ...

فسكتت ماتيلدا وأرادت أن تغير الموضوع فقالت لرضوى.

- على فكرة .. لا داعى أن تنادينى ماتيلدا .. فهذا الاسم بالرغم من إننى أحبه إلا أنه صعب، وثقيل على اللسان ..

- وبماذا أناديك ..؟

- كما تسمعين أمى وإخوتى ينادوننى ... ماتى

- ماتى ..

- نعم .. ما رايك فيه ..؟

- هل له معنى ..؟

- لا ليس بالضرورة، ولكنه مثل مقطع من نغمة موسيقية ..

- كما تجبين يا .. ماتتى ... قالتها وهى تضحك

- ماتى .. ماتى .. أما ماتتى فهو مقطع ثقيل من نغمة نشاز ...

وعلت الضحكات، وتبادلتا النكات والقفشات طوال فترة النهار حتى عادت رضوى إلى منزلها وهى سعيدة بصديقتها المقربة الجديدة ..

عاش سالم وعروسه نائلة أياماً هانئة تملأها السعادة فى عشهما الجديد ببيت والده .. حيث أسس له ولزوجته غرفة مستقلة بالطابق العلوى بدار العائلة .. وأمضيا أيام الزواج الأولى لا يخرجان من غرفتهما إلا لاستقبال الأقارب والأصدقاء، حيث توافدوا إلى الدار يحملون الهدايا والأطعمة والحلوى كعادة الناس فى مثل هذه المناسبات ..

ومضت الأيام سريعاً وعاد سالم يباشر أعماله مع والده طوال النهار، لرعاية الأرض والاهتمام بالزراعات والمحاصيل، والرى بالمياه وطبقاً لنظام الرى المعمول به فى بالنسيه ..

وفى المساء كان سالم يواظب على الذهاب سراً بعد صلاة المغرب إلى حى الشريعة للتدريب على أعمال الفروسية والقتال مع صديقه جاسر .. حيث شارفت هذه التدريبات على الانتهاء بعد ثلاثة أشهر ونصف من التدريب المتواصل ..

شعرت نائلة بالقلق، وقد لاحظت تأخر زوجها فى العودة إلى المنزل بعد صلاة العشاء من كل يوم، وارتابت أكثر حينما رأت ما ينتاب زوجها من شعور بالإرهاق بعد العودة للمنزل .. إذ سرعان ما يتناول العشاء الذى تعده له، ثم لا يلبث إن يذهب فى نوم عميق حتى صباح اليوم التالى ..

استيقظ سالم من نومه مبكراً كعادته وارتدى ملابسه وتأهب للخروج إلى العمل، وبعد أن جلس ليفطر مع نائلة لاحظ على عينيها الشرود، وكسى وجهها الحزن فقال لها متسائلاً:

ـ لماذا ارى على وجهك الحزن وتزيغ عيناك شاردة .. وقد تاهت منك الكلمات..؟ .. فكلما أسألك عن شىء تأخرت فى الإجابة .. وسرح خيالك بعيداً.. لماذا كل هذا الوجوم وهذا الحزن الذى أراه على وجهك ..؟

ـ لا شىء .. لا شىء ... قالتها بعدم اكتراث ... فقال لها سالم

ـ لا يا نائلة هناك شىء يشغل بالك فما هو

ـ اسمع يا سالم .. لا أحب آن أخفى عنك شيئًا .. ولا أريد أن تكتنف حياتنا الغموض والأسرار .. فقل لى بصراحة .. ماذا تفعل كل يوم من بعد خروجك من الدار لصلاة المغرب وحتى عودتك قبل انتصاف الليل بساعتين ..؟ ... فضحك سالم وقال:

ـ .. ماذا تظنين يا حبيبتى .. ألا تعلمين أنه لا شىء يشغلنى عنك إلا أنت .. فأنت أهم شىء فى حياتى .. وإننى آعد الدقائق والثوانى حتى أعود إليك .. فشوقى إليك يزيد يوماً بعد يوم ..

ـ سالم .. ليس هذا وقت المزاح .. أجبنى بصراحة أين تذهب .. ولماذا تغيب؟

ـ أنا لا امزح .. وأنت تعرفين قدر حبى لك .. ولكنى فى الفترة الأخيرة آلتقى مع جاسر وبعض الأصدقاء فنذهب معاً حيث نتلقى دروس ما بعد العشاء عند الشيخ أبو بكر بن حمدون، لنتعلم منه مسائل الفقه والشريعة .. ونتحادث عما يجرى حولنا من أحداث تهمنا جميعاً ... فقالت له وقد ارتاحت قليلاً لرده:

ـ ولكن درس الشيخ أبى بكر يومى الاثنين والخميس .. فما بالنا، وهذا يحدث كل يوم عدا الجمعة ..؟

ـ لنفس السبب يا حبيبتى .. فنحن نذهب إلى مساجد حى الشريعة لنتلقى فيها بعض الدروس أيضاً فى باقى الأيام ..

ـ أرجوك يا سالم لا تبتعد عنى لفترات طولية .. فأنا أحتاج إليك لكى تحدثنى عنك وعن حياتنا ومستقبلنا، فنحن لن نكون وحدنا بعد الآن ..

ـ لن نكون وحدنا .. ماذا تقصدين ..؟ ... ونظر إلى عينيها، فحاولت أن تدير وجهها فمنعها من ذلك وقد مد أصابعه ليعيد وجهها ناحيته فقالت:

ـ نعم يا حبيبى أنا حامل ..! ... فاحمر وجهه وقفز قائلاً :

ـ ما شاء الله ما شاء الله .. بارك الله فيك يا نائلة

ـ إذن كن والداً صالحاً لابنك .. ولا تغضب أمه

ـ لن أغضبها أبداً فهى حبيبتى ونور عينى

ـ الآن فقط نور عينك

ـ أحبك يا نائلة من كل قلبى .. وأنت تعرفين ذلك ..

.. ثم قبل يدها وضحك سعيداً وضحكت معه .. وخرج مستبشراً قانعاً يحمد الله على هذه البشرى السعيدة ..

بالساحة الخلفية الملحقة بأحد مساجد حى الشريعة وبسرية شديدة، أعد احتفال صغير .. حيث وقف قاضى البلاد أبو جعفر بن جحاف يستعرض القائد العسكرى الغرناطى المسئول عن تدريب فرق المتطوعين من شباب المدينة، حيث اصطفوا إلى ثلاث مجموعات كل منها يزيد قليلاً عن ثلاثين فرداً ..

كل مجموعة تراصت على هيئة ثلاثة صفوف .. ووقف سالم على رأس إحدى هذه المجموعات، بينما كان جاسر قد وقف على رأس المجموعات الثلاثة كقائد لها ومساعداً للقائد العسكرى الغرناطى ..

بينما وقف يشاهد الاحتفال كلٍ من .. الشيخ أبو بكر حمدون، والشيخ الشاعر الأديب أحمد البتى، والشيخ ابن أبى عامر التاكرنى .. حيث وقفوا من خلف القاضى، وبعد أن استعرض القائد الغرناطى قوة المتطوعين استدار إلى حيث وقف الشيخ ابن أبو عامر المسئول الرئيسى عن القوة وقدم له التحية العسكرية، ثم تراجع القائد الغرناطى واتخذ مكانه على مقدمة الصفوف ..

تقدم الشيخ أبو عامر، حيث قدم للقاضى أبو جعفر بن جحاف وثيقة تمام استعداد القوة لتنفيذ أى مهام قتالية توكل إليها لحماية أهل المدينة لدفع الخطر عنهم ضد أى تدخل من الغرباء (ويقصد بهم الحامية الأجنبية) ..

تقدم القاضى بن جحاف، وقلد الرتب العسكرية على أفراد القوة المتطوعة وهنأهم على ما أثبتوه من تفوق ونجاح فى تدريبهم العسكرى .. ثم تحدث لهم

فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم صلى وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه ..

لم يكن هدفنا من تدريبكم على فنون القتال والحرب إلا من أجل طاعة الله ورسوله .. فلقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو أهل الطاعة وهم المؤمنون المخلصون من أمته، بالقيام بواجبهم نحو إحياء الدين وإعلاء دعوته ..

وذلك إعمالاً لقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعًا﴾ (١) فأمرهم الله سبحانه وتعالى ألا يقتحموا على عدوهم على جهالة، حتى يتحسسوا إلى ما عندهم، ويعلموا كيف يردون عليهم فذلك أثبت لهم .. فقال «خذوا حذركم» .. فعلمهم مباشرة الحروب ..

وفى الحذر منعاً ودفعاً لمكائد العدو .. ثم قوله سبحانه وتعالى «فانفروا ثبات» أى انهضوا لقتال العدو مجموعات، وسرايا .. وقوله «أو انفروا جميعاً» أى انهضوا أيضاً إن كانت لكم القدرة على ذلك فقاتلوا العدو كجيش كثيف ..

وأنه لا يسقط فرض الجهاد عن أى مسلم إلا إذا كان هناك العدد الكافى من المسلمين للقتال .. ومن حيث القدرة والتسليح أيضاً .. ولا يسقط هذا الفرض إلا بتوافر هذا الشرط ..

وعلى ذلك فإن البداية كانت بالإعداد الجيد لكم كنواة لجيش المستقبل بإذن الله .. وعملنا على ذلك بعد أن تقاعس ولاة الأمر عن هذا الواجب المقدس .. وسوف يكون الحساب قريباً لكل من قصر فى حق هذا الشعب المسلم، ولم يعمل بما أمر به الله ورسوله ..

ثم دعانا الله سبحانه وتعالى فقال ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ .. وهى دعوة إلى القتال فى سبيل الله الذين يبيعون دينهم بعرض قليل من الدنيا، وما ذلك إلا لكفرهم وعدم إيمانهم ..

- سورة النساء ـ الآية ٧١ .
- سورة النساء ـ الآية ٧٤ .

وقد وعد الله كل من قاتل فى سبيله سواء قتل أو غلب .. فإن له عند الله مثوبة عظيمة، وأجر جزيل .. وتكفل الله للمجاهد فى سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه بما نال من أجر أو غنيمة ..

من أجل هذا كله أدعوكم يا أبنائى إلى توخى الحذر وعدم الحديث عما وصلنا إليه من قدرة، لأن هناك الكثيرين ممن يتربصون لنا .. ليسوا فقط من أعدائنا، ولكن وللأسف الشديد من هم من أهلنا وعشيرتنا، ومن ملتنا ..

فالحذر واجب، والاستعداد ضرورى .. وفقنا الله وإياكم إلى ما فيه الخير لنا ولأمتنا بإذن الله ..

ثم قام القاضى وحيا الجميع وانصرف ومعه الشيوخ المتحالفين معه ..

خرج سالم وجاسر بعد نحو نصف الساعة من انصراف القاضى والشيوخ، ثم زملائهم من المتطوعين حيث تسللوا فرادى وأزواجاً حتى لا يلحظهم أحد أو يلفتوا الانتباه ..

مضى سالم يتحدث إلى جاسر وهم فى طريق العودة إلى منازلهم فسأله عن أحواله مع رضوى فقال:

- هل حاولت الحديث إلى رضوى منذ ما حدث فى العيد الماضى ..؟

- لا ..

- أتقول لا .. حتى الآن لم تقابل رضوى أو تحدثها ..؟ ... قالها سالم وقد التفت إلى جاسر متعجباً

- .. نعم لم أقابلها أو أسعى إلى ذلك .. فلم أجد ما أقوله لها أو أبرر موقف أبى ..

- هل مازلت تريد الاقتران بها .. ام إنك قد قنعت بتصرف والدك ..؟

- بالطبع أريدها زوجة لى فأنا أحبها بصدق .. ولكننى لا أعرف كيف أحتفظ بها وفى نفس الوقت لا أغضب أبى منى إن تصرفت منعزلاً عنه ودون مشورته ..

- ولكنها قد تعتبر عدم محاولتك التفاهم معها أو تبرير ما حدث على أنه بمثابة عدم اكتراث منك .. وقد يزيد ذلك من القطيعة بينكما .. فلماذا لا تشرح لها موقفك منها وإصرارك على الارتباط بها ..؟

- وماذا أقول لها

- قل لها ما تشعر به نحوها واشركها فى أمرك وحاولا معاً أن تتغلبا على الصعاب التى تتعرضان لها ..

- لم أعد أستطيع أن ألقاها كما كنا من قبل، فلم يعد ممكناً أن أذهب إليها فى دارها، أو أتحدث إليها كما كان ذلك ممكنا من قبل ..

- إذن لا سبيل إلى ذلك إلا بتدبير لقاء لك معها فى دارنا مع نائلة زوجتى ..

- آحقاً هذا ممكن..؟ ومتى يكون ذلك ..؟

- لا تقلق يا صديقى سوف ندبر الأمر أنا وزوجتى أم على ..

- بارك الله فيك يا صديق .. ماذا تقول أم على ..! أهى حامل ..؟ ... فابتسم سالم وهز رأسه مؤكداً .. فقال جاسر

- ألف مبروك يا أبو على .. ألف مبروك .. هاه ... وتنهد تنهيده طويلة فقال له سالم:

- العقبى لك يا صديقى .. كل شىء بميعاد

- ونعم بالله .. والله ولى الصابرين

- صدقت يا جاسر

ثم وصلا إلى الميدان الكبير أمام مسجد رحبة القاضى حيث افترقا إلى لقاء، وذهب كلٍ منهما إلى داره ..

بعد مضى نحو يومين أخطر سالم صديقه جاسر بأنه تمكن هو وزوجته من تدبير لقاء له مع رضوى فى يوم الجمعة بعد الصلاة .. حيث أرسلت نائلة جاريتها بهجة إلى دار رضوى تدعوها للغداء يوم الجمعة وتمضية النهار معها ..

غمرت السعادة رضوى لدعوة نائلة لها .. فقد شعرت بالحنين إليها بعد أن مضت فترة طويلة لم تلتقيا فيها .. فانتهزت الفرصة لتذهب إليها وتلقاها وتتعرف إلى أخبارها بغد أن مر على زواجها أكثر من شهرين ..

بعد صلاة الجمعة فى مسجد رحبة القاضى صحب سالم صديقه جاسر إلى منزله، وقد هيأ جاسر نفسه للقاء حبيبته رضوى .. وأخذ قلبه يخفق بشدة عندما وقفا أمام باب الدار بعد أن طرقه سالم بمقبض معلق فى حلقة معدنية مثبتة أعلى منتصف الباب الخشبى السميك ..

وفتحت بهجة الباب وانحنت لسيدها سالم وأسرعت إلى داخل الدار، فدعى سالم صديقه فدخل إلى ردهة المنزل ومنها إلى غرفة واسعة للضيوف فجلسا معاً على مقاعد خشبية عريضة وضعت عليها وسائد من الكتان بلون العاج الأبيض، منجدة بالقطن ..

كما وضعت وسائد من نفس النوع واللون وبسمك أقل كمسند على ظهر المقاعد .. وحليت الأغطية الكتان بخيوط من القطن المجدول على هيئة ضفائر طويلة مثبته على أحرف الأغطية بلون أشجار الجوز ..

بينما فرشت أرضية الغرفة بأبسطة عريضة من الصوف الجملى السميك بنفس ألوان الوسائد .. وتبادل سالم وصديقه الحديث، وسرعان ما دخل من باب الدار الشيخ مسعود القيسى والد سالم وبصحبته الشيخ أبو عمر والد نائلة وحمى سالم .. حيث جاء ليهنئ سالم وبنته بعد أن علم بنبأ حملها، فتحين الشيخ مسعود الفرصة فدعاه للغداء معه ..

تبادل سالم التحية مع الشيخين وجلس سالم إلى جوار حماه وعلى يساره جاسر، وتبادل الجميع الحوار، وما هى إلا دقائق حتى دخلت نائلة لتسلم على أبيها ومعها رضوى وأخيها محمود الذى رافقها إلى منزل نائلة .. ثم تلتهم السيدة «وداد» أم سالم وزوجة الشيخ مسعود ..

ازدحمت الغرفة بالضيوف .. بينما تلاقت عينا جاسر ورضوى تختلسان اللحظات، تتحدثان وتتناجيان، وتتأرجحان على أحبال الحب والعشق تارة ..

وأخرى على خيوط العتاب والحزن .. ولأن قلبيهما عامران بالحب والعشق .. فبقيت أحبال المودة والحب .. وسرعان ما تمزقت خيوط العتاب والحزن ..

على مأدبة الغداء العامرة اختلس جاسر الكلمات ليعبّر بقليلها عن فيض حبه لرضوى .. بينما راحت هى تشده بنظرة عتاب وترخيه بنظرة، وترفعه إلى السماء للحظات ثم تلقيه فى أخرى إلى الأرض .. فأخذت تتلذذ من عذابه معها وتحاول أن تسقيه الجفاء والوله والشوق فى آن واحد ..

سألها خلسة بعد الغداء فقال لها:

ـ أتتلذذين بتعذيبى ..؟

ـ لست أنا من تركك ولم يهتم بشأنك

ـ عفى الله عما سلف

ـ هكذا .. هكذا أنا بالنسبة إليك .. مجرد دمية رأيتها فشعر قلبك بالحنين إليها، فإذا ما أمسكت بها طرحتها أرضاً من جديد .. أليس كذلك ..

ـ لا ليس الأمر هكذا كما تتصوريه .. بل لم أدر كيف أتصرف حتى لا أفقدك، وفى نفس الوقت لا أخذل والدى ..!

ـ ولكنك خذلتنى ورميتنى .. ولم تعرف معنى الهجر والنسيان .. خرجت دون أن تحدثنى أو ترثينى بكلمة واحدة .. وأنا من اعتقدت يوماً أنك تحبنى .. فإذا بك تذبحنى بلا رحمة ..

ـ اسمعى يا رضوى .. أنا أحبك .. ولا أستطيع أن أحيا بدونك

ـ ولكنى أنا الآن أستطيع ..

ـ أرجوك يا رضوى لا وقت لدينا لنتحدث فى الهجر والبعاد والفراق .. دعينا نتكلم كيف يمكن لنا أن نتغلب على كل ما يفرق أو يباعد بيننا ..

ـ هذا شأنك أنت .. فابحث عن الوسيلة

ـ وأنت ماذا تفعلين

ـ كفاك أن تعرف أننى سأمنحك فرصة لكى تصلح ما انكسر بيننا

ـ لا يا رضوى لم ينكسر شىء .. وسوف تعود أيام الصفاء والحب من جديد وأعدك بهذا

سكتت رضوى قليلاً ثم أغمضت عينيها وأدارت وجهها نحوه وهى تفتح عينيها ببطء وتقول له فى هدوء مصطنع

ـ سأمنحك فرصة أخيرة يا جاسر ..

لم ير جاسر لهجة التحذيرالخفى فى طى كلمات رضوى بقدر ما ارتجف قلبه لها حينما فتحت عينيها وهى تحدثه .. فرأى ينابيع زرقاء صافية بلون السماء وسحرها فأراد أن يشرب منها .. فغاص وغرق فيها .. تلك العينين الساحرتين قد سرقتا قلبه وعقله ..

بعد العصر بقليل استأذنت رضوى من صديقتها .. فشكرتها نائلة على حضورها هى وأخيها الصغير ورافقتهما حتى باب الدار حيث ودعتها وتمنت لها السعادة ..

اللقاء ..!

برفقة فرسان من قشتالة تركهم القائد ألبير هانيس لقيادة القافلة .. تابعت العربات التى تجرها الخيول الملكية مسيرها شرقاً بعد أن مرت ببلدة ثيوداد رويال ..

ثم مرت عبر الدروب بمحاذاة الضفة الجنوبية لنهر وادى يانه، مخترقة غابات الأشجار الصنوبرية الطويلة والأرض الخضراء التى تكسوها الحشائش الطويلة لتختفى عن أنظار طلائع جيش المرابطين المتقدم نحو قلعة رباح (إلى الجنوب قليلاً من ثيوداد رويال) وفى نفس الوقت، لتتفادى سلسلة جبال طليطلة ..

وما آن تجاوزت العربات الحدود الشرقية لسلسلة الجبال حتى عبرت النهر، واتجهت غرباً إلى أن وصلت إلى مدينة وقلعة أقليش عند السفوح الشرقية لسلسلة الجبال .. وأقامت مخيمها الصغير ليلاً ليرتاح فيه المسافرون والخيل لساعات، بعد رحلة طويلة ليوم كامل منذ الفجر، قطعتها القافلة متجهة إلى طليطلة ..

عند شروق الشمس واصلت القافلة مسيرها، حيث انعطفت إلى الشمال الغربى متجهة إلى نهر التاجو ..

ومع غروب الشمس عبرت قنطرة طليطلة ببرجيها الشامخين عند الضفة الشمالية للنهر وعبرت البوابات إلى قلب المدينة، وقد تلألأت أضواء المصابيح المنبعثة من نوافذ المنازل مع بداية الليل وهو يخيم على المدينة ليكسوها بسواد حالك فى ليلة غاب عنها القمر ..

توقفت العربات أمام منزل كبير منعزل فى أقصى المدينة، وترجل الجميع، وتقدم الفرسان القشتاليون، وبعد أن طرقوا على الباب .. سرعان ما فتحت الأبواب وخرج الخدم يحملون الحقائب والصناديق من العربات وأدخلوها إلى المنزل، بينما حملت الأميرة سيدة طفلتها الصغيرة المستغرقة فى النوم، وحملت باقى الوصيفات الأولاد، وحمل خدم الأميرة متعلقاتها الخاصة لها ولأولادها وحملوها مسرعين إلى داخل المنزل ..

داخل منزل مفروش بالأثاث الخشبى العتيق البسيط ولكنه لا يفتقر إلى الأناقة.. راحت الأميرة تنظر إلى محتوياته وهى تصعد درجات السلم الخشبى متجهة إلى الطابق العلوى .. ولفت انتباهها صليب خشبى متوسط الحجم معلق على الحائط فى صدر درجات السلم عند البسطة الصغيرة التى تلى أول عشر درجات منه، حيث تنعطف درجات السلم إلى اليمين صاعدة إلى الطابق العلوى بعشر درجات أخرى تنتهى إلى بسطة عريضه تفضى إلى ردهة طويلة على يمينها ويسارها غرف النوم المعدة لها ولأطفالها ..

ترك الفرسان الأميرة، بعد أن استأذنوها فى الانصراف، وقد أعلمها رئيسهم بضرورة البقاء فى المنزل وعدم مغادرته لأى سبب حتى تأتى إليها تعليمات بخصوص ترتيبات الإقامة والإعاشة ..

وأمضت الأميرة الليل مع وصيفاتها وخدمها فى إعداد أنفسهم للإقامة الطويلة، حيث عاونهم فى قضاء حاجاتهم الخدم المعينون لخدمتهم، حيث كانوا على علم بقدومهم بناء على أوامر صادرة إليهم من قصر الملك الفونسو فى هذا الشأن ..

فى اليوم التالى وقبل العصر بقليل قامت الأميرة تتثاءب بعد نوم طويل كانت بحاجة إليه هى ومن كان معها فى رحلتها الطويلة المحفوفة بالمخاطر .. ثم ارتدت روبا من الحرير الأزرق فوق رداء النوم وخرجت إلى الشرفة الملحقة بغرفة نومها، حيث تبدى لها أن المنزل محاط بحديقة صغيرة منسقة يحيطها سياج من الخشب متوسط الطول ومن خلف السياج نطاق من الأشجار الصنوبرية العالية ترسم سياجا آخر حول المنزل لتعزله عما حوله وتبعد المكان عن عيون الفضلاء ..

وأثناء تجولها فى الشرفة لاحظت أن المنزل يعتلى ربوة مكسوة بالحشائش الخضراء .. ورأت تلالا متعددة مليئة بالبيوت والقصور الصغيرة وبعض الطرقات الصاعدة والهابطة تربط بين التلال بعضها ببعض، وفى المدى البعيد بدت أسوار المدينة وأبراجها العالية الحصينة على مرمى البصر .. وتساءلت فى نفسها .. كيف لمدينة بمثل هذا الرخاء وبمثل هذه القوة والمنعة أن تسقط بسهولة فى يد الملك الفونسو ..؟ ! .. ولم تجد لسؤالها جواباً .. ولكنها تذكرت أبياتاً من الشعر كان يرددها دائماً زوجها الراحل الأمير المأمون حيث جاء فيها

طليطلة أباح الكفر منها — حماها، إن ذا نبأ كبير

فليس مثالها إيوان كسرى — ولا منها الخورنق والسدير

محصنة محسنة بعيد — تناولها ومطلبها عسير

وفيها أيضاً

وكانت دار إيمان وعلم — معالمها التى طمست تنير

مساجدها كنائس أى قلب — على هذا يقر ولا يطير

فيا أسفاه يا أسفاه حزناً — يكرر ما تكررت الدهور

عادت الأميرة إلى غرفتها ومنها راحت ترعى شئون أطفالها لتطمئن عليهم، ثم تنقلت داخل المنزل لتطمئن على مرافقيها وأماكن نومهم التى أعدت لهم بالمنطقة الخلفية للطابق الأرضى من المنزل، ثم أخذت تتعرف إلى الخدم المعينين لخدمتها، واطمأنت إلى توافر كل الضروريات التى تلزمها ومن معها للإقامة والإعاشة .. فتعجبت لهذا الاهتمام والترتيب المتقن لكل مستلزماتها بالرغم أنها لم يمض على وصولها إلا ساعات قليلة ..

مضى يومان منذ أن وصلت الأميرة إلى طليطلة، ثم حضر إلى المنزل فارس قادم من القصر الملكى يخطرها بموعد لقاء الملك الفونسو الليلة فى السابعة مساءً، وأخبرها بأنه ستأتى لها عربة ومرافق .. ليوصلها إلى القصر ثم يعيدها مرة أخرى للمنزل بعد لقاء الملك ..

ما أن غادر مندوب الملك المنزل حتى وجدت سيدة نفسها تجرى وترقص، وكأنها قد عادت سنيناً إلى الوراء حيث أيام الصبا .. وكأنها فتاة وصلتها رسالة رقيقة من حبيبها يطلب منها أن تلقاه ..

توقفت سيدة فجأة وتلفتت حولها، وقد خشيت أن تفضحها مشاعرها ويطلع عليها أى من الغرباء أو أن يكون هناك من ينظر إليها ويدرك ما يعتريها من أحاسيس ومشاعر ..

أعادها عقلها إلى واقعها الذى تعيشه .. وتذكرت أنها منذ أسابيع قليلة، سفكت دماء زوجها، وحُزت رأسه، وعلقت على سن الرمح، وطيف بها فى شوارع قرطبة على مرأى ومسمع من الآلاف من الرجال والنساء والأطفال، فى مشهد يندى له الجبين ..

وتساقطت الدمعات من عينيها، وقد شعرت بالخجل من نفسها .. ثم تملكتها مشاعر من اليأس، والخوف، والحزن، والألم .. مشاعر تتجسد أمامها .. تشعل النار فى قلبها .. وتمزق كيانها ..

المرابطون .. هؤلاء السفلة الذين حرمونى من زوجى ويتموا أطفالى .. لابد لى من الانتقام منهم بأى ثمن .. بأى ثمن ... هكذا حدثتها نفسها، وتذكرت أنها أتت إلى هنا .. إلى طليطلة لتشفى غليلها وتنتقم ..

نعم جئت لأنتقم منهم .. ولا أدرى متى .. ولا كيف .. ولكنى أدرك أن السبيل الوحيد إلى ذلك هو الملك الفونسو ..

نعم الملك الفونسو ذاته .. فهو الوحيد الذى يملك عناصر القوة والنفوذ، وهو الوحيد الذى يستطيع أن يبذلها لى لكى أحقق ما أصبو إليه .. كيف، ومتى ..؟ .. سؤال سابق لأوانه ..

وكل ما أعرفه هو أننى لا بد من أستغل الفرصة .. بكل ما لدى من قوة .. بكل ما لدى من عقل .. بكل ما لدى من كيان لن أضيع هذه الفرصة ...

هكذا واصلت حديثها إلى نفسها .. فمضت لتستعد للقاء ..

وقفت الجياد التى تجر العربة أمام باب القصر فترجلت منها الأميرة، ثم صعدت درجات السلم، وعبرت الأبواب، وسارت فى الردهة الواسعة، ثم تبعت مرافقها فى صعود درجات السلم الداخلى العريض للقصر، وقد فرشت درجاته بالبساط الأحمر القانى، ومن ممر إلى آخر، ومن ردهة إلى أخرى، إلى أن توقف مرافقها ودعاها للدخول وحدها ..

وفى غرفة صغيرة غطت جدرانها ستائر كثيفة بدرجات الأخضر بتناسق بديع، جلس الملك الفونسو على مقعد عريض وثير يقرأ فى كتاب سميك يبدو أنه الإنجيل .. ومن أمامه المدفئة الرخامية المليئة بالحطب المشتعلة علق فوقها صليب معدنى متوسط الحجم ومن فوقه صورة زيتية للعذراء وطفلها يحيطها برواز مذهب عريض ..

وقفت الأميرة عند الباب لا تبرح مكانها حتى رفع الفونسو عينه من الكتاب الذى يقرأه، وقال لها بصوت خفيض يكسوه إحساس بالعظمة والترفع وقليل من التكبر :

ـ لماذا تقفين فى مكانك تفضلى ...

وأشار لها لكى تجلس فى المقعد المقابل لمقعده أمام المدفئة .. فتقدمت الأميرة نحوه، وقد تدثرت بمعطف سميك من الفراء الأسود وغطت رأسها بغلالة من القماش الشفاف الأسود الرقيق، وبينما تتقدم نحوه .. طالع قامتها ورداءها فخُيل إليه وكأن هودج من الخشب كسى بسواد يتحرك نحوه .. فاشمأزت نفسه منها، وأحبط ظنه فيها ..

وقفت الأميرة قبالة الملك .. فوقف ليرحب بها بنوع من عدم الاكتراث ... فقالت له تستأذنه:

ـ مولاى .. هل لى أن أخلع المعطف..؟ فوهج المدفئة أشعرنى بالحر الشديد

سكت الفونسو لبرهة وقد فاجأته برقة صوتها، ومعرفتها باللغة القشتالية .. ومرت ثوان دون أن ينطق بكلمة، ثم تدارك نفسه وقال بسرعة .. تفضلى تفضلى .. وتقدم ليساعدها على خلعه كعادة الأفرنج .. ثم وضع المعطف إلى جوارها

وهم بالجلوس وهو ينظر إليها فوقع بصره على ردائها الأسود الذى ترتديه، ولاحظ حسن حياكته وجمال منظره، وبدأت ترفع الغلالة السوداء من على وجهها..

تسمر الفونسو فى مكانه،، فما كادت الغلالة تنحصر عن رأسها حتى طالعه وجه رائع الحسن والفتنة، وقد تدلت خصلات شعرها الذهبى على أكتافها، وتفتحت عيناها الزرقاوان بلون السماء الصافية، فرمقها بعينيه فاهتز قلبه لها، والتصق لسانه فى حلقه ولم ينطق ببنت شفة ..

تصنعت سيدة البراءة والسكينة وأرخت عينيها ببطء ونظرت إلى الأرض، وبقيت صامتة ... فتمكن الفونسو أن يستعيد وعيه ويخرج من صمته وقال لها فى رقة وتعطف واهتمام ظاهر ..

- أراك تتحدثين القشتالية

- نعم يا مولاى .. فإنا فى الأصل من قشتالة ولكنى لا أتذكر شيئًا من صباى..

- لقد حزنا هنا جميعاً لما حدث بقرطبة

فانتهزت الأميرة الفرصة لكى تستعطف قلب الملك فقالت وهى تذرف الدموع.

- نعم يا مولاى الملك لقد جعلوا حياتى أنا وأطفالى جحيماً لا يطاق فلا أنيس لنا ولا عائل يحمينا ..

فاستفزته كلماتها، ووجدها فرصة لإثبات شهامته وكرمه وقال لها وهو يتبسط معها لعله يقترب من قلبها:

- لا تقولى هذا أيتها الأميرة الجميلة .. فنحن لن ننسى ما يربطنا بالأمير الراحل ووالده من أواصر الصداقة والمودة .. وهذا كفيل بأن يجعلنا مدينون لكم بكل العرفان والمودة .. فكل ما لدينا هنا هو طوع بنانكم ورهن إشارتكم .. تطلبين فتجاب كل طلباتك .. لا تقلقى من شىء .. فإن كنت قد فقدت الأهل والأصدقاء هناك .. فإننا أهلك وأصدقاؤك إن قبلت ذلك

ـ عفواً يا مولاى .. لا تنس أننى قشتالية الدم والولادة، وها قد عدت إلى أهلى وعشيرتى

ـ ما أحلى كلامك يا أميرة .. سرعان ما تشعرين بالأمان والسعادة هنا

فانتهزت الأميرة الفرصة مرة أخرى وقالت له بنبرات الحزن فى صوتها:

ـ الأوغاد قتلوا زوجى وأصبحت وحيدة

فأراد أن يعبر لها الفونسو عن استعداده أن يكون صديقاً لها، ولكن منعه أن يبدو أمامها كالمراهق .. فقال بلهجة يحاول فيها السيطرة على مشاعره الجياشة نحوها

ـ أرجوك اعتبرينى .. أقصد اعتبرينا كلنا هنا أصدقاءك وأهلك

ـ شكراً يا مولاى

ـ اسمحى لى يا أميرتى العزيزة أن أدبر لك قصراً صغيراً لك ولأطفالك يليق بمقامك الرفيع .. ونأسف لنزولك بهذا المنزل المتواضع فقد كنا فى عجلة من أمرنا وغداً يكون لك قصرك الخاص لتنعمى بالأمان والراحة بيننا

فقالت وقد اختفت من كلماتها نبرات الحزن المصطنعة، وقد شعرت بأنها أصابت هدفها من الزيارة الأولى:

ـ إن ما سمعته عن شهامتك ونبلك يا مولاى، لا يوفيك حقك ... فقال لها وهويتملكه الفضول ويريد أن يعرف ما قد سمعته عنه:

ـ أرجو أن تكونى قد سمعت عنى كل الخير

ـ كل الخير يا مولاى .. كل الخير

ثم فجأة أرادت أن تنهى المقابلة عند هذا الحد فوضعت أصابعها على جبينها وتصنعت إغماءة خفيفة، وقف على اثرها الفونسو من مقعده وتقدم نحوها وقال:

ـ ماذا حدث .. ماذا حدث .... فقالت له وقد وقفت على قدميها:

- لا شىء يا مولاى .. مجرد إرهاق وتعب يعترينى كلما تذكرت أيامنا الأخيرة فى قرطبة .... فقال لها:

- آسف لما سببته لك من إرهاق وكان يجب أن نعطيك الفرصة لترتاحى لوقت أطول

- بل أنا آسفه لما أسببه لك من ازعاج، وأنت ملك الملوك، وقتك ثمين ولا- .. فقاطعها:

- وهل هناك فى كل قشتالة من هو أهم منك ويحتاج إلى رعايتنا ... قالها برقة وعذوبة ... فرمقته بنظرة مست شغاف قلبه وقالت له وهى تتصنع الإرهاق بشىء من الدلال الظاهر:

- اشكرك يا مولاى

ثم مدت يدها لتسلم عليه فالتصقت يده بيدها للحظات، ثم سحبتها برقة، ورمقته بنظرة سارحة واستدارت لتغادر الغرفة، فوعدها بالسؤال عنها ورعاية شئونها .. ثم استقلت العربة عائدة إلى منزلها البعيد المنعزل ..

بعد استسلام كلٍ من مدينة وحصن جيان شرق قرطبة، تبعهم كل البلدات والحصون فى منطقة شرق الوادى الكبير .. حيث استولى المرابطون على مدن وحصون أبده، وبياسة، وشقورة ..

وتقدمت القوات المرابطية بقيادة يطى بن إسماعيل، إلى المنحدرات الشرقية لجبال سييرا مورينا (جبل الشارات) عند جبل الكرس، ثم اتجهت غرباً إلى قلعة رباح شرق وادى يانة، فاستولت عليه بقوة ألف فارس، وأضحت على مسافة قريبة من مدينة المدور فى منتصف الوادى ..

وعادت القوات المرابطية لتهاجم حصن قرمونة بضراوة، وبمعنويات عالية .. فدب اليأس بالقوات المدافعة عن الحصن بعد طول الحصار الذى تعرضت له ..

وفى يوم السبت العاشر من مايو ١٠٩١ ميلادية (١٩ربيع الأول٤٨٤)، اقتحمت القوات المرابطية حصن قرمونة، واستولت عليه واستسلمت القوات المدافعة عن الحصن فور اقتحام المرابطين له ..

وتقدم الجيش المرابطى بقيادة إبراهيم بن إسحق اللمتونى .. من منطقة قلعة قرمونة، وتحرك ليلاقى الجيش القشتالى المتقدم لرفع الحصار عن أشبيلية، الذى يقوده ألبير هانيس الذراع الأيمن للملك الفونسو ..

واقترب الجيشان المرابطى والقشتالى من بعضهما فى منطقة غرب وادى يانة بالقرب من بلدة المعدن، وعسكرا وجهاً لوجه استعداداً للمعركة الفاصلة .. حيث حشد القشتاليون نحو خمسة آلاف فارس يدعمهم عشرة آلاف جندى، بينما حشد المرابطون نحو ثمانية آلاف فارس مدعمين بخمسة آلاف جندى مترجل ..

لم يلبث الجيش المرابطى أن عزز الدفاعات فى منطقة المعسكر ثم تقدم فجراً ليلقى الجيش القشتالى المتأهب للقتال، وسرعان ما التحم الجيشان فى معركة ضارية، تقاتل فيها الجيشان بضراوة، وتساقط القتلى بأعداد كبيرة فى الجانبين، وانتهى اليوم الأول للقتال دون حسم ..

وفى اليوم الثانى استأنف القتال وسقط القتلى بالآلاف، ووضح الإنهاك على الطرفين المتقاتلين، وإن كانت آثاره بدت واضحة أكثر على الجانب القشتالى ..

وفى اليوم الثالث للقتال حسم المرابطون المعركة وأثخنوا فى الجيش القشتالى قتلاً وتدميراً وسقط قائده ألبير هانيس مضرجاً فى دمائه، وحمله الفرسان القشتاليون، وغادروا أرض المعركة والقتال مازال دائراً ..

غرُبتْ الشمس، وغرُبَتْ معها آمال الملك المعتمد المتعلقة بمصير هذه المعركة الفاصلة، وانتصر المرابطون، وذهبت أمانى الملك المعتمد وأحلامه أدراج الرياح ..

عمت الفرحة قادة الجيش المرابطى وعلى رأسهم الأمير سير بن أبى بكر ...، وأدرك أن سقوط أشبيلية مسألة وقت لا أكثر، وطير إلى أمير المسلمين بالعُدوة .. بخبر النصر الكبير على القشتاليين ..

وفى أشبيلية تجرع الملك المعتمد كأس المرارة، وشعر بالوحدة والحصار القاسى الذى يعانيه داخل قصره خلف أسوار المدينة .. وهو من تعود أن يصول ويجول بفرسه فى ساحات الوغى حاملاً سيفه، لا يهاب الموت ..

وها هو الآن يقبع مكتوف الأيدى مدافعاً عن عرينه المحاصر، وقد أقسم أن يكون الدفاع حتى الرمق الأخير ..

وفى طليطلة أخبر الكونت بدرو، والكونت جرسيه .. نتائج المعركة للملك الفونسو، وعندها تأكد الفونسو بفوز المرابطين ببلاد غرب الأندلس، وأخذ يدبر مع قادته أفضل السبل لوقف تقدم المرابطين فى شرق الأندلس، وما بقى من بلاد الغرب حيث مملكة بطليوس، بعد أن وصلته رسائل الملك المتوكل يستصرخ فيها الفونسو لنجدته بعد نجاح المرابطين المتواصل ..

وبعد أن اطمئن الفونسو من نجاة قائده ألبير هانيس قرر توفير أفضل علاج له، وإعادة تجميع قوات الجيش العائد من المعركة وقرر أن يوفر الراحة لها، وتقديم العلاج والرعاية للمصابين..

وانعقد مجلس الحرب، وحضره الدوقات رؤساء الولايات (قشتالة، ليون، جليقيه) ورؤساء المقاطعات (القوامس أو الكونتات) والبارونات، وقادة الجيش .. ورأس المجلس الملك الفونسو ..

وقرر مجلس الحرب المنعقد فى طليطلة، إعادة ضم من بقى من القوات العائدة من قتال المرابطين إلى القوات المتمركزة فى قشتالة، وقيام قادة الجيش بالإعداد لخطة الملك الفونسو، وذلك بتقسيم القوات إلى قسمين .. الأول وفيه تحشد قوات الفرسان بنسبة النصف على الأقل من إجمالى قوته، ليكون قادراً على التحرك بسهولة، فى أرض المعركة وللمناورة أثناء خوض القتال .. والقسم الثانى لحماية الولايات، والمقاطعات والحصون،أثناء غياب الملك خارج أراضى الإمبراطورية ..

وقرر المجلس التحرك خلال اشهر إلى شرق الأندلس لغزو مملكة بالنسيه والاستيلاء عليها والتمركز فيها لتكون قاعدة للإمبراطورية الإسبانية فى شرق الأندلس لوقف تقدم المرابطين وإلحاق الهزيمة بهم ..

على الرغم من الاهتمام الكبير الذى أحيطت به الأميرة سيدة منذ مجيئها إلى طليطلة .. إلا أن الأمور أخذت شكلاً آخر فى اليوم التالى للقائها بالملك

الفونسو.. فقد نقلت مع أطفالها والوصيفات والخدم إلى قصر من القصور الملكية التابعة مباشرة للملك الفونسو ..

وعاود الملك لقاءها ولكن كان هذا اللقاء، فى هذه المرة بالقصر الذى تقيم فيه الأميرة .. حيث أحيطت علماً بموعد قدوم الملك، فاستعدت للقاء الجولة الثانية من مهمة تعد لها الأميرة بعناية وإن كانت هذه المهمة بلا أبعاد أو أهداف واضحة أو محددة، ولكنها جعلت هدفها ينصب على أن يغرم بها الملك إلى الحد الذى تستطيع معه فى يوم ما .. فى لحظة ما .. أن تطالبه أو تشاركه الانتقام من أعدائها المرابطين ..

فى أمسية صيفية هادئة، وتحت سماء مرصعة بالنجوم المتلألئة .. جلست الأميرة سيدة بصحبة ضيفها الملك فى الشرفه الملحقة بالصالون الأنيق داخل القصر والمطلة على الحديقة الواسعة حيث تكثر بها الأشجار وأحواض الزهور فى تنسيق جميل ..

كان لأثر الاهتمام البالغ الذى أحيطت به الأميرة، وحفاوة الملك بها .. والأسابيع التى قضتها هى وأولادها بعيداً عن أجواء الحرب والدمار .. كل هذا انعكس على اللقاء فغلفه بأجواء من الود والبساطة .. بعد أن تلاشت أو كادت أن تتلاشى مشاعر الكآبة والحزن التى تلت احداث قرطبة ..

تحدث الملك إلى الأميرة بعد عبارات الترحيب والمجاملة التى تلت استقبال الأميرة للملك فقال لها:

ـ هل تعلمين أننى حتى هذه اللحظة لا أعرف اسمك على وجه التحديد ..؟

ـ وهل لذلك أهمية كبيرة يا مولاى

ـ بالطبع .. فإذا كان المرء يشعر بمشاعر خاصة نحو إنسان ما .. فإنه يتطلع لمعرفة كل شىء عنه

ـ وهل أنا هذا الإنسان ..؟

ماذا تظنين إذن ..؟ ... فضحكت الأميرة ضحكة رقيقة ساحرة كشفت عن أسنان كحبات اللؤلؤ وقالت

- يسمونى سيدة

- زايده ... قالها بلكنة قشتالية

- سا .. سا .. سيدة ... (تحاول أن تعوده على نطقها بالعربية)

- زا .. زا .. زايدة .. (يحاول ولا يعرف)

- إذن فلتكن كما تستطيع أن تنطقها ..

- قولى لى يا زايدة .. هل أنت سعيدة الآن .. أقصد مرتاحة فى هذا القصر، هل يوجد شيء يعكر صفوك ..؟

- أشكرك يا مولاى .. فأنا ألقى كل الرعاية..

- هذا واضح من تألق وجهك .. ونقاء صوتك

- الوجه والصوت هل يعبران عن حالة الإنسان

- بالتأكيد

- وهذا فعلاً صحيح .. ولا أدرى كيف سيكون حالى لولا رعايتك

- هل أستطيع أن أفتح لك قلبى وأصارحك

- هذا ما أتمناه

- إن لك مكانة خاصة فى قلبى يا زايدة ... (تبتسم وتحول وجهها لأسفل) فيواصل الفونسو حديثه فيقول:

- صدقينى .. لقد لامست قلبى فى أول لحظة رأتك فيها عيناى

- هل تسمح لى أن أكون صريحة معك يا مولاى

- هذا ما أتمناه

- بالرغم مما سمعته عنك .. فإنك لامست قلبى من قبل أن ألقاك

- من قبل أن ألقاك ..!! .. كيف هذا

ـ لطالما سمعت عنك، وأنا بعيدة هناك فى قرطبة .. وتمنيت ... (ثم سكتت، ولم تنطق بكلمة)

ـ تمنيت ماذا قولى أرجوك .. فأنا أريد أن أسمع منك

ـ لكم تمنيت أن ألقاك فقط ألقاك لأتعرف عليك ..

ـ ومن حدثك عنى هناك فى قرطبة ..

ـ هناك لدينا الكثير من الجوارى القادمات من بلاد قشتالة .. والكثير من العبيد أيضاً، وكنت كثيراً ما أسألهم عن قشتالة ورجالها وأسر النبلاء وأسمائهم.. وبالطبع كان الحديث يتطرق إليك، وكل ما يخصك

ـ مثل ماذا ..

ـ شكلك مثلاً

ـ شكلى ... (ثم يضحك ضحكة خفيفة) ويقول متسائلاً:

ـ وماذا يهمك فى شكلى

ـ أنا أحب الرجل الوسيم

ـ وهل تريننى وسيماً ..؟

ـ أنت رجل تتمناه أية امرأة .. (فيبتسم ابتسامة خجل، مع إحساس بالسعادة) ويقول:

ـ آلا تخشين من غرورى نحوك ..؟

ـ لا

ـ لا .. لماذا ..؟

ـ لست كأى امرأة .. أنا .. (قالتها باعتزاز وغرور محبب للرجل الواثق من نفسه) فقال لها:

ـ ما أجملك

ـ مولاى هل لديك أولاد..؟

ـ لماذا تسألين..؟

ـ مثلما قلت لى منذ قليل «إذا كان المرء يشعر بمشاعر خاصة نحو إنسان ما .. فإنه يتطلع لمعرفة كل شىء عنه .. »

ـ وهل انا ذلك الإنسان (يرد عليها بنفس الرد الذى ردت به على مقولته عندما قالها) فيضحكان معاً ثم يقول لها.

ـ لدىّ بنتان .. أوراكا، وتيريزا ستة عشر عاماً وأربعة عشر عاماً

ـ هل هما جميلتان مثل أبيهما ..؟

ـ بل هما أجمل

ـ متى سألقاك يا مولاى ثانية ..

ـ هل ضجرت منى وتستعجلين انصرافى ..؟

العفو .. العفو يا مولاى، ولكنك انشغلت ولم ألقاك منذ أسابيع ..! .. (فذكرته بما يدور من استعدادات، وأنه يستعد لمغادرة طليطلة)

ـ آه ذكرتينى بما يعكر صفوى

ـ كيف .. وما الذى يعكر صفو مولاى

ـ إنها الأحوال التى تمر بها البلاد .. ولابد لى من مغادرة طليطلة خلال يومين على الأكثر ..

ـ تغادر طليطلة

ـ نعم .. فسوف أتوجه إلى قشتالة لتفقد الجيش قبل التحرك به ..

ـ يا الله ألا تنتهى الحروب أبداً

ـ هذا قدرنا

ـ ومتى تعود

ـ قريباً جداً .. ولكنى سوف ألقاك قبل أن أغادر طليطلة

ـ لقد تعلق قلبى بك .. وأشعر الآن بمرارة الفراق

ـ سوف أعود إليك قبل أن أغادر طليطلة

ثم نهض ليودعها فمدت يدها لتسلم عليه، فرفعها وانحنى برأسه قليلا ليطبع قبلة دافئة عليها، ثم رافقته إلى أن غادر القصر على وعد باللقاء ..

المواجهة

عادت مشاعر الود والحب على أفضل ما تكون ما بين رضوى، وجاسر .. واختلسا اللقاءات العديدة إما فى منزل نائلة أو أثناء ذهابها للسوق لشراء بعض لوازم البيت التى لا تستطيع بهارة شراءها وحدها ..

وقد كانت رضوى تستغل فرصة كل لقاء مع جاسر لتطالبه بضرورة الحديث إلى والدها حتى تعود الأحوال لما كانت عليه قبل فسخ الخطبة .. إلا أن جاسر كان يلح عليها بالانتظار حتى يستطيع أن يقنع والده بالذهاب إلى والدها للاتفاق من جديد على موعد الزواج، فقالت رضوى له:

ـ لابد لك من أن تجد حلاً كى تعود الأمور لما كانت عليه من قبل

ـ نعم اعرف أن والدك أصبح يشدد عليك فى كل مرة تخرجين فيها

ـ لا أنت لا تعرف الطريقة التى يسألنى بها كلما طلبت الخروج للذهاب إلى السوق أو نائلة أو ماتى ..

ـ ماتى .. من هى .. ماتى هذه ... (فتنفجر رضوى فى الضحك وتقول له، تقصد أن تغيظه وتزيد من حيرته)

ـ ماتى .. ألا تعرفها.؟.. (فيلاحظ أنها تضحك، وتريد أن تغيظه) فقال لها

ـ لا والله لا أعرف

ـ ماتى هى ماتى

ـ والله ... (فتقول قبل أن ينفجر فيها من الغيظ)

ـ يا سيدى ماتيلدا .. هذا اختصار اسمها

- ألا زلت تتقابلين معها

- وهل أنا قاطعتها ..؟

- أنت تعرفين أننى لا أستحسن تصرفاتها

- نعم أعرف .. ولكنى لا أجاريها فى أى شىء تكرهه

- كل أفعالها لا تعجبنى

حسناً هذا ليس موضوعنا الآن ولا تهرب من حديثنا .. فماذا ستفعل ... يسكت قليلاً ثم يقول:

- حاضر .. سوف آكلم والدى لأقنعه بالعودة ولقاء والدك ..

- متى سيتم ذلك

- اليوم سوف أحدثه فى هذا الأمر ..

ثم يتابعان حديثهما عن المستقبل وما يتمنيانه عند الزواج .. ويدعوان الله أن تكلل جهودهما فى إقناع والديهما بالخير، ثم يفترقان على أمل فى لقاء قريب

يتحدث جاسر بشأن رغبته فى الاقتران برضوى إلى والده فى المساء بعد العودة من صلاة العشاء وقبل أن ينام والده مبكراً كالعادة، فيقول له والده الشيخ جابر

- يا ابنى آنا أشعر إنك متعجل .. وأن رضوى هذه فتاة تحاول أن تسَيِّرَك كيفما تشاء هى .. ونحن كما تعلم ليس من عادتنا فى أهلنا وعائلتنا أن تسير المرأة أمور البيت .. وهذا ليس فى مصلحتك .. وسوف تستغل هى حبك لها لتفرض إرادتها عليك .. وبهذا فإما أن تجاريها فيما تريد هى .. أو ترفض فتسىء هى عشرتها معك .. وهذا حتماً يؤدى إلى الطلاق .. وهذا ما لا نرضاه

- يا والدى ليس الأمر كما تعتقد.. فرضوى مثل أى فتاه تحب أن يكون لها دلال على زوجها لا أكثر ولا أقل .. ثم إنها قد تغيرت إلى الأفضل، وتريد أن تعيش مثل أى فتاه فى كنف زوجها الذى تحبه

- على العموم انتظر قليلاً حتى ينقضى الصيف، ثم نتوكل على الله ونذهب إلى والدها ... (فشعر جاسر أن الحديث مع والده لن يجدى الآن ولابد من

الانتظار حتى نهاية الصيف حتى لا يعاند والده ويرفض هذا الزواج إن هو أصر على مجادلته)

فسكت عن الحديث وسلم على والده قبل أن يذهب للنوم وانصرف جاسر إلى غرفة نومه

علمت رضوى بما دار بين جاسر ووالده .. ثم اتفقت مع جاسر على أن يذهب وحده إلى والدها ليحاول إصلاح ما افسده والده، وليعيد المياه إلى مجاريها، على أن يعد والدها ولو مؤقتاً بذهاب والده لهم مستقبلاً (أى لأهل رضوى) وذلك بعد نهاية الصيف ..

ذهب جاسر للقاء الشيخ أبى عبد الله والد رضوى مساءً بمنزله، حيث رحب به الشيخ وجلسا يتحدثان فقال لجاسر:

ـ كيف حال الوالد ..؟

ـ بخير والحمد لله

ـ وكيف يسير العمل لديكم

ـ هذا نهاية الموسم الذى تتوافر فيه الأنواع الجيدة من الأسماك

ـ وما هى أفضل الأشهر لديكم

ـ يناير، وفبراير، ومارس، وأبريل .. وهى كما ترى الأشهر التى بها حرف الراء فى منتصفها

ـ هل هذه صدفة..؟

ـ نعم هى أربعة أشهر متتالية، ويبدو أن اشتراكها فى حرف الراء مصادفة ..

ـ هل التجارة تسير على ما يرام

ـ نحن كما تعلم يا عماه نعتمد على الصيد من مياه البحر، وكذا البحيرة المجاورة .. مما يجعل معظم أعمالنا تجرى خارج المدينة.. وكلما اضطربت الأحوال خارجها، اضطربت أحوال التجارة .. ولكن الحمد لله لم يقع هذا العام ما يعكر الصفو حتى الآن .. لعل الأحوال الطيبة تدوم

- إن شاء الله ... وبالمناسبة فإن والدى يسلم عليك كثيراً

- حقاً .. أعطاه الله الصحة .. ولكنى كنت أود أن أسمع سلامه منه

- قريباً جداً إن شاء الله

- أود أن تعتبر ما حدث فى عيد الأضحى مجرد سوء تفاهم لا أكثر

- إسمع يا جاسر .. انا لا أعترض عليك كشخص .. فأنت إنسان مستقيم، وناجح فى عملك .. ومثال للثقة والرجولة ... فقاطعه جاسر

- بارك الله فيك يا عمى ... فواصل أبو عبد الله حديثه فقال:

- ولكن هناك أعراف وتقاليد لابد أن تحترم .. فلا يجوز أن تطول فترة الخطبة لأكثر من شهور قليلة، ووالدك أخرها لآخر العام ..

- على كل حال سوف ينتهز والدى أقرب فرصة ويأتى لزيارتكم

- أهلاً وسهلاً، ومتى يكون ذلك ..؟

- قريباً جداً ..

- إذن يبقى كل شىء على حاله حتى يشرفنا والدك بالزيارة ...

ثم وقف ليسلم على جاسر ولينهى اللقاء .. فشعر جاسر بالإحراج، فقام وسلم على الشيخ أبو عبد الله، وانصرف ..

غادر السيد .. (رودريجو) أرض السهلة، على رأس جيش المرتزقة متجهاً شمالاً لأراضى مملكة سرقسطة (مملكة الثغر الأعلى) ملبياً لدعوة من ملكها المستعين بالله (١) ..

---

١ - هو الملك أحمد «المستعين» بن يوسف «المؤتمن» بن أحمد «المقتدر» بن سليمان «المستعين» بن هود ، ويلقب بالمستعين بالله الثانى ، وهو حاكم مملكة سرقسطة وأهم مدنها هى سرقسطة، تطيلة، وشقة، بربشتر .. وتسمى مملكة الثغر الأعلى يحدها من الشرق مملكة قاطلونيا الإفرنجية التى تطل على بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) ، ومن الشمال مملكة أرجون، ومن الشمال الغربى مملكة نافار ، ومن الغرب الممالك الموحدة قشتالة وليون وجليقيه.

ووصلت قواته إلى أراضى المملكة وعسكرت قبالة مدينة سرقسطة على الضفة الشمالية لنهر أبرة ..

التقى السيد بصديقه الملك، بعد فترة طويلة من آخر لقاء جمعهما معاً فى حملتهما العسكرية لإنجاد مدينة بالنسية .. تلك الحملة التى نجحت فى فك الحصار الذى ضربه الملك الراحل " المنذر " ملك دانية والجزائر ولارده .. حول بالنسية محاولاً الاستيلاء عليها ..

فلما رفع الملك الراحل المنذر الحصار وعاد إلى دانية طمع الملك المستعين فى الاستيلاء على المملكة بمعاونة قوات رودريجو .. ولكن رودريجو لم يطاوعه فى ذلك خشية غضب الملك الفونسو من جهة، وكذا ما قدمه الملك القادر حاكم بالنسيه من أموال سراً له، حتى يثنيه عن مساعدة الملك المستعين فى مهاجمة المدينة ..

شعر الملك المستعين وقتها بالمرارة لعدم مساعدة السيد رودريجو له، وكان يأمل أن يكون معترفاً له ولأهله بفضلهم عليه، فيما قدموه له من أموال وإيواء لقواته وقت أن كان منفياً من بلاد قشتالة وليون .. وغير مرغوب فيه فى كل أراضى ممالك وإمارات الأندلس .. فانقطع عن الاتصال به لفترة، إلى أن فوجئ رودريجو، برسالة قادمة له من الملك المستعين يطلب منه فيها ضرورة القدوم إلى سرقسطة للأهمية ..

رحب الملك المستعين برودريجو ترحيباً حاراً أذاب الجفاء والبرود الذى اكتنف علاقتهما معاً فى الفترة الأخيرة .. وكان اللقاء فى قاعة مجلس الذهب بقصر السرور، التى ورثهما عن جده الملك المقتدر ..

جلس الملك المستعين على كرسى الحكم بالقاعة المزينة بالطنافس[١] الرقيقة الفاخرة وتلألأ المكان كعادته من أثر انعكاس الأضواء الخارجة من الثريات [٢]

---

١ ـ طنافس : جمع طنفس ، وهو البساط الذى له خمل رقيق (معجم لسان العرب) .

٢ ـ ثريات : جمع ثريا .. وهى النجم يحيط به الكواكب ، وتطلق على النجفة المعلقة فى السقف وبها شموع مضيئة.

الكبيرة، وقد انعكس ضوؤها على الجدران المذهبة والأعمدة المرمرية والزخارف التى تشى كل جزء فى هذه القاعة .. وأعلى كرسى الحكم كتبت أبيات من الشعر صاغها من شيد هذه القاعة تقول أبياتها :

قصر السرور ومجلس الذهب　　　بكم بلغت نهاية الطرب

لو لم يكن ملكى خلافكما　　　لكان لدىّ كفاية الأرب

بعد عبارات المجاملة والود المصطنع تحدث الملك فقال موجها حديثه لروديجو :

ـ لماذا تأخرت فى قدومك إلينا

ـ تعرف جلالتكم إننى حينما وصلتنى رسالتكم كنت مازلت بعيداً فى بالنسيه، ولم يعد بإمكانى التحرك وترك قواتى من خلفى فلقد أصبحت مسئولياتى عنها تتزايد كلما زاد حجمها وكثر عتادها ... (قالها يريد أن يوضح مدى قوته، والمكانة التى آصبح عليها الآن)

ـ آزادك الله قوة ومنعة.. ولكنى أعاتبك على عدم اتصالك بى.. وسؤالك عن أحوالنا

ـ أعز الله مُلكك يا مولاى.. فإن نسيتمونا أنتم، فنحن لا ننساكم آل هود .. (قالها مجاملة ورياء يرد به على رياء الملك)

ـ الحمد لله على كل حال .. ولكنى طلبتك لأننى أرى الأوضاع فى منطقة شرق الأندلس وغربها تنذر بالشر والخطر ..

ـ هل من سوء قد حدث يا مولاى ..؟

ـ الحمد لله لم يحدث حتى الآن شىء، ولكن هناك الكثير من التحركات نراها من بعيد تحدث فى أراضى مملكة أرجون

ـ كيف الحال هناك ؟ .. وماذا فعل الملك ..؟

ـ تعرف أن الملك سانشو راميرز ملك أرجون قد استولى على مدينة وحصن منتشون العام قبل الماضى (١٠٨٩ ميلادية ٤٨١هجرية)

ـ نعم يا مولاى

ـ يبدو أنه قد زادت شهيته ولم يقنع بما استولى عليه .. والآن يجهز لحملة جديدة ..!

ـ وما هو هدف الحملة الجديدة يا مولاى .. اقصد .. أى المدن يخطط للاستيلاء عليها..؟

ـ يقصد هذه المرة مدينة وشقة ..

ـ وشقة .. يا له من طماع مسعور ... ثم سكت رودريجو برهة وقال:

ـ لا .. لا أظن أنه يجرؤ على ذلك .. إنها مدينة كبيرة ومنيعة

ـ لقد جاءتنى أخبار تؤكد ذلك، ليس هذا فحسب بل انهم يغيرون على بعض الأراضى والبلدات والقرى القريبة من وشقة ليتحسسوا القدرات الدفاعية حول المدينة وليتعرفوا على أحوالها قبل التحرك إليها بحملة عسكرية كبيرة للاستيلاء عليها

ـ إذن ما الذى تراه جلالتكم لرد أطماعه

ـ لابد لى من أن أنسق معك نحو اتخاذ الكثير من التدابير التى تحول دون تنفيذ ملك أرجون لمخططاته، ووأدها فى المهد ..

ـ لك ما تشاء يا مولاى

ـ كل ما أريده منك خلال هذه الفترة أن تبقى قواتك كما هى على الضفاف الشمالية لنهر إبرة، بالقرب من سرقسطة .. ليشعر ملك أرجون بوجود قوات مؤثرة على أهبة الاستعداد لنجدة أى من بلداتنا وحصوننا فى كامل الأراضى بمملكتنا ..

ـ هذا يسعدنى إذا ما كان يبعث لكم الطمأنينة .. ولكن يا مولاى ... (سكت يريد أن يستغل الفرصة ليحصل على أعلى مقابل)

ـ ولكن ماذا يا رودريجو ... (قالها المستعين وهو يدرك ما يدور فى فكر رودريجو)

ـ كنت فقط أفكر فى إمارات شرق الأندلس التى ارتبط معها بمعاهدات للدفاع .. فقد يشعر قادتها بعدم الأمان لابتعادى عن أراضيها ..

ـ تستطيع ذلك من أى مكان .. والجميع يعلم أنك لن تستطيع أن تمكث بكل قواتك وفى كل الأراضى فى وقت واحد .. فإذا ما تعرضت إمارة ما أو مملكة إلى آى اعتداء تستطيع أن تحرك قواتك بسهولة لنجدتها

ـ ألا يمكن تحقيق ذلك آيضاً وأنا بعيد عنكم ... (يريد أن يزيد من إحراج الملك المستعين، لكى يحصل على ما يريد دون أن يقلل المستعين من قيمة ما يفعله رودريجو أو يحاول أن يقلل من العائد الذى سيطلبه) ... فيقول له المستعين.

ـ الوضع يختلف هنا .. فأنا أريد فقط، ودون قتال أو حرب أن أشعر ملك أرجون آننا مستعدون له .. لا أكثر ولا أقل .. ثم إننا لن نبخسك حقك يا رودريجو ..

ـ العفو يا مولاى لك ما تشاء .. ونحن تحت السمع والطاعة كما كنا دائماً معكم وتحت رايتكم منذ جدكم رحمه الله الملك المقتدر

ـ هذا ما نتوقعه منك يا رودريجو .. فأنت رجلنا الموثوق به فى الأندلس

ـ بارك الله فى ملك مولاى وأعزه وأدامه لكم ولخلفكم من بعدكم ..

وقضى رودريجو أمسية طيبة مع الملك وولى العهد الأمير عبد الملك العائد منذ أيام من رحلة سرية إلى المغرب حيث التقى بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين وقدم له هدايا فاخرة، وطلب منه العون والمساعدة العسكرية لرد أخطار ومطامع الممالك الصليبية فى سرقسطة، وقد وعده أمير المسلمين خيراً ..

وأراد الملك المستعين أن يكون هذا سراً دون أن يدرى به أحد .. خاصة رودريجو، والملك الفونسو ..

حيث يعد المستعين نفسه لإرسال هدايا له وليطلب منه العون العسكرى أيضاً ضد مملكة أرجون، التى كان الفونسو يكره ملكها، وأطماعه فى ممالك الأندلس المسلمة .. حيث كان الفونسو يريد ألا يشاركه أحد فى هذه الأطماع ..

بعد صلاة الظهر من يوم الأحد فى العشرة الأخيرة من شهر يونيو ١٠٩١ ميلادية (جمادى الأولى ٤٨٤ هجرية) فوجئ الناس فى مدينة بالنسيه بثلة من الجند القشتاليين تدخل المدينة وتنتشر بالأسواق ليبتاعوا منها كعادتهم من قبل واقعة الاعتداء على الجاريتين اللتين أغتصبتا وصرعتا على أيدى أربعة منهم .. وهم من الجند التابعين للحامية المقيمة على حدود حى الرصافة خارج المدينة....

وكان جند الحامية قد امتنعوا عن الذهاب إلى المدينة بعد تحرش الأهالى بهم، حيث كاد الأهالى أن يفتكوا ببعض من ذهب منهم فى اليوم التالى للحادثة .. وآثر الجنود الابتعاد لفترة حتى تهدأ الأحوال، ليعودوا من جديد لدخول المدينة كل يوم أحد، للترويح عن أنفسهم ..

وتحسباً لما قد يحدث من احتكاك مع الأهالى فقد حمل الجند أسلحتهم كالعادة، ولكن هذه المرة بنية مبيتة برد أى اعتداء يقع عليهم، وأن يكون الرد عليه بعنف وفى الحال ..

وصل بعض الجند لبعض الحوانيت بغتةً .. وحاولوا أن يبتاعوا من التجار فلم يجرؤ أى من التجار على رفض التعامل معهم منفرداً إلى أن تجمع الكثير من الأهالى والتفوا حول الجند وحرضوا الباعة على رفض التعامل معهم .. فاستجاب التجار والباعة لذلك، وتشجعوا .. بل إن بعض الشباب راح يصيح فى وجوه الجند بتحد طالبين منهم مغادرة المدينة على الفور ..

تصدى الجند المتحفزون إلى الأهالى وامتدت الآيادى من هنا وهناك، وثارت اشتباكات بين الشباب والجند كانت الغلبة فيها للأعداد الكثيرة من الجماهير إلى أن رفع أحد الجند سيفه فطعن شاباً فسقط مضرجاً فى دمائه وتبعه آخر، واشتد الصراع، وتزايد المصابون من الأهالى إلى أن وقع أحد شباب المدينة صريعاً بطعنة قاتلة من أحد الجند ..

وعلى الفور علا الصراخ من أهل المدينة وعائلة القتيل، والتف جمع منهم حول الجندى المعتدى .. فصاح أحد زملائه يحذره من البقاء ويطلب منه الفرار قائلاً تنبه يا خوزيه تنبه وإلا قضوا عليك .. «وصاح آخر» .. حَذر زملاءك يا خوان ..

حذرهم .. وقل لهم ينصرفون بسرعة .. وخرج الجند مسرعين، وقد سرقوا بعض البضائع من بعض الحوانيت، وفروا هاربين ..

أسفرت الاشتباكات ما بين أهل المدينة، والجند القشتاليين إلى مصرع شاب فى العشرين من عمره، وإصابة عشرة آخرين من أعمار مختلفة منهم اثنان فى حالة خطيرة، حيث حمل الأهالى الجميع إلى المرستان الكبير لإسعاف الجرحى وتكفين الشاب القتيل ..

أقيمت صلاة العصر، ومن بعدها شيّع أهالى المدينة جثمان الشاب القتيل إلى مقابر المدينة خارج الأسوار ..

ومن هناك حاول الكثير من الشباب الثائر التحرك إلى حى الرصافة، حيث معسكر الجند القشتاليين لقتالهم بالعصى والسلاح المتوفر مع بعضهم .. ولكن بعد جهد بالغ تمكن العقلاء من وقف الشباب الثائر وتهدئتهم لحين التشاور مع أولى الأمر والقصاص من القتلة ..

فى المساء وبعد صلاة العشاء تجمع الرجال من عائلة القتيل وجمع من أهل المدينة وذهبوا إلى دار قاضى القضاة فى حى الشريعة وقابلوا القاضى أبو جعفر بن جحاف، حيث دعى بعضهم ومعهم كبار رجال العشائر والأعيان والشيوخ للاجتماع فى دارالقضاء والإفتاء لتدارس الأمر ..

فى أجواء حزينة ومشاعر مفعمة بالكراهية والحقد على حاكم البلاد الذى سمح لهؤلاء الغرباء بالقدوم إلى المدينة تناقش الحاضرون فى كيفية التعامل مع هذا الوضع المتأجج، وفتور وسلبية الملك القادر إزاء مثل هذه الأحداث ..

تحدث القاضى ابن جحاف فقال:

.. عند الله نحتسب الفقيد الشهيد، لقد قتله الأوغاد غدراً .. وإنه للشبيبة صبوةٌ، وللحداثة هفوة، فاختطفته الأيام، وصار مفقوداً كأن لم يكن مشهوداً، ومنشوداً كأن لم يكن موجوداً .. وحسبنا قوله تعالى ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ

فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١).. ألا إنما الدنيا دارُ كونٍ وفساد، وسوقُ نفاق وكساد .. وإن لكل أجل ميعاد

ثم تابع حديثه فقال بعبارات مقتضبة، ومختصرة، ولكنها قاطعة حاسمة وفى لهجة ملأها الثقة والعزم

.. لن أكون معكم مُرائياً ولا خادعاً .. لقد طالبنا الملك من قبل أن تكون له وقفة مع هؤلاء العلوج الغرباء .. ولكنه أخذنا باللين من الكلام .. وصرفنا بعد أن وعدنا بالحزم والعزم على وقف انتهاكاتهم لنا، وقتل أهالينا .. وغداً سيكون لى معه لقاء .. فإما القصاص، وإما أن يكون لنا نحن الأمر من دونه، وليكن ما يكون..

بهذه العبارات لم يجد أى من الحاضرين ما يمكن أن يقوله أمام القاضى المعروف بحزمه وقوة شكيمته، فخرجوا ذاهلين يتفكرون فيما عساه أن يفعله القاضى غداً، وقالوا فى أنفسهم لقد نظرنا للغد .. وإن غداً لناظره قريب ....

وبعث القاضى فى نفس المساء رسالة لكلٍ من ابن عبدوس، وأبو الفرج ليطلب منهما تدبير لقاء يجمعه بالملك القادر بالله فى صباح اليوم التالى ليتباحث معه الملك فى شأن الأحداث التى مرت بها المدينة ..

فى اليوم التالى انتظر القاضى ابن جحاف حتى انتهى من مجلس القضاء والإفتاء، فلم يحضر من قصر الحكم من يرافقه للقاء الملك القادر .. ومن فوره قرر الذهاب بمفرده إلى قصر الحكم .. إلا أن الشيخ أحمد البتى أصر على مرافقته إلى لقاء الملك ..

انتظر القاضى بغرفة الاستقبال الملحقة ببوابة قصر الحكم حتى يؤذن له بلقاء الملك، وبعد نحو الساعتين حضر أحد حجاب الملك ليعتذر له عن اللقاء حيث إن الملك خارج القصر .. ويتعذر عليه لقاءه ..

- سورة آل عمران – الآية ١٦٩.

ولم يسىء القاضى الظن بالملك، ولم يظن به أنه قد تهرب من لقائه .. فكتب القاضى رسالة مستفيضة يشرح فيها للملك الأحداث التى مرت بها المدينة من بعد الظهيرة فى اليوم السابق وحتى هذه اللحظة التى يكتب فيها القاضى هذه الرسالة، وطلب فى نهايتها أن يقرر الملك فوراً ما يعيد الحق إلى أصحابه والقصاص من القتلة ..

انتظر القاضى حتى فرغ من صلاة العشاء، فوصلته الأخبار بأن اثنين من المصابين فى أحداث الأمس قد ماتا متأثرين بجراحهما وقد استلم أهلهما الجثتين من المرستان وذهبوا ليلاً ليدفنوا الجثتين، وهم فى ثورة عارمة ..

لم يستطع القاضى أن ينتظر أكثر من ذلك، فقرر الذهاب إلى أبو عبد الرحمن بن طاهر الأمير السابق لإمارة مُرسيه والصديق المقرب من الملك القادر بالله وعائلته، وذلك فى قصره الصغير بالضاحية الشمالية للمدينة .. وذهب مع القاضى كل من الشيخ أبو بكر حمدون، والشيخ أحمد البتى، والشيخ بن أبو عامر التاكرنى ..

استقبل الأمير الضيوف بترحاب ظاهر، وإن كان قد انتابه القلق لهذه الزيارة المفاجئة دون موعد سابق، وبعد صلاة العشاء، وهو أمر غير معتاد فى هذا الوقت المتأخر ..

وبعد عبارات الود والمجاملة تحدث الشيخ أحمد البتى فشرح الأمر برمته للأمير، وطالبه باسم الجماعة أن يبلغ الأمر إلى الملك القادر، وعلى وجه السرعة فى صباح اليوم التالى .. فتحدث الأمير موجها كلامه للجميع فقال:

الملك القادر أنا أعرفه جيداً، وهو لن يرضى عما حدث، وسوف أبلغكم قراره غداً إن شاء الله مساءً ...

فيتدخل القاضى ابن جحاف فيقول له وهو مستاء من التأخير حتى المساء

ـ مساءً .. النفوس مضطرمة والناس فى ثورة .. ولدينا أسماء القتلة ..!

ـ من هم ..؟

ـ لقد سمعهم الناس ينادون على القاتل وأتباعه .. أحدهما يدعى خوزيه .. والآخر يدعى خوان .. وبواسطتهما نستطيع الوصول إلى شركائهم فى ذلك ..

ـ حسناً سوف أبلغ عن هذه الأسماء .. وسوف أخبركم بما تم فى اللقاء غداً ..

ـ سبق وآن أوضحت لك أيها الأمير أننى مسئول عن القضاء .. والعدل البطىء ظلم .. وأنا لا أستطيع أن أتحمل مسئولية القضاء وأكون مسئولاً عما يعانيه الناس من ظلم

ـ الصبر يا شيخنا القاضى .. الصبر

ـ للصبر نهاية .. والملك مشغول عن رعيته، والأهالى تطالب بالقصاص

ـ إن للتروى فى مثل هذه الأمور أفضال كثيرة، وخير لنا أن نتروى ونحكم بالصواب بدلاً من أن نتسرع فنظلم الناس ... فقال له القاضى مستغرباً

ـ أى ناس هؤلاء الذين تتكلم عنهم .. من الظالم ومن المظلوم .. إن كل شىء واضح وضوح الشمس، ولا لبس فيه

ـ حسناً فليكن موعدنا غداً إن شاء الله

ووقف الأمير ليسلم على الضيوف لينهى النقاش وقد قاربت الساعة على العاشرة والنصف مساءً .. فقام الضيوف من أماكنهم وقد لزموا الصمت، ولكن كانت قلوبهم متقدة يملؤها الحزن والضيق ..

عند المساء من يوم الثلاثاء اجتمع الأمير أبو عبد الرحمن بن طاهر بالقاضى ابن جحاف بدار القضاء والفتوى بعد صلاة العشاء وحضر اللقاء الشيوخ أعضاء مجلس الشورى .. بينما اختفى عن الأنظار كل ابن عبدوس، وأبو الفرج .. فشرح الأمير الموقف فقال

ـ لقد نظر الملك القادر فيما عرضته عليه، وقرر أن يلتقى بنائب قائد الحامية ويطلب منه عدم دخول الجند إلى المدينة لحين الحكم فيما حدث بها من أحداث ... فسأله القاضى ابن جحاف

ـ ومتى تكون المحاكمة والحساب ..؟ وكيف سيتم ذلك ..؟ أليس حرياً بالملك أن يطلب لقائى لتدبير هذا الأمر

ـ أيها القاضى لما تتعجل فى الأمر .. المسائل لا تأخذ هكذا .. لابد لنا من التروى

ـ لا تأخذ هكذا .. ! لابد من التروى .. ! هذا شأننا نحن أولى الأمر فى كل ما يخص القضاء .. أما ما تتحدثون عنه فليس من القضاء فى شىء ..

ـ اسمع أيها القاضى .. انت تفرض رأيك على كل من حولك، وهذا لا يجوز فى أمر الشورى

ـ يا أميرنا العزيز .. قلت لك أن هذا الأمر يتعلق بالفتوى والقضاء .. وأنا المفوض بذلك .. وعملى هو أن أحكم بين الناس بالعدل .. أما فيما يخص الشورى .. فهو أمر الشورى والأخذ بالرأى الصواب لما فيه صالح الأمة .. وهذا شىء آخر مختلف عما نحن بصدده

ـ لقد يئست من التعامل معك أيها القاضى ... (قالها وهم بالنهوض والانصراف، ليتهرب من مواجهة القاضى، وإصراره على الوصول لحل فورى لما جرى) ... فقال له القاضى :

ـ على كل حال نشكرك على جهدك .. وجازاك الله كل خير .. هذا هو عملكم .. وغداً يكون لنا شأن آخر ..

فنظر إليه الأمير أبو عبد الرحمن يحاول أن يفهم معنى كلامه، ولكنه عجز عن ذلك .. وسرح بفكره فتساءل .. ماذا عساه القاضى أن يفعل، وهو لا يملك إلا مقامه وسلطته فى دار القضاء والفتوى، وبكلمة من الملك يستطيع أن يعزله، ويجلسه فى بيته، ولكن الملك يتحين الظرف المناسب لذلك .. وهو يدرك أن هذا الوقت عصيب، ولابد له (أى الملك) أن ينحنى للعاصفة حتى تمر بسلام ويسيطر على زمام الأمور .. هكذا حدثته نفسه وهو يغادر دار القضاء والإفتاء ..

فى سرية تامة التقى أبو جعفر بن جحاف مع الشيخ التاكرنى قبل انتصاف الليل، وتحدث القاضى إلى الشيخ التاكرنى وقال له:

ـ أنت يا شيخنا المفوض بعمل رجالنا المتطوعين فى مثل هذه الأحوال .. وها قد جاء وقت الاختبار لقدرات رجالنا .. ويجب أن تدبرخطة للانتقام من هؤلاء العلوج الأوغاد .. فجهز فرقة منهم من نحو عشرين رجلاً، وحينما تكون مستعدا أبلغنى فوراً .. فليس لدينا وقت لنضيعه من الآن .. فإن لم يكن الملك قد فعل شيئًا فسوف نقتص لأنفسنا وبأيدينا ..

ـ أعدك أن نكون جاهزين خلال يوم على الأكثر ..

ـ بارك الله فيكم، ووفقكم الله لما يحب ويرضى ..

ـ ونعم بالله، وتوكلنا على الله ..

وقام الرجلان من مجلسهما الذى عقداه سراً فى بيت القاضى بالغرفة الملحقة بالدار، والتى يتخذها أحياناً للاعتكاف والتعبد والابتهال إلى الله ..

البرانس السوداء

غادر الملك الفونسو طليطلة على عجل إلى مدينة برغش عاصمة مملكة قشتالة ليتفقد قوات الجيش الذى يعده للتحرك إلى شرق الأندلس، وقام بزيارات متعددة للمقاطعات، وقابل كبار رجال الجيش، والكونتات، وأخذ يستكمل العتاد والسلاح، وتدريبات الجند ..

انتظرت الأميرة سيدة قدوم الملك لوداعها، ولكنه لم يتمكن من ذلك بالرغم من رغبته الشديدة للقائها قبل سفره، واكتفى بأن أرسل لها رسالة رقيقة يودعها فيها، ويعتذر لها للظروف التى أحالت دون لقائه لها ..

وعلى الرغم من أن سطور الرسالة جاءت لتشفى غليلها وغضبها من الملك الفونسو لمغادرته طليطلة دون لقائها .. إلا أنها راحت تحاسب نفسها على تساهلها معه، أو هكذا اعتقدت، وقررت أن تتمنع عليه قدر الإمكان، وفى نفس الوقت تغدق عليه بالود والدلال كلما حانت فرصة لقائه مستقبلاً حتى لا يفلت من بين يدها ..

وفى هذه الأثناء واصل المرابطون الحصار حول أشبيلية .. بينما تولى جمع من الرجال والفقهاء داخل المدينة التحريض ضد حكم الملك المعتمد باعتباره خارجاً عن الدين، وذلك لتعاهده مع النصارى ضد المسلمين، وقد باع آخرته بدنياه، وقد استشهد هؤلاء الرجال بالقرآن الكريم حيث يقول سبحانه وتعالى ﴿لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي

شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ﴾ (١) .. فالله تعالى حذر المؤمنين بنص الآية الكريمة من أن يلاطفوا الكفار فيتخذونهم أولياء..

ودعوا الناس علانية إلى عزل الملك .. وتنبه المعتمد إلى هؤلاء الرجال معتبراً تصرفهم خيانة، وأعد العدة للقبض عليهم والزج بهم إلى السجون تمهيداً لمحاكمتهم ..

إلا أن كبار رجال المدينة دعوه إلى التريث، وعدم القبض عليهم حتى لا يثير العديد من العداوات والخصومات فى الوقت الذى يحتاج فيه إلى تضافر كل الجهود لتوحيد الأهالى فى مواجهة الحصار القاسى للمرابطين حول المدينة ..

وشنت القوات المرابطية العديد من الهجمات على أسوار المدينة إلا أنها باءت جميعها بالفشل، ولم يستطيعوا أن يحدثوا أى من الثغرات بطول الأسوار التى تحيط بالمدينة، وتم تجهيز المجانيق (٢) لضرب الأسوار، ولكنهم لم يستطيعوا الاقتراب إلى مسافة كافية لإحداث أضرار مؤثرة بالأسوار نظراً لتوافر الراجمات والمجانيق والسلاح الكافى لدى القوات المدافعة عن المدينة للرد على هجمات المرابطين، واستمر القتال سجالاً بين الفريقين ..

وفى رُندة استمر الحصار حول الحصن، وبقى القائد قرور يناور بقواته حول الحصن ليكشف أى ثغرة ينفذ منها بقواته، ولكن كل محاولاته باءت بالفشل الذريع مما زاد حنقه وغضبه على الأمير الراضى (أبو خالد) القابع فى طمأنينة خلف الأسوار المنيعة للحصن مفتاح الجنوب الأندلسى ..

فى هذه الأثناء كانت القوات المرابطية بقيادة زكريا بن واسينو تحاصر مدينة ألمرية، حيث كانت المدينة تتصدى للحصار ببسالة بقيادة الأمير عز الدولة ولى العهد ..

---

١ ـ سورة آل عمران ـ الآية ٢٨.

٢ ـ المجانيق : وهى راجمات الحجارة الكبيرة ، وكرات اللهب.

حيث كان والده أمير البلاد ملازماً فراش المرض، يشعر بالمرارة مما تعانيه البلاد من حصار المرابطين، وتحدث الأمير المعتصم بن صمادح إلى المقربين منه يصف حصار المرابطين له قائلاً .. لقد نُغص علينا كل شىء حتى الموت ..! ..

وبينما هو طريح الفراش لمح الدمعات تتساقط من عين الجارية المقربة إليه فقال لها:

ترفق بدمعك لا تفنه   فبين يديك بكاء طويل (1)

ومما قاله أيضاً حينما شعر بدنو أجله

تمتعت بالنعماء حتى مللتها   وقد أضجرت عينىً مما سئمتها

فيا عجباً لما قضيت قضاءها   ومليتها عمرى تصرم وقتها

وبعد معاناة مع المرض فاضت روح الأمير المعتصم بعد أن حكم الإمارة زهاء إحدى وأربعين عاماً، وتولى الحكم من بعده ولى العهد، والبلاد ما زالت تعانى من الحصار ..

وفى هذه الأثناء واصلت القوات المرابطية بقيادة يطى بن إسماعيل الاستيلاء على القلاع والحصون والبلدات بمنطقة وادى يانة ومنها قلعة رباح، وبلدة المدور، وبلدة المعدن وأصبحت قواته على مقربة من الحدود الجنوبية الغربية للملكة بطليوس ..

قبل غروب الشمس بساعتين تحركت فرقة من الفرسان القشتاليين من موقع معسكرهم على حدود حى الرصافة إلى الجنوب الشرقى من مدينة بالنسيه .. واتخذت طريقها المعتاد بحذاء الأسوار العالية للمدينة لتتخذ مواقع الحراسة حول قصر الحكم للملك المقتدر بضاحية بلا نوبة إلى الشمال من المدينة .. كقوة مساعدة ودعم دائم، لقوات الحرس الملكى التابعة للملك ..

---

١ ـ الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ـ القسم الأول من المجلد الثانى ص ٢٤٠،٢٤١ .

وبعد نحو الساعة أمضتها القوة فى الطريق وصلت إلى الأبواب الشمالية للسور وعبرتها وتقدمت حتى اقتربت من الساحة الخلفية للقصر، حيث وقفت قوة آخرى مماثلة، آنهت للتو نوبة الحراسة وتستعد للعودة إلى المعسكر بعد إتمام إجراءات التسليم والتسلم بينها وبين القوة القادمة لاستلام نوبة الحراسة منها، ولمدة يوم قادم ينتهى فى نفس التوقيت قبل الغروب بساعة ..

واستغرقت إجراءات التسليم والتسلم نحو نصف الساعة، وقفلت القوة التى أنهت نوبتها عائدة إلى المعسكر، متخذة نفس الطريق بحذاء أسوار المدينة .. وقطعت نصف المسافة إلى أن غربت الشمس، وواصلت مسيرها على هدى الأضواء المنبعثة من المصابيح الكبيرة المثبتة على الأسوار، لتكشف الأرض الملاصقة لها لمساعدة الحراس فى الأبراج على كشف المتسللين إلى الأسوار أول بأول ..

ابتعدت القوة العائدة بعيداً عن الأسوار، وقد اقتربت من معسكرها وتابعت مسيرها فى الظلام حيث تراءت لها من بعيد أضواء المشاعل ومواقد الحطب التى تضرم فيها النيران عند الغروب من كل يوم، لبث الدفء وإنارة المعسكر ليلاً ..

وواصلت الفرقة المسير تحت سماء صافية خلابة مرصعة بالنجوم، أطل فيها القمر مكتملاً بضوئه الفضى متخذًا مكانه فى وسط أديم السماء حالكة السواد إلا من نجومها المتناثرة المتلألئة .. وخرجت ترنيمات من بعض الجند يرددونها للتسرية عن أنفسهم أثناء العودة للمعسكر ..

تراءت لمقدمة القوة ظلال سوداء قاتمة على مرمى البصر تعترض الطريق، وصهلت الخيل فى المقدمة وحاولت التوقف حيث حركت رءوسها وأقدامها إلى اليمين واليسار محاولة التوقف، بينما دفعها فرسان المقدمة لمواصلة المسير، فى الوقت الذى أخذت تلوح صور أشباح سوداء تعتلى الجياد تتقدم ببطء نحو قوة الحامية ..

فى لمح البصر انطلقت الجياد، وحلقت أشرعة سوداء تتطاير من فوقها لفرط سرعتها، وتحت ضوء القمر لمعت الصفاح البيض ممدودة للأمام تقترب متحفزة، متحينة لفرصة الالتحام ..

وفوجئ أفراد الفرقة القشتالية بنصال السيوف تضرب يميناً ويساراً، مثخنة فيهم وقد بوغتوا، فمنهم من فر مبتعداً من هول الصدمة، ومنهم من حاول التصدى والقتال .. وعم الذعر بالجند وقداأتشح المغيرون بالسواد وتطايرت من خلفهم البرانس السوداء الكالحة وبرزت رءوسهم المعممة الملثمة، وكأنها رءوس الخفافيش ..

وتعالت صيحات الاستغاثة من الجند طالبين النجدة من زملائهم بالمعسكر، بينما الجند بالمعسكر يغنون ويلهون، وقد تجرعوا كؤوس الخمر، وراحوا يرقصون ويلهون على عادتهم فى أوقات الراحة ..

واصلت الأشباح السوداء القتل والفتك بجند الحامية، وطاردوا الفارين منهم .. وانتاب رجال الحامية الرعب والهلع، وترك الكثير منهم الجياد وهرعوا إلى الزراعات يتخفون فيها ليهربوا من أنظار الأشباح الفاتكة، وقد طاب لها العراك وتلذذت بالفتك بجند الحامية ..

مرت الدقائق كأنها دهر من الزمان على جند الحامية، حتى تراجع عنهم الأشباح الملثمة، وتجمعوا خلف قائدهم واتخذوا طريقهم مبتعدين نحو الشرق وقد ابتلعتهم الزراعات والأشجار الكثيفة ..

آعاد قائد الفرقة القشتالية تجميع قواته، ومحاولة إنقاذ المصابين، وتحرك بقواته مسرعاً إلى المعسكر القريب ..

على أضواء المواقد المشتعلة فى أرض المعسكر القشتالى دخل فرسان الفرقة يترنحون على جيادهم، وما أن وصلوا إلى ساحة المعسكر حتى ترجلوا من جيادهم وراحوا يتحسسون جراحهم وهم ذاهلين غير مصدقين ما لاقوه على يد الفرقة الملثمة المتشحة بالبرانس السوداء ..

تجمع رجال الحامية حول زملائهم ليقدموا العون والعلاج للمصابين وتم حصر الخسائر فتبين لهم أن عدد القتلى خمسة فرسان، وأكثر من أحد عشر جريحاً، وبدأ نائب قائد الحامية فى التحقيق فى ملابسات الواقعة ومحاولة معرفة منفذيها ..

وفى المدينة انتشرت الأخبار، بقيام الملثمين من المرابطين بالهجوم على معسكر جند الحامية القشتالية وقتلهم العديد من الفرسان، وزادت الشائعات بأن عدد القتلى نحو عشرين فارساً وأكثر من خمسين مصاباً .. بل تناقل بعضهم بأن المرابطين قد أشعلوا النار فى المعسكر القشتالى بأكمله ..

وفى جميع الأحوال احتفل الكثير من أهل المدينة بعد صلاة العشاء بما سمعوه من أخبار الفتك بجند الحامية وما تناقلته الشائعات من حكايات ..

وفى الغرفة الملحقة بدار القاضى أبو جعفر بن جحاف .. تحدث القاضى إلى الشيخ ابن آبو عامر التاكرنى مستفسراً عن الواقعة وحصاد الهجوم الليلى الذى نفذه رجال المدينة من فرقة المتطوعين فقال له الشيخ التاكرنى

ـ الحمد لله فقد قام القائد الغرناطى بقيادة المجموعة واصطحب معه نائبه ومساعده الأول لكى يهيئه لقيادة العمليات بمفرده، وتم قتل العديد من الفرسان العلوج، بعدد لا يقل عن خمسة، وإصابة الكثيرين منهم، ولم نفقد رجلاً واحداً من رجالنا وعاد الجميع إلى مكان التجمع بجوار البحيرة الكبيرة خارج المدينة، وهم يتسللون واحدا بعد الآخر من البوابة التى أعددناها لذلك، وسوف يكتمل وصول آخرهم قبل الفجر بإذن الله ..

ـ نحمد الله ونشكر فضله .. هذه لحظة تاريخية لن ننساها أبداً ما حيينا .. الآن فقط أستطيع أن أنام وأنا مطمئن .. اذهب أنت أيضاً يا شيخ، ونم هانئاً بنجاح رجالك

ـ رجالى هم رجالك يا شيخنا القاضى، والحمد والشكر والفضل لله .. السلام عليكم

وخرج الشيخ ابن أبو عامر التاكرنى من الباب الخلفى للدار، عائداً إلى منزله بعد آن شعر بالسعادة الغامرة لنجاح المهمة الأولى لرجال المدينة البواسل ..

احتفى رجال المدينة المتطوعون فى فرق القتال، بنجاح زملائهم فى أول مهمة توكل إليهم، حيث كانت النتيجة مبهرة بكل المقاييس .. واحتضن سالم صديقه جاسر الذى كان مساعداً للقائد الغرناطى فى تنفيذ هذه المهمة ..

ولم يشعر جاسر بالجراح التى أصيب بها فى ذراعه الأيسر، كما لم يشعر أيضاً بذلك باقى زملاؤه ممن أصيبوا أثناء القتال، هنأهم القاضى على هذا النجاح وطلب منهم كتمان الأمر إلى أقصى درجة .. وفرح الجميع لفرح اهل المدينة، وتضاحك القاضى والشيخ التاكرنى ورجالهما مما سمعوه من أفواه الناس، وهم يتحدثون عن بطولة المرابطين الذين قاموا بهذا العمل ..

وفى موقع تدريباتهم بساحة المسجد بحى الشريعة تحدث الشيخ ابن أبوعامر التاكرنى المسئول عن فرق المتطوعين فقال:

الحمد لله على منته، وقد أعزنا ونصرنا على عدونا وقال، وقوله الحق ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١) .. وليعلم الجميع أن هذه نقطة البداية .. وأن الحرب سجال، فيوم لك، ويوم عليك .. وعلينا أن نعمل كل حسابنا حتى لا يهزمنا أعداؤنا.. فنحن عددنا قليل، وعدونا قوى وعدده وعدته أكبر منا ومن قدراتنا.. وما آصبناه منه بالأمس لن يمنعه من التمادى والعدوان على أهلنا بالمدينة أو القرى المحيطة بها..

ونحمد الله أنهم حتى الآن لا يعرفون من قام بالإغارة عليهم.. فإن تسرب لهم الخبر أضرونا جميعاً، وألحقوا بنا الأذى..

وعلى كل حال فقد احتطنا لذلك، وسوف نرد على عدوانهم علينا إن حاولوا ذلك .. فلتكونوا مستعدين لأى مهام توكل إليكم وفى أى وقت، فتأهبوا واستعدوا

---

١ ـ سورة الأنفال ـ الآية ١٧.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) وتأكدوا من نصر الله، وتوكلوا عليه، ولا تتواكلوا، فسيروا على بركة الله منصورين.. ومن الآن فصاعداً فإننا قد سميناكم.. جند الله..

فغادر الرجال ساحة المسجد بعد حديث الشيخ التاكرنى، وتفكروا فى صفة جند الله، فاستحسنوها، وشعر كل منهم أنه يتحمل مسئولية كبيرة، بصفته واحدا من هؤلاء الجند «جند الله»..

ساد الرعب معسكر الحامية من الاعتداء الذى وقع على الفرسان فى طريق العودة من نوبة الحراسة، وقرر نائب قائد الحامية تغيير نوبات الحراسة لتبدأ قبل غروب الشمس بثلاث ساعات بدلاً من ساعة حتى يتثنى لجند الحامية العودة إلى المعسكر قبل الغروب بساعة على الأقل..

كما قرر القائد عدم الخروج من المعسكر بعد غروب الشمس نهائياً لأى جندى أو فارس أو ضابط، عدا دوريات الحراسة والمهام الاستثنائية حيث يتم الإعداد لها جيداً واتخاذ ما يلزم من احتياطات لتأمين الفرسان أثناء هذه المأموريات..

وطالب القائد بتشديد الحراسات داخل وخارج المعسكر طوال اليوم، ومضاعفة الحراسات حول المعسكر ليلاً، وإجراء تحقيق حول الحادث ومحاولة اقتفاء الأثر بواسطة محاربين متخصصين فى ذلك، حيث بعث القائد يستدعى مقتفى الأثر المشهورين فى المنطقة لتتبع أثر المغيرين على قوات الحامية ومعرفة مكان قدومهم.. فبعث رجاله إلى مدن ألبونت، وشاطبة، وركانة للبحث عنهم..

ومنع القائد الجند والفرسان من الذهاب إلى أى بلدات أو قرى، وخاصة مدينة بالنسيه فى أيام الأحد كالمعتاد حتى يتم تقييم الوضع واتخاذ القرار المناسب..

- سورة آل عمران - الآية ١٦٠ .

تكرر خروج رضوى للقاء جاسر من حين لآخر كلما سمحت الظروف بذلك، ولم يجد أى منهما سبيلا للإصلاح بين والديهما بعد أن أصر كل منهما على موقفه، وبقى جاسر ورضوى حائرين يتجنب كل منهما الحديث من قريب أو بعيد مع والديهما ..

إنزعجت رضوى حينما رأت ذراع جاسر مصاب بجرح أسفل الكتف، ولم تقتنع بما صاغه لها جاسر من أسباب، ولكنها على كل حال حاولت ألا تدقق كثيراً بعد ذلك حينما شعرت أن تصرفاته يغلفها ويسودها فى هذه الأيام مظاهر السكينة والهدوء، مع شعور بالرضا لم تدر له تفسيرا ..

إلا أن ذلك انعكس على تصرفاتها هى نحوه، حيث اتسمت هذه التصرفات بالوداعة والرقة، وشعور فياض بالحنين إليه، لم تستطع هى أن تفسر سببه ..

وفى دار الشيخ مسعود القيسى عاشت نائلة تلقى الرعاية والاهتمام من آهل زوجها حيث أحاطوها بكل الرعاية اللازمة منذ أن علموا بحملها من سالم الأبن الأكبر للشيخ مسعود ..

وظللت الدار مشاعر المودة والحب، وغمرها الشيخ مسعود بحنان أبوى فياض لما يكنه لها من حب ورضى..

فقد أحبها الشيخ لحب ابنه لها.. وأدرك الشيخ أنها كانت تبادل ابنه حباً بحب، فهنأ قلب الشيخ مسعود لذلك، وسعد بها وهى تحمل ابناً من صلب ابنه، وتشوق ليوم ولادتها حتى يرى حفيده أو حفيدته من ابنه الأكبر..

وانتظم كل من سالم، وصديقه جاسر فى أعمالهما، بحيث لا يشعر أحد بما يشغلهما من واجبات أخرى توكل إليهما من الشيخ التاكرنى أو قاضى القضاة أبو جعفر بن جحاف..

وفى هذه الأثناء أدرك القاضى بن جحاف أن القائد الأسبانى للمعسكر بعث يستدعى مقتفى الأثر من البلدات المجاورة، فقرر أن يحطات لذلك وكلف الشيخ التاكرنى بأن يبقى جواسيس له فى حى الرصافة يتابعون ما يجرى فى المعسكر

أولا بأول مع إطلاعه بمعلومات عن كل من يذهب إلى المعسكر من غير جنود الحامية، حتى يستطيع القاضى، والشيخ التاكرنى أن يتعاملا مع أى موقف طارئ يستجد من دون ارتباك ..

وبعد أيام قدم رجل من مقتفى الأثر من إمارة ألبونت، تلاه رجل آخر من شاطبة، والتقوا بقائد المعسكر القشتالى، حيث كلف كلٍ منهم على حدى باقتفاء آثر الجياد التى أغارت على جند الحامية، حتى يصل إلى نتائج موثوقة ..

بدأ الرجلان عملهما، واستطاع كل منهما بسهولة الاهتداء إلى المكان الذى هربت إليه الجياد المغيرة بعد واقعة الاعتداء .. حيث أثبتا أن المكان الذى اتجهت إليه الخيل هو منطقة ملاصقة لبحيرة بالنسيه شرق المدينة، وحددا المكان، ثم تابعا اقتفاء الأثر فتبين آن راكبى الجياد قد ترجلوا بعد ذلك إلى البوابة الشرقية لمدينة بالنسية ومنها إلى داخل المدينة ..

إذن الاعتداء جاء من رجال داخل المدينة .. هكذا تأكد قائد المعسكر القشتالى، ومن فوره توجه إلى الملك القادر ليطلعه على ما توصل إليه من نتائج مؤكدة ..

بعد استلام نوبة الحراسة عصراً .. التقى القائد الأسبانى بالملك، وأوضح للملك المعلومات التى لديه فقال له الملك:

ـ اعلم أيها القائد أننى أحترم وأقدر الجهد الذى بذلته لكى تصل إلى نتائج عن مرتكبى هذا الهجوم، ولكنى فى الوقت نفسه أرفض أن يكون هذا أساسًا لأى اتهام لأى شخص داخل المدينة .. فلا يُعقل مثلاً أن يتم التحقيق مع كل سكان المدينة .. كما يستحيل أن يتحمل سكان المدينة نتائج هذا الاعتداء

ـ تقصد جلالتكم أن الاعتداء على جنودى سوف ينتهى إلى لا شىء ..؟

اسمع أيها القائد .. لقد اعتدى جنودك من قبل على بنات من المملكة، وتحملت أنا المسئولية وحدى، ولم تدفعوا ماركاً واحدا دية للقتلى، وتحملت أنا ذلك عنكم .. وحتى الان لا يعرف الأهالى أننى أنا من دفعها عنكم .. وكما قال قاضى القضاه فإن هذا منطق غير مقبول ..

ـ وكيف يسوى الأمر الان ..؟

ـ إذا أردت نصيحتى، فيجب أن تنسى ما حدث.. ولا تزيد النيران اشتعالاً فهذا ليس من مصلحتك أو مصلحتى أنا شخصياً.. فالأهالى ثائرون، ولن يهدأ بالهم حتى يثأروا لقتلاهم.. ولا تنس إنكم انتهكتم قوانين البلاد، واعتديتم على الأهالى، وكانت النية مبيتة لذلك

ـ لا سيدى الملك.. أنت تسيىء الظن بنا

ـ ارجوك ليس هذا وقت العتاب، وأرجو أن تسوى الأمر مع جنودك ..

ـ والدية

ـ دية ماذا

ـ دية قتلانا..!

ـ لا.. لا.. لا دية لكم، وأنتم لم تدفعوا لقتلانا أى دية..

ثم نهض الملك من مجلسه لينهى اللقاء، وقال للقائد القشتالى:

ـ حاول أن تسوى الأمر بمعرفتك .. ولا نريد أن نرى أى جندى يدخل المدينة خلال هذه الفترة حتى لا تتصاعد الأحداث، ويجب أن تدرك أنكم قلة .. وإذا ما ثارت المدينة عليكم فسوف يفتكون بكم ولن يستطيع أحد أن يمنعهم من ذلك .. كما أريدك أن تحذر جنودك من أن يقدم أى منهم على الاعتداء على أى شخص من أهالى المدينة بدعوى الثأر .. فنحن أحق بالثأر منكم..!

ظل القائد القشتالى صامتاً، وسار مع الملك خارجاً من المجلس عائداً إلى معسكره..

مُلْك ضائع ..!

استمر القتال الضارى حول أسوار أشبيلية، وفى ٢٢ أغسطس ١٠٩١ميلادية (٥ رجب ٤٨٤هجرية) استطاع بعض الرجال الموالين للمرابطين من داخل المدينة أن يحدثوا كسراً فى سور المدينة بالقرب من باب الفرج على الجانب الغربى لها بجوار النهر ..

وتسلل جمع من المرابطين إلى ما خلف الأسوار، وسرعان ما تنبه الملك المعتمد إلى ذلك، حيث كان يراقب كل معارضيه عن كثب، فتقدمت القوات المدافعة عن المدينة وتصدت لهم ونشب عراك بين الفريقين، قاده الأمير مالك بن الملك المعتمد، وسرعان ما ردت القوة المتسللة على أعقابها، وسقط معظمها ما بين قتيل وجريح ..

ثم سرعان ما أعادت القوات المدافعة ترميم السور من مكان الكسر، وتنظيم الدفاع عن المدينة من جديد ..

إلا أنه فى هذه الأثناء قامت قوة من القوات المرابطية برمى سفن الأسطول بكرات اللهب، فشبت النيران فى بعض السفن التى تسد مجرى النهر وتشكل حائطاً دفاعياً منيعاً من ناحية الغرب ..

إلا أن قوات الأسطول الأشبيلى لم تستطع أن تخمد النيران بالسرعة الكافية قبل أن تمتد إلى باقى السفن، وسرعان ما انتقلت النيران من سفينة إلى أخرى وخلال ساعات كان الأسطول كله يشتعل ..

وانتهز القائد المرابطى الفرصة، فأمر قواته بتكثيف القصف وصب قذائف اللهب بغزارة هائلة لضمان القضاء على الأسطول الذى كان حجر عثرة أمام هجمات الجيش المرابطى ..

ونجح أخيراً الجيش المرابطى فى تحقيق هدفه فى ذات اليوم الذى تسلل فيه الجند إلى داخل المدينة، ولاحت الهزيمة أمام ناظرى الملك المعتمد إلا أنه تمنى الموت دفاعاً عن مملكته، وأعد نفسه لذلك ..

وكما كان دائماً الشعر لسان حال الملك المعتمد فى كل لحظات حياته حلوها ومرها، فقد عبر عما يجيش بصدره فى هذه اللحظات العصيبة فيقول

أيها الناعى علينا مجدَنا	هل يضرُّ المجدَ أنْ خطبٌ طَرقْ؟
لا نُرَعْ للدمع فى آماقنا	مزجتْه بدمٍ أيدى الحُرَق
حَنِق الدهرُ علينا فسَطَا	وكذا الدهرُ على الحُرِّ حَنِق
وقديماً كلف المُلكُ بنا	ورأى منا شموساً فعَشِق
نحن أبناء بنى ماء السما	نحونا تطمحُ ألحاظُ الحَدَق
وإذا ما إجتمع الدين لنا	فحقيرٌ ما من الدنيا إفترق (١)

ما أن رأى الناس ألسنة اللهب تتصاعد فى السماء، والدخان الأسود يعلو المدينة الملاصقة للنهر من جهة الغرب، ومع اللظى المنبعث من الحرائق والأبخرة الخانقة، والسواد المخيم على أجواء المدينة .. انتشر الذعر بينهم لأول مرة، وارتجفت أفئدة الناس، وسرت الشائعات بدخول المرابطين من الأسوار ..

وسرعان ما تنامى الذعر، وهرب الناس من ديارهم، ومنهم من رمى نفسه فى المصارف والزراعات، ومنهم من اختبأ فى الجحور، وساد الهرج ..

وهكذا بدت نذر النهاية الوشيكة، وأخذ الأمير سير بن أبى بكر يعد العدة للهجوم النهائى على المدينة، فأخذ يحشد القوات ويدعم الجيش بالسلاح، فهو

---

١ ـ الحلة السيراء (إبن الآبار) ج٢ص ٦٤.

يدرك أن استسلام المعتمد بعيد المنال، وأن الملك سوف يقاتل حتى الرمق الأخير.. فاستعد القائد المرابطى للمعركة الحاسمة ..

بعد تلقى الفونسو رسائل من إيطاليا تبلغه بقرب تحرك اسطولى جنوة وبيزة على موعد وصول إلى مياه بالنسية فى نهاية شهر أغسطس ..

لذا فقد قرر التحرك بالجيش الإمبراطورى من أراضى قشتالة متجها إلى بلاد شرق الأندلس تحت قيادته، بعد أن ترك خلفه بعض الكونتات الذين يثق فيهم، ومنهم بدرو انسوريث حاكم سلدانيا وليبنا، وأخيه الكونت جنثالبو حاكم مقاطعة كاريون، والكونت جرسيه اوردنيث حاكم مقاطعة ريوخا ..

اتخذ الجيش الإمبراطورى طريقه إلى بلد الوليد وسار بحذاء مجرى النهر، ثم عبرت القوات نهر دويرة، ومنه إلى بلدة شقوبيه ..

واتجهت جنوباً عبر سلسلة جبال الرملة الموحشة، ومن خلال الدروب الضيقة وصلت إلى مدينة وحصن سالم، ثم مدينة وحصن قلعة أيوب، واتخذت معسكرا لها بالقرب من بلدة دورقة للاستراحة لعدة أيام حتى تواصل المسير جنوباً ..

كان تحرك القوات منهكاً لها، حيث اشتد حر الصيف، وأصبح المسير خلال ساعات النهار نوعاً من المعاناة والعذاب .. فقرر ألفونسو أن يكون تحرك الجيش عبر وثبات متقاربة يقام فيها معسكرات تمتد لأيام بجوار الأنهار لإعادة التزود بالمياه اللازمة للجيش ..

ثم واصل ألفونسو المسير جنوباً ماراً بالحدود الشرقية لإمارة شنتمرية الشرق، حيث بعث بتحياته إلى الأمير أبى مروان عبد الملك، مع وعد باللقاء فى أقرب فرصة .. وواصل الجيش المسير حتى وصل إلى الحدود الشمالية الشرقية لإمارة ألبونت، واتخذ الجيش معسكراً طويلاً هناك ..

وقرر ألفونسو البقاء بالجيش بعيداً عن بالنسية بنحو ثمانين كيلو مترا والانتظار فى هذه المنطقة حتى وصول طلائع الأسطول الإيطالى، ثم التحرك

ومهاجمة بالنسية براً فى نفس الوقت الذى تشن فيه قوات الاسطول هجومها بحراً ليستولى على بالنسية لتكون قاعدة له لصد جيوش المرابطين، ومنع روذريجو وقواته من المجيء إلى هذه المنطقة نهائياً ..

وصلت أخبار تحرك جيش الفونسو إلى رودريجو، أثناء تواجده بقواته على الضفة الشمالية لنهر أبرة داخل مملكة سرقسطة، حيث كانت قواته تعسكر هناك تنفيذاً للاتفاق الذى عقده مع الملك المستعين لتأمين أراضى المملكة، وتهديد ملك أرجون إذا ما طمع فى غزو مدينة وشقة ..

تلقى رودريجو أنباء وصول الفونسو بقواته إلى شرق الأندلس بذهول كبير، مع شعور بالصدمة .. بعد أن غدا مشروعه بالسيطرة على بلاد شرق الأندلس، ينهار فجأة تحت أقدام الخيل والجند بالجيش المبراطورى الأسبانى ..

وفوراً التقى رودريجو بالملك المستعين ليطلعه على الأمر، ويستشيره فيه فقال له الملك المستعين:

- متى كان ذلك أيها القنبيطور ..؟

- وصلتنى الأخبار اليوم .. فلقد تحرك بقواته قاصداً ألبونت، وأعتقد أنه قد وصلها الآن .. وما هى إلا أيام ويكون فى منطقة الكدية شمال المدينة ..

- وما الذى دعاه فجأة للتحرك إلى هناك .. أليس الملك القادر، صديقاً له ..؟

- لا صديق لالفونسو .. وما القادر إلا وسيلة له لكى يستولى على بالنسية ..

- لقد سبق لك أن قلت لى يوم تحركنا إلى بالنسية لرفع الحصار عنها أنك لا تستطيع أن تقرر شيئاً يخالف طموحات الملك الفونسو فيها .. أى إنك كنت تعلم أن الفونسو سوف يحاول الاستيلاء عليها يوماً ما .. وها هو الآن يجد أن هذا الوقت هو الوقت المناسب له للاستيلاء عليها ..

- كيف، وهو يعلم أننى الحارس الأمين عليها

- لا .. لا تخدع نفسك أو تحاول أن تخدعنى يا قنبيطور .. فأنت لم تكن يوماً تعمل من أجل الفونسو .. كل ما فى الأمر انك كنت تخشى أن تغضبه ... (فنظر

رودريجو إلى الملك وهو يتحدث يريد أن ينفى ما يقوله ولكن الملك المستعين تابع حديثه مقتنعاً بما يقوله) .. فلما هابك الأمراء والملوك، وحاولوا أن يسترضوك بالمال، استحسنت أنت الحال وطاب لك ذلك، وطغت مصالحك فوق مصالح الملك الفونسو .. ومن المؤكد أنه قد شعر هو بذلك .. ومن المؤكد أن خصومك هناك فى قشتالة قد أوغروا صدره نحوك كالعادة، وهو دائماً على استعداد أن يصدق كل ما يقولوه فى حقك .. وما أراه الآن إلا أنه يريد أن يثبت للجميع فى كل شرق الأندلس أنه هو الإمبراطور .. وأنه هو وحده صاحب السطوة والنفوذ فى المنطقة..

فقال رودريجو بصوت مبحوح منخفض، وكأنة يئن من وقع كلام الملك إليه فقال:

ـ الكونت جرسيه هو رأس الأفعى والمحرض الأول ضدى، وهو من حرض الفونسو على إرسال خطابه إلىّ لينهينى عن التعامل مع أمراء وملوك شرق الأندلس

ـ على كل حال يجب أن يكون ردك على ما يجرى، متناسباً مع قدراتك، ولا تعلن التحدى على ألفونسو، فحلفاؤه كثيرون والأمراء والملوك يخشونه .. وإذا ما فرض عليهم عدم التعامل معك، فسوف يطيعوه لأن جيشه الآن فى قلب المنطقة .. وسوف يؤدى ذلك إلى إحكام حصاره عليك .. فتنبه إلى ذلك قبل أن تقدم على أى عمل قد تندم عليه مستقبلاً .. ولا تنس امرأتك وبناتك فهن ما زلن تحت يديه، ويستطيع أن يحرمك منهن .. (وما أن سمع رودريجو لفظة امرأتك وبناتك .. حتى التفت إلى الملك وهو يتحدث، وشعر بأن الملك قد سكب الزيت على النار، فزاغت عينا رودريجو ثم أغمضها والملك ما زال يواصل كلامه) .. فحاول أن تفكر بهدوء ولا تقرر شيئًا قبل أن تهدأ مشاعرك وأحاسيسك وانتظر يومين قبل آن تقرر شيئًا .. وإن وصلت إلى قرار فيجب أن تعلمنى به لنتشاور فى الأمر، والمثل العربى يقول .. ما خاب من استشار .. أليس كذلك

ـ أشكرك أيها الملك الكريم.. لقد لفت انتباهى لأشياء كثيرة هامة يجب أن توضع فى الاعتبار قبل أن أقرر أى شىء .. وتأكد منْ أننى قد استفدت من نصيحتك كثيراً، وسوف أطلعك على قرارى قبل أن أنفذه..

وقام ليستأذن من الملك، فنهض الملك من مجلسه وسلم على رودريجو واتفقا على أن يلتقيا ثانية عندما يتخذ رودريجو قراراً فيما سوف يفعله إزاء حملة ألفونسو العسكرية على شرق الأندلس ..

وفى هذه الأثناء .. استدعى الملك الفونسو قوات الحامية القشتالية التابعة له والمعسكرة فى ضاحية الرصافة جنوب شرق بالنسيه سراً، واستغرب الملك القادر بعد أن علم بانسحاب قوة الحراسة حول قصره و المساعدة للحرس الملكى للمملكة .. ولكن سرعان ما انتابه الارتياح لذلك، لما سببته له قوة الحامية من مشاكل مع المواطنين خلال الفترة الأخيرة ..

وآقبل شهر سبتمبر بينما الملك ألفونسو ينتظر أن تأتيه الأخبار من المراقبين الذين بعثهم إلى منطقة الشاطىء قبالة بالنسيه، ليخبروه بوصول سفن الأسطول الإيطالى، ولكن لم تأته أى رسائل بذلك، وبدأ ينتابه القلق بعد أن أعد الجيش لشن الهجوم المباغت على أراضى مملكة بالنسيه ..

شن الأمير سير بن أبى بكر هجومه الكاسح فى يوم الأحد ٧ سبتمبر١٠٩١ ٢١ رجب ٤٨٤ هجرية) ..

وبعد ضربات قوية ومركزة على أبواب أشبيلية كافة .. هاجمت القوات المرابطية الأسوار بأعداد هائلة، وتمكنت من اقتحام باب الفرج ناحية الغرب، وتدفقت أعداد كبيرة من سرايا الجند إلى داخل المدينة، وسرعان ما انتشرت فى اتجاهات متعددة وفى وقت واحد وحاصرت الدواوين وقصور الحكم، واقتحمت العديد منها، وتهاوت الدفاعات عن المدينة تباعاً ولزم الناس المنازل ولم يبرحوها، واستسلمت القوات المدافعة عن المدينة فى معظم المواقع الدفاعية ..

واشتبكت القوات المدافعة عن القصر مع القوات المقتحمة له، وقاتل المعتمد ببسالة فائقة حرص فيها أن يقع صريعاً فى صراعه مع القوات المقتحمة للقصر،

وألحق العديد من الإصابات القاتلة للقوة المهاجمة له، وسقط ابنه الأمير مالك الملقب بفخر الدولة صريعا أمام أبيه الملك مدافعاً عنه وعن أهله بالقصر حيث أمه الملكة اعتماد وأخواته الأميرات ..

وفكر الملك المعتمد أن ينتحر لينهى حياته حراً لا أسيراً، ولكنه توقف عن ذلك خشية أن يخسر دينه ودنياه فى وقت واحد، ويأس أن يسقط تحت ضربات السيوف، وتحت صراخ البنات الأميرات وأمهم اعتماد توقف المعتمد عن مواصلة القتال، واستسلم للقوات المرابطية، وسرعان ما تم أسره وتقييده هو ومن معه من الأمراء من أبنائه واقتيد إلى خيمة تم عزله فيها هو وأهل عائلته ..

أراد الأمير سير بن أبى بكر أن يستغل الفرصة فطالب المعتمد أن يخاطب ابنيه الأميرين الراضى (أبو خالد) قائد حصن رُندة المنيع، والأمير أبو بكر المعتد قائد حصن مارتلة فى الغرب، حيث فشلت القوات المرابطية فى إقتحام الحصنين المنيعين..

وبعثت الملكة اعتماد نداء إلى ابنيها تستحلفهم أن يرأفا بوالديهما (هى والمعتمد) حتى يتم فك أسرهما ورفع القيود عن الملك المعتمد .. فوافق الأميران على ذلك شرط أن يتم كتابة العهود والمواثيق التى تشهد بذلك .. ووافق الأمير سير على هذا وتم صياغة مواثيق التسليم للحصنين مع عهود الأمان فى النفس والأهل والحياة الكريمة للملك وأهله وأبنائه جميعاً ..

وفى محبسه كتب المعتمد قصيدة تصف لحظات الصراع الأخيرة قبل أسره فقال:

قد رُمتُ يوم نزالهم ... ألا تحصننى الدروعُ
وبرزتُ ليس سِوى القميـ ... ـص على الحَشا شىء دفوعُ
وبذلتُ نفسى كى تسـ ... ـل إذا يسيلُ بها النَّجيعُ
أجَلى تأخرَ لم يكن ... بهواىَ ذُلى والخشوعُ
ما سرتُ قطُّ إلى الكما ... ة وكان من أملى الرجوعُ
شِيَمُ الأولى أنا منهمُ ... والأصل تتبعهُ الفروعُ(١)

بعد كتابة المواثيق والعهود على تسليم حصنى رندة، ومارتلة.. فتحت أبواب حصن رندة لقوات القائد المرابطى قرور، الذى عانى مرارة الفشل كقائد عسكرى لم يكتب له النصر فى معركة عسكرية .. وبروح الغدر وشهوة الانتقام، اقتحم جنوده قصر الحكم، وسيق الأمير الراضى وكأنه أسير حرب سقط فى ميدان القتال لا كقائد أبرم وثيقة عهد وأمان مع خصمه ..

وسرعان ما تم نهب الدور والقصور، ومراكز الحكم فى رندة، ووضع الأمير الراضى فى محبسه مقيداً بالأغلال على غير ما تم الاتفاق عليه ونكث قرور بعهده وحاول إذلال الأمير الراضى فى محبسه إلا أن الأمير لم يأبه لكل ذلك ..

(وفى أكتوبر ١٠٩١ رمضان ٤٨٤ هجرية) سيق الأمير الراضى مع فرقة من الفرسان المرابطين لتنقله إلى مكان أهله الملك المعتمد وأمه الملكة اعتماد الأسيرين لدى الأمير سير بن أبى بكر ليتم إطلاق سراح الجميع.. إلا أنه فى الطريق تم إنزاله من الفرس، وسرعان ما تم قتله، والتخلص منه.. وفى مارتلة كان حظ الأمير أبى بكر المعتد أفضل كثيراً من أخيه حيث تم ترحيله إلى معسكر الأمير سير ولبث أسيراً مقيداً بالأغلال لفترة..

ما أن علم الأمير عز الدولة بسقوط المعتمد، حتى نفذ وصية والده فرحل الأمير ناجياً بنفسه وأهله وثرواته التى ورثها عن أبيه، الأمير الراحل المعتصم بن صمادح، وركب وأهله وحاشيته فى ثلاث سفن أقلته إلى أقاربه من آل حماد أمراء القلعة فى شرق أرض المغرب..

وأنزل الأمير وأهله وحاشيته معززاً مكرماً فى قصر يطل على البحر فى حمى آل حماد بالقرب من بجاية بأرض الجزائر ..

ودخل المرابطون مدينة ألمرية فى شهر أكتوبر١٠٩١رمضان ٤٨٤ (واستسلمت القوات المدافعة عن المدينة سلماً بعد أن أمنهم القائد زكريا بن واسينو فى النفس

---

١ - الحلة السيراء (إبن الآبار) ج٢ص ٦٥،٦٦.

والأهل والمال .. وسرعان ما سيطر المرابطون على القصور ودواوين الحكم وانتهبت قصور الأمير عز الدولة، وأملاك أسرته كلها بعد أن هرب تاركاً البلاد للمرابطين ..

وفى مُرسيه استسلمت القوات المدافعة عن المدينة للجيش المرابطى فور سقوط إمارة ألميرية، ودخل الجيش المرابطى المدينة فى شهر نوفمبر١٠٩١ شوال ٤٨٤ هجرية)، بينما ظلت بعض الحصون والبلدات على حالها ترفض الاستسلام حتى تأمن على مصيرها وتتأكد أن أهل مدينة مُرسيه لم يتعرض أى منهم إلى الأذى ..

لبث رودريجو فترة يفكر فى المأزق الذى يعيشه، بعد أن عزله الفونسو عن أمراء وملوك شرق الأندلس وذلك بعد أن تحرك بجيشه إلى هناك، حيث قطع عليه خط العودة مرة أخرى طالما بقى بقواته هناك ..

وبعد صراع نفسى رهيب قرر رودريجو المواجهة .. نعم لم يكن من الممكن أن يظل القنبيطور مستسلماً لقدره الذى رسمه له الفونسو ..

لقد عانيت كثيراً، نُفيت من ديارى .. وبَعُدت عن أسرتى، وأكلت مع رجالى حصى الوديان وأعشابه ..

وبعد رحلة المعاناة والتشرد ها أنا الآن ألملم نفسى من جديد لأعود إلى أسرتى، ولكى أرى أحبائى ..

ولكن يبدو أننا نحب ونتمنى ولكن للخالق قدرا آخر، يرسمه لنا، قد يكون أحيانا وفق هوانا، وأحياناً كثيرة تسير الأمور إلى وجهة أخرى لا نحبها .. .. هكذا كانت تحدثه نفسه ..

ثم سأل رودريجو نفسه فقال: إن الرب لا يرضى لعبده أن يكون ذليلاً أسير أفكار وطموحات الآخرين.. ماذا لدىَّ الآن وأخشى أن أفقده ..؟

أنا لا أملك إلا أصدقائى هنا وهناك من الأمراء والملوك، وكبار الشخصيات .. هذا هو ما أملكه، وهذا ما يريدنى ألفونسو أن أفقده .. فقط لأنه لا يحبنى .. فقط لأننى لست من بطانته من المنافقين ..

لا لن أرضخ له، ولن أسمح للآخرين أن يحرضوه علىّ .. يجب أن يكون لى شأن آخر معه، فأنا أعرف الفونسو جيداً وقد حانت لحظة المواجهة .. وإما أن أكون أنا .. السيد .. البطل الجسور .. الذى يهابه ويخشاه الجميع، وإما أن أكون ذليلاً .. كسيراً .. إن قبلت ما قرره لى الفونسو .. لا فلتذهب الحياة، ومرحباً بالموت مع الكرامة .. ..

أدرك رودريجو أنه الآن يجب أن يخوض صراعاً مع الفونسو .. صراعا يفوز به الطرف الذى يعرف كيف يُسَخِر أدواته جيداً للفوز به .. الحكمة .. الدهاء .. الجسارة .. هذه هى عناصر الصراع القادم مع الفونسو ..

فإذا كان الفونسو يملك الحكمة، والدهاء .. إلا أنه ورغم بسالته وشجاعته فى ميدان القتال .. إلا أنه يفتقد الجسارة ..

نعم .. فالجسارة تختلف قليلاً عن الشجاعة .. كلاهما ينبنى على الإحساس بالنخوة، والاعتزاز بالنفس، والكرامة .. إلا أن الجسارة تزيد عن الشجاعة بالتضحية بالنفس، والاستعداد الدائم للمقامرة بها عند اللحظة الفاصلة فى أى صراع ..

لقد بنيت مجدى وشهرتى ليس فقط بالشجاعة .. فغالبية رجالى شجعان، ولكن ما ميزنى عنهم هو جسارتى فى اللحظات الحاسمة التى أخوض فيها أى صراع ..

وسوف أخوض صراعى مع الفونسو بجسارة لا يعهدها من أحد ... ولأننى ليس لدىّ ما أخسره، فسوف أستدرجه إلى المرحلة التى يخشى معها أن يفقد هو كل ما كسبه .. عند هذه اللحظة سوف أفوز بالصراع .. ... هكذا فكر .. وهكذا قرر .. رودريجو

ترك رودريجو غالبية قواته الراجله بنفس موقعها على الضفة الشمالية لنهر أبرة على مسافة قريبة من سرقسطة تحت قيادة ابن أخيه بدرو برمودث، لتأمين

الملك المستعين، بينما تحرك هو بغالبية قواته من الفرسان لتكون القوات على أعلى درجة من المرونة وخفة الحركة والقدرة على المناورة ..

تقدم السيد بقواته تحت وابل الأمطار الرعدية، بمحاذاة نهر أبرة متخذاً طريقه شمالاً باتجاه مدينة قلهرة حيث الحدود الجنوبية الشرقية لولاية قشتالة..

وتقدم الجيش بثبات وصبر وتصميم ولم يأبه للرياح والأمطار والثلوج، فلقد كانت له مهمة، وهذا الطقس السيئ جزء منها ومكمل لها، فالهدف هو المفاجأة والمباغتة قبل كل شيء ..

ومع بداية عام ١٠٩٢ميلادية شنت قوات القنبيطور التى تقدر بعشرة الآف مقاتل .. منهم سبعة آلاف فارس وثلاثة آلاف جندى مترجل، هجومها الكاسح المباغت على أراضى ولاية قشتالة عند مقاطعة ريوخا فى الجنوب الشرقى منها..

وبسرعة البرق قامت بنهب الزراعات وإحراق القصور والاستيلاء على مخازن الغلال وأقامت قاعدة لها بجوار مدينة لو جرانيون عاصمة المقاطعة ..

لم يكن استهداف مقاطعة ريوخا مجرد مصادفة، بل كان هدفاً مؤكداً يسعى رودريجو إلى تحقيقه .. فحاكم هذه المقاطعة هو خصمه اللدود الكونت خرسيه أوردنيث، وأراد السيد أن يعطيه درساً قاسياً لا ينساه ..

وصلت أنباء هجوم السيد على مقاطعة ريوخا إلى الكونت جرسيه، حيث عقد إجتماع من كبار البارونات وطالبهم بإمداده بما لديهم من قوات لحين تجميع القوات من مدينة برغش عاصمة الولاية ..

قاد الكونت جرسيه القوات للدفاع عن المقاطعة، بينما كانت قوات القنبيطور تترصد قواته وكمنت لها، وأغارت على قواته ومزقتها وأثخنت فيها محدثة بها خسائر كبيرة، ولاذ الكونت بالفرار مع ما تبقى معه من قوات، حيث لجأ إلى مجلس القيادة المكون منه وكل من الكونت بدرو، والكونت جنثالبو لاتخاذ اللازم نحو رد هجوم قوات السيد ..

وبدأ مجلس الكونتات يعقد الإجتماعات لبحث سبل رد هجمات القنبيطور، والتى امتدت لتشمل معظم ولاية قشتالة .. حيث عسكرت القوات بالقرب من مدينة برغش عاصمة الولاية، وفى البداية لم يرغب مجلس الكونتات أن يرسل بأخبار الهجوم إلى الفونسو حتى لا يسببوا له أى اضطراب ..

ولكن مع تصاعد هجمات القنبيطور وشراستها، وإحداث خسائر كبيرة بالقرى والبلدات فى معظم ولاية قشتالة اضطر المجلس وعلى الفور إرسال رسالة عاجلة إلى الملك الفونسو للاستغاثة. حيث إن قوة وقدرة القوات المغيرة تتعدى بكثير القوات المتاحة لديهم لرد هجمات جيش القنبيطور ..

دب الرعب بسكان المناطق التى أغارت عليها قوات القنبيطور، وترك المزارعون بمقاطعة ريوخا قراهم وفروا منها إلى البلدات الأخرى التى لم تتعرض للهجمات .. وتصاعدت آلسنة اللهب فى كل مكان، واقتحمت قوات القنبيطور قصور وأملاك الكونت جرسيه وتم نهب كل ما فيها ثم تم إحراقها جميعاً ..

بموقعه على حدود إمارة البونت وصلت إلى الملك الفونسو أنباء هجوم قوات القنبيطور على أراضى ولاية قشتالة فكان وقع سماعه هذه الأخبار كوقع الصاعقة ..

فلقد مَل الفونسو المكوث بقواته لأشهر بعد الموعد المتفق عليه مع سفن أسطولى جنوة وبيزة دون جدوى .. فإذا بالأخبار تأتى إليه بما ينغص عليه حياته .. وتلاشت فجأة آماله باحتلال بالنسيه، وها هو يرى عرشه مهدد فى قلب إمبراطوريته بجيش من عصابات المرتزقة ..

وعاش الفونسو لحظات الصراع النفسى ما بين طموحاته وأحلامه فى توسيع إمبراطوريته، وما بين الخطر الجسيم الذى يهدد عرشه .. وفى النهاية حسم الأمر وقرر العودة على وجه السرعة لإنقاذ الإمبراطورية ..

وما هى إلا أيام حتى تحرك الجيش الإمبراطورى إلى الشمال على وجه السرعة، لتقديم الدعم للقوات المدافعة عن عاصمة الإمبراطورية فى برغش، حيث دفع الفونسو بسرايا الفرسان تحت قيادته على وجه السرعة لتسبق القوات الراجلة للجيش ..

توقف الفونسو للمبيت فى استراحة قصيرة للقوات الإمبراطورية بالقرب من بلدة طرويل على نهر طوريه، وفكر فى كيفية المواجهة مع رودريجو وقواته المتمرسة على القتال، وما قد تؤدى إليه المواجهة من خطر كبير على قدرة الجيش الأمبراطورى واستعداداته فى المستقبل لمواجهة جيوش المرابطين ..

وخطر بذهنه فكرة، وهو أن يحاول استمالة رودريجو إلى جانبه ليتقى شره .. فرودريجو لم يفعل ما فعله إلا عندما شعر بأنه كالأسد الجريح، حيث لم يبق له أمل فى العيش بكرامة إذا ما تحطمت أحلامه وطموحاته .. إذن لابد لى فى هذه الظروف آن أبقى له على بصيص الأمل .. بأن أعفو عنه، وأعيد إليه اعتباره، فيذهب غضبه ويعود إلى صوابه، ومن ثم يسحب قواته ويبتعد عن أراضى الإمبراطورية ..

نعم فخير لى أن يبقى بعيداً، تلهيه مغامراته وطموحاته من أن أستبقيه هنا داخل حدود الإمبراطورية، يثير العداوات، وتغريه الطموحات فينشب القتال الداخلى والحرب الأهلية التى تفتت من قوانا وتشتت من جهودنا، وتلهينا عن عدونا الأكبر ..

وعندما نفرغ من صراعنا مع المرابطين يكون لنا شأن آخر معه .. ولكل حادث حديث .. ... هكذا حدثته نفسه وهو يبيت ليلته ساهراً يفكر فى هذا الأمر ..

تلكآ الفونسو عامداً .. ولم يشد الرحال مسرعاً إلى قشتالة، وأرسل إلى قوات الجيش القادمة من خلفه بأن تلحقه عند بلدة طرويل ..

وفى نفس الوقت بعث الفونسو رسالة سرية إلى الكونت بدرو، يطالبه بمهادنة القنبيطور رودريجو، ويتقدم له بمبادرة على أنها من فكره هو (أى بدرو)، وشرح له الفونسو فكرة المبادرة فى الرسالة، وطلب الفونسو من بدرو أن يلتقى مع السيد ليشرح له هذه المبادرة ..

على التلة العالية خارج مدينة لو جرانيون عاصمة مقاطعة ريوخا تقابل رودريجو مع الكونت بدرو المقرب من الملك الفونسو

حاول بدرو أن يكون ودوداً مع رودريجو على قدر استطاعته، وتجاذب أطراف الحديث معه فى أمور شتى لا علاقة لها بما يجرى من قتال ثم تحول إلى الحديث عما يجرى فقال له:

- لقد فوجئت بما جرى هنا فى ريوخا .. ما الذى جرك إلى هذا يا رودريجو

- اما تدرى بما يجرى فى شرق الأندلس ..؟

- وما شأن ذلك بما يحدث هنا .. لقد اعتقدت أنك تحاول أن تصفى حسابك مع الكونت جرسية أوردنيث، فجئت أنبهك أن جرسيه يمثل ملك البلاد فى ريوخا، وإن كان لك مطالب أو شكوى من جرسيه فلا مانع أن تتقدم بها إلى الملك الفونسو

- كما قلت لك الأمر يتعلق بما يجرى فى شرق الأندلس .. أما جرسيه فحسابه معى طويل ولا ينتهى ..

- دعنا نتكلم فيما يتعلق بالإمبراطورية، والإمبراطور الفونسو

- حسنا .. أنا لا يمكننى أن أسكت على ما يدور عند بالنسيه، ولا يمكن لأحد أن يعزلنى عن أصدقائى أو يضيق الخناق علىّ ..

- لقد ذهب ألفونسو هناك ليلتقى بالملوك والأمراء ويقدم الدعم لهم

- يقدم الدعم للملك القادر أم يعزله عن حكم بالنسيه

فتظاهر الكونت بعدم معرفته بالهدف الحقيقى للملك الفونسو فقال:

- لا شأن لى بما يريده الفونسو فهو رضينا أم لم نرض ملك البلاد أليس كذلك

- بالطبع، ولم ولن يستطيع أحد أن ينازعه فى ذلك

- حسنًا .. إذن ماذا يغضبك من الملك الفونسو، وأعدك أن أسوى الأمر على الوجه الذى تحبه .. فنحن لا نريد للمرابطين أن يسعدوا بقتالنا بعضنا بعضًا.

- لا أحد يحب ذلك، ولكنى دُفعت إلى هذا الأمر دفعاً

ـ من المؤكد أن هناك سوء فهم .. على كل حال ماذا تريد لكى تعود الأمور إلى ما كانت عليه من الود، والوئام بينك وبين الملك الفونسو

ـ أنا أعرف أن الفونسو لن ينسى لى ذلك، ولن يقبل أن يتفاهم معى

ـ لا .. لا يا رودريجو، فأنا أعدك أن تحظى بكل العفو إذا ما اعترفت بخطئك وإعتذرت للملك، وفى نفس الوقت أعدك أن يعيد الملك لك اعتبارك ويمنحك ما ترغبه

ـ أنا ليس لى مطالب إلا أن أكون حراً، فإذا أردت العودة إلى بلادى لا يمنعى أحد من ذلك، وأن يسمح لأسرتى بالقدوم إلىّ فى أى مكان أكون فيه .. وأنت تعرف أن لى قوات تعيننى على القيام بمهامى التى هى تحت أمر الملك الفونسو، وتساعده فى تحقيق أهدافه ..

ـ كل شىء ممكن حتى عودتك إلى ديارك ممكن أيضاً ولكن الملك كان قد تحدث لى مرة عن هذا الموضوع فقال لى أنه يريد أن يسمح لك بالعودة من النفى، ولكن بعد مدة كافية حتى يتأكد الناس أن الملك جاد فى أحكامه حتى على أقرب الناس إليه .. لذا فلنؤجل أمر العودة ثلاث أو أربع سنوات على الأكثر ما رأيك ..

ـ صمت رودريجو قليلاً ثم قال:

قد أحتمل هذا أيضاً على أن يسمح لى بلقاء أسرتى فى الوقت الذى أرغبه

ـ لك ذلك بكل تاكيد

يبقى فقط ما أجلبه من أموال من أمراء وملوك الأندلس .. لماذا يغضب الملك من ذلك

ـ لا تنسى أن الملك مرتبط بمعاهدات عدم اعتداء مع هؤلاء الأمراء والملوك، ومعنى أن يتركك لتجلب ما تريد، أن هناك قائدين يحميان المنطقة، وهذا غير جائز

ـ ولكنى لى متطلبات، وجنودى لهم طموحاتهم

- الشرط ألا يكون ذلك على حساب مصداقية الملك الفونسو، ولا ضد أهدافه أو تتعارض معها

- قلت لك يا كونت أنا جندى مخلص فى الإمبراطورية ولائى الأول للملك الفونسو، فليعتبر جنودى هم جنوده

- ولكن الحقيقة غير ذلك يا رودريجو فأنت الآن تعتدى على أراضى وأملاك الإمبراطورية

- لقد أجبرت على ذلك كما قلت لك

- حسناً يمكن تسوية كل شىء كما قلت لك .. أما بالنسبة للأموال التى تجلبها .. فأنا أقترح أن يكون ذلك دون إجبار للأمراء والملوك .. فمن يريد منهم ذلك فليدفع لك .. ولكن دون انتقاص لنصيب الملك فى الجزية، وألا يكون جلبك لهذه الأموال باسم الجزية .. لأن لذلك معنا كبيرا ومختلفا ..

- وأنا موافق على كل ما تقول ..

- إذن فسوف أرسل للملك بذلك، وسوف أوقع معك خلال إسبوعين وثيقة عهد بينك وبين الملك

- أواثق أنت أن الملك سوف يقبل ما تقوله وتتعهد به

- نعم أنا واثق ..

- إذا تحقق ذلك، فأنت منذ الآن صديق مخلص لى ..

ثم ضحك الرجلان وتعانقا وكل منهما يعتقد أنه قد حقق غرضه نحو الآخر .. وإن كانت سعادة رودريجو بلا حدود .. فقد أصبح منذ الآن قادراً على الحركة فى كل بلاد شرق الأندلس دون أن يكون متمرداً أو خائناً أو مطارداً .؟. بل يفعل كل ذلك باسم الملك وتحت رعايته ..

بعد أن أخبر الكونت بدرو الملك الفونسو بما تم الاتفاق بينه وبين القنبيطور .. تحرك الفونسو بقواته شمالاً عائداً إلى إمبراطوريته وهو مطمئن، وقد حققت

الدماء، وتوصل الطرفان إلى اتفاق مريح، يقى الإمبراطورية شر الحرب الأهلية التى تستنزف الموارد، وتنهك القوى فى هذا الوقت الحرج حيث المرابطين على الأبواب ..

وبينما القوات الإمبراطورية تعبر بلاد شنتمرية الشرق، وصلت الأنباء إلى الملك الفونسو تخبره أن أسطولى جنوة وبيزة ينتظرانه قبالة سواحل مملكة بالنسيه ..

فكر الملك الفونسو قليلاً، ولم يعد بإمكانه أن يعود وبلاده مكشوفة بلا قوات كافية تأمنها .. وقرر مواصلة طريق العودة إلى أراضى الإمبراطورية .. وأصبح الأمل فى تحقيق ما طمح فيه من السيطرة على شرق الأندلس بعيد المنال الآن، ورُب ضارة نافعة ..

استغل السيد فترة وجوده بقشتالة فتوجه إلى مسقط رأسه فى بلدة بيبار والتقى مع أهلها وقدم لهم الهدايا والأموال، وزار دير كاديينا، والقس راعى هذا الدير، وقدم له الأموال تبرعاً للدير، وقيمة نفقات الرعاية لبنتيه الصبيتين ..

ومكث السيد أياماً هانئة بجوار زوجته خامينا وبنتيه الصبيتين الصغيرتين دونيا ألبيرة، ودونيا سول .. حيث غمرهن بالحنان والحب .. آه ما أقساك أيها الفراق .. ويا لوعة الشوق والحنين .. هكذا تحدثه نفسه كلما عانق زوجته .. أو حينما يقبل بنتيه ..

وحانت لحظة الرحيل .. وبقلب مفعم بالأسى والحزن، عانق رودريجو زوجته المخلصة خامينا، واحتضن بنتيه لمدة طويلة .. .. ولكن مهما منحت من قبلات، أو طال بك العناق .. فأنت مفارق لهن.. مفارق .. ولا يعلم إلا الرب متى وكيف يعود الشمل، ويرى كل محب أحباءه .. فباسم الرب امنحنى يا يسوع الصبر .. .. هكذا تواردت الكلمات فى خاطره وهو يودع أهله عائداً من حيث أتى ..

خلال أيام غادر السيد أراضى قشتالة عائداً إلى سرقسطة، حائزاً للعز والمال .. فاقدا للحنين والأمان .. ولكن منته نفسه بأن الليالى السوداء سوف تنقشع، والغد الجميل آت .. أت، ولم لا ..؟ أليس لديه كل شىء .. الشباب .. القوة ..

العزيمة .. وأخيراً الرعاية التى سوف يوفرها له الملك الصالح الفونسو .. إذن كل شىء على ما يرام ..

منحنياً أمام الملك الفونسو يبكى بحرقة .. أخذ أوردنيث ينعى حظه العاثر على ما لحق ببلاده من دمار، وها هى قصوره قد نهبت، وأضرمت فيها النيران .. كيف سيواجه الأهالى، وماذا سيقول لهم .. ومن يعوضنى على ما لحقنى .. أهذا جزاء من يفنى نفسه من أجل الملك .. أهذا هو رد الجميل والوفاء .. وآسفاه .. وآسفاه

بهذه العبارات راح جرسيه يلقى مرثيته على الملك الفونسو .. وهو يتابع حركاته وكلماته بمزيج من التأثر، والضحك الدفين ..

وبعد أن فرغ جرسيه من هذا قال له الفونسو:

«لن أقول أنك المسئول فى جزء مما حدث .. فلا تقاطعنى .. ولكنى على كل حال سوف أدبر باسم كل الولايات والمقاطعات الأموال التى تعيد كل شىء أفضل مما كان .. فأرجوك ساعدنى لكى أتم ذلك بدلاً من أن نعيش حياتنا أسرى المآسى التى نعرفها وتحكيها أنت لنا الآن ..»

شئون خاصة.. ومهمة سرية

ما كادت نائلة وزوجها سالم أن يجلسا مع أبيها الشيخ أبى عمر، وأختها الصغرى ليلى للتهنئة بالعيد الأضحى المبارك فى الثالث والعشرين من يناير١٠٩٢ ميلادية (١١ ذى الحجة ٤٨٤ هجرية) حتى داهمتها فجأة آلام المخاض، وبسرعة نقلها الشيخ أبو عمر وزوجها سالم إلى بيتها، واستدعيت الداية لتوليدها ..

ظل سالم لساعتين بجوار نائلة ليخفف عنها آلامها ويشد من أزرها فى هذه اللحظات الصعبة، إلى أن جاءت الداية مسرعة لتتولى مع الجوارى شئون الولادة..

وبقى سالم مع والد نائلة ووالده الشيخ مسعود ينتظرون بقلق خارج الغرفة، وبعد ساعتين من المعاناة .. شهق الطفل الرضيع شهقته الأولى، بينما يستنشق صدره النسمات الأولى لهذا الفضاء العريض ..

وسرعان ما تلقى سالم البشرى بولادة نائلة لطفله الذى تمناه طويلاً، فقد ابتسمت له السماء ورزق بطفل جميل كالبدر فى جماله .. وبدا من حركة يديه وقدميه وصيحاته الصاخبة المتتالية، بأنه موفور الصحة والعافية .. فاقترب سالم من طفله وأذن فى أذنيه وأسمعه الشهادة ..

ذهبت الفتاة الأسبانية ماتيلدا إلى منزل رضوى فى ثانى أيام العيد، لتهنئها بحلول عيد الأضحى كعادتهما معاً تهنئ كل واحدة الأخرى فى الأعياد والمناسبات .. وتحدثتا فى أمور شتى، حيث أخبرتها رضوى بأن نائلة قد ولدت طفلاً وقالت لها ماتيلدا:

ـ أنا لا أكاد أصدق أن واحدة منا (تقصد واحدة من مجموعة الصديقات اللائى يسكن معاً فى حى واحد، وعلى صداقة منذ الصغر) قد أصبحت أماً .. يا لها من فرحة .. العقبى لنا يا رضوى

ـ طبعاً إن شاء الله ..

ـ أتعلمى أنها أصبحت الآن أما، وهى لم تبلغ العشرين مثلنا

ـ وماذا فى ذلك ..

ـ أبداً أنا أستغرب أن الأيام تمضى بنا مسرعةً وفجأة تتزوج إحدانا، وفجأة نجدها وقد أصبحت أماً .. أليس هذا غريب يا رضوى ..؟

ـ فعلاً من كان يصدق أن نائلة أصبحت أماً الآن، وقد كانت منذ شهور تضحك وتلعب وتلهو معنا ..

ـ حقاً غريبة هذه الدنيا

وأخذت الصديقتان تتجاذبان أطراف الحديث والحكايات حتى قالت ماتيلدا فجأة لرضوى .. تقطع الحديث الدائر بينهما.

ـ أولم تدر ما جرى عندنا بالمنزل منذ يومين ..؟

ـ لا .. ماذا حدث

ثم ضحكت ماتيلدا ضحكة طويلة ذات معنى وقالت:

ـ شقوان .. الخادم لدى والدى ..

ـ ماذا عنه هذا الحقير ..؟

منذ يومين حضر إلينا كعادته، وكان بالمطبخ يضع ما أحضره من مشتريات فبينما دخلت لأتناول ثمرة من ثمار التفاح، وكنت لتوى قد خرجت من الحمام لا يسترنى إلا الغطاء القطنى الذى أجفف به جسمى من أثر الماء .. ولم أتنبه إلى أنه موجود بالمطبخ، حيث أنه لم يكن يفعل شيئاً ويبدو أنه لم يشأ أن يغادر المنزل دون أن يمتع نظره بمشاهدة جسمى ... فقاطعتها رضوى قائلة:

ـ إذن أنت تعلمين أنه يتلكأ لكى ينظر إليك، فى كل مرة يأتى فيها إلى الدار .. هذا لا يمكن أن تفعله فتاة راشدة عاقلة يا ماتى ..

ـ فقالت لها ماتيلدا وهى تهز راحتيها من أسفل وأعلى، وهى تكمل حديثها إلى رضوى .. فقالت:

ـ انتظرى .. انتظرى، واسمعى ما جرى ... فقالت لها رضوى وهى تركز فى كلمات ماتيلدا:

ـ وماذا جرى إذن

كان الخدم فى الداخل منشغلين كل فى شأنه، وفجأة وجدته قد نزع الغطاء من على جسدى وتهجم علىّ وراح يقبلنى وطرحنى أرضاً، فصرخت بأعلى صوتى مستنجدة بالخدم الذين جاءوا على صراخى، وكذا أمى التى فوجئت بما حدث، وقد نهضت أستر نفسى ثم جعلتهم يقيدونه بالحبال، وضربته بالسوط أنا والخدم حتى أدمينا جسده .. وقد طرده والدى من العمل

كانت رضوى تضع يدها على جبينها وقد تصبب العرق منها، وهى تستمع لكلمات ماتيلدا، وأخذت تبكى لما سمعته منها، بينما أخذت ماتيلدا الأمور ببساطة وقالت لرضوى:

ـ أتبكين علىّ يا رضوى .. آه كم أنا أحبك ... فقالت لها رضوى بغضب.

ـ بل أبكى عليك يا ماتى، وقد هانت عليك نفسك إلى هذه الدرجة

ـ لا تأخذى الأمور بهذه الجدية التى سوف تقصف عمرك

ـ إننى أحذرك يا ماتى .. إذا ما استمر استهتارك، فسوف تسوء الأمور، ويحدث لك ما لا يحمد عقباه ..

ـ قلت لك إننا قد طردناه

ـ المشكلة ليست فيه هو وحده .. المشكلة أنك بتصرفاتك، واستهتارك قد يطمع فيك الآخرون بصرف النظر إن كانوا مثل شقوان أو غيره

ـ لك كل الحق .. وآحمد الرب أن الأمر مضى على خير .. ونحمد الرب آنه قد اختفى ولم نعد نراه فى أى مكان، وقد ترك الغرفة التى كان يقيم فيها فى زقاق العطارين ..

بعد أسبوع من الولادة استردت نائلة عافيتها .. وبزهو وسعادة راحت تستقبل الأهل والأصدقاء من بعد صلاة الظهر، حيث طافت الجوارى والخدم يوزعون الحلوى والمشروبات الساخنة من القرفة والجنزبيل ومعها ثمار الفستق والبندق والجوز واللوز ..

وعلى ضربات الدفوف وضع الطفل وسط غربال كبير بإطار من الخشب والياف الغزلان المغطاة بالقماش الأملس الناعم فرشت فوقها بتلات أوراق الورد الأبيض والأحمر .. بينما غطى كامل جسد الطفل ووجهه برداء صغير أبيض موشى بالطرز الخفيفة وبعض الخرز الأبيض ..

وفوق الرأس وضعت دلاية من الذهب بها خرزة زرقاء كبيرة الحجم .. ومن فوقها وضعت وريقات من الجلد الرقيق كتب عليها آيات من القرآن الكريم للمعوذتين ..

وطيف بالطفل على المدعوين من النساء اللائى احتشدن بالطابق العلوى للدار، وجلجلت الدار بالزغاريد وحاول الكثيرات منهن أن يرفعن الغطاء من وجه الطفل إلا آن نائلة كانت حريصة على ألا تكشفه لهن، وهى تتمتم بآيات من القرآن بصوت خفيض غير مسموع ..

وآخذن يلقين بأكياسهن من القماش الملون الزاهى وبداخل كل كيس دنانير أو هدايا من الفضة أو الذهب على قدر سعة كل منهن ..

وآخذ الأطفال يرددون الأغانى من خلف نائلة وهى تسير من خلف الجوارى اللاتى يحملن الطفل بداخل الغربال ..

وبالطابق السفلى تبارى الرجال فى تقديم الهدايا والأموال إلى سالم والد الطفل داخل أكياس من القماش الغليظ أو من الجلد الفاخر ..

ترأس بدران الخادم الشاب بمزرعة سالم ووالده .. الإشراف على العمل، ورعاية الضيوف من الرجال ..

كما كانت بهجة جارية نائلة تشرف بنفسها على أعمال الخادمات والجوارى وهن يقدمن الرعاية للنساء فى الطابق العلوى للدار، وتصادف أن التقى بدران أكثر من مرة، بالجارية بهجة داخل المطبخ بالدار الكبيرة، فتنبه إلى جمال الجارية ذات الملامح العربية الصريحة .. بشعرها الأسود المتدلى على جبينها، وبشرتها خمرية اللون، وأحداقها العسلية وقد أحاطها بياض ناصع جميل ..

وتنبهت بهجة لعيون بدران وهى تلاحقها من آن لآخر، فكانت تبادله الابتسامة بالابتسامة، فانجذب لها قلبه، وانشغل فكره بها طوال الوقت، وأصبح يطيل المكوث بالمطبخ ليستمتع بمشاهدتها لأطول وقت ممكن ..

وقبل العصر بقليل مدت الموائد وعليها الذبائح وما لذ وطاب من الشراب والطعام، وانشغل الجميع وتبادل الضيوف الضحكات والتمنيات بالسعادة للطفل وأسرته السعيدة، بينما دخلت نائلة إلى غرفتها ومعها طفلها وأغلقت الباب من خلفها، وراحت تفك الغطاء من وجه طفلها ..

وبعد الغداء بنحو ساعة .. بدأ الضيوف ينسحبون من الدار وقبل غروب الشمس خلت الدار إلا من أهلها، بعد ان تمتع الجميع بالمرح والضحك والطعام والشراب فى يوم من الأيام السعيدة القليلة، التى تمر بحياة الناس ..

نادت نائلة على زوجها ووالدها وحماها وذهبت بهم إلى غرفتها بالدار ثم أغلقت الباب وقد تجمعوا حول السرير وقد لفت الطفل بردائه الأبيض الموشى ولم يظهر وجهه .. فقال لها والدها .. .. لم تغطين وجه الطفل يجب أن يشم الهواء النقى ..؟ .. .. فلم تجبه نائلة بل رفعت الغطاء من على وجه الطفل فلم يجدوا الطفل بداخله بل وجدوا حجراً طويلاً قد انشق إلى نصفين .. فقال لها والدها وحماها فى وقت واحد .. أين الطفل ..؟ فأشارت لهما نحو سرير صغير من الخيرزان فأبصرا الطفل بداخله مبتسماً يتطلع إلى الوجوه التى تنظر إليه .. فاحتضنه الشيخ أبو عمر وقال الحمد لله رب العالمين .. وتساءل الشيخ مسعود فقال لنائلة قولى لنا يا بنيتى ماذا حدث ..

فقالت له نائلة يا عماه لقد انقبض قلبى، وخفت على طفلى من أن يحسده الناس فيقع له مكروه، فأحضرت هذا الحجر الذى تراه وكان سليما .. ثم ألبسته رداء الطفل وقدمته إلى الناس، وأبقيت ابنى بالغرفة بعيداً عن أعين الناس، فلما عدت بالحجر إلى الغرفة، وجدته كما ترى وقد انشق إلى نصفين .. فقال لها الشيخ مسعود لا قوة إلا بالله .. أحسنت صنعاً يا نائلة .. فسأل الشيخ ابو عمر .. سالم زوج ابنته فقال له:

- قل لى يا سالم .. ماذا قدمت لطفلك

فتلعثم سالم لبرهة وهو ينظر إلى نائلة ووالده الشيخ مسعود ثم قال:

- ماذا تقصد يا عماه

- أقصد أن للوليد ذكراً كان أو أنثى نُسك .. فلقد سأل الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا .. يا رسول الله ينسك أحدنا عن ولده ..؟ .. فقال .. من أحب منكم أن ينسك عن ولده فاليفعل : عن الغلام شاتان وعن الجارية شاة .. ومن حديث عائشة رضى الله عنها أنه قال ..كل غلام رهينةٌ بعقيقته تذبح عنه يوم السابع، ويحلق رأسه ويسمى .. والمعنى يا أولادى أن الطفل يظل رهينة فى نفسه، ممنوع محبوس عن خيرٌ يراد به .. وقد يفوت الولد خيرٌ بسبب تفريط الأبوين، وإن لم يكن من كسبه، كما أنه عند الجماع إذا سمى أبوه، لم يضر الشيطان ولده، وإذا ترك التسمية، لم يحصل للولد هذا الحفظ ... ثم قال الشيخ أبو عمر بالله عليكم .. ماذا سميتم الولد ..؟

- لم نستقر على اسم حتى الآن

- إذن فلتحلق رأسه الآن وليكن اسمه عبد الله .. ولتذبح اليوم شاتين ولا تبيتوا ليلتكم، إلا وقد وزعت لحومها على الفقراء من الناس ..

فقال الشيخ مسعود: بارك الله فيك يا شيخ أبو عمر وأعزك، فقد نبهتنا، أرشدتنا إلى ما كنا نجهله .. والحمد الله على كل حال .. وتبارك الله أحسن الخالقين ..

وصلت إلى السوق سلال الأسماك التى أرسلها الشيخ جابر بن حسن، بينما كان ولده جاسر ينتظرها ليقوم بطرحها فى السوق للبيع كعادته كل يوم، فلما وصل رجال الشيخ جابر إلى السوق، أخبروا جاسر أن والده قد شعر بالإرهاق الشديد وقد نقلوه إلى داره..

ولكنهم طمأنوه أن والده بخير وهو الآن فى حال أفضل، وقد أكد عليهم الشيخ جابرآن يخبروا ابنه جاسر بألا يترك عمله، إلا بعد أن يصل إليه أخيه الأصغر قاسم ..

شعر جاسر بالقلق الشديد وأراد ان يترك عمله مهما كلفه ذلك من خسارة إلا آن مساعده فى العمل، الذى يثق فيه جاسر أكد له أن والده الآن بخير .. وخير له آن يكمل عمله ثم يذهب ليطمئن عليه بعد ذلك فور وصول أخيه الأصغر قاسم ..

فأكمل جاسر عمله حتى وصله أخيه قاسم فاستلم منه العمل، وعاد جاسر إلى المنزل ليطمئن على والده ..

استمر جاسر يقوم بدور والده فى العمل بدلاً منه بينما أخيه الأصغر قاسم، تسلم العمل الذى كان يقوم به جاسر، إلا أنه نظراً لقلة خبرته بالعمل فإن جاسر كان يواصل العمل منذ الفجر إلى ما بعد صلاة الظهر .. ثم يعود مسرعاً إلى دار أبيه ليطمئن عليه ويتابع حالته الصحية مع والدته ويقدم له ما يلزمه من الرعاية هو وآمه ..

شعر الشيخ جابر بالسعادة والامتنان وهو يرى اهتمام ولده به وما يقدمه من الرعاية والعناية له .. فرق له قلبه، وشعر أنه قد ظلمه حينما حرمه من الاقتران برضوى خطيبته ..

وآحس أن ابنه جاسر ليس شخصاً ضعيفاً يخشى عليه من أن تسيطر عليه أى إمرأة مهما كان لها من مكانة فى قلبه ..

فجاسر رجلا يعتمد عليه .. شديد المراس، وأن ما يحمله من مشاعر تجاه الإنسانة التى يحبها لا يتعارض مع شهامته وقوة شخصيته .. بل على العكس فذلك من سمات الإنسان القوى، لا تظهر قوته وشهامته إلا فى اللحظات الحرجة

.. وهو شديد الباس فى مواجهة خصومه .. وفى نفس الوقت رقيق القلب مع كل أحبائه وآقاربه ..

وما آن تماثل الشيخ جابر للشفاء حتى طلب من جاسر أن يذهب للشيخ أبى عبد الله مروان الجزيرى والد رضوى .. ليحدد معه موعداً لكى يلقاه الشيخ جابر..

التقى الشيخ جابر مع والد رضوى، واتفقا على عقد القران والزفاف خلال شهر أبريل (بعد شهرين) .. وتناسى الشيخان ما كان بينهما من جفاء خلال الفترة الأخيرة .. وتعانقا وقرءا الفاتحة لعودة الخطبة بين جاسر ورضوى على ما كانت عليه قبل ذلك .. على ألا تزيد مدة الخطبة هذه المرة عن شهرين ..

وبعيون ملأها السعادة والفرحة .. اقتربت رضوى من والد جاسر الشيخ جابر، وجلست إلى جواره حيث ظل يداعبها بالكلمات والقفشات، وهى تضحك بينما والدها يداخلهما فى الحديث والقفشات، وساد الوئام، وعادت الألفة بين الجميع ..

ظلت آحداث الهجوم الذى شنه المتطوعون من أهل مدينة بالنسيه (جند الله) على جند الحامية الأجنبية تلقى بظلالها على القاضى أبو أحمد جعفر بن جحاف فازداد ثقة بنفسه، وبهؤلاء الرجال، مع إحساس بالغبطة، لما أحدثوه فيهم من خسائر ..

وقرر القاضى أبو أحمد بن جحاف أن يضم إلى قوة جند الله مائة متطوع آخر .. يتولى القائد الغرناطى تدريبهم مثل المجموعة الأولى، على أن يضم القائد الغرناطى من يثق فيه من رجال القوة الأولى ليساعدوه فى أعمال التدريب ..

وبالفعل بدأ القاضى يبعث بعض رجال قوة جند الله ممن يثق فيهم هو والشيخ ابن أبى عامر، لكى يختاروا له من يثقون بهم لكى ينضموا إلى الفرقة الجديدة التى ستبدأ تدريباتها على الفور ..

وتم اختيار كل من جاسر، وسالم مع آخرين لكى يرشحوا من يصلح من الرجال لكى ينضموا إلى هذه القوة ..

وجد سالم آن بدران الشاب القوى المهذب الذى يعمل لديهم فى المزرعة ممن ينطبق عليه المواصفات المناسبة للرجال الذين يبحثون عنهم .. فتحدث سالم إلى بدران سراً فوجد منه كل الترحيب، بل لم يستطع بدران أن يصدق نفسه، عندما تخيل نفسه أنه يمكن أن يكون يوماً مقاتلاً يحمل السيف ويقاتل ضد أعداء البلاد من الجيوش الأسبانية التابعة للدول المجاورة الطامعة فى كل بلاد شرق الأندلس..

وبدأ القاضى يتطلع إلى عزل الملك القادر عن حكم المملكة، وقد تواترت الأخبار بوصول القوات المرابطية إلى مملكة دانية والجزائر على مسافة قريبة من بالنسيه . فجال بخاطره أن يرسل إلى قائد قوات المرابطين فى دانية يدعوه سراً إلى القدوم إلى المدينة وضمها إلى سلطة المرابطين بمعاونة أهل المدينة الناقمين على حكم الملك الضعيف القادر بالله ..

بعد صلاة العشاء فى ليلة ممطرة من ليالى العشرة الأخيرة من شهر فبراير ١٠٩٢ ميلادية .. وما أن هَم جاسر وصديقه سالم لمغادرة المسجد والعودة إلى داريهما بالمدينة القديمة حتى تقدم رجل يعرفانه من رجال جند الله، وأخبر جاسر بضرورة مرافقته وحده إلى ساحة المسجد الذى يتجمعون فيه للتدريب بحى الشريعة للقاء هام هناك ..

وعلى وجه السرعة وصل جاسر برفقة الرجل إلى الساحة الخلفية للمسجد، ومنها رافقه الرجل إلى قاعة كان ينتظره فيها القاضى أبو أحمد بن جحاف ومعه الشيخ ابن أبى عامر التاكرنى، والشيخ أحمد بن عبد الولى البتى ثم انصرف الرجل وبقى جاسر بالغرفة، حيث استقبله القاضى ومن معه بترحاب وتقدير شديدين ..

وبعد أن جلس جاسر فى مواجهة القاضى تحدث ابن جحاف فقال له:

- اسمع يا جاسر .. أنت من رجالنا المقربين الموثوق فيهم .. ولدينا مهمة سرية محفوفة بالمخاطر، وقد رأينا أنك يمكن الاعتماد عليك فى تنفيذ هذه المهمة .. فهل تقبل أن تقوم بها ..؟

ـ بالطبع يا سيدى القاضى

ـ إنك تقبل بالمهمة دون أن تسأل ما هى هذه المهمة ..

ـ مهما كان الأمر يا سيدى القاضى .. فنحن قبل كل شىء متطوعون .. لا نتقاضى أموالا من أجل تنفيذ المهام التى توكل إلينا .. وقد تعاهدنا على العطاء والتضحية بالمال والنفس فى سبيل الله ..

ـ ما شاء الله .. ما شاء الله .. هل أنت متزوج يا جاسر ..؟

ـ قريباً بإذن الله يا سيدى القاضى

ـ إن يقينك وإيمانك بما تقدمه من عمل، هو ما أوصلك للمكانة التى أنت عليها الآن بيننا .. والله سبحانه وتعالى يقول ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [1] .. رزقك الله من الكثير الذى لا يحصى، وأثابك به إن شاء الله يا جاسر ... ثم واصل القاضى حديثه فقال:

ـ لقد اخترناك لهذه المهمة لسببين .. الأول لأن عملك وتجارتك قد تساعدك على تنفيذ المهمة بيسر، والثانى وهو الأهم ثقتنا فيك ..

ـ أعزك الله يا سيدنا القاضى .. وسوف أعمل على أن أكون عند حسن ظنكم بى

ـ نحن واثقون من ذلك ..

بعد صلاة العشاء بنحو ساعة فى ليلة الثلاثاء ٢٤فبراير (١٤من محرم ٤٨٥ هجرية) وتحت ضوء القمر وقد اكتمل بدراً .. تحرك القارب الشراعى مبتعداً عن شاطئ البحر وبه نحو عشرة من الرجال الأشداء، راحو يضربون البحر الهائج بالمجاديف بإصرار وصبر وجلد ..

---

١ ـ سورة البقرة ـ الآية ٢٤٤، ٢٤٥.

وما أن ابتعدوا لمسافة داخل البحر ابتعدوا فيها عن موجات الشاطئ الطائشة، اتخذ القارب الشراعى وجهته جنوباً من مدينة بالنسية ..

فى الثامنة صباحاً وبعد اثنتى عشرة ساعة من الإبحار المتواصل، تناوب فيها الرجال نوبات التجديف لزيادة سرعة القارب مع الشراع المنصوب .. وصل القارب بمحاذاة ساحل البحر عند مدينة دانية، إلى الجنوب من بالنسيه بنحو مائة كيلو متر ..

اقترب القارب من الشاطئ ونزل منه الرجال فى حالة إجهاد شديد .. حيث رسو بالقارب على مرسى متواضع للقوارب بميناء مدينة دانية .. وساروا فى اتجاه معسكر للحراس من جيش الملثمين مقام على الشاطئ ..

سلم الرجال على الحرس الملثم، فبادلهم الحرس السلام وهم يتطلعون إلى وجوه هؤلاء الرجال الغرباء القادمون من البحر وهم لا يعرفون هويتهم ولا وجهتهم ..

وسرعان ما تحدث قائدهم وقال للحرس الملثم.

- نحن قادمون من بالنسيه ونريد أن نلتقى بقائد الجيش لأننا نحمل رسالة هامة له ... فرد أحد الحرس ويبدو أنه قائدهم

- ومن أرسلكم؟

- هذه مهمة سرية لا نستطيع أن نتكلم عنها إلا مع القائد

- لم يعجب قائد الحرس ما قاله له الرجال الغرباء ولكنه لا يستطيع أن يمنعهم من لقاء القائد .. فهو مكلف بالحراسة .. وإطلاع قائد الملثمين عن أى تحركات أو معلومات هامة يحصل عليها .. فقال للرجال الغرباء:

- إذن فاتبعونى ..

وسار قائد الحرس فى الأمام، ومن خلفه الرجال الغرباء، ومن خلفهم ثلة من الجند الملثمين وقد مدوا رماحهم للأمام وعالياً قليلاً، فى حالة تحفز واستعداد لأى طارئ قد يأتى به هؤلاء الغرباء ..

كان هذا المكان على الساحل .. هوموقع متقدم قد تم الاستيلاء عليه منذ أسبوع، بواسطة القوات المرابطية المحاصرة لمدينة دانية عاصمة المملكة ..

حيث أعقب وفاة الملك المنذر فترة من الفراغ فى قيادة حكم المملكة، وتم تعيين مجلس وصاية لولى العهد الصغير، ومن بعده استولى المرابطون على الحكم فى معظم أنحاء المملكة ..

وفى هذه الأثناء وصل المرابطون للمنطقة وأخذت القوات المرابطية تواصل إحكام سيطرتها على بلدات وقرى وحصون المملكة بالمنطقة، حيث كان الكثير منها لم يستسلم حتى الآن ..

من خيمة إلى أخرى ومن قائد إلى قائد آخر أعلى .. اقتيد أخيراً الرجال الغرباء إلى قائد الجيش المرابطى بالمنطقة داوود بن عائشة (1) ..

تفحص القائد الملثم وجوه الرجال، ثم قال لقائدهم وقد تقدم للأمام قليلاً على رأس المجموعة ..

ـ من أنتم، ومن أرسلكم، وماذا تريدون .. ألا تعلمون أن التحرك هنا ممنوع على كل الغرباء، وأنتم الآن معرضون للقتل إذا لم تثبتوا لنا بوضوح ما هو غرضكم ..

تكلم جاسر قائد مجموعة الرجال الغرباء فقال:

ـ آنا ومن معى من رجال قاضى القضاة لمدينة بالنسيه .. القاضى أبو أحمد بن جحاف .. وقد أرسلنا للقائك أيها القائد العظيم بموجب خطاب سرى أحمله إليك ليوضح لكم سبب مجيئنا ... ثم تقدم نحو القائد حاملاً رسالة أخرجها من جراب موضوع إلى الخلف قليلاً من خصره، أسفل العباءة التى يرتديها ..

---

1 ـ داوود بن عائشة: هو من كبار قادة جيش المرابطين، وأحد أبطال معركة الزلاقة الشهيرة التى انتصر فيها جيش المرابطين وقوات الأندلس على جيش الإسبان والقوات الحليفة فى أكتوبر سنة ١٠٨٦ ميلادية.

تناول القائد المرابطى الرسالة الطويلة، وظل يقرأها بتمعن عدة مرات، وجاسر واقف أمامه يتصبب عرقاً من التعب والإجهاد الذى تعرض له هو ومن معه من الرجال على مدى ساعات طويلة مضنية ..

ارتسمت ملامح الارتياح على وجه القائد المرابطى داوود بن عائشة، ثم طلب من جاسر ومرافقيه الجلوس وطلب لهم الطعام والشراب، وأكرم وفادتهم ..

فى صباح اليوم التالى، وبعد أن استراح جاسر ومن معه فى خيمة أعدت لهم التقى جاسر بالقائد المرابطى قبل أن يغادر المكان، ومضى ومن معه من الرجال حيث ركبوا قاربهم الموجود بالمرسى فى الميناء وقفلوا عائدين إلى بالنسيه ..

كانت رسالة القاضى أبو أحمد بن جحاف إلى القائد المرابطى رسالة وافية .. شرح فيها القاضى الأوضاع التى تعيشها المدينة، وأوضح له أن الفرصة سانحة لمجئ المرابطين، حيث لا توجد أى قوات أجنبية تحاصر المدينة ..

وطلب القاضى من القائد المرابطى تجهيز قوة من الفرسان لتتقدم إلى المدينة، وأوضح له أنه سوف يهيئ له دخول المدينة سلماً بالقوات المرابطية، لكى تنضم مملكة بالنسيه مع باقى الإمارات والممالك فى شرق الأندلس، لتصبح تحت لواء قوة الإسلام الفتية لدولة المرابطين ..

فى مساء يوم الخميس وصل جاسر وأتباعه من رجال جند الله إلى سواحل بالنسيه وسرعان ما استقلوا قاربا آخر من قوارب جاسر الموجودة ببحيرة المدينة والمستخدمة فى الصيد ونقل الأسماك من البحيرة إلى المدينة ..

ونزل الرجال عند الشاطئ الغربى للبحيرة بجوار سور المدينة، وعبروا من إحدى البوابات سراً عن طريق أعوانهم من حرس الأبواب، ومضوا ليلاً كلٍ إلى داره ..

بعد صلاة الجمعة ذهب جاسر إلى الساحة الخلفية للمسجد بحى الشريعة، وانتظر حضور القاضى والشيخ التاكرنى، بعد أن أرسل لهم سراً فى الصباح الباكر يخبرهم بوصوله ..

ببشاشة وود ظاهرين رحب القاضى بجاسر، ومضى معه إلى حيث دار القاضى ليسمع منه تفصيلاً ما جرى منذ أن غادر جاسر ورجاله .. بالنسيه مساء الثلاثاء، وسلمه جاسر رسالة القائد بن عائشة التى رد بها على رسالته ..

قرأ القاضى الرسالة، وسعد بها كثيراً حيث أعلمه ابن عائشة أنه يطلب من القاضى أن يرسل له عند نهاية أشهر الصيف .. الفتى جاسر مرة أخرى، ومعه تفاصيل خطة فتح الأبواب وتوقيتاتها عند قدوم المرابطين، على أن تكون هناك قوة صغيرة من الفرسان التابعين للقاضى فى انتظار قوات المرابطين خارج أسوار المدينة عند قدومهم إلى بالنسيه، ليساعدوهم فى دخول المدينة سلماً كما ذكر له القاضى فى رسالته ..

واقترح القائد المرابطى على القاضى بن جحاف أن يكون تحرك المرابطين إلى بالنسيه عند نهاية الصيف وبداية فصل الخريف والشتاء .. بحيث يكون الجيش المرابطى قد أحكم سيطرته على المنطقة المتاخمة لحدود مملكة بالنسيه إلى الجنوب من مدينة شاطبة الواقعة على الحدود الجنوبية للمملكة ..

وأدرك القاضى أنه لابد له من أن يهيئ الأوضاع داخل المدينة ليحكم سيطرته عليها قبل قدوم المرابطين ..

شوق .. ولهفة .. وخيبة أمل

سارع الملك الفونسو إلى ترتيب الأوضاع فى الإمبراطورية الأسبانية الشمالية، وأمضى شهراً يتفقد المدن والحصون فى قشتالة، ليعيد بناء وتشييد ما تم تدميره خلال إغارات قوات القنبيطور عليها .. ثم سرعان ما انتقل إلى ولاية ليون، ومدينة سمورة فى الجنوب.. حيث قضى أياماً فى ضيافة أخته أوراكا..

بلهفة وشوق تابعت الأميرة سيدة أخبار عودة الملك الفونسو إلى قشتالة بعد حملته العسكرية الفاشلة فى شرق الأندلس..

وسرعان ما وصلتها رسالة من الملك يعبر فيها عن شوقه ولهفته إلى لقائها..، وأنه يعد الأيام والليالى لكى يعود إلى طليطلة كعادته فى فصل الشتاء..

وفى نهاية الرسالة أخبرها أنه آت إلى طليطلة فى نهاية الشهر (مارس) حيث لم يتبق على ذلك إلا أيام ليصبح فى صحبتها ..

تلقت الأميرة سيدة الرسالة بفرحة عارمة، حيث إنها كانت قد ساورتها الشكوك فى مدى تعلق الملك الفونسو بها ..

لم تعد تنظر لهذا الأمر على أنها امرأة مسلمة قادمة من بلاد الإسلام، وأنها أرملة لأمير عربى من أسرة عريقة، جذورها ضاربة إلى حيث كبريات القبائل العربية الأصيلة [1]..

- كان الملك المعتمد والد الأمير ينتمى إلى قبيلة لخم ، وملوكها العظام النعمان بن المنذر بن ماء السماء .. حيث قال فى ذلك

وقديماً كلف المُلكُ بنا ... ورأى منا شموساً فعَشق
قد مضى منا ملوكٌ شُهِروا ... شُهرة الشمسِ تجلتْ فى الأفقَ
نحن أبناء بنى ماء السَما ... نحونا تطمحُ ألحاظُ الحَدَق
وإذا ما إجتمع الدين لنا ... فحقيرٌ ما من الدنيا إفترق

بل اعتبرت نفسها أنها قد عادت من حيث أتت ..

.. لقد عدت إلى بلادى .. مسقط رأسى .. نعم لم أكن يوماً عربية، ولن آكون .. والدماء التى تجرى فى جسدى قشتالية قوطية ..

فما ذنبى أننى كنت ضحية الأسر، وقوانين وأعراف العبودية اللعينة، التى يعيش فيها عالمنا .. هذا العالم المتخلف ..

وهاهم دعاة الإسلام (تقصد المرابطين) قد تعاملوا معى، ومع زوجى الراحل وأطفالى بقسوة وهمجية ليس لهما مثيل .. لابد لى أن أعد نفسى للانتقام من هؤلاء الأوغاد، مهما كان الثمن .. نعم مهما كان الثمن .. .. هكذا عادت تحدث نفسها لتبرر ما تقترفه من أفعال، ولتقنع نفسها بأنها لم تخطئ أبداً ..

فى ليلة من ليالى الربيع الدافئة .. وعلى باب القصر المجاور لقصر الملك بالمنية المسورة بطليطلة .. وقفت الأميرة سيدة بفستانها الأزرق الزهرى من قماش القطيفة الرقيق، بفتحة مستديرة تكشف جزء من صدرها الأبيض، وقد تدلت خصلة صغيرة وقصيرة على جبينها من أعلى العينين، ولمت شعرها الذهبى الطويل على هيئة ضفيرة عريضة وتدلى من الأمام على الجانب الأيسر من الرأس .. وقد رشقت فى وسطه وردة بيضاء كبيرة .. فتألقت بجمال أخاذ .. وأضاء وجهها كاشفاً عن سحر لا يضاهى .. ووقفت تستقبل الملك ..

بخطوات رشيقة وثب الملك على درجات السلم أمام القصر وقد علت وجهه ابتسامة عريضة .. ثم سار خطوات قليلة عبر خلالها باب القصر ومد يده ليتلقى يد الأميرة الممدودة نحوه، وانحنى عليها ليقبلها برقة، ارتعشت منها يد الأميرة .. فقال لها وهو يتبعها إلى داخل القصر:

ـ كم كنت أفتقدك يا زايدة ... فقالت له وهى تستدرجه لحديث الوجد والعشق:

ـ وهل كنت تفتقدنى وقد أمضيت شهراً بعيداً هناك فى برغش ولم تبال لشوقى للقياك

ـ صدقينى لولا مشاغلى وارتباطاتى لقدمت إليك منذ أول لحظة وطأت فيها قدماى البلاد ..

ـ أصدقك يا مولاى أصدقك ..

ـ ما أحلى عينيك يا زايده

ـ عيناك أنت أجمل يا مولاى

ـ اسمعى .. من الآن لا تنطقى كلمة مولاى لأنها تباعد بينى وبينك

ـ لا أستطيع

ـ بل تستطيعى .. ولا تجعلينى أترجاك

ـ تترجانى يا مو ـ .. أقصد الفونسو... ثم ضحكت، وضحك معها الملك

ـ نعم يا زايده .. أريدك قريبة منى، لتملأى قلبى الذى أثقلته الهموم، ولم يجد من يخفف عنه أو يحن له

ـ الملك لا يجد من يحن قلبه له .. كلنا فداؤك يا مولاى ...

ـ مرة أخرى مولاى ..

ـ اعذرنى ما زلت لم أتعود أن أناديك باسمك .. ولكن قل لى ألا تجد الحب مع كونستانس (تقصد زوجته الفرنسية، وأم بنته الكبرى أوراكا) ..؟

ـ الحقيقة المرة التى لا يعرفها الكثيرون أننى تزوجتها زواج مصالح ما بين أسبانيا وفرنسا لا أكثر ولا أقل .. ولعلى لا أخفيك سراً ان معظم ملوك أوروبا يتزوجون أميرات لا تربطهم بهن أى مودة، ويضطر الملوك أن يتخذوا لأنفسهم حبيبات من خارج القصر ..

ـ وماذا يربطك بخامينا (تقصد خليلته التى على علاقة به وقد أنجب منها ابنته تيريزا) ..؟

ـ أنت تعرفى كل شىء عنى إذن

- أليس الذى يحب إنسانا يهتم بكل شىء يخصه ..؟

- هل حقاً تحبينى زايده؟

- ماذا ترى فى عينى ..؟

- أرى اللهب والنار

- اللهب والنار..!

- نعم إن من ينظر إلى عينك يرى جمالاً لا يوصف، وناراً تشتعل

- ناراً تشتعل .. لا أفهم ماذا تقصد الفونسو

- النار التى أتحدث عنها لا يراها سواى

- وكيف رأيتها إذن ؟

- إن للعاشقين حسا خاصا يستطيعون من خلاله أن يكتشفوا خبايا الآخرين .. وقد لمحت النار فيك من أول لحظة .... فتبتسم الأميرة ولا تتكلم، فيواصل الفونسو حديثه قائلاً:

- أتودين أن أصف لك أكثر من ذلك ..

- لا .. لا .. فأنا أشعر وكأنك قد عريتنى وكشفت ما بداخلى

فيقترب منها الفونسو ويحاول أن يقبلها ويضمها إلى صدره فتقول له

- لا .. لا .. يا الفونسو

- ماذا يا زايده

- الأطفال قد يرونا، والخدم أيضاً

- كل من فى القصر جزء منى فلا تخشى شيئاً .. ثم يقترب منها أكثر ويقبلها على جبينها ويضمها إلى صدره ... فتتخلص منه برقة، وتنهض من مقعدها وتدعوه للعشاء فيقول لها:

- لماذا تتهربين منى ..؟

ـ أنا لا يمكننى أن أتهرب منك، ولكن أرجوك يا الفونسو اعطنى فرصة لكى آعود إلى طبيعتى

ـ لقد اعتقدت أنك تبادلينى شوقاً بشوق، ولهفة بلهفة .. فلماذا أراك الآن جامدة ..

ـ لا تتعجل يا الفونسو، وأعطنى الفرصة لكى أكون على طبيعتى معك

ـ وما الذى يمنع ذلك

ـ آشياء كثيرة لم أتعودها هنا .. وأولادى مازالوا متعلقين بذكرى أبيهم .. ولا يمكننى أن أصبح فجأة حبيبة لرجل آخر أمامهم قبل أن يتعودا عليك ويتقربوا منك

لم يسعد هذا الكلام الفونسو فحاول أن يتظاهر بعدم الغضب وجاراها فى الكلام إلا أنه قد وضح عليه أنه قد مَنّى نفسه بما لا يمكن أن يتحقق .. على الأقل الآن ..

تولى جاسر وثلاثة آخرون من النخبة المميزة من جند الله، منهم سالم .. تدريب الشباب المتطوع تمهيداً للانضمام مستقبلاً ضمن فرق جند الله، كما سماها بذلك الشيخ ابن أبى عامر التاكرنى ..

وتم وضع برنامج التدريب بواسطة القائد الغرناطى، على نفس المنهج الذى تم به البرنامج التدريبى السابق، وبسرية مطلقة ..

كان بدران الخادم بمزرعة الشيخ مسعود القيسى، أحد هؤلاء المنضمين الجدد للتدريب .. وقد لاحظ سالم أن بدران يلازمه كثيراً أثناء فترات الراحة من التدريبات فى الفترة ما بين صلاة المغرب والعشاء، وكذا فترة الراحة من التدريب الذى يتم بعد صلاة العشاء لمدة ساعة ..

فوجئ سالم ببدران يطلب منه أن يتحدث إليه فى موضوع خاص به فوافق سالم، واتفقا أن يتحدثا معا فى اليوم التالى ..

فى اليوم التالى بمزرعة الشيخ مسعود، وأثناء فترة الراحة بعد الظهر .. نادى سالم على بدران وسأله عما يريد، فأخبره بأنه يريد أن يتزوج من بهجة جارية السيدة نائلة زوجة سالم، والتى تسكن معهم فى دار أبيه ..

ابتسم سالم، وأخبر بدران بأنه لا يمانع من ذلك إلا ان الكلمة الأخيرة ستكون لنائلة زوجته .. سيدة الجارية بهجة .. ووعده آن ينقل لزوجته رغبته بالزواج من بهجة ..

فى المساء أطلع سالم زوجته على رغبة بدران فى الزواج من بهجة ففوجئت نائلة بذلك، ولكنها شعرت بالسعادة فى نفس الوقت ..

فالجارية بهجة تعمل لديها منذ سنوات بعيدة، وهى تصغر نائلة بسنتين، وتربت فى دار نائلة ثم انتقلت معها بعد زواجها من سالم ..

كانت نائلة تحب بهجة جاريتها وتعاملها معاملة حسنة، وفى نفس الوقت كانت تتخذها صديقة لها، ففرحت نائلة حينما تخيلت أن بهجة يمكن أن تكون فى يوم من الأيام زوجة وأمًا .. فقررت أن تصارحها برغبة بدران فى الزواج منها .. ففوجئت بها تبتسم وكأنها تعرفه معرفة وثيقة ..

لم تكن بهجة فى الحقيقة تعرف أى شىء عن بدران سوى أنه شاب قوى البنية، ذو ملامح مفعمة بالرجولة والجدية .. ويعمل فى خدمة سيدها الشيخ وابنه سالم، وقد تصادف أن رأته مرات قليلة فى مناسبات مختلفة متباعدة ..

ورغم ذلك فقد كانت ترى فى عينى بدران بريقا لا يخطئه القلب .. فسرى سهم الود إلى قلبها، وربما تمنت فى يوم ما أن تكون زوجة له .. ربما كان هذا اليوم هو يوم السبوع للطفل الوليد عبد الله ابن سيدتها نائلة ..

وافقت نائلة على زواج بدران خادم زوجها من بهجة جاريتها، وقررت نائلة أن تعتق بهجة وتمنحها حريتها .. فكأن الفرحة أصبحت فرحتان .. فرحة العتق، وفرحة الزواج الذى تتمناه أية فتاة ..

بسعادة طاغية استقبل بدران خبر موافقة سيدته نائلة بزواجه من بهجة، وكانت الفرحة الأكبر حينما علم بأن السيدة نائلة سوف تمنح بهجة حريتها قبل الزواج مباشرة ..

واتفق بدران مع سيده سالم، أن يكون موعد الزواج بعد نهاية فترة التدريب العسكرى الذى كان قد بدأ منذ ثلاثة أسابيع .. حيث تبقى على انتهائه شهر ونصف الشهر، وأن يبرر بدران تحديد الموعد على اعتبار أنه سيجهز مسكنا ريفيا صغيرًا للزواج بمزرعة الشيخ مسعود .. وبذلك يمكن أن يتم الزواج فى بداية أشهر الصيف .

بنهاية شهر أبريل بدأت رضوى الاستعداد للزواج من جاسر والمحدد له بداية شهر يونيو، حيث راحت أمها تجهز لها للزواج، وشغلت الشيخ أبو عبد الله مروان الجزيرى بطلبات الزواج لبنتها الوحيدة ..

ولم يتوان الشيخ فى تنفيذ ما تطلبه أم رضوى بنفس راضية وشعور بالراحة لاقتراب أجل الزفاف لابنته العزيزة ..

ولأن الرياح تأتى بما لا تشتهى السفن، فقد تعرض الشيخ جابر .. والد جاسر لوعكة صحية جديدة ألمت به بسبب مرض الربو المزمن الملازم له، حيث تسببت رياح الربيع بما تحمله من حبيبات اللقاح وبعض الأتربة فى تهيج صدره بالحساسية فأصيب بنوبات ربو شديدة، شعر معها بصعوبة التنفس ..

وكان الشيخ جابر قد تعود أن يصاب بمثل هذه الحالة كثيراً إلا أنها اشتدت هذه المرة بدرجة كبيرة .. وتفاقمت حالته المرضية كثيراً، وتم استدعاء الطبيب، حيث طالبه بالراحة مع تعاطى بعض المشروبات والأدوية ..

باشر جاسر العمل نيابة عن والده، وحل أخوه القاسم محل جاسر، لكى يستقيم العمل أثناء غياب الشيخ جابر ..

وقام الشيخ أبو عبد الله مروان، وبنته رضوى بزيارة والد جاسر فى داره أكثر من مرة، وتمنوا له الشفاء العاجل ..

إلا أن رضوى وأبيها فوجئوا فى آخر زيارة لهم للشيخ جابر بأنه يطلب منهم التعجيل بالزواج حتى لا يباغته الموت، فيتسبب ذلك إلى تأجيل الزواج ..

إلا أن الشيخ أبوعبد الله والد رضوى رفض منه أن يتحدث عن الموت، وتمنى له الشفاء العاجل، وذلك كنوع من الاحترام للظروف المرضية للشيخ جابر ..

وحاول الشيخ جابر أن يقنع والد رضوى فأبى ذلك بشدة، وأصر ألا تقام أفراح إلا بشفاء الشيخ المريض ..

وازداد مرض الشيخ جابر، وتفاقمت حالته إلى الأسوأ وخلال أسبوعين من المرض توفى الشيخ جابر فى فراشه، وهو راض عن ولديه، راغباً فى زواج جاسر من رضوى ..

شارك جاسر وأهله فى مصابهم الأليم، جمع كبير من كبار أعيان المدينة وشيوخها، وعلى رأسهم قاضى القضاة أبو أحمد بن جعفر بن جحاف، والشيخ أحمد البتى والشيخ أبو بكر حمدون (ابن المعلم) والشيخ التاكرنى، وجاسر ووالده الشيخ مسعود القيسى، وأهل رضوى وعلى رأسهم الشيخ أبو عبد الله مروان الجزيرى، وآخرون كثيرون ..

واستمر العزاء لثلاثة أيام متتاليات .. وعادت الأمور إلى حالتها، بينما بالنسية تكتنفها الكثير من الأحداث الخطيرة، ويتربص بها الكثيرون، ولا تزال النار تحت الرماد ..

انتظر الشيخ أبو عبد الله فترة طويلة لا يتحدث فيها مع جاسر فى أى شىء يخص زواجه من ابنته رضوى سواء من قريب أو بعيد .. حتى تكلم جاسر من نفسه وطلب من الشيخ أبو عبد الله أن يحدد الوقت الذى يلائمه لإتمام الزواج ..

إلا أن والد رضوى رفض الحديث عن الزواج فى هذه الفترة الصعبة، ومراعاة لظروف وفاة والد جاسر .. إلا أن جاسر أصر أن يكون الزواج فى أول الصيف، وأن يكون التأجيل لمدة شهر واحد فقط، ليكون فى بداية شهر يوليو بدلاً من يونيو ..

وبعد إلحاح من جاسر، وافق والد رضوى استجابة لرغبة جاسر فى أن يكون التأجيل لشهر واحد لا أكثر، وأراد جاسر أن يكون تعجيله بالزواج رغم وفاة أبيه هو تقدير منه لوالد رضوى وموقفه الشهم معه عند مرض والده، ومن بعد وفاته..

بنهاية شهر مايو .. انتهت فترة التدريبات لمجموعة جند الله الجديدة التى يشرف على تدريبها كلٍ من جاسر وسالم، بالإضافة للقائد الغرناطى، واكتمل عدد المجموعة الجديدة لأقل من سبعون فرداً هو كل ما استطاع رجال القاضى أن يجذبوه من رجال وشباب المدينة للتطوع سراً ليكونوا من رجال جند الله ..

ومع بداية شهر يونيو تم زفاف بدران خادم سالم إلى بهجة، وعقد القران فى مزرعة الشيخ مسعود القيسى، فى احتفال ريفى صغير .. حضره بالإضافة إلى الشيخ مسعود وابنه سالم وزوجته نائلة جمع من أهل المزرعة، كما حضره جاسر وخطيبته رضوى، وتم الزفاف إلى دار العريس الصغيرة الملحقة ببعض الدور الصغيرة للعاملين فى المزرعة ..

فى هذه الأثناء مع بدايات أشهر الصيف، كانت مدينة بالنسية تعيش فترة من الهدوء النسبى .. فكان كل شىء على السطح يبدو هادئًا جميلاً .. إلا أن هذا الهدوء قد بدا وكأنه الهدوء الذى يسبق العاصفة ..

فلقد أخذ القاضى ابن جحّاف يعد العدة مع الشيخ ابن أبى عامر التاكرنى، والشيخ أحمد بن عبد الولى البتى، لتهيئة الأوضاع لقدوم قوات المرابطين لإنقاذ بالنسية من السقوط فى يد الأجانب الطامعين فيها .. سواء كان ذلك من الملك الفونسو، بعد أن اقتربت جيوشه من المدينة منذ أشهر مضت .. أو كان ذلك من قائد عصابات المرتزقة المدعو السيد .. وقواته الناهبة التى تصول وتجول فى بلاد شرق الأندلس بلا مانع أو رادع ..

كان الشغل الشاغل للقاضى ورجاله كيفية السيطرة على أبواب المدينة وفتحها أمام القوات المرابطية عندما تحين اللحظة المناسبة ..

بعد احتفال انتهاء أعمال التدريب للدفعة الثانية من المتطوعين (جند الله) شعر القاضى ورفاقه بالكثير من الاطمئنان ..

فإذا ما عجزنا عن ترتيب أمر موالاة بعض قوات عسكر المدينة، واستمالتها بالانصياع لأوامرنا بالانضمام لنا عند التمرد والثورة على الملك قبل قدوم المرابطين .. فإنه عندئذ لن يكون هناك خيار لنا أو بديل إلا الاستعانة برجالنا من جند الله لتنفيذ أوامرنا ولو بقوة السلاح .... هكذا دار الأمر فى فكر القاضى، ونقل هذه الأفكار إلى معاونيه ..

وفى هذه الأثناء كان المسئول عن الأمن وقوات العسكر التابعة للملك القادر هو نائبه ابن الفرج ..

وكان ابن الفرج خلال الشهرين الأخيرين يعانى من المرض الذى ألزمه الفراش لفترة طويلة، وحل مكانه ابن عبدوس فى الإشراف على العسكر وحراسة الملك ..

ولأن ابن عبدوس ليس له أى خبرة فى هذه الشئون، فقد عاشت المدينة فراغاً أمنياً خطيراً .. ففى الظاهر كانت الأمور تبدو طبيعية، إلا أن الحقيقة كانت غير ذلك تماماً ..

ومن حسن الطالع أن المدينة العاصمة لم يكن يحوم حولها فى هذا التاريخ أى من القوى الطامعة فيها ..

وما لبث أن شفى ابن الفرج، وعاد يمارس دوره فى قيادة قوى الأمن والحراسة على الأسوار، وكذا حراسة الدور الحكومية والدواوين، كما أوكلت له حراسة القصور الملكية وزيادة حجمها، بعد أن كانت قوات الحامية الأجنبية قد غادرت البلاد وقت قدوم الملك الفونسو لحصار بالنسية ..

بدأت بعض الأخبار تصل إلى ابن الفرج عن تعاظم دور القاضى ابن جحاف، وأنه قد تنامى دوره وزادت قوته بين جموع الناس، التى تتحدث عنه بأن له رجال من المدينة يعملون تحت إمرته ينفذون أوامره وفى خدمته فى غير شئون القضاء..

وبدأ ابن الفرج يراقب القاضى، ويجمع الأخبار عن تحركاته، وما يعقده من إجتماعات وجلسات سواء فى داره أو فى دار القضاء والإفتاء أو أى مكان يذهب إليه القاضى .. وكلف بعض من الأفراد من عسكر الأمن لكى يتجسسوا على القاضى، ويتقصوا الحقائق عن هذه الأخبار التى تحوم حوله ..

بدأت الأخبار تتوالى على ابن الفرج، بما يعقده القاضى من إجتماعات فى نطاق من السرية الشديدة والكتمان، وعرف أسماء الأشخاص الكبار الذين يذهبون إليه باستمرار، أو الذين يذهب هو للقائهم، وجاء فى هذه القائمة أسماء بن أبى عامر التاكرنى، والشيخ البتى، والشيخ أبو بكر حمدون (ابن المعلم)، وهم من مجلس شورى المملكة ..

ثم تلى هذه الأسماء اسماء أخرى أقل فى الأهمية مثل التاجر الصياد الشاب جاسر بن جابر الذى ورث تجارة أبيه، ثم آخرون أقل أهمية جاءوا فى آخر القائمة ..

التقى ابن الفرج مع الملك وأطلعه على ما لديه من معلومات .. فطلب منه الملك أن يستمر فى جمع المعلومات بسرية مطلقة لأن هذه المعلومات لا تدين أحدا، ولابد الآن من معرفة ما يدور بداخل هذه الاجتماعات لمعرفة نوايا القاضى، مع ضرورة البحث فى المعلومات التى تتحدث عن وجود قوات تابعة للقاضى، وما دورها، وكيفية تمويلها ..

وطلب الملك من ابن الفرج زيادة درجة الحذر بين عسكر الأمن وتشديد الحراسات فى المناطق الرئيسية داخل المدينة، وكذا عسكر الحراسة على الأسوار..

انصاع الشيخ أبو عبد الله لرغبة ابنته الوحيدة رضوى، وقبِلَ أن يكون حفل زفافها فوق سطح الدار الفسيح فى مكان واحد يجتمع فيه كل المدعوين من رجال ونساء وأطفال ..

وقبل الشيخ أبو عبد الله هذا الأمر على مضض، وإن أصر على أن ينقسم المكان لقسمين جزء للنساء وآخر للرجال، وإن كان الجميع سوف يرى بعضه البعض طوال فترة الاحتفال بالزفاف ..

فى ليلة جميلة من ليالى الصيف، وبعد يوم طويل حار تبعه غروب الشمس مع نسمات رطبة من الهواء النقى .. اكتظت الدار بعشرات المدعوين من أهل الحى القديم، وبعض أهل المدينة .. حيث فرش سطح الدار بالأبسطة الحمراء ودسرت أركان المكان بالستائرالمخملية ذات النقوش الزاهية ..

وتدلت أفرع الورق الأخضر لنباتات الزينة من على الدعامات الخشبية التى نصبت حول مقاعد الضيوف، وفى أركان المكان وضعت القدور النحاسية بها شجيرات نباتات الزينة الخضراء بأوراقها العريضة الخضراء اليانعة ..

وفى الوسط كانت الكوشة التى ضمت مقعدى العريس والعروس وقد جلسا متلاصقين، ومن خلفهما ستارة بيضاء، تدلت منها عناقيد الورد الأحمر بكثافة من اليمين واليسار على جانبى الكوشة، وتوسط الورد الأحمر القانى، بقع من الورد الأبيض الناصع .. فكان المكان وكأنه روضة خضراء فوق سطح الدار ..

تولت ماتيلدا الإعداد لحفل الزفاف، فكان الحفل أشبه بحفل فيه مزيج من الطابع العربى والإسبانى فى آن واحد ..

وبينما يطوف الخدم على الضيوف بأنواع الشراب المختلفة المذاق والألوان، والناس مبتهجون فى نشوة وسعادة .. إذا بهم يستمعون إلى نقر وطقطقات لترنيمات أسبانية تقوم بها الفتاة الأسبانية وقد وقفت بين قسمى الضيوف من النساء والرجال وأمام كوشة العروس والعريس .. برداء أزرق فضفاض من القماش اللامع وقميص أبيض مكشوف فيه جزء من الصدر مطرز بخيوط وشرائط زرقاء من نفس لون الرداء .. بينما شعرها الأسود الحالك المضموم فى خصلة واحدة قد تدلى للأمام واضعة فيه وردة بيضاء ..

بعينان لامعتان وقفت ماتيلدا للحظات .. وعلى وجهها ابتسامة عريضة وهى تنظر للعروس .. فتلقت من رضوى ابتسامة عريضة وقد اغرورقت عيناها بالدمع، فرحة بنظرة الحب المتألقة التى رأتها فى عينى صديقتها الإسبانية التى تريد أن تجاملها فى يوم عرسها ..

أنصت الجميع وبدأوا يتابعون بلهفة واستغراب الفتاة الأسبانية .. بينما ماتيلدا تتحرك وترقص على النغمات والألحان حيث وقف إلى جانبها أخوها دييجو، وقد حمل قيثارته الأسبانية، وراح يعزف ألحانا إسبانية شجية، وراحت تغنى معه بالأسبانية والعربية منطلقة بين صفوف الضيوف، المشدوهين المبهورين مما يروه وقد تملكتهم الفرحة والذهول فى آن واحد ..

ومن رقصة إلى أخرى ومن غنوة إلى أخرى، فإذا بكل المدعوين من الضيوف المسلمين، وأصدقائهم من الإسبان المسيحيين المعاهدين، يبادلون ماتيلدا وأخيها التصفيق والغناء مع النغمات والترنيمات وطرقات العزف التى يؤديانها .. واستمروا فى ذلك لنحو ساعة .. وبعدها دعى الضيوف إلى الموائد العامرة بأنواع الطعام والشراب والحلوى المعدة لهم فى أحد جوانب السطح ..

وما أن انتهوا من ذلك، حتى عاد الجميع إلى أماكنهم، وتوالت الأغانى والزغاريد تجلجل بالمكان، وراح العروسان يتلقيان التهانى من الضيوف من رجال ونساء ..

وعلى ضربات الدفوف والأغانى زف الحاضرون العروسين، حيث سار جاسر وبجواره رضوى وقد أمسكت بكلتا يديها ذراعه، وتتشبث به لا تريده أن يبتعد عنها ولو للحظة ..

بدمعات الفرحة سارت رضوى بجوار عريسها وتعلقت عيناها بصديقاتها، وقد هز وجدانها إحساسها بفرحتهم لها، فمضت إلى دار زوجها متمنية لهم أن يلحقوا بها عما قريب ..

اقترب شهر أغسطس من نهايته، فاجتمع القاضى ابن جحاف برجاله المقربين الشيوخ أحمد البتى، والتاكرنى، وأبو بكر .. وقرروا أن يرسلوا سراً إلى القائد

المرابطى ابن عائشة بعد أن اقترب بقواته من حدود مملكة بالنسيه عند مدينة شاطبة ..

تم تكليف جاسر سراً بالمهمة الصعبة للقاء ابن عائشة والإتفاق على قدوم المرابطين فى أقرب فرصة إلى بالنسيه، وذلك قبل قدوم السيد القنبيطور بقواته إلى منطقة شرق الأندلس كعادته فى فصل الخريف لجلب الجزية من الأمراء والملوك .. حيث سيصعب عندها دخول المرابطين إلى المدينة ..

بعد مهمة شاقة وصل جاسر ورفاقه من جند الله عن طريق البحر إلى مصب نهر شقر جنوب بالنسية بنحو خمسة وأربعين كيلو متراً ومن خلال النهر وصل بلدة الجزيرة ومنها جنوباً إلى الأرض المتاخمة لشاطبة .. حيث المعسكر المتقدم لجيش المرابطين ..

التقى جاسر بالقائد المرابطى وأطلعه على رسالة القاضى ابن جحاف التى يستعجله فيها للقدوم إلى بالنسية ..

قرأ القائد ابن عائشة الرسالة ثم نظر إلى جاسر وقال له:

ـ ما موقف الملك القادر منا (أى المرابطين)

ـ موقف الملك كموقف معظم أمراء وملوك الأندلس .. فهم يخشوكم، ويفضلون التحالف مع الأسبان عن التحالف معكم

ـ نعم .. إن ما تقوله صحيح .. ولا نعرف لماذا استسلموا لضعفهم وتركوا الغرباء يتحكمون فيهم، ويطالبوهم بالجزية وانقلبت الأوضاع، فبعد أن كان الملك الناصر، ومن بعده الحكم، ثم الوزير المنصور بن أبى عامر .. كانوا جميعهم تدفع لهم الجزية من كافة الملوك الأسبان فى أرجون، ونافار، وقشتالة، وجليقيه إذا بالملوك الأسبان هم الذين يتقاضون الجزية .. ويا ليت الأمور توقفت عند هذا الحد .. بل بدأ الأسبان فى الاستيلاء على الممالك والإمارات الواحدة تلو الأخرى ولم يعد من هؤلاء الملوك والأمراء من يستطيع أن يقف فى وجه هؤلاء الأعداء، بل

وصل تخاذلهم إلى أبعد مدى بقبول التحالف معهم ضدنا .. لو كانوا يتقوا الله فى عملهم، وشعوبهم ما عاديناهم ولا عزلناهم، ولكنهم هم من دفعنا إلى محاربتهم وعزلهم لحماية شعوبهم من الأعداء

- لهذا يا سيدى يجب أن تنتهزوا الفرصة لتنقذوا البلاد

- ما وظيفتك يا جاسر ..

- أنا تاجر أسماك وصياد ورثت هذا العمل عن والدى رحمه الله ..

- ولكنى أراك مكلف بمهام لا يقوم بها إلا من يقاتل فى ميدان القتال وفى ساحة الحرب ..

- هو كذلك يا سيدى فأنا جندى من جند الله، وهى فرق من أهل المدينة تدربت على فنون القتال تحت إشراف رجال محترفين، وذلك للمعاونة فى نجدة المدينة وتسيير أمورها فى الحالات الحرجة والاستعداد الدائم للدفاع عن الأهالى ..

- آتعرف يا جاسر .. لو أن أى ملك أو أمير فى شرق الأندلس أنفق نصف ما ينفقه على الجوارى والقينات، ومجالس الخمر والمجون لكان لديهم جيوش جرارة لا يستطيع معها أعداؤهم من أن يعادوهم أو حتى يباروهم فى القدرة والمنعة ..

- صدقت يا سيدى

- على كل حال خذ راحتك انت ومن معك ثم احمل رسالتى هذه إلى القاضى .. فنحن قادمون قريباً جداً وانقل له تحياتى ..

- شكراً يا سيدى

- وفقك الله يا جاسر ..

ثم قام القائد المرابطى وسلم على جاسر، وحدد له ولرفاقه مكانا للراحة وأمر بتقديم الطعام والشراب لهم وحسن وفادتهم ..

فى صباح اليوم التالى قفل جاسر ومجموعته عائداً إلى بالنسيه من نفس الطريق الذى جاء منه

بعد انتصاف الليل بساعتين وعند أسوار المدينة اقترب جاسر ورفاقه من البوابة المتفق عليها للمرور منها ليلاً، وبعد عبورها، فوجئ جاسر بتغيير آفراد نوبه الحراسة بأفراد آخرين أرادوا الإمساك به وبمن معه ..

للحظات أمسك الحراس بجاسر ليقيدوه بالأصفاد، فانتفض جاسر وقرر الفتك بمن يحاول آن يمسك بيديه ويضعها فى القيود ..

وبإشارة منه انقض جاسر ورفاقه على الحرس الذين ظنوا أنهم قد أمسكوا بمجموعة من الرجال غير المحترفين، فإذا برجال جاسر يضربون الحراس، ويشتبكون معهم فى قتال حقيقى ..

لم يتوان الحراس فى استخدام السلاح، فاستل جاسر ومن معه الخناجر والسيوف المستترة وراء ظهورهم وأثخنوا فى الجند بالطعن محاولين آلا يوجهون لهم ضربات قاتلة ..

إلا أن بعض الحراس أخذتهم العزة، بضرورة القبض على رجال جاسر فوجهوا الطعنات القاتله لجاسر ومجموعته، وأصيب واحد من فرقة جاسر بطعنة قاتلة، فقرر جاسر الضرب بقوة وبطعنات مميتة لمن يحاول من الحراس أن يوجه له أو لمجموعته الطعان المميتة القاتلة ..

وبعد صراع استمر لدقائق حسم جاسر ورجاله القتال لصالحهم وقتل اثنان من قوة الحرس، وأصيب رجل من جند الله بطعنة قاتله، وآخر بإصابة فى ذراعه، وثالث بجرح سطحى ..

فر الحرس المكلف بحراسة البوابة ليستنجدوا بزملائهم الموجودين فى الغرف الملحقة ببوابات الأسوار، وانتهز جاسر الفرصة فهرب هو ورفاقه إلى أقرب حديقة مجاورة للأسوار ومنها تسللوا عائدين إلى المدينة ..

ظل القاضى ابن جحاف يحاول أن يستطلع الأخبار بعد أن فوجئ بتغيير نوبة الحراسة بأفراد آخرين لا يعرفون الوسطاء الذين يرسلهم لهم فى كل مرة ..

فتعذر تحذير جاسر ومجموعته بما حدث ومطالبتهم بالانتظار حتى الصباح، حيث يسمح بالمرور للجميع من وإلى المدينة وحتى غروب الشمس حيث تغلق الأبواب فى وجه الجميع كالعادة ..

وفى الصباح وصل جاسر إلى دار القضاء والإفتاء فى موعد الدوام الرسمى للدار .. وسلم رسالة القائد المرابطى ابن عائشة للقاضى ابن جحاف، وأطلعه على ما جرى، وسأله القاضى عن حالة الرجل المصاب بالطعنة القاتلة فأخبره جاسر أنه تم تقديم علاج أولى له، ولكن ما زالت حالته خطيرة ..

فرتب القاضى مع جاسر نقل الجرحى إلى مكان منعزل، وقرر إيفاد طبيب موثوق به لإسعاف الرجل ومن معه من مصابين آخرين ..

وأعطى القاضى أوامره لجاسر وكل من كانوا معه بضرورة الاختفاء عن الأنظار تماماً حتى تهدأ الأحوال ويسمح لهم القاضى بالظهور مرة أخرى ..

عند الظهيرة أسلم الجندى المصاب روحه لبارئه .. ونقل لأهله لتكفينه وتشييع جنازته ..

وعند صلاة العصر أقيمت الصلاة على روح الشهيد، وأرسل القاضى لبعض الرجال من جند الله ليشيعوا مع أهل الشهيد الجنازة، وذلك نيابة عن باقى زملائهم حتى لا ينكشف أمرهم للناس ..

وفى المساء حضر القاضى العزاء المقام فى دار أهل الجندى الشهيد دون أن يعلم أهله السبب الحقيقى لوفاة ابنهم، حيث حُكى أنه قد قتل أثناء مروره بأحد الأزقة عندما كان يدافع عن رجل تعرض للسطو من أحد قطاع الطرق، فقتله قاطع الطريق حينما حاول القبض عليه ..

لم يكن أمام أهل الرجل الفقيد إلا أن يصدقوا ما روى لهم .. فالرجل كان غائباً ولا يدرى أحد أين ذهب وكيف مات ..

قرر القاضى أن يمنح أهل الشهيد مبلغًا من المال سراً من الصندوق المخصص لنفقات جند الله، حيث يُمول هذا الصندوق من تبرعات كبار أثرياء المدينة الذين يقدمون الأموال التى يطلبها القاضى للإنفاق على أوجه الخير بالمدينة، وبالطريقة المناسبة التى يراها قاضى القضاة، وهم يحبونه ويثقون فيه ..

تجمعت الأخبار والمعلومات لدى ابن الفرج بما فعله القاضى، فى صباح اليوم التالى لواقعة القتال عند بوابة المدينة الشرقية وتم تتبع أماكن تحركاته فى الأيام الثلاثة الأخيرة قبل الواقعة، ومقابلاته التى أجراها، ومنها لقاءه بجاسر مرتين خلال ثلاثة أيام ..

وكذا المعلومات التى تفيد بأن جاسر قد تغيب فى اليومين الأخيرين عن عمله، وإنه قد يكون أحد الرجال الذين اعتدوا على جند الحراسة، وأصدر ابن الفرج أوامره بالقبض فوراً على جاسر لعرضه على الحرس الذين كانوا موجودين بموقع الحادث للتعرف عليه ..

تحركت مجموعة من العسكر إلى دار جاسر الموجودة بالقرب من مسجد رحبة القاضى فى المدينة القديمة بجوار منزل سالم صديقه ..

حاصر العسكر الدار، وطرقوا الباب بشدة، وفتح لهم الخدم وتجمع أهل الدار عند الباب مفزوعين حينما رأوا رجال العسكر والغضب على وجوههم ..

واقتحم الجند الدار وتم التفتيش فى كل مكان فيها بعناية فائقة، وتم سؤال زوجته عن زوجها فأنبأتهم بأنه متغيب كعادته فى الإشراف على الصيد ليلاً.. بينما يتوجه نهاراً إلى السوق لتسويق البضائع.. ثم غادر العسكر الدار خاوبى الوفاض..

ذهب ابن الفرج إلى الملك القادر بما لديه من أخبار، وأكد للملك أن القاضى يراسل المرابطين عند حدود المملكة عند شاطبة، وأن رجله الذى ينقل له الرسائل هو تاجر يعمل بالصيد اسمه جاسر وهو هارب من مطاردات العسكر له ..

وطلب ابن الفرج من الملك سرعة القبض على القاضى بتهمة التآمر .. إلا أن الملك لم ينجرف خلف طلبات ابن الفرج المتهورة، وقال له «الشعب فى بالنسبه يحبون القاضى ويحترموه، وحتى إن علم الناس باتصاله بالمرابطين فسوف يرحبون بذلك ..»

إلا أن الملك طلب من ابن الفرج القبض على المدعو جاسر فوراً، لكى يُلِم (أى الملك) بحدود المؤامرة، وحتى يستطيع أن يحصل على أكبر قدر من المعلومات، وما دار بين القاضى وبين المرابطين ..

قادمون .. !

راح العسكر يبحثون عن جاسر فى كل أنحاء المدينة، فتم البحث عنه فى مكان عمله فى سوق الأسماك .. وتم تكليف رجل من العسكر ليراقب مكان العمل ليتم القبض على جاسر فور وصوله إلى هناك فى أى وقت ..

كما تم رصد مكان موقع العمل على شاطئ البحيرة خارج المدينة، الذى يستلم فيه جاسر الأسماك من الصيادين لشحنها من هناك إلى المدينة .. ولكن لم تسفر أعمال التفتيش عن العثور على أى أثر له ..

إجتمع القاضى سراً بحلفائه من رجال المدينة ليطلعهم على ما جاء برسالة القائد المرابطى ابن عائشة .. واخبرهم بأن القائد سوف يرسل بكتيبة من الجند المرابطين فى نحو خمسمائة فارس فى أول شهر اكتوبر، وقال لهم القاضى أنه يطلب منا تسهيل دخولهم للمدينة .. وأن يرافقهم مجموعة من رجالنا، ليعبروا الأسوار، لأنه لو كانت الأبواب موصدة فإن ذلك يحتاج إلى تجهيزات أخرى، وترتيبات أكبر ..

ثم قال لهم القاضى ابن جحاف إن القائد المرابطى ذكر لى فى الرسالة أن تحرك قوات المرابطين إلى بالنسيه يأتى بمبادرة منه شخصياً (أى القائد ابن عائشة) وبدون أوامر من أمير المسلمين يوسف بن تاشفين .. وأنه يفعل ذلك حتى ينتهز الفرصة، حتى لا يندم على ذلك أحد إن لم يستطع أن يغيث المدينة فى الوقت المناسب ..!

ثم أخبر القاضى الحاضرين أنه يعلم (أى القاضى ابن جحاف) بأن هناك من يتتبع أخباره ويراقبه، فقرر أن يزداد حيطة فى كل أعماله وتحركاته، ونبه كل من يعمل معه سواء رفاقه من رجال المدينة أو رجال جند الله، بأنه يجب عليهم تغيير أماكن اللقاء، والتنكر فى الملبس، وتضليل القائمين على المراقبة وقرر القاضى القبض على العسكر المكلفين بمراقبته واستجوابهم ..

تم تقسيم جند الله إلى مجموعات قتال وأخرى لتأمين القاضى وكبار رجال جند الله آمثال الشيخ التاكرنى، والشيخ أحمد البتى، والشيخ أبو بكر (ابن المعلم)، ومجموعة أخرى لتتبع رجال الملك المكلفين بمراقبة القاضى، وذلك للقبض عليهم واستجوابهم منعاً لوصول أى أخبار للملك قد تؤدى إلى إفشال خطة استقدام قوات المرابطين ..

تم تكليف جاسر أن يتنكر فى ملابسه ومن معه ليقوم هو بمهام القبض على من يتتبعوه، ومن يراقبون القاضى .. أى أن تكون المبادرة من جاسر لا أن يتهرب هو من العسكر ويفقد بذلك جند الله عنصراً مهماً من عناصره ..

وبسهولة قام جاسر والمجموعة التى معه بالقبض على العسكر المتواجدين فى موقع عمله عند سوق الأسماك وكذلك الموجودين فى منطقة عمله بالبحيرة خارج أسوار المدينة .. كما تم القبض على الأفراد الموجودين حول دار القاضى بصفة دائمة فى الأيام الأخيرة ..

بعد عمليات الاستجواب تأكد القاضى من أن المسئول عن مراقبته هو نائب الملك ابن الفرج، وبتكليف مباشر من الملك ..

ثم قام القاضى بالإفراج عن العسكر التابعين للحراسة والأمن، التابعين للملك، من دون أن يدرك العسكر من هم هؤلاء الأشخاص الذين قبضوا عليهم وقاموا بإستجوابهم .. وعاد العسكر إلى ابن الفرج فقصوا عليه ما حدث لهم ..

أدرك الملك أن القاضى مدعم برجال أقوياء منظمين، ولابد أنهم من رجال المرابطين من داخل المدينة يمهدون الأمر لقدوم القوات المرابطية للسيطرة على المدينة .. والاستيلاء على الحكم، وعزله منه ..

شعر الملك القادر بالرهبة والخوف من المصير الذى يمكن أن يلقاه على يد المرابطين إذا ما نجحت خطتهم واستولوا على الحكم .. وما جرى فى بلاد أشبيلية، وقرطبة، وألميرية، ومرسيه .. ليس ببعيد ..

لم ينتظر الملك القادر بالله طويلاً بعد ما وصله من أخبار حول القاضى ومن يتبعه من رجال .. فأرسل لتوه رسالة استعجال للسيد .. رودريجو، الموجود فى سرقسطة، وحكى له ما يقوم به المرابطون، ورجالهم داخل المدينة القاضى بن جحاف، وطلب من السيد .. رودريجو القدوم على وجه السرعة إلى بالنسيه لنجدتها ..

وصلت المواجهة السرية بين الملك القادر وأتباعه من جهة، وقاضى القضاة وحلفائه من جهة أخرى، مداها .. وطلب الملك من الأمير أبو عبد الرحمن بن طاهر (أمير إمارة مرسيه السابق)، والقاضى أبو الوليد الوقشى، وهما على علاقة طيبة مع القاضى أن يمنعوا القاضى من الاتصال بالمرابطين ..

التقى القاضى أبو الوليد الوقشى، ومعه الأمير أبو عبد الرحمن بن طاهر بالقاضى أبو أحمد بن جحاف فى مقر عمله بدار القضاء والإفتاء لمناقشته فيما قاله لهم الملك، وقد أحزنهم كثيراً أن يتواطأ ابن جحاف مع الغرباء (المرابطون) ضد ولى الأمر فى البلاد ..

بعد ترحيب القاضى برجال المدينة المقربين إلى الملك .. تحدث الأمير أبو عبد الرحمن فقال لابن جحاف:

ـ لم نرك منذ مدة يا قاضى البلاد، ولكن عزاءنا أنك مشغول بما فيه صالح أمة الإسلام أيدك الله وسدد خطاك

ـ الحمد لله على كل حال .. ومهما كان لدى من أعباء فلا يشغلنا عنك شيئاً أيها الأمير الكريم ..

ـ بارك الله فيك أيها القاضى ... ثم سكت قليلاً فتدخل فى الحديث القاضى أبو الوليد الوقشى فقال:

ـ يا أبا أحمد .. لقد التقينا مع ولى أمرنا (يقصد الملك القادر) وقد بيّن لنا أموراً لا تصح جرت منك فى حقه .. وقد طلبنا منه أن ينتظر حتى نلقاك فننقل عنك ما ترد به على ما قاله فيك ... فقال القاضى أبو أحمد بن جحاف:

ـ وماذا قال عنى ولى الأمر ..؟

ـ لقد قال إنك قد خرجت عن طاعته، وتحالفت مع أعدائه من المرابطين .. وأنت بذلك تعصى الله ورسوله ..

ـ أعصى الله ورسوله حينما يكون لى علاقة طيبة برجال الاسلام من المرابطين .. وأكون بذلك قد خرجت عن طاعة ولى الأمر.. ومنذ متى كان المرابطون أعداء وكان رجال الحامية الأجنبية من القشتاليين أصدقاء وحلفاء..؟..

ـ يجب طاعة ولى الأمر .. وإن طلب منا ألا نعاهد أو نكاتب من هم أعداؤه فيجب علينا طاعته، وإلا كنا خارجين عن طاعة الله ورسوله كما جاء فى كتاب الله حينما قال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ (١) ... فسكت القاضى أبو الوليد الوقشى ليرد عليه القاضى ابن جحاف فقال:

ـ أكمل الآية يا قاضينا الجليل ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ .. لقد فسر لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فقال ﷺ السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة (٢)

فقال الأمير أبو عبد الرحمن مندهشاً، والقاضى أبو الوليد مؤيداً له فى الدهشة وما يقوله من كلام ..

ـ سورة النساء ـ الآية ٥٩.

ـ عن أبى داوود عن مسدد عن يحيى عن عبيد الله عن نافع عن عبد الله بن عمر عن رسول الله .

ـ ماذا تقول يا أبا أحمد .. ولى أمرنا يأمرنا بمعصية الله .. لا قوة إلا بالله .. هذا افتراء وتطاول لا يجوز لك أن تخوض فيه، وإلا أصبحت متمرداً عاصياً كما يقول الملك القادر بالله .. ولىّ أمرنا

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .. أريد أن أسألكم سؤالاً تجيبونى عليه.. ما رأيكم فى أمير (يقصد الملك القادر بالله) يطلب من رعيته الخروج عن دين الله، والكفر به..؟ .... فسكت الأمير أبو عبد الرحمن، والقاضى الوقشى قليلاً ثم قال أبو عبد الرحمن:

ـ .. ولكن الأمير لم يـ .... فقاطعه القاضى وأكمل حديثه متسائلاً:

ـ وما رأيكم فى ولى الأمر الذى يعاهد الكافر، ليتحالف معه فى مواجهة مسلم يقول لا إله إلا الله..؟ ... يسكت الجميع وتكتنفهم الدهشة ولا يتكلمون ... فيواصل القاضى حديثه قائلاً:

ـ إن هذا الرجل الذى تتحدثون عنه كولى أمرنا .. لا يتقى الله ربه، وقد سكتنا عليه فجر البلاد إلى ما لا يحب الله ولا يُرضِى رسوله الكريم .. فلقد تحالف مع الكفار وهم من أتوا به إلى هنا، حاكماً للبلاد على أسنة الرماح، دون أن يبايعه الشعب على ذلك .. ثم رضى بهم أن يكونوا شوكة فى ظهر الشعب يعيثوا فسادا فى المدينة ينتهكون الحرمات، ويعتدون على النساء ويغتصبونهن (يقصد واقعة اغتصاب الجاريتين) ولم يحرك ساكناً .. ثم ها هو الآن يستنجد بالكافر المدعو رودريجو لكى يأتى إلى بالنسيه بقواته ليحميها ممن يعتبرونهم أعداء وهم مسلمون موحدون بالله مثله .. فهو يقبل أن تكون البلاد دار كفر فى يد أعداء الله من أن تكون داراً للإسلام فى يد غيره .... فيرد أبو عبد الرحمن

ـ ومن قال لك أنه قد طلب العون من رودريجو

ـ إسألوه فإن أنكر فسوف ترون بأعينكم أعداء الله يعيثون فى ديارنا وينقلوها إلى دار فساد وإفساد .. هذا الذى تدافعون عنه هو من حول طليطلة قلعة الإسلام دارا وعاصمة للكفر والشرك بالله .. أليس هو من سلمها لألفونسو كبير الكفار المشركين .. إن كنتم قد نسيتم فأنا سوف أذكركم .. انتظروا لحظة ...

ثم تركهم وفتح باب الغرفة ونادى على الحارس الواقف بجوارها لحراستها ، قائلاً له ارسل إلى آل الحديدى المنتظرين لقائى لكى يأتوا إلىّ ..

فلما حضر مجموعة من الرجال وعددهم نحو خمسة أدخلهم الغرفة وقال لهم:

- من أين أتيتم ..؟ ... فقالوا له وهم ينظرون لبعضهم البعض :

- لقد أتينا من طليطلة

- هل تصلون فى جامعها الكبير .. أقصد المسجد الجامع متى صليتم به آخر مرة ..؟

لم نصل فيه نحن ولا أحد غيرنا منذ نحو سبع سنوات، فلقد حوله الكافر الفونسو إلى كنيسة، وهُدِمَت معظم المساجد، أو غيرت ملامحها وأصبح الباقى منها كنائس ..

فابتسم القاضى ابن جحاف ابتسامة صفراء ذات معنى، ووجه كلامه لهؤلاء الرجال القادمين من طليطلة شكراً لكم انتظرونى فى الغرفة الملحقة سوف أطلبكم للقائكم .... فغادروا الغرفة، وأغلق القاضى الباب وواصل حديثه فقال:

ما رأيكم يا رجال الإسلام.. يا من لديكم النخوة والغيرة على الإسلام والمسلمين.. ألم يكن الملك القادر هو من سلم طليطلة لالفونسو..؟ .. هل أنتم على استعداد أن يتنَصر غالبية أهل بالنسيه .. ؟ أجيبونى وأريحونى رحمكم الله ... فيقول الأمير أبو عبد الرحمن:

- ولكنى أشك أن يكون الملك قد طلب مساعدة ردريجو أو أن يسمح لهم بدخول بالنسيه ..

- ليس لديه القدرة إذا ما جاءوا إلى هنا أن يسمح لهم أو لا يسمح .. وقد رأيتم من قبل كيف لم يستطع أن يفرض رأيه وسلطته على قائد جند الحامية وعساكرها العلوج، ولم يستطع أن يمنعهم من العيث فى شوارع المدينة .... فيقول له القاضى ابو الوليد:

ـ اسمع يا أبا أحمد لم لا تترك الأمر لأولى الأمر فهم مسئولون أمام الله .. فلا تقحم نفسك فيما ليس لك به شأن والعقاب يلحق من كان مسئولاً أمام الله، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم [من رأى من أميره شيئاً فكرهه فليصبر، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية] كما قال [من خلع يداً من طاعة لقى الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس فى عنقه بيعة .. مات ميتة جاهلية] (١) ..

ـ كما ذكرت لك إنما الطاعة فى غير معصية الله، والكفر بالله معصية للخالق وقد روى أن الرسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية مقاتلة، واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، فلما خرجوا وجدّ عليهم فى شىء، قال: فقال لهم: أليس قد أمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تطيعونى ؟ قالوا: بلى . قال: اجمعوا لى حطبا، ثم دعا بنار فأضرمها فيه، ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنها، قال: فهم القوم أن يدخلوها قال: فقال لهم شاب منهم: إنما فررتم إلى رسول الله من النار، فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها، قال: فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال لهم لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً، إنما الطاعة فى المعروف..

فسكت الأمير أبو عبد الرحمن، والقاضى الوقشى، فتابع القاضى حديثه فقال

ـ وقد قال الله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٢) وقد حدث ذات يوم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «لا تستضيئوا بنار المشركين» فلم يدروا ما هو، فأتوا الحسن فقال الحسن: لا تستضيئوا بنار المشركين" يقول: لا تستشيروا المشركين فى أموركم. ثم قال الحسن: تصديق ذلك فى كتاب الله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم﴾ (٣) والاستضاءة بنار المشركين، فمعناه لا تقاربونهم فى المنازل بحيث تكونون معهم فى بلادهم، بل تباعدوا منهم، وهاجروا من بلادهم،

---

(١) رواه مسلم عن ابن العباس رضي الله عنهما.

(٢) سورة آل عمران ـ الآية ١١٨ .

(٣) سورة آل عمران ـ الآية ١١٨ .

ولهذا روى أبو داود لا تتراءى ناراهما وفى الحديث الاخرة من جامع المشرك أو سكن معه فهو مثله.. فسكت الأمير آبو عبد الرحمن، والقاضى الوقشى قليلاً ثم قال الأمير متسائلاً:

ـ وماذا نقول للملك إذن

ـ قولوا له .. القاضى يقول لك اتق الله فى نفسك وشعبك وأمة الاسلام ..

فلما لما يجدا ما يقولاه إزاء إصرار القاضى على رأيه إستأذناه فى الانصراف .. فحياهم، وانصرفا وهما لا يجدان ما يقولاه بعد ذلك للملك ..

وفى المساء من نفس الليلة التقى الملك بكل من الأمير أبو عبد الرحمن، والقاضى الوقشى، فى حضور ابن الفرج نائبه، وابن عبدوس المسئول عن بيت المال والضرائب بالمملكة .. فقصا على الملك ما دار بينهما وبين القاضى بالتفصيل دون حذف أو زياده .. فما زاده ما سمعه منهما إلا خوفاً وجزعاً .. تبينه الحاضرون من كلماته وهو يحدثهم، ومن ارتجاف يديه وهو يحركها، ورعشة جفنيه وقد زاغ بصره ..

فكانت كلمات الوزير ابن الفرج بمثابة طوق النجاة قد ألقى له وهو يغرق فى بحر الخوف والفزع .. فالتقطت أذناه ما يقوله ابن الفرج

فليأذن لى مولاى، بأن أقوم بما يمليه علىّ ضميرى لحفظ النظام، وحماية الملك.. ولى أمر البلاد..

فهز الملك رأسه موافقاً على ما قاله ابن الفرج .. وانصرف الجميع تاركين الملك يهيم على وجهه، خائفاً على نفسه وأهله من مصير لا يعلمه إلا الله ..

قبل شهر رمضان ٤٨٥ هجرية فى الأسبوع الأخير من سبتمبر ١٠٩٢عاد جاسر ومعه مجموعة من جند الله، إلى منطقة شاطبة وقابل القائد المرابطى ابن عائشة للمرة الثالثة .. حيث جاء جاسر هذه المرة ليصطحب القوات المرابطية إلى بالنسيه ..

ومكث جاسر فى معسكر الجيش المرابطى حيث يتم تجهيز سرايا من الجند للتقدم إلى بالنسية لتدعيم القاضى ابن جحاف .. وأمضى أسبوعين يحتفل فيهما مع القوات المرابطية بقدوم شهر رمضان ..

بعد منتصف شهر أكتوبر بقليل وعلى رأس قوة من ثلاثمائة فارس مرابطى تقدم القائد المرابطى أبو ناصر ومعه جاسر ورفاقه من جند الله صوب مدينة بالنسية مخترقين حدود المملكة الجنوبية، وعبرت القوات نهر شقر عند بلدة الجزيرة ..

ثم تقدمت شرق جبال بالنسية ومنها شمالاً حتى أضحت على مسافة نحو خمسة عشر كيلو متراً جنوب المدينة .. وقرر القائد أبو ناصر إقامة معسكر للقوات هناك ليؤكد جاسر مع رفاقه بالمدينة امر دخول القوات المرابطية ..

تسلل جاسر إلى المدينة فى الصباح، ومعه رفاقه، ودخلوا إلى المدينة ضمن جموع الناس الخارجين والداخلين إلى المدينة لقضاء حوائجهم من البيع والشراء، وغير ذلك من الأمور العادية .. ثم توجه إلى المكان السرى الذى حدد أخيراً ليكون مكاناً آمناً يستطيع أن يلتقى فيه مع القاضى ..

وصل جاسر إلى مكان اللقاء، ففوجئ برجال من جند الله يخبروه بأن القاضى ابن جحاف قد اختفى منذ ثلاثة أيام ولا يعلم أحد أين ذهب، وهناك من يقول إن ابن الفرج قد أرسل للقاضى من يقبض عليه وعلى الجند القائمين على حراسته سراً دون أن يدرى أحد، وذلك قبل الفجر منذ ثلاثة أيام .. ومن يومها لا يراه أحد لا فى دار القضاء، ولا فى منزله ولا فى أى مكان آخر فى المدينة ..

استطاع جاسر أن يدبر لقاء يجمعه مع صديقه سالم .. واتفقا على مكان يلتقيان فيه سراً بعد أن يضما إليهما حشداً من رجال جند الله للعمل جهراً فى مواجهة رجال العسكر من الجند التابعين لابن الفرج نائب الملك ..

وقفت فرقة من جند الله بعيداً عن الأعين بجوار المسجد الجامع للمدينة .. وبعد صلاة العشاء التقى جاسر وسالم بالشيخ أبو بكر (ابن المعلم) وتحدثوا سراً فى أمر اختفاء القاضى .. وقال لهم الشيخ وقد امتلأت ملامح وجهه بالخوف والجزع

ـ ماذا تفعلان هنا ألا تعلمان أننى مراقب .... فقال له جاسر:

- لا تقلق يا شيخنا فنحن لدينا بالخارج رجال جاءوا لحمايتك، ولكى نتحرك، ونبحث عن القاضى

- ولكن عسكر المدينة لن يتركوكم

- سوف نتصدى لهم لا تقلق وقل لنا هل لديك أى معلومات عن الأماكن التى يمكن أن يتواجد فيه القاضى .. والشيخان التاكرنى والبتى ..

- أظن أنهم قد يكونوا بالسجن الموجود بالمنطقة المسورة لقصر الملك خارج نطاق أسوار المدينة، وداخل نطاق أسوار قصر الملك بضاحية بلا نوبه

- إذن لابد من حشد المزيد من الجند، وتحريض الجماهير على الملك لأنها لا تعلم شيئاً عما دبره الملك من أجل القبض على القاضى .. وسوف تأتى معنا الآن حتى ندبر لك مكاناً آمناً

- حسناً هيا بنا نغادر هذا المكان قبل أن يأتى عسكر ابن الفرج

وما كاد الشيخ ينطق بذلك حتى تقدمت مجموعة من عسكر المدينة التابعين لنائب الملك وحاصرت جاسر وسالم والشيخ لقيادتهم إلى الحبس ..

فتقدم نحوهم جاسر وسالم وقد أخرجا سيفهما من جرابيهما فى مواجهة العسكر، وما أن بدأ القتال حتى فوجئ العسكر بقوة ملثمة باللباس الأسود والبرانس السوداء تحيط بهم وتطالبهم بتسليم اسلحتهم ..

وما هى إلا لحظات حتى لاحظ العسكر توافد جماعات أخرى ملثمة وبنفس اللباس الأسود والبرانس السوداء تحيط بالميدان الكبير للمسجد الجامع فى قلب الحى المسمى بالمدينة الجديدة وتسيطر على منافذه ..

سلّم عسكر المدينة أسلحتهم وتم تقييدهم وتم ترحيلهم من المكان بسرعة، كما تم ترحيل الشيخ أبو بكر مؤقتاً إلى مكان آمن بعيداً عن الخطر ..

وأعطى جاسر أوامره للقوة الموجودة بالميدان امام المسجد الجامع بالانصراف لتشكيل مجموعات تكون مهمتها استدعاء قوات جند الله من بيوتهم وتحديد

أماكن لتجمعهم تحت قيادة قادة الفصائل المعروفين لديهم وبالتنسيق معهم .. حيث تسلم «سالم» القيادة العامة لكل هذه التشكيلات وتوجيهها وإصدار الأوامر لها ..

عند صلاة الفجر .. سيطرت مجموعات جند الله على الأماكن الرئيسية بالمدينة وتم القبض على كل العسكر التابعين للملك القادر وتجريدهم من السلاح وترحيلهم إلى أماكن المخافر الموجودة بأحياء المدينة لحفظ النظام، حيث أطلق سراح جميع المساجين، وتم إدخال قوات العسكر بدلاً منهم حتى يتثنى لقوات جند الله السيطرة على المدينة ..

وفى نفس الوقت وفى حراسة جند الله .. وقف الشيخ أبو بكر أمام ساحة المسجد الجامع بعد صلاة الفجر فى العشرة الأخيرة من رمضان، وأخذ يتحدث إلى الناس عن وجوب إنقاذ القاضى ابن جحاف من براثن جند الملك الذين قبضوا عليه ظلماً وجوراً ..

وبدآ الناس يتجمعون حول الشيخ الذى يُجِلونه، ويحظى بَاحترامهم، وقد آدهشهم ما يقوله لهم الشيخ .. وشيئاً فشيئاً تجمع الناس بكثرة حتى امتلأت الساحة الكبيرة أمام المسجد الجامع بهم، وترك الكثير منهم أعمالهم، وتجارتهم وقد دب فيهم الحماس وبدأوا يرددون الشعارات الحماسية والمقولات المأثورة ..

ومع شروق الشمس، أشار لهم الشيخ بالتحرك للإفراج عن القاضى .. وسار الشيخ مرفوعاً على الأعناق ومن خلفه حشود الجماهير متجهين نحو أسوار قصر الملك بضاحية بلا نوبه وأخذت الجماهير تصيح وتنادى وتطالب بالإفراج عن القاضى ابن جحاف فوراً ..

فى هذه الأثناء خط جاسر رسالة إلى القائد المرابطى أبو ناصر .. المعسكر بقواته إلى الجنوب من بالنسية يطلب منه التحرك بالقوات للقدوم إلى المدينة للعبور من أبوابها الجنوبية والشرقية، وبعث بالرسالة مع أحد مساعديه ممن كانوا يرافقوه فى مأموريته للقاء قادة القوات المرابطية..

احتشدت الجماهير بكثرة أمام بوابات الأسوار المحيطة بقصر الملك القادر بالله مطالبة بالإفراج عن القاضى، حيث منعها الحرس الملكى بالقوة من اختراق الأبواب، وتجمعت القوات الملكية خلف الأسوار خشية اقتحام الجماهير للأبواب، وعولوا على انصراف الناس عند اقتراب المغرب للذهاب إلى بيوتهم للإفطار ..

ولكن بقى الكثير من الناس محتشدين طوال اليوم، وحتى غروب الشمس، حيث أفطر الكثير منهم على القليل من التمر، ومن أمام الأسوار أخذوا يرددون الهتافات ضد الملك، وابن الفرج ويطالبون بالإفراج عن القاضى ..

بداخل القصر اجتمع الملك مع ابن الفرج، وابن عبدوس يبحث معهما الأمور المتدهورة، وكيفية تهدئة الأوضاع .. حيث اقترح عليه ابن عبدوس بضرورة الإفراج فوراً عن القاضى ومن معه من الشيوخ، حتى تهدأ الأوضاع ليتم السيطرة عليها إلى أن يأتى السيد .. رودريجو إلى المدينة بقواته، وعندها سوف يخشاهم الناس، فيلزمون بيوتهم ويسود النظام والهدوء بكل أرجاء المدينة ..

فى صباح اليوم التالى، تم الإفراج عن القاضيإبن جحاف ورفاقه بعد أن أخذ عليهم ابن الفرج عهداً بعدم إثارة الفوضى وسحب الرجال الملثمين من شوارع المدينة ..

تظاهر القاضى ورفاقه بالموافقة وأرسل بذلك إلى جاسر من داخل سجنه حيث سُمح للقاضى بأن يبعث برسول من السجن إلى رجاله ينقل طلباته بسحب الحرس الملثم الموجودين بشوارع المدينة .. وبذلك تم إخراجهم من السجن الذى كانوا محبوسين فيه، مع تعهد الملك بعدم ملاحقة القاضى وأعوانه ..

وما أن شاهده الناس وهو يخرج من أحد أبواب سور القصر بضاحية بلا نوبه حتى اشتعلت الصدور بالحماس، ورفعت الجماهير القاضى فوق الأعناق، وطافوا به المدينة حتى مقر دار القضاء والإفتاء، حيث وقف القاضى أمام الدار وألقى خطبة فى الناس يحثهم فيها على الدفاع عن المدينة، والتصدى لأعداء البلاد من الأسبان وأتباعهم من العملاء المسلمين الذين ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا مطية يركبها الأعداء لينالوا من عزيمة الشعوب المسلمة ..

ودعى القاضى الجماهير بالثورة فى وجه أى حاكم يسمح بتواجد الجند الآجانب الغرباء داخل مدن وديار المسلمين وقال:

« ..لا يلاطف المسلمون الكفار .. ولا يتخذونهم أولياء أو قادة ، ولا يجوز لولى الأمر آن يستعين بأى منهم فى أى أمر من الأمور .. بل المشورة والاستعانة تكون من خلال المسلمين فقط ..

ومن يفعل غير ذلك فليسوا من الله فى شئ وهؤلاء ليسوا من حزب الله، وليسوا أولياء لله .. ولا تجوز لهم ولاية الأمر للمسلمين ..»

ثم واصل القاضى حديثه للناس وهم منصتون له فقال :

.. ولقد حذرنا الله سبحانه فقال فى الأية الكريمة ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾[1] .. أى أن الله يحذر أمة الإسلام من آن تتقاعس عن طاعته، وتنفيذ ما جاء فى قرآنه ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ [2].. أى أن الله يحذركم من عقابه .. وعقاب الله إما فى الدنيا أو فى الآخرة يوم البعث ..

فيا آهل بالنسيه .. خذوا أمركم بأيديكم .. واعملوا ما تمليه عليكم ضمائركم، واتقوا الله يجعل لكم مخرجاً .. وقريباً تأتى لنا رايات الإسلام مع رجال عاهدوا الله على أن ينصروه فنصرهم الله .. وهم آتون إلينا فمدوا أيديكم إليهم ليعزنا الله بالنصر المبين على أعداء الدين ..

ثم أنهى القاضى حديثه إلى الناس، وحياهم ورحل من مكان دار القضاء والإفتاء ليجتمع مع رجاله من كبار أهل المدينة، ورجال جند الله للبحث فى مستقبل البلاد ..

فى هذه الأثناء وصل خطاب جاسر إلى القائد المرابطى أبو ناصر .. فتحرك بقواته صوب مدينة بالنسيه لنصرة قاضى المدينة ورفاقه من جند الله ..

---

١ ـ سورة آل عمران — الآية ٢٨

٢ ـ سورة آل عمران ـ الآية ٢٨ .

وفى مكان آمن اجتمع القاضى مع حلفائه، ومع رجاله من جند الله، وسلم على جاسر وسالم ورفاقهم وأثنى عليهم حسن تصرفهم فى هذا الوقت العصيب.. وسعد القاضى مما أظهره الرجال من جرأة، وقدرتهم على التصدى لعسكر الملك العاملين تحت قيادة ابن الفرج ..

وأخبر جاسر القاضى بأنه قد بعث لقائد المرابطين ليسرع بالقدوم، بعد أن توقف بقواته على مسافة قريبة من بالنسيه ليستطلع الأمر وليتأكد من سير الخطة على النحو المتفق عليه .. وبدأ القاضى يعد العدة لقدوم المرابطين ..

كان القاضى يعتريه القلق من سيطرة العسكر على الأسوار بعد انسحاب جند الله من شوارع المدينة .. فحاول القاضى آن يستميل بعضهم عن طريق بعث أتباعه ممن لهم علاقة ببعض قادة العسكر العاملين على أبواب المدينة الجنوبية والشرقية ..

ولكن المحاولة لم تؤت ثمارها .. حيث تردد الكثير منهم فى الانصياع لأوامر القاضى بعد أن شدد ابن الفرج الحراسات على أبواب المدينة، وقام بنفسه بنوبات التفتيش على الأسوار والأبواب بقوة حراسة مرافقة له من الحرس الملكى شديدو الولاء للملك ..

قرر القاضى الاستعانة بجند الله فى السيطرة على الأبواب عند قدوم المرابطين إذا لم ينضم العسكر إلى الشعب فى المطالبة بدخول المرابطين إلى المدينة ..

وفى هذه الأثناء أرسل الملك القادر رسالة استغاثة ثانية إلى رودريجو فى سرقسطة يستحثه على سرعة القدوم إلى بالنسيه ..

فرد رودريجو على الرسالة بأنه قادم فوراً بقواته لنجدته .. وبعد أيام بدأ تحرك جيش السيد من أراضى سرقسطة بعد أن ترك جزءًا صغيرًا من قواته تحت إمرة الملك المستعين بالقرب من بلدة وشقة لتأمينها من أطماع ملك أرجون..

وخلال ذلك، وانتظاراً لقدوم المرابطين التقى القاضى مرة أخرى مع رجال أسرة آل الحديدى [1] القادمين من طليطلة .. ودارت بينه وبينهم مناقشات طويلة لم يطلع أحدًا عليها، ولم يدر أحد ممن حول القاضى من هم هؤلاء الرجال ولا من أين أتوا إلا الشيخ ابن أبى عامر التاكرنى، والشيخ أحمد عبد الولى البتى..

---

(١) هم أقارب الوزير المعروف أبو بكر بن الحديدى .. وكان يعمل مستشاراً فى بلاط الملك المأمون جد الملك القادر بالله .. وأوصى الملك المأمون ببقاء الوزير الحديدى مستشاراً فى الحكم من بعده ليكون عضداً لحفيده عند توليه الحكم ، حيث كان ما زال صبياً لم يبلغ السادسة عشرة .. فلما مات الملك المأمون فجأة تولى الحكم حفيده الملك القادر ، وسرعان ما ضجر من الوزير الذى كان يستخف به ، وقيد تصرفاته أثناء فترة الوصاية .. فحرضته مجموعة من الفاسدين على التخلص من الوزير وتدبير مكيدة له لاغتياله .. ونجحت المكيدة .. وتوسل الوزير للملك الصبى لكى ينجده من القتل ، إلا أن الملك لم يحميه وترك خصومه يقتلونه بقسوة أمام عينيه دون أن يراعى ما قدمه الوزير له ولجده الملك المأمون من خدمات ، فلقى الوزير حتفه فى ميتة شنيعة ثار لها الشعب فى طليطلة حيث كانوا يحبون الوزير ، ويجلوه كثيراً ..

القِصاص .. !

لم يدم شعور رضوى بالسعادة والهناء إلا لأسابيع قليلة من بعد زواجها من جاسر ..

فقد عاشت رضوى مع زوجها شهراً واحداً هنيئاً سعدت فيه بتواجده معها فى أوقات الراحة ما بين الظهر وحتى صلاة المغرب، حيث يغيب عنها بعد ذلك حتى ما بعد صلاة العشاء بقليل ..

ثم يعود بعدها مسرعاً إلى الدار ليهنأ مع زوجته ببعض ساعات الراحة حتى قبل الفجر بنصف ساعة، حيث يخرج زوجها مبتدأ يومه بصلاة الفجر فى مسجد رحبة القاضى القريب من الدار، ثم يذهب إلى عمله خارج المدينة عند شاطئ البحيرة، ليقوم بالعمل الذى كان يقوم به والده قبل وفاته .. بينما حل محله فى العمل داخل المدينة من بعد الضحى وحتى ما بعد صلاة الظهر أخوه قاسم .. حيث تقاسما العمل بينهما ..

ومنذ شهر أغسطس اضطربت أحوال جاسر فلم يعد ينتظم فى عمله، ولم يعد يتواجد فى منزله لفترات طويلة، بل إنه تغيب بحجة العمل لأيام طويلة خارج المدينة، وهى الفترة التى كان يُكلف فيها بمهام من قبل قاضى المدينة دون أن تدرى هى بذلك ..

لم تكن رضوى تعلم بما يقوم به زوجها من أعمال تطوعية خطيرة، ولم تكن على دراية بالمكانة التى كان عليها زوجها داخل التنظيم السرى المسمى بجند الله .. هذا التنظيم الذى كان يتحدث عنه الناس سراً بإعجاب وتفاخر.. كان زوجها أحد قادة هذا التنظيم دون أن تدرى ..

وبتصاعد الأحداث خلال شهر أكتوبر، وما حدث من مواجهات علنية ما بين جند الله وعسكر المدينة .. عرف الناس بعض رجال هذا التنظيم، وكان جاسر وسالم من بين هؤلاء الرجال .. وفجأة وجدت رضوى ونائلة نفسيهما، مع زوجيهما فى أتون الأحداث التى تمر بها بالنسية ..

هدأت نفس رضوى، ونائلة تجاه رجليهما اللذين تحملا غضبهما وقنوطهما بنفس راضية ولفترة طويلة، وذلك فى سبيل مصلحة أعلى وأهم من مصالحهما الشخصية، وهى مصلحة البلاد .. ومن أجل حماية شعبهما فى مدينة بالنسية من الأخطار التى تحيط به ..

سرت بين جموع الناس داخل بالنسية أخبار اقتراب جيش المرابطين من المدينة، فتأججت النفوس بمشاعر الفرحة، وزاد من إحساسهم بالسعادة، أنهم كانوا فى شهر الصيام حيث تسمو فيه النفوس، وتتضرع القلوب إلى الله راجية منه آن يأتى بالفرج من عنده، بعد أن تملكهم اليأس لسنوات عجاف زادت عن السبع منذ تسلم القادر بالله حكم المملكة فى فبراير ١٠٨٦ ميلادية ..

وفى القصر كانت مشاعر الخوف تزداد لدى الملك القادر بالله، ولم يقلل منها ما كان يحاول أن يبثه ابن الفرج للملك من أنباء عن سيطرته على الأوضاع فى المدينة وتأمين الأسوار، ودور الحكم والدواوين، وغير ذلك من المبانى والمنشآت التابعة لسلطة الحكم فى المملكة ..

وبدآ القادر بالله يعد نفسه لأى أحوال طارئة قد تحدث بالمدينة، فجمع أمواله وجواهره التى ورثها عن جده الملك المأمون، حيث كان قد حملها معه عند رحيله من طليطلة ..

وطلب الملك من زوجته الملكة زبيدة أن تعد نفسها للهروب معه إذا ما تعرض للخيانة وتمكن المرابطون من دخول المدينة ..

بعد غروب الشمس بساعة فى يوم الثامن والعشرين من أكتوبر (٢٥ رمضان ٤٨٥ هجرية) تردد صدى صوت الأبواق النحاسية التى أطلقها عسكر الحراسة على الأسوار ينذرون الناس باقتراب الأعداء من الأسوار بخيولهم وعتادهم ..

ساد الهرج بين الناس وخرجوا من بيوتهم وقد اعتقدوا فى أول الأمر أن جيش من جيوش الأعداء الأسبان قد قدم إلى المدينة يحاول اختراق أسوارها .. لكن سرعان ما أدرك الجميع أن الجيش المرابطى قد وصلت طلائعه إلى أسوار المدينة ..

على الفور تحرك رجال جند الله التابعون للقاضى ابن جحاف، حيث كانوا ينتظرون هذه اللحظة منذ وقت طويل واتجهوا إلى حيث البوابة الجنوبية للمدينة، وكذا البوابة الشرقية المقابلة للبحيرة الكبرى ناحية ساحل البحر ..

وذلك لمحاولة إقناع قادة العسكر، بفتح الأبواب للقوات المرابطية .. وهو ما رفضه بشدة قادة الحرس، وهددوا من يقترب من الجماهير بالقبض عليه والتعرض للإيذاء والقتل إذا ما دعت الضرورة لذلك ..

وقفت القوات المرابطية أمام الأبواب تنتظر فتحها بواسطة رجال جند الله إلا أن القائد المرابطى قد فوجى بتأخر فتحها سلماً كما قد تم إعلامه بذلك من قبل، فتراجعت القوات المرابطية للخلف قليلاً منتظرة تحرك جند الله لتنفيذ ما تم الاتفاق عليه ..

ذهب القاضى ومعه ثلة من جند الله الملثمين والمتشحين بالملابس والبرانس السوداء إلى البوابة الشرقية ومن خلفهم جمع كبير من الجماهير وهى تكبر وتنادى باسم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ..

وحاول القاضى أن يطلب من قادة العسكر فتح الأبواب سلماً إلا أنهم نهروه، وهددوه بالقتل، فتراجع القاضى ومن حوله الجماهير المحتشدة تطالب العسكر بالانسحاب من عند الأبواب وتسليمها لجند الله ..

فى هذه الأثناء تقدم ابن الفرج على رأس قوة كبيرة من عسكر المدينة ناحية القاضى ابن جحاف وخاطبه بغلظة وتوعده بالقبض عليه إن لم يبتعد هو ومن معه من جند الله عن أسوار المدينة ..

وطالبه بالامتناع عن تحريض الجماهير ضد الملك .. ولكن القاضى طالب ابن الفرج بالابتعاد وسحب عسكر المدينة اتقاءً لغضب وثورة الجماهير، التى لن توقفها اليوم أى قوة عن نيل حريتها، وعودة كرامتها ..

وسرعان ما استجابت الجماهير لنداءات التحريض من القاضى، وتزاحمت حول الأسوار من داخل المدينة .. وبدأ بعض العسكر فى التصدى للجماهير الثائرة وقد اقتربت من مواقع الحراسة، وبدأ الاشتباك بين الطرفين، وتقدم جند الله فى الأمام لحماية الجماهير، وتصدوا للعسكر، وانضمت لهم بعض الجماهير وقد رفعوا العصى والسلاح المتاح لديهم وبدءوا فى ضرب العسكر وقذفهم بالحجارة ..

وفى هذه اللحظات تقدمت مجموعة من رجال جند الله تحمل الحبال، وألقت بها من على الأسوار، وصاح سالم قائد هذه المجموعة مطالباً قوات المرابطين بالتقدم نحو الأسوار وتسلقها ..

بقى القائد المرابطى لفترة متردداً خشية تعرض قواته للضرب بالسهام، أو محاصرتها إن هى اقتربت من الأسوار بطريقة غير مأمونة .. ومع تعالى الصيحات من الجماهير وصعود الكثير من جند الله على مواقع بأسوار المدينة، دفع القائد أبو ناصر مجموعة من الجند لتسلق الأسوار ..

بدأت مجموعة الجند المرابطية تسلق الأسوار بصعوبة شديدة .. بينما دارت معركة بين جند الله وعسكر الملك عند الأبواب للسيطرة عليها، ومع تزاحم الجماهير، وارتفاع أصواتها بالتكبير والتهليل خشى ابن الفرج من أن تقوم الجماهير بالفتك به إن هو وقع فى أيديهم، فأعطى أوامره للعسكر المرافق له بالتراجع للخلف، وحاول تجميعهم إلا أن الكثير من العسكر كان مشتبكا مع الجماهير، وحاول الكثير منهم الفرار إلا أن الجماهير بدأت تكتسب الثقة وتهاجم العسكر المرتد إلى الخلف ..

بدأ ابن الفرج فى التراجع مع من تبقى معه من العسكر متجهاً إلى أسوار قصر الملك ناحية ضاحية بلا نوبه إلا أن القاضى ابن جحاف أعطى أوامره إلى

الشيخ التاكرنى ليرأس مجموعة من جند الله للتحرك للحاق بابن الفرج والقبض عليه ..

تمكن سالم ومن معه من الرجال من السيطرة على الباب الشرقى، وتم فتحه للقوات المرابطية التى كان بعض رجالها ما زالوا يحاولون تسلق الأسوار .. وتقدم الفرسان المرابطين وعلى رأسهم القائد أبو ناصر، ودخلوا من باب المدينة الشرقى رافعين أعلام الجيش المرابطى ..

وسرعان ما انهارت مقاومة عسكر الحراسه على الأبواب، وقام جند الله على الفور بالتحرك للسيطرة على باقى أبواب أسوار المدينة لتأمينها فى هذا الوقت العصيب الذى عمت فيه الفوضى فى كل الأنحاء ..

استطاع ابن عبدوس المسئول عن بيت المال والمقرب من الملك.. وبما لديه من فراسة، أن يدرك أن نظام الدفاع عن المدينة قد انهار .. فى ظل عدم وجود أى قوات ذات خبرة لكى تواجه قوات المرابطين المدربة جيداً على أعمال القتال، فقرر الهرب مع أسرته تحت جنح الليل وغادر المدينة إلى منطقة الكدية خارج الأسوار وعلى مسافة كيلومترين من المدينة، ليستطلع من هناك الأخبار، ويعرف المصير الذى آل إليه الملك وأتباعه المقربون ..

وانطلقت الجماهير فى كل مكان، والتفت حول جند القوات المرابطية التى تقدمت إلى أن وصلت إلى ساحة الميدان الكبير بالمدينة الجديدة، وتم إيقاد المشاعل، واكتظت الشوارع بالناس، رغم انتصاف الليل، إلا أن الجماهير تدفقت إلى الميادين الفسيحة، وعمت الفرحة بين الناس، وكأنها تبحث منذ زمن عن نسمات الحرية ..

كان جاسر على رأس قوة من جند الله مكلفة بمحاصرة أبواب سور القصر الملكى لمنع الملك من الهروب .. وبدأ انتشار القوة على الأبواب البعيدة ناحية الشمال والغرب حيث سيلجأ لها الملك عندما يقرر الهرب ..

وصلت أنباء سقوط المدينة فى يد المرابطين إلى الملك القادر، حيث غادر القصر وبرفقته الملكة زبيدة، ومعهم بعض الحرس والخدم فى عربتين تجرهما

الخيول الملكية، وانطلق الموكب لعبور البوابة الشمالية لسور القصر، إلا أنه فوجى بالحرس الملكى يخبره آن هناك قوة من أصحاب البرانس السوداء تحاصر الأبواب من الخارج، فاضطر الملك إلى العودة للقصر ..

عاد الملك ومن معه إلى القصر، وآخذ يبحث عن وسيلة للهروب من المدينة قبل القبض عليه من قبل المرابطين، وأمر الحرس الملكى باليقظة والدفاع عن سور القصر إلى آخر رمق، وأجزل لهم العطاء من الدنانير الذهبية ..

واصل الشيخ التاكرنى مطاردة ابن الفرج ومن معه من قوات وقد حاول عبور المنطقة الفاصلة ما بين سور المدينة وأسوار القصر الملكى المتاخمة لها، وذلك لكى يهرب إلى هناك خوفاً من ثورة الجماهير ..

إلا أن الشيخ التاكرنى تمكن من اللحاق به ودارت معركة بالسيوف بين الجانبين، وسرعان ما انهار العسكر خوفاً وفزعاً من أصحاب البرانس السوداء واستسلم غالبيتهم لهم.. على الرغم من أن عدد قوة العسكر كان أكبر بكثير من عدد جند الله المطاردين لهم.. حيث تفوق جند الله عليهم بما لديهم من كفاءة قتالية عالية، وما يملكونه من إيمان قوى لهدف يعملون من أجله وهو تخليص البلاد من نير الفساد والطغيان، وبما لديهم من عزيمة وإصرار لتحقيق هذا الهدف..

واصل ابن الفرج محاولة الهروب، واقترب من سور القصر الملكى ونادى على الحراس لكى ينقذوه من مطاردة جند الله له ..

وعند أسوار القصر دارت معركة أخرى اكثر شراسة بين الحرس الملكى وجند الله وحاول ابن الفرج استغلال فرصة القتال بين الفريقين لعبور الباب الجنوبى من سور القصر المتاخم لسور المدينة، إلا أن أحد جند الله قد عاجله بضربة قاتلة .. فقصم الله ظهر الظالم (١) .. فأردته قتيلاً فى الحال وسقط مضرجاً فى دمائه .. وسرعان ما انسحب الحرس الملكى إلى خلف الأسوار، وأوصدوا الأبواب لمنع جند الله من عبورها ..

* * *

---

(١) قصم الله ظهر الظالم : أى أنزل به البلية.

انشغل القاضى ابن جحاف مع القائد أبو ناصر فى تقسيم المهام والمسئوليات بين جند الله وقوات المرابطين للسيطرة على الأوضاع فى المدينة ..

وتم الاتفاق على ان توكل لقوات المرابطين مهمة الدفاع عن الأسوار وحماية المدينة، على أن يتولى القاضى ومن معه من جند الله السيطرة على الوضع الداخلى بالمدينة مع الاستعانة ببعض العناصر من عسكر المدينة فى تسيير آمور الأمن ..

كما اتفق القاضى مع القائد المرابطى على ضرورة اقتحام أسوار القصر الملكى والقبض على الملك قبل الفرار إلى خارج المملكة واستعانته بالملك الفونسو كما حدث من قبل بعد هروبه من طليطلة أول مرة ..

مع شروق شمس الصباح تحركت مجموعات من قوة الفرسان المرابطية لاقتحام أبواب سور قصر الملك الملاصق لأبواب سور المدينة ..

قاتل الحرس الملكى باستماتة القوات المهاجمة لأسوار القصر وقذفوا القوات المهاجمة بوابل من السهام والرماح، فتقهقرت القوات للخلف للإعداد لهجوم كبير ساحق على باب القصر المتاخم لسور المدينة ..

بعد ثلاثة أيام وفى بداية شهر نوفمبر ١٠٩٢ ميلادية، قامت القوات المرابطية المدعمة بجند الله وبعض العسكر الذى انتظم حديثاً ضمن قوات المدينة التابعة للقاضى وشنت القوات هجومها الكاسح على سور المدينة، وقذفوا القوات المدافعة بكرات اللهب وصوبوا لها وابلا من السهام والرماح .. وسرعان ما انهارت الدفاعات عن الأسوار فى المكان الذى تعرض للهجوم .. حيث لم تكن الأسوار مجهزة للدفاع من ناحية الأبواب المتاخمة لأسوار المدينة..

أما باقى الأبواب الأخرى كالباب الشرقى والشمالى والغربى لسور القصر فإنها معدة جيداً لأعمال الدفاع حيث إنها على الحدود الخارجية للمدينة، فبقيت القوات المرافقة لجاسر محاصرة لها دون أن تحاول اقتحامها ..

بعد نحو ثلاث ساعات تم اقتحام باب سور القصر الملكى المتاخم لسور المدينة الداخلى، وتقدمت القوات المرابطية ومعها القائد أبو ناصر وحاصرت القصر

والمبانى الملحقة به .. بينما تحرك القاضى ابن جحاف ومعه عناصر من جند الله، ورجال عائلة الحديدى القادمون من طليطلة واقتحموا القصر الملكى ..

تم اقتحام باب القصر، ووقف الحرس الملكى وقد رفعوا أيديهم مستسلمين للقاضى ابن جحاف على رأس قوة من جند الله الملثمين، وسار القاضى كالفاتح العظيم يتلفت من حوله باحثاً عن الملك .. ثم جلس بهدوء على الكرسى الملكى بالساحة الكبرى للقصر وقد التف من حوله مجموعة من جند الله، وقال لرجال آل الحديدى .. ها قد حان وقت القِصاص .. فاقتصوا لأنفسكم ..

تقدم آل أبو بكر الحديدى ليقتصوا عن قتل الوزير الراحل حينما كان مستشاراً للملك القادر بالله فى طليطلة .. وراح الرجال يتبعهم بعض جند الله يسألون الخدم والحشم بالقصر عن الملك فلم يجيبهم أحد عن مكانه .. ثم راحوا يسألون عن مكان مخدعه، فأرشدهم أحد الخدم وسار أمامهم ليدلهم على المكان بالطابق العلوى بالقصر ..

تقدم الرجال وأيديهم على مقابض السيوف والخناجر .. بينما كل من بالقصر ترتجف فرائصهم خوفاً وجزعاً .. وصعدوا عبر السلالم حتى وصلوا إلى الطابق العلوى، وراحوا يدخلون الغرف الواحدة بعد الأخرى حتى وصلوا إلى غرفة مخدع الملك، فدخلوها وقد شرعوا السيوف فى أيديهم، فوجدوا الغرفة خالية إلا من الفرش والمتاع، وكأن الملك لم يلبث أن غادرها ..

سأل أحدهم بعض الخدم عن مكان الملك بصوت عال جهورى وهو شاهر السيف قائلاً .. أين الملك..؟ .. أين الملك..؟ وتفحص العيون الصامتة للخدم وأمسك بأحدهم وهو يرتجف وكرر قائلاً أين الملك ..؟ ثم يجذبه بشدة أكثر ويقول للخادم .. أين الخادم الخاص للملك..؟ فيقول له .. .. إنه هناك مشيراً لخادم أسود كان بالغرفة واقفاً ينظر إلى الأرض وهو يرتجف من الخوف .. كان ممن قد ساقه رجال جند الله مع من ساقوهم من الخدم والحشم إلى الطابق العلوى للبحث عن الملك ..

تقدم كبير رجال طليطلة إلى الخادم وأمسك بعنقه قائلاً وقد وضع خنجراً على رقبته:

ـ أين الملك أيها العبد القبيح ... فيجيبه الخادم وهو يبكى ويرتجف

ـ لقد كان هنا صباحاً ثم غادر الغرفة منذ ساعة يا سيدى ... (يتكلم وهو يبكى ويكاد يقبل يد الرجل الممسك برقبته)

ـ أين الحَمّامْ الذى يغتسل فيه

ـ هناك يا سيدى ... (يشير بيده وهى ترتجف إلى ممر صغير يحجبه باب من الخشب مرسوم عليه رسومات لاوراق الشجر بألوان زاهية جميلة)

يدخل الرجل ومن خلفه أتباعه الآخرون .. فيمروا من طرقة قصيرة طولها نحو ثلاثة أمتار تؤدى إلى غرفة واسعة جدرانها من القيشانى الملون الأملس، تتوسط الجدران مرايا عريضه مثبتة فى القيشانى، وفى الوسط بركة من الماء العذب محاطة بجدار يرتفع عن الأرض بنحو نصف متر له ثلاث فتحات للمرور من خلال الجدار القصير للدخول إلى البركة التى عمقها لا يزيد عن متر واحد أسفل مستوى أرضية غرفة الحمّام ..

وتغطى معظم سطح بركة الماء ببتلات الورد العطرية تطفو على سطحه .. بينما تتصاعد بقايا أبخرة تنتشر داخل غرفة الحمام مما يوحى بأن الغرفة كانت تستعمل حتى وقت قليل مضى ..

ولم يجدوا أى شىء داخل غرفة الحمام .. إلا أن أحدهم لاحظ أن أحد المرايا تميل قليلاً عن مستوى الجدار وأمامها على الأرض أثر خفيف لتراب ممزوج بالماء كأثر لحذاء ..

دفع الرجل المرايا فدارت حول نفسها كاشفة عن ممر صغير يفضى إلى غرفة أخرى صغيرة حُجب عنها الضوء .. فتقدم إلى داخل الغرفة فلم يرى شيئًا، فاستعان بأحد المشاعل فإذا به يجد شخصا جالسا على الأرض فى ركن الغرفة، وبيده صندوق متوسط الحجم يضعه على حجره ..

فتقدم الرجل ليسأل الجالس عن شخصيته فلم يجبه .. فأمسك به واخرجه من الغرفة الصغيرة إلى غرفة الحمام التى يقفون بها ..

ابتسم كبيرهم، وهو يرى الملك قد تدثر بمعطف كبير، وقد أمسك بصندوق تملأه النقوش الفضية والمذهبة، وبدا على وجهه العبوس، وتحاشى النظر إلى وجوه من أمسكوا به .. فقال له كبيرهم وهو يسحبه من أعلى المعطف الذى يرتديه ويسير به إلى ناحية البركة التى تتوسط الحمام

- مرحى .. مرحى أيها الملك المبجل .. ألا تعرفنى..؟ .... فنظر إليه الملك بطرف عينه، ولم يجبه

- الحقيقة أنت لا تعرفنى ... ولكن هل تعرف هؤلاء..؟ (مشيراً إلى باقى رجال طليطلة الذين كانوا معه بغرفة الحمام) ... فلا يرد عليه الملك بكلمة فيقول له كبيرهم:

- أقول لك أنا من هم هؤلاء .. هؤلاء يا مولاى هم خصومك الذين جاءوا إليك ليقتصوا منك، وقد انتظروا هذا اليوم منذ أكثر من عشر سنوات .. ألا تعرف الآن من هم ..؟ ... (الملك ينظر إليه مستغرباً ولا يفهم معنى كلامه) فيواصل الرجل حديثه فيقول:

- ولكن قل لى ماذا تحمل بين يديك فى هذا الصندوق ..؟ .. (فيظل الملك صامتاً) .. وفجأة يصفعه الرجل على وجهه وهو يقول:

- ألا تنطق ..

فيختل توازن القادر ويتمالك نفسه ليظل واقفاً .. بينما يصفعه الرجل ويركله بقدمه مرة أخرى، فيسقط القادر على الأرض ويسقط من يديه الصندوق المغلق بإحكام .. ويقول له الرجل:

- من المؤكد أنك لم تنس وأنت تهرب أن تحمل معك الجواهر والنفائس .. تماما كما فعلتها من قبل وأنت تسلم طليطلة لألفونسو أليس كذلك أيها الوغد الحقير..؟ ..

ويبقى القادر على الأرض لا يتكلم كلمة، وعندها يستل أحدهم خنجره ويضعه على رقبة الملك، وهو يقول له:

ـ أما زلت لم تعرفنا يا حسالة الملوك..؟ .. نحن آل وزيرك المقرب إليك أبو بكر الحديدى .. ذلك الرجل الذى حافظت على عهدك معه، وصنت وفاءه لك .. فقتلته غيلة وغدراً

ـ أنا لم أقتله ولكن قتله الأوغاد الذين كان قد وضعهم فى السجون ..

ـ ومن أسلمه لهم..؟ ... (فيتلعثم فى كلامه ويتفوه بعبارات غير مفهومة) ... ثم يواصل كلامه للقادر فيقول وهو يشير إلى الخنجر الذى بيده:

ـ آلا تريد آن نتركك تهرب وتعطينا ثمن ذلك

ـ خذوا كل ما معى

ـ وماذا معك إن الصندوق مغلق بإحكام ولا نعرف قيمة ما بداخله

ـ إنه به أموال وجواهر تجعلكم جميعاً أثرياء .. أرجوكم اتركونى لأهلى، فأنا مازلت صغيراً

ـ ولكن ما تعرضه علينا لا يساوى ظفر من قتلته ..

ـ أرجوكم أنا لم أقتله

ـ أولم يُمسك بمعطفك لكى تنجده من قاتليه الذين أخرجتهم من السجن وجلبتهم لقصرك لكى يذبحوه .. فيسكت القادر ولا يتكلم .... فيواصل الرجل حديثه قائلاً:

ـ وماذا فى يديك .. ؟ .... فينظر الملك إلى يده فيرى خاتمين من الذهب المرصع بالجوهر فيخلعها من يده ويقدمها له .... فيقول له الرجل:

ـ وماذا فى يدك أيضاً ..؟ .... فينظر الملك إلى يديه وقد فرد أصابعه العشرة فلا يرى شيئاً ليقدمه للرجل فيقول:

ـ لا يوجد شيئاً

ـ إذن اقبض أصابع يديك ... يقبضها الملك فيقول له الرجل.

- وماذا بداخلها الآن ..؟ ... فيتأملها الملك وهو يرتعش فيفتح يده ويقول للرجل

- لا يوجد شيء .. لا يوجد شيء .. انظر انظر، فأنا لا أقبض إلا على الريح

- هو ما تقول فامسك بها .. فهى آخر ما تمسكه قبل أن تدخل القبر .. أترى كل ما غنمته من ملكك عبر سنوات عمرك .. ليس سوى .. قبض الريح

- أرجوكم انـ .. فيقاطعه أحدهم ويقول له :

- إذن قبل أقدامنا جميعا

فيبكى القادر ويحاول أن يستعطفهم .. فيطعنه أحدهم فى فخذه .. فيصرخ القادر من الألم، فيتقدم آخر ويطعنه فى رقبته فيترنح القادر .. فيتقدم ثالثهم ويطعنه فى ظهره .. فيتلوى القادر وهو يصرخ ويتشنج .. فيتقدم رابعهم ويشق وجهه بالخنجر عند الصدغ، فيميل القادر للخلف ويحاول الزحف مبتعدا والدماء تسيل من كل جسده ..

ثم تقدم كبيرهم ووقف فوقه وهو ممد على الأرض، ثم وضع طرف سيفه على رقبته من أسفل الذقن، والقادر يحاول أن يثنيه، ولا يستطيع من شدة الألم بعد ما أصاب وجهه وجسده من جراح .. وفجأة يرفع كبيرهم السيف ويهوى به على رقبة الملك فتنفصل رأسه عن جسده، وتتدحرج على الأرض .. فيأخذ رمحاً من آحد جند الله ويرشقه فى الرأس ويحمله خارجاً به من الغرفة، ومن خلفه أتباعه وهم يهللون فرحين بما نالوه من قصاص لكبير عائلتهم القتيل الراحل ..

بينما مضى أحدهم وأمسك بجسد الملك الممدد على الأرض وقد فصلت رأسه، وخلع المعطف فوجد بداخل بطانته دنانير من الذهب، وجواهر مطعمة بالذهب بفصوص من الزمرد، واللؤلؤ، والياقوت، والألماس .. فحملها مع الجند إلى القاضى ابن جحاف ..

وقف القاضى ينظر إلى آل الحديدى وهم ينزلون من على درجات سلم القصر وقد رفعوا رأس الملك على رمح بينما آخران أمسكا بقميص جثة الملك المقتول

وجرا الجثة خلفهم، وهم يهللون ويكبرون، ومضوا إلى ابن جحاف وسلموه صندوق الجواهر والحلى، وكذا ما وجدوه فى معطفه .. حيث سلمها بدوره إلى الشيخ التاكرنى ليحصيها ويسجل ما تم الاستيلاء عليه ..

سار آل الحديدى فى شوارع المدينة وهم يحملون رأس الملك على الرمح، وجثته مجرورة وراءهم على الأرض .. والتفت الجماهير من حولهم مذهولة .. مبهورة .. للحظات ثم راحت الجماهير تهلل وتكبر من خلف آل الحديدى ..

وعم الضجيج فى أنحاء المدينة .. وتوافد الناس إلى الشارع ليشاهدوا الملك الذى كان بالأمس القريب يمضى بينهم فى موكب العز والملك .. تحيط به مظاهر الفخامة والعظمة .. بينما رأسه الآن معلقة على رمح، وجسده يُسحل على الطرقات فى المدينة، ومضى يوم طويل دام عاد الناس فى آخره إلى بيوتهم، بعد أن كتب فى نهايته فناء مُلك آل ذى النون إلى الأبد ..

وفى الصباح وبينما يسير أحد التجار ببغلته خارج أسوار بالنسيه، إذ وجد جثة لا رأس لها ملقاة على حافة أرض سبخية، مقطعة الأوصال .. فنزل التاجر عن بغلته وتفحص الجثة فإذا هى للملك القتيل القادر بالله بثيابه المهلهلة الممزقة، وقد تعفنت جثته بفعل تركها فى العراء .. فقام التاجر بحفر حفرة فى الأرض ودفن فيها الجثة بلا كفن ..

ظلت الجماهير تعيش مظاهر الفرحة بسقوط حكم الاستبداد والطغيان لثلاثة أيام حتى بدأت الأمور تسير فى مجراها الطبيعى، وانتظم العمل فى دواوين الحكومة، وعاد الناس لممارسة أعمالهم وعاد التجار إلى تجارتهم .. وعقد القاضى ابن جحاف عدة إجتماعات مع كبار رجال المدينة لتدبير شئون الحكم حتى يتم الاستقرار على الوضع النهائى لحكم المملكة وإدارة مسئوليات البلاد ..

دعى القاضى ابن جحاف إلى إجتماع فى دار القضاء والإفتاء ضم رجال مجلس شورى المدينة حضره كل أعضائه عدا رجال الملك المقتول، بعد هروب ابن عبدوس المسئول عن الضرائب والجبايات، ومقتل نائب الملك ابن الفرج .. كما حضره كبار أعيان المدينة لمناقشة الوضع الحرج الذى تعيشه البلاد ..

قام القاضى ابن جحاف للتحدث إلى المجتمعين فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه، ثم صلى وسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم

.. فى هذا الظرف الذى نعيشه لابد لنا أن نسلك سبيل ما أمرنا به الله من الألفة .. واتفاق الكلمة، وجمع شمل الأمة، وإطفاء نار الفتنة، فى بلادنا المنقطعة عن الجماعة يجدر بنا بعد أن كشف الله عنا الغم .. وأسقط المنافقين الذين حالفوا أهل الشرك والضلال.. بعد أن استباحوا البلاد والعباد .. وأزاقونا الذل والهوان .. حتى نجانا الله منهم، وأعزنا بالنصر عليهم، ومنحنا العون والقوة فى ظل أمير المسلمين قائد جيش المرابطين، أعزه الله وحفظه من كل سوء .. لقد جمعتكم اليوم لأنه قد آن الأوان لنختار لأنفسنا من يكون ولى أمرنا ..

فقام الأمير أبو عبد الرحمن بن طاهر فقال للقاضى ابن جحاف:

لقد قتلت ولى أمرنا .. وهذا ما لا يرضى الله .. وانت من تقضى بين الناس بالحق .. فأين هذا الحق وقد نهانا الرسول عن الخروج عن ولى الأمر .. إنك تتحمل أمام الله والمسلمين مسئولية قتل ولى أمرنا .. وقد فوضت أمرى إلى الله..

فتضج القاعة بالمعارضين لكلام الأمير السابق لإمارة مرسيه فيقول أحدهم:

أما كفاك ما حاق ببلادنا من فقر وذل وهوان .. والله إنى أراك قد أحببت لنا أن نعيش عبيدا لأهل الشرك فى ظل حكم حليفك الملك القادر، من أن نعيش أحراراً فى ظل أمير المسلمين إبن تاشفين ... فيقول الشيخ أحمد البتى :

سوف نختار من يحكم البلاد من أهلها .. من رجالها .... فيشاركه الرأى الشيخ ابن أبى عامر التاكرنى فيقول:

نعم .. لدينا هنا فى بلادنا، من تتوافر فيهم الصفات الحميدة، والأخلاق الرفيعة .. ورجاحة العقل، وصواب الرأى .. فلنختار واحدا منهم يكون علينا رئيساً .. نبايعه ونعاهده على الطاعة والوفاء .... فيقول الأمير أبو عبد الرحمن ابن طاهر:

لابد أن يكون الحاكم أميراً أو ملكاً .. فيتدخل القاضى بن جحاف فيقول :

إنما الملك لله وحده .. والمُلك بدعة ابتدعها علينا بنو أمية، وعلى ذلك سار على نهجهم بنو العباس .. وكان الأمر من قبلهم شورى بين الناس .. يختارون من يصلح ليكون أميراً يُأتمر بآمر رعيته طائع للجماعة، وليست الإمارة مُلك أو ورِث يتوارثه الناس.... فيقول الشيخ أبو بكر (ابن المعلم) إمام المسجد الجامع:

الأرجح لنا فى هذه الظروف أن نقتدى بما فعله أهل الجماعة فى قرطبة من قبل .. فنعين جماعة تتولى حكم البلاد بالشورى فيما بينها، وتختار من بينها رئيساً لها على رأس هذه الجماعة .. فيكون الرأى لما يجمع عليه الرأى داخل الجماعة ورئيسها هو صاحب الرأى الراجح إذا ما انقسم الرأى وتعادلت الكفتان..

يسكت الجميع للحظات ثم يبدون موافقتهم بأغلبية رأى المجتمعين .. ثم يبدأون اختيار الجماعة التى سوف تتولى حكم البلاد ..

بعد ثلاث ساعات من المشاورات يخرج المجتمعون وقد اختاروا جماعة منهم لتحكم البلاد مكونة من الأمير أبو عبد الرحمن بن طاهر، القاضى أبو الوليد الوقشى، الشيخ أبو بكر حمدون، الشيخ أحمد عبد الولى البتى، الشيخ ابن أبى عامر التاكرنى، وعلى رأس هذه الجماعة اختاروا القاضى أبو أحمد بن جعفر بن جحاف ليكون هو المسئول الأول فى الجماعة عن كل ما يدور بالبلاد ..

سار المنادون فى شوارع المدينة ليعلنوا ما استقر عليه أهل الرأى فى المملكة، وما اختاروه من بينهم ليكونوا أعضاء لأول حكومة جمهورية فى مملكة بالنسيه وثانى حكومة جمهورية فى تاريخ الأندلس بعد حكومة الجماعة فى قرطبة ..

استقبلت الجماهير هذا الخبر بالفرحة والسعادة .. لما يترتب عليه من استقرار للأوضاع فى المملكة، ويخرج البلاد من نير الاستبداد والطغيان .. وتحركت الجموع إلى دار القضاء والإفتاء لإعلان البيعة للقاضى وجماعته ..

وقرر القاضى ابن جحاف أن يكون مقر الحكم للجماعة هو من دار القضاء والإفتاء، وأن تسلم كل القصور والممتلكات الخاصة بالملك القادر لتضم إلى أملاك

المملكة، وأصبح الشيخ التاكرنى مسئولاً عن الأمن والنظام، والشيخ أحمد البتى نائبا لقائد الجماعة ومسئولاً عن الأموال والضرائب بالمملكة ..

كما عين القاضى قادة للحصون والقلاع تجت قيادته، كما أرسل القاضى رسائله بهذه القرارات إلى كافة المدن والحصون التابعة للمملكة لكى تنفذ ما جاء فيها ولكى تعلن الولاء والبيعة للحكومة ..

ظل الأمير أبو عبد الرحمن بن طاهر غاضباً لمقتل الملك القادر بالله، وظل معتقداً فى قرارة نفسه أن المسئول الأول عن مقتل الملك هو القاضى بن جحاف..

وعلى الرغم من عدم سعى الأمير إلى أن يكون ضمن الجماعة الحاكمة لمملكة بالنسيه إلا أنه قد قبل ذلك بناء على إجماع وإصرار أهل الرأى، بضرورة أن يكون الأمير عضواً فى هذه الجماعة، لما يمثله من ثقل سياسى، ومكانته الرفيعة بين الناس فى سائر الأندلس، فهو من كبيرات العائلات العربية المنتمية إلى قيس عَيْلان .. وهو من أهل العلم والأدب البارع ..

وعاش الأمير فترة بعد مقتل الملك القادر فى عزلة عن الناس حزناً وكمداً على مقتله، فالملك الراحل هو حفيد الملك المأمون، الذى كان صديقاً للأمير، فأبقى الأمير ابن طاهر على علاقة الود والصداقة مع أهل الملك المأمون فكان لا يبخل على الملك القادر بالمشورة والنصيحة، وبادله الملك القادر الحب والمودة .. فكان لمقتل الملك القادر أبلغ الأثر فى نفس الأمير أبى عبد الرحمن .. وقد تأثر بما جرى، وما يعتقده هو من مسئولية القاضى عن المصير الذى آل إليه الملك .. فكتب عن ذلك يقول:

أيها الأخيف [1] مهلاً	فلقد جئت عويصا
إذ قتلت الملك يحيى	وتقمصت القميصا
رُبَّ يوم فيه تجزى	لم تجد عنه محيصا

(١) الأخيف هو الذى إحدى عينيه زرقاء والأخرى كحلاء ، وكان أبو أحمد بن جحاف كذلك.

حَوَمانُ الفراشة..!

مع بداية عام ١٠٩٢ ميلادية (٤٨٥ هجرية) .. وصل السيد رودريجو بقواته على مشارف الحدود الغربية لملكة بالنسية، وطالب بعض الحصون بالتسليم له، وتقديم الميرة (١) لقواته .. إلا أن قادة الحصون رفضوا ذلك على غير ما عهده منهم من قبل، فتقدم بقواته إلى منطقة وادى النهر (نهر طوريه) على مسافة من الحصن المنيع سيبولة، وأقام معسكره هناك ..

من مكان معسكره أرسل رودريجو إلى رئيس الجماعة القاضى ابن جحاف يطالبه بما كان يدفعه له الملك القادر من أموال، كما طلب منه إرسال ما كان قد أودعه من قمح فى مخازن المملكة داخل المدينة، وكتب ضمن رسالته عبارة يهنئ فيها القاضى على ما آل إليه من سلطة فقال فيها .. وإننى أهنئك على الحسنة التى اكتسبتها فى رمضانك .. وذلك حينما قتلت سلطانك.. !..

إلا أن القاضى قد أرسل له يطالبه بالرحيل من أراضى المملكة، وأن لديه من القوات المرابطية ما يكفى لطرده وجنوده من المنطقة التى يعسكر بها.. أما ما يتكلم عنه بخصوص القمح، فلا علم للقاضى به، وما بالمخازن هو من أملاك الدولة..

غضب السيد من جواب القاضى على رسالته، فراجعه برسالة أقسم له فيها بمغلظات الأيمان بأنه لن يبرح من مملكة بالنسيه حتى يظفر به .. وقرر رودريجو أن يحصل على الأقوات بنفسه عن طريق الاستيلاء على المحاصيل الزراعية فى المزارع المجاورة لمنطقة المعسكر، وأصدر أوامره إلى جنوده بعدم التعرض للمزارعين بأى ضرر، وحذرهم بأن من لا ينفذ أوامره فسوف يوقع عليه عقوبة الإعدام ..

---

(١) الميرة : الطعام .

وأدرك السيد أنه لابد أن يحاول أن يكتسب سمعة طيبة بين المزارعين والفقراء وهم عامة الناس لينتشر بينهم أن السيد القنبيطور رجل على خلق طيب ولا يؤذى الناس ..

وبدأ رودريجو يخطط لمعركة طويلة للبقاء فى المنطقة واستعادة هيبته فى شرق الأندلس بعد أن اهتزت صورته بصفته راعيًا للملك القادر، ولم يستطع أن يوفر له الحماية أو أن ينقذه من الموت ..

وأراد السيد أن يرسخ من سلطته فى منطقة شرق الأندلس، فأرسل ابن أخيه بدرو برمودث إلى مدينة مربيطر ليتقاضى الأموال التى يدفعها له أبو عيسى بن لوبون مع مطالبته بزيادة قيمتها لارتفاع نفقات الإعاشة لقواته (أى قوات السيد)..

وصل بدرو برمودث مندوب السيد إلى القاضى عيسى بن لوبون ومعه رسالة من السيد يطالبه بالأموال التى يدفعها مع زيادة مقدارها ثلاثة آلاف دينار... فقال القاضى ابن لوبون لبدرو:

لماذا تطالبونا بزيادة النفقات، ونحن لا صلة لنا بما ينفقه السيد أو يجنيه من أموال .. هل إذا حصلتم على أموال أكثر، أو عثرتم مثلاً على كنز.. هل ستقتسمون معنا الكنز أم تستخلصونه لأنفسكم .. ؟ ما لنا بما ينفقه السيد.. يكفينا ما علينا من التزامات نحو شعوبنا.. وما لدينا يكفينا بالكاد .. فكيف لنا أن نزيد الأموال التى تدفع إليكم..؟

- سيدى ليس هذا من شأنى فما أنا إلا رسول لكم

- وما قيمة الأموال المطلوب زيادتها ..؟

- إنه يطلب منكم أن تدفعوا ستة آلاف دينار ...

- ماذا تقول .. ستة آلاف دينار ..؟ إننا ندفع لكم ثلاثة آلاف ..

- نعم سيدى القاضى، ولكنه يطلب ستة آلاف ..

- هذا مستحيل .. ولا نستطيع أن ندفع مثل هذه الزيادة

- إذن سوف أعود وأبلغه ما تقوله .. وأرجو يا سيدى أن تدرك معنى أن ترفض ما يطلبه منك القنبيطور .. فسوف تكون العواقب وخيمة

- اتدرى آن القاضى ابن جحاف قد أرسل لنا يطالبنا بعدم دفع أى أموال للسيد منذ سقوط حكم الملك القادر .. فاعلم أننى سوف آدفع لكم سراً، حتى أحافظ على علاقة الود مع السيد .. فيجب أن تقدروا منى ذلك

- سيدى القاضى يمكننى أن أقنع القنبيطور بأن يقلل من المبلغ قليلاً فليكن المطلوب منك أن تدفعه خمسة آلاف وخمسمائة دينار

- هذا فوق قدرتى وطاقتى .. سوف أدفع أربعة آلاف ... ثم خرج من المجلس ليحاول تدبير المبلغ فناداه بدرو وهو يغادر وقال له:

- أربعة آلاف وخمسمائة لا تقل دينارًا واحدًا وسوف احاول أن أقنع القنبيطور بقبول ذلك ..

وقف القاضى ابن لوبون يفكر قليلاً ثم انصرف، ليدبر المبلغ الذى طالبه به بدرو برمودث ..

وقف عبيد الله وابنه محمد على باب القصر لاستقبال القاضى ابن لوبون حاكم مربيطر بعد أن أرسل يطلب لقاء الأمير أبو مروان عبد الملك حاكم إمارة شنتمرية لأمر هام ..

كان عبيد الله يرتبط بعلاقة وثيقة مع القاضى ابن لوبون، وقد تعود القاضى آن ينزل فى قصر عبيد الله فى ضيافتة بمنطقة أذكون فى شمال شرق إمارة شنتمرية حينما يأتى لزيارة الأمير أبو مروان حاكم الإمارة ..

وصل موكب القاضى وترجل من فرسه واتجه إلى حيث يقف عبيد الله وابنه محمد، ثم تعانقا فى ود ظاهر، ودخلا إلى صالة الاستقبال وجلسا متجاورين .. فتحدث القاضى ابن لوبون إلى مضيفه وقد كسى صوته نبرات الحزن والأسى فقال:

ـ كم أفتقد صحبتك يا عبيد الله ..

ـ أعزك الله يا قاضينا الحبيب .. ما لى أسمع نبرة الحزن فى صوتك يا ابن لوبون

ـ لقد سئمت نفسى من هذا الخنزير المدعو رودريجو، ولم أعد أحتمل التعامل معه أو حتى ضيافته هو أو من يرسله لينوب عنه ..

ـ كما أعلم فإنك بطريقة أو أخرى تستطيع أن تتعامل معه، وهو يحترمك، ولا يتربص لك فى شىء

ـ إنه غدار لا عهد له ولا ميثاق لديه .. فلو كان يوفى بعهده .. لاستطاع أن يحمى الملك القادر، وما تركه يلقى حتفه ويُمَثّل بجثته .. أين الأموال التى تقاضاها من الملك لكى يحميه .. إن هو إلا قاطع طريق وضيع لا نهاية لطمعه، وسفالته ..

ـ ماذا حدث بينكما مؤخراً..؟

ـ لقد أرسل إلىّ يطالبنى بمضاعفة الجزية ..

ـ وماذا فعلت معه ..؟

ـ لقد استطعت بصعوبة أن أقلل من مطالبته التى كان ينشدها، ولكنى غرمت زيادة بمقدار النصف عما كنت أدفعه ..

سكت عبيد الله قليلاً ثم قال:

ـ هذا الرجل أمقته من كل قلبى .. ولا أعرف كيف يستطيع أميرنا أن يتعامل معه .. ولو كنت مكان الأمير لتصديت له ... فقاطعه القاضى وقال:

ـ بل لكنت هلكت منه، وضيّعت الإمارة ..

ـ لا يا قاضينا الحبيب .. إنما الهلكة لمن يعيش ذليلاً لغير الله .. هل تعتقد أن فى الرياء عزة وكرامة .. لا إنما العزة والكرامة للنفس الأبية .. وإنه أكرم للإنسان أن يموت وهو حر النفس والإرادة .. من أن يعيش دهوراً من الزمان ذليلاً حقيراً محطم النفس سقيم الوجدان ..

وأمضى القاضى وقت الظهيرة فى الحديث والنقاش مع مضيفه، ثم تناولا معاً طعام الغداء، وتركه بعد ذلك عبيد الله لكى يستريح فى الجناح المخصص له للمبيت بالقصر، على موعد للقاء مساءً فى ضيافة الأمير أبى مروان حاكم الإمارة..

فى المساء جلس القاضى ابن لوبون جلسة خاصة مع الأميرأبو مروان عبد الملك بن هذيل تحدث فيها إلى القاضى فقال له:

ـ لقد طلبت لقاءك يا أمير ليس فقط من أجل الود والإخاء الذى يجمع بيننا، ولكن هناك أمر هام أردت أن أطلعك عليه فأنت أولى به من غيرك .. واننى أفضله لك من أن أستبقيه لأحد غيرك ... فيقول له الأمير، وهو مستغرب:

ـ لقد أقلقتنى أيها القاضى العزيز ما حقيقة الأمر ..؟

ـ دون مقدمات أو مبررات فقد اعتزمت الاعتزال عن الحكم والناس لأعيش بقية عمرى بعيداً عن الصراعات والمآسى ..

ـ وكيف يكون ذلك، وأين ستعتزل الناس ..؟

ـ أولا .. أنا سوف أسلمك ولاية الحكم لمدينة مربيطر وما حولها، فأنت جدير بها، ولك من الخبرة والحنكة ما تستطيع بهما أن تحافظ عليها لتضمها إلى ولايتك مع إمارة شنتمرية .. فإن أجزيت لى العطاء المناسب لذلك فسوف أحُل عليك ضيفاً فى إمارتك لأعيش فيها إن أنت قبلت ذلك ..

ـ ولكن ما الذى يدفعك إلى ذلك يا ابن لوبون ..؟

ـ لقد سئمت الحكم، وأريد أن أرتاح من الأعباء، وأبقى مع نفسى فى حال الصفاء والاستقرار .. فإن وافقك ما أقوله وأعرضه عليك .. فسوف آتى إلى هنا بأهلى ومن هم تحت إمرتى ورعايتى ..

ـ على الرحب والسعة، فأنت صديق عزيز لدينا .. ومالنا هو أيضاً ملِك لك .. والبلد بلدك، ولست بحاجة لأن تطلب منا المقام .. فأنت والله أعلم محبب لدينا ونرحب بقدومك إلينا .. ولكن يعز علينا أن تترك أعمالك لأسباب قد نستطيع أن نساعدك فى حلها، ورفع الضرر عنك

ـ لك الفضل، فأنت الأمير الأثير لدينا .. وما تقوله لى الآن يجعلنى أتمسك بأن أستبقى البلدة وأرباضها لك، حتى ولو لم تدفع ديناراً واحداً .. فيكفينى كرم ضيافتك وحسن استقبالك ... فيقاطعه الأمير قائلاً:

ـ لا تقل هذا يا أبن لوبون، فأنت صاحب حق علينا فى أى وقت ومتى شئت ..

ـ إذن فخير البر عاجله .. متى تأتى إلينا لتتسلم قيادة المدينة وأرباضها ..

ـ فى الوقت الذى تراه .. ولكنى افضل أن أبعث لك ابنى ولى العهد لينوب عنى فى ذلك ويأتيك بما تطلب من أموال إن شاء الله

ـ إذن على بركة الله

ودارت كئوس الخمر، أمام الطسوس الممدودة بأنواع الفاكهة الطازجة، وصنوف الشراب الباردة.. وأكمل القاضى مجلسه فى ضيافة الأمير، واستمتعا معاً بعزف وغناء الجوارى الفاتنات ورقصهن على الأنغام الحالمة، وراح الأمير يتجاذب أحاديث السمر مع القاضى ويُسمِعه ما قرضه من شعر فقال فى هذا المقام:

رغِبتم وأرغبناكم وهى الخمرُ ... فمن لم يكن سكران فليكنِ السكرُ

إليكم فإنى فى الوغى والندى فتىً ... هو البحر إن أعطى، وإن صال فالدهرُ

وقال أيضاً:

شأوتُ أهل رَزينٍ غيرَ محتفلٍ ... وهم، على ما علمتم، أفضلُ الأمم

قومٌ إذا حاربوا أفنو، وإن سئلوا ... أغنوا، وإن سوبقوا حازوا مدى الكرم

جادوا فما يتعاطى جُود أنملهم ... مدُّ البحار ولا هَطالة الدِّيَم

وما أرتقيت إلى العليا بلا سببٍ ... هيهات ! هل أحد يسعىَ بلا قدم؟

فمن يَرُم جاهداً إدراك منزلتى ... فليحكنى فى الندى والسيف والقلم

مع بداية الربيع ذابت الثلوج من على قمم الجبال .. وفاضت الأنهار بالمياه تتدفق فيها بعد جمود الشتاء .. وراحت الأزهار تتفتح على سفوح الجبال والوديان والمروج الممتدة حول الأنهار المتدفقة ..

وكما يذوب الجليد على قمم وسفوح الجبال، وأيضاً كما تلين الأرض فتتشقق ويخرج منها الزهر والورد .. فإن النفوس البشرية تتقلب أمزجتها، ويصبح الجفاء حباً والبرود حنيناً ودفئاً ..

بعد انقطاع طويل أراد به الفونسو أن يعبر به عن رفضه من تمنع الأميرة سيدة نحوه، وعدم مبادلتها إياه الشوق واللهفة والرغبة .. عاد الملك ليمارس دور العاشق الولهان بعد أن أرسلت له الأميرة رسالتين طويلتين تعبر له فيهما عن ظروف تمنعها عنه ومدى لهفتها وشوقها إليه ..

وعاد الفونسو ليلتقى بالأميرة بعد شتاء طويل قضاه فى طليطلة لا يؤنس وحدته إلا خامينا عشيقته القديمة .. ومع وجود الأميرة سيدة، وتمنُّعها عنه، انشغل الملك بفكره عن خامينا .. ولم يعد يجذبه نحوها إلا ذكريات الماضى، حينما كانت وحدها المتربعة على عرش قلبه ..

أما الآن، فلقد ضاق القلب لها، ولزوجته كونستانس التى تعيش فى ليون فى آقصى الشمال فى برجها العاجى، محاطة بوصيفاتها الفرنسيات لا يهمها إلا العطور، وفساتين الحفلات التى تحضرها فبقيت بعيدة عن قلب الملك العاشق دائماً، ولم يعد قلبه يتسع إلا لواحدة يتوق إليها ويتمنى رضاها ..

فى أول لقاء بعد بعاد طويل .. أخذ الفونسو يعاتب الأميرة عتابا رقيقا، لم يكن فقط بالكلمات، ولكن شاركه العتاب نظرات عينيه تستجدى الحب، وهمسات شفتيه تقطر رقة وحنيناً وتفوح منها نداءات اللهفة ..

راحت الأميرة تحوم كالفراشة حول الزهرة تريد رشف رحيقها، والزهرة مشتاقة لوقع أقدام الفراشة .. فتقترب الفراشة تارة، فيتملك الفونسو شعور النصر .. وتبتعد تارة، فيدب اليأس فى نفسه فيراها وكأنها سراب بعيد ..

وتارة تدنو، واخرى مبتعدة .. سعيدة بما تمارسه من فنون الترويض فى الحب والعشق .. فنسست وهى تقترب من الزهرة لترشف رحيقها، أن الزهرة لا تمنح الرحيق إلا لمن يحط بأقدامه فى قلبها ليمنحها ما تتمناه بإتمام دورة اللقاح ..

وبرقة العاشق الولهان قال لها ألفونسو:

ـ أما زلت تشعرين بالغربة فى طليطلة

ـ لا .. لا .. لقد أصبحت حياتى يملأها الهدوء والاستقرار .. وكلما عرفت أنك موجود هنا فى طليطلة بالقرب منى، تملكنى إحساس جميل بالاطمئنان .. حتى ولو لم أرك .. فيكفينى أن أعرف أنك موجود هنا بالقرب منا ..

ـ حينما أسمع كلماتك أشعر أننى أسكن بداخل قلبك .. وحينما أرى جفاءك، اشعر بالغربة والوحدة والضياع ..

ـ الضياع يا الفونسو .. أنت تشعر بالضياع، ونحن جميعاً نعمل فى خدمتك وتحت أمرك

ـ لا أريد منك خضوع الولاء بقدر ما أريد منك خضوع المحب العاشق ..

ـ منذ استطعت أن أقنع أولادى بأن حياتنا هنا هى مستقبلنا، وأن الماضى قد ذهب، وذهبت معه الذكريات الأليمة، وأننا لابد أن نستمتع بحياتنا ونعيشها .. فما نتمناه لم يأت بعد .. والأمل هو الشىء الوحيد الذى يجب ألا نفقده .. ومع الأمل نعيش حياتنا ونستمتع بها .. منذ أن استطعت أن اقنعهم بذلك أصبح كل شىء ممكن ومحتمل ..

ـ كل شىء .. !

ـ نعم كل شىء ... تقولها وهى تبتسم إليه وعيناها تراقب شفتيه ..

وما هى إلا أسابيع قليلة حتى تم استدعاء الفونسو إلى ليون حيث توفت زوجته الأكبر منه سناً .. الملكة كونستانس فجأة، إثر وعكة صحية تعرضت لها، وسرعان ما ترك طليطلة تاركاً قلبه ينبض فيها، وذهب إلى ليون ليقيم مراسم الحداد على الملكة الراحلة ..

اختار أمير المسلمين يوسف بن تاشفين .. مدينة أغمات فى غرب المغرب التى تحيطها من بعيد جبال أطلس بقممها البيضاء لتكون قلعتها مكاناً يقبع فيه ملك أشبيلة السابق المعتمد بن عباد وأسرته ..

وذاق الملك الأسير عذاب الأسر مكبلاً فى الأغلال شهوراً طويلة، وراح يتذكر الماضى القريب حينما كان خبره وصداه يطوف بالأندلس شمالها وجنوبها .. تتحاكى عنه الناس، وتتفاخر به العرب ..

وبعد أن كانت زوجته اعتماد ترفل فى نعيم القصور ومباهجها، هاهى الآن وبناتها وأولادها يعيشون حياة صعبة، حيث تشتغل البنات بالغزل، وقد تشققت أقدامهن من السير حافيات على الأرض بعد أن كن يسرن على الأرض وقد فرشت لهن بماء ممزوج بالكافور والمسك والعنبر .. وهن الآن يرتدين الثياب الخشنة بعد ان كن يستترن بالحرير والديباج ..

وفى منفاه راح الملك السابق ينشد شعراً يصف به ما كان وما أصبح عليه حاله الآن فكتب يقول:

غريب بأرض المغربين أسير	سيبكى عليه منبر وسرير
وتندبه البيض الصوارم والقنا	وينهل دمع بينهن غزير
مضى زمن والملك مستأنس به	وأصبح اليوم وهو نفور
برأى من الدهر المضلل فاسد	متى صلحت للمصلحين دهور
أذل بنى ماء السماء زمانهم	وذل بنى ماء السماء كبير

وكتب يلوم على أمير المسلمين يوسف بن تاشفين على ما فعله به فيقول:

أبى الدهر أن يقنى الحياء ويندما	وأن يمحو الذنب الذى كان قدما
وأن يلتقى وجه عتبى وجهه	بعذر يغشى صفحتيه التذمما
ستعلم بعدى من تكون سيوفه	إلى كل صعب من مراقيك سلما
سترجع إن حاولت دونى فتكه	بأخجل من خد المبارز أحجما

وأذكت مأساة بنى عباد فى الوقت نفسه دولة الشعر فى الأندلس، ونظم أكابر شعراء العصر فى رثاء دولتهم، والتوجع على أيامهم، طائفة من القصائد المؤثرة،

وكان أغزرهم فى ذلك مادة، الشاعر أبو بكر بن اللبانة، وهو الشاعر المقرب من بلاط الملك المعتمد .. حيث كتب للمعتمد شعراً بعد أن سمح أمير المسلمين بفك القيود والأغلال عن المعتمد فقال:

تنشق رياحين السلام فإنما ... أفضُّ بها مسكاً عليك مختَّما

وقل لى مجازاً إن عدمتَ حقيقة ... لعلك فى نعمى فكم كنت منعما

أفكر فى عصر مضى لك مشرق ... فيرجع ضوء الصبح عندى مظلما

تمرد على حكم المرابطين الكثير من أهل الثقافة والعلم والقلم من الطبقة المستنيرة، فلم يكونوا يوماً يستسيغون أن يكون أولياء أمرهم وحكامهم هم الأجلاف الحفاة الذين قدموا من الصحراء من قبائل جدالة ولمتونه .. هكذا كانوا يعتقدون ..

وبعد فترة قصيرة تمرد الكثير منهم، فقامت حكومة الدولة المرابطية بالقبض على رعيل كبير ممن يساورها الشك فيهم ولاسيما فى مدينة مالقا على ساحل البحر فى جنوب الأندلس ..

إلا أن المتمردين من أهل مالقا وعلى رأسهم «ابن خلف» (1) الوطنى الكبير .. اغتنموا فرصة الظلام، وفروا من السجن وانطلقوا إلى حصن «مونت ميور» بالقرب من بلدة مرتلة ...، و احتلوا الحصن، ولحق بهم ولد من أولاد الملك المعتمد يدعى عبد الجبار ..

وما كاد المعتمد ينعم قليلاً بفك القيود والأغلال، حتى انتشر نبأ التمرد والثورة ضد المرابطين فى جنوب مملكة أشبيلية، وانضم إليهم الكثيرون، ودار الصراع فى جنوب شرق أشبيلية وأرسل الأمير سير بن أبى بكر قوات من الجيش المرابطى فى محاولة لقمع التمرد والقضاء على الثورة هناك .. ومن جديد عادت القيود لتكبل يدى المعتمد وقدميه فى سجنه بقلعة أغمات ..

---

١ ـ «المسلمون فى الأندلس» ـ رينهرت دوزى ج٢ ص١٧٨ إصدار هيئة الكتاب المصرية ـ طبعة ١٩٩٥ .

وما أن سمع الملك المعتمد بنبأ الثورة حتى اشتد به الحزن، إذ أقلقه خطورة ما يقدم عليه ابنه، وخاف عليه أن يلقى نفس المصير المنكود الذى لقيه معظم أبنائه.. إلا أن ازدياد الثورة التى كان يقودها الأمير عبد الجبار، وتعاطف الكثيرين معه، وتحقيق بعض الانتصارات على المرابطين، قد جدد الأمل فى نفس المعتمد، وتمنى أن يعود يوماً إلى بلده ويسترد عرشه هناك .. وراح يقول فى ذلك

ياليت شعرى هل أبيتن ليلة أمامى وخلفى روضة وغدير..؟

بمنبتة الزيتون مورثة العلا تغنى.. حمام أو ترن طيور

وكان للمعارك الدائرة على مدى أكثر من عام فى كل شرق الأندلس والتى تخوضها الجيوش المرابطية المتعددة، أكبر الأثر فى إنهاكها، وأصبح من الضرورى على قائدها أن يعطيها فترة من الراحة ليعاد تجميعها، وإحلالها بقوات أخرى، وإعادة تجهيز الجيوش استعداداً لمهام أخرى فى شرق أو غرب الأندلس..

وفى هذه الأثناء حاول الملك عمر المتوكل حاكم مملكة بطليوس فى شمال غرب الأندلس أن يتقرَّب إلى القائد المرابطى سير بن أبى بكر، وذلك بتقديم الميرة لجيشه، وإرسال الهدايا القيمة له ولأمير المسلمين يوسف بن تاشفين.. فجاوبه الأمير فى ذلك ليس حباً فيه أو تقديراً له، ولكن لكى تنعم القوات المرابطية بالراحة التى ينشدها لها..

سَعِد الملك عمر المتوكل، بما أبداه المرابطون من ود تجاهه، وراح يستعيد نشاطه، ويدير شئون مملكته، وقد اطمئن لسكون المرابطين، وقناعتهم بمايقدمه لهم من عطايا وهدايا قيمة، بينما ينشد شاعر البلاط فى بطليوس أبو محمد عبد المجيد بن عبدون قصيدة مطلعها

وافاك من فلق ِالصباح تبسُّمُ وانجاب من غَسَقِ الظلام تجَهُّمُ

والليلُ يُنْعَى بالآذان وقد شدا بالفجر طيرُ البانةِ المترنم (١)

(١) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ج ٢ص٤٠١ دار الكتب العلمية ببيروت .

استتب الأمر للجماعة الحاكمة فى بالنسية بقيادة ابن جحاف إلا أن الأمير أبو عبد الرحمن كان يعتذر عن عدم حضور الاجتماعات زهداً فى ذلك، وحزناً على ذكرى الملك المقتول ..

وفى هذه الأثناء كان القاضى يعقد الاجتماعات المتوالية للتنسيق بين قوات جند الله ومعها عسكر المدينة من جهة ومع القائد المرابطى وقواته المسئولة عن تكثيف الدفاعات على أسوار المدينة ..

وراح القاضى ومن معه يعملون على جلب المؤن اللازمة تحرزاً لأى حصار قد تتعرض له المدينة .. وطلب القاضى من أبى ناصر أن يرسل إلى قائده محمد بن عائشة قائد الجيش المرابطى الموجود فى منطقة دانية وشاطبة ليبعث لهم بالقوات الكافية اللازمة لصد هجمات جيش .. رودريجو المحتملة فى الأيام القادمة ..

بعث القائد ابن عائشة برسالة إلى القاضى أخطره فيها بأن القوات التى ببالنسية كافية لدفع أى هجوم عليها من قوات السيد .. وإذا ما قامت قوات السيد بمهاجمة المدينة فإن جيش المرابطين سرعان ما سوف يتقدم لفك الحصار والقضاء عليه ..

وقال القائد المرابطى ابن عائشة .. إن الأفضل للقوات المحاربة لجيش المرابطين أن تبقى خارج الأسوار حرة الحركة فى القتال والمناورة، من أن تبقى محاصرة خلف الأسوار .. .. وعلى هذا الاعتبار اقتنع القاضى بما جاءه فى خطاب القائد ابن عائشة ..

كما انشغل القاضى فى جمع كل ما تقع عليه يداه من أملاك الملك القتيل، ووضعه بمخازن سرية حتى تبقى فى أمان، خوفاً عليها من النهب والضياع إذا ما تعرضت المدينة للحصار من قِبل قوات السيد الموجودة على مسافة أربعين كيلو مترًا غرباً بالقرب من حصن سيبولة ..

طلب أبو ناصر القائد المسئول عن الدفاع عن أسوار المدينة من الجماعة الحاكمة أن توفر له ولجنوده أفضل سبل الرعاية والطعام والمأوى .. ولم يبخل

عليه القاضى ابن جحاف فى ذلك بشىء، وإن لاحظ القاضى ارتفاع تكاليف الرعاية لهؤلاء الفرسان، مع قلة موارد المملكة التى تحصلها من الضرائب على المزارعين والتجار وأصحاب الحوانيت، وكذلك الأموال التى تجلب للخزانة من المقاطعات والولايات التابعة للمملكة، وذلك بسبب اضطراب الأحوال باضطراب الأوضاع فى المدينة وخارجها مع اقتراب قوات السيد من المدينة، وسعى الناس إلى ادخار الأموال والأطعمة تحسباً للحصار إن وقع فى المستقبل ..

وعلى الرغم من ذلك فقد انتظم خروج الناس من المدينة والعودة إليها فى قضاء أشغالهم وحوائجهم، ومراعاة تجارتهم، وإن كان يتم التدقيق على أبواب المدينة من حراسها للتأكد من هوية الأشخاص، وأصبح على كل فرد إثبات هويته أو ما يدل على مكان سكناه، وموقع عمله، حرصاً على عدم تسلل الغرباء إلى المدينة ..

إلا أنه قد توافد الكثير من حلفاء الملك المقتول القادر بالله إلى معسكر السيد فى موقعه بالقرب من حصن سيبولة سواء قدموا من مدينة بالنسية أو من أرباضها أو من البلدات التابعة للمملكة وقراها، وقد استقبلهم السيد أحسن استقبال وضمهم إليه ..

وأرسل السيد رودريجو إلى الحصون والقلاع، والقرى والضياع، وإلى أصحاب المزارع من حوله، بأن يبعثوا له الحبوب والغلال والأطعمة له ولقواته، وإلا اضطر أن يستولى عليها غصباً وعدواناً .. فانصاعوا له اتقاءً لشرة حيث لا توجد بالقرب منهم أى قوات تساعدهم أو تحميهم من بطشه إن هم رفضوا قبول طلباته ..

نذر الشر .. !

انتظمت الحياة فى مدينة بالنسية لعدة أشهر من بعد مقتل الملك القادر، وبدأ القاضى يتخذ لنفسه الكثير من مظاهر الأبهة والعظمة التى يتخذها الملوك لأنفسهم ..

فسار فى معاملاته له غلظة الرؤساء، وحفلت مجالسه بالوزراء والفقهاء والزعماء .. وإذا سار فى موكب يتقدمه العبيد ورجال حاشيته من الأتباع والحجاب وغيرهم ..

وتسير من خلفه العسكر، وفرقة من جند الله، وعند مراسم الاستقبال يستقبله الأعيان وكبار القوم بالدعاء له والثناء عليه ..

وتقلد جاسر قيادة حرس المدينة وأصبح مسئولاً عن توزيع الجند على المخافر، وتنظيم الحراسات على دواوين الحكومة، والقصر الملكى، وحراسة بيت المال، وترك مباشرة تجارته لأخية القاسم وساعده فى ذلك أحد رجاله الموثوق بهم من العاملين مع أبيه ومعه منذ سنوات طويلة ..

وكلف جاسر صديقه سالم والذى يعمل تحت قيادته فى قوات جند الله بتولى مسئولية تأمين الأسواق فى شطرى المدينة الجديدة والقديمة، مما ساعد سالم على آن يكون قريباً من داره، وسمح له ذلك بالعودة للمنزل عند الظهيرة ثم مغادرة المنزل عند صلاة العصر، ثم العودة ثانية بعد صلاة العشاء بساعتين .. إذا لم تكن هناك مهام طارئة ..

وتولى الشيخ مسعود والد سالم الإشراف الكامل على المزرعة بمعاونة بدران فى الأوقات التى لا يتم استدعاء بدران فيها من قبل جند الله عند أحوال الطوارئ ..

وبذلك عاد الهدوء لحياة نائلة مع زوجها ونعما معاً بالسعادة فى وجود ابنهما عبد الله حيث أكمل عاماً ونصف من عمره

وحرصت رضوى زوجة جاسر على تبادل الزيارات بينها وبين نائلة يقضيان معاً أوقاتاً طويلة فى الأيام التى يغيب فيها زوجيهما عن المنزل فى الاحوال الطارئة ..

وفى نفس الوقت وفى خارج المدينة .. تقدم رودريجو بقواته وشدد الحصار على حصن سيبولة وأرهقه بالهجمات، وأرسل إلى قائده يعده بالأمان فى المال والنفس، ونقل إليه حال مدينة بالنسية، ولكى يفت من عضده .. أخبر قائد الحصن أن الجند المرابطين لا يفعلون شيئاً سوى الاختباء خلف الأسوار فى مدينة بالنسية ، وأنهم غير قادرين على حماية حصن سيبولة أو غيره من الحصون الأخرى ..

ثم أمهل قائد الحصن أيام إن لم يسلم الحصن فيها فإنه سوف يهاجم الحصن ويستولى عليه، ولن يكون له عند ذلك الأمان والعهد، ويصبح كل ما فى الحصن مستباح ..

وفى يوليو ١٠٩٣ استسلم حصن سيبولة لقوات السيد .. فدخل الحصن، ولم يؤذ أيا من جنده وإن استولى على ما فيه من أقوات وأموال وسلاح .. وقد حاول السيد أن ينشر هذا الخبر لباقى الحصون حتى تسلك نفس السلوك وتسلم له بالأمان .. وهو ما تحقق له فى المنطقة المجاورة لحصن سيبولة ..

وما أن استتب الأمر للسيد فى حصن سيبولة تقدم بقواته صوب بالنسية محاذياً الضفة الشمالية لنهر طورية ليأمن جانب جيشه أثناء التقدم إلى مدينة بالنسية ..

إن السيد رودريجو يخشى تقدم جيش المرابطين من منطقة شاطبة، فلما علم من جواسيسه الذين يراقبون تحركات القوات المرابطية أن المرابطين فى حال سكون. وأنهم غير مهتمين بالتقدم شمالاً بعيداً عن شاطبة بل تقهقروا بمعسكرهم إلى منطقة فى منتصف المسافة ما بين دانية، ومدينة شاطبة على مسافة نحو سبعين كيلو متراً من بالنسية ..

تقدم السيد بقواته قاصداً المناطق الشمالية من مدينة بالنسية حيث تتواجد بعض المرتفعات والتلال ليتخذ منها مواقع دفاعية من خلفه ويكون نهر طورية مانعاً لأعدائه من أمامه، إذا ما تقدم إليه المرابطون ليهاجموا قواته ..

إلا أن القاضى بن جحاف أراد أن يمنع السيد من الاستيلاء على الأحياء الشمالية لمدينة بالنسية والواقعة خارج أسوار المدينة وهى بلا نوبة، وجبالة، والكدية .. فطلب من القائد المرابطى أبو ناصر قيادة الدفاعات خارج المدينة ببعض قواته من الفرسان مع مجموعات من جند الله وعسكر المدينة ..

إلا أن القائد المرابطى رفض تنفيذ هذه الخطة الطارئة غير المتفق عليها مبرراً ذلك بأن قواته مجهزة للدفاع عن الأسوار وليس لخوض قتال خارجها، فهى تحتاج إلى دعم أكبر بكثير مما هو متوافر لديها ..

لم يجد ابن جحاف من سبيل سوى الدفع بالقوات المتوفرة لديه من بعض جند الله وقوة العسكر والحرس لتكوين دفاعات وحراسات فى هذه الأنحاء لمنع قوات السيد من الاستيلاء عليها ..

ودع سالم زوجته نائلة بعد أن تم تكليفه بقيادة قوات العسكر وجند الله للدفاع عن أحياء المدينة خارج الأسوار، وعانقته زوجته نائلة، وهى تشد من أزره وتشجعه على القيام بواجبه نحو بلاده .. بينما انتابه شعور بالسعادة بثقة حكومة البلاد برئاسة قاضى المدينة فيه ومن معه من رجال، وتوجه من فوره ليلاً لاختيار أنسب المواقع للدفاع عن هذه الأحياء ..

وصلت قوات السيد إلى أطراف منطقة الكدية شمال غرب بالنسية، وكذا منطقة بلا نوبة المواجهة لسور القصر الملكى إلى الشمال الشرقى من المدينة،

ففوجئت بوجود جنود ملثمين فى المنطقة، فاعتقدوا أنهم من قوة جيش المرابطين، فانسحبوا عائدين ليبلغوا السيد بذلك ..

إلا ان بعض المرافقين لجيش السيد من أهل المدينة الفارين منها والتابعين للملك ونائبه قد أخبروه بأن هؤلاء الرجال هم من رجال المدينة يطلق عليهم اسم جند الله، وهم ليسوا من قوات المرابطين ..

وعسكر السيد بقواته فى منطقة التلال خلف الضفة الشمالية لنهر طورية وأصبحت بلدة وقلعة مربيطر من خلفه على مسافة نحو اثنين وعشرين كيلو متراً .. وبدأ ينظم الهجمات على القوات الموجوده فى أحياء الكودية وجبالة وبلا نوبة لبث الذعر فيهم، وفى سكان هذه المناطق حتى يفقدوا الثقة فى القوات التابعة لحكومة المملكة والمكلفة بالدفاع عن السكان والأراضى والزراعات ..

وتعرضت قوات المدينة لخسائر كبيرة نظراً لفارق القوة بينها وبين قوات السيد من حيث العدد والعتاد .. فقرر سالم قائد هذه الفرق الانسحاب بقواته إلى داخل المدينة حتى تكون قادرة على شن هجمات على معسكرات قوات السيد بدلاً من أن تكون صيداً سهلاً لقواته بعد أن تكبدت خسائر قدرها خمسة قتلى وثلاثة عشر جريحاً ..

ملأ الغضب صدر قاضى جماعة الحكم ببالنسيه، لتقاعس المرابطين عن نجدته، وكان ابن عائشة قد وعده بالقدوم إلى بالنسيه إذا ما قدمت إليها قوات .. السيد .. وها هو .. السيد .. وقواته قد أتوا إلى ضواحى المدينة بينما تراجع المرابطون إلى الخلف لمسافة سبعين كيلو متراً من المدينة ..

أرسل القاضى ابن جحاف إلى أبى ناصر للاجتماع معه لتدبير شئون الدفاع عن بالنسيه وضواحيها .. فحضر إلى مقر القاضى فقال له ابن جحاف :

- لقد هاجم رودريجو أحياء جبالة وبلا نوبة، والكدية واستولى عليها ..

- نعم لقد علمت لتوى من سالم القيسى، وهذا ما توقعته من البداية فليس لدينا ما يكفى من قوات لنحاربهم خارج الأسوار

ـ ولكن قائدك محمد بن عائشة قد أرسل لى من قبل وقال إنه لا يريد أن يقاتل من خلف الأسوار

ـ نعم هذا هو الصواب .. فقوات القائد ابن عائشة كبيرة، ولا يجب لها أن تقاتل إلا خارج الأسوار

ـ ولماذ لم يأت إلينا لنجدتنا ..؟

ـ لا أدرك يا سيدى القاضى ..

ـ لابد أن نرسل له على الفور لكى يبعث لنا من القوات ما يمنع به رودريجو من أن يحكم حولنا الحصار ..

ـ نعم أنا أؤيدك فى ذلك، ولا تنس أن مهمتى الموكلة إلىّ هى حماية الأسوار والدفاع عنها ..

ـ ولكن لابد أن تكون هناك بعض المرونة فى تنفيذ الواجبات، وتكون المهام طبقاً للوضع الذى عليه واقع الحال فى أرض القتال ..

ـ هذا صحيح، ولكن لا تنس أن يكون التكليف على قدر السعة .. فإن تغيرت المهام، وأصبحت فوق القدرة والسعة، فإن ذلك قد يؤدى إلى إنهيار الدفاعات، ويذهب كل شىء هباء ..

ـ وما الحل إذن ..

ـ كما قلت يا سيدى القاضى لابد من طلب العون من القائد ابن عائشة ..

بعد يومين بعث القائد ابن عائشة برسالة إلى القاضى يجيب فيها على رسالته التى يطلب فيها القاضى منه سرعة القدوم لمنع رودريجو من إحكام الحصار حول بالنسية فطالبه ابن عائشة فى الرسالة بالصمود فى مواجهة الحصار لو أقدم عليه رودريجو، وقال له ابن عائشة إن قواته تحتاج بعض التمويل والنفقات للتحرك بحملة عسكرية كبيرة وأنه فور تدبير هذه النفقات والاستعدادات سوف يتقدم إليه بالقوات فى القريب العاجل لنجدة المدينة ..

تسلم القاضى الرسالة، ولم يسعد لما جاء فيها .. فالقائد المرابطى لم يحدد له موعداً لقدوم القوات المرابطية، وإن كانت المشكلة هى مشكلة النفقات فيمكن تدبيرها مما لدى جماعة الحكم من أموال الملك القتيل القادر بالله ..

فى هذه الأثناء قام السيد وقواته باحتلال أحياء بلا نوبة، وجبالة، والكدية بعد خروج القوات التابعة للمدينة منها .. وعامل .. السيد .. المزارعين وأصحاب الأملاك معاملة طيبة، وإن فرض عليهم أن يقدموا له ولقواته ما يلزمهم من محاصيل وخضراوات وفاكهة كل على قدر سعته، وسمح للأهالى بمباشرة أعمالهم بالزراعة والصيد والبيع والشراء ..

وفى بالنسيه اجتمع القاضى مع جماعة الحكم للنظر فى أمر الدفاع عن المدينة، وأحوالها .. فعرض القاضى عليهم أن يرسلوا إلى ابن عائشة يخبروه باستعدادهم على تحمل نفقات قدومه بالقوات المرابطية، فوافق المجتمعون، وقام القاضى بإملاء منطوق الرسالة على الكاتب فى الاجتماع أمام الحاضرين ووافقوا على ما جاء فيها، وتم إرسالها على الفور إلى القائد ابن عائشة ..

بعد يومين عاد الفارس حامل الرسالة ومعه رد القائد ابن عائشة يخبر فيها القاضى بموافقته على إرسال القاضى لنفقات قدوم جيش المرابطين وحدد له قيمتها، فلما عرض القاضى الأمر على رجال جماعة الحكم أبدوا دهشتهم من القيمة الكبيرة لهذه النفقات ..

ثم سألوا القاضى إن كان لديه من أموال الملك الراحل ما يكفى لدفع هذه الأموال فأجابهم القاضى بالإيجاب .. ولكنه قال لهم إنه لا يضمن بعد ذلك كيفية تدبير نفقات الدولة إذا ما وقعت تحت الحصار ..

إلا أن الجميع أجمعوا على ضرورة دفع هذه الأموال أولاً حتى لا تتعرض البلاد للحصار والمجاعة ..

فى يوم الخميس الأخير من شهر أغسطس ١٠٩٣ميلادية (١شعبان ٤٨٦هجرية) اجتمعت أسرتا سالم ووالده الشيخ مسعود مع أسرة جاسر وحماه الشيخ أبو عبد الله مروان فى دار جاسر للاحتفال بمناسبتين .. الأولى، وهى

الاحتفال بغرة شهر شعبان .. والثانية الاحتفال بحمل رضوى لجنين فى شهره الثانى .. وتم دعوة العائلتين بكبار شيوخهما للإحتفال بهذه المناسبة ..

وقد انتهز جاسر الفرصة لكى يتحدث إلى الأسرتين عما تمر به البلاد من أحوال وما يمكن أن يتخذوه من تدابير فى الفترة القادمة ..

وبعد أن فرغ الجميع من تناول طعام الغداء جلسوا فى الغرفة الواسعة المخصصة للضيوف حيث جلس جاسر وسالم متجاورين قبالة الشيخين مسعود، وأبو عبد الله، ووالدة رضوى ..

بينما كانت رضوى جالسة بجوار نائلة فى الغرفة المجاورة تتحدث إليها عن سعادتها بالحمل، وخوفها من الولادة بينما نائلة راحت تهنئها على الحمل، وتطمئنها على سهولة الولادة .. ثم مضت رضوى تتحدث عن زوجها وانشغاله معظم الوقت عنها، وكانت نائلة تنصت إليها باهتمام وهى تحمل طفلها الذى ترضعه من صدرها، وقد غطت رأسه بشال خفيف من القماش الناعم ..

فنادى جاسر عليهما لتحضرا إلى الغرفة التى يجلسون فيها لتستمعا إلى حديثهم، فقالت له رضوى بصوت مسموع من الغرفة المجاورة

ـ اسمع يا جاسر إن كان حديثك سوف يدور حول الأعمال وما يتعلق بها فدعونا وشأننا، ولا داعى لوجودنا معكم فى هذا الحديث أما إن كان ما تدعونا له غير ذلك فسوف نأتى لنتحدث معكم .... فقال لها جاسر وهو يضحك:

ـ تعالى يا ستى، فهو حديث يهمنا جميعاً

وبعد لحظات جاءت رضوى، ثم تبعتها نائلة وقالت رضوى وهى تبتسم لجاسر وتضاحكه

ـ أما كفاك أن تكون زعيماً على الجند والعسكر خارج البيت .. أتريد أن تكون قائداً علينا هنا أيضاً .... فيتدخل والدها الشيخ أبو عبد الله وهو يمازحها

ـ هو كذلك رئيس فى البيت قبل أن يكون قائدا فى العمل ... فترد رضوى مازحة:

ـ آه لحالى .. مَن إذن يدافع عنى..؟ .... فتتدخل أمها فى الحديث وتقول:

ـ لا يستطيع أحد أن يظلمك، وأمك موجودة، وتنظر إلى جاسر تضاحكه وقد فتحت عين وأغلقت نصف الأخرى .. فيقول جاسر:

ـ أنا تحت أمر رضوى وآمها وأبوها أيضاً، وإن كان هناك أحد من العائلة موجو ... (فينظر إلى محمود أخو رضوى فى ركن الغرفة فيتابع ويقول) وأنت أيضاً يا محمود أنا تحت أمرك من أجل خاطر عيون رضوى ... فيضج الجميع بالضحك ثم يقول جاسر بشىء من الجدية:

ـ اولاً كل عام وأنتم جميعاً بخير وسعادة (فيردوا عليه التمنيات بالسعادة) .. وثانياً .. أنتم تعلمون ما تمر به المدينة من أحداث وأود أن تأخذوا حذركم، فقد تتعرض المدينة فى أى وقت للحصار، ويجب أن ترتبوا أنفسكم لمثل هذا الظرف الطارىء ... فيقول له حماه الشيخ أبو عبد الله يسأله:

ـ وما عسانا أن نفعل على وجه اليقين غير تدبير الغذاء والماء، والأموال إن آمكن ..

ـ لا الأمر أكبر من هذا بكثير ... فيقول له الشيخ مسعود والد سالم متسائلاً بإهتمام:

ـ هل تعلم شيئًا وتخفيه عنا يا جاسر ..؟

ـ لا .. أبداً ولكن فى كل الأحوال يجب أن نعد أنفسنا لوضعين قد نتعرض لهما .. الأول هو الحصار مع بقائنا داخل المدينة لفترة قد تطول لأشهر ... والحالة الثانية هى التفكير فى ترك المدينة إذا تعرضت المدينة لمكروه .... فيرد الجميع عدا سالم

ـ مكروه .. اى مكروه .. ! لقد تعودنا على ذلك من قبل ..

ـ لابد لنا أن نُأمِن خروج النساء من المدينة إن طال الحصار، وكلما كنا مستعدين لذلك فى الوقت المناسب كلما أمكننا النجاة من أى مصائب قد تحل بالمدينة .... فيرد عليه حماه قائلاً

ـ ما هذا يا جاسر إنك تضخم الأمور أكثر مما يجب ..

ـ أنا لا أريد أن أبث الذعر فيكم، ولكن من منكم أراد السلامة فليأخذ تدابيره لرعاية شئونه على الوجه الأمثل فى كل حالة من الحالتين اللتين ذكرتهما لكم ..

فتمتم الشيخ مسعود قائلاً وهو يشعر بالقلق من كلام جاسر:

ـ إنك محق فى الكثير مما تقول، ومثلاً حينما أفكر فى حال مزرعتى إذا ما وقع الحصار فإن أعمالى ستتوقف تماماً كما إننى لو كنت خارج المدينة لن أستطيع الدخول إليها والعكس بالعكس ..

ـ هذا تمام ما أريدكم أن تتدبروا أمركم بشأنه، وكلٍ منكم على قدر استطاعته لتأمين عمله سواء فى البيت أو المزرعة أو فى الحقل أو فى السوق أو احتياجات المنزل، وكل هذه الشئون .... فيقول الشيخ أبو عبد الله:

ـ ادعوا الله أن يفرج عنا كربنا .... فيقول الجميع فى صوت واحد:

ـ آمين ..

ساءت الأحوال بين القاضى ابن جحاف والقائد المرابطى أبو ناصر بعدما كثرت طلبات القائد المرابطى من الشيخ أحمد البتى .. المسئول عن التنسيق بين قوة المرابطين وجماعة الحكم بالمدينة ..

حيث كان الشيخ البتى ينقل طلبات القائد المرابطى إلى القاضى، فيتلكأ فى تنفيذها، وهى طلبات تتعلق بنفقات الجند، والإعاشة، وعلف الخيل، ونفقات رعايتها وغيرها من المستلزمات اللازمة لإعاشة القوات .. إلا أن رفض القائد أبو ناصر الدفاع عن الأحياء خارج الأسوار كان مازال يشعر القاضى بالاستياء، فعبر عن ذلك بالتلكؤ فى تدبير نفقات الإعاشة مما أغضب أبا ناصر، وهدد القاضى بإرسال شكواه إلى القائد العام لجيش المرابطين فى شرق الأندس محمد بن عائشة ..

وحاول رودريجو أن يضيق الخناق على المدينة تدريجياً سراً دون أن يشعر أهلها بذلك، حيث بدأ فى تحريك بعض قواته إلى الشرق من أسوار المدينة فى

المنطقة ما بين البحيرة، والأسوار .. ثم توغلت فرق أخرى فأصبحت تتواجد فى المنطقة الجنوبية ما بين حى الرصافة، ومنطقة البساتين عند الريوسة فى الجنوب الغربى للمدينة

كانت تعليمات السيد للقوات التى تنتشر فى هذه المناطق هى تجنب التواجد داخل المزارع، أو الاحتكاك بالأهالى حتى لا يشعر أحد بتغلغل هذه القوات سواء قاضى المدينة أو قوات المرابطين المتواجدين جنوب مدينة شاطبة .. وذلك حتى يتم انتشار هذه القوات بالعدد الكافى مما يمكنها مستقبلاً من إحكام الحصار بشكل شامل وفى الوقت المناسب ..

طغى حرص القاضى على عدم إنفاق الأموال بكثرة على شئون الدفاع عن المدينة على ضرورات الدفاع عن المدينة مما صعب من إمكانية استقدام قوات جديدة إليها، لتجنيبها خطر التعرض للحصار الذى يحاك لها بليل ..

وظل القائد ابن عائشة ينتظر رسالة من القاضى يبعث معها الأموال اللازمة لنفقات قدوم القوات المرابطية للمدينة، إلا أن تلكؤ القاضى جعل ابن عائشة ييأس من الانتظار، فقرر الرحيل بقواته إلى الجنوب من مدينة شاطبة حيث يتم تجميع القوات هناك توفيراً لنفقات نقل الميرة للقوات من جنوب الأندلس ..

وأخيراً أرسل القاضى إلى القائد ابن عائشة يسأله أن يتقاسما نفقات قدوم القوات إلى بالنسيه على أساس أن البيعة ستكون لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وانضمام مملكة بالنسية لسلطة دولة المرابطين ..

إلا آن القائد ابن عائشة لم يبعث برده إلى القاضى، ومكث بمعسكره ينتظر أوامر أمير المسلمين بشأن أحداث بالنسية، بعد أن أرسل له ابن عائشة يطلعه على أحوالها وما تتعرض له من اعتداءات من قبل قوات القمبيطور ..

جلست نائلة مع زوجها ووالدها يتناقشون فى شأن الرحيل من المدينة قبل أن تتعرض للحصار، وقد نبه عليهم جاسر بذلك من قبل ومن بعده سالم .. إذ أن الأمور ما زالت غامضة، وقد تاخر قدوم المرابطين لإنقاذ المدينة من الحصار ..

تحدث الشيخ مسعود إلى سالم فقال:

ـ ماذا ترى لكى لا تتعرض مصالحنا فى المزرعة للضرر إذا ما تعرضت المدينة للحصار .. فكل أعمالنا توجد خارج أسوار المدينة، ولا يمكن لنا أن ننتظر حتى نجد أنفسنا وقد انعزلنا عن المزرعة، وبقيت هى بلا راع أو صاحب ..

ـ هذا ما تحدثنا بشأنه من قبل ولم نصل فيه إلى حلول محددة .. فماذا ترى يا أبى

ـ لابد لواحد منا أن يتواجد من الآن فصاعداً وبصفة مستديمة فى المزرعة خارج المدينة، ويكون مسئولاً عن مباشرة الأعمال فيها، أو على الأقل رعاية مصالحها إذا ما انعزلت المدينة عما يجرى خارجها ..

ـ هذا رأى جيد يا أبى، ولكن ما يقلقنى هو أننى مكلف بواجبات منِ قيادة جند الله، ولا أستطيع أن أطلب منهم أن يستغنوا عنى .. وأنا أعرف أنك قد كبرت على أن تتحمل مصاعب العيش وحدك خارج المدينة ... فسكت الشيخ مسعود قليلاً وأخذ يفكر فيما عساه آن يكون مسئولاً عن المزرعة ثم قال لسالم:

ـ ألا يوجد لديكم تكليفات من قيادتكم للعمل خارج المدينة

ـ فى الحقيقة لا .. ولكن .. آه تذكرت

ـ ماذا

ـ جاسر كان يتحدث إلى القاضى عن ضرورة وجود قوات لنا أى من جند الله لتبقى خارج المدينة حتى يمكن تكليفها بمهام إذا ما تعرضت المدينة للحصار ..

ـ وبماذا أجاب القاضى

ـ أثنى على هذه الفكرة وطلب من جاسر دراسة الموضوع، للمسارعة فى تنفيذه

ـ إذن هذا ما كنا نبغاه .. يجب أن تحدث جاسر على أن تكون أنت أحد المكلفين بالعمل خارج المدينة .. وبالتالى يمكن لك أن تقوم بواجباتك نحو جند الله، وفى نفس الوقت تباشر مصالحنا داخل المزرعة .. بل إن تواجدك بالمزرعة سوف يكفل لك أن تضفى سرية على عملك فى جند الله فلا يشك أحد من الجند الأجانب فيك.

- هذه فكرة ممتازة فعلاً .... فتتدخل نائلة فى الحديث فتقول للشيخ مسعود:

- هل سيبقى سالم وحده فى خارج المدينة ..؟ يجب أن أكون معه ... فيقول سالم:

- وعبد الله .. هل يمكن أن يعيش معك خارج المدينة ..؟ .... فتقول نائلة

- ولم لا .. مثله مثل أى طفل يعيش خارج المدينة فى القرى، والمزارع ... فيقول الشيخ مسعود موجهاً حديثه إلى سالم:

- ما رأيك

- كما ترون لا مانع عندى ما دمنا سنكون معاً .. كما إننا إذا ما وجدنا أن الأحوال سوف تسوء، فيسهل علىّ ترحيلك من هناك إلى دار خالك الموجود بمُرسيه ... فيقول الشيخ مسعود:

- هذا هو عين الصواب ..

استقبلت رضوى صديقتها الأسبانية ماتيلدا التى جاءت لزيارتها كالعادة من آن لآخر ولتهنئها على حملها، كما تحدثتا معا عن أحوال المدينة وما يجرى خارجها فقالت رضوى لماتيلدا تسألها:

- هل سيفكر والدك بالخروج من المدينة وهجرتها لمدة من الوقت مثلما يفكر الكثيرون فى المدينة بذلك الأن ..؟

- ولماذا ..؟

- لأن المدينة قد تتعرض للحصار

- والدتى تقول إن ذلك قد حدث كثيراً من قبل

- نعم ولكن جاسر يطلب منا أن نفكر فى مغادرة المدينة، وقد سبقتنا إلى ذلك نائلة وزوجها سالم

- ماذا تقولين .. نائلة غادرت المدينة

- نعم، وقد زارتنى بالأمس قبل أن تغادر، وسألتنى إن كنا سنلحق بهم

ـ وهل جاسر طلب منك المغادرة أيضاً .. وهو يعلم أنك حامل ..؟

ـ نعم هو كان يفكر بجدية فى ذلك، ولكنه الآن تراجع بعد أن علم بحملى

ـ ماذا يحدث فى المدينة..؟ لا .. لا يا رضوى لا تتركينى وحدى .... (تقولها ماتيلدا بدلال)

ـ على العموم يبدو أننا سنبقى على أى حال، ولن نغادر المدينة ..

ـ وهل اقتنع جاسر زوجك بالبقاء من أجل حملك

ـ نعم .. كما أن والدى يؤيد بقاءنا وقال لجاسر بأنه لا داعى للمغامرة .. لأن فى ذلك خطورة على الجنين .. ولسبب آخر فلا يمكن لوالدى أن يترك أعماله بورشة الحدادة ثم يخرج ليبحث عن عمل أو مصدر رزق خارج المدينة

ـ نعم فوالدك سواء تعرضت المدينة للحصار أو لم تتعرض فهو يضمن سير العمل فى ورشته التى لا تتأثر بما يجرى خارج المدينة

ـ آه .. يبدو أنك تحسديننا

ـ لا .. ورب عيسى .. لا أقصد أبداً .... فتضحك رضوى وتقول لماتيلدا:

ـ لم تقولى لى هل سيمكث والدك بالمدينة

ـ نعم بكل تأكيد

ـ إذن سوف نكون معاً ونلتقى كثيراً ..

تسربت الأخبار إلى رودريجو بوجود خلافات بين القاضى إبن جحاف، وقائد القوات المرابطية بالمدينة أبو ناصر .. بينما هو بمعسكره شمال نهر طورية على مسافة قريبة من ضاحية الكدية ..

وإستغل الظروف وأرسل إلى القاضى رسالة يقدم له التمنيات بالسعادة والرخاء للبلاد، فى ظل الحكم الرشيد للقاضى، ويعرض عليه توثيق الروابط بينهما،، وأنه (أى رودريجو) مستعد أن يعترف بكل ما للقاضى من سلطة على المملكة، بل وإنه على استعداد أن يقدم له الحماية لكل أراضى المملكة كما تعهد

بعدم التعرض له من قريب أو بعيد، بشرط أن يكفى نفسه شر نفقات الإعاشة لقوات المرابطين، وطلب منه أن يدعو المرابطين إلى الرحيل عن المدينة لعدم وجود سبب لتواجدهم ما دامت العلاقة بينهما (القاضى ورودريجو) ستكون على أفضل حال ..

لاقى عرض السيد القبول لدى القاضى .. وأغرته شهوة السلطة، ورفاهية الحياة كقائد لحكومة الجماعة .. لكى يستأثر لنفسه بها بعيداً عن المرابطين ما دام ذلك سوف يوفر على البلاد نفقات الإعاشة والإقامة لقوات المرابطين المكلفة بحماية أسوار المدينة ..

وأرسل القاضى إلى رودريجو عن طريق وسيط يستطلع معه المدى الذى يمكن به تحقيق تفاهم بينهما .. وأدرك رودريجو أن القاضى قد استجاب للطعم الممزوج بالعسل ولم ير الفخ المنصوب له لكى يقع فيه ..

آرسل رودريجو للقاضى عبر الوسيط يطلعه على تصوره للتفاهم بينهما، وأنه (أى رودريجو) لا يطلب لنفسه شيئًا سوى ما كان له من قمح موجود بمخازن المدينة، وأن يرسل له القاضى ما يستطيعه من أموال لسد نفقة قواته التى سوف توفر الحماية للمملكة فى كامل أراضيها .. وليس الاختباء خلف الأسوار كما يفعل المرابطون ..

وآرسل للقاضى يطالبه بالتوثق من تعهداته له، وليسأل أهل القرى، والبلدات التى مر عليها بقواته، ليتأكد أنه (أى رودريجو) لم يتعرض لها بأى أذى ..

بعد أن اطمأن القاضى لما جاءه من رودريجو بذل الوسيلة للتخلص من وجود قوات أبى ناصر بالمدينة، فطلب تخفيض الرواتب للجند .. ثم طلب تخفيض نفقات العلف للخيل،، فضجر القائد أبو ناصر . واستشعر من القاضى أنه يرغب فى رحيله، فأرسل أبو ناصر بذلك إلى ابن عائشة، الذى طالبه بالقدوم إلى معسكرهم بجنوب شاطبة ..

استأذن القائد أبو ناصر من القاضى فى الرحيل بقواته .. فأذن له القاضى بذلك، ولم يخطر القاضى زملاءه فى حكومة الجماعة أثناء اجتماعاتهم الدورية

بوجود مشاكل مع القائد أبو ناصر .. فكان رحيل قوة المرابطين دون أن يعلم أى من رجال حكومة الجماعة السبب الحقيقى لرحيل هذه القوات، معتقدين أن ذلك جاء تلبية لرغبة القائد المرابطى ابن عائشة ..

أرسل القاضى إلى رودريجو يخبره بخروج قوة المرابطين من المدينة، ويطالبه بعدم التعرض لها .. فأرسل له رودريجو يعاهده على ذلك .. فظن القاضى بذلك أن رودريجو رجل يجب الوثوق به، لأنه يحترم تعهداته ..

وخرجت قوة الفرسان المرابطين من أبواب المدينة وهى شارعة لأعلامها، قاصدة معسكر المرابطين فى الجنوب، وهى لا تدرك ما كان يدور بين القاضى، ورودريجو من تعهدات واتفاقات فى الخفاء من أجل إخراجها من المدينة ..

مضت ثلاثة أيام على قدوم شهر رمضان ٤٨٦ هجرية (الأسبوع الأخير من شهر سبتمبر ١٠٩٣) .. وحينما خرج الناس من أبواب مدينة بالنسية، ككل صباح، وانطلقوا إلى أشغالهم، ومزارعهم فوجئوا بوجود قوات السيد على مسافة من أسوار المدينة أمام الأبواب وقد شكلوا كردوناً من القوات لمنع الأهالى من الذهاب إلى أعمالهم أو السفر من المدينة .. فلما حاولوا أن يسألوا الجند الأجانب عن السبب قيل لهم إن مدينة بالنسيه الآن .. تحت الحصار ..

تحت الحصار..!

غضب القائد المرابطى ابن عائشة أشد الغضب على القاضى ابن جحاف، واعتبره شخصا لا يمكن الوثوق فيه، وقرر ألا يتعاون معه ما بقى حاكماً لجماعة الحكم فى بالنسية .. بينما كان القاضى يرى أن القائد المرابطى ابن عائشة متردد لا يستطيع أن يتخذ قراراً فى الوقت المناسب .. وأنه هو المسئول عن تأخر المساعدات إلى المدينة، وأن القائد المراكشى يريد أن يساوم أهل بالنسيه من أجل الحصول على أكبر قدر من المساعدات مقابل قدومه لنجدة المدينة ..

عاد الناس إلى المدينة بعد أن أحكَم رودريجو الحصار على كل أبواب أسوار المدينة وكل المخارج والمداخل منها وإليها واشتكوا إلى القاضى قائد الجماعة .. ومن فوره أرسل القاضى إلى رودريجو يذكره بما تعهد به بعدم مضايقة أهل المدينة أو عدم منازعته (أى القاضى) فى الحكم ...

فأرسل رودريجو للقاضى يطالبه بالوفاء بالوعد الذى قطعه على نفسه لكى يفى هو بعهده، وذلك بأن يقوم القاضى بإرسال القمح والغلال التى كانت له (أى لرودريجو) بمخازن المدينة، وثانياً أن يدفع القاضى له ما كان يدفعه له الملك القادر بالله، ليساعد رودريجو على تدبير نفقات الجند ..

وطالب القاضى أخيراً بأن يقر لروريجو بالتواجد بأحياء بلا نوبة، والجبالة، والكدية .. هذه هى الشروط التى لا يقبل رودريجو بأقل منها لرفع الحصار عن بالنسيه ..

أدرك القاضى أنه وإن تَجنب الوقوع فى حفرة المرابطين فإنه الآن قد وقع فى حفرة أكبر منها وأعمق وهى حفرة دهاء ومكر رودريجو .. وأرسل القاضى لرودريجو الحنطة التى كانت له بمخازن المملكة، ومبلغ خمسة آلاف مثقال من الذهب لرفع الحصار .. فأرسل له السيد يشكره .. إلا أن رودريجو طالبه بالخمسة آلاف مثقال الأخرى من الذهب ليكمل القيمة الشهرية للنفقة المقررة على المملكة ..

أسُقط فى يد القاضى، ولم يصدق نفسه من القيمة التى يطالبه بها رودريجو .. وأدرك أن رودريجو لم يتشاور معه على كل التفاصيل قبل إخراج القاضى للمرابطين من المدينة، وأولها مقدار النفقه اللازمة لقواته، لأنه لو أدرك القيمة التى سيطالبه بها رودريجو، ما ترك المرابطين يرحلوا، وقد كانوا لا يكلفون القاضى أكثر من خمسمائة مثقال شهرياً ..

لم يستطع القاضى أن ينتظر طويلاً وطلب من الجماعة الحاكمة الإجتماع به ليتدبروا أمر المدينة والحصار الواقعة فيه .. وحضر الإجتماع كل الجماعة بما فيهم الأمير أبو عبد الرحمن بن طاهر، بعد أن رأى أن ابتعاده عن الإجتماعات فى الفترة السابقة لم يزد الأمور إلا تدهوراً وخطورة ..

فى مجلسهم بدار القضاء والإفتاء تحدث القاضى ابن جحاف إلى الجماعة فقال:

لقد تجاسر علينا المدعو رودريجو بعد أن عاهدنا على ألا يتعرض لأهل بالنسيه، ويحفظ الناس فى أملاكهم وتجارتهم .. ها هو الآن يريد ابتزازنا بعد أن خرج المرابطين من المدينة ... فيقاطعه الأمير أبو عبد الرحمن فيقول للقاضى:

ـ ومن الذى طلب من المرابطين الخروج من المدينة، وقد كانوا درعاً لنا ونطمئن لوجودهم

ـ لم يكونوا أكثر من ثلاثمائة فارس هم المقاتلون فى الميدان .. بينما رودريجو لديه هنا أكثر من خمسة آلاف فارس، ومثلهم من الجند الراجلة

ـ لا تحسب الأمور هكذا .. إن ثلاثمائة فارس يحمون الأسوار المنيعة أكبر من القوة التى حشدها لنا المدعو رودريجو .. والأكثر من هذا أن هؤلاء الفرسان المرابطين لهم جيش جرار يقف على مسافة أميال من بالنسيه .. وكانوا لن يسمحوا لأى جيش بإبادة جندهم .. فإذا ما تعرض فرسانهم للحصار، فكان الجيش المرابطى سيتدخل لا محالة، لتقديم الدعم للمدينة، وبداخلها فرسانهم .. لقد ضيعتنا بإخراجك لهم .... فيرد ابن جحاف:

ـ لم أتخذ هذا القرار وحدى .. بل كنتم تعلمون به

ـ هذا غير صحيح .. وبالرغم من أننى لم أكن أحضر إجتماعاتكم إلا أننى قد سألت القاضى أبو الوليد الوقشى، عن سبب خروج المرابطين من المدينة، فأجابنى بأنه لا يعلم سببا لذلك ..

ـ ولكنى أخبرت الشيخ أحمد البتى

ـ مع احترامنا للشيخ البتى فهو ليس كل جماعة الحكم، فأنتما اثنان ونحن ستة، وقد كان من أهم أسباب عدم حضورى مجلس الجماعة هو إدراكى أنك كنت ستملى إرادتك على الجماعة، وتستأثر برأيك

ـ هذا غير صحيح أبداً

ـ الصحيح هو أنك لم تتخذ قراراً واحدا .. قراراً واحداً أكررها لكً وقد استشرت الجماعة فيه لم تستشر الجماعة فى أى قرار منذ تم انتخاب هذه الجماعة ... فتدخل الشيخ أبو بكر (ابن المعلم) فقال:

ـ المهم الآن ماذا نفعل لكى ننقذ البلاد من براثن هذا الخنزير .... فيقول الشيخ أحمد البتى

ـ يجب أن نرسل إلى أمير المسلمين لنستصرخه لإرسال القوات إلينا لنجدة المدينة ... فيقول الأمير أبو عبد الرحمن:

ـ وهل سيستجيب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى استغاثتنا ... فيتساءل الشيخ أبو الوليد الوقشى فيقول:

ولم لا يلبى أمير المسلمين نداء الاستغاثة ... فيقول الأمير أبو عبد الرحمن:

ـ لأن القائد ابن عائشة، لا شك أنه قد أخبر أمير المسلمين بما قام به القاضى ابن جحاف .. ولن يقبل أمير المسلمين نجدتنا .... فيقول الشيخ أبو الوليد الوقشى

ـ إذن فلتكتب الرسالة باسمك، ونوقع عليها جميعاً من خلفك ... وليعذرنى القاضى ابن حجاف فللضرورة أحكام ... فيقول القاضى ابن جحاف:

ـ لا بأس .. لا بأس ... فيقول الأمير أبو عبد الرحمن:

ـ ولكن حتى وإن استجاب لنا أمير المسلمين، فلن يكون ذلك فى القريب العاجل .. نحن نريد حلولاً سريعة ...

ويعم الصمت القاعة للحظات ثم يقول الشيخ أبو بكر (ابن المعلم)

ـ لا خيار أمامنا إلا أن نرضخ ونتصاع إلى طلبات الخنزير رودريجو، ونقدم له ما يطلبه كنفقة شهرية، حتى يمكن لنا الخروج من الحصار، وفى نفس الوقت نرسل سراً إلى أمير المسلمين نطالبه بإرسال النجدة لنا، وندبر له بعض النفقات التى تعينه على إرسال قوة كبيرة لنا ... فيرد الأمير أبو عبد الرحمن:

ـ نعم الرأى، وكما قال الشيخ الجليل فلا خيار لنا، ولكن لابد أن نرسل له مبلغا كافيا، يرضيه لكى يستشعر جديتنا فى استدعائه .... فيسأله القاضى ابن جحاف

ـ وما هو المبلغ الذى تقترح أن نرسله إليه ... فيجاوبه الأمير بسؤال:

ـ ما هو المبلغ الذى طلبه منك رودريجو كنفقة لقواته شهرياً

ـ عشرة آلاف مثقال

ـ إذن فلا أقل من أن ترسل لأمير المسلمين مبلغ ثلاثين ألف مثقال من الذهب

ـ ثلاثون ألف مثقاال ... (يقولها ابن جحاف وكأن روحه تصعد إلى السماء)

ـ وتؤكد له أنك ستدفع مثلها إن تحقق له النصر على جيش المرتزقة اللعين ..

ـ ولكن من أين لى بهذه الأموال جميعها ... فيقول له الأمير:

ـ من المسئول عن بيت المال ... فيقول الشيخ أحمد البتى:

ـ أنا

ـ وماذا لديك ببيت المال

ـ نحو اثنى عشر ألف مثقال، نعد خمسة آلاف منها لنرسلها للخنزير رودريجو.. فيقول ابن طاهر باستغراب :

فقط اثنى عشر ألف مثقال .. أين أموال المملكة ... (يقولها متسائلا وهو ينظر إلى القاضى تارة، وتارة إلى الشيخ أحمد البتى) .. فيقول الشيخ البتى:

لم نجد بخزينة المملكة إلا نحو خمسة وعشرين ألف مثقال، وصرف منها ثلاثة عشر الف مُثبَتة فى دفاتر الصرف .. والـ فيقاطعه الأمير قائلاً :

ـ خمسة وعشرون ألف مثقال فى خزينة المملكة التى يصل دخلها من خراج بلداتها ومدنها ومزارعها لأكثر من خمسين ألف مثقال كل شهر

لا تنس أننا منذ مدة لم ينتظم لدينا الخراج القادم من البلدات والولايات والمقاطعات على الوجه الذى كانت عليه قبل سقوط القادر بالله .. كما أن الملك القادر قد خبأ الكثير من المال فى خزائنه ..

ـ نعم أين الذخائر والأموال التى كانت للقادر، لقد علمت أن القاضى قد أعد لها كشوفا، وهى الآن موضوعة فى مخابىء .. أليس كذلك ... فيرد القاضى ...

ـ نعم كل شىء فى أمان، وقد قمت بإخفاء الذخائر والأموال حتى لا تقع فى يد الغوغاء، وحرصاً عليها ... فيقول الأمير :

ـ حسناً ما مقدارها

ـ تقصد ماذا .. (يقول القاضى بن جحاف)

ـ أقصد ما مقدار هذه النفائس والمجوهرات والأموال

ـ لم يتم إحصاؤها بدقة

- ألم تسجل قيمتها، ونوعها وأوصافها فى سجلات

- لا .. لم يتوفر الوقت لذلك

- ومتى يتوفر الوقت

- قريباً جداً

- هذا كلام غير مقبول .. لابد أن يتم جرد هذه الأموال، وفحصها وجردها، وتعيين أوصافها بدقة

- سوف يحدث ذلك

- فوراً بإذن الله

- إذن لابد لك آن تطلعنا فى الجلسة التالية عما تم فى هذا الشأن

- لا مانع فى ذلك

- إذن ماذا لديك من أموال وجدتها فى خزائن القادر ..؟

- نحو عشرة آلاف مثقال أخرى

- إذن نرسل العشرة آلاف الموجودة لديك من أموال القادر بالله، والباقى وقيمته نحو عشرون ألف نرسلها على هيئة ذخائر، لأمير المسلمين

- وكيف ندبر شئون المملكة لن يبقى سوى سبعة آلاف مثقال، بعد إرسال المال إلى رودريجو

- أولاً ندفع لرودريجو باقى النفقة، وهى خمسة آلاف مثقال ... فيقول القاضى متسائلاً :

- وبعد ذلك ..؟

- لابد لنا أن نرسل المال إلى أمير المسلمين فذلك له أولوية عظيمة .. فهو دليل جديتنا، فبعد إرسالنا باقى نفقة رودريجو سوف يرفع عنا الحصار، عندها سوف يأتينا الخراج إذا ما انتظمت الحياة فى المملكة، ومن هذا الخراج، ومما هو

متبقى من أموال الآن بخزينة بيت المال .. يمكن لنا أن ندبر ما تحتاجه البلاد من نفقات بيسر وسهولة ... وخير لنا أن ندفع الآن ثلاثين ألف مثقال للمرابطين من آن نجد أنفسنا بعد أقل من شهر عاجزين عن امتلاك مائة دينار تحت حصار هذا المشرك الدنىء رودريجو ..

واتفق الحاضرون على ما اقترحه الأمير أبو عبد الرحمن بن طاهر، وبدأوا فى إعداد خطة لإرسال المال والذخائر سراً إلى أمير المسلمين فى مراكش بعد أن يرفع عنهم رودريجو الحصار ..

وافق القاضى بن جحاف على خطة أعدها جاسر لتوفير فرق صغيرة من جند الله لتبقى خارج مدينة بالنسية، يمكن تكليفها بأى مهام لصالح حكومة الجماعة بالملكة ..

وتم اختيار هذه المجموعات الصغيرة ممن يعيشون أصلاً خارج المدينة فى البلدات أو القرى المجاورة لها، أو ممن لهم تجارة وأشغال خارجها من قبل أن يفُرض على المدينة الحصار، حتى يبقى أمر هذه الفرق سراً، وبحيث لا يستطيع رودريجو أن يتعقبهم إذا ما كلفوا بمهام ضد قواته المرتزقة ..

كان سالم أول من تم اختيارهم لتنفيذ هذه الخطة وسمح له بالتواجد خارج بالنسية للعمل ضمن قوات جند الله .. فغادر سالم وزوجته نائلة المدينة قبل حلول شهر رمضان بيوم واحد، وقبل فرض الحصار على المدينة بثلاثة أيام .. حيث آقام فى منزل العائلة بالمزرعة، وكان رضوان ممن كلفوا بذلك أيضاً فأصبح قريبا من سالم، ولا يفارقه أبداً ..

كما اتفق جاسر مع القاضى ابن جحاف على أن يكون جاسر حر التنقل ما بين المدينة وخارجها، استغلالاً لطبيعة عمله، وليكون همزة الوصل ما بين حكومة الجماعة ومقاتليها خارج المدينة ..

أرسل القاضى باقى قيمة النفقة الشهرية التى قررها رودريجو على المملكة ليرفع الحصار عن المدينة .. فشكره رودريجو على حسن استجابته لطلباته وسمح بفك الحصار عن المدينة، والسماح للأهالى بالدخول والخروج من المدينة، ولكنه

أقام نقاط تفتيش للخارجين والداخلين لكشف أى مخالفات قد لا يسمح بها رودريجو ..

وفوجئ القاضى بمواقع التفتيش التى فرضها رودريجو خارج المدينة، وأرسل إليه معترضاً على ذلك، وأخبره أنه قد نفذ كل طلباته، وأنه (أى رودريجو) يتراجع عن تنفيذ ما تم الاتفاق عليه بعدم مضايقته لأهل البلاد ..

أرسل رودريجو يبين للقاضى أن التفتيش مجرد إجراء بسيط غير مقصود به مضايقة الأهالى .. بل إنه (أى رودريجو) قد شدد على رجاله بعدم التسبب للأهالى بأى مضايقات، وأنه لا يسمح بتفتيش النساء احتراماً لمشاعر المسلمين، وعاداتهم وتقاليدهم ..

وفى كل الأحوال فقد تنفس الناس الصعداء حيث استطاعوا أن يتابعوا أعمالهم ويقضوا عيد الفطر المبارك بلا مشاكل بعد أن تم رفع الحصار ..

وأصبح الاهتمام الأكبر لدى القاضى وجماعة الحكم فى بالنسبة هو كيفية تسريب الذخائر والأموال التى سترسل إلى القائد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فى مراكش من نقاط التفتيش التى أقامها رودريجو .. وتم عقد بعض الإجتماعات السرية لتنفيذ خطة التهريب

تولى جاسر مسئولية نقل الأموال والذخائر فى أكياس صغيرة من الجلد مختومة بأربطة محكمة، وذلك من خلال معدات الصيد، الخاصة بالصيادين، وكذا مقاطف الأسماك النتنة التى يستخدمها الصيادون كطعم لصيد الأسماك ..

حيث تنكر بعض جند الله فى لباس الصيادين، وآخرون ممن يعملون فى مهنة الصيد أصلاً كان جاسر قد جندهم من قبل للعمل فى فرق جند الله .. وبدأ تسريب الأموال أولاً على مدى أسبوع .. ثم تلا ذلك تهريب الجواهر (الذخائر) على مدى ثلاثة أيام ..

وبنفس الترتيب بدأت عملية النقل للذخائر والأموال من خلال القوارب فى بحيرة المدينة، ومنها وعبر البوغاز حيث كانت تخرج القوارب إلى البحر فى

رحلات الصيد داخل المياه العميقة، حيث تم نقلها إلى مركب معدة للإبحار ترسو فى عمق البحر على مسافة بعيدة نسبياً بحيث تكون بعيدة عن أعين المراقبين ..

باكتمال نقل الأموال والذخائر بنجاح .. صعد إلى المركب أربعة من الرجال التابعين لجماعة الحكم بالمملكة يحملون رسالة إلى أمير المسلمين متوجهين بها إلى مراكش وبدأ طاقم المركب رحلة الإبحار إلى مدينة سبته على الجانب الآخر من البحر ..

شعرت جماعة الحكم بالراحة بعد عودة بعثتها من مراكش بعد أن أمضت ثلاثة أسابيع، وذلك بعد أن التقت بأمير المسلمين .. وأبلغ رجال البعثة جماعة الحكم فى بالنسيه بنجاح مهمتهم، وأن أمير المسلمين سوف يصدر تعليماته بإعداد القوات المرابطية للتحرك لنجدة المدينة ..

ساد الهدوء الحذر أجواء مدينة بالنسية، وتناقل الناس فى أحاديثهم أنباء قرب قدوم جيش أمير المسلمين إلى المدينة لتحريرها من قوات السيد التى تحتل الأحياء الخارجية للمدينة .. وتضيق الخناق على الأهالى فى الدخول والخروج من المدينة، والحال التى عليها سكانها، وهم يعلمون أن قوات السيد مستعدة فى أى وقت لوضع المدينة تحت الحصار بمجرد صدور أوامر منه بذلك ..

عاد الفونسو إلى طليطلة مع قدوم الشتاء هارباً كالعادة من الأجواء القارصة فى مدن الشمال الإسبانى .. وراح يبحث عن الدفء فى طليطلة، حيث كان قد ترك قلبه هناك .. ورحل من المدينة على عجل حينما جاءته الأخبار بوفاة زوجته الملكة كونستانس أم ابنته أوراكا (سمى بنته على نفس اسم أخته) ..

بشوق ولهفة أرسل ألفونسو للأميرة سيدة لكى تستعد لاستقباله، إلا أنها أرسلت له تطلب منه ألا يأتى لزيارتها خلال هذه الفترة لشعورها بالتعب والإرهاق، وأنها تفضل العزلة فى الوقت الحالى ..

لم يفهم الفونسو السبب الحقيقى لاعتذارها، وهو يعلم أنها تبادله الشوق واللهفة للقاء يجمع بينهما .. فلم يأبه لما ساقته له من أعذار وقرر أن يذهب إليها ليعرف بنفسه سبب اعتذارها عن لقائه ..

فوجئت الأميرة بالخدم يخطرونها بقدوم الملك فى ردهة القصر الصغير الأنيق الذى تقيم فيه .. ووجدت سيدة نفسها مرتبكة، وقد كانت جالسة فى مخدعها وقد تبللت عيناها بالدموع ولم تزل بملابس النوم، حيث لا تنتظر أن تلتقى بأى شخص فى هذه الظروف النفسية السيئة التى تمر بها .. حتى ولو كان الملك نفسه .. بل إن الملك نفسه يجب ألا تراه، وهو الذى سبب لها الألم والحزن فى الأيام الأخيرة بعد ما وصلها من أخبار ..

وبينما الأميرة مرتبكة لا تعرف كيف تتصرف حيال وجود الملك بالقصر، وما يجب عليها ان تفعله، مع ضرورة أن تسرع بارتداء الملابس التى تليق بمقابلة الملك .. فإذا بها تجده أمامها على طرف مخدعها بغرفتها فى الطابق العلوى بالقصر..

ارتجفت الأميرة، وانتفضت من رقدتها على السرير، ونزلت من الفراش، وهى تقول:

ـ لماذا لم تنتظر قدومى إليك .. آه لا يمكن أن ترانى هكذا .. لماذا يا الفونسو (قالتها وقد بدا التأثر الشديد عليها، وقد رآها على هيئة لا تحب أن يراها عليها مهما كان بينهما من تآلف وحب .. فالمرأة هى المرأة تريد لحبيبها ان يراها على أفضل وأجمل هيئة) ..

ـ وماذا فى ذلك .. لقد اشتقت إليك

ـ وأنا لا أريد أن أراك ..

ـ لماذا يا حبيبتى لماذا .. ما الذى حدث منى

فتقول له وهى تدفعه خارج الغرفة لترتدى ملا بسها:

ـ سوف تعرف عندما أخرج إليك

ـ ولماذا لا نجلس فى الغرفة ... يقولها وهو خلف الباب وقد أغلقته

ـ لا .. لا .. غير مسموح لك بدخول الغرفة أبداً بعد الأن .. !

وبعد نصف ساعة قضاها الفونسو فى غرفة الاستقبال منتظراً الأميرة، وهو يروح ويجئ قاطعاً الغرفة بطولها وعرضها ..

جاءت الأميرة، وقد تزينت بأحلى ما لديها من ثياب وتقلدت عقدا من الزمرد الأخضر مطعما بفصوص من الماس، وقد تدلى القرط اللؤلؤى من أذنيها، وبفتنة طاغية تقدمت نحوه، وقد تجمدت ملامح وجهها بابتسامة باهتة، وقد مدت يدها إليه فى برود استشعرته أصابعه حينما لامست يدها .. فقال لها:

ـ آه منك، ومن روعتك .. لقد خلقت لتكونى ملكة

ـ أتظن ذلك ... تقولها ببرود وهى تجلس على المقعد الوثير أمامه

ـ أنا لا أظن، ولكنك حقيقة ملكة .. (قالها وهو يقصد أن يثنى عليها وعلى جمالها)

ـ الحقيقة هى أنك ارتضيت لى أن أكون مجرد عشيقة لك .. ولم تفكر يوماً أن أكون زوجة لك

للحظات بُهت الفونسو لكلامها الذى لم يتوقعه .. فهو لم يفكر يوماً أنها من الممكن أن تكون زوجة له، فهى مسلمة، وهو مسيحى .. حتى وإن رضيت أن تكون هى زوجة له فتقاليد القصر لا تسمح له إلا أن تكون له زوجة واحدة، وهذه الزوجة لابد أن تكون مسيحية .. ثم قال لها مستدركاً حديثها:

ـ يا ليتك كنت لى زوجة ..

ـ لم تعطنى هذه الفرصة لأكون زوجتك

ـ آه يا زايده .. كيف يمكن ذلك

ـ أولم تعلم بماذا تسميت حتى تنادينى بزايده

ـ وما اسمك

ـ ماريا

ـ إنك تسخرين

ـ لم أكن جادة أبداً مثلما أنا عليه الآن

ـ ولكنك لم تخبرينى بذلك من قبل .. وعلى كل حال فهذا أمر رائع، واسم رائع، ولكن كيف ..؟

- ألم أعد إلى بلدى، وإلى أهلى، فكان من الطبيعى أن أعود كما كنت فى كل شىء

- أتذهبين إذن إلى القداس فى أيام الأحد

- نعم أنا وأولادى

- وأولادك .. ! .. هذا أمر مذهل .. ولكن هل أجبرك أحد على ذلك .. أو أكرهك عليه

- نعم ..

- كيف يكون ذلك ومن تجرأ عليك وأجبرك أنت وأولادك على ذلك .. من ..؟

- فترد عليه ببرود زائد فيه شكل التحدى

- أنت

- أنا

- نعم .. أنت .. لقد غيرت كل شىء فى حياتى من أجلك، وأنت جامد لا تتحرك

- لم أكن يوماً جامداً معك، فحينما أرى عينيك يلتهب جسدى كله شوقاً وعشقاً لك فكيف أكون جامداً تجاهك ..؟

- جمودك فى تجاهلى ..

- كيف يكون ذلك، وأنا أعد الأيام واللحظات حتى ألقاك

- هذا واضح من تصرفاتك .. فلم تنتظر كثيراً على وفاة الملكة كونستانس، وها أنت لم تضيع وقتك، وتزوجت سريعاً

- آه .. ألهذا السبب كل هذا الغضب منى والبرود تجاهى

- ألا تستحق ذلك ..؟

- بالطبع لا .. فأنت تدركين مسئوليات الملك .. لا يمكن أن يبقى الملك بلا زوجة .. كان لابد لى أن أتزوج برث

- هل اختاروها لك مكرها

- ليس كذلك بالضبط، ولكنى على كل حال كان لابد لى من الزواج

- ولكن برث جميلة كما يقولون

- حبيبتى صدقينى لا توجد امرأة فى كل أسبانيا أجمل منك

- فتقول له وقد امتلأ قلبها غيظاً وكمداً

- ولكنك لم تعطنى الفرصة

- أقسم لك لم أكن أعرف

- لماذا لم تنتظر

- لابد أن يكون لى وريث للعرش، ولم أنجب سوى بنات .... فتقول له وهى محتدة

- آه أيها الأحمق كنت سأمنحك هذا الوريث ..

- ماذا تقولين .. تمنحيننى الوريث .. أتحبين أن تتجبى منى

- نعم، ولن يمنحك غيرى هذا الوريث

- لماذا أنت متأكدة من ذلك .. هل تعلمين الغيب ... (يقولها وهو يمزح، ويريد أن يلطف الحديث بينهما)

- أنا لا أنجم، ولكنى أتكلم عن حقيقة ..

- أسمع من نبرات صوتك لهجة التحدى .... (ولكنها تبقى صامتة لا ترد عليه) فيواصل حديثه لها فيقول:

- ألهذا الحد كنت تكرهين قرطبة

- لا .. لم أكرهها أبداً

- إذن بماذا تفسرين ما تقوليه ... (فتحاول أن تخفى ما فى نفسها من شهوة الانتقام من المرابطين)

- أليس كافيا .. أن أحبك

- ما أحلى كلماتك، وما أحلى حبك

- آآه .. كلمات .. مجرد كلمات

- لا يا ماريا، أنا أحبك من كل قلبى

فنظرت إلى عينيه، وقد مست كلماته قلبها، وكانت قد صممت أن توصده فى وجهه ولو لفترة ..

فرأت طلا رقيقا من دمع الشجن يلمع فى عينيه .. فرق قلبها نحوه، وذاب الجليد من على وجهها، وتوردت وجنتاها بحمرة الحب .. وراحت تسقيه الخمر بعيونها .. ومن كأسِها حيناً .. وحيناً من الثغر .

عاد أبو عيسى بن لوبون إلى مربيطر، ومكث بها شهراً حتى أتاه ولى عهد إمارة شنتمرية الأمير يحيى الملقب بحسام الدولة، برفقة فرقة من الجند فى نحو مائة فارس .. ليسلمه ابن لوبون قيادة الولاية (ولاية مربيطر) حيث سيتولى الأمير حكم الولاية نيابة عن والده ..

وقدم الأمير لعيسى بن لوبون ثلث الأموال التى تم الاتفاق عليها بين الأمير أبو مروان وأبو عيسى بن لوبون، وأعطى ابن لوبون وثيقة عهد بباقى الثمن يدفعها له الأمير أبو مروان لاحقاً، وفوجئ ابن لوبون بهذا الموقف ثم وافق فى النهاية على ذلك ولكن على مضض ..

ثم قام أبو عيسى بتسليم حسام الدولة كل ما يخص مدينة مربيطر من وثائق ودفاتر، وأختام .. كما قام بتسليمه مواقع الولاية وأرباضها، وقلعتها الحصينة الموجودة على الربوة العالية ..

تلى ذلك .. أن قدم أبو عيسى بن لوبون الأمير حسام الدولة لكبار رجال المدينة، وجمعه بهم فى عدة جلسات حتى يتعرف إليهم ويتعرفوا إليه .. وعين الأمير من يراه فى إدارة شئون الولاية ..

ثم قام الأمير حسام الدولة بتكليف القادة ورجال الدولة بالمهام التى كانوا مكلفين بها من قبل فى ظل أبو عيسى بن لوبون، ولكن طبقاً لمراسيم جديدة صادرة باسم الأمير الجديد للولاية، وهو الأمير أبو مروان عبد الملك أمير شنتمرية الشرق، ونائبه فى حكم الولاية الأمير حسام الدولة ..

كانت مدينة مريبطر فى الأصل تابعة لمملكة بالنسيه، وتؤدى لها خراجا سنويا متفقا عليه، كان يرسله أبو عيسى بن لوبون إلى حاكم المملكة، وقد إنتقل هذا الالتزام إلى الحاكم الجديد للولاية الأمير أبو مروان ..

ومكث أبو عيسى فى مريبطر أياماً مع حسام الدولة وذلك قبل أن يرحل إلى مقره الجديد فى ولاية أذكون بشنتمرية،، فقضى هذه الأيام يتجول فى البساتين والرياض، ويتطلع إلى الفيحاء الممتدة أمام تلال المدينة العتيقة وراح يتغنى بشعره فقال:

قم يا نديم أدر علىَّ القَرقَفا (١) ... أو ما ترى زهر الرياض مُفوَّفا

والجلنارُ دماءُ قتلى معرَكٍ ... والياسمين حَبابُ ماءٍ قد طفا

ثم تابع وقال:

لحا (٢) الله قلبى كم يحنُّ إليكمُ ... وقد بعتم حظى وضاع لديكمُ

إذا نحن أنصفناكم من نفوسنا ... ولم تنصفونا فالسلامُ عليكم

وبذلك اعتزل أبو عيسى بن لوبون الحياة السياسية، وتفرغ لشئونه الخاصة .. بعد أن زهد فى الحكم من جراء اضطراب الأحوال فى سائر بقاع شرق الأندلس منذ قدوم .. السيد .. رودريجو إليها منذ بضع سنوات ..

وصل موكب أبو عيسى بن لوبون حاكم مريبطر السابق إلى مقره الجديد الدائم بالقصر الذى اختاره له الأمير أبو مروان عبد الملك أمير شنتمرية فى

---

(١) القرقفا : الخمر ـ مفوف : مخطط وملون ـ الجلنار : زهر الرمان
(٢) لحا الله فلان : قبحه ولعنه.

منطقة أذكون التابعة لعبيد الله، حيث يعلم علاقة الود التى تجمع بين أبى عيسى، وعبيد الله ..

وأمضى أبو عيسى ثلاثة أيام فى القصر هو وعائلته وحاشيته من الخدم والعبيد والجوارى، إلى أن رتب أمور الإقامة على النحو الذى يرضاه، وبدأ يلبى دعوات الاستضافة الموجهة له من كبار رجال الإمارة، وعلى رأسهم الأمير .. وعبيد الله حاكم مقاطعة أذكون

لبى أبو عيسى دعوة الوزير عبيد الله حاكم أذكون لقضاء يوم فى ضيافته .. فذهب أبو عيسى للقائه، حيث استقبله عبيد الله وابنه محمد استقبالاً حاراً، وجلسوا يتناقشون فى أحوال البلاد والعباد فى كل شرق الأندلس .. فقال عبيد الله لأبى عيسى يسأله:

ـ كيف كانت الأمور بينك وبين الأمير حسام الدولة قبل مجيئك إلى هنا ..

ـ كان كل شىء على ما يرام،وسارت أمور تسليم الولاية بصورة طيبة .. إلا أنـ .. فسكت قليلاً .... فسأله عبيد الله مستفسراً:

ـ أراك قد توقفت عن الاسترسال فى الحديث ..

ـ نعم فلقد تعجبت لشىء لم أكن أتوقعه من الأمير أبى مروان حاكم شنتمرية يسأله عبيد الله مهتماً ومستفسراً

ـ وما هو ذلك الشىء ..؟

ـ لم يوفنى الأمير كامل الثمن المتفق عليه بل أرسل لى مقدار الثلث، وكتب لى موثقاً بباقى الثمن .. وهو ما أثار السؤال فى نفسى، وهو كيف لا يستطيع أن يدبر الأمير الثمن، وهو مبلغ نسبياً يعتبر قليلا .

ـ آه .. متى يتوقف الأمير عن هذه العادة ..! .. (يقولها عبيد الله، وهو يتراجع للخلف بظهره ليستند على مسند الكرسى الوثير بعد أن كان يتابع الحديث جالساً على حافة الكرسى وهو يستمع باهتمام)

ـ ماذا تقصد..؟

- لا شيء سوى أن هذه عادة الأمير

- وما هى عادته .... يسكت عبيد الله قليلاً فيتابع ابنه محمد الحديث فيقول:

- الأمير أبو مروان لا يدفع شيئاً كاملاً لمرة واحدة إلا إذا نازعه صاحب المال ورفض تأجيل الثمن

- ولماذا لا يدفع الثمن مرة واحدة ما دام قد حصل على ما يبغاه دفعة واحدة..

- لقد اعتقدت أنه قد تكون الأموال شحيحة لديه فى هذه الأثناء، وينتظر حتى يأتيه الخراج .... فيفاجأ أبو عيسى بمحمد وأبيه يضحكان فى وقت واحد قائلين:

- شحيحة .. هاها .. هاهاها .. إن ما لديه من أموال يستطيع أن يشترى بها عشر ولايات مثل مربيطر دفعة واحدة

- ولماذا لم يدفع لى إذن ..؟

- إنها العادة يا صديقى .. هذه عادته فيمن لا ينازعه فى الحصول على ماله قبل أن يسلمه الشيء الذى اشتراه منه ..

- لا قوة إلا بالله .. وماذا عن باقى مالى إذن، هل سيمنعنى منه ..؟ .... فيسكت عبيد الله وابنه قليلاً ثم يقول عبيد الله:

- لا ... لا .. ولكن .. سوف يتطلب منك ذلك أن تداوم على السؤال عن مالك وتطالبه به دون خجل

- ولكن هذا يشق علىّ .. لا أستطيع أن ألاحق شخصا لمال لى فى زمته .. هذا صعب .. وليس ذلك من خلق الإسلام

- اسمع يا أبا عيسى .. خلق الإسلام لمن له خلق الإسلام .. وليس مع هؤلاء أصحاب الأخلاق الوضيعة .. ! .... يذهل أبو عيسى مما يسمعه من عبيد الله، وابنه، فهى المرة الأولى التى يتحدث بها عبيد الله أمامه بما يثبت كراهيته للأمير ... ثم يتابع عبيد الله حديثه قائلاً :

ـ المسلم الخلوق يحفظ العهد .. ولا يغل .. ولا يوالى الكافر .. والأمير فى خلقه أقرب لخلق أهل الكتاب أكثر من خلقه كمسلم، وقد قال فيهم الله سبحانه وتعالى ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ (١) .

ـ لا قوة إلا بالله

ثم يتابعا حديثهما فى شتى الأمور، وخاصة ما يضربه المدعو رودريجو من حصار حول مدينة بالنسية والتضييق على أهلها دون أن يتحرك مسلم واحد لنجدة المدينة ..

عَظُم الحديث داخل بالنسية بصورة كبيرة عن قرب قدوم جيش المرابطين بقيادة ابن عائشة نفسه، وانتشرت معها أخبار عن عدم رضى القائد ابن عائشة عن تواجد القاضى ابن جحاف على رأس جماعة الحكم فى بالنسية .. وبدأ التابعون والموالون لآل الأمير عبد الرحمن بن طاهر يروجون لهذه الأخبار..

وتسربت أخبار قدوم المرابطين إلى .. السيد .. خارج المدينة، ولم يتأكد له ذلك إلا بوصول أنباء تفيد تحرك جيش المرابطين واقترابه من مدينة جزيرة شقر، بعد أن كان معسكراً جنوباً ناحية مدينة دانية ..

أدرك السيد .. رودريجو أن القاضى خدعه، وأرسل سراً ليستدعى المرابطين.. وأنه قد استغل فترة رفع الحصار عن المدينة ليبعث لهم برسائل بذلك .. وعلى الفور قرر شد الحصار، وإحكامه حول المدينة، ومنع أى شخص من الخروج أو الدخول إلى المدينة ..

واستيقظ الناس، وقد أحُكم الحصار حول المدينة، واقتربت قوات السيد أكثر فأكثر من الأسوار حتى أن قواته كانت تتواجد فى بعض الأماكن على مسافة مائتى متر فقط ..

---

(١) سورة آل عمران ـ الآية ٧٥ .

وعلى الرغم من الحصار إلا أن أهالى بالنسية فرحوا فرحة عارمة باقتراب القوات المرابطية من المدينة، وعاشوا حياتهم على طبيعتها، ولم يشددوا على إجراءات الاقتصاد فى استهلاك المياه والطعام .. وذلك على أمل منهم من أن الحصار لن يطول كثيراً .. وكيف ذلك، والقوات المرابطية على مسافة لا تزيد عن خمسة وأربعين كيلو متراً ..

وفى ذات الوقت، شعر .. السيد .. بخيبة أمل من اقتراب المرابطين، وزاد من حنقه على أهل بالنسية، ما كانوا يبدوه لجنده من عدم احترام وسخرية فى المناطق التى تتواجد فيها قواته بالقرب من الأسوار .. حيث يُسمِعهم الأهالى السباب، ويتوعدوهم بقدوم المرابطين .. حتى أن الكثير من جند السيد بدأوا يشعرون بالرهبة والقلق من اقتراب جيش المرابطين ..

مع اقتراب عيد الأضحى، وبقاء القوات المرابطية على حالها لأكثر من شهر دون أن تتقدم أكثر نحو مدينة بالنسية، شعر الناس بالضجر والغضب، وراحوا يبحثون عن السبب .. وتصيد المنافقون والمرجفون فى المدينة الفرصة، وزادوا من شائعات رفض المرابطين القدوم للمدينة وعلى رأس الجماعة القاضى أبن جحاف..

وسرعان ما تزايدت الإشاعة، ومع اقتراب العيد أكثر فأكثر، زاد ضجر الناس ومللهم من استمرار القاضى على رأس الجماعة حتى كان المجلس المنعقد للجماعة قبل العيد بأيام فى الأسبوع الأخير لشهر ديسمبر ..

حضر المجلس بكامل هيئته، وترأس الإجتماع القاضى ابن جحاف ثم تحدث الأمير أبو عبد الرحمن بن طاهر فقال موجهاً حديثه للقاضى:

ـ لماذا يستمر رودريجو فى فرض الحصار رغم التزامنا بسداد النفقة إليه .. يجب تهديده بقطعها عنه إن لم يرفع الحصار فوراً قبل العيد .... يرد القاضى عليه:

ـ وماذا عساى أن أفعل مع هذا اللعين الذى لا عهد له ولا ميثاق .. فيقول له الأمير:

ـ لا يمكن لرئيس الجماعة أن يبقى عاجزاً لا يستطيع أن يقدم الحلول لحل المشاكل .

ـ وهل يستطيع أحدكم أن يفعل ما لا استطيع فعله إننى لم أقصر فى شىء .... فيتدخل فى الحديث القاضى أبو الوليد الوقشى فيقول له:

ـ اسمع يا أبا جعفر .. إن لكل مرحلة رجالها .. وهذا الوقت الذى نمر به الآن ليس الوقت المناسب لتبقى فيه على رأس الجماعة

ـ ماذا تقصد ..؟ .... (يسأله القاضى ابن جحاف)

أقصد آن رئاسة الجماعة عمل تطوعى ..، تقوم به أنت أو من يختاره المجلس من أجل صالح الأهالى

ـ وماذا تقترح إذن ..؟

أطلب منك باسم شعب بالنسية، وباسم المرضى والثكالى، والنساء والأطفال .. أن تعتزل الرياسة لرجل غيرك يخرج البلاد مما هى فيه

ـ أنا لا أمانع فى ذلك، ولكن لابد لى أن أعرف ما الذى يستطيع أن يفعله من سيحل محلى، ولا أستطيع أن أفعله أنا ..... فيقول له الأمير أبو عبد الرحمن:

ـ لا نستطيع أن نتنبأ بالغيب .. ويجب أن يحصل غيرك على فرصة لكى يثبت فيها أنه قادر على خدمة شعبه .. ومن يفشل نختار غيره إلى أن يهدينا الله إلى طريق الصواب والرشاد .. ولا تنس أن هناك من يطلب اعتزالك بدعوى عدم قدوم المرابطين لعدم رغبة القائد ابن عائشة التعامل معك .. ومهما كان رأيك فى ذلك فلابد من أجل صالح البلاد أن تعتزل لتترك لغيرك أن يجرب التعامل مع القائد المرابطى .. ولن يضيرك ذلك شيئاً، فالعمل برئاسة الجماعة هو تطوع أولاً وأخيراً .. أليس كذلك يا قاضينا

ـ لا مانع لدى .. وأنا مع من تختاروه .... فيرد الشيخ أبو الوليد الوقشى

ـ بارك الله فيك يا قاضينا الكريم

ثم يتساءل الشيخ البتى فيقول ومن تختاروه من بينكم تروه يصلح لهذه المهمة .. فيقول القاضى الوقشى:

- أنا أرشح الأمير أبو عبد الرحمن، فمن يؤيدنى

فيرفع الشيخ التاكرنى يده، والشيخ أبو بكر عبدون (ابن المعلم) والشيخ أبو الوليد الوقشى ... بينما يمتنع عن التصويت كل من القاضى ابن جحاف، والشيخ البتى، والأمير عبد الرحمن، فيكون العدد سته ثلاثة منهم موافقون واثنان ممتنعون عن إبداء الرأى، والأمير لا يحق له التصويت لأن الموضوع يخصه وبالتالى تصدر موافقة المجلس على أن يكون الأمير أبو عبد الرحمن بن طاهر هو الآن رئيس جماعة الحكم فى بالنسيه ..

ومن فوره يتخذ الأمير قراره ببعث رسالة للقائد المرابطى بذلك سراً لحثه على القدوم لفك حصار المدينة .. وكذا أرسل أبو طاهر رسالة ودية إلى رودريجو يعاهده على الانتظام فى سداد النفقة الشهرية المتفق عليها لقواته مع طلب رفع الحصار عن المدينة لحلول العيد بعد ثلاثة أيام ..

سار المنادون التابعون للجماعة الحاكمة فى شوارع المدينة يعلنون اعتزال القاضى بن جحاف، وتعيين الأمير أبو طاهر عبد الرحمن رئيساً للجماعة .. وفرح الكثيرون لهذا القرار الصائب الذى سوف يسهل قدوم المرابطين إلى المدينة فى أقرب وقت ..

وسرعان ما وصل رد رودريجو على الأمير يهنئه بتعيينه رئيساً للجماعة، ويطلب منه أن يكون هناك تعاون بينهما أفضل من العهد السابق ..

ثم يخطره اعتذاره عن فك الحصار عن المدينة .. ويطلب من الأمير سداد أموال النفقة المتفق عليها لقواته عن الفترة منذ موت الملك القادر وحتى بداية دفع النفقة فى عهد القاضى، ومقدارها عشرون ألف مثقال .. ولم يتعهد فى الرسالة برفع الحصار فى حالة سداد أبو عبد الرحمن لهذا المبلغ الذى يطلبه ..

أخذ سالم يرعى شئون مزرعته فى منطقة الريوسة الزراعية خارج أسوار بالنسية، وقد ارتدى لباس المزارعين، وعيناه تتابع تحركات قوات .. السيد .. فى حصارها الذى تضربه على المدينة، بعد تشديد الحصار عليها ..

وراح سالم يتردد على برج الحمام الموجود بصحن الدار الخلفى بالمزرعة، حيث كان متلهفاً لوصول الحمام الزاجل من المدينة، يحمل له أى تكليف بمهام يقوم بها هو والمجموعة التابعة له، وكذا المجموعات الأخرى المنتشرة سراً خارج أسوار المدينة .. وذلك ضمن وسائل الاتصال المتفق عليها من قبل بينه وبين قادة جند الله التابعين لجماعة الحكم ببالنسية، ومنهم جاسر، إلا أن جاسر لم يَرد إليه شيء بذلك ..

وعلى الرغم من عدم اقتحام قوات .. السيد .. للمزارع والبساتين فى كل المناطق المحيطة بالمدينة، وترك الأهالى يعملون دون إزعاج لهم، وذلك رغبة من رودريجو (السيد) لكسب ود الأهالى خارج المدينة ليكونوا بمثابة أداة ضاغطة على سلطة الحكم داخل المدينة عندما يطول الحصار عليها ..

ولم ينخدع سالم لمكر رودريجو وقواته، وبدأ يفكر جدياً فى نقل زوجته إلى أقاربها فى مدينة مُرسية كما اتفق على ذلك من قبل مع والده الشيخ مسعود الموجود بالمدينة، وذلك حتى تكون النسوة بعيداً عن تواجد الجند الغرباء، فلا أحد يدرى ماذا ستفضى به الأمور فى المستقبل القريب ..

وما أن انتهى عيد الأضحى حتى تلقى سالم رسالة من جماعة الحكم ببالنسية، وجدها مقيدة برجل حمامة من حمامه الزاجل الذى كان قد تركه بالمدينة لدى جاسر وقيادة جند الله لنقل الرسائل إليه حينما تعود إلى برج الحمام ..

وفى الرسالة يطلب منه جاسر أن ينقل إلى القائد ابن عائشة فى جزيرة شقر أن الأمير أبو عبد الرحمن بن طاهر أصبح على رأس جماعة الحكم فى بالنسيه، وأن المدينة تنتظر قدوم المرابطين ..

تناقش سالم مع خادمه وتابعه بدران بشأن رحيل بهجة زوجة بدران مع نائلة إلى دار خالها وعائلته بمدينة مُرسية، إلا أن بدران طلب من سالم أن تبقى

زوجته بهجة معه لتساعده فى عمله فى المزرعة، ولسبب عدم وجود مكان تذهب إليه بهجة إذا رحلت إلى مرسية، كما أنه (أى بدران) ليس لديه مال كاف ليدبر نفقات السفر والإقامة لزوجته ..

إلا آن سالم طلب منه ألا يشغل نفسه بذلك، لأن بهجة عاشت حياتها مع سيدتها نائلة من قبل، ونائلة تتمنى وجودها معها فى أى مكان تذهب إليه .. ولكن ماطل بدران فى الرد على سالم، ولم يستطع سالم الانتظار أكثر من ذلك ..

وطلبت نائلة أن تلتقى ببهجة قبل سفرها إلى مرسية .. وجاءت بهجة إلى دار سالم بالمزرعة مع زوجها بدران، ثم طلبت نائلة من بدران أن ينتظر زوجته بالخارج حتى تستطيع أن تتحدث مع بهجة بحرية وعلى انفراد ..

عانقت نائلة بهجة، وأخذت تسترجع معها الأيام السعيدة التى عاشتاها معاً وقت أن كانت بالدار لا تعامل كجارية بل كصديقة حميمة لنائلة .. تطلعها نائلة على كل خصوصياتها لتقارب أعمارهما وتآلفهما معاً ..

وكان لوجود بهجة بالقرب من نائلة أكبر الأثر فى تعويض نائلة عن فقدها لأمها وهى مازالت فتاة صغيرة .. فكانت بهجة عوضاً ولو بسيطاً عن فقدان الأم .. فغمرت بهجة .. نائلة بالحنان والحب على مدى سنوات عاشتها تخدم نائلة بحب وتفانٍ وحنان .. لا تفترقان فيها أبداً ..

وقد سعد الشيخ أبو عمر والد نائلة بوجود فتاة بجوار ابنته ترعاها، وتحبها ابنته وكأنها صديقة حميمة .. فكانت معاملة كل من فى دار الشيخ أبو عمر لبهجة معاملة طيبة، لم تشعر فيها بهجة أنها جارية إلا كصفة لها، لا يعبر عنه واقعها الذى تعيشه بالدار ..

وبعد أن أجلست نائلة بهجة بجوارها قالت لها:

- لم لا تأتين معى إلى مُرسية بعيداً عن الأحداث التى تعيشها المدينة ..؟

- لم لا تبقين أنت معنا يا سيدتى هنا، لماذا تذهبين إلى مدينة بعيدة لا نعرف فيها أحدا .. ونحن نعيش هنا لا يتعرض لنا أحد بسوء ..؟

ـ يا بهجة لا يعرف أحد ماذا سيحدث غداً، وقد توقع سالم زوجى، وصديقه جاسر أن يحدث حصار للمدينة، ولم يصدقهم وقتها إلا القليلون، ولولا ذلك لبقينا نعانى الحصار فى المدينة .. والآن فقد يحدث ما لا يحمد عقباه .. وعندها نقول ليتنا كنا قد رحلنا ..

ـ ولكن يا سيدتى أنا لا أستطيع أن أترك زوجى

ـ سيكون ذلك لفترة مؤقتة إن شاء الله، ونعود بعدها للمدينة .. أرجوك تعالى معى .. أرجوك .... فترى بهجة دمعات تتساقط من عينى نائلة فتقترب منها وتحتضنها وهى تقول:

ـ لكم عشت معك لا أشعر إلا بالود والحب والحنان لك دون أن أنتظر منك شيئاً، إلى أن غمرتينى بكرمك وأعتقتنى بلا مقابل إلا ابتغاء وجه الله .. فتأكد لدىّ أنك تبادلينى حباً بحب .. وها هى دمعاتك الغالية التى تذرفها عيناك بمثابة سكوك من الذهب، والجوهر تزيد من قيدى بك، وتضاعف من دَينى لك .. ولكنى وإن كنت فقيرة لا أملك مالاً، فأنا أملك قلباً غنياً بحبك .... فيزداد عناقهما لفترة ثم تقول لها نائلة:

ـ هل ستأتين معى إذن ..؟

ـ لكم أتمنى ذلك، ولكنى الآن رهن لرغبة زوجى .. ولا أستطيع أن أغضبه

ـ أتريديننى أن أقنعه بذلك ..؟

ـ لا يا سيدتى فسوف يقبل ما تطلبيه، وهو يعتقد أننى قد حرضتك على ذلك .. فلنرضى بقدرنا الذى كتبه الله لنا

ـ أتحبيه يا بهجة ..؟ .... فتسكت بهجة للحظات وهى تنظر إلى الأرض، ثم ترفع رأسها وتقول لنائلة وهى تعلم أنها جزء منها لا تخشى أن تعبر لها عما يجيش فى صدرها من حب له

ـ نعم يا سيدتى أحبه من كل قلبى، وسوف أكون سعيدة بجواره مهما حدث

ـ أتمنى لك السعادة والحب يا بهجة

وتتعانقان، وتفيض الدمعات بينهما، وتعطى كل منهما إلى الأخرى تذكارا إلى أن يلتقيا .. فتقدم نائلة خاتمها الذهبى لبهجة .. بينما تخرج بهجة من جيبها حجابا صغيرا من الجلد مكتوب عليه آيات من القرآن ..

رحل سالم وبرفقته ثلاثة من أتباعه أحدهما شيخ من المزرعة على دراية بالطرق المؤدية إلى مدينة مرسيه، واثنان من جند الله من بينهما بدران .. واصطحب سالم زوجته نائلة وطفلهما عبد الله نحو جزيرة شقر جنوب بالنسية لتقديم المعلومات إلى القائد ابن عائشة ..

التقى سالم بالقائد المرابطى ابن عائشة، الذى سعد كثيراً لعزل القاضى بن جحاف عن رئاسة جماعة الحكم فى بالنسية .. ثم أخبره القائد، بأن القوات سوف تتقدم قريباً لرفع الحصار عن المدينة ..

ومن هناك تابعت نائلة رحلتها مع الشيخ إلى دار خالها وعائلته بمدينة مرسية بعد أن وصلوا إلى المناطق الآمنة التى تنتشر بها قوات المرابطين .. بينما اتخذ سالم طريقه عائداً إلى مزرعته فى الريوسة ..

أقبل شهر فبراير، والناس قلقون من توقف المرابطين عند جزيرة شقر، وعدم تحرك جيشهم لنجدة المدينة .. وبدأت الأحوال فى المدينة تسوء بدرجة كبيرة، وبدأت المؤن تقل تدريجياً وبدأ التجار يستغلون الظروف ورفعوا أسعار السلع ..

وطالب الأمير أبو عبد الرحمن رئيس الجماعة الحاكمة فى قرطبة من كبير تجار المدينة جمع التجار، وحثهم على عدم استغلال الظروف، برفع الأسعار، وطالبه بالتنبيه على التجار الالتزام بالأسعار وإلا تعرض المخالف منهم إلى العقاب، وتعرض متجره للإغلاق ..

وأكملت رضوى شهر حملها السابع فى منتصف فبراير ١٠٩٤ وساعدت ظروف توقف عمل جاسر فى تجارة الأسماك بسبب الحصار .. على تواجده لفترات طويلة إلى جوارها ليرعى شئونها، ويلبى طلباتها ..

وتفرغ جاسر للعمل فى مهام الأمن وتنظيم الحراسات داخل المدينة مع من يتبعه من جند تابع لقوة جند الله، وأسند له الشيخ التاكرنى مسئولية الحراسات على أسوار وأبواب المدينة ..

ولم تتوقف ماتيلدا الفتاة الأسبانية عن زيارة رضوى فى بيتها كلما سمحت لها الظروف بذلك، وقضاء أطول وقت معها لتسليتها فى وقت حملها الصعب، والمدينة تتعرض للحصار القاسى ..

فوجئ حراس الأسوار بتهليل القوات المحاصرة للمدينة، وفى كل الأرجاء حول أسوار المدينة فى ظاهرة غير معروفة .. ثم بدأ الحراس يتنصتون على ما يقوله هؤلاء الرجال التابعون .. للسيد .. ووصل لأسماعهم كلمات المرابطين ها هـ .. الجبناء .. المنسحبون .. وعلى الفور أخطروا رئيسهم جاسر، وبدوره أخبر رؤساءه ومنهم الشيخ التاكرنى .. فعرف الجميع أن هناك شيئًا قد حدث فى معسكر المرابطين عند جزيرة شقر ..

ولم يمض يوم حتى وصلت الأنباء عن تقهقر جيش المرابطين إلى الجنوب، وانسحاب قواته الأساسية من جزيرة شقر وابتعادها إلى مدينة دانية على مسافة نحو مائة وعشرة كيلو مترات من بالنسية .. وبدأ اليأس يتملك الناس، وقد غدا رفع الحصار عن المدينة وكأنه حلم بعيد المنال كالسراب ..

وأرسل القائد ابن عائشة رسالة للأمير أبو عبد الرحمن، يشرح له ظروف انسحاب قواته، وأن السبب فى ذلك هو من أجل مصاعب فى ورود المؤن اللازمة لقواته للاستمرار فى حملة عسكرية على بالنسيه .. ووعده بالعودة قريباً لنجدة المملكة ..

واجتمعت جماعة الحكم برئاسة الأمير أبو عبد الرحمن، للنظر فى القضايا الشائكة التى تخص المملكة، وخاصة أنباء انسحاب المرابطين ونقص السلع فى الأسواق، وغلاء الأسعار وانتشار الأمراض، وارتفاع حالات الوفاة بين الناس، وفى أوساط الفقراء بينما تخلف عن الحضور القاضى ابن جحاف ..

كانت القضايا المعروضه للبحث ذات خطورة كبيرة، ولا توجد وسائل فعالة فى يد رجال الحكم لحل هذه المشاكل، بينما الناس ينتظرون منهم أن يخرجوا عليهم من إجتماعاتهم بحلول لمشاكلهم ..

وتحدث الأمير إلى الشيخ التاكرنى يطمئن منه على موقف العسكر والأمن فى المدينة، وكفاية الدفاعات فقال له الشيخ التاكرنى:

ـ كل شىء يخص الدفاع عن أسوار المدينة، وحالة الأمن فى المدينة كلها على ما يرام، والجند والعسكر فى حالة معنوية عالية والحمد لله .... فيسأل الأمير الشيخ البتى عن حالة الأسعار فى المدينة فيقول له الشيخ البتى:

ـ التجار معذورون، فالبضائع بها نقص شديد وما لديهم من سلع لا يكفى إلا لأيام قليلة، وإذا حاولوا شراء بضائع فهم سوف يدفعون مبالغ كبيرة للحصول عليها ... فيقول له الأمير:

ـ وكيف يمكن لبسطاء الناس أن يحصلوا على احتياجاتهم من السلع ..؟ .... فيقول له:

ـ لابد أن يتعاون الناس بعضهم مع بعض فيقدم الأثرياء المال للفقراء لشراء السلع أو أن يشترى الأغنياء هذه السلع ويوزعونها على غير القادرين

ـ لابد من وجود جهة تنظم ذلك أى جمع الأموال وشراء السلع لتوزيعها على الفقراء، ويجب أن يتطوع بعض الناس لتحديد الفقراء المحتاجين لهذه السلع، وغير القادرين على شرائها .... فيتدخل الإمام أبو بكر بن حمدون فيقول:

ـ سوف أدعو الخيرين من رواد المسجد الجامع على التبرع بالأموال اللازمة لشراء السلع للفقراء .. ويجب أن يقوم بنفس الشىء باقى المساجد فى كل المدينة، وتحدد هذه المساجد الأفراد والعائلات التى تحتاج إلى المعونة لتقديم السلع إليها، وشراء العلاج للمرضى غير القادرين وتوفير الغذاء لهم .... فيقول أبو عبد الرحمن، فلتتولى ذلك أنت يا شيخ أبو بكر، وتكون مسئولا عن استلام التبرعات وتوزيع السلع طبقاً لمعايير يتم تحديدها لتنفيذ ذلك، وسوف نصدر لك فرمانا الآن يتولى كاتب الجلسة تحريره للعمل به منذ الساعة ... ثم يوجه الأمير حديثه للجميع متسائلاً:

ـ ماذا تعلمون من خبر انسحاب المرابطين بعد أن وعدونا بالقدوم، ولم نبخل عليهم بشىء فماذا حدث ..؟ هل يعلم آحدكم سبباً لذلك .... فيلوذ الحاضرون بالصمت للحظات ... ثم يتابع الأمير حديثه قائلاً:

ـ لن نستطيع أن نبقى على هذا الوضع بدون وضع حل جذرى لهذا الأمر .. فالمدينة ستضيع إن لم تأت النجدة أو يرفع عنها الحصار ..

يبقى الحاضرون صامتون لا يعرفون ماذا يمكن أن يقولوه .. وبقى معهم الأمير أبو عبد الرحمن لا يدرى ماذا يفعل أو كيف يدبر الأمر للخلاص من هذه المحنة .. ثم يقول لهم:

ـ هل يمكن لأحدكم أن يقدم حلا للتفاهم مع رودريجو (السيد) ..؟ ... فيقول الشيخ البتى:

ـ من الممكن طلب فك الحصار مقابل إعطائه المال الذى يطلبه ..

ـ وماذا إذا طلب منا ما تأخر بزعمه، وهو يطلب لذلك مبلغ عشرين الف مثقال

ـ ندبر له هذا المبلغ من ذخيرة الملك القادر الموجودة لدى القاضى ابن جحاف

ـ وماذا إذا قبض المال ولم يفك الحصار

ـ نرتب الضمانات التى تكفل لنا الوفاء بذلك، حيث نقدم له جزءا من المال مقابل أيام يسمح فيها بفك الحصار ثم تليها دفعة أخرى لقاء مهلة أخرى وهكذا .. وهذا على سبيل المثال .. ولكم أن تقترحوا ما تشاءون من تدابير للوصول إلى هدفنا وهو رفع الحصار عن المدينة ..

ـ ما رأيك أيها القاضى أبو الوليد (الوقشى) فى أن تتولى أنت المفاوضة مع رودريجو إذا طلب أن يتفاهم مع أحدنا ...؟

ـ لا مانع لدىّ

- إذن فلنرسل له بذلك من فورنا

وانتهى الإجتماع على ذلك الحال، وتم تحرير فرمان للشيخ أبى بكر بالمهام المكلف بها، وتم تحرير رسالة إلى رودريجو يعرض فيها الأمير دفع النفقات المتفق عليها مقابل فك الحصار ..

وفى اليوم التالى لوصول رسالة الأمير أبو عبد الرحمن لرودريجو أرسل .. السيد .. رده على الأمير وقال له " .. هذا قبل أن يتخلى عنكم المرابطون .. أما الآن فلا رفع للحصار عن المدينة إلا بالتسليم لشروطى .. "

وقرأ الأمير رد رودريجو على الرسالة فأسقط فى يده، واسودت الدنيا أمام عينيه، ولم يعد قادراً على التفكير فى حل للخروج من هذا المأزق الكبير .. ومضت أيام حتى اقترب شهر فبراير من نهايته وتعاظمت الأزمة فى المدينة، وبدا أن الأمور تزداد تدهوراً واشتعالاً ..

لم يكتف رودريجو بذلك بل دبر لقواته القيام بعدة هجمات على الأراضى والمزارع والأهالى بالمدن والبلدات البعيدة عن بالنسية فى الأراضى التى غادرتها قوات المرابطين عند جزيرة شقر ..

حيث توغلت فرق من القوات المرتزقة فى أراضى شاطبة، ونهبت المزارع والمحاصيل واستولت على غنائم كثيرة، ثم تقدمت إلى جبال بنى كادى فى منطقة شاطبة، وكانت هذه القوات تنفذ هجماتها ليلاً على تلك المناطق، وهى مطمئنة لعدم وجود أى قوات تردعها، أو تمنعها من تنفيذ هذه الإغارات ..

وأخذ المنادون يجوبون القرى يدعون الناس القادرين على حمل السلاح للانضمام إلى قوات السيد، ويمنوهم بالثراء والمال الوفير ..

واستجاب الكثير من ضعاف النفوس إلى تلك النداءات، وتوافد الكثير من سكان القرى من الفقراء والمحتاجين إلى معسكر القوات المرتزقة المحدد لقبول المتطوعين الراغبين فى الانضمام إلى جيش .. السيد ..

ثم سارت جموع المتطوعين، وعبرت نهر شقر ومضت إلى معسكرات المرتزقة المنتشرة حول مدينة بالنسيه ..

اتسع نطاق التمرد فى منطقة جنوب الأندلس، والتى قادها الأمير عبد الجبار إبن الملك المعتمد، وزادت خطورة التمرد بانضمام الكثيرين من أتباع الملك السباق لملكة أشبيلية، حيث ضمت مناطق التمرد بالإضافة إلى حصن مونت ميور .. مدينة آركش، ومنطقة الجزيرة الخضراء .. وقام الأمير عبد الجبار بشن هجمات على عاصمة مملكة أسلافه .. أشبيلية ..

وإزاء هذه التطورات الخطيرة اضطر المرابطون أن يستعينوا بمزيد من القوات لقمع هذا التمرد، ونشروا قوات أكبر فى المناطق المحيطة بها لمنع انتشار التمرد فى هذه المناطق المتاخمة لمواقع التمرد ..

وهنا استعان المرابطون بقواتهم التى كانت موجودة فى منطقة شاطبة، وسحبوا منها أعداداً كبيرة، فاضطر القائد ابن عائشة أن يؤجل الهجوم على بالنسية، ويرتد بقواته إلى دانية حيث لم تعد القوات المتوفرة لديه كافية لشن هجوم على بالنسية وفك الحصار هناك ..

وفى طليطلة عاشت الأميرة ماريا (سيدة) أحلى أيامها فى أحضان عشيقها ذئب النساء الملك الفونسو .. وهى تمنى نفسها أن يكون لها منه ولداً فتكون السباقة دون كل النساء التى عرفهن من قبل ولم تنجب له واحدة منهن وريثاً للعرش ..

وفى نهاية فبراير بينما يجلس الفونسو ممدداً على الأريكة وقد أسند رأسه على حجر ماريا وهو ممسك بيدها يداعبها بينما هما يجلسان على الأريكة أمام المدفئة، وهما يتناجيان بكلمات العشق والهوى .. فقالت له وهى تداعب خصلات من شعره الذهبى بيدها الأخرى:

ـ أحقاً مازلت تحبنى يا الفونسو ..؟

ـ أنت تعرفين مقدار حبى لك

ـ وماذا تكون هديتى منك أن أهديتك هدية لم تمنحك إياها امرأة من قبلى..؟

ـ وجودك بجانبى يا حبيبتى وحده أكبر هدية منحها لى الرب.

ـ فماذا إن كافأتك بمثلها أو أكثر ..؟

ـ هل هناك شىء أكبر من ذلك هدية أو منحة يمكن أن يهديها لى الرب.. ؟ لا أظن..

ـ إذن خمن .. وفكر قليلاً ..

ـ لا أستطيع أن أفكر وأنا معك إلا فيك ..

ـ وهذا ضمن ما تقول

ـ شىء يخصك مثلاً ..؟

ـ يخصنا نحن الاثنين ..

ـ لا .. لن أحاول أن أفكر قولى لى أنت

ـ الوريث .. (فيتغير لون وجهه وهو مازال ممدداً على الأريكة) .. فيقول الفونسو:

ـ وريث

ـ نعم وريث .. إن فى أحشائى يتحرك وريث العرش .. بعد عمر طويل لك طبعاً

فينهض الفونسو من رقدته ويعتدل بجانبها وهو يتساءل:

ـ ماذا تقصدين .. هل أنت حامل منى ..؟

ـ نعم

ـ منذ متى

ـ نحو شهرين ونصف

ـ ولكنك لم تخبرينى بذلك

ـ لم أشأ ذلك حتى أتأكد

ـ ومن أكد لك ذلك ..؟

ـ أنا .. أما أكفيك أن أقول لك ذلك .. فأنا أم لأربعة

ـ يسكت الفونسو وهو يفكر ملياً فى كلام الأميرة ماريا، ويقول لها، وكانه يبحث عن الغيب

ـ ومن قال لك أنه ولد

ـ أنا .. أنا أثق من ذلك

ـ لا أنا أتحدث بجدية .. ما أدراك أنه ولد

ـ طبعاً لا يستطيع أن يؤكد ذلك أحد .. ولكن لى حدس فى ولاداتى جميعها لم تخطئ أبداً، ما أتوقعه صبى يأتى كذلك، وما أتوقعها فتاة تأتى أيضاً كذلك ..

ـ وهل حدسك ينبئك بأنه ولد ..؟

ـ نعم وسوف ترى

ثم يقوم الفونسو من على الأريكة، ويسير فى الغرفة، وهو ساهم يفكر فيما قالته له الأميرة ماريا .. وهى تحدثه بكلماتها الرقيقة، وأذناه لا تسمعاها ثم ينظر إليها ويقول لها:

ـ آه لو صدق حدسك وأنجبت لى وريثاً ... فيتورد وجهها وهى تسأله بدلال:

ـ ماذا ستفعل إذن لحبيبتك ..؟

ـ ماذا .. لا أدرى .. ولكن الذى أدريه جيداً أنك ستكونين فى عالم آخر غير الذى تعيشيه الآن لا أستطيع أن أصف لك أكثر من ذلك ..

اشتدت وطأة الحصار على بالنسية، وسار الناس فى شوارع المدينة يبحثون عن الغذاء، ولم يعد أحد قادر على الإنفاق إلا الأثرياء أو الذين يعملون فى وظائف مرموقة أو المسئولون عن الأمن ..

ورغم توافر الماء نظراً لوروده إلى المدينة عبر أنفاق سرية متصله بنهر طورية .. موجودة من قبل حيث شيدت قبل سنوات بعيدة .. إلا أن نقص الغذاء أصبح يشكل هاجساً مروعاً لغالبية السكان ..

وإزاء هذا الوضع الخطير طالب الناس الأمير أبو عبد الرحمن رئيس جماعة الحكم، بالبحث عن حل لمشكلة الطعام المستعصية .. ولكن الأمير عجز عن تقديم أى حلول للناس مما ألهب صدورهم بالثورة عليه، وهم يرون أبناءهم وبناتهم يتساقطون صرعى من الجوع والمرض ..

وسار الناس فى شوارع المدينة يطالبون بخلع الأمير المترف أبو عبد الرحمن ابن طاهر الذى لا يشاركهم آلام الحرمان والجوع ..

وسارت الحشود إلى دار القضاء والفتوى بحى الشريعة تطالب القاضى ابن جحاف بالعودة لرئاسة جماعة الحكم فى المدينة والبحث عن حلول لهذه المجاعة..

وبسرعة قام الشيخ التاكرنى بالدعوة إلى إجتماع عاجل لجماعة الحكم وعلى رأسها القاضى ابن جحاف، حيث حملته الجماهير إلى مكان الإجتماع بدار القضاء والإفتاء بعد أن اعتذر عن قبول المنصب .. فحملته الجماهير على الأعناق، وراحت تهتف له حتى يقبل العودة ..

وما هى إلا ساعة وانعقد الإجتماع وتم فيه عزل الأمير أبو عبد الرحمن بن طاهر، وتكليف القاضى ابن جحاف برئاسة الجماعة مع تفويضه فى كافة الأمور بصفة مطلقة وبصلاحيات غير محدودة .. وعاد ابن جحاف رئيساً متوجاً لجماعة الحكم فى بالنسية وبصلاحيات كبيرة ..

وحتى لا تفتك الجماهير بالأمير أبو عبد الرحمن قرر القاضى القبض عليه وتحديد إقامته وعزله عن الناس لتهدئة الجماهير .. وذلك لحماية الأمير من ثورة الأهالى عليه بعد أن وعدهم بحل مشاكلهم، بمجرد وصول المرابطين .. فلما انسحبوا بقواتهم إلى دانية انقلبوا عليه ..

لم يشأ القاضى أن تتدهور أحوال المدينة أكثر من ذلك فقرر أن يبادر بالاتصال برودريجو ليجمع بينهما لقاء يتم فيه بحث وسائل للتفاهم بين الطرفين..

وسرعان ما رحب رودريجو باللقاء .. وطلب من القاضى فى رسالة بعثها إليه .. أن يسمح له وبعض قادة جيشه بالإقامة فى قصر الحكم الذى كان يقيم فيه الملك القادر من قبل، (حيث يعانى القصر من الإهمال لعدم إقامة القاضى فيه.. حسبما صرح بذلك رودريجو) ليقضى به عدة أيام للاستجمام، ويمكن لهما أن يلتقيا فيه لبحث الأمور المعلقة بينهما..

أراد رودريجو .. السيد .. أن يختبر مدى انصياع القاضى لطلباته مستقبلاً .. فهو يريد خضوعا كاملا لمن يريد أن يتحاور معه .. خضوعا يمليه واقع الأمر على الأرض .. فالقوة بيد رودريجو .. والحصار والضعف يعانى منه شعب بالنسية.. والمطلوب هو اختبار قوة الإرادة لدى القاضى ممثل الشعب البالنسى..

دعى القاضى جماعة الحكم للتشاور فى أمر لقائه مع رودريجو، لبحث فك الحصار عن المدينة .. كما دعى كبار أشراف المدينة وكبار رجالاتها من تجار وملاك الأراضى لمعرفة مطالبهم قبل لقاء رودريجو ..

تحدث القاضى للحاضرين فقال لهم:

ـ لقد تم الإفراج عن الأمير أبو عبد الرحمن، وأعوانه بعد أن هدأت ثورة الناس عليه ...، ولأننى أريد أن يبدأ الجميع صفحة جديدة، نكون فيها جميعاً يداً واحدة فى مواجهة الظروف الصعبة التى تمر بها البلاد .... فيقول الشيخ التاكرنى:

ـ وماذا قررت أن تفعل مع هذا الملعون رودريجو .. فيقول القاضى:

ـ هذا أيضاً ما أريد أن أتحدث معكم فيه .. لقد عرضت على هذا الملعون أن نلتقى لنبحث أمور المملكة، وأولها الحصار الذى تتعرض له المدينة بدون سبب أو ذنب قد اقترفه الأهالى .. وكما تعلمون فأنا لست مفاوضاً ناجحاً ولا أستطيع أن أتمالك مشاعرى وأنا أتكلم مع هذا القبيح .. ولكننى لابد لى ان أضع جانباً مشاعرى الشخصية طالما أتحدث عن مصالح الشعب .. ومن أجل بالنسية قبلت أن ألقاه ... ولكن الغريب فى الأمر أن هذا العلج طلب منى أن أسمح له، ولبعض قادته بالإقامة بقصر الحكم بالمملكة فى ضاحية بلا نوبه .....

(الحاضرون يهمهمون ويتساءلون باستغراب على هذه الوقاحة .. والبعض يطالب بالرفض) .. ثم يتابع القاضى حديثه فيقول:

ـ وكان من الممكن ببساطة أن أرفض كما يطالب بعضكم الآن .. وأنا أحترم مشاعرهم .. ولكن هذا لن يؤدى إلى شىء يفيد شعبنا المحاصر ... فيقول أحدهم:

ـ وماذا عن حديثك عن مقاطعة العدو، وعدم اتخاذهم أولياء .. أليس فى دعوتك لهم للبقاء فى القصر فى ضاحية بلا نوبه مهادنة وتواد وتآلف يمنعه علينا إسلامنا..؟

ـ أنا لم أغير موقفى .. وليس فى هذا تواد بيننا وبينهم ولا تآلف كما تقول .. ولكننا مجبرون على ذلك .. وقد قال الله سبحانه يبين لنا ذلك ﴿.. إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِير..﴾(١) إلا من خاف فى بعض البلدان أو الأوقات من شرهم، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته .. فقد سمح الله لنا بالتعامل مع أعدائنا دون أن يغير ذلك ما بأنفسنا تجاههم من نفور وبغضاء .. وذلك لأنهم كما قال تعالى .. ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق﴾ (٢) .. فهذا أمر مفروغ منه ولا جدال فيه .. فإذا ما اجتمعت لنا أسباب القوة والندية فلنا ألا نقبل ما يعرضونه علينا من أمور ما كنا نقبلها إلا فى حال الضعف والانكسار .. بشرط ألا نفرط فى حقوقنا مهما كان الثمن ... ثم يتدخل القاضى أبو الوليد الوقشى ويقول، وهو يحاول أن ينهى البلبلة والضجيج:

يا إخواننا انتظروا لنعرف من القاضى ما يفكر فيه .. فما قاله الآن صحيح .. فلنعرف وماذا بعد ... فيتابع القاضى حديثه قائلاً:

ـ أقترح أن نسمح له بالقدوم إلى قصر الحكم ونستضيفه لثلاثة أيام مثلاً .. نرحب به فى الأول .. ونبدأ نقاشنا فى الثانى، وإن لم ينته حوارنا معه نمده لليوم

(١) سورة آل عمران ـ الآية ٢٨ .
(٢) سورة الممتحنة ـ الآية ١ .

الثالث .. فإن انتهينا من الحوار والاتفاق فى اليوم الثانى .. نسمح له بالضيافة حتى الثالث، ويرحل بعد ذلك ... وكما تعرفون فالقصر نسيطر عليه وعلى أسواره ولن نفتح له إلا الباب فى الجهة الخارجية المقابلة للضاحية من الباب الشمالى ثم نغلق الأبواب طوال فترة الإقامة ثم نسمح له بالرحيل ..

- وإذا لم نتفق.. ؟ (يسأل أحد الحاضرين) ... فيتدخل القاضى فيقول متجاهلاً هذا السؤال:

- أريد منكم يا معشر رجال المدينة أن تحدثونى عن مطالبكم التى تخصكم، لأعرضها على العلج رودريجو .. وقد دعوتكم لحضور هذا الاجتماع حتى لا تقولوا لى لماذا بعد ذلك .. لماذا لم تسمع منا قبل أن تلقاه .... فيقول له أحد كبار ملاك الأراضى:

- نريدك أن تدبر معه أمر السماح للأهالى بالخروج من المدينة لرعاية مصالحهم فى الأراضى والبساتين التى لم نرع شئونها منذ شهور.. حتى ولو لم تتفقوا على رفع الحصار .. فهو يدعى أنه نصير الفقراء والمحتاجين .. إذن فليثبت لنا ذلك

- وماذا أيضاً ..؟

ثم يتابع الحاضرون الحديث عن مصالحهم، والتشاور فيما بينهم إلى أن يتفق الجميع مع القاضى على السماح لروديجو بالقدوم إلى القصر، وأن يقوم باستقباله جماعة الحكم بالملكة وعلى رأسهم القاضى ابن جحاف ..

فُتحت أبواب سور القصر من الجهة الشمالية المقابلة لبساتين ضاحية بلا نوبه .. ووقف العسكر بزى التشريفات على جانبى الباب السميك العملاق، وفرشت الأبسطة على مدخل القصر .. وأعدت الولائم تكريماً للضيوف القادمين.. وانتظر الجميع حضور .. السيد .. ورفاقه فى الموعد المتفق عليه بعد صلاة الظهر من يوم الأحد فى الأسبوع الأول من مارس ١٠٩٤ ميلادية (٤٨٧ هجرية)..

مضت الساعات ولم يحضر .. السيد .. ومكث القاضى ورفاقه من جماعة الحكم فى انتظاره بردهة القصر، ولكن الضيف ورفاقه لم يأتوا .. ومرت الساعات تباعاً وغربت الشمس، ولكن لم يأت أحد ..

فتجرع القاضى ورفاقه كأس المهانة .. بعد أن حنث .. السيد .. بموعده ولم يحترم مضيفيه، وقرر القاضى العودة إلى حى الشريعة ومعه مرافقوه .. إلا أن صوت الأبواق قد علا، ورددت أبواق حرس التشريفة ترنيمات قدوم الزائرين ..

اصطف القاضى على رأس الجماعة أمام باب القصر، وتحت أضواء المشاعل على جانبى الطريق الممهد والمرصوف بالحجر المصقول الملون بطول الطريق من باب سور القصر حتى مدخله .. تقدم الفرس الأبيض الضخم وقد اعتلاه رودريجو بزيه العربى، ومن خلفه خمسة من أعوانه ..

بعمامة بيضاء تدلى منها طرفها إلى الأمام من صدره، وكوفية من القماش السميك ملتفة حول عنقه وقد تدلى طرفاها خلف ظهره .. وعباءة كحلية اللون تنسدل من خلفه، وسيف طويل بمقبض صليبى يتأرجح على جانب خصره الأيسر .. ترجل رودريجو من حصانه العملاق «بيبيكا» ..

وصعد رودريجو درجات السلم ومن خلفه مرافقوه، واستقبلهم القاضى بفتور ظاهر أدرك معه رودريجو أن سببه تأخره عن القدوم فى الموعد المتفق عليه فبادر قائلاً وهو يهم بعبور باب القصر خلف مضيفه القاضى:

- لابد أنكم قد انزعجتم كثيراً لتأخرنا فى الوصول إليكم .. ولكن أعذرونا، فلدينا مشاكل كثيرة فى معسكراتنا، ولابد لنا من حلها أولا بأول .... فيرد القاضى

- المشكلات لا تنتهى أبداً لكل من يضطلع بمسئوليات الحكم والقياده

- عندك حق، ولكن ترك المشاكل ليس من الحكمة فى شىء

ثم جلس الجميع فى القاعة الكبرى الخاصة لاستقبال الضيوف، وأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث، وقدمت المشروبات، ثم دعى الجميع لوليمة كبيرة لتناول طعام العشاء ..

وفى نهاية الأمسية تم الاتفاق على اللقاء بين القاضى والسيد فى العاشرة من صباح اليوم التالى ..

وفى الصباح التقى القاضى ومعه الشيخ التاكرنى والشيخ أحمد البتى .. بالسيد .. ورفاقه ثم تحدث القاضى لرودريجو فقال له:

ـ الناس البسطاء يتحدثون عن كرمك، وإشفاقك عليهم ... (فتبدو على ملامح وجه السيد السرور لهذا الإطراء) .. ثم يتابع القاضى حديثه فيقول:

ـ ولكن ألا ترى أن ذلك يتناقض مع الوضع الحالى فى المملكة

ـ فى أى شىء

إن المتضررين من الحصار فى المدينة هم غالبية الأهالى وهم من الفقراء

ـ ليس لى دخل بما يجرى داخل المدينة .. ولكنى مسئول عن الذين يعيشون تحت رعايتى خارج المدينة

ـ ومن الذى سبب المآسى التى تعيشها المدينة ألست أنت السبب فى ذلك ..؟

ـ لا .. لا طبعاً بل هى تصرفاتكم، وأعمالكم التى أدت إلى هذه النتائج

ـ نحن ندفع لكم الأموال، وما زلتم تشددون الحصار على البسطاء

ـ الحل سهل، ويمكن أن ينتهى كل شىء فى غضون يوم واحد

ـ ونحن نرحب بأى حل يمكن أن يؤدى إلى رفع الحصار دون المساس بسيادتنا وحقوقنا

ـ ومن قال إننا نطلب المساس بالسيادة أو الحقوق .. كل ما هنالك أن يتم توزيع الثروات بالعدل ..

ـ أى ثروات تتحدث عنها

ـ الأموال التى تجبى إلى المملكة من مختلف الولايات، وكذا الضرائب التى تفرض على المزارعين، وأصحاب الحرف ..

ـ وماذا فى ذلك ..؟

ـ لابد أن يكون لنا نصيب فيها ..

ـ لكم نصيب فيها ..؟ ماذا تقصد بكلمة لنا ..؟

ـ أى أنا وقواتى .. ألسنا نقدم لكم الحماية ..؟

ـ لا .. أنتم لا تقدمون الحماية لنا .. ولكن كنتم تقدمونها للملك الخائن القادر، الذى ما كان يستطيع أن يحكم بالنسية ليوم واحد .. لولا أنكم كنتم تفرضونه على أهلها وتقدمون له الحمايه، وضد رغبة الشعب ..

ـ لا تنس أنك تتحدث عن شخص ميت .. وأنتم تتحدثون عن ضرورة إكرام موتاكم .. وهو على كل حال قد مات، ولم يكن موته قضاءً وقدراً بل قتلاً لنفس بغير الحق .. أليس كذلك أيها القاضى

ـ نحن نعلم أنك تتحدث لغتنا، وتلبس مثل ثيابنا، ولكنك لست أعلم منا بديننا

ـ حقا هذا صحيح .. إذن ماذا تطلب منا ..؟

ـ لقد قلت منذ قليل أن كل شىء يمكن حله بسهولة

ـ لكى نكون واضحين يجب أن تلبى طلباتنا العادلة

ـ وما هى ..؟

ـ يجب أن يُعين على بيت المال، والضرائب رجل أثق فيه .. يتولى جمعها وقيدها ثم تقسم بالنصف بينى وبينكم

ـ النصف .. لك وحدك .. والباقى لسائر المملكة بشعبها وجندها ودواوين الحكم، والإنفاق على شئونها .. هل هذا يمكن تصديقه ..؟

ـ نعم .. وانظر إلى وضعكم الحالى .. فأنتم لا تملكون شيئاً .. والأموال التى كنتم تتحصلون عليها من الولايات لا تأتى إليكم الآن .. والشعب البالنسى يحتضر .. وأنت تساوم على مقدار المال الذى تريد أن تدفعه

ـ هذا الأمر الذى نعيشه الآن ليس أمراً طبيعياً ولا يمكن أن أفرض على شعبى عهودا أقطعها لك .. تؤدى إلى هلاك الأمة

ـ لك أن تختار ..

- سوف أجتمع بجماعة الحكم ونرسل لك بالموافقة إن شاء الله

- هل معنى ذلك أنك موافق على طلبى هذا ... فيردد القاضى كلمات مضغومة غير مفهومة ويقول فى آخرها

- نعم .. نعم إن شاء الله

- إذن لو كنت موافق، ووافقت جماعة الحكم أيضاً على ذلك فلابد من ضمانة

- أية ضمانة

- شىء نتفق عليه لضمان عدم الحنث بالاتفاق .. ولأننى لست المسئول عن تقديم أموال لكم، فيكون تقديم الضمان هو مسئوليتكم أنتم وحدكم .. ولأنك رئيس الجماعة فأنت المسئول أمامى

- لم تجبنى ما هى الضمانة التى تبغاها..؟ .. فيضع رودريجو أصابعه على لحيته السوداء المرسلة الكثيفة وكأنه يفكر ثم يقول:

- سمعت أن لك ابنا شابا يافعا .. فليكن لدينا مقيماً عندنا كضمان لوفائكم بما نتفق عليه ... ينهض القاضى وقد استشاط غضباً ولكنه يكظم الغيظ ويقول وهو واقف:

- نرسل لك موافقتنا غداً إن شاء الله ..

- ويتقدم القاضى نحو رودريجو ويسلم عليه بفتور واضح وقد أشاح بوجهه عنه ونظر إلى باب القاعة، ومضى خارجاً منها دون أن ينتظر حديثاً أو قيام رودريجو لمرافقته حتى باب القصر ..

فى صباح اليوم التالى فوجئ رودريجو بانسحاب الخدم والحرس من القصر وخلوه من كافة العاملين فيه، الذين كانوا يقدمون الخدمة له ولمرافقيه .. فأدرك من فوره أن عليه ترك المكان لأنه أصبح ضيفاً غير مرغوب فيه ..

وفى المساء غادر رودريجو ورفاقه القصر، وقد فتحت لهم الأبواب، ولم يرافقهم أحد أثناء مغادرة المكان .. فأقسم رودريجو لمرافقيه على أن يعمل على تركيع القاضى على ركبتيه، وإذلاله .. انتقاماً لحق الملك القتيل القادر بالله ..

لم يستطع القاضى تحمل صلف وغرور رودريجو، وأدرك أنه يريد إذلاله هو وشعب بالنسيه .. فلم يجد سبيلاً سوى الصمود للحصار أملاً فى النجاة .. وقرر أن يرسل برسائل عاجلة يستغيث فيها بالملك المستعين بالله ملك سرقسطة، وكذا تجديد نداء الاستغاثة بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين ..

وصلت رسائل إلى سالم فى مزرعته بضاحية الريوسة مختومة بختم جماعة الحكم فى بالنسية لإرسالها كما هى إلى أمير المسلمين فى مراكش، وطلب منه تدبير سفر ثلاثة رجال للقيام بهذه المهمة .. كما طُلب منه السفر إلى سرقسطة لنقل رسالة أخرى إلى الملك المستعين بالله هناك ..

ظل سالم خلال الفترة التالية لسفره إلى القائد ابن عائشة، متخفياً بمزرعته يباشر العمل فيها ولا يقوم بأى أعمال ضد قوات السيد المنتشرة بالقرب من المزرعة، وذلك كما تم التنبيه عليه من قبل ..

وكان يرسل بدران من آن لآخر لمباشرة أعمال التسويق والبيع للمحاصيل، وتوصيلها إلى البلدات المجاورة فى منطقة شاطبة وجزيرة شقر وغيرها من البلدات والقرى ..

وجعل تحركاته ونشاطه فى البيع والشراء جنوباً من منطقة الريوسة بعيداً عن تواجد قوات السيد .. وهو ما أدى إلى نجاحه فى العمل دون إزعاج من قوات .. السيد .. التى تتواجد إلى الشمال قليلاً، بالقرب من المزرعة ..

وظل سالم منشغلاً بأحوال والده الموجود داخل المدينة، وكان يخشى عليه كثيراً من الحصار المفروض على المدينة ..

وانشغل سالم بتجهيز نفسه للسفر إلى سرقسطة، كما طلب من بدران أن يستعد مع رجلين آخرين للسفر بحراً إلى المغرب، ثم مواصلة المسير إلى مراكش لتسليم أمير المسلمين رسالة جماعة الحكم ببالنسية ..

وكما اضطربت الأمور على قادة الجماعة فى بالنسيه اضطربت الأمور على سالم القيسى فى مزرعته بالريوسة، وقد جاءته تكليفات مهمة، يصعب تحقيقها

إلا بمشقة وجهد بالغ .. وأصبح قلقاً بعد أن وجد نفسه مضطرا لترك المزرعة فى رعاية أحد الشيوخ الكبار من العاملين القدامى فى المزرعة ..

وبعد أن اطمئن لرحيل بدران ورفيقيه إلى بلاد المغرب، شد سالم رحاله إلى سرقسطة قاصداً الفقيه العالم نوح الغافقى، كما أوصاه بذلك القاضى بن جحاف فى رسالته .. ليكون عوناً له فى تسليم الرسالة إلى الملك المستعين بالله..

فوجئ جاسر بتدهور الحالة الصحية لرضوى، وقد امتنعت عن تناول الطعام، حيث لم تعد قادرة على تقبل أى شئ يقدم لها .. إذ سرعان ما تلفظه بطنها، فتتقيأ فى الحال ..

وسارع جاسر، ووالدها وأمها بإحضار الطبيب لعلاجها، فأخبرهم بإصابتها بالحمى من جراء تناول طعام ملوث وطالبهم بعدم تقديم أى أطعمة لها لعدة أيام، وقدم لها بعض المشروبات المطهرة للأمعاء حتى تبرأ من مرضها .. وخشى الطبيب على الجنين فى بطنها فطالب الجميع بتكثيف الرعاية لها ..

عاد القاضى ليجتمع بجماعة الحكم لبحث تطور الأمور داخل المدينة، والبحث عن حلول لتخفيف وطأة المجاعة .. وقرر القاضى أن تنادى المساجد على الأثرياء ليقدموا ما لديهم من مال أو طعام .. كما ناشد التجار بإخراج ما لديهم من سلع وعرضها للبيع وعدم تخزينها ..

إلا أن هذه الإجراءات لم تكن كافية لتحقيق الهدف المنشود منها وهو تقليل تأثير نقص الغذاء على حياة الناس خاصة المرضى، والأطفال، والمسنين، والنساء .. فقرر الاستعانة بالعسكر فى اقتحام متاجر ومخازن التجار للبحث عن سلع مخبأة .. كما قام العسكر بتفتيش منازل الأغنياء والأثرياء للبحث عن طعام ..

وأسفرت هذه الإجراءات عن توفير مخزون من السلع الضرورية واللازمة للإعاشة لفترة تزيد عن إسبوعين ..

ثم قرر القاضى عقد اجتماع سرى ضم الشيخ التاكرنى وقادة جند الله وعلى رأسهم جاسر للبحث عن وسائل لتهريب الأغذية عن طريق رشوة بعض جند

قوات .. السيد .. ممن تعرفوا على جند الحراسات على الأسوار، وذلك بطول الإقامة .. حيث تكونت بعض العلاقات بين الحراس وبعض الجند العاملين فى جيش .. السيد .. فى المناطق القريبة من سور المدينة ..

وتم دراسة الأمر، وبدأ بعض جند الحراسة وتحت رقابة جاسر يتحركون من ناحية المناطق المتاخمة للأبواب ليتحدثوا إلى جند السيد ليلاً ويقدمون لهم بعض الهدايا .. ثم تارة أخرى يطلبون منهم أن يبتاعوا لهم بعض الأشياء الصغيرة ..

إلى أن لاحظوا شغف جند .. السيد .. بالمال، فبدأوا يعقدون معهم صفقات لتهريب بعض الغلال، وقدموا لهم أموالا كثيرة لتشجيعهم على ذلك، وتولى القاضى الإنفاق على هذه الصفقات ..

إلا أن الأمور لم تلبث أن تكشفت، حيث شدد .. السيد .. على الحراسات، وقام بالإشراف بنفسه على عمليات الحراسة ليلاً، وأصبح .. السيد .. ينام النهار كله ويبقى مستيقظاً طوال الليل وحتى الصباح، وذلك ليضمن تحقيق الحصار لأهدافه ..

لاحظ السيد وجنوده مظاهر الإعياء البادية على حركة جند الحراسة على أسوار مدينة بالنسيه ..

وسرعان ما بدأ السيد يفكر فى الاستيلاء على المدينة بالقوة، وذلك باستغلال قرب قواته فى بعض المناطق من الأسوار، خاصة عند الجهة الشرقية من الأسوار المقابلة للبحيرة الكبيرة .. وكذا عند المنطقة الجنوبية المتاخمة لضاحية الرصافة، والقريبة من ضاحية الريوسة ..

وأعطى .. السيد .. أوامره بدخول الجند فى هذه الضواحى والبقاء فيها حتى يتعود سكان هذه الضواحى على تواجدهم .. مع التنبيه على جنده بإقامة الخيام داخل المزارع على حواف الأرض الزراعية لعدم إفساد المزروعات .. وبدأ يعطى التعليمات سراً لقواته بالاستعداد لاقتحام المدينة ..

وفوجئ أهالى ضاحية الرصافة، وضاحية الريوسة بقيام بعض الجند بالتجوال داخل المزارع والحقول وإقامة بعض الخيام ليعسكروا فيها .. إلا أن

الأهالى فى هذه الضواحى بعثوا كبار المزارعين إلى.. السيد.. ليشتكوا له من دخول الجند فى حقولهم ومزارعهم وبساتين الفاكهة.. فما كان من السيد إلا أن طمأنهم على أحوالهم، ووعدهم بالمغادرة خلال فترة وجيزة ..

تنبه جند الله الموجودون فى المزارع والحقول حول المدينة، والمتخفون فى مظهرهم، ويعملون فى الزراعة، والصيد .. لتحرك قوات السيد المريب، وأرسلوا من فورهم بالحمام إلى القاضى، وقادة جند الله داخل المدينة يخبروهم بهذه التحركات .. فما كان من جاسر إلا أن اجتمع مع القاضى، والشيخ التاكرنى لبحث سبب هذه التحركات .. وتوقعوا أن يقوم السيد بالهجوم على المدينة فى القريب .. وبدآوا الاستعداد على قدم وساق للتصدى للهجوم ..

بعد انتصاف الليل بساعتين فى ليلة مظلمة من العشرة الأخيرة من شهر مارس، وتحت جنح الظلام، وقد اختفى القمر من السماء .. تحرك رجال .. السيد .. من الجهة الشرقية لسور المدينة المقابل للبحيرة الكبيرة، وقد حملوا السلالم الخشبية المصنوعة من العروق الطويلة لأخشاب الأشجار ..

واستمر تقدم القوات على جانبى الباب الشرقى حتى وصلت مجموعات منها إلى السور، وبدأت تحط العروق الخشبية على الجدران، وما أن لامست العروق الجدران حتى أضيئت المشاعل من قبل حراس الأسوار .. وانطلقت الأبواق النحاسية تطلق نوبات الإنذار بهجوم الأعداء ..

وفوجئ .. السيد .. من ترقب الحراس لقواته، وكان يعتقد أنه قد باغتهم .. فإذا بالحراس كانوا فى انتظاره وقواته .. وأضاءوا المشاعل التى حولت المكان إلى ساحة تملؤها المشاعل وكرات اللهب المنطلقة من الأسوار .. وانهمرت السهام والرماح على القوات المغيرة ..

لم يكن رودريجو بالشخص الذى يهاب مثل هذه المواقف .. فقد اعتاد عليها، وما يراه الآن ليس سوى بداية لمعركة يهواها هو والكثير من جنده بعد فترة طال فيها الانتظار للقيام بعمل يحبوه كثيراً .. وهو خوض القتال والنزال فى ساحة الحرب ..

بسرعة تقدم .. السيد .. وكبار فرسانه المحترفين ليصعدوا على فروع الأشجار، وقد احتموا بالدروع، ووثبوا عليها كالفهود التى تتعقب الفريسة .. إلى أن وصلوا إلى حافة السور، فبدأ الكثير منهم فى خوض القتال مع جند الحراسات ..

بينما .. السيد .. كان يعرف طريقه جيداً فقد تقدم ومعه مجموعة مقاتلة أخذت تشتبك مع الحراس فى قتال شرس .. وأخذ يتابع التقدم للأمام مخترقاً صفوف الحراس، باحثاً عن مزالج فتح الأبواب ..

وكلما تقدم .. السيد .. يتقدم معه مرافقوه الأشداء عن يمينه ويساره للاشتباك أولا بأول مع الحراس الذين يعترضون تقدمه، حتى يخلوا له طريقه بلا عوائق، وسرعان ما يظهر جندى هنا أو جندى هناك فيشتبك معه السيد لثوان، حتى يلحق به تابعوه ليشغلوا هذا الجند أو ذاك بالقتال بينما يتابع هو تقدمه ..

وسرعان ما نزل، ومعه حفنة من تابعيه على درجات السلم الموصلة لمكان المزالج المخصصة لفتح الأبواب .. وبدأ يحاول فتحها .. حين حاصرته فرقة يقودها جاسر كانت متواجده على مسافة من الأسوار ومستعدة للقيام بأعمال النجدة لتدعيم الدفاع فى الأماكن التى تتعرض للاختراق ..

وعلى غير المتوقع، وجد رودريجو نفسه ومن معه محاصرين بنحو عشرين جنديا متربصين لهم .. وسرعان ما بحث رودريجو عن مخرج من هذا الحصار .. فوجد بابا لبرج محصن ملحق بالأسوار، ومخصص للدفاع ولإقامة جند المناوبة فاقتحمه ليحاول الصعود من السلم الداخلى ليصل إلى أعلى السور مرة أخرى بعد أن قرر الهرب من الحصار المفروض عليه ..

داخل البرج الملحق بالأسوار قاتل السيد بضراوة هو ومن معه محاولاً الخروج من المأزق الذى وجد نفسه فيه .. بعد أن تمكن جند الحراسات على الأسوار من وقف تدفق قواته إلى أعلى الأسوار، كما تم إسقاط معظم السلالم المثبته على الجدران من خارج الأسوار ..

وقرر .. السيد .. ألا يصعد إلى أعلى مع مرافقيه، وإلا تم القبض عليهم فقرر البحث عن مخرج من البرج الملتصق بالسور، حيث دائماً ما يتواجد باب لخروج الأفراد بجوار الأبواب العملاقة للأسوار .. حتى لمحت عيناه بابا حديديا بمزلاج يدوى، فتقدم إليه وفتحه تحت حماية مرافقيه الذين كانوا يتصدون للجند المحاصرين لهم داخل ممر ضيق يفضى إلى الباب ..

وسرعان ما فتح الباب الصغير، وهرول .. السيد .. ومن معه إلى الخارج مبتعدين عن السور وقد احتموا بالدروع فوق رءوسهم .. وفشل الهجوم على أسوار المدينة .. وبينما ..السيد .. ورفاقه يبتعدون عن الأسوار .. كان الجنود على أسوار المدينة يهللون فرحاً لنجاحهم فى سحق هجومه ..

وما أن وصل .. السيد .. إلى خيمته بالمعسكر حتى تهاوى على فراشه متهالكاً من شدة الإرهاق، وما عاناه من حصار كاد يودى بحياته .. واستغرق فى نوم طويل..

فى النصف الثانى من شهر أبريل (أول ربيع الآخر ٤٨٧ هجريه) أراد رودريجو الانتقام من أهل بالنسية لما ألحقوه به من هزيمة وأراد ان ينكل بهم، فسمح لجنوده بالاقتراب من أسوار المدينة، وسب السكان، ولعنهم، والتوعد لهم بالهلاك.. حتى يدب اليأس فى الناس ..

ثم فكر فى تشديد وطأة الحصار بتحريض الأهالى على قاضى الجماعة فسمح لجنوده بعرض معظم السلع التى يحتاجها سكان المدينة عليهم ولكن بأثمان باهظة ..

وسمح القاضى لسكان المدينة من اعتلاء بعض الأماكن على الأسوار لشراء ما يحتاجونه من السلع لعل ذلك يخفف من وطأة الحصار ..

إلا أن جند .. السيد .. جلبوا التجار من ضاحية الكدية، والرصافة ومن مدينة مربيطر أيضاً .. وذلك لتقديم السلع للأهالى مقابل أموال يحصلها الجنود من التجار ..

وبدأت المساومات تتم ما بين السكان من فوق الأسوار .. والتجار من أسفلها، وعند الاتفاق، توضع السلع داخل السلال وترفع بالأحبال إلى أعلى ..

وزادت أسعار السلع بطريقة مذهلة، وأصبح سعر رطل القمح ثلاثة دنانير، ورطل الشعير دينارين ونصف، وأوقية الجبن عشرة دراهم، وبيضة الدجاجة بثمانية دراهم

ومضت أيام قليلة فى عددها ثقيلة فى آلامها وأحزانها على أهالى بالنسية .. حيث ارتفع سعر اللحوم إلى ستة دنانير للرطل الواحد، وهو ما لم يستطع تدبيره غالبية السكان فى المدينة ..

وشيئاً فشيئاً، تناقص أعداد الكلاب التى تجوب الشوارع .. وندر بعدها تواجد القطط .. وبدأ بعض الأهالى يعلنون صراحة عن بيعهم للحم الكلاب والقطط لمن يريد أن يشترى ..

وفى ظل الأزمة الطاحنة ازدادت شدة المرض على رضوى .. ونقص وزنها نقصاً شديداً، وأصبحت حياتها والجنين الذى ببطنها فى خطر شديد .. ولم تعد أمها وابيها قادرين على فراقها للحظة ..

ووجد جاسر نفسه فى حالة يرثى لها .. فزوجته الحبيبة راقدة فى الفراش تصارع الحمى التى أصابتها على حين غرة .. والمدينة تزداد فيها الاضطرابات، وهو مكلف مع من يتبعه بحفظ النظام، وتوفير الأمان لأهالى المدينة ..

وأمضى وقته ليلاً مع رضوى يشرف على رعايتها بجانب أبيها وأمها التى انتقلت للإقامة بدار جاسر .. ويمضى نهاره يتابع أعماله مع قادة جند الله والعسكر فى تنظيم شئون الأمن بالمدينة ..

أما الشيخ أبو عمر بن عتبة والد نائلة، فقد كان ميسور الحال، وتمكن من تدبير حاله ورعاية ابنته الصغرى ليلى، وأصبح ينتظر اليوم الذى يرفع فيه الحصار عن بالنسيه ليغادرها إلى حيث تقيم ابنته نائلة..

ولم يَسلَمْ منزل الشيخ مسعود القيسى من آثار الحصار، فقد تهاوت الحالة الصحية لأم سالم، ولأسباب غير معروفة لازمت الفراش لإسبوعين وأحضرِ الطبيب لعلاجها .. حيث أعطاها مشروبا ينشط دورتها الدموية، ولكنها ظلت على حالها بسبب ضيق التنفس، وعدم حصولها على الغذاء المناسب لحالتها المرضية ..

وبعد ثلاثة أسابيع من ملازمة الفراش فاضت روحها إلى بارئها .. وأسقط فى يد الشيخ مسعود .. وتقبل قضاء الله بنفس راضية خاشعة .. ولكن هز وجدانه عدم وجود ابنه سالم بجانبه لكى يحضر مراسم دفن أمه، وفترة الحداد..

وشدد القاضى قبضته للسيطرة على الجماعات الثائرة من الأهالى، حيث شن الفقراء هجومهم على الأحياء السكنية الثرية، وقاموا بنهب بعض الدور، والقصور.. واستولوا على الأثاث، والمقتنيات لعلهم يستطيعون بيعها فى الأسواق.. إلا أن العسكر انتشروا فى شوارع المدينة، وقاموا بالقبض على العديد من مثيرى الشغب، وتم تكبيلهم، والزج بهم فى مخافر الأمن بالمدينة ..

وأراد القاضى آن يثبت قدرته على ضبط الأمن، وسيطرته على المدينة ومرافقها، فقرر أن يقدم مرتكبى حوادث النهب والسلب وهتك الأعراض للمحاكمة العاجلة العلنية ..

وتم تقديم المجرمين مكبلين أما مجلس القضاء فى جلسة علنية عقدت فى أحد الميادين الواسعة بجوار سوق المدينة ..

وسرعان ما صدرت الأحكام ضد المذنبين، وتم قطع أيدى السارقين، وإعدام بعضهم ممن حاولوا انتهاك الأعراض .. وتم ذلك على مرأى ومسمع من الناس فى الميدان الفسيح المجاور للسوق الكبير ..

قضى سالم أسبوعاً منذ رحل من مزرعته بضاحية الريوسة، قاصداً مدينة سرقسطة، ليسلم للملك المستعين رسالة القاضى ابن جحاف التى يستغيث فيها بالملك لنجدة بالنسية من مخالب اللعين رودريجو ..

لم يكن من الممكن لسالم أن يقدم الرسالة بيده إلى الملك نفسه دون أن يكون هناك شخص مقرب من الملك يستطيع أن يقدمه للملك .. على أنه رسول قادم من بالنسية ..

وكما حدد القاضى لسالم .. بحث سالم عن الشيخ العالم والأديب، نوح الغافقى (هو أبو عبد الله محمد بن وهب بن محمد بن وهب)، وهو من رجال البلاط فى قصر الملك المستعين، يقوم بتأديب وتعليم أولاده وخاصته .. حيث كان الملك يستأمنه على حريمه بالقصر .. وذلك لورعه، وكبر سنه ..

التقى سالم بالشيخ نوح الغافقى، وأعلمه بسبب مجيئه وقدم له رسالة بعثها له القاضى ابن جحاف .. فأكرم الشيخ وفادة سالم، وقدم له الرعاية اللازمة، ووعده بتقديم رسالته إلى الملك للبت فيها ..

مضت أيام لم يستطع فيها الشيخ أن يتحين الفرصة لتقديم الرسالة العاجلة إلى الملك .. ومكث سالم ضيفاً على الشيخ، حتى جاءه فى يوم وطلب منه الاستعداد للمثول فى صباح اليوم التالى .. بين يدى الملك المستعين، وتقديم الرسالة إليه ..

بقصر الجعفرية مقر الحكم فى سرقسطة، جلس الملك على كرسيه العريض الأنيق، تعلو رأسه عمامة صغيرة خضراء اللون من قماش لامع، وقد توسطت العمامة جوهرة بللورية ينعكس ضوؤها فى كل اتجاه ومن فوقها ريشة بيضاء مائلة قليلاً .. وتدثر بعباءة خضراء من نفس لون العمامة موشاة بخيوط ذهبية على الصدر والأكمام ومن تحتها قميص وسراويل بيضاء .. بينما حط بقدميه على مسند عريض من الخشب المحفور بالنقوش البديعة وقد كسى المسند من أعلى بقماش مخملى ناعم لترتاح عليه قدما الملك ..

وسطعت الأضواء النافذة من خلال الزجاج الملون المثبت فى الأطر الخشبية التى تحيط بنوافذ المجلس، فانعكست أضواؤها على كل مكان فى القاعة الكبيرة المسماة بمجلس الذهب .. بينما تواجد بالمجلس حاشية الملك من الوزراء ، والحجاب، وكبار القوم ..

وبعد أن قدمه الشيخ نوح الغافقى للملك .. تقدم سالم حاملاً الرسالة وقدمها إليه ليقرأها .. ووقف الشيخ نوح إلى يسار سالم ..

ظل الملك لدقائق يقرأ محتويات الرسالة .. ثم أخذ يعيد طيها من جديد، وهو يتحدث إلى سالم فقال له:

- من أين قدمت ..؟

- من ضاحية خارج بالنسيه تسمى الريوسة

- وكيف استطعت أن تحصل على هذه الرسالة ..؟

- أنا أحد جند جماعة الحكم فى المدينة، ومكلف بنقل الرسائل التى ترد لى بالبريد الطائر .... فيسكت الملك قليلاً ويقول لسالم:

- وما حال المدينة حينما جئت إلينا..؟

- فى أصعب حال يا مولاى .. وقد تفشى المرض، وانعدم الغذاء

- ألم يكن القاضى يعلم أنه قد يتعرض للحصار

- من المؤكد أنه قد وضع هذا فى اعتباره

- ولماذا لا تعطون رودريجو ما يحتاجه من أموال، حتى يكفيكم شر هذا الحصار.. لماذا لا تسترضوه .. وكما أعلم فهو يقبل بمثل هذه الأشياء

- لقد عرضنا عليه أكثر مما كان يحصل عليه فى ظل الملك القادر ... فيسكت الملك قليلاً ثم يقول:

- عجباً لابد أن له مع هذا القاضى شأنا ما أو يكن له ضغينة .. هل هناك بين قاضيكم وبين رودريجو شيئاً من هذا ..؟

- لقد أقسم رودريجو على ألا يبرح بالنسية حتى ينتقم من مقتل الملك القادر

- وهل القاضى هو الذى قتل الملك..؟

- لا يا مولاى

ـ فلماذا إذن يصر رودريجو على الانتقام.. هناك شيئ لا أعرفه فى هذا الأمر

ـ ولكن يا مولاى لا ذنب لأهالى المدينة حتى يتعرضوا لهذا الحصار القاتل.. هناك أكثر من مائة وخمسين ألفا من السكان داخل المدينة

ـ وماذا تريدون منى أن أفعل..؟ .. إن رودريجو أبقى على جند له هنا ليدافع عن أهالى المملكة (مملكة سرقسطة) ولابد أن فى الأمر شيئاً، لان رودريجو عاش معنا أكثر من اثنتى عشرة سنة يخدم بلاطنا، ويقدم خدماته من أجل بلادنا

ـ لم يقدم رودريجو أبداً خدمة إلا بمقابل من المال .. إن جيشه ما هو إلى فرق من المرتزقة لا دين لها ولا ولاء لهم إلا للمال ..

ـ حتى ولو كان المال هو هدفهم .. ولكن المهم كيف تستفيدون من ذلك لتوجيهه بما يفيدكم ويخدم مصالحكم

ـ المهم يا مولاى ما يعانيه الأهالى من مجاعة .. ونخشى إن سقطت المدينة أن تتحول إلى دار كفر والعياذ بالله .. وقد تعرضت مدينتكم الخالدة بريشتر [1] لهذه المحنة من قبل ولم يستجب لنداء الاستغاثة أحد من الملوك .. ولولا أن الله قد أعز جدكم العظيم المقتدر بالله بالنصر بعد ذلك، لبقيت حتى الأن داراً للكفر .. وقد كانت نجدة جدكم للمدينة بعد أن تم قتل عشرين ألفاً من رجالها، وتم سبى أكثر من ثمانين ألف ما بين طفل وفتاة وامرأة ... نستحلفك بالله أيها الملك العظيم أن تفك حصارنا، وتنجد أهلنا أعزك الله وسدد خطاك .....

---

١ ـ مدينة بريشتر: هى مدينة تقع على فرع صغير لنهر متفرع من نهر إبره فى الشمال الشرقى لمملكة سرقسطه تعرضت لغزو قوات هائلة قدمت إليها من الأراضى الفرنسية مكونه من النورمان والإيطاليين والأسبان تحت قيادة قائد الجيوش البابويه (كان الذى دفع الى هذا الهجوم البابا الإسكندر الثانى) ، وحاصرت هذه القوات المدينة ثم وبعد مدة صمدت المدينة فيها للحصار سقطت بفعل الخيانة وأدى سقوطها فى يد الغزاة أن قتل عدد هائل من الأهالى وتم أسر الآلاف من الرجال وسبى الألاف من الفتيات الأبكار والنساء الثيب ونهبت المنازل وهتكت الأعراض ورحلت الفتيات والنساء الى بلاد أوربا وكان المصاب اصعب من أن يوصف أو يتقصى عنه.. وكان ذلك خلال حكم المقتدر سنة ١٠٦٤ميلاديه (٤٥٦هجريه) ، واهتزت سائر بلاد الأندلس لهذه النكبة .. وبعد ذلك وفى سنة ١٠٦٥ ميلادية (بعد أقل من عام) إستطاع الملك المقتدر أن يقود تحالف لجيوش المسلمين من كافة بلاد الأندلس ويقتحم المدينة وينتصر على من فيها وتم أسر الألف من النساء والأطفال الأجانب بخلاف الكنوز والأموال التى تم الإستيلاء عليها.

سكت الملك قليلاً متأثراً بما قاله سالم، وفى نفس الوقت لم يكن يستطيع أن يعده بشيء .. وبعد دقائق ظل فيها صامتاً لا يتكلم، وهو يعلم أن جميع من بالمجلس ينتظرون أن يسمعوا رأيه فقال:

- خيراً إن شاء الله .. خيراً ... سوف أكتب بذلك إلى قاضيكم .. وقل له أن يطلعنا على الموقف أولاً بأول ..

لم يكن لدى الملك ما يقوله .. فرودريجو صديق له، وقد لجأ إليه الملك من قبل لنجدته هو من أعدائه فى الممالك المجاورة لمملكته .. وليس لدى المستعين بالله بكل ما يملكه من مال أو ثروات إلا أعداداً قليلة من الفرسان لا تزيد فى مجملها بكافة أنحاء المملكة عن سبعمائة فارس، وثلاثة آلاف مقاتل .. على الرغم من أن أصغر مملكة من الممالك المعادية له من ممالك النصارى لا يقل عدد قواتها عن عشرة أضعاف ما تملكه مملكة سرقسطة ..

وتابع سالم رحلته عائداً إلى مزرعته، وأينما يسير داخل ولايات سرقسطة تطالعه الأراضى الخضراء الخصبة، وأشجار التين والزيتون واللوز والفاكهة والثمار من كل الأنواع والألوان والأحجام .. والأنهار تجرى من جانبه .. وآخرى تعترضه ..

ويتابع المسير فيشاهد شلالات المياه المتدفقة هنا وهناك .. جنات، من حولها جنات من بينها أنهار، وغُدرَانٌ[1].. إنها جنات الله فى أرضه .. ولكن أين ذهب خيرها .. وفيما أنفق ..؟ .. لم يجد سالم لذلك جواباً ..

أدرك سالم أن الملك لن يفعل شيئاً حيال ما يجرى .. فكلامه أصدق دليل على ذلك ..

---

١ ـ غُدرَان أو غُدُرٌ: جمع غَدِير، وهو مستنقع ماء المطر .. أو مجرى يسيل فيه الماء بين شقين ممتدين فى الأرض .

لم يكن حديث الملك لى أمام حاشيته سوى كلمات جوفاء أرادها كمبررا ومخرج له أمام رجاله، وكأنها صك براءة للهروب من المسئولية، ومن تبعات ما قد يجرى فى بالنسية .. ولا أقول فيك إلا ما قاله الشاعر

أيها الشامت المُعَيَّرُ بالدهــــر	أأنــت المـــــبرأ ... المـــوفـــور
أم لـيدك العهد الوثيق من الأيام	بــــل أنــت جــاهل مغــــرور
مــــن رأيـــت المَــنُون .. خلداً ..	أم من ذا عليه من أن يضام خفير[1]

لا أتمنى لك شراً أيها الملك .. ولا أضمر لك حقداً .. ولكن حسبنا ما يجرى لنا .. على الله توكلنا .. وإلى الله المصير .. وحقاً قوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ﴾ [2] .. .. هذه هى الأفكار التى تدور فى عقل سالم، والمشاهد تراها عيناه ... والقلب مفعم بالأسى والحزن ..

تدهورت الحالة الصحية لرضوى، وفوجئت أمها بالدماء تسيل منها بغزارة فاستغاثت بجاسر حيث سارع باستدعاء الطبيب .. وظل الطبيب ماكثاً معها ليمنع النزيف، وقد غطى فراشها بأكمله .. وبعد ساعتين توقف النزيف بعد أن فقدت رضوى الجنين الذى ببطنها قبل موعد ولادته بأيام، وراحت فى إغماءة طويلة..

ظلت رضوى تبكى ليومين على جنينها الذى مات من أثر الحمى التى تعرضت لها .. وأعتبرت نفسها مسئولة عن ذلك على غير الحقيقة .. ولم يُهدئ من آلامها ما وجدته من أمها وأبيها من كلمات الرثاء .. إلا أن جاسر راح يربت على كتفها، ويواسيها بكلمات رقيقة تعبر عن حبه لها وطالبها بقبول ما قسمه الله لهم ..

---

(١) أبيات للشاعر عدى بن زيد العبادى. المنون : الدهر يضام: يظلم .. والمضيم هو المظلوم خفير: حارس

(٢) سورة الحج ـ الآية ٤٦.

ومع مرور الأيام بدأت تتعافى ببطء شديد، ولكنها على كل حال بدأت تسترد عافيتها بما تيسر من طعام كان الجميع يتسابق بتقديمه لها من طعامهم القليل الذى كان يدخره كل منهم على حدى من أجلها، وآثروها على أنفسهم حتى تسترد قواها..

وداومت ماتيلدا على زيارة رضوى والوقوف بجانبها، وأخذت تساعد أم رضوى فى تقديم العناية والرعاية لها طوال فترة المرض، ثم راحت بعد ذلك تواسيها فى فقدان جنينها، وتحاول من آن لآخر أن تداعبها، وتبادلها الأحاديث المرحة .. وتمنيها بالغد المشرق الآتى ..

وبنهاية شهر إبريل عاد بدران من مهمته إلى المغرب مع قائده من فرق جند الله والتقى قائد المجموعة بسالم فى المزرعة بحضور بدران، وأخبره بما تم هناك وتمام تسليم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين رسالة جماعة الحكم فى بالنسية، وأخبر سالم بما قاله لهم أمير المسلمين حيث وعدهم أمير المسلمين بقرب قدوم جيش المرابطين ..

وسرعان ما حرر سالم رسالة بما تم فى المهمتين، وقد أتم تنفيذها الرجال المكلفون بها .. ثم أخطر القاضى فى الرسالة بما تلقاه من رد فى كل مهمة منهما، وبعث بالرسالة عن طريق الحمام إلى بالنسية ..

وتحدث بعد ذلك بدران يشتكى لسالم عن تواجد جند .. السيد .. داخل المزرعة فقال له:

- هل لاحظت انتشار رجال.. السيد .. فى المزرعة بشكل سافر .. إنهم يقيمون الخيام على الدروب التى تتخلل الزراعات، بل إنهم انتهزوا فرصه تغيب وهروب الفلاحين من المزرعة، فيقوم الكثير منهم بالفلاحة فى الأرض .. بل يقطفون الثمار من الحقل، ويستولون على ما تقع عليه أيديهم .... فيقول له سالم:

- لم أتعرض لأحد منهم، ولم أفتعل المشاكل حتى لا أفقد مكانى فى المزرعة إن هم تنبهوا إلىّ وتكاتفوا فيما بينهم لإخراجى من المزرعة .. وإننى أسعى للتواجد فى المزرعة حتى لا أفقد ميزة المراسلة مع القاضى فى المدينة .. أما الأرض فلن أتركهم يهنأوا بها أبداً .. ولكن لم يحن الوقت بعد ..

ـ وماذا عن النسوة الموجودات فى المزرعة ..؟

عليهن أن يقرن فى بيوتهن ولا يخرجن إلا مع رجالهن ..، وقد شدد .. السيد على رجاله بعدم التعرض للأهالى، وإلا تعرض المخالف لأشد العقوبات .. قد تصل للإعدام .. وهذا ليس حباً فى الأهالى أو ملاك الأراضى، ولكن من أجل أن يكسب ثقة الشعب خارج بالنسية حتى يكونوا أداة ضاغطة على جماعة الحكم فى بالنسية، عندما يتناقل الناس أخبار سلوك السيد الحميد مع الأهالى هناك، فيطلب أهالى المدينة من القاضى ورجاله بسرعة الاتفاق مع .. السيد .. بأى شروط لفك الحصار عن المدينة .. فلا تقلق بهذا الشأن، وفقط نبه على جميع النسوة بعدم الخروج من الدور ..

قرأ القاضى ابن جحاف الرسالة التى ارسلها له سالم من المزرعة خارج المدينة .. وما جاء فيها توقعه القاضى تماماً .. حيث لم يفاجأ بشىء .. ولم يكن ممكناً أن يتقاعس عن إرسال الرسالتين بدعوى عدم جدوى ذلك .. بل قام القاضى بما كان عليه ان يقوم به إيماناً منه بأن ذلك هو واجبه حيال ما تتعرض له البلاد من حصار .. ولا يجوز له (أى للقاضى) أن ييأس، فالغيب لا يملكه إلا الله .. ثم تحدث القاضى إلى جماعة الحكم بكل ما دار فى فكره بشأن ذلك ..

واستمر الحصار يلقى بظلاله الكئيبة، وارتفعت الأسعار أكثر فأكثر، ووصل سعر رطل اللحم إلى عشرة دنانير، وتساقط الكثير من الأطفال والشيوخ والنساء المسنات صرعى من الجوع القاتل ..

وأصبح مشهد الفتيان والأطفال الذين يطاردون الفئران لصيدها لأكلها من المشاهد المألوفة .. كما انتشر الكثير من الفقراء فى أكوام القمامة يبحثون فيها عن أى بقايا للطعام، وانتشر آخرون يبحثون فى مزالق القمامة عن بقايا الحيوانات الميتة والمتعفنة ليسدوا بها جوعهم ..

وفى الأسبوع الأول من شهر مايو اضطر القاضى أن يزيد من إجراءاته التعسفية فى مواجهة من يملكون الطحين، والزيوت، والأطعمة وقام بمصادرة ما يزيد عن حاجتهم لمدة خمسة عشر يوماً، ويقدم لهم فى مقابل ما يتم الاستيلاء عليه صكوكا بتعهدات لدفع أموال تساوى قيمة ما يتم الاستيلاء عليه ..

إلا أن ذلك لم يكن ليفيدهم بشىء وهم محتاجون لتدبير حوائجهم من الطعام وليس المال .. فزاد ذلك من سخط الناس على القاضى .. سواء الأغنياء لما يقوم به من إجراءات مصادرة ضدهم .. أو الفقراء الذين يبحثون عن الغذاء فلا يجدونه ..

ازدادت الأمور سوءاً حينما احتشد جمع غفير من الناس عند الأسوار للبحث عن غذاء يأتى إليهم من التجار الواقفين أسفلها، ويبيعون لهم الطعام والسلع بأغلى الأثمان ..

فلما لم يجد الكثير منهم، المال الكافى للشراء، قفز الكثير منهم من فوق الأسوار العالية إلى خارج المدينة ..

فما كان من جنود السيد إلا أن قبضوا على من لم يمت منهم ووضعوهم على كومة من القش والحطب، وأشعلوا النيران فيهم بأوامر من .. السيد .. نفسه لكى يبث الرعب فى قلوب المواطنين داخل المدينة .. ليدفعوا بالقاضى للقبول بالتفاوض معه (أى السيد) لتسليم المدينة .. وكان عدد من تم حرقهم ثمانية عشر فرداً من أهالى المدينة ..

وفى منتصف شهر مايو لم يكتف رودريجو بذلك .. بل بعث بجنوده فى كل الضواحى التى حول المدينة، سواء الكدية، والرصافة، والريوسة، وجبالة، وبلانوبه للبحث عن النساء والرجال من غير العاملين فى المزارع مما لا عمل لهم .. وخاصة النساء والقبض عليهم والزج بهم ناحية أبواب المدينة لإعادتهم إليها، وتم القبض على بهجة زوجة بدران .. فلما اعترض بدران على ذلك خيروه بين أن يبقى خارج المدينة وحده أو الذهاب معها للرجوع إلى المدينة ..

وقرر بدران عدم ترك المزرعة بسبب ما كان قد صدر إليه من أوامر من قيادات جند الله من قبل .. بعدم ترك المزرعة أو العودة للمدينة بأى حال من الأحوال .. ففرق جند رودريجو بين بدران وزوجته ورحلوها إلى جهة أسوار المدينة ..

لم يكن من الممكن أن يرفض القاضى استقبال جموع النساء والأطفال والشيوخ، الذين جمعهم رودريجو وزج بهم ناحية أبواب المدينة، وهكذا فتحت الأبواب الصغيرة الملحقة بالأسوار والخاصة بخروج ودخول الأفراد وتدفق الناس إلى المدينة ليزيدوا من أوجاعها وآلامها .. حيث لم يجد الكثير من الوافدين مكانا يأووا إليه أو أحدا يمكنه أن يستقبلهم فى داره، والناس على الحالة التى هم عليها من الحرمان والجوع والفقر والمرض ..

ولجأت بهجة إلى دار الشيخ مسعود القيسى والد سيدها سالم، حيث استقبلها بود وترحاب كبيرين .. وقدم لها المأوى، وأطعمها على قدر استطاعته، ومكثت تنتظر أى أخبار تأتى إليها من المزرعة لتطمئن على زوجها بدران ..

إزاء هذه الأوضاع المتردية أصبح القاضى وجماعة الحكم بالنسبة فى وضع العاجزين عن تقديم أى حلول لمشاكل الأهالى .. وكان لابد من الوصول إلى حل مهما كان الثمن .. وأخذ القاضى يحث الناس على الصبر والصمود، والقبول بما قسمه الله لهم .. إلا أن الأرواح كانت قد بلغت الحناجر ..

التسوية ..!

فى الأسبوع الأخير من شهر مايو ١٠٩٤ ميلاديه (جمادى الأولى ٤٨٧ هجرية) بعث رودريجو إلى القاضى ابن جحاف رسالة ودية تحدث فيها عن استعداده لفك الحصار عن المدينة مع بقائه حاكماً لها بكافة الصلاحيات التى للملك .. وإنه (أى رودريجو) مستعد لأن يعينه على أن يكون ملكاً على المملكة .. وطالبه بالتفاوض حول تلك الأمور ..

ولكى يزيد رودريجو من الضغوط على القاضى فإنه أمر بعض جنده بالسير تحت أسوار المدينة يرددون أن .. السيد .. قد وافق على رفع الحصار ، وأن الأمر الآن أصبح بيد القاضى ابن جحاف للموافقة عليه أو رفضه ..

أحاط كبار رجال المدينة من الأشراف والتجار والأعيان بالقاضى أبو الوليد الوقشى ، وهو من رجال جماعة الحكم ، وتحدثوا إليه أن يتكلم مع القاضى ابن جحاف ، ويقنعه بضرورة التفاوض مع رودريجو لإنقاذ أرواح الأهالى من الهلاك .. خاصة بعد أن أرسل رودريجو رسالته إلى القاضى يوافق فيها على فك الحصار عن المدينة ..

أخذ القاضى أبو الوليد على عاتقه التشاور مع جماعة الحكم كل فرد فيها على حدى لإقناعهم بضرورة الضغط على القاضى ابن جحاف للقبول بالتفاوض مع رودريجو حول رفع الحصار ..

وبعد أن حقق أبو الوليد نجاحاً فى هذا الشأن طلب من جماعة الحكم التواجد بدار القضاء والإفتاء للتشاور مع القاضى ابن جحاف .. ، وأخطر القاضى ابن جحاف بذلك .. وانعقد المجلس وتحدث القاضى أبو الوليد الوقشى فقال لابن جحاف:

- يا أبا جعفر جئتك والإخوة أعضاء هذا المجلس لنتشاور معك فى شأن الرسالة التى جاءتك من رودريجو .. والتى تحدث فيها عن رفع الحصار عن المدينة .... فيقول له ابن جحاف بهدوء:

- وماذا ترون بشأن ما جاء بالرسالة ..؟

- إننا علمنا بها من الأهالى ، ولم نعرف حتى الآن فحواها

- هى كما تقول .. يعرض علىّ هذا اللعين ككل مرة التفاوض بشأن رفع الحصار .. ثم نذهب إليه ، فنجده قد زاد جشعه ، وطمع فى المدينة ، وأرادها أن تكون داراً للكفر .. ثم يحاول فى نهاية الرسالة أن يغرينى بأن يعرض علىّ أن أكون ملكاً على المملكة .. وكأننى صبرت ، وجاهدت طوال سنوات عمرى ليأتى مثل هذا الكلب المسعور ليعرض علىّ ما تأباه نفسى ..

- حسناً لنتحدث بشأن ما جاء فى الرسالة عن رفع الحصار

- وما الجديد فى ذلك .. كما قلت لكم .. يكرر هذا ، وعندما نفاوضه يتكلم عن شىء آخر

- لا تنس يا شيخنا القاضى أنه لا سبيل لنا إلا أن نقبل كل فرصة تأتى لنا لكى نغتنمها .. لعله هذه المرة يخفف من شروطه .. حتى بفرض أنه قد غالى فيها .. فلنسايسه فى ذلك حتى تأتى لنا النجدة من إخوتنا فى الدين ، وعندها يمكن لنا أن نتحلل من ارتباطنا معه لأنه ارتباط بنى على باطل ، وعلى غير أساس من العدل والأعراف المتداولة ..

- لن أكون عقبة فى طريق الوصول إلى تسوية تخرج البلاد من المأساة التى تعيشها

- إذن لابد لنا أن نرسل له نخبره بذلك

- على شرط أن تتفاوضوا أنتم معه فلا أستطيع أن أتقبل الجلوس معه والتفاوض فى أى أمر من الأمور .. فأنا أمقته ، وليتولى أحدكم مسئولية التفاوض معه بما تمليه عليكم ضمائركم .. واتقوا الله فى الأهالى ، والإسلام والمسلمين ..

- بارك الله فيك .. وسوف نرسل له بذلك

وقام القاضى أبو الوليد من المجلس ليشرف على كتابة الرسالة باسم الجماعة لروديجو ، وقام معه الشيخ التاكرنى ، وبقى الشيخ البتى مع القاضى ابن جحاف ليتحدث معه فى الأمور التى تخص الأموال ، والنفقات ..

فى السابع والعشرين من مايو عبرت الخيل التى يعتليها وفد جماعة الحكم فى بالنسيه القنطرة المقامة على نهر طورية إلى الضفة الشمالية .. قبالة ضاحية جبالة .. حيث معسكر قائد جيش المرتزقة روديجو ..

وقف .. السيد .. فى استقبال الضيوف ، وعلى رأسهم القاضى أبو الوليد الوقشى .. الذى كلف بمسئولية التفاوض مع روديجو ، ووضع على عاتقه أن ينقذ أهل بالنسية من الحصار القاتل ، وبأقل أضرار ممكنة ..

أراد القاضى أن يبدى الود الزائد تجاه روديجو ليكون ذلك مدخلاً طيباً للتفاوض فيما بينهما .. فمد ذراعيه للأمام يستقبل بهما روديجو وقد اكتسى وجهه ببشاشة ظاهرة ، فور أن رآه .. بينما روديجو سعد كثيراً لهذا المظهر الودى البادى من إبى الوليد الوقشى .. فبادله البشاشة بترحاب حار .. وتعانقا وكأنهما صديقان حميمان لم يلتقيا منذ أمد بعيد ..

داخل خيمة فخمة على الطراز العربى أجلس روديجو القاضى أبو الوليد ورفيقيه ، ثم هم بالجلوس بجوار القاضى وهو يقول له:

- أين صديقنا العزيز القاضى ابن جحاف

ـ إنه فى وعكة صحية ، وقد أنابنا عنه فى الحديث إليكم

ـ أهلاً ومرحباً بكم ضيوفاً أعزاء علينا

ـ والله ما يقال عنك يا سيدى القنبيطور لا يوفيك حقك ..؟

ـ لعل ما يقال عنا يرضيك ، ويقربك إلينا أيها الصديق العزيز .. فأنا أيضاً كنت أسمع عنك من أصدقائنا ما يجعلنى أترقب بشوق لقاء يجمعنى بك لأستمتع بالحديث معك ، ولأنعم ببشاشة وجهك ، وخلقك الرفيع

ـ أعزك الله يا سيدى القنبيطور بل أنت جدير بالتقدير والتبجيل والاحترام .... ثم ينادى رودريجو على تابعيه يستعجلهم بإحضار المشروبات الرطبة .. ثم يتابع حديثه فيقول للقاضى أبو الوليد متسائلاً :

ـ معذرة أيها القاضى المبجل .. أرجو أن تغفر لى سؤالى .. ثم يتردد قليلاً مبدياً الحياء من الحديث فيشجعه القاضى فيقول:

ـ تفضل .. تفضل قل ما عندك .. على الرحب والسعة

ـ .. أقصد هل جئتم إلينا ولديكم تفويض كامل فيما نتفق عليه ..؟

ـ نعم .. أنا مفوض بالحديث إليكم ، وما نتفق عليه ملزم للجماعة فى بالنسية، ولا يأخذ طابعه الرسمى إلا بالتوقيع عليه من القاضى ابن جحاف .. ولن يعترض على شىء إن شاء الله ..

ـ حسناً حسناً .. والله يا أبا الوليد .. اعذرنى إن كنت أرفع التكليف

ـ على الرحب والسعة .. على الرحب والسعة

ـ أقول والله يا أبا الوليد إننى قد انفتح قلبى لك قبل أن أراك بما سمعته عنك كما قلت لك من قبل .. ولكن ، وبعد أن رأيتك بعينى .. فأنا أقبل كل ما تقبله ، وما ترضاه

هذا عطف منك .. ومنّة .. وهو شرف لى يا سيدى القنبيطور

ـ دعك من سيدى ، ولتقل لى رودريجو .. بلا تكليف ..

ـ حسناً يا رودريجو .. لقد شجعتنى فى أن أتحدث إليك بصراحة

ـ لك ما شئت يا أبا الوليد .. لك ما شئت

ـ بارك الله فيك .. وهذا ما أتعشمه منك يا رودريجو

ـ ماذا تطلب منى يا أبا الوليد

ـ لا أطلب منك إلا ما يطلبه الصديق من الصديق .. ويتمناه الأخ من أخيه .. وهو أن تبر بأهلك فى بالنسيه ، وترفع عنهم من غضبك ، وسخطك عليهم .. فهم بمثابة الأهل لك .. وأنت دائماً فى بلادنا موضع التقدير والتبجيل والاحترام.

ـ لن تعانى بالنسية من شىء ما دام أهلها يبروا أخيهم رودريجو ويشركوه معهم فى السراء والضراء .. وهذا حق الأخ من أخيه

ـ بالطبع يا رودريجو حقك علينا أن تشاركنا فى السراء والضراء .. فماذا تريد منا حتى نوفيك حقك

ـ حسناً يا أبا الوليد .. كل ما أطلبه منكم أن تشاركونى وقواتى الخراج الذى يأتى لبلادكم ، وكنت قد طلبت من القاضى ابن جحاف أن نقتسم الخراج بالنصف .. ، ومن أجلك ، ولثقتى بك فأنا الآن أوافق على أن يكون الخراج بنسبة الثلثين لكم ، وأنا وقواتى الثلث فقط ..

ـ هل تقصد ما يحصل عليه بيت المال من مدينة بالنسية ..؟

لا بل كل الخراج والضرائب التى تأتى إلى بالنسيه من كل الولايات

ـ هذا كثيراً جداً ولا يستطيع أحد أن يوافق عليه .. ولكن فلنترك هذا الأمر جانباً الأن ونسألك هل لك طلبات أخرى

ـ نعم أن تفتح أبواب المدينة لى ولجنودى ولا تمنع شوارعها وأسواقها عنا .. فنحن لا نريد أن نعيش غرباء بينكم ، ولكم منا كل التقدير والتبجيل والاحترام ..

حيث سنراعى عاداتكم الإسلامية .. فنعطى الطريق حقه ، ولا اختلاط بالنساء، وإذا لقى فرد منا مسلم أو مسلمة أفسح له أو لها الطريق .. ويبقى القاضى ابن جحاف كما هو على رأس الحكم بالمملكة ، ولا شىء أكثر من ذلك

ـ ألا يمكننا أن نقلل من هذه الطلبات بحيث تكون مستساغة ومقبولة

ـ هذه هى طلباتنا ولكم أن تقبلوها على شكلها كما قلتها لك أو ترفضوها

ـ فماذا إذا اعترض عليها جماعة الحكم فى بالنسية

ـ فلنكن صرحاء ليس لكم إلا أن تقبلوا بها برمتها كما قلتها لك .. ولكن يمكن فقط أن أعطيكم مُهلة تمتنعون فيها عن تنفيذ ما أطلبه منكم ، لحين تأتى لكم معونة أو دعم من إخوانكم المسلمين من أى مكان تطلبون العون منه

ـ لم أفهم ماذا تقصد بالضبط

ـ اقول لك ... نكتب الشروط التى أطلب منكم تنفيذها لكى أرفع عنكم الحصار .. وهذه الشروط التى لا ترضوا بها الأن .. تبقى مكتوبة ، ويعلق تنفيذها لفترة .. هذه الفترة بمثابة مُهلة لكم تستدعون فيها من شئتم لنجدتكم أى لرفع الحصار المفروض عليكم ، أو فضه بالحرب مثلاً .. فإذا لم تأت لكم النجدة والغوث خلال فترة المُهلة.. تكونون بعدها ملزمين بتنفيذ كل شروطنا المكتوبة دون شطت منا ..

ـ وما الذى سيحدث خلال فترة المهلة

ـ أولاً سيتم رفع الحصار عنكم نسبياً خلال فترة المُهلة ، فيسمح باستخدام نهر طورية للشرب .. كما يسمح لكم بشراء القمح فقط ونوع واحد من الفاكهة ، ونوع واحد من اللحوم .. مع منع الخروج والدخول للمدينة ... أما من ناحية الاتفاق بينى وبينكم فكما قلت لك .. تكتب الشروط فى شكل اتفاقية ملزمة لى ولكم .. ويتم التوقيع عليها من رئيس الجماعة وخاتم المملكة ، كما أقوم أنا بالتوقيع عليها كطرف مقابل لكم ..

ـ وماذا يحدث بعد ذلك ..؟

ـ خلال فترة المُهلة تسلم أسوار المدينة وأبوابها للمسيحين من سكان المدينة وكذا قصر الحكم ، ودواوين العمل الحكومى ، كما يشرف على بيت المال ممثل عنى آثق فيه ، وهو فى نفس الوقت من أهل بالنسبة ممن تعرفونه ..

ـ مثل من مثلاً ..؟

ـ ابن عبدوس .. وكان يشغل هذا المنصب فى ظل حكم الملك السابق القادر بالله

ومن يقوم بإدارة شئون المدينة

ـ موسى ذلك الوزير المسئول عن شئون المدينة فى بداية حكم القادر بالله .. وكان قد لجأ إلىّ منذ فترة .. وهو الذى سيتولى أيضاً الإشراف على شئون المدينة وقيادة الفريق الذى يتولى الحراسات وشئون المال ، وشئون المجالس البلدية حتى نهاية فترة المهُلة ليكون الوزير موسى ومعه ابن عبدوس ، ومعهما المسيحيون المعاهدون هم المسئولون عن إدارة كل شىء فى المدينة .. أما أمور القضاء والشرع فيكون من اختصاص وسلطة القاضى ابن جحاف ..

ـ وماذا إن انتهت المدة ولم تأت النجدة لنا

ـ إذا ما انقضت المدة ولم يأت لكم الغوث أو النجدة يقومون بتسليمى مسئولية الأبواب والأسوار والأبراج ودواوين الحكم ، لأكون أنا المسئول عن شئون المملكة أديرها من خارج المدينة بموقعى هذا .. هنا على ضفة النهر .. وأتعهد بعدم الإقامة أنا أو أحد من جندى داخل المدينة .. إلا هؤلاء المسئولين عن حراسة الأبواب والأسوار والأبراج .. فهم يقيمون فى الأماكن المخصصة لإقامة جند الحراسات فى الأبراج الملحقة بالأسوار .. أما شئون القضاء والإدارة للمدينة

ـ ماذا عنها ومن يتولاها

ـ يكون القاضى ابن جحاف هو المسئول عن القضاء فى المدينة كما هو عليه الأن .. ويتولى كذلك الإدارة المدنية للمدينة ما عدا الأموال ، والضرائب فتكونان تحت إشراف ابن عبدوس، والقاضى ابن جحاف، وأرأسهما أنا، حيث يتم تقسيم الدخل تحت إشرافى .. بالنسبة المقررة والمتفق عليها بيننا ..

- وماذا إذا جاء الغوث فى فترة المُهلة

- يعود كل شىء كما كان ، ويُسَلِم المسيحيون المعاهدون الأسوار للعسكر والجند التابعون لكم ، ويعزل ابن عبدوس عن منصب الضرائب وشئون المال ، وتعود مسئوليتها لكم .. وذلك بشرط أن ينتصر علينا الجيش الذى أتى أو سيأتى لنصرتكم فالمنتصر هو الذى يفرض إرادته على المهزوم ..

- وما المهلة التى سنتفق عليها

- خمسة عشر يوماً يسمح لكم فيها بإرسال خمسة رجال إلى ملك أشبيلية (يقصد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الموجود فى مراكش بالمغرب) وخمسة آخرين إلى ملك سرقسطة .. ويسمح لكل رجل منهم بحمل خمسين ديناراً لا أكثر عند سفره

- خمسة عشر يوماً ..! إنها لا تكفى لشىء

- هذا شرطى .. فلو كان هناك من يريد أن يغيثكم لأتى منذ زمن طويل .. فأنتم محاصرون بشكل كامل منذ تسعة أشهر .. فأين هم كانوا .. ومن أين سوف يأتون ..؟

- هل أنت واثق من أنه لن يأتى إلينا من ينجدنا ..؟

- واثق تماماً .. كما أثق أننى أتحدث إليك الآن ..! .... فيصمت أبو الوليد الوقشى ولا يجد ما يقوله ، ولا أحد ممن معه من مرافقيه .. فيتكلم رودريجو ويقول:

- هل اتفقنا ..؟

- لك هذا

- بارك الله فيكم .. فلنكتب شروط الاتفاقية .. ولينعم أهلى .. أهل بالنسية بالهدوء والاستقرار والطمأنينة ..

ويمضى الطرفان ساعات يكتبون شروط الاتفاقية كما أرادها رودريجو .. وكما أملاها للقاضى أبو الوليد الوقشى ..

وعاد القاضى أبو الوليد الوقشى ، ورفاقه إلى المدينة ، والتقوا بالقاضى ابن جحاف .. فلم يجد القاضى إبن جحاف ما يقوله ليمنع تنفيذ هذه الاتفاقية بعد آن رأى على الوجوه ملامح التجهم والقلق ، ومسحة آمرة لم تنطق بها الألسن ، ولكن صرحت بها الأوْجُه والأحداق ..

وبأيد مرتجفة ، وعيون دامعة .. وقلب ممزق .. ونفس منكسرة .. كتب القاضى ابن جحاف اسمه على وثيقة الاتفاق ومؤرخة فى ٣٠ مايو ١٠٩٤ (١٣جمادى الآخر ٤٨٧هجرية) .. وفى الوثيقة تنتهى مدة المُهلة فى يوم ١٣ يونيو ١٠٩٤م ..

وقد تضرعت نفسه إلى الله أن يرسل الغوث لبالنسية .. وتذكر كلماته سبحانه وتعالى .. ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ ﴾ (١) ..

وفى يوم ٣٠ مايو ١٠٩٤م خرج القاضى أبو الوليد الوقشى ومعه رجال الجماعة لمدينة بالنسيه حاملين توقيع القاضى ابن جحاف، وخاتم المملكة على وثيقة الاتفاق، وتوجهوا إلى خيمة القنبيطور رودريجو ..

خرج وفد الجماعة المتجه إلى القائد ابن عائشة المتواجد فى مدينة مرسية على متن قارب أقلهم إلى سفينة عينها لهم رودريجو بنفسه ، كل طاقمها من المسيحيين.. فلما اعتلى رجال الوفد ظهر السفينة تقدم إليهم ربانها ومعه بعض الجند ، وطلبوا من الرجال أن يخضعوا للتفتيش ..

وتعجب الرجال من طلب ربان السفينة ، فأخبرهم أن هذه هى تعليمات القنبيطور له ، حتى لا يحمل أى منهم أموالاً تزيد عن المبلغ المقرر لكل منهم ..

وتم اكتشاف أموال كثيرة حملها رجال الوفد معهم لكى يعطوها إلى القائد ابن عائشة لكى تُعينه على سرعة تقديم العون خلال فترة المهلة القصيرة ..

---

(١) سورة البقرة ـ الآيتان ١٥٥، ١٥٦ .

وعلى الجانب الآخر تحرك وفد من خمسة أشخاص عابراً الباب الغربى للمدينة متوجها إلى مملكة سرقسطة ، فقام رجال رودريجو بإيقاف رجال الوفد فور عبورهم الباب الغربى ، وتمت عملية التفتيش لهم ، وتم مصادرة الأموال الزائدة التى حملوها معهم ، والمخصصة لحث الملك المستعين على التحرك لنجدة المدينة ..

وبذلك ضمن رودريجو أن يُفشل أى محاولة لتقديم دعم مالى حقيقى من بالنسية للجيوش المطلوب قدومها إليها فى الفترة القصيرة المحددة كمهلة .. حتى يضمن أن تذهب محاولات إنقاذ المدينة عبثاً ودون جدوى ..

فليس من الممكن لأى جيش أن يتحرك إلا إذا توافر له الإعداد والتدريب على مستوى عال .. والتجهيز الجيد ، وهذان لا يتوافران إلا إذا توافرت الأموال .. فإذا ما ذهبت الوفود بدون أموال ، فيصبح مجهودها لاستنفار الجيوش مجرد عبث ، لا فائدة ترجى منه ..

وقام مندوب عن .. السيد .. بالمرور فى شوارع المدينة يدعو الأهالى من المعاهدين القاطنين فى المدينة والراغبين فى العمل كحراس على الأسوار بالتجمع فى السوق الكبير بالمدينة .. وذلك بمقابل من المال يدفع لهم يومياً ولمدة خمسة عشر يوما .. يتحمل تكاليفها بيت المال فى بالنسية

وتوافد الكثيرون منهم ممن يريدون أن يكون لهم شأن فى الأحداث التى تمر بها البلاد ، وطمعاً فى كسب المال الذى يساعد على شراء السلع غالية الثمن ..

وكان ديجو الشاب الأسبانى أخو ماتيلدا صديقة رضوى أحد المتقدمين لهذا العمل ، وتم تكليفه بقيادة مجموعة من عشيرته ليكون رئيساً عليهم بعد أن تم اختباره ، فكان أفضلهم جسماً وأكثرهم قدرة على استخدام السلاح .. وتم إخضاعهم إلى تدريبات سريعة بمعرفة رجال .. السيد .. حتى يستطيعوا أن يضطلعوا على المهام الموكلة إليهم إلى حد مقبول ، فالكثيرون منهم لا خبرة لهم بمثل هذه المهام من قبل ..

وتولى ابن عبدوس السيطرة على بيت المال من جديد كما كان وقت حكم الملك القادر .. واعتنى بتدوين كل الأموال المرصودة فى الدفاتر والسجلات ، وتبعاً لتعليمات .. السيد .. راح ابن عبدوس يبحث عن ما هو مقيد ومسجل من الأموال التى كانت بحوزة الملك القادر ..

وأخذ يسأل الشيخ أحمد البتى الذى تولى شئون بيت المال من بعده عن هذه الأموال فأجابه أن المتولى حصر هذه الأموال هو القاضى ابن جحاف .. فخاف ابن عبدوس أن يتحدث فى ذلك مع القاضى وآثر الصمت حتى يخبر رودريجو بذلك ..

وفى هذه الأثناء تدفقت كميات من الطحين إلى المدينة تم شراؤها من تجار الضواحى الخارجية ، كما تم جلب كميات كبيرة من المياه النظيفة من نهر طورية .. وسُمح لأهالى المدينة جلب نوع واحد من فاكهة موسم الصيف ..

وانتهز التجار داخل المدينة الفرصة ، ورفعوا أسعار السلع المتبقية لديهم قبل رفع الحصار بصورة كاملة عن المدينة فى منتصف شهر يونيو .. وذلك إما بتسليم المدينة طوعاً لـ .. السيد .. وإما بوصول النجدة من جيوش الإخوة المسلمين فى الغرب .. أو فى الجنوب ..

وفى هذه الأثناء .. تعافت رضوى من الحمى ، وشفيت تماماً ، واستعادت نضارتها وشبابها ، بعد أن كاد المرض أن يفتك بها وبجنينها فى آن واحد .. ولكن كان القدر رحيماً وخسرت جنينها ، ولكن بقى لديها الأمل فى أن تتاح لها فرصة الإنجاب من جديد..

وأصبح غياب جاسر فى مأموريته التى كلف بها من قبل جماعة الحكم هو ما يشغلها الآن لكى تستقيم حياتها من جديد .. وفى نفس الوقت شعرت بحنين جارف لصديقتها الوفية نائلة التى انقطعت عنها أخبارها ..

وإن كانت مطمئنة عليها إلى حد بعيد لكونها خرجت من مأساة الحصار ، ورحلت إلى مرسية حيث الاستقرار والهدوء .. وبقى لديها الشوق لكى تراها وتنعم بصحبتها لتسترجعا معا ذكريات الماضى السعيد ..

وذهبت الوفود ، وعادت بالوعود .. ومضت الأيام ، وتوالت الليالى .. والأهالى تثوافد نهاراً وليلاً ناحية الأسوار آملة أن تأتيها الريح بما تشتهى أن تسمعه الآذان .. إما بترنيمات الأبواق النحاسية لجيش الغرب الآتى من سرقسطة .. أو ضجيج الدفوف ، والطبول التى تعلن قدوم جيش الجنوب برجاله الملثمين ..

فلا الأبواق عزفت ترنيمات الغرب .. ولا الطبول هدرت بضجيج الجنوب .. وتجسدت فى القلوب نبضات الخيبة واليأس..

فى صباح يوم الثانى عشر من يونيو ١٠٩٤م قبل نهاية فترة المُهلة بيوم واحد اجتمع القاضى ابن جحاف سراً مع كل من الشيخ التاكرنى المسئول على تنظيم وإدارة مجموعات جند الله ، والشيخ أحمد البتى المسئول عن الضرائب وبيت المال ، وذلك من آجل بحث الأمور المتعلقة بشأنهما قبل تحديد مصير المدينة .. وتحدث القاضى إلى الشيخ البتى فقال له:

ـ هل تسلم منك ابن عبدوس كافة الوثائق المتعلقة بالشئون المالية الخاصة بالمملكة من دفاتر ووثائق وغيرها من الأمور التى ترتبط بالشئون المالية

ـ نعم .. وقام هو بتسيير الأمور خلال فترة المهلة التى تنتهى غداً .. ولكنى لاحظت كثرة سؤاله عما يخص أموال الملك القادر وهل هى موثقة أم لا ..

ـ وماذا قلت له

لقد أعلمته أن هذه الأمور .. أى ما يخص أموال ومجوهرات الملك القادر هى مسئولية شخصية للقاضى ابن جحاف

ـ نعم فهذا الدنئ إبن عبدوس يريد أن يسلمها لـ رودريجو ليغتصبها ، ويفر بها .. فهى تكفيه وتغنيه عن كل بالنسية .. فإذا ما استولى عليها وظفر بها فلا يهمه بعد ذلك أن تبقى بالنسية فى حوزته أم لا .. فهى بمثابة الغنيمة الكبرى التى يسعى للاستيلاء عليها .. ولن أمكنه من ذلك مهما كان الثمن ... ثم يوجه القاضى حديثه إلى الشيخ التاكرنى فيسأله:

ـ وما موقف جند الله الآن ..؟

- هناك أمران يجب التحدث عنهما بشأن جند الله .. الأمر الأول من حيث الإنفاق .. فما يتواجد لدينا من أموال لتدبير الشئون المالية لجند الله من مرتبات ثابتة تصرف للمتفرغين بالعمل فى هذه القوات .. أو ما يتعلق بنفقات الطعام والملابس والمهمات التى يكلفون بها وما غير ذلك من نفقات .. فكل الأموال المتوفرة لنا لم تعد كافية وكانت تجلب من تبرعات كبار الملاك والتجار وأشراف المدينة ، وهم الآن منقطعون عن ذلك فى الفترة الأخيرة منذ ثلاثة أشهر تقريباً ، وما لدينا لا يكفينا إلا للإنفاق لمدة ثلاثة أيام أخرى فقط .. أما الأمر الثانى فهو يتعلق بمهام هذه المجموعات إذا ما دخل .. السيد .. بقواته واستولى على المدينة .. فما هو الدور الذى ستكلف به هذه القوات ، وماذا إذا حاول .. السيد .. اقتفاء أثر العاملين بها ومحاولة القبض عليهم ..؟ .... فيسكت القاضى قليلاً ثم يسأل الشيخ التاكرنى:

- كم بقى لدينا من هذه القوات بعد الحصار ، وبعد المهام التى كلفت بها هذه المجموعات ، وقد وقع فيها قتلى منهم ..؟

- الباقى لدينا منهم حوالى خمسون

- كم فرد منهم يستطيع أن يعمل متطوعاً بدون أجر ، ويقبل بتكليفه بمهام لتنفيذها لصالح البلاد

- لا أدرى كم منهم بالضبط يمكنه العمل بلا مقابل بعد أن ترك الكثير منهم أعمالهم خلال فترة الحصار ، وكذلك منذ طلبنا منهم العمل معظم الوقت لدينا .. وذلك منذ سيطرنا على المدينة بعد مقتل الملك القادر .. ولكنى أعتقد أن أقل من النصف يستطيع العمل متفرغاً بدون مقابل لصالح الجماعة وأهدافها .. ولكن لفترة لا تزيد عن شهر ..

- إذن من يمكن الاعتماد عليهم الآن لن يزيدوا عن خمسة وعشرين فردا .. ونحن نستبعد من ذلك عسكر المدينة فهؤلاء يتم الإنفاق عليهم من خزينة بيت المال .. وبالتالى يكون ولاؤهم لمن يحكم البلاد .. سواء كان ذلك من أتباع الملك

القادر من قبل .. أو من أتباعنا الآن .. او من أتباع من يحكم مستقبلاً .. ولا نعلم من سيمسك بزمام الحكم بعد دخول السيد إلى المدينة .. فأنا لا أثق فى عهوده .. فقد خالفها بالجملة .. وقد يتدخل فى شئون الحكم مباشرة ، ويسيطر على البلاد عن طريق أعوانه الخونة ، وهم كثيرون ، وعلى رأسهم ابن عبدوس .. وسوف تكشف لنا الأيام عن عملاء جدد سينضمون إلى خدمة هذا العلج الأجنبى .. ويُظهرون له كل المودة والمحبة .. حتى ولو كان ذلك على حساب الشعب واستقلاله ، وحريته .... فيسأله التاكرنى:

ـ وماذا ترى لتدبير أمر العمل لهذه المجموعات فى المستقبل ، خاصة إذا ما سيطر .. السيد ..على المدينة وبدأ يلحق الضرر بالشعب ، والأهالى ، وإذا ما تعرض المسلمون للخطر كما حدث من قبل فى طليطلة على يد الملك الفونسو ..

ـ لابد الآن من أن نرتب أوضاع المجموعات لتكون من المتطوعين فى الوقت الحالى .. يتم تنفذ مهام محدودة بواسطتهم حتى نرى ما يمكن فعله مستقبلاً

ـ أرى أنك لابد من أن تحتاط لما قد يدبره لك السيد من مكائد إذا ما استولى على الحكم فى المدينة

ـ وماذا يمكننا أن نفعله فى هذا السبيل ..

ـ سوف أعد خمسة من الرجال الأشداء ليكونوا مسئولين عن حمايتك طول اليوم ، وحتى نلتقى معك مرة أخرى لنرى ماذا يمكننا أن نتخذ من تدابير وحسب الموقف على الطبيعة.

وفى المساء من نفس اليوم اجتمع القاضى ابن جحاف بجماعة الحكم فى بالنسية ، وذلك لمناقشة الوضع عند نهاية المهلة .. وتحدث للجماعة وقال لهم

سوف تنتهى فترة المهلة غداً كما تعلمون .. ولقد كانت هذه الفترة غير كافية بكل الاعتبارات لكى تصل إلينا النجدة والغوث من إخواننا المسلمين .. ولقد جاهرت بذلك لكم حينما جئتم إلىّ بعد لقائكم برودريجو .. وأرى أن نطالبه

بحزم بمد فترة المهلة لعشرة أيام مثلاً حتى نعطى أنفسنا فرصة لذلك .. فإن رفض استولينا على الأسوار والأبواب ، ونستطيع الأن أن نصمد للحصار على الأقل لمدة شهر آخر .... فيتدخل فى الكلام القاضى أبو الوليد الوقشى فيقول:

- لقد أخذت على عاتقى التفاوض مع القنبيطور ، ورفضت أنت أن تتفاوض معه ، وقد وكلتنا بالتفاوض معه لكى نخرج المدينة من المعاناة التى عاشتها .. ولا يمكن لى أن أظهر أمام هذا الرجل بمظهر من لا يحترم العهود والمواثيق ..

- وماذا تريد إذن ..؟

- لابد أن نحترم ما اتفقنا عليه فى الوثيقة

- المسألة ليست أن تكون شخصا موثوقا فيه ولا ينقض العهود أو يحترمها .. ولكن المسألة هى أن مصير أمة يتحدد فى هذه اللحظات .. ويجب آن نكون مستعدين للتضحية بأى شىء من أجل أمة الإسلام والمسلمين ..

- هذا كلام لا يمس الواقع الذى نعيشه .. انظر إلى الشعب المشرد فى الشوارع والأزقة .. وهم يسيرون هائمون على وجوههم .. يتخبطون كمن يتخبطه الشيطان من المس (الجنون) لن يستطيع أى فرد من هذا الشعب أن يقبل بما تقول

- هل تقصد أننى الوحيد الذى أطلب الصمود والصبر ..؟

- لست وحدك من صبر .. بماذا تسمى صمود هذا الشعب لتسعة أشهر من الحصار الكامل .. أليس هذا صبر ، وصمود بطولى يحسب لهؤلاء الناس

- إننى أدرك جيداً ما تتحدث عنه ، ولكن يجب أن نحاول محاولة أخيرة

- نحن مستعدون أن نحاول .. ولكن يجب أن يكون ذلك بموافقة القنبيطور دون أن نتحداه .. فإذا قبل بزيادة المهلة .. كان بها .. أما إن رفض .. فلابد لنا أن ننفذ ما جاء فى الوثيقة .. ولا نُعرض الشعب لويل الحصار بالمجازفة بتحدى القنبيطور .... يسكت القاضى قليلاً ثم يقول:

ـ حسناً فالنحاول معه لمد المهلة

ـ دون أن تتحداه ..

ـ نعم .. دون أن أتحداه

وينتهى الاجتماع بتفويض القاضى بمحاولة مد المهلة مع رودريجو لعشرة أيام آخرى .. أو بالمدة التى يقبلها رودريجو إذا رفض التمديد لهذه الفترة الطويلة .. فيكتب القاضى رسالة بذلك إلى رودريجو ليبعثها إليه فى معسكره فى صباح اليوم التالى ..

ما أن وصلت رسالة إبن جحاف للقاضى حتى استشاط غضباً ، وكتب رسالة يرد بها على جماعة الحكم وموجهة للقاضى أبو الوليد الوقشى ..

وكتب يطلب منه أن يكون وفياً للعهد إن أراده (أى رودريجو) وفياً للعهد .. وإلا سيعتبر كل ما تم الاتفاق عليه كأن لم يكن ، وسوف يستبيح كل من فى المدينة إذا ما نجح فى دخولها عنوة .. ولن يدخر جهداً فى محاولة ذلك ..

لم تفتح أبواب المدينة يوم الأربعاء ١٤ يونيو بعد أن انتهت المهلة بنهاية يوم ١٣ يونيو ، وازاء ذلك .. أرسل رودريجو إلى جماعة المدينة أنه فى حل من الاتفاق ..

وفى اليوم التالى الخميس ١٥يونيو ١٠٩٤م (٢٩جمادى الآخر ٤٨٧هـ) خرج القاضى ابن جحاف ومعه جماعة الحكم .. إلى معسكر رودريجو حيث وقع معه إتفاق تسليم المدينة على ما جاء فى وثيقة الاتفاق ، وعادوا إلى المدينة ..

وعند الساعة الثانية عشرة ظهراً .. فُتِحَت أبواب بالنسيه لـ .. السيد .. وأتباعه ..

تقدم .. السيد .. موكبه بفرس طَهطاهٌ أبيض وقد تزين رأسه بالأشرطة الحمراء والبيضاء ، بينما كان السرج الجلدى مطهم بالحلية الذهبية والفضية .. وقد دس قدميه فى الحلقتين المعدنيتين المتدليتين على جانبى الفرس وفى الخلف منهما مهماز الفرس الموشى بالنحاس والفضة ..

وسار من خلفه خمسة من مساعديه المقربين على خيولهم العربية الأصيلة ، وقد توشحوا بالأردية القشتالية الملونة .. وقد رفعوا البيارق الدالة على تبعيتهم للمملكة الأسبانية ..

وتلاهم فرق الخيالة من الفرسان الأقوياء ، وقد علت وجوههم ابتسامة المنتصرين الفاتحين .. وقد امتلأت نفوسهم بالفضول ، وهم يتفحصون الوجوه ، والأبنية ، والأسوار العالية التى لطالما حالت بينهم ، وبين ما تشتهى أنفسهم ، ليظفروا به .. سواء كان مالا أو ثراء أو نساء .. كل حسب ما يشتهى أو تمنيه نفسه للحصول عليه ..

ومرت فرق من الجند الراجلة خلف الفرسان فى استعراض للقوة ، أعجب الكثيرون ممن يشاهدون هذا الاستعراض لما يروه من حسن تنظيم القوات ، والثقة المتبدية على وجوه الجند ..

بوجوه شاحبة ، وأعين زائغة ، ونفوس محطمة وبطون جائعة .. تجمع الناس على جانبى الطريق يتطلعون بفضول إلى الرجل الذى قهر كبرياءهم ، وأذل قادتهم لشهور طويلة .. ذلك الرجل الذى لم يستطع أحد أن يوقفه عن غروره ، وصلفه .. فأصبح فى عين الضعفاء المنكسرين .. وكأنه فاتح عظيم ..

مر المنادون فى شوارع بالنسية وأزقتها يدعون الناس من أهالى المدينة والرجال الشرفاء للقدوم إلى حدائق القصر الملكى بضاحية بلا نويه للاجتماع ب .. السيد .. الذي سيلقى عليهم خطبة ..

مر .. السيد .. من الباب الغربى للمدينة ومنه إلى الميدان الكبير أمام المسجد الجامع حيث كان فى استقباله رجال المدينة وأشرافها وعلى رأسهم القاضى ابن جحاف ، والقاضى أبو الوليد الوقشى .. وابن عبدوس ، وباقى رجال جماعة الحكم .. التى انتهت صلاحياتها بدخول .. السيد .. للمدينة ..

---

(١) طهطاهٌ: كامل الحسن.. والمطهم.. هو التام كل شيء منه علي حدته، فهو بارع الجمال ـ معجم (لسان عجم).

وقابل .. السيد .. ترحيب القاضى ابن جحاف به بفتور كبير .. ولكنه سلم على القاضى الوقشى بترحيب حار ، وعانقه أمام الجميع ليؤكد مكانته لديه أمام الجميع .. كما سلم على كبار رجال المدينة ووجهائها ..

ثم تحرك بموكبه ومر من أبواب سور القصر الذى يتاخم سور المدينة من الداخل ، فعبر أبواب السور إلى حيث حدائق القصر الملكى فى ضاحية بلا نوبه .. ووقف على منصة عالية أعدت له من قبل، وقد كسيت بالسجاد، وعلق على جوانبها الزينة والورود .. ثم تقدم .. السيد .. للمنصة، واعتلاها ووقف يخطب فى الناس ..

بعمامة بيضاء كبيرة ، وعباءة تغطى ظهره، ووجه شاحب له ذقن طويلة كثيفة وشارب أسود عريض .. انتصب رودريجو أمام الجميع ، وهم ينصتون إلى حديثه ، وقد تعلقت مصائرهم بأطراف لسانه فقال ، وقد تقمص دور الواعظ الملهم ، المستظل برحمة الإله وبركته ..

.. يا أهل بالنسية .. إننى رجل لم يكن له ملك قط ، ولم يكن كذلك لأحد من أتباعى .. ولكن منذ اليوم الذى رأيت فيه هذه المدينة .. ، فقد انفتح قلبى لها ، وتمنيتها أن تكون من نصيبى .. ، وكم تضرعت إلى الله لكى يهبنى إياها ..

فانظروا الآن إلى قدرة الرب .. .. فهاهو الرب وقد منحنى إياها الآن لتكون بالنسية ملك يدى .. فإن حكمت بالعدل ، وأحسنت تصريف الأمور فى المدينة .. فسوف يتركها الرب لى .. وإن تجبرت وأسأت لكم.. فسوف يستردها الرب منى..

ومن الآن .. فليرجع كل شخص إلى ماله ويتملكه كما كان من قبل .. فمن وجد كَرمه أو جنته (بستانه أو مزرعته) خالصة فليعد إليه ، ومن وجد حقله مزروعاً فليدفع أجر زراعته ويتملكه كما تأمر الشريعة الإسلامية ..

ولن يأخذ المسئولون عن جباة الضرائب فى المدينة أكثر من العشر كما جرى عليه العمل من قبل .. ، وقد هيأت نفسى لكى أسمع الشكاوى منكم فى يومين من الأسبوع حددتهما لكم لهذا الغرض .. وهما يومى الإثنين ، والخميس ..

ومن كان له قضية عادلة فليأت متى شاء ، وسأستمع إليه ، فأنا لن أحتجب عنكم ، ولا أخلو مع النساء للشراب والغناء كما كان يفعل أولو أمركم ممن لم يمكنكم قط رؤيتهم ، وأود أن أعالج جميع أموركم بنفسى ، وأن أكون لكم رفيقاً ، وأدافع عنكم كما يدافع الصديق عن صديقه والقريب عن قريبه ، وسأكون قاضيكم ووزيركم ، وإن شكا أحدكم من آخر أنصفته منه(١).. .. ثم ختم رودريجو خطابه بأن قال:

.. أنا لست راغباً فى دخول مدينتكم ، ولا أريد أن أسكنها ، ولكنى أريد أن أبنى منزلاً فوق جسر القنطرة .. أجىء لأستريح فيه من حين إلى آخر ، وأعدكم بأننى سوف أتنازل عنه حين يحتاج أحدكم إليه .. "

ما أن أنهى رودريجو خطابه حتى هلل الناس الضعفاء ، وأصحاب الأملاك والتجار لما قاله لهم .. فقد رأوا فيه رجلاً شهماً يدافع عن مصالح الناس .. وسوف يقتص للفقراء منهم إذا ما ظلموا .. أليس فى ذلك عدل .. ووفاء ، وشهامة ..

ونزل السيد من المنصة ، وبدأ فى تفقد شوارع المدينة ، ودواوين الحكم ، والأسوار والدفاعات والأبراج ..

ثم صعد أعلى برج فى المدينة .. وهو قريب من الضاحية القديمة .. فلما صعد السيد إلى قمته ، وجد البرج يكشف الكثير من أحياء المدينة وبيوتها ، ويمكن للماكث فيه أن يكشف عورة الكثير من المنازل القريبة .. فلما نزل من البرج تكلم إلى وجهاء المدينة وأعيانها فقال لهم ..

لقد وجدت البرج يكشف الكثير من العورات فى المنازل القريبة منه .. ولذلك سأصدر أوامرى بأن تغطى كل النوافذ التى ترى البيوت ، حتى لا يطلع أحد من جنودى على عورات الأهالى .. .. ثم تابع حديثه قائلاً :

---

(١) ملحمة السيد ـ د . الطاهر أحمد مكى ـ دار المعارف طبعة ١٩٩٥ ص ١٢٠ .

«لقد نصحت إخوتنا المسيحيين هنا فى المدينة بأن يظلوا على احترامهم للمسلمين .. يسلمون عليهم إذا مروا بهم، ويفسحون لهم فى الطريق إذا التقوا معهم..»

فابتسم له رجال المدينة ، وشكروه وأثنوا على خلقه الرفيع ..

انطلق سالم وبدران وكثير من أهل المزارع والضواحى ممن حرموا من ذويهم طوال فترة الحصار .. إلى داخل المدينة بعد أن فتحت الأبواب ليبحثوا عنهم ويطمئنوا عليهم .. ومضى سالم وبدران يجريان من حى المدينة الجديد إلى حيها القديم من دون توقف ..

اهتز باب الدار بشدة من طرقات سالم وبدران ، وهما يستعجلان فتح الباب، وكان بدران يعد نفسه لرحلة طويلة من البحث والتحرى عن مكان زوجته .. وانفتح الباب ، وطلت بهجة منه فإذا سيدها سالم أمامها ، ومن خلفه لم تخطئ عينها ملامح وجه زوجها بدران ..

صاحت بهجة وهى تبكى وقالت «سيدى سالم .. بدران .. بدران ..» .. وللحظات لم تقو قدماها على حملها فتهاوت جالسة على الأرض .. وقد فاضت أعينها بالدمع الغزير ..

ربت سالم على كتف بهجه يسلم عليها وهو داخل الدار .. بينما عيناه تبحثان عن وجه أمه وأبيه .. وتقدم بدران وانحنى على الأرض يقبل زوجته بهجة ، وقد تهدج صوته وهو يحتضنها ويكلمها بحنان وحب بالغ ..

تقدم سالم لداخل الدار باحثاً عن أمه ووالده فرأى والده الشيخ مسعود القيسى نازلاً السلم بصعوبة لم يتعودها ..

فجرى إليه وهو يلهث من شدة الإرهاق بعد أن قطع مسافة طويلة جرى فيها من باب المدينة حتى الدار بلا توقف ..

واحتض أباه، وهو يبكى على طول فراقه ، والشيخ مسعود تنفطر الدمعات من عينيه فى سكون يكتم فى طياته حزنا كبيراً .. فلا هو يدرى هل هى دمعات الفرحة بلقاء ولده بعد طول غياب أم هى دمعات الحسرة على فقدان ولده لأمه وهو فى غربة الحصار ..

وبعد لحظات تقبل سالم بهدوء نبأ وفاة أمه الحبيبة بصبر وإيمان أدهشا أباه رغم ما عرفه عن ابنه من تدين وورع ..

وسرعان ما حضر إلى الدار الشيخ أبى عمر بن عتبة حماه وبنته الصغرى ليلى، حيث عانقا سالم ورحبا به ورحب بهما، واتفق سالم مع الشيخ أبو عمر على ضرورة خروج الشيخ من المدينة فى اليوم التالى، والسفر مع بنته ليلى إلى مرسيه ليبقى هناك مع نائلة ويستقر بها لفترة إلى أن تهدأ الأحوال فى بالنسية..

وما هى إلا ساعة وحضر جاسر وزوجته رضوى ليهنئا سالم بسلامة العودة .. وفى نفس الوقت ليعزيانه فى فقدان أمه أثناء فترة الحصار .. ثم تحدث جاسر إلى سالم فقال له:

ـ لقد افتقدتك كثيراً يا سالم

ـ وأنتم جميعاً افتقدتكم بدرجة كبيرة ، وكان خوفى عليكم رهيباً وقد تراءت لنا جموع الناس ، وهم يعتلون الحصار ، ويستصرخون جنود السيد ليطعموهم قبحهم الله ، فلا يستجيبوا لهم

ـ ها هه يا لها من محنة رهيبة .. ولا ندرى متى تنتهى .... فتتدخل رضوى فى الحديث فتسأل باستغراب

ـ متى تنتهى ..؟ أولم يرفع الحصار عن المدينة .. فيجيبها جاسر

ـ ولكننا لا نعرف كيف ستمضى الأمور مع هذا الرجل اللعين رودريجو

ـ وماذا يمكن أن نفعل لكى نحتاط

ـ يجب أن نقرأ الأحداث أولا بأول ، ونفسرها حتى نخرج منها بتفسير يُمَكِننا أن نتدبر أمرنا بعد ذلك فى الوقت المناسب دون أن نتعرض للخطر ... آه يا ليتنا قد سمعنا كلامك من قبل ، وخرجنا من المدينة

ـ لقد أجبرتنا الظروف على البقاء .. ورغم أننى تكلمت مع الجميع أنبه عليهم الخروج من المدينة إلا أننى لم أستطع أن انجو بكم من الحصار .. فقد كان حَملك سبباً فى بقائنا ولا ذنب لك فى ذلك .... فيتدخل سالم فى الحديث ويسأل:

ـ صحيح لقد انسانى اللقاء أن أسأل عنابنكم هل هو ولد أم بنت ..؟ ... فتسكت رضوى ، وتنظر للأرض وقد طل الدمع فى مقلتيها فيقول جاسر له:

ـ البقية فى حياتك .. لقد فقدته رضوى فى أيامه الأخيرة ، من إثر حمى تعرضت لها كادت آن تقضى عليها .. والحمد لله أن جاء قضاؤه عند هذا الحد ... فيقول سالم بأسَى:

ـ الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه .... ثم تسأله رضوى عن أحوال نائلة فتقول:

ـ وكيف حال نائلة يا سالم ..؟ ومتى كانت آخر مرة اتصلت بها ..؟

ـ نائلة بخير عند خالها فى مدينة مرسيه.. وقد أرسلت لى فى المزرعة منذ إسبوع تطمئننى على أحوالها وتسأل عن أحوال بالنسية.. ولكننى لا أريد أن أستعجل حضورها حتى نرى كيف ستسير الأمور خلال الفترة القادمة.... فيقول جاسر:

ـ هذا هو الرأى الصواب.. وبعد أن تهدأ الأمور وتستقر، تعود إليك بسلامة الله..

انطلقت جموع الناس خارجة من المدينة تستقبل التجار القادمين من الضواحى الخارجية للمدينة ، ببضائعهم ليشترى الناس ما يحتاجونه منها .. فتزاحموا حول التجار واشتروا الأطعمة التى حرموا منها لأشهر طويلة نسوا عددها ، ونسوا فيها ، مذاق هذه الأطعمة ، وراح الكثيرون منهم يلتهمون الطعام ، وكأنهم لن يطعموه مرة أخرى أبداً ..

أما أغنياء المدينة فقد خرجوا من المدينة إلى الضواحى خارجها ليشتروا ما يحتاجونه من الطعام والغذاء والفاكهة والخضراوات بكميات كبيرة ، وكأن المدينة سوف يُضرب عليها حصار جديد بعد ساعات ..

وبينما انشغل الناس بالبيع والشراء ، كان جند .. السيد .. يأخذون مواقعهم على الأسوار ، والأبراج ، والمتاريس والمناطق المحصنة فى كل مدينة بالنسية، وتسلموها بهدوء من المعاهدين الذين كانوا يحتلونها فى فترة المُهلة ..

وكما قتل الحصار أهالى بالنسية جوعاً وحرماناً .. ها هى فرحة فك الحصار تقتل الأهالى بالتخمة وراح الكثيرون منهم ممن تناولوا الأطعمة والشراب بنهم وشراهة يسقطون صرعى .. بعد أن نجوا من قبل من محنة الجوع ..

أعد كبار رجال المدينة مأدبة غداء لـ .. السيد .. وخمسة من أتباعه الكبار لزيادة روابط الصداقة فيما بين الجميع ليبدأ عهد جديد من التعاون فى المملكة لتعود إلى سابق عهدها من الرخاء والاستقرار قبل أن يحل بها الملك القتيل القادر بالله ..

حضر .. السيد وتابعوه إلى المأدبة فى أبهى حلة لهم .. وحاول القاضى ابن جحاف الذى كان على رأس رجال المدينة أن يقيم جسراً من الود المفقود بينه وبين .. السيد .. فأعد هدية من المال جمعت فى عدة أكياس من الجلد ووضعت فى طس من النحاس ، وقدمت لـ .. السيد .. فسأل القاضى ابن جحاف وقال له:

ـ من أين أتيت بهذا المال ..؟

ـ هذا المال جاء من فرق سعر بيع الخبز للأهالى أثناء فترة الحصار عن السعر المشترى به أصلاً .. وقد كان يستخدم فى الإنفاق على شراء السلع من جنودك.. أما الآن وقد رفع الحصار ، فهو هدية يقدمها لك الشعب بعد أن رفع عنه الحصار ..

ـ لا أنا لا آخذ مالاً تم به المتاجرة بقوت الشعب وأمواله

ـ شعر القاضى بالحرج من رفض السيد لهديته أمام كبار القوم .. وكتم القاضى ما كاد أن ينطق به لسانه ، ليسأل رودريجو .... ومن الذى جوع الشعب وحاصره أليس أنت أيها اللص..؟ .... ولكنه آثر الصمت وابتلع الإهانة.. وأدرك فى نفسه أن الحوار والتفاهم بينهما قد أصبح مستحيلاً .. وأدرك أن السيد الشغوف بالمال ، لا يرفضه إلا إن كان يطمع فى مال أكثر أو غنيمة كبرى ..

البحث عن الغنيمة .. !

ذهب ملاك الأراضى إلى مزارعهم وبساتينهم التى غابوا عنها وقت الحصار حيث كانوا داخل المدينة غير قادرين على الخروج منها .. وذلك لتقديم الرعاية والعناية بالأرض وليبدأوا العمل من جديد .. ففوجئوا بتواجد الكثير من الغرباء فى مزارعهم وبساتينهم يحتلونها ، ويقيمون فى الدور المملوكة لأصحابها المالكين الأصليين لهذه البساتين والمزارع ..

طالب الملاك من هؤلاء الغرباء مغادرة الأرض فرفضوا ، وقال بعضهم أن هذه الأراضى قد اشتروها من السيد وقت الحصار للعناية بها ، وقد حافظوا عليها من البوار ، ولن يتركوها إلا أذا أعيدت لهم أموالهم التى أخذها منهم السيد ، بالإضافة إلى أجرة عملهم بهذه الأراضى وقد حافظوا عليها من البوار ..

وقال لهم آخرون إنهم قد استأجروا الأرض من السيد ، ولم تنته فترة الإيجار لهذه الأراضى ..

كان معظم هؤلاء الغرباء هم فى الأصل من جند السيد الذين أصيبوا فى المعارك على مدى سنوات .. وأراد السيد أن يكافئهم على ما قدموه له من خدمات وقد أصبح معظمهم غير قادر على القتال ، وخوض المعارك المتتالية بنفس الكفاءة ..

كما كان من هؤلاء الغرباء ، من كانوا ملحقين بجيش السيد ، ويقدمون الخدمات الأخرى للجيش ، غير خوض الحرب كالأعمال الإدارية من طهى ، وتنظيف ، وتمريض ، وتنظيم ، وغيرها من الشئون الإدارية ..

فأراد السيد أن يستفيد منهم وقت الحصار برعاية الأرض التى يغيب عنها ملاكها ومزارعها فى مدينة بالنسيه .. وذلك لتقديم المحاصيل التى يزرعونها لجيش السيد مقابل أسعار زهيدة تدفع لهم كمقابل لجهودهم فى رعاية هذه الأراضى ..

لم يستطع ملاك الأرض من شعب بالنسيه أن يستعيدوا أرضهم من غاصبيها فقرروا أن يذهبوا إلى السيد يوم الخميس التالى بعد أن مرت أيام الأسبوع يحاولون فيها حل مشاكلهم مع هؤلاء الغاصبين دون جدوى ..

فى حديقة قصر الحكم فى بلا نوبه تجمع الكثيرون من أهالى بالنسيه يوم الخميس ٢٢يونيو للتظلم لـ .. السيد .. عما لحقهم من ظلم ، لكى يعيد لهم حقهم الذى اغتصبه منهم هؤلاء الغرباء ..

جلس .. السيد .. على المنصة وإستمع إلى شكاوى الناس ، وأنصت له الجميع ليسمعوا حكمه برد أملاكهم إليهم فقال .. السيد ..

.. يا أهل بالنسيه .. ماذا تظنون بى أن أفعل برجالى الذين ضحوا من أجلى ، ووضعوا حياتهم على أكفهم ، وقدموها إلىّ برضى لكى يمنحونى النصر على أعدائى ..

هل تنتظرون منى أن أضحى بهؤلاء الرجال المخلصين ، وأنكر عليهم ما قدموه لى من تضحيات ..

لا .. لست أنا من أنسى أصدقائى .. لست أنا بمن يضحى برجاله الذين عاشوا معى لحظات السعادة والشقاء لحظة بلحظة .. إننى إن أغضبتهم ، وتنكرت لهم أكون كمن فقد ذراعه التى تحمل السيف ..

وأكون كالمحارب الذى فقد سلاحه فأصبح بلا سيف أو رمح أو قوس .. إن أول ما يهمنى فى هذا النزاع وأخبركم به ، هو أننى أتخذ أفضل السبل لحماية نفسى ورجالى ، لأن الرب وهبنى بالنسيه بإرادته الطيبة .. ولا أحب أن يكون فيها سيد غيرى ..

ولكن إذا كنتم حقاً معى ، وأردتم أن يشملكم عفوى ، فمكنوننى من المدعو ابن جحاف القاضى .. الذى قتل سيده الملك .. وغدر به .. لأنه قد ارتكب الخيانة الكبرى ضد سيده الملك ، وهو السبب لما تعرض له الملك أثناء موته من عذاب وشقاء .. وهو سبب نكبة بالنسية .. ولولا تصرفاته الحمقاء لما ضرب عليكم الحصار .. وما حلت بكم المجاعة ، وما تبعها من نكبات ..

إننى أطالبكم بالقبض عليه وكذا على آل الحديدى ممن شاركوا فى مقتل الملك ، وتسليمهم جميعاً لى لكى يعاقب كل على فعلته ..

فإن مكنتمونى منهم .. مكنتكم من أراضيكم ، وعشتم فى هناء وسعادة .. وعم بالنسية الخير .. ولكم أن تختاروا ما هو أصلح لكم .. "

ذهل أهل بالنسية مما سمعوه من رودريجو .. فها هو يكشف عن وجهه الحقيقى ويطالبهم أن يسقطوا رئيسهم ويسلموه لمن كان عدوا للبلاد منذ أسبوع واحد فقط ، كلامه لهم إن دل على شىء فهو يدل عن حقيقة جديدة تكشف نوايا السيد تجريد البلاد من رموز نضالها وصمودها بدعوى أنه كان سبب النكبة والحصار الذى حل ببالنسية ..

لم يجد الأهالى وكبار الملاك ، وبعض الأشراف الذين كانوا حاضرين لهذا اللقاء سوى آن يطلبوا من السيد أن يسمح لهم بمهُلة من الوقت يستشيرون فيها أنفسهم فيما يجب أن يفعلوه ..

وانفض اللقاء وذهب رجال المدينة إلى إبن عبدوس يشاوروه فيما طلبه منهم السيد فى هذا اللقاء .. فقال له رجل من كبار الملاك:

ـ يا ابن عبدوس إن .. السيد .. يريدنا أن نمكنه من قاضينا العادل لكى يعاقبه ، ولا ندرى ماذا يمكن أن يفعل به إذا ما أقدمنا على ذلك .... فيقول له إبن عبدوس

ـ إن لكم مصالح ضائعة تتمثل فى أراضيكم المغتصبة.. تلك الأراضى التى توارثتموها عن أبائكم وأجدادكم من قبل.. وهى معرضة للضياع.. ألم تسألوا انفسكم من أجل من تضحون بهذه الأرض .. ؟ .. من أجل القاضى، وهو يملك المال والجاه والسلطة .. ولم يأبه لما عاناه الشعب أثناء الحصار .. ثم يطالبكم

بالصبر و الصمود .. بينما هو وعائلته لا يعانون من شئ .. آن لكم أن تستردوا أراضيكم ، ولا تخشوا شيئاً فسوف يقدمه السيد لمحاكمة عادلة .. فإن كان بريئاً آفرج عنه .. وإن كان مذنباً فهو يستحق العقاب .. وفى كلتا الحالتين إذا قدمتموه للسيد تكونون قد قدمتم له خدمة جليلة لا ينساها لكم أبداً وتعود لكم أراضيكم..

- وماذا تشير علينا

- هذا لا يحتاج منكم إلى تفكير .. فسارعوا بإظهار ولائكم لـ .. السيد .. فهو لا ينسى أصدقاءه كما قال لكم منذ قليل ..

- عاد رجال المدينة يطلبون لقاء السيد لأمر عاجل .. فخرج إليهم رودريجو فقال لهم:

- هل وصلتم إلى قرار ..؟

- نعم ، وقد قررنا أن نقدم لك القاضى ، ولكن يجب أن تكون لنا القدرة على تنفيذ ذلك

- وماذا تطلبون

- نريد قوة كبيرة من الجند والفرسان للقبض على القاضى فهو لديه رجال يعملون فى الخفاء على حمايته .. كما أن أهالى المدينة قد يثورون فى وجهنا

- أستطيع أن أدبر لكم ما تريدون ، ولكن لابد أن يبقى معظمكم مع فرسانى وجندى أثناء تنفيذ القبض عليه ليعلم الجميع أن هذا القبض هو تنفيذ لإرادة شعب بالنسية ..

- سنبقى جميعاً مع هذه القوات

- حسناً ومن يتغيب منكم لن تعاد له أرضه ..

- لك هذا

وبعد ساعتين تحركت فرقتان من الفرسان ، فسارت الفرقة الأولى ومن أمامهم كبار ملاك الأراضى وأتباعهم ، وكثير من ملاك الأراضى الصغيرة، كما

انضم لهم الكثير من الغوغاء .. حتى وصلوا إلى دار القاضى بجوار دار القضاء والإفتاء بحى الشريعة وحاصروا الدار من كل جهة وظلوا يصيحون بأعلى صوت.. اخرج أيها القاضى اللعين .. اخرج يا جالب الشؤم والنكبات .. اخرج يا جبان .. .. بينما تحركت الفرقة الأخرى للقبض على آل الحديدى ، والبحث عن الهارب منهم ..

خرج القاضى وبعض عائلته من الدار ، على ضجيج الناس فقال له رجل من كبار الملاك ..

ـ انت مقبوض عليك أيها القاضى ...

ـ من أنت أيها الرجل

ـ أنا رجل من شعب بالنسية الذى تاجرت بحريته من أجل أغراضك الدنيئة فى الثروة والسلطة .... فيصيح جمع من الناس ممن هم فى هذه التظاهرة

ـ اخرج لنا وإلا اقتحمنا عليك دارك ... وصاح آخر

ـ لا تقف مكانك كالأبله اخرج إلينا .... فيتجاهل القاضى هذه النداءات ويقول لقائد الفرسان القشتاليين :

ـ من سمح لكم بانتهاك شوارع المدينة والسير فيها .. هذا غير متفق عليه فى وثيقة الاتفاق بيننا وبين رودريجو .. هذا خرق صريح للقانون فى بالنسية .... فيرد عليه قائد فرقة الفرسان وهو يسخر منه

ـ خرق للقانون .. أى قانون الذى تتحدث عنه أيها الأبله .. نحن هنا سلطة القانون .. نحن فقط جند .. السيد .. الذين نحقق سلطة القانون .. وأنت الآن متهم بالقتل ، وخارج عن القانون ... ثم ينظر إلى فرسانه ونطق بأمر حاسم وبصوت عال

ـ اقبضوا عليه .. اقبضوا على هذا المجرم الخارج على القانون .. قانون «السيد» رمز العدالة فى بالنسية ..

فيتقدم الجند ويقتحمون الدار فيخرج إليهم خمسة من الرجال الملثمين بالبرانس السوداء وبدأوا فى الاشتباك .. وقاتلوا فرسان .. السيد .. ببسالة ،

وتجمع الكثير من أهالى المدينة بما يملكونه من أدوات قتال بسيطة ليحموا القاضى ورجاله ..

إلا أن القاضى أراد أن يحمى هؤلاء جميعاً من قتال غير متكافئ قد يؤدى إلى مجزرة يروح ضحيتها الأهالى ، وحرس القاضى حيث كان الفرسان التابعون لـ .. السيد .. أكثر من سبعين رجلاً مدججين بالسيوف والرماح والدروع ، ويركبون الخيل .. بينما حرس القاضى لم يكن لديهم سوى السيوف فقط ليدافعوا بها عن القاضى ..

وتم القبض على القاضى وكل أفراد العائلة من رجال ونساء وأطفال وساقوهم جميعاً على أقدامهم كالمجرمين فى شوارع المدينة إلى السجن الملحق بقصر الحكم فى بلا نوبه .. كما تم القبض على ثلاثة من آل الحديدى وتم ترحيلهم أيضاً إلى السجن .. بينما تم ترحيل القاضى وحده إلى معسكر السيد فى جبالة على ضفة النهر خارج المدينة ..

ثم التقى .. السيد مع هؤلاء الرجال من كبار الملاك وصغارهم ، وأتباعهم فقال لهم بعد أن عادوا إليه ليفى بوعده الذى قطعه لهم فقال:

- لقد نفذتم ما أمرتكم به .. فماذا تطلبون منى ..؟ .... فقال له أحد كبراء الملاك

- أن تعيد لنا ما أخذه منا الغرباء من أراض ومزارع

- لكم ما تريدون ولكن لابد لى من أمر تساعدونى عليه .... فردوا عليه

- ماذا تأمرنا ، فسوف نعينك ما دمت أوفيت بوعدك

- سوف تعاد لكم أراضيكم بمقتضى مرسوم يصدر منى غداً ولكننى لا أستطيع أن أدبر شئونكم ، ورعاية مصالحكم ، وأنا بعيد عما يجرى داخل المدينة .. فأخبروا كبار رجال الجماعة ، والأشراف ، والأعيان بأننى قد قررت أن أقيم بصفة دائمة بالقصر فى بلا نوبه .. لكى أكون قريباً من شعب بالنسية ، وأقدم رعايتى فى الوقت المناسب .. كل ما عليكم هو أن تهيئوا كبار رجال المدينة لذلك

الأمر لكى لا يعتقد أحد أننى أتراجع عما تعهدت به فى وثيقة الاتفاق .... فصاح الكثيرون ، وقد تملكتهم الفرحة بعودة الأراضى لهم

ـ هذا أمر يسير ، وسوف نطوف بشوارع المدينة ندعو لك بالعمر المديد والحظ الوفير ، وقد وقفت إلى جانب رجال المدينة ، وأعدت لهم أرضهم

ـ هذا وفاء الرجال للرجال .. بارك الله فيكم

ـ وفى نفس اليوم ، وقبل الفجر بساعة .. تتحرك فرقة من الفرسان للقبض على الشيخ التاكرنى .. وأخرى للقبض على الشيخ أحمد البتى ويرحلان بدورهما إلى سجن القصر .. وهما الحليفان القويان اللذان يقدمان الدعم للقاضى ويعاوناه على إحكام السيطرة على الأمور فى المدينة..

تولى موسى الوزير اليهودى السابق فى بلاط الملك القادر وحاكم المدينة وقت حكم الملك الراحل مسئولية حكم المدينة بدلاً من القاضى ورجاله.. كما تولى مسئولية السيطرة على العسكر التابعين لسلطة الحكم ، وهم من أهالى بالنسية..

وتحدث رودريجو إلى موسى يسأله عن ما تم من إجراءات فقال له:

ـ هل تم إيداع الشيخين فى سجن القصر مع عائلة القاضى

ـ نعم يا سيدى ..

ـ ومن هم كبار معاونيهم من الرجال الذين يعملون فى خدمة القاضى ..

ـ لم نعرف حتى الآن

ـ وماذا يمنعك من ذلك .. ؟

ـ لا شىء يمنعنى .. ولكننا لم نقبض عليهم إلا فجر اليوم

ـ لا وقت نضيعه يجب القبض على أعوانهم لكى نمنعهم من تقديم أى عون لهم

ـ كما تشاء سوف نستجوبهم فى أسرع وقت ممكن

ـ حسنًا ..

حضر القاضى أبو الوليد الوقشى إلى معسكر السيد للقائه بناء على طلبه ، فاستقبله .. السيد .. بترحيب كبير ثم أجلسه إلى جانبه بالخيمة فى معسكره بمنطقة ضاحية جبالة وقال له:

- مرحباً بصديقنا العزيز

- مرحباً بك يا عزيزى رودريجو

- هل تعلم لم طلبت لقاءك اليوم

- أنا رهن إشارتك .. وقد حضرت إليك راغباً فى الجلوس معك والاستمتاع بالحديث معك ، دون أن أسأل لماذا تطلب لقائى فهذا شرف لى

- العفو يا حضرة القاضى .. وحتى لا أضيع وقتك الثمين ، فإننى أختار من أهل بالنسية الرجال الشرفاء الذين يتمتعون بالسمعة الطيبة ليكونوا عوناً لى ، فى إدارة شئون المملكة .. حتى لا يشعر الأهالى بالغربة إذا ما استقدمت أعوانا لى من خارج المدينة .. أو من رجالى .. وقد اصطفيتك لتكون مسئولاً عن شئون الشريعة والقضاء للملكة لتكون أنت قاضى قضاة المملكة .. وهو المنصب الذى كان يشغله المجرم ابن جحاف ، الذى استغل منصبه وثقة الناس فيه ، فخرج على سيده وولى أمره الملك ، وخان العهد ، ودبر قتله .. وهو الآن فى السجن وتابعيه الشيخ التاكرنى ، والشيخ أحمد البتى .. كما سنستجوبهم لكى نعرف أتباعهم من رجال المدينة الذين كانوا سنداً لهم فى إحكام السيطرة على شعب بالنسية .. لذا فإننى لن أجد من هو أفضل منك ليضطلع بمهام هذا المنصب .. وقد قررت لك راتباً يساوى ضعف ما كنت تتقاضاه وقت أن كنت تشغل هذا المنصب من قبل ..

- أنا رهن إشارتك ، وطوع أمرك .. دون النظر لأى اعتبارات مالية

- هذا عشمنا فيك أيها القاضى (يقولها رودريجو وهو يقف مسلماً على القاضى لينهى اللقاء) ونتمنى أن تذهب الآن من فورك مع فرقة من الجند سترافقك إلى الوزير موسى .. نائبنا على حكم المدينة ، ليرسل معك فرقة من عسكر مدينة بالنسية لتتسلم عملك بمقر دار القضاء والإفتاء.. من هذه اللحظة.

- سمعاً وطاعة يا سيدى القنبيطور ....

ويسكت رودريجو عن كلمة سيدى لكى تعود الرسميات فيما بينه وبين رجال المدينة ليكون هو .. السيد .. والباقون أتباعه مهما كانت رتبهم أو مقامهم بين الناس فى بالنسيه ..

فى مساء يوم الأثنين ٢٦ يونيو يلتقى الشيخ أبو بكر حمدون (ابن المعلم) بعد درس المساء الذى يلقيه بعد صلاة العشاء بكلٍ من جاسر وسالم ويطلبهما للقائه بغرفته الملحقة بالمسجد الجامع .. وبعد أن أغلق باب الغرفة قال لهما:

ـ لقد أتى إلىّ اليوم القاضى أبو الوليد الوقشى .. بعد أن التقى بـ .. السيد .. فى معسكره خارج المدينة ، حيث كلفه بمهام القاضى بدلاً من ابن جحاف .. وقد خشى أبو الوليد أن يرفض المنصب ، فيستغل .. السيد .. الفرصة ، ويلغيه .. وبذلك يكون قد أوجد الوسيلة لهذا العلج لينفذ أحكام الكفر فى بلادنا .. وتستباح البلاد من جنده .. كما حذرنى من أن .. السيد .. سيعمل على استجواب القاضى ، والشيخ التاكرنى والشيخ البتى لكى يخبروه بأسماء الرجال الذين يستعملهم أهل جماعة الحكم فى بالنسية وهو يقصد جند الله .. لذا لابد لكما أن تدبرا شأنكما للخروج من المدينة فوراً على أن تلحق بكما أسرتيكما فيما بعد .. فماذا تريان فى هذا الأمر ..

فيصمتا لفترة يحاولا أن يستوعبا ما أخبرهما به من معلومات، فيقول جاسر:

ـ وهل سنترك القاضى ابن جحاف وحده دون أن نقدم له العون لكى ننقذه من هذا الكلب المسعور .. السيد ..

فيقول له الشيخ أبو بكر حمدون:

ـ انجوا بأهاليكم أولا ثم ندبر الأمر بعد ذلك

ـ ومن سيدبر الأمر بعد ذلك .... فيصمت الشيخ قليلاً ثم يقول:

ـ أنت تعلم يا بنى إننى لا خبرة لى بهذه الأمور .. وكان يتولاها الشيخ التاكرنى والقاضى ابن جحاف ... فيقول جاسر بغضب:

ـ إذن أنت تطلب منى أن أهرب ، وأترك القاضى وحده يواجه مصيره ..

ـ أنتما أدرى بمصلحتكما .. اعملا ما يرضيكما ، ولكن توخيا الحذر وابعدا النساء عن أيديهم فقد يلجأ .. السيد .. إلى الأعمال القذرة ويحاول أن يضع يده على أهاليكما من نساء وأطفال ورجال وشيوخ كما فعلوا مع القاضى ابن جحاف وعائلته ... فيقول له سالم:

ـ نشكرك يا شيخنا الجليل

ـ بارك الله فيكما ، وأعانكما على ما أنتما فيه ..

خرج سالم وجاسر من لقائهما مع الشيخ ابن المعلم ، وهما ذاهلان من صدمة محاولة تعقبهما من قِبل .. السيد .. ، وأخذا يفكران فيما عساهما أن يفعلا ، فقال سالم لجاسر:

ـ ما رأيك أن ترحل أنت ورضوى عن المدينة ، وتنضم أنت لاحقاً لجيش المرابطين فى المنطقة التى يتجمع فيها جيشه حاليا .. والقائد ابن عائشة يعرفك جيداً ، وذلك بعد أن تؤمن لرضوى مكاناً تبقى فيه بعيده عن .. السيد .. ورجاله

ـ وماذا تفعل أنت ..؟

ـ أختفى عن الأعين لأراقب ما يجرى فى المدينة ثم أقرر بعد ذلك ماذا أفعل

ـ وكيف نتصل ببعضنا البعض

من الممكن أن نجعل بدران ، وسيلة للاتصال بيننا يتنقل من وإلى بالنسيه فى مأموريات نكلفه بها .. فيقول له جاسر:

ـ والقاضى ابن جحاف ماذا سنفعل له لكى ننقذه .... فيصمت سالم ويفكر قليلاً ثم يقول:

ـ لا .. لا أعرف كيف نتصرف ونحن لا نملك لا المال ولا القوات لفك أسره .. وحتى إن استطعنا ذلك معه هو .. ماذا نفعل من أجل عائلته التى قبض هذا اللعين على كل من فيها.. فإذا أنقذنا القاضى سوف تهلك أسرته ويسوموها سوء العذاب نكاية فيه لكى يظهروه أمام الناس كمن تخلى عن أسرته.

ـ إذن ماذا نفعل

ـ لا سبيل أمامنا إلا أن نتضرع إلى الله لكى يتحرك جيش المرابطين لنجدة البلاد ، ولتحاول أنت شرح الأمور على حقيقتها للقائد ابن عائشة لعله يسارع ويتحرك لإنقاذ البلاد ..

ـ اسمع يا سالم .. أنا لن أترك المدينة ، وهى على هذا الحال من الاضطراب قبل آن أعرف رأسى من قدمى .. وكل ما سوف أسعى إليه الآن هو الاختفاء عن الأنظار ، وترقب الموقف من بعيد .. ، وسأدعو رضوى ووالدها لمغادرة المدينة .. ويمكننا أنا وأنت أن نتفق على مكان سرى نلتقى فيه من آن لآخر لنقرر ما نفعله مستقبلاً.

ـ حسناً والظروف تساعدنى لوجود زوجتى بعيداً فى مرسية ، ووالدى الآن خارج المدينة فى المزرعة .. ومعه بدران وزوجته بهجة ، والكثير من المزارعين الذين عادوا للعمل بعد رفع الحصار عن المدينة

ـ حسنا ولنلتقى يوم الخميس فى ساحة المسجد بحى الشريعة بعد صلاة المغرب، وليكن هذا مكان لقائنا حتى نقرر بعد ذلك ما يجب أن نفعله .. إلى اللقاء

ـ وتعانق الصديقان ، وانصرف كل منهما ليرعى شئونه ويتخذ تدابيره بعد تحذير الشيخ ابن المعلم لهما ..

ذهب جاسر من فوره إلى داره ، وبعث يطلب حماه للقائه فى الدار ثم جلس جاسر إلى زوجته رضوى وحماه أبو عبد الله مروان وتحدث إليهما عما جرى للقاضى ، وما حذرهم منه الشيخ ابن المعلم .. ثم قال لـ حماه الشيخ أبو عبد الله:

ـ ماذا ترى يا عماه فيما جرى ..؟ .... يسكت الشيخ وعلى وجهه علامات القلق والخوف على ابنته.

ـ والله يا بنى لا أعرف ما أقول لك .. ولا أظن أن القاضى أو أحد تابعيه من الضعف للدرجة التى يبوح بها أى منهم عن رجال جند الله.

ـ أعلم ذلك .. ولكن الخوف أن يستعمل معهم القوة ، ويعذبهم بما لا طاقة لهم به .. وهم معذورون بعد ذلك فيما يقولون أو يصرحون به.

ـ لا .. لا يمكن أن يفعلوا ذلك

ـ وماذا ترى إذن هل نبقى فى المدينة

ـ أبقى أنا ورضوى ، وتنتقل هى إلى منزل عمتها فى المدينة .. وهى تعيش فى عزلة ، ومعها جارية تخدمها .. فأرى أن تذهب رضوى إلى هناك .. فإن حضر من يفتش عنك أو عنها فى دارك نقوم عندئذ بتهريبها من المدينة

ـ هذا رأى صواب يا عماه .. وما رأيك فى ذلك يا رضوى

ـ أنا أريد أن أبقى فى المدينة .. ولن أكون فى راحة إلا إذا كنت بجوارك .. وأرى أن ما قاله أبى فيه كل الصواب .. فأنا معكما فى ذلك

ـ الخيرة فيما اختاره الله لنا .. عليك المغادرة الآن ، وسوف أسأل عنك باستمرار وأطلع عمى على أخبارى لينقلها إليك أولا بأول.

ـ انتقل رودريجو للإقامة بقصر الملك الراحل القادر بالله فى بلا نوبة .. وأصبح يضع قدمه فى قلب المدينة ، وعساكره تسيطر على الأبراج الحصينة والأسوار ، فأحكم قبضته على مداخل ومخارج المدينة ..

وأصبح أعوانه هم الذين يسيطرون على كل شىء فى البلاد .. فحاكم المدينة العاصمة هو الوزير موسى .. وتولى أيضاً مسئولية الأمن ، والسيطرة على دواوين الحكم ، ومرافق المدينة من أول المخافر حتى المرستان ، وإدارة الرى لضواحى المدينة المتاخمة للأسوار .. وتولى القاضى الوقشى أحكام القضاء .. وتولى ابن عبدوس الضرائب والجبايات ، وكل ما يخص بيت المال ..

وأصبح .. السيد .. على رأس التنظيم الإدارى ، ويشرف على الجميع ، ويصدر الأوامر والنواهى إليهم .. وله سلطة التعيين والعزل من المناصب .. وبالتالى أصبح الآمر الناهى فى كل ما يخص المملكة ، والولايات التابعة لها، وتحت يديه الأموال التى تصب فى بيت المال وخراجها الشهرى يزيد عن أربعين ألف مثقال ..

وسرعان ما قام .. السيد .. بنقل القاضى ابن جحاف من محبسه فى جبالة إلى سجن القصر فى بلا نوبة .. ثم استدعاه للقائه فأحضره الجند إليه وقد قيدت يداه ، ومَثُلَ أمامه ليستجوبه .. فقال له رودريجو

ـ هل ترى ما فعلت بنفسك أيها القاضى .. ها قد اقتصت السماء للملك الراحل القادر بالله .. وآن الأوان لكى يعاد الحق إلى أصحابه .. وإننى أود أن أمنحك فرصة العفو إن أصدقتنى القول ..

ـ فى أى شىء تريدنى أن أصدقك القول..؟

ـ أين أموال الملك القادر ..؟

ـ لقد تم تسجيلها فى سجلات موثقة ، موجودة لدىَّ

ـ وأين هى ..؟

ـ فى خزانة القضاء بدار القضاء والإفتاء ..

ـ هل مسجل بها كل أموال الملك القادر ..؟

ـ لست أدرى مقدار الأموال التى بحوزة الملك الراحل .. ولكنها الأموال التى وجدت لديه أو فى قصره وقت وفاته

ـ تقصد وقت قتله

ـ سمها ما شئت فلكل أجل كتاب

ـ وهل قضى الله بقتله .. ؟

ـ قلت لك لكل أجل كتاب

ـ حسناً .. حسناً .. دعنا نتكلم عن أموال القادر وجواهره .. هل أنت مسئول عما كتب فى السجلات

ـ بالطبع ..

ـ هل تقسم على أنها بلا أخطاء

ـ ماذا تقصد أنها بلا أخطاء

ـ أى لا زيادة فيها .. ولا ..

ـ ولا ماذا ..ظ.

ـ ولا نقصان على سبيل المثال ..

ـ لست مسئولاً إلا عما وجد معه من أموال وذخائر

ـ حسناً فلنحضر الوثائق ، وليكن لقاؤنا غداً .. وإن غداً لناظره قريب كما تقولون أليس كذلك ...

يصمت القاضى ابن جحاف ، ويبقى وجهه متجهماً فى مواجهة .. السيد ..

فى اليوم التالى حضر إلى مجلس .. السيد .. كل من عمل ضمن مجلس شورى الحكم أو رجال جماعة الحكم فى عهد القاضى ابن جحاف بما فيهم الأمير أبو عبد الرحمن بن طاهر ، وكذا وجهاء المدينة ، والأشراف ، والأعيان ، وذلك بعد أن استدعاهم .. السيد .. للقائه ..

رحب .. السيد .. بالحاضرين وأجلسهم فى مجلسه .. وأرسل يستدعى كل من القاضى ابن جحاف والشيخ أحمد البتى ، والشيخ ابن أبو عامر التاكرنى .. وأُحضِروا مكبلين بالأغلال حيث مثلوا امامه .. فقال موجهاً حديثه لرجال المدينة

لقد أحضرتكم يا رجال بالنسية ووجهاءها لتكونوا شهداء على ما أقوله ، ويقوله ابن جحاف بشأن أموال وذخائر الملك القادر ... فلقد وضع ابن جحاف يده عليها ، وحينما استدعيته ليطلعنى على ما فى حوزته من أموال وذخائر تخص الملك قال لى أنه قد سجل كل شىء فى وثائق ودفاتر .. وها أنا أسأله الآن أمامكم لكى تكونوا شهداء على ما يقوله ... ثم وجه حديثه للقاضى ابن جحاف قائلاً:

ـ يا ابن جحاف .. هل المال الذى وجد فى خزينة دار القضاء والإفتاء هو كل ما تبقى من ثروة الملك الراحل ..؟ ... فيرد عليه القاضى ابن جحاف

ـ نعم .. يا رودريجو

ـ لم لا تدعونى بما يدعونى به الناس .. السيد ..

- ولم لا تدعونى بما يدعونى به الناس .. القاضى

- حسناً فلنتابع حديثنا .. هل ما سجلته فى الوثائق والدفاتر هو كل ما وقع بين يديك من اموال للملك الراحل ولا تعرف غيرها .. ولم تحجب عنا وعن الحاضرين هنا شيئًا غير ذلك.

- نعم .. لا يوجد إلا ما سجل ، وما بقى منها كان فى خزانة دار القضاء والإفتاء

- حسناً هل أنت مسئول عن هذا أمام كل الحاضرين

- نعم

- فماذا لو تبين لنا غير ما تقول ..؟

- هذا الذى أعرفه

- إذن فلتقسم على ذلك أمام هؤلاء القوم

- لست ولى أمرى حتى أقسم أمامك على شىء

- إذن فلتقسم على ذلك أمام رجال المدينة

- ليس لدى ما أقوله سوى ما قلته ... فيستشيط رودريجو غضباً ولكنه يكتمه فيقول لرجال المدينة:

- ها أنتم شهداء على ما قاله ابن جحاف فإن ثبت لى ولكم غير ذلك استحق عقابى ، ولن أتهاون فى ذلك أبداً .. هل توافقونى على ذلك .... فيصمت الجميع إلا ابن عبدوس والوزير موسى فيقولان:

- نعم نشهد بذلك .. نشهد بذلك

ثم يصرف السجناء إلى سجنهم ، ويقوم .. السيد .. من مجلسه معلناً نهاية الإجتماع .. ليعود الجميع كل إلى شأنه ..

لم يكن يشغل بال رودريجو بعد أن أحكم سيطرته على كل مملكة بالنسبة سوى شيئين .. الأول وهو الحصول على باقى ثروة الملك القادر المفقودة ، التى

أنكر ابن جحاف وجودها بعد أن قدم إليه حفنة من المجوهرات القليلة .. وبعض المال مدعياً أنها كل ما تبقى من ثروة الملك القادر ..

ثروة القادر التى ورثها عن جده الملك الراحل المأمون بن ذى النون .. صاحب الثروات الطائلة ، والأموال المكدسة ، التى حملها كلها معه .. القادر حفيده عند خروجه من طليطلة ، ثم استقر بها فى بالنسية .. فأين ذهبت تلك الأموال والذخائر ..

«لن أترك هذا القاضى اللعين يحجب عنى صفقة العمر .. نعم فكنز القادر لن يخرج من يدى ، وأنا أملك المدينة ورجالها ، وكل من فيها .. لن يستطيع هذا اللص أن يغرر بى ، ويخدعنى ، حتى أتقبل الأمر الواقع .. لن أمنحه هذه الفرصة .. وبقدر تمنعه ، وعناده معى سوف يكون عقابى وإيذائى له .. قدرا بقدر والغلبه لمن يملك الدهاء والصبر .. وسوف أتحلى بهما إلى آخر مدى.. ... هكذا تحدث رودريجو لذاته وهو يفكر فى هذا الأمر ..

أما الأمر الثانى الذى يشغل رودريجو فهو انتهاز الفرصة ، والتقرب إلى الملك الفونسو .. وإنفاق الهدايا من أجل إرضائه، لكى يصدر عفواً شاملاً يستطيع بمقتضاه أن يحضر زوجته وابنتيه إلى هنا .. إلى بالنسية .. وقرر ألا يدخر جهداً فى سبيل تحقيق هذين الهدفين، فهو لن يستطيع أن ينتظر أكثر من ذلك، وقد أصبح كل شىء طوع بنانه .. ولم يعد يمنعه من أهدافه إلا الزمن .. وسوف يقهر الزمن .. سوف يقهر الزمن ... هكذا تمنيه نفسه ..

عاد الوزير موسى نائب السيد فى حكم بالنسية بعد أيام ليشتكى لـ .. السيد.. عن عدم اعتراف القاضى ابن جحاف بوجود أى أموال للقادر يخبئها عنده .. كما يصر الشيخان أحمد البتى ، والتاكرنى على عدم معرفتهما أصلاً بوجود جماعات سرية كانت تعاونهم على السيطرة على المدينة .. وأنكرا وجودها .... فقال السيد للوزير موسى:

ـ لا تستخدم العنف فى استجواب هؤلاء الرجال لأن ذلك سيجعلنا غير مقنعين لأهل بالنيسة بأننا نبغى مصلحة الناس .. فلا عقاب إلا بجريمة .. وفى

حال تمكننا من إثبات إدانتهم نكون بذلك فى حل ، ونستطيع أن ننكل بهم وإلى أبعد مدى ..

ـ وكيف يمكننا إدانتهم بلا بينة ..؟ .... فيفكر رودريجو قليلاً ويقول:

ـ اسمع يا موسى .. اعزل خدم القاضى الموجودين فى السجن مع عائلة القاضى ابن جحاف ، وقم بتعذيبهم على مراحل .. بحيث تتدرج فى استخدام القسوة معهم إلى أن يقروا لك بما قد يعلمونه من معلومات عن سيدهم القاضى .. وما كان بحوزته .. واعلم أن الخدم هم أقرب الناس اطلاعاً على أسرار أسيادهم .. فإن كان لديهم ما يعرفونه ، فسوف يخبرونك به .. واستعمل الحيلة معهم .. فقدم لهم الوعود بالإفراج عنهم من الحبس ، والحصول على المال الوفير .. وغير ذلك من الوعود .. فإن أقروا واعترفوا فلهم ما وعدناهم به .. وإن أنكروا واصل تعذيبك لهم حتى الرمق الأخير من حياتهم .. ثم نقرر بعد ذلك قتلهم أو إطلاق سراحهم ..

ـ يالك من بارع يا سيدى القنبيطور

ـ هيا لا تضيع وقتك .. هيا

فينصرف الوزير من فوره إلى السجن لعزل الخدم عن عائلة القاضى إبن جحاف .. ويبدأ أولاً فى تحفيزهم ، وتقديم الوعود لمن يدلى بخبر عن مكان ثروة الملك الراحل..

وسار المنادون فى شوارع المدينة يلقون بالتحذيرات على سكانها ، وخاصة أقارب القاضى إبن جحاف ، وأعوانه ممن قد يكون قد خبأ القاضى عندهم الأموال..

وحذر المنادون هؤلاء الأشخاص بسرعة تقديم هذه الأموال إلى دار القضاء والإفتاء لأن هذه الأموال ملك للشعب ، ويجب أن تعاد إليه..

وحذر المنادون من أن القاضى فى سبيله إلى إعلان أسماء هؤلاء الأشخاص الذين ترك عندهم المال والجواهر .. ومن لم يسرع إلى تقديم ما عنده قبل إعلان القاضى باسمه فهو معرض هو وعائلته للقتل ..

اهتز الكثير من الناس خوفاً على مصير القاضى بعد أن أدركوا ، آن ما يقوم به .. السيد .. ومعاونوه من إجراءات وتحريض للناس ضد القاضى ما هو إلا مخطط دبر بليل للإيقاع بالقاضى..

تحرك الخائفون المرتجفون من تهديدات .. السيد .. ووزيره موسى ، ممن استأمنهم القاضى على بعض الأموال والجواهر كأمانة عندهم .. ليحافظ على الثروة التى آلت للشعب من أن تقع فى أيدى اللصوص قاطعى الطريق ، فخافوا على أنفسهم من أن يلحق بهم العقاب إن هم استمروا على كتمان سر إيداع القاضى لهذه الأمانات لديهم .. وقرر الكثير منهم التضحية بالقاضى والإبلاغ عما لديهم من أموال ومجوهرات..

وقرر رودريجو فجأة أن يعزل القاضى مرة أخرى ليبقى وحده بعيداً عن كل المحبوسين من أهله ، وخدمه ، وأصدقائه فى سجن بعيد حتى يرفع الحرج عن من يريد منهم أن يدلى باى أسرار تتعلق بالقاضى..

وتم ترحيل القاضى إلى سجن قلعة سيبولة غرب مملكة بالنسية ، حتى يتم لـ .. السيد .. الحصول على أكبر قدر من المعلومات والأسرار عن القاضى لتكون إدانته دامغه لا يمكن للقاضى أن يبرئ نفسه منها .. وبالتالى يكون عقابه واجب تقتضيه العدالة .. عدالة رودريجو ..

اشتد غضب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وأسفه العميق لسقوط مدينة بالنسية حاضرة المسلمين الكبيرة فى شرق الأندلس فى يد قاطع الطريق مغتصب الحقوق رودريجو الملقب بـ .. السيد ..

لقد حالت أوضاع كثيرة بين أمير المسلمين ، وبين أن يقدم النجدة والغوث للمدينة المحاصرة فى الوقت المناسب ..

ففى جنوب أشبيلية كانت الثورة على حكم المرابطين قد اشتدت من أعوان الملك السابق المعتمد بن عباد ، وقد التفوا خلف ابنه الأمير عبد الجبار فى ثورته بحصن منت ميور ونجاحه فى ضم حلفاء له ليشمل التمرد والثورة منطقة الجزيرة الخضراء ومدينة أركش ..

وخاض المرابطون هناك عدة معارك لقمع التمرد والثورة مما أوجب عليهم الاستعانة بالقوات الموجودة فى شرق الأندلس عند مدينة شاطبه ، وأدى ذلك إلى عدم كفاية القوات المرابطية اللازمة لخوض القتال ضد قوات المرتزقة من جيش السيد .. التى كانت تحاصر بالنسية ، وارتد جيش المرابطين إلى مدينة مُرسيه لإعادة تجميع القوات هناك ..

وزاد الطين بلة ما نشب من تمرد فى أراضى الجزائر بالمغرب من اضطرابات أخرى لجماعة إسلامية مناهضة لإسلوب حكم المرابطين وتسمى نفسها الموحدون، فنشب صراع بين قوات المرابطين فى المغرب ، وبين الحركة الإسلامية الجديدة، ونجح أمير المسلمين فى قمعها ، وهرب الكثير من قادتها بعيداً فى أعماق الأراضى الجزائرية ..

وبعد نجاح أمير المسلمين فى إعادة الاستقرار فى المغرب ، وحصار المتمردين فى منطقة الجزيرة الخضراء .. بدأ فى حشد القوات والسلاح والعتاد للتحرك إلى بالنسية لتحرير شعبها من نير الاحتلال والطغيان لجيش الكفرة وعلى رأسه رودريجو ..

وكعادته ترك يوسف بن تاشفين عاصمة الحكم مراكش .. وانتقل إلى مدينة سبته بعد أن أعدها كميناء كبير لرسو السفن الكبيرة التى تحمل الجند والمؤن والعتاد إلى شبه جزيرة الأندلس .. وذلك بعد أن أصبح للدولة المرابطية أسطول كبير من السفن الحربية وسفن نقل العتاد والمؤن يمكنها الإبحار إلى أى مكان تخوض فيه قوات المرابطين القتال ضد أعداء الدولة الإسلامية المرابطية ..

وأرسل أمير المسلمين رسائله لحشد الجيوش وتقديم الدعم إلى الجيش المرابطى فى حملته المرتقبة على بالنسيه .. فأرسل بذلك إلى الأمير تأييد الدولة أمير مدينة لاردة .. والأمير سيد الدولة أمير مدينة طرطوشة ، والأمير نظام الدولة فى ألبونت ، والأمير أبو مروان عب الملك بن هذيل أمير شنتمرية ..

كما أرسل لأصحاب القلاع المستقلة المنيعة بالمنطقة وعلى رأسهم ابن ياسين صاحب قلعة شبرب ، وابن يملول صاحب قلعة الأشراف وغيرهم كثيرين .. وطالبهم بالرد على رسائله وإعلان انضمامهم للحملة على بالنسية ..

وسرعان ما أعلن الجميع بلا استثناء انضمامهم تحت لواء الحملة العسكرية لجيش المرابطين لتحرير بالنسية .. وتم استنفار الجهود فى مدينة سبتة ، لبدء الحملة فى أقرب وقت ممكن لعبور المضيق (مضيق جبل طارق) إلى الأندلس ..

وفى هذه الأثناء بعث الأمير سير بن أبى بكر قائد الجيوش المرابطية فى الأندلس رسالة إلى أمير المسلمين يخبره فيها بما قد وصله من أنباء عن سقوط مدن أشبونه (لشبونه) ، وشنترة ، وشنترين ، وهى من كبريات المدن الإسلامية فى غرب الأندلس فى يد الملك الفونسو السادس بدون حرب ..

وذلك بعد أن تنازل له عنها الملك عمر المتوكل حاكم مملكة بطليوس ، فى مقابل أن يكون بينهما حلف سرى ، لمساعدة الفونسو له فى حالة إذا ما تعرضت مملكة بطليوس للغزو من قبل جيش المرابطين ..

لقد سعى الملك عمر المتوكل خلال الفترة التى تلت عزل الملك المعتمد عن حكم أشبيلية إلى إثبات حسن نواياه للمرابطين ليأمن جانبهم ، وفى نفس الوقت كان يعقد التحالف سراً مع الملك الفونسو لكى يحميه من المرابطين إذا ما قرروا عزله..

شعر أمير المسلمين بالإهانة والخيانة التى ظهرت بتحالف الملك المتوكل مع أعداء الإسلام .. فالإهانة كانت لاستخفاف الملك المتوكل بأمير المسلمين بعد أن أعطاه الأمان بعدم عزله من الحكم فى بطليوس .. فسعى سراً للتحالف مع عدو أمير المسلمين وهو الملك الفونسو ..

وأما الخيانة فهى لتحالف هذا الملك المسلم مع عدو الدين .. ضد أبناء دينه من المسلمين ، والثمن هو أن يظل على سدة الحكم فى المملكة (بطليوس) حتى ولو كان ذلك بتنازله (أى الملك المتوكل) عن بلاد مسلمة لتقع تحت سلطة ملك صليبى متعصب ..

وأصدر أمير المسلمين أوامره للقائد سير بن أبى بكر للتحرك بالقوات لعزل الملك عن حكم المملكة ، ومحاصرة البلدات المتنازل عنها لردها إلى دولة الإسلام من جديد .. وبدأ القائد المرابطى فى التجهيز لحملة تطهير غرب الأندلس من حكم الملك عمر المتوكل.

التقى سالم وجاسر سراً .. كعادتهما فى يوم الخميس من كل إسبوع بعد صلاة المغرب فى ساحة المسجد بحى الشريعة وتحدثا فى شئون أسرتيهما ، وما يدور فى المدينة من أحداث وقال سالم لجاسر:

ـ هل لديك أخبار عن .. السيد .. وما يجريه من تحقيقات مع الشيخين التاكرنى ، واحمد البتى .. وما هى أخبار القاضى .. ؟ وماذا تم معه من تحقيقات ..؟

ـ كل ما أعلمه أن القاضى والشيخين لم يدليا بأى معلومات عن أى فرد من أفراد جند الله ، وقد أنكرا معرفتهما بهؤلاء الرجال إن وجدوا أصلاً (يقصد جند الله)

ـ يا لهم من رجال أشداء .. غفر الله لهم ولنا بإذن الله

ـ والقاضى تم عزله عن أهله وأقاربه وأصدقائه .. ثم عرفت بعد ذلك أنه قد نقل إلى سجن قلعة سيبولة غرب بالنسية ..

ـ يا الله .. ماذا يقول عنا القاضى .. ولم يحرك أحد منا ساكناً .. حتى ينقذه مما هو فيه

ـ هل نسيت أننى سألتك إن كان يمكننا أن نقدم له العون ، ونحاول إنقاذه .. لقد قلت لى أن .. السيد .. سوف يستغل الموقف ، وينكل بأسرته وكل أقاربه حتى يظهره كمن آثر نفسه وحريته عن أسرته وأهله ..

ـ حقاً .. معك كل الحق .. فقد نسيت أن أسرته وأهله مازالوا فى الأسر

ـ آه لو يفرج عنهم

ـ وماذا يحدث عندئذ .. هل يمكن فى هذه الحالة أن نعمل على إنقاذه

ـ لا شك فى ذلك .... على كل حال ما أخبارك ، وأخبار زوجتك نائلة

ـ هذا ما أريد أن أحدثك فيه بالضبط .. لقد قررت السفر إلى مرسية لأمكث مدة هناك بعيداً عن المدينة (بالنسية) حتى تهدأ الأحوال ، وأعود ثانية لألقاك..

ـ ومتى ستعود بإذن الله ..؟

ـ عندما أعود سوف أمر عليك فى يوم الخميس لألقاك هنا .. إن كان لنا من العمر بقية

ـ تسافر وتعود فى حفظ الله ورعايته يا سالم

ـ ألقاك على خير يا جاسر

ـ أخذ جاسر يتردد على منزل عَمَّة زوجته رضوى فى الضاحية البعيدة فى بالنسيه .. واطمئن قلبه كثيراً حينما عجز .. السيد .. عن الوصول إلى أى أخبار أو أسماء لرجال جند الله ..

وشيئاً فشيئاً أصبح يبيت جاسر مع زوجته فى بيت عمتها ، وقد طمأنه حماه، بعدم تردد أحد على منزله (منزل جاسر) للسؤال عنه ..

وعادت الحياة الطبيعية بين جاسر ورضوى ، وقد عادت لها نضارتها وجمالها اللذان افتقدتهما أثناء مرضها فى فترة حملها ..

وعاد جاسر يلملم بقايا نفسه التى أنهكتها أحداث بالنسية ، ومازالت .. إلا أن وطأتها قد خفت إلى حد كبير ، وذلك حينما عاد يعيش مع زوجته الحبيبة.. حياة يغلبها الاستقرار والطمأنينة..

قبل غروب الشمس.. جلس جاسر بجوار رضوى ممسكاً بيدها وسط حديقة صغيرة ملحقة بالبيت المتواضع لعمة رضوى.. وجلسا تحت شجرة عريضة الجزع، امتدت أغصانها من فوقهما ، بوريقاتها الخضراء الكثيفة مثل قبة من السندس الأخضر الزاهى..

وراحت نسمات الهواء المنعشة تداعب خصلات الشعر الأسود الداكن المتهدلة على جبين رضوى وقد استندت بظهرها على صدره .. وراح جاسر يسألها عن أمانيها فقال لها:

ـ ها قد عدنا لنبقى معاً ونستعيد ما ضاع منا من لحظات الحب والسعادة.. تلك اللحظات التى تسربت من بين أصابعنا فلم نعش حياتنا كما نحب ونرضى.. هل تشعرين بالراحة الآن .. وقد بدأت حياتنا تسترجع لحظات السعادة المفقودة..؟

ـ كم افتقدتك فى السنة الأخيرة .. ولم أنعم بلحظات تجمعنى معك لأعيشها وأحياها كما يحياها الزوجان المحبان ، حين يجمعهما عش صغير تظلله المودة والحب .. ومن سخرية القدر .. أننا هنا ونحن بعيدان عن دارنا.. إلا أننا نعيش حياة الاستقرار والاطمئنان أكثر مما كنا نعيشها فيه ..

ـ وماذا تأملين فى الغد ..

ـ دائماً أحيا من أجل الغد ..

ـ وماذا ترى عيناك فى الغد الذى لم يات بعد

ـ آراه غدٌ مشرق يملأه الأمل والسعادة

ـ غدٌ مشرق .. تملأه السعادة .. ما أحلى تلك الكلمات .. وما أجمل هذه الأمانى .... فيضع أصابعه أسفل وجهها ويديره ناحيته وهو يقول:

ـ دعينى أنظر إلى عينيك... فتقول له وهى تدير وجهها إليه وتنظر للحظات فى عينيه

ـ ماذا ترى يا حبيبى

ـ الجميل لا يرى إلا الجمال ..

ـ ماذا تقصد بذلك ..؟

ـ من له صفاء عينيك .. ونقاء قلبك .. لا يمكن أن يرى إلا الجمال .. وقد رأيتِ أنت المستقبل .. فلما سألتك عنه .. فما كان جوابك إلا ما قلت ... غدٌ مشرق .. مفعم بالأمل ..

فتعانقا للحظات طويلة .. راحا فيها يحلقان معاً فى سماء الحب ليقتنصا مشاعر السعادة والحنين ، التى لطالما حجبتها عنهما شهوراً مضت من المعاناة والألم .. آملين فى دوام هذه اللحظات ، و تلك المشاعر الفياضة لأمد بعيد ..

دعى الوزير عبيد الله صديقه أبو عيسى بن لوبون الحاكم السابق لولاية مربيطر لكى يقضى معه أمسية فى قصره بولاية اذكون.. حيث تعودا التلاقى، والجلوس للحديث والسمر، منذ استقر أبو عيسى بصفة دائمة ببلاد شنتمرية بعد أن عقد صفقة مع أميرها ليبيعه حق ولاية مربيطر لأنه أراد (أى أبوعيسى) أن يعتزل السياسة..

بترحاب شديد وود ظاهر استقبل عبيد الله وابنه محمد ، أبو عيسى وجلسوا بقاعة الاستقبالات بالقصر .. وبعد عبارات الود المعتادة تحدث الوزير أبو عيسى إلى عبيد الله فقال له:

أنت تعلم أننى أسعد وتكتمل فرحتى كلما جمعنا معاً لقاء ، وحديث .. ولكنى كنت عندك منذ يومين .. فلماذا دعيتنى على عجل ..؟ .... فيضحك عبيد الله ويقول:

- لا يهمنى سوى أن يعود لك حقك الذى يريد أن يسلبك إياه الأمير ..

- وكيف يتأتى ذلك .. ولم أعد أستطيع أن ألقاه .. وكلما بعثت إلى حاجبه ليدبر لى لقاء معه .. يعتذر بانشغال الأمير ..

- ها هو قد بعث إلىّ يخبرنى بأنه قادم الليلة ليتناقش معى بشأن دعوة أمير المسلمين للأمراء واصحاب القلاع والضياع لمحالفته وتقديم الدعم لجيشه فى حملته ضد .. السيد .. بعد أن استولى على بالنسية .. وقد وجدتها فرصة لكى تراه ، وتطلب منه ما تشاء ، وذلك أمامى أنا وابنى محمد زيادة فى الإحراج ، ولنكون شهداء على ما يدور بينكما من حديث

- بارك الله فيك .. ولكن أترى أن ذلك هو الوقت المناسب وأنتما سوف تتحدثان فى شأن حملة عسكرية ، ودعم يجب تقديمه لأمير المسلمين .. هذه أمور هامة ولا يمكن أن نتحدث فى أمور خاصة أثناء مناقشة أمر يهم كل المسلمين ..

أنت رجل طيب يا أبا عيسى .. اظفر بما تستطيعه من ذلك الرجل فهو مماطل لا يدفع حق الناس عليه إلا لمن يلاحقه بلا كلل أو هوادة

ـ آآه .. لقد أذلنى ، وأحوجنى ، وأنا كنت أعيش حياتى لا ينغصها إلا هذا الكلب المسعور رودريجو .. وهو الذى دفعنى لألقى ما بيدى إلى هذا الأمير الذى يريد أن يغتصب منى ثلثى مالى الذى تعاهدنا عليه ..

ـ اسمع .. عليك أن تذكره بما لك عنده من مال قبل أن يسبقك بالحديث معى عن الحملة العسكرية ومشاكلها.

وما كاد ينهى عبارته حتى أعلن الحرس قدوم الأمير أبو مروان إلى القصر ، ومعه بعض رجال الإمارة .. فنهض الجميع لاستقبال الأمير ، وخرج عبيد الله وابنه محمد ليكونا فى استقبال الأمير أمام مدخل القصر ..

صعد الأمير أبو مروان درجات سلم القصر ومن خلفه حاجب الإمارة ، ومعه الوزير الأول المسئول عن الضرائب والأموال ، وشئون الجند والحراس .. وسلم الأمير على مستقبليه .. الوزير عبيد الله حاكم ولاية أذكون ، وابنه محمد ..

وبعد أن رحبا بالأمير ومرافقيه دخل الجميع إلى قاعة الاستقبالات بالقصر ، حيث يوجد الوزير أبو عيسى بن لوبون الحاكم السابق لولاية مرببيطر ..

وقف الوزير أبو عيسى ليرحب بالأمير ، الذى فوجئ بوجوده .. حيث سلم بسرعة على الوزير أبو عيسى دون أن ينظر إلى وجهه وهو يسلم عليه ، وكأنه يتجنب النظر إلى عينيه ..

لم يترك الأمير الفرصة لأحد حتى يحدثه فى شىء وبادر بالحديث إلى عبيد الله قائلاً له:

ـ لقد علمت بشأن طلب أمير المرابطين يوسف بن تاشفين أن نقدم له ما نستطيعه من الفرسان والجند ، وما نستطيع أن نقدمه من ميرة لجيشه ..

ـ نعم .. وقد أرسلت له يا مولاى تجيبه إلى طلبه

ـ نعم ، ولقد جئت الآن لكى أخبرك بأننى قد اخترتك أن تكون على رأس الفرسان والجند الذين سوف نبعثهم لدعمه فى حملته ..

ـ هذا شرف كبير لى يا مولاى

ـ وأن كنت تريد أن تصحب ابنك محمد معك ليكون ساعدك .. فلا مانع لدىّ ... فيسارع محمد بالقول:

ـ بارك الله فى أمير البلاد .. هذا شرف كبير لنا يا مولاى ... فيقول عبيد الله يسأل الأمير :

ـ ما هو عدد الفرسان والجند الذين سوف ندعم بهم جيش أمير المسلمين

ـ أنت تعلم أننا لا نملك من الفرسان أو الجند العدد الكبير ولذلك فسوف نرسل إليه قوة رمزية من الفرسان والجند تظهرنا أمامه ، بأننا لم نتخلف عن دعوته للجهاد .. فأنت تعلم أنه قد عزل أمراء وملوك الأندلس فى ألمرية ، وغرناطة ، ومرسيه ، وأشبيلية بادعائه أنهم لم يعاونوه فى حملته ضد الفونسو منذ سنوات .. ولا نريد أن يشعر تجاهنا بأى شعور يستفزه علينا ..

ـ وما هى القوة التى ستقدمها للدعم

ـ فى حدود مائة فارس ، ومائتى جندى ..

ـ يا إلهى .. مائة فارس ، ومائتى جندى .. هذا هو عين الاستفزاز

ـ قلت لك أننا ليس لدينا ما نقدمه أكثر من ذلك .. وسوف نعوض نقص العسكر ، بأن نقدم له الكثير من الميرة التى تعين جيش المسلمين

ـ ومتى سيتم التحرك والالتقاء بجيش أمير المسلمين

ـ هو طلب منا أن نكون مستعدين للتحرك إلى معسكر تجمع جيوش المسلمين جنوب شاطبة

ـ أراك تقول جيوش المسلمين .. مَنْ مِنْ الأمراء أو أصحاب الحصون والقلاع سوف يتقدم بجيش لدعم يوسف بن تاشفين ..؟

ـ لا أدرى .. ولكنى لا أعتقد أن أيا منهم يستطيع أن تزيد قوة الدعم التى يقدمها عن مائتى فارس

ـ إذن هذه ليست جيوش .. ولكنها مجموعات من الفرسان لا أكثر من ذلك

ـ هى كذلك .. وما يهمنا فى الأمر ، وأريد أن أنبهك نحوه هو أننا لابد ألا نتعجل فى الوصول إلى هناك فى الموعد الذى حدده أمير المرابطين

ـ لماذا

لأننا لا نريد أن نلفت نظر .. السيد .. إلى قيامنا بدعم يوسف فى مواجهة قواته

ـ لو كان يريد السيد السلام .. فليرحل من بالنسية .. هل يريد أن يغتصب أرضاً وشعباً ويقف سائر المسلمين دون أن يحركوا ساكناً

ـ ليس هذا وقت جدال .. ما يهمنى هو أن يكون دعمنا فى اللحظة الأخيرة .. حتى لا يتنبه .. السيد .. لذلك

ـ وهل نخشى .. السيد .. أكثر من خشيتنا لله .. فينطبق علينا قوله سبحانه وتعالى ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلا﴾ (١) .

ـ قلت لك يا عبيد الله لا تستدرجنى إلى جدال لا طائل منه ... فيقول عبيد الله وهو يضرب كفا بكف

ـ لا قوة إلا بالله .. أمرك يا مولاى

ثم يهم الأمير بالوقوف من مجلسه ، فيطلب منه عبيد الله أن يجلس قليلاً إلا أن الأمير يعتذر عن ذلك حتى لا يستدرجه إلى حديث مع الوزير أبو عيسى بن لوبون ، ويدعى انشغاله بأمور كثيرة هامة ..

ثم يخرج الأمير من القصر مسرعاً .. فينظر عبيد الله نظرة ذات معنى وقد مط شفتيه لأسفل ، ورفع كتفيه لأعلى وقال لأبو عيسى:

ـ إنه كالأفعى يلدغ ، ويهرب فى لمح البصر ..

---

(١) سورة النساء ـ الآية ٧٧ .

ثم يعودان إلى قاعة الاستقبالات ليأنسا بأمسية جميلة .. ولكن لاحظ عبيد الله أن الوزير أبو عيسى سارح بفكره بعيداً عن المكان والزمان فقال له:

ـ ما الذى يشغل فكرك يا أبا عيسى .... فبقى أبو عيسى سارحاً للحظات ثم قال له:

ـ عجباً لقد سئمت يوماً أن أتحمل مسئولية الحكم فى بلادى لمجرد أن كدر علىّ رودريجو صفو الحياة بمطالبته لى ببضع آلاف من الدنانير .. وها أنا ذا الآن وقد تكدرت كل حياتى ، ولا أستطيع أن أسترجع ثمن ما بعت به مناصب العلى من أجل صفاء العيش .. فلا هذا بقى ولا ذاك تحصل .. وأجدنى أحن وأشتاق لما ضاع منى فأقول:

يا ليتَ شعرى وهل فى ليت من أرَب	هيهات لا تقضى من ليت أربُ
أين الشموس التى كانت تطالعنا	والجو من فوقه ليلِ جلبابُ
وأين تلك الليالى إذ تلمُّ بنا	فيها وقد نام حراسٌ وحجابُ
تبدى لنا لجيناً حَشوهُ ذهب	أنامل العاج ِوالأطراف عناب

مر الملك الفونسو على غير عادته فى أشهر الصيف على مدينة طليطلة .. ليقضى بها أياماً بجوار الأميرة ماريا (سيدة) وقد اشتاق إلى رؤيتها .. منذ أن رحل عن طليطلة كعادته فى بداية أشهر الصيف ليقضيها فى قشتالة وليون فى الشمال ..

وعاد ليلتقى بماريا من جديد .. ليسترجعا معاً ليالى الحب والعشق .. تلك الليالى التى يهيمان فيها ببعضهما .. وهما يعلمان أنهما يسرقان لحظات الحب من الزمن والقدر .. الزمن والقدر اللذان قدرا لهما أن يبقيا عاشقان فقط بلا رباط يوثق هذا الحب والعشق برباط الأبدية ..

جلس الفونسو وماريا (سيدة) فى شرفة القصر الذى تقيم فيه مع أسرتها .. حيث تدلت على جنبات الشرفة أغصان خضراء لشجيرات الزينة بأوراقها

الخضراء الصغيرة ، وزهورها البيضاء والوردية ، وقد فاح منها أريج منعش عاطر.. فى ليلة حالمة من ليالى الصيف ..

وقد اتكأ الفونسو على أريكة عريضة من خشب الخيزران تشكلت أعواده بتشكيلات من رسوم الأوراق النباتية .. وفرشت بوسائد مزركشة من القماش الملون بنقوش زاهية مبهجة ..

وقد استند بظهره على جانب الأريكة ومدد قدميه بطولها، وأسندت ماريا ظهرها على صدره ، وأرخت رأسها على كتفه .. وأخذ يداعب شعرها الذهبى بأنامله وراحت تغوص فيه حيناً ، وتسرح فوقه حيناً .. فتغفو أجفانها مع حركة أصابعه تارة ، وتصحو تارة فى هدوء وسكينة..

وفى ركن الشرفة جلست جارية لها تشدو على نغمات أوتار القيثارة بمزيج من كلمات الحب عربية وقشتالية بصوت شجى رقيق .. فزاد المكان حلماً .. والليل جلالاً وروعة ..

فراحت تعاتبه على طول الفراق .. وتقول له:

ـ أمازلت تقول أنك عاشقى ..؟

ـ وهل ترتابين ولو للحظه فى صدق كلامى ..؟

ـ حينما أنظر إلى عينيك .. فقلبى يصدقك القول .. وحينما أرى أفعالك .. فإن عقلى يدينك ، ولا يريد أن يغفر لك

ـ آه .. ما أقسى عقلك

ـ وما أحن قلبى ..

ـ دعينا من العقل .. فكم من قلاع وصروح للحب هدمها من قبل

ـ وكم أهلك لظى القلب من أبدان العاشقين ..

ـ نحن نعيش بقلوبنا

ـ ونحيا بأفكارنا أيضاً ...

ـ دعينا من ذلك، وقولى لى.. لماذا ترتابى من صدق مشاعرى نحوك أحياناً..؟

- لأننى أرى الحب والعشق فى عينيك ما دمت أنا أمامك .. فإذا ما غبت عنك أو غبت أنت عنى .. أشعر بانطفاء جذوة الحب والعشق فى قلبك

- هذا غير صحيح .. وما هى إلا مشاعر خادعة تنتابك .. فتغريك من أن تزدادى دلالاً وتمنعاً عنى أحيناً ..

- لماذا إذن تغيب عنى أشهراً لا أراك فيها ..؟

- ليست إلا أشهر الصيف التى ، تعودت أن أبقى فيها فى قشتالة وليون.. وها أنا ذا قد قطعت فترة تواجدى هناك وعدت إليك لألقاك.. أليس هذا دليل على حبى وشوقى لك ..؟ ... فتسكت ماريا للحظات ثم تقول له:

- لقد تعبت كثيراً من حَملِى هذا .. وحتى الآن لم نتفق على مكان ولادتى ..

- ومتى ستكون الولادة ..؟ وأين تريدين أن تلدى ..؟

- ستكون الولادة فى أول شهر سبتمبر القادم.. وأريد أن ألد فى طليطلة حيث أنا

- ياه .. لقد اقترب موعد ولادتك .. وسأحاول أن أتواجد بجوارك عند الولادة

- لا .. فوجودك هنا ضرورى .. فأنا أحتاجك بجوارى .. احتاجك بشدة

- تحتاجين لى بشدة.. ألم يسبق لك الولادة عدة مرات من قبل.. لماذا تخافى..؟

- لست خائفة .. ولكنى أريد أن أرى الفرحة فى عينيك ، حينما ترى ابنك .. وريث عرشك ..

- أما زلت متأكدة من ذلك ..؟

- نعم .. أنا على يقين من ذلك .. وأطلب من يسوع أن يكون فى عونى ..

- آه ... لكم أتمنى ذلك يا ماريا ..

عاد ألفونسو إلى برغش فى الشمال وقضى أياماً .. حتى جاءته الأخبار بوصول ألبير هانيس .. القائد القشتالى، صديق الملك، قادماً من مدينة بالنسيه، ومعه رسالة يحملها له من .. السيد .. (القنبيطور) .. فتهيأ الملك لاستقباله..

على رأس مائه فارس من فرسان قشتالة الأقوياء ممن رحلوا مع القنبيطور عند نفيه من المملكة الإسبانية .. سار الموكب وقد شمل الجياد العربية الأصيلة.. والهدايا من الأقمشة الفاخرة ، والقلائد الذهبية والفضية والبغال ، والطنافس الفاخرة ، والدروع والسيوف العربية المحلاة بالفضه والنحاس .. وتقدمهم القائد القشتالى ألبير هانيس معتلياً فرسه ، وقد لبس رداء الفرسان القشتاليين بألوان زرقاء وبيضاء ، وحمراء وتوشى بالأوشحة ..

بينما تدلى سيفه من الجانب الأيمن لخصره .. وفى مؤخرة فرسه علق درعه المعدنى المحلى بالنقوش وقد توسط الدرع .. نقش صليب بارز بلون فضى وحول الصليب نقوش رفيعة لرموز قشتالية ..

سار الفارس القشتالى ألبير وعبر بموكبه الممتد .. بوابة القصر الملكى ، وقد إنتفخ صدره ، وعلى وجهه بسمة هادئة لرجل يعرف أنه مرحب به من أعلى سلطة فى البلاد .. الملك الفونسو ..

وقف الملك ألفونسو على باب القصر ، ومن حوله كبار رجال مملكته من الأمراء والكونتات ورجال الدين ..

فلما اقترب ألبير من مدخل القصر حيث يقف الملك ترجل من فرسه ، وتقدم بقامته الممشوقة لعدة خطوات إلى حيث يقف الملك .. وعلى بُعد مترين وقف الفارس أمام الملك .. ومال بجزعه لأسفل تحية للملك .. ثم تقدم نحوه وبرك على ركبته اليمنى وإستند بكوعه على ركبته اليسرى ومد يده مصافحاً ليد الملك الممدودة إليه فجذبها نحوه وقبلها .. ثم قال للملك:

.. ملكنا المعظم .. باسم الرب الخالق .. يقبل سيدى القنبيطور أيديكم .. كما يقبل أقدامكم .. فأنت سيدنا الصالح ، وأنت أهل لذلك .. سيدى القنبيطور يتطلع إلى رضاكم ومغفرتكم .. طالباً منكم أن تصنعوا فيه معروفاً وستلقون أفضل الجزاء وأحسنه من الخالق ..

لقد أخرجته من أرضه، وحرمته حبك... ومع أنه فى أرض بعيده ، فإن أحواله يمكن أن تسوء .. لقد استولى على بالنسيه، وولاياتها .. لقد أصبح سيد مملكة بالنسية ، وكل ما حولها من القلاع والحصون ..

لقد خدم المسيح ، وأقام مطرانية هناك وعين مطراناً .. لقد ربح القنبيطور غنائم كثيرة ، ساقها له الخالق المكين .. وها هو ذا دليل صدق كلامى ..

لك يا ملكنا المعظم يهديك القنبيطور .. مائة جواد دريز ، قوية البناء والتكوين.. سروجها مهيأة ، وشكائمها رائعة التذهيب ..

سيدى القنبيطور .. يقبل يديكم راجياً أن تتقبلوها، وأن تكونوا عنها راضين.. وهى شاهد ولاء تبعيته لكم ، وأنكم يا مولاى سيده الراعى الأمين..

بسرور وغبطة يرفع الملك يده اليمنى مصلباً على صدره ويقول لـ ألبير هانيس:

هذه الغنائم الهائلة التى ربحها القنبيطور .. مبارك القديس إيزادور ..! ملأت قلبى غبطة ، وهى وما حقق .. السيد .. من انتصارات فأقول .. إننى قد قبلتها منه كهدية..

بهذه التحية التى قالها ، وأبداها ألبير هانيس نيابة عن القنبيطور .. وما رد به الملك من قبوله لها .. كان لـ .. السيد .. بعدها شأن جديد يكتب له فى عاصمة المملكة الأسبانية فى قشتالة ..

كانت فرحة الملك الفونسو كبيرة لهذه الهدايا القيمة التى بعثها له القنبيطور وبالقدر التى أسعدت به الفونسو .. بالقدر ذاته آلمت وأوغرت صدر جرسيه أوردنيث حقداً على القنبيطور عدوه اللدود .. فقال لـ ألبير فى حفل الاستقبال الذى أعده له الملك بالقصر:

ـ ما هذا الذى تتحدث عنه أمام الملك ، وكأن سيدك هذا لم يبق على مسلم واحد على قيد الحياة فى بالنسيه .. والذى نعلمه أن المرابطين قد زادت قوتهم ، وأصبحوا كالشوكة فى ظهر المملكة المسيحية .. ولم نر منكم ما يردهم أو يردعهم.... فيتدخل الملك الفونسو قائلاً:

ـ دع هذا النقاش .. فالقنبيطور ولا شك فى ذلك يقدم لنا الكثير من الخدمات الجليلة .... ثم يتحدث ألبير هانيس موجها كلامه للملك:

ـ إن القنبيطور يطلب منكم عفوكم ، ويرجوكم معروفاً .. أن تأذنوا لزوجته وابنتيه أن يخرجن من الدير حيث أودعهن بنفسه ليذهبن إليه فى بالنسية ... فقال له الملك:

ـ ذلك شىء يسرنى من القلب ، ولهن الأمن والرعاية طوال الرحلة داخل مملكتى ، أحميهن من كل شر ، وأدفع عنهن كل أذى ، وأصون عفافهن .. فإذا بلغن الحدود ، وتجاوزن أراضى المملكة .. فأنت المسئول عن حمايتهن يا ألبير .. وسيبقى دييجو نجله فى بلاطنا كرجل من رجال البلاط .. فارساً مقداماً .. يتدرج فى أعلى المناصب وأرقاها ..

ـ السمع والطاعة يا مولاى .. والقنبيطور لن ينسى هذا الجميل أبداً ... فيكمل الملك كلامه موجها حديثه لكل من بالقاعة من أمراء ، وكونتات ، ورجال دين من قساوسة ورهبان:

ـ .. اسمعونى جميعاً .. جيشى ورجال بلاطى .. لا أود أن يفقد االقنبيطور رودريجو أى شىء .. وسوف أرد على كل من اتبعه من فرسان قشتاليين كل ما صادرته منهم من أموال وضياع .. لتبقى لهم كما كانت وستظلل حمايتى جميعهم من كل أذى ومن كل الأخطار ..

فيتقدم ألبير هانيس ومن معه من قادة تابعين لـ .. السيد .. ويقبل الجميع يد الملك الفونسو ... فيبتسم الملك ويتابع قائلاً:

«أولئك الذين يودون التطوع والذهاب ليخدموا القنبيطور .. فقد أذنت لهم .. فليذهبوا إليه بفضل الرب .. فإننا نربح بالعفو أكثر مما نصيب بالغضب ..» (١)

كان بحفل الاستقبال الذى أقامه الملك على شرف ألبير هانيس الكونت جنثالبو حاكم ولاية كاريون وولداه الشابان دييجو ، وفرناندو .. وقد بهر الشابان بما لدى القنبيطور من سلطة ونفوذ وثراء تفوق بها على ما لدى والديهما من هذه المكانة .. فقررا أن يبوحا لوالدهما برغبتهما فى الاقتران بابنتى .. السيد .. (القنبيطور) .. وما أن فاتحاه برغبتهما حتى رحب بذلك..

---

(١) كتاب «ملحمة السيد» ـ الدكتور الطاهر أحمد مكى ص ٢٨١،٢٨٢،٢٨٣،٢٨٤ ـ دار المعارف طبعة ١٩٩٥ .

وأثناء مغادرة ألبير لأراضى قشتالة كان الكونتان الشابان فى وداعه وقالا له:

يا من تعودت أن تصنع الجميل .. أضف إلى صنيعك جميل آخر ... انقل تحيتنا إلى القنبيطور ، وقل له أنه يستطيع أن يعتمد علينا ، ونحن مستعدان لعونه .. فليتخذنا أصدقاء ، ولن يخسر بهذا شيئاً ..... فيقول لهما ألبير هانيس:

.. هذه مهمة لا تزعجنى أبداً ..

وعاد الأميران من حيث أتيا بينما تابع ألبير مسيرته إلى زوجة .. السيد .. وابنتيه فى دير كاردينا ، لكى يصحبهما معه إلى بالنسية ..

وانضم له أثناء المسير الكثير من الفرسان الراغبين فى الانضمام لجيش .. السيد .. بعد ما سمعوه من تحقيقه الكثير من الإنجازات والكثير من الأموال والثروة ..

وسرعان ما أرسل ألبير ثلاثة من الفرسان ليسبقوه إلى بالنسية ليعلموا السيد بما تم مع الملك .. ويخبروه بقدوم زوجته وابنتيه فى حماية ألبير ، ومن معه من فرسان كثيرين ..

بذرة الشيطان

مع الساعات الأخيرة من الليل تعالت الصرخات تهز جنبات الجدران فى الطابق العلوى من القصر فى طليطلة .. وبدا الذعر على الجميع، وقلق الخدم والحشم على سيدتهم الأميرة ..

وعلى عجل تم استدعاء الطبيب لإسعافها من الآلام التى تعتريها .. وفى الصباح الباكر ليوم الإثنين .. حضر الطبيب وبقى إلى جوارها يحاول أن يخفف عنها آلام المخاض التى هاجمتها بشراسة .. وعلى الفور تم بعث رسالة إلى الملك الفونسو فى قشتالة

تصبب العرق الغزير من جبين الطبيب، وحاول آن يعيد الجنين إلى وضعه السليم لتسهيل عملية الولادة .. إلا أن الجنين كان قد حُشر جسده بعرض رحم الأم، وعلَق داخل بطنها لا يتزحزح من مكانه ..

تم استدعاء طبيب آخر للمعاونة فى ولادة الأميرة إلا أن الأمور ظلت على حالها .. والجنين منحشر فى الرحم .. والأم تتدهور حالتها الصحية، ويتعالى صراخها ..

أمضى الأطباء والممرضات النهار بأكمله وجزء من الليل، فى محاولة تصحيح وضع الجنين إلا أن هذه المحاولات كانت بطيئة، بينما الحالة الصحية للأميرة تزداد سوءاً..

ونظراً للمكانة التى كانت عليها الأميرة بالنسبة للملك الفونسو، فقد سعى الجميع لإنقاذ حياتها مع عدم تعرض الجنين للخطر ..

وظلت حالة الطوارئ تشمل القصر كله بمن فيه، فى صراع حقيقى بين الحياة والموت ..

حياة يجرى الدفاع عنها باستماتة لأميرة سطع نجمها فى فؤاد الرجل الأول بالبلاد .. وموت قاس يهدد بقاء هذا النور الذى لطالما أضاء حياة الملك، وبعث فيها الدفء والأمل ..

أمل تعلق به الملك كثيراً، فى أن يكون لرجل البلاد الأول خليفة ووريث للعرش .. خليفة للعرش حتى وإن جاء على غير ما توجبه التقاليد والأعراف المسيحية .. فالجميع على أتم الاستعداد للتضحية بهذه التقاليد وتلك الأعراف، وعلى رأسهم الملك نفسه .. إذا ما كان الثمن، هو وجود وريث على عرش البلاد ..

استمر الصراع بين الموت والحياة طوال الساعات المتأخرة لليل .. ومازال الأطباء ومعاونوهم يجاهدون لكى يعود الجنين إلى وضعه الصحيح ..

ومع الساعات الأولى للفجر .. اعتدل وضع الجنين وقل صراخ الأميرة، وبدأت عملية الولادة ..

انطلقت الصرخات من فم الوليد لتعلن نهاية الصراع الممتد على مدى يوم ونصف من المعاناة المتصلة .. وبدت ابتسامة الفرحة ترتسم على الوجوه المنهكة .. وتابع الجميع نوع الجنين، فإذا به ذكر كانوا يتمنوه جميعاً ..

ها هو ذا الطفل الذى تمنته الأميرة منذ سنوات ليكون عوناً لها فى الثأر من أعدائها المرابطين ..

ها هو ذا الطفل قد جاء .. ولكن على غير ما تقتضيه الأعراف، والتقاليد فى جميع الأديان ..

ولكن .. منذ متى يعير الشامت أو الحاقد أى وزن لقيم النبل، ومقتضيات الدين والأخلاق .. منذ متى تنتصر قيم النبل على قيم الشر والظلام

نعم لا يجتمع الحقد والشر، مع مقتضيات الأخلاق، والأعراف .. لا يجتمعان .. وما دام هناك حقد وكراهية .. فلا دين .. ولا أخلاق ..

ووضع الشيطان بذرته .. وبدأ يَعُد العُدَة لصراع طويل آت .. لا يعرف إلا الله مدته .. ولا يعرف إلا الله مداه ..

تلفت الجميع إلى الأميرة ليهنئوها بوليدها الجديد، بعد أن تَلَّهو بالنظر إليه والفرحة به .. فحملته الممرضة بين يديها واقتربت من سرير الأميرة، فلمحت على وجهها شحوبا واصفرارا .. فراحت تداعبها لتعيد إليها نشاطها وبهجتها فلم تستجب لها الأميرة ..

دارت الغرفة ومن فيها، وبدا أشباح أناس تدور حول نفسها، وبكاء أناس يتوارون .. وأناس يلتفون حول الجسد الخائر، يحاولون أن يبعثوا فيه حياة قد زهقت ..

وضاق المكان بمن فيه .. ورَحب .. وروح الأميرة تحوم فى المكان لا تستطيع أن تلامس جسد الوليد حينما كان جزء منها قبل لحظات معدودات ..

وانفصلت الروح عن الجسد .. وأصبح الجسد الذى كان يعطى، ويمنع .. يحب ويكره .. أصبح جسداً لا يملك من أمره شيئاً .. وحل مكانه العدم .. وترك بذرة الشيطان .. قد تكبر .. فتكبر بها ومعها الخطيئة .. أو يختفى ليصبح عدماً فيقف حد الظلام، ويجف معه حيناً بحر الذنوب ..

وصل الملك إلى طليطلة .. وأخذ يبكى معشوقته الأثيرة، وقد فارقت روحها الحياة، وتركت له جسداً نحيلاً لا حراك فيه .. ونظر الملك إلى الأميرة الراقدة على سريرها فى هدوء .. وتحدث عقله فقال:

ها هو الجسد المُسجى (١) أمامى .. وقد كان يوماً تملأه النضارة، والحياة .. يهيم حباً، ويفيض عشقاً .. يمنح قليلاً .. ويسعد بالمنع كثيراً ..

جسد لطالما حير الكثيرين وأولهم أنا .. ترى هل كانت الأميرة لغزاً محيراً أخفى داخله الكثير من المشاعر المجهولة لأقرب الناس إليه ..؟ ترى هل كانت الأميرة، قلب نابض يمنح بسخاء ..؟ أم عقل خارق يعطى حينما يريد أن يعطى .. ويمنع حينما يرغب فى أن يمنع .. ؟ عقل أدار الجسد، لأفكار دارت بداخله،

---

(١) التَسْجِيَةُ : أن يُسَجَّى الميت بثوب أى يغطى به .

فطوعت القلب والجسد، لرغبات العقل وطموحاته .. فكان العقل بارعاً فى كل وقت .. يمارس الحب حيناً .. ويمارس الحقد حيناً آخر .. فلأى جانب انتصر .. لا أدرى ..

تلقف الملك رضيعه الذى سماه من فوره باسم .. سانشو .. وبعينين تملأهما السعادة والحزن فى آن واحد .. نظر إلى قسمات وجهه الأبيض وقد احمرت أوداجه من كثرة البكاء والصراخ .. وانفطر قلب الفونسو .. للحظات وهو ينظر إليه، وكأنه يسمع بكاء طفل فقد أمه وحُرم من أن ينظر لعينيها وإلى الأبد ..

تساقطت الدمعات من على وجه الفونسو، على وليده اليتيم فى يومه الأول ..

.. ماذا سيقول له عن أمه .. وماذا سيحكى له عنها .. ياللطفل المسكين البائس ..

البائس .. كيف يكون بائساً .. ؟ وهو وليد الملك العظيم الفونسو.. لا لن يكون أبداً طفلاً بائساً.. فورب عيسى ليكون ولياً للعهد.. يفخر به الفونسو، وكل الشعب الأسبانى.. وليُربى على أفضل ما تقتضيه الرعاية والتربية لأبناء العظماء.. وكيف لا .. وهو وريث العرش الأسبانى، لأمبراطورية عظمى ستغطى راياتها كل أرض الأندلس..

هكذا حدثته نفسه لتخرجه من مشاعر اليأس والإحباط التى طغت عليه وهو يراقب وليده وهو يبكى وقد اعتقد أنه يبكى على فراق أمه..

نقل جثمان ماريا إلى قشتالة فى موكب حزين، وتم إقامة صلاة جنائزية على روحها بالكاتدرائية حضرها الملك الفونسو وحاشية القصر، وكبار الكونتات ورجال الدين المسيحى ..

ثم تم نقل الجثمان إلى دير سيهاجون حيث أقيمت مراسم دفن الجثمان بجوار قبر الملكة كونستانس الزوجة الثانية للملك الفونسو ..

وأنزل الجسد إلى القبر، وغطى الصندوق الخشبى بالتراب، وقفل القبر بغطاء من الرخام الرمادى وكتب علية تاريخ الوفاة ١٢ سبتمبر ١٠٩٤ميلادية (٤٨٧ هجرية) .

نزلت فرق الجيش المرابطى فى منطقة الجزيرة الخضراء بجنوب الأندلس تحت قيادة الأمير محمد بن تاشفين (ابن أخ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين)..

وتوالى وصول السفن المرابطية التى بعثها أمير المسلمين إلى أرض الجزيرة، لتنقل القوات والعتاد والسلاح اللازم لخوض حملة عسكرية لتطهير بالنسية من قوات رودريجو (السيد) المرتزقة ..

ووصلت أنباء نزول قوات المرابطين بأرض الجزيرة الخضراء، إلى أسماع رودريجو وهو يتأهب لاستقبال زوجته وابنتيه قادمين من قشتالة بعد أن سمح لهما الملك الفونسو بالمغادرة ..

وسرعان ما بعث .. السيد .. برسالة إلى ملك أرجون يطلب منه معاونته على صد جيش المرابطين .. وذلك مقابل أن يتعهد السيد على معاونته على صد جيش المرابطين، إذا ما هاجم أراضى مملكة أرجون ..

وأطلع .. السيد .. ملك أرجون على أن حملة المرابطين لا تستهدف بالنسية وحدها بل سائر الإمارات والممالك الأسبانية فى شرق الأندلس (مملكة قطلونيا، ومملكة أرجون) ..

ولم تمنع أنباء نزول جيش المرابطين فى أرض الجزيرة .. السيد .. من فرحته بقرب وصول زوجته وابنتيه إلى بالنسية، فأعد المدينة، وخاصة قصر الحكم (وهو قصر الملك القادر سابقاً) للإقامة معهن ..

كان لـ .. السيد من الأعداء الكثيرون .. بحيث أنه قد خشى على زوجته وابنتيه إذا ما غادروا بلاد قشتالة، وعبروا حدود المملكة الأسبانية أن يتعرض موكبهم للهجوم والخطف أو القتل .. فقد يُهَاجموا من أى قوات غير معروفة أو مجهولة ويحدث لهم ما لا يحمد عقباه ..

وأراد .. السيد .. ألا يترك أى شىء للظروف فقرر أن يبعث بفرقة من مائة فارس أخرى إلى مدينة سالم على حدود المملكة الأسبانية ..

ثم بعث برسالة إلى ابن غلبون حاكم مدينة مولينا .. وهو قائد مسلم يرتبط بـ .. السيد .. بعلاقات صداقة وطيده، وطلب منه أن يوفر له قوة من مائة فارس أخرى لترافق ألبير هانيس، ومن معه فور عبور حدود مدينة سالم ليمروا بأرض

مدينة مولينا المجاورة لحدودها، ومنها إلى شنتمرية، وعَبّر أراضيها حتى حدود مملكة بالنسية .. ومنها إلى المدينة العاصمة حيث ينتظرهم .. السيد .. على أحر من الجمر ..

ومضت خمسة عشر يوماً منذ بعث .. السيد .. آخر فرقة فرسان لاستقدام زوجته وابنتيه ..

وبينما يحتفل مسلمو بالنسيه بالأيام العشرة الأخيرة لشهر رمضان بلياليها الدينية المبهجة .. كان .. السيد .. يقف على مشارف القصر الملكى فى بلا نوبة يستقبل موكب وصول زوجته وابنتيه إلى بالنسية ..

انطلقت الأبواق النحاسية تعلن وصول الموكب إلى القصر .. وعندئذ خرج .. السيد .. فى الحال على مشارف باب القصر يتطلع إلى زوجته وابنتيه، وهن يترجلن من العربة التى تقلهن ..

ولم ينتظر طويلاً بل تحركت قدماه ونزل من درجات سلم القصر، وراح يقبل زوجته وابنتيه بعد فراق طويل وقاس عانوه جميعاً منذ قرار الملك الفونسو بنفيه من المملكة الإسبانية، ومنع زوجته وابنتيه من مرافقته ..

مرت اثنتا عشرة سنه على قرار النفى .. سُمح له فيها برؤيتهم لعدة أيام من كل سنة .. وها هو الآن يضمهم إلى صدره وقد التمَ شملهم ليعيشوا معا من جديد كأسرة واحدة لا يفرق بينهم شىء أياً كان منذ هذه الليلة ..

ثم استدار رودريجو ليسلم على رجاله الأوفياء الذين رافقوا زوجته وابنتيه طوال الرحلة حتى بالنسية .. ها هو مونيو جوستيوث أولاً، وهذا بدروو برمودث ابن أخيه الوفى .. ومارتن أنتولينييث البرغشى (نسبة إلى برغش) الذى صيغ من وفاء ..

وها هو المطران دون خرونيمو الورع المخلص للمسيح .. وها هو الحبيب والرفيق ألبير هانيس مثال البطولة والشهامة .. وابن غلبون .. القائد المسلم، والصديق الوفى لم يترك الموكب منذ مر ببلاده فى مولينا، ورافقهم تقديراً منه ووفاء حتى وصلوا بسلام إلى بالنسيه ..

ودعى الجميع إلى الاحتفال الكبير فى القصر الملكى .. فى ليلة عظيمة أدخلت البهجة والسرور إلى قلب .. السيد .. حقاً إنها ليلة لا تنسى ..

مضى يومان تملأهما السعادة عاشتها أسرة رودريجو فى قصر الحكم، وتطلعت خامينا وابنتاها من شرفة القصر .. فأبصرن شاطئ البحر الممتد على مدى البصر .. بلونه الأزرق البديع .. وها هى مدينة بالنسية بشوارعها ومبانيها الجميلة تبدو لهن فى أروع وأبهى صورة بأبراجها، وبساتينها الخضراء العامرة ..

وها هو ذا .. القصر بحدائقه الباثقة الرائعة .. وأشجاره المتعددة الأشكال والأحجام .. منها العالية كالرماح المُشَرَّعة، ومنها العريضة الوارفة .. وأصناف الزهور، والورود بألوانها الزاهية، وأريجها الفواح العاطر ..

وراحت خامينا، وابنتاها يتأملن السيادة، والملك، والرياسة، التى حازها جميعاً سيد الأسرة رودريجو .. ذلك الرجل الخارق الذى خرج منذ سنوات طريداً معدماً من قشتالة .. وها هو الآن وقد دانت له بلاد الشرق والعباد بكل ما فيها من ثروات وكنوز ..

وفى تلك الأجواء السعيدة .. استرقت الأسماع أصوات آتية من بعيد .. ما هذه الأصوات يا أبى ..؟ ! .. قالتها دونا ألبيرا، وراحت تكررها دونيا سول ..

ونظر .. السيد .. يميناً للحظات، ويساراً للحظات أخرى .. حاول فيها أن يجد جواباً إلى الأسئلة التى طرحتها عليها ابنتاه ..

أهذا ما أعتقده ..؟ أهذا ما أتوقعه ..؟ ... رودريجو يسأل نفسه

آه لقد علا صوتها، واشتد ضجيجها .. نعم هذا الصوت أعرفه جيداً .. وهل لا يعرف رجل فى كل الأندلس مثل هذا الدوى، وهذا الضجيج ..؟

نعم إنه صوت .. دوى وضجيج .. طبول جيش المرابطين ..

بعد اكتمال الصفوف، ووصول الإمدادات إلى منطقة شاطبة .. عبر جيش المرابطين بقيادة محمد بن تاشفين .. نهر شقر، ومعه قوات الدعم من إمارات الأندلس .. وتقدم من شرق منحدرات جبال بالنسية قاصداً المدينة فى الشمال..

وعلى مسافة نحو أربعة كيلو مترات من جنوب غرب المدينة عسكر الجيش، ومعه قوات الدعم جنوب حى الريوسة، استعداداً لفرض الحصار على المدينة ..

فى هذه الأثناء وبعد سماع أهل بالنسية لطبول جيش المرابطين .. سادت أجواء الفرحة فى كل بيوت أهل المدينة، وساروا يلقون كلمات التقريع والاستهزاء على جند الحراسة التابعين للسيد، فيفهمون بعضها ويجهلون بعضها، وحينما يسألون زملاءهم من العرب بجيش المرتزقة يقولون لهم أن اهل المدينة يتوعدون لكم بعد آن علموا بقدوم جيش المرابطين ..

ساد الذعر بجيش .. السيد .. خوفاً على مصيرهم إذا ما انتصر عليهم جيش المرابطين .. وأدركوا أن هلاكهم فى هذه الحالة لا شك فيه .. إلا أن رودريجو أخذ يطمئن رجال جيشه ويبث فيهم العزيمة، ويدعوهم إلى الصبر ..

واستغل رودريجو ثقة جنده به .. وما روى عنه من حسن طالعه وقوة حدسه .. فأخذ يذيع عليهم أنه قد جاءته رؤيا من الرب .. تبشره بالنصر على المرابطين ..

وأخذ أهل بالنسية يسخرون من قول السيد لجنوده فقال أحدهم فى ذلك بيتين من الشعر يسخر فيهما من رودريجو فقال:

قولوا للذريق [1] إن الحق قد ظهرا ... أو نقدوه إذا ما طيره زجرا

سيوف صنهاجة فى كل معترك ... تأبى لأطياره أن تصدق الخبرا

وما استطاع رودريجو أن يبث الثقة فى جنوده .. وصوت طبول المرابطين وضجيجها تدوى ليل نهار بلا انقطاع ..

حيث كان لجيوش المرابطين عادة معروفة، وهى استعانتها بالطرق على الطبول الضخمة للجيش لأيام متتالية وبصورة متصلة .. فيثير هذا الضجيج والدوى الأعداء، ويحطم معنوياتهم .. فيكون لذلك أكبر الأثر لصالح جيوش المرابطين فى مواجهة جيش الأعداء أثناء القتال فتتحطم أعصاب جند جيش الأعداء وتلحق بهم الهزيمة ..

١ - لذريق : هو رودريجو كما ينطقها العرب .

وساد بمعسكر جيش المرابطين أجواء احتفالية بالنصر القريب على جيش الأعداء .. واتخذ كل فريق لنفسه معسكراً منفردا عن معسكر الفريق الآخر ..

فقوات شنتمرية على جانب من المعسكر، بزيها المزركش وألوان بيارقها الزرقاء والحمراء، تميزهم عن الآخرين .. وهذه فرقة من قلعة شبرب، وهذه قوات إمارة البونت على الربوة العالية هناك .. وأخرى فى السهل لفرقة حصن العقاب .. وآخرى، وآخرى .. فرق متعددة.. وضجيج احتفالهم بالنصر أعلى وأكثر صخباً من كثافة أعدادهم ..

وصار النصارى والمعاهدون داخل المدينة يتوددون إلى أهلها المسلمين، وقد أدركوا قرب نهاية .. السيد .. وجيشه فى بالنسية .. وسار أهل المدينة يعيشون حياتهم، وقد رتبوا أنفسهم وأحوالهم بقرب رحيل جيش .. السيد ..

وفى قصر بلا نوبة .. راحت دونيا ألبيرة، ودونيا سول تبكيان أمام أمهم خامينا، وقد خشين على أنفسهن أن يقعن أسرى لجيش المرابطين ..

وبعد أن رأى رودريجو الدموع فى أعينهن قال لهن بلهجة الواثق من نفسه .. هذه فرصة بعثها لنا رب السماء لترين بأنفسكن كيف ننتصر على جيش المسلمين..

مضت أيام العيد فى بالنسية بالفرحة والتهليل والسخرية من رجال جيش .. السيد .. بينما معسكر المرابطين وحلفائهم يقيمون جلسات السمر والمرح احتفالاً بعيد الفطر المبارك ..

وقام قائد الجيش المرابطى بالإقامة فى ضاحية مليئة بالبساتين الغناء، يفوح العطر من زهورها، وكلما نظر إلى الأعداد الكبيرة لخيام معسكره البعيد، امتلأت نفسه بالنشوة والسعادة ..

فى سكون الليل البهيم [1]، وقف .. السيد .. أمام قادة جيشه وجنده ليلاً وقد لبسوا الدروع، وحملوا سيوفهم ورماحهم فقال لهم:

- بهيم : يقال ليل بهيم الذى لا ضوء فيه إلى الصباح.

لن ننتظر آن يأتنا العون من مملكة أرجون .. أو من جيش الفونسو فى طليطلة .. بل سنهزم أعداءنا بسواعدنا، وبأرواحنا المتقدة بالحماس والشجاعة .. بعد الفجر موعدنا مع النصر ..

بعد فجر يوم الجمعة ٢٠ أكتوبر١٠٩٤ ، (٨ شوال ٤٨٧ هجرية) .. بدأت أضواء المشاعل، ومواقد الحطب تخفت أضواءها فى معسكر جيش المسلمين مع شعاعات الشمس الأولى .. وبهدوء .. فتحت أبواب مدينة بالنسية من الشرق، ومن الغرب ..

من الشرق خرجت فرقة من الفرسان وتقدمت جنوباً إلى الجانب الأيمن لمعسكر المرابطين .. وفجأة آثارت ضوضاء وضجيجا مفتعلا، وتعالت الصيحات من فرسان جيش السيد تعلن قدوم جيش ملك أرجون .. وراحت الخيل تعدو يميناً ويساراً لتثير الغبار الكثيف .. دون أن تهاجم معسكر المسلمين ..

دب الذعر بالمعسكر المسلم، الذى كان نائماً بعد ليلة أمضاها الرجال فى السمر والاحتفال .. وعلى اعتقاد أن جيش المسلمين هو الذى يهاجم .. وجيش النصارى يجب آن يدافع .. فمن أين يأتى هذا الهجوم ..؟

استيقظ الجند والفرسان، وتوجهوا ناحية الخيل التى تختفى فى وسط الغبار والتراب، وكلما تقدموا لا تظهر لهم إلا خيل تفر إلى جهة باب المدينة الشرقى ..

إنطلق جيش رودريجو من الباب الغربى للمدينة قاصداً الجانب الأيسر لمعسكر الجيش المسلم، بعد أن استدار رجاله وتقدموا شرقاً مبتعدين عن المعسكر .. ووصلت خيول جيش ردريجو إلى قلب المعسكر، وعاثت فيه قتلاً وفتكاً بكل من تلقاه من جند وفرسان لجيش المسلمين ..

أدرك الجند المسلمون أنهم قد وقعوا لقمة صائغة لجيش رودريجو .. ولم تسعهم الأرض على رحابتها للهروب من الهلاك المحقق الذى نزل بهم، وقد ضرب فرسان .. السيد .. بسيوفهم الجند المسلمين بشجاعة وضراوة .. بينما الرجال والفرسان يفرون من أمامهم مذعورين مدحورين مستغيثين بقائدهم النائم فى بستان النعيم بعيد عن معسكر الجيش ..

تقدمت القوة المرافقة لقائد جيش المرابطين من البستان البعيد لتلحق بمعسكر القوات المسلمة لتقدم له الدعم والعون، فالتقت بفلول القوات الفارة من جحيم القتال .. وسرعان ما استعاد الرجال ثباتهم، وعادوا لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من معسكرهم الذى تركوه لقوات رودريجو ..

بأوامر من .. السيد .. توقف جيشه عن مطاردة فلول الجيش الإسلامى، وبدأ الفرسان، ومن تبعهم من الجند بجمع ما وجدوه فى معسكر الجيش المسلم من غنائم .. وكانت الغنائم أكثر من أن توصف أو تحصى.. الخيل العربية المطهمة بالجملة.. السيوف والدروع .. الماشية والدواب، الأموال والأسلاب بأعداد كبيرة..

ورحل جيش .. السيد .. يجر الغنائم إلى داخل المدينة، وقد انكسر ظهر الجيش الإسلامى، بكل فرق الدعم المساندة له ..

الليالى الحالكة .. !

أغلقت أبواب المدينة، وتعالت صيحات النصر من أفواه الجند المرتزقة لجيش.. السيد .. وساروا بشوارع المدينة يتشفون من أهلها الذين ظلوا لأيام طويلة يتوعدوهم بنصر الجند المرابطين عليهم ..

سار جند .. السيد .. فى شوارع بالنسية يعربدون، ويبصقون فى وجه أهالى المدينة، غلاً وحقداً، واستهزاء بهم .. وسار فى شوارع بالنسية، المنادون التابعون للوزير اليهودى موسى .. حاكم المدينة، يدعون كبار رجال المدينة من الشيوخ، والفقهاء، والتجار، والأعيان للاجتماع بـ .. السيد .. صباح اليوم التالى فى حديقة القصر فى بلا نوبه ..

بعد صلاة الظهر من يوم السبت، وقف .. السيد .. على المنصة المعدة له للحديث أمام رجال المدينة، وقد سيق معظمهم جبراً بواسطة عسكر المدينة التابعين للوزير اليهودى موسى .. إلى مكان الإجتماع، ووقف رودريجو بغرور وصلف قائلاً لهم:

.. إلى العقلاء من جماعة بالنسية (قالها وهو ينظر إلى القاضى الوقشى) .. أنتم تعرفون كم خدمت ملككم وساعدته، وكم من الجهد الكبير بذلته من أجل أن تصبح المدينة لى ..

والآن وقد شاءت إرادة الله أن أكون سيد هذه المدينة .. فإننى أريدها لنفسى، ولأولئك الذين ساعدونى فى الحصول عليها ..

اعلموا أنكم جميعكم يا أهل بالنسية فى قبضتى، أصنع بكم ما أريد وما أراه نافعاً .. وبعد ما رأيت أنا وجنودى من الكثير منكم .. الكثير من الشماتة

والاستهزاء بعد أن قدم الجيش المرابطى لإنقاذكم، فلابد لنا أن نحاسبكم على ما أظهرتموه من كراهية وحقد، وازدراء لنا ..

لقد نصرنا الرب على جيوشكم رغم كثرتها فلم يغنها هذا، ولم ينفعها ما كانت قد دبرته وأعدته لنا من خطط ومكائد ..

أستطيع الآن أن أستولى على ما تملكونه، وعلى أشخاصكم وأولادكم ونسائكم، ولكنى لا أريد أن تجرى الأمور على هذا النحو، وإنما لخير الجميع أمرت أن يبقى الرجال الأشراف منكم، ممن أظهروا ولاءهم لى فى منازلهم مع أهاليهم، على ألا يملك أى واحد منهم أكثر من بغلة، ومن خادم، ولا يحمل أحد فى المدينة سلاحاً، ولا تحتفظون به فى بيوتكم إلا عند الضرورة .. وبإذن منى ..

أما البقية ممن لا يريدون أن ينصاعوا لأوامرى وأن يتعاونوا معى فعليهم أن يغادروا المدينة .؟ .. وسيعمل رجالى على إخراج المناوءون لنا بالقوة من المدينة ولهم أن يقيموا فى حى الكدية حيث كنت أعيش أنا من قبل ..

سأسمح لكم ببقاء مساجدكم، ولكم فقهاؤكم، وتعيشون وفق شريعتكم، ويحكم بينكم فى مشاكلكم قضاتكم الذين أختارهم لكم أنا .. ويُصَرف أموركم الوزير موسى .. ومن الآن كل الضرائب سأحصل عليها، وأنا الذى سوف يشرف على القانون ..

وسوف تكون للمدينة عُملة جديدة خاصة بى .. فمن يريد سيادتى فليبقى .. ومن كره ذلك فليرحل، ولكن بشخصه فقط دون أن يحمل معه شيئًا .. والباقون فى المدينة سوف أوفر لهم الأمان ..

وقبل أن ينهى خطابه لهم ألقى فى وجههم بما أذهلهم وغص حلوقهم وأخرصت ألسنتهم .. حيث قال:

لقد أنفقت على الحرب الكثير من المال .. ومات بعض رجالى وأصيب بعضهم .. ولهم فى عنقى دين لابد أن أوفيه .. ولكنى لست أنا المخطئ .. فلا يجوز أن أتحمل هذه النفقات .. وعليكم أن تدبروا هذه الأموال .. لذا فقد قررت أن يتم

جمع مبلغ سبعمائة ألف مثقال من كل أهل المدينة .. وأمهلكم حتى صلاة العشاء لتدبروا هذه الأموال كل على قدر طاقته .. فإن لم تدبروا هذه الأموال هلكتم، وأحلت السيوف عليكم.

وما أن أنهى .. السيد حديثه لرجال المدينة حتى ترك مكانه وغادر المكان.. وصعد مكانه بالمنصه الوزير موسى وقال لهم:

« .. يا رجال بالنسيه ... انتظروا لم ينته اللقاء بعد .. انتظروا .. »

ووجد رجال المدينة أنفسهم وقد أحيطوا بفرقة من العسكر، وتم ترحيلهم إلى ساحة مجاورة للسجن الملحق بالقصر فى بلا نوبه ..

ضج رجال المدينة من الطريقة التى عوملوا بها من العسكر، وتساءلوا عن سبب ترحيلهم إلى هذه الساحة المجاورة للقصر، ولا مجيب لهم .. ومضت نصف ساعة حتى أتى إليهم الوزير اليهودى فقال لهم:

اتفقوا فيما بينكم على كيفية جمع هذه الأموال .. وقيدوا أسماء كبار الأثرياء فى المدينة ممن منعتهم أحوالهم من الحضور .. المهم أن تدفعوا الأموال لتفتدوا أنفسكم .... فقال أحدهم مستنكراً.

ليس هذا ما عاهدنا عليه .. السيد .. عند توقيع اتفاق تسليم المدينة .... فقال له الوزير اليهودى:

كان ذلك وقت أن كان هناك ود وحب بينكم وبينه .. أما الآن فالوضع مختلف .... فقال له رجل آخر من أعيان المدينة:

وما ذنبنا نحن، أن تفوه بعض السفهاء ببعض الألفاظ التى استفزت .. السيد .. وجنوده .. هؤلاء قلة لا شأن لنا بهم .... فقال له الوزير موسى:

هذا قرار .. السيد .. وهو لا يتراجع عن قراراته .. فإنظروا كيف يمكن لكم أن تدبروا أمركم، وتفتدوا أنفسكم .. فالحياة أحق بأن تفتدى .. أليس كذلك ..

إلا أن رجال المدينة علا ضجيجهم، وأخذوا يضربون كفا بكف على هذا المأزق الكبير الذى وضعهم فيه .. السيد .. وظلوا يدورون حول أنفسهم، ويهمهمون بكلمات فيما بينهم .. وتركهم الوزير وذهب إلى السيد ليشاوره فى أمرهم ..

بعد نحو الساعة عاد الوزير يزف إليهم خبر موافقة السيد على تقليل المبلغ المطلوب من أهل بالنسية ليكون مائتى ألف مثقال بدلاً من سبعمائة ألف .. وطالبهم بالبقاء فى أماكنهم حتى يصلوا إلى حل لهذه الكارثة التى حلت بهم ..

حوصر رجال المدينة، ورحلوا إلى داخل السجن وتم القبض على بعض الأثرياء والأغنياء وكبار التجار وأصحاب المزارع والبساتين ممن لم يكونوا بالمكان وقت حديث .. السيد .. لرجال بالنسية، وامتلأ السجن بكبار رجال الدولة، زيادة فى النكاية والترهيب ..

وبعد مداولات، بينهم وبين بعضهم البعض بدأوا فى إعداد القوائم بالأسماء، وقيم الأموال التى يتوجب على كل منهم دفعها، وبدأ العسكر المدججون بالسلاح والعصى والكرابيج بالمرور على المتاجر، والدور، والمزارع لعدة أيام ليستخلصوا الأموال من الناس بالقوة، وبالضرب بالعصى والكرابيج لكل من يتأخر فى الدفع أو يدعى عدم قدرته على سداد الأموال التى قدرت عليه إلى أن يجد طريقة لسدادها أو يعينه أحدهم ويقرضه لدفع هذه الأموال ..

آهلكت هذه المحنة شعب بالنسية، ووجد الكثير من أهل المدينة ضرورة تركها على الحال التى وصلت إليها .. بينما قرر آخرون البقاء للحفاظ على أملاكهم، ومتاجرهم ومصالحهم مهما كان الثمن ..

عاد الشيخ مسعود القيسى، والد سالم من محبسه فى سجن بلا نوبه مريضاً منهكاً، حيث كان ضمن من تم جلبهم إلى السجن بالقوة حيث استقدمه الجند من الدار التى يقطن فيها بالمزرعة ..

واضطر الشيخ مسعود إلى دفع الكثير من المال الذى كان يدخره وذلك ليسدد نسبته المقررة عليه من أموال الفدية التى ستدفع لـ .. السيد .. وفق ما تم الاتفاق عليه فى السجن بين رجال المدينة لسداد الفدية المطلوبة ..

عانى الشيخ مسعود من رحيل ابنه إلى مرسية للاطمئنان على زوجته نائلة .. وبقى الشيخ وحده مع بدران وبعض رجال المزرعة والفلاحين لرعاية المزرعة، والبستان .. إلا أن الإنتاج قل مع اضطراب الأحوال فى ضاحية الريوسة التى يتواجد بها بستانه ومزارعه ..

كان معسكر الجيش المرابطى مقام بجوار الضاحية، وتعرضت محاصيل البستان والمزرعة للنهب والسرقة من الجند، حيث كانوا يتسللون إلى المزارع ليقطفوا الثمار ويعودوا بها إلى معسكرهم .. مما أدى إلى تلف الكثير من الأشجار وفقدان معظم المحاصيل، وأدى ذلك إلى تدنى دخل الشيخ مسعود إلى الربع مما كان يتحصل عليه من قبل ..

وازدادت حالة الشيخ مسعود المرضية سوءًا بعد أن عاد من الحبس.. حيث عانى من فقدان الرعاية الطبية له فتدهورت حالته الصحية، نظراً لكبر سنه .. كما أن نقص الطعام والشراب زادا من معاناته ..

حرصت بهجة على المكوث بجوار الشيخ تقدم له الرعاية والعناية .. بينما تولى بدران الإشراف على العمل بالبستان، وعاش الجميع يترقب الأحوال التى تمر بها المدينة .. مستشعرين القلق وقد بدأ الجند فى معسكر جيش المرابطين يعدون العدة للرحيل من معسكرهم ..

خشى القائد محمد بن تاشفين على قواته من أن يعاود .. السيد .. الإغارة عليها مرة أخرى فى معسكرها القريب من المدينة، فقرر الانسحاب بقواته إلى جنوب مدينة شاطبة .. ورفعت الخيام من المعسكر، ورحلت القوات بعد يوم واحد من واقعة الإغارة على المعسكر ..

خرجت من المعسكر قوات وفرق الدعم الأندلسية بعد أن وجدت أن القائد المرابطى ليس لديه ما يقوم به على الأقل خلال فترة قريبة .. فقررت الفرق الرحيل، والعودة إلى بلادها ..

فغادرت المعسكر فرقة إمارة البونت بقيادة الأمير نظام الدولة .. وفرقة لاردة بقيادة الأمير تأييد الدولة .. وفرقة طرطوشة بقيادة الأمير سيد الدولة .. وغيرها من الفرق الأخرى ..

وعاد عبيد الله، وابنه محمد على رأس الفرقة المتبقية من قوة الدعم لإمارة شنتمرية .. عاد عبيد الله واجماً سارحاً بفكره، وهو عائد بفرقته، وقد ملأت نفسه مشاعر الإحباط واليأس مما شاهده فى معسكر جيش المرابطين ..

.. كيف يمكن للمعركة أن تنتهى قبل أن تبدأ .. ؟ .. كيف يمكن لسلاحى أن يبقى فى غمده، لم يسحب منه، ولم يضرب سيفى فى نحور الأعداء .. ثم نوصم بعد ذلك بالهزيمة ..؟ إننا لم نخض حرباً، ولم نشرع سيفاً .. فكيف يمكن أن نُوصَم بالهزيمة وعارها .. ؟

حسبنا الله فى قادتنا .. حسبنا الله فى أمرائنا .. استحلوا الفسق، ورفلوا فى الراحة والترف، بينما شعوبهم تكدح، وتشقى من أجل لقمة العيش، ومن أجل أن تحيا بشرف وكرامة، وقد أسلمت زمام أمرها لهؤلاء العجزة، الفجرة .. فلم يكونوا يوماً أهلاً لهذه الثقة التى منحهم إياها شعبهم .. لقد آن الآون لكى يتغير كل شىء .. آن الأوان لأن نثأر لشرفنا من هؤلاء الظلمة .. قبل أن نثأر من أعدائنا فى ميدان القتال .. وحقاً .. إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .. .. هكذا دارت الأفكار فى خيال الوزير عبيد الله، وهو راكب على فرسه يعبر التلال المؤدية إلى بلاد إمارة شنتمرية الشرق ..

لم يجد جاسر، ورضوى أملا فى البقاء فى المدينة على أحوالها التى عليها الآن، وبعد أن التقيا بالشيخ أبو عبد الله مروان .. والد رضوى، وجدوه قد رضخ أخيراً لمطالبتهما الدائبة له بمغادرة المدينة ..

ولما كان الشيخ أبو عبد الله يعلل رفضه الخروج من المدينة بسبب ارتباطه بالعمل فى ورشته .. فإن أوامر .. السيد .. الجديدة بمنع حمل السلاح .. أو تخزينة بالبيوت، كانت سبباً لبوار العمل بالورشة التى تعتمد فى المقام الأول على صنع السلاح، وسبك المعادن ..

توافد الآلاف من الأهالى حاملين أمتعتهم ليغادروا المدينة .. فكتظت البوابات بالجماهير، وقد وقف جند السيد ليسلبوا من كل المغادرين أمتعتهم وأموالهم، طبقاً لأوامر .. السيد .. فعاد الكثيرون إلى ديارهم ليخبئوا ما لديهم من نفائس وأموال بينما تعرض كل من أصر على المضى والخروج من البوابات لمصادرة كل ما لديه ..

وعلى مدى أيام تراكم بجوار البوابات تلال من المتاع والأثاث والأسلاب والأموال .. استولى عليها .. السيد .. بعد أن نهبها من أهل المدينة المغادرين لها والرافضين البقاء فيها تحت سلطة .. السيد .. وطغيانه هو وجنوده ..

تأخر خروج رضوى من المدينة مع والديها لأسابيع لكى يستطيع أن يُهَرِب جاسر أموال ومصاغ العائلة فى عدة الصيد على مدى أيام، هو ورجاله .. وبعد ذلك قرر جاسر أن تغادر رضوى المدينة مع أهلها أولاً .. على أن يلحق بهم هو بعد ذلك بمدة، حيث توجهوا إلى مدينة شاطبة ليقيموا فيها ..

وقف جاسر يودع رضوى فقالت له بعينين دامعتين

ـ ها هو ذا القدر يفرق بيننا من جديد يا جاسر ... سكت جاسر للحظات وقد احتبست الكلمات فى حلقه ثم قال:

ـ هل فقدت الأمل فى الغد يا رضوى ..؟

ـ آه .. يا جاسر .. أنا لم ولن أفقد الأمل أبداً، ولكنى أتحسر على لحظات السعادة التى كنا سننعم بها ونحن نحتفل بـ ... ثم سكتت عن الكلام فقال لها:

ـ كنا سنحتفل بماذا يا رضوى ..؟ ... فتظل صامتة للحظات، وتدير وجهها لكى لا يرى دمعاتها المتساقطة من عينيها، فيدير وجهها بلطف نحوه .. ثم تقول:

ـ كنا سنحتفل بطفلنا الذى حملته منذ شهرين

ـ أحقا ما تقولين ..؟ لماذا لم تخبرينى

ـ لم أشأ أن أخبرك حتى أتـ

ـ حتى تتأكدى ... يا له من خبر سعيد .. ويا لها من لحظة فارقة مؤلمة ... وأمسك بيدها يقبلها، وهو يقول لها:

ـ لكل ليل نهاية .. وقد توكلنا على الله، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ... فتقول له:

ـ حسبنا الله ونعم الوكيل ..

فيحتضنها جاسر، ويوصى أبويها بحسن رعايتها والعناية بها .. ويتعاهد معهم على العودة للقائهم قريباً فى مدينة شاطبة ..

وبقى جاسر فى المدينة لكى يستطيع أن يُهرب الكثير من أموال ومصاغ بعض الأهالى والأقارب بنفس الطريقة فى عدة الصيد التى يخرج بها من المدينة هو ورجاله كل يوم .. ثم بدأ فى تنفيذ عملية تهريب السلاح وتخزينه فى أماكن سرية داخل المدينة ليستطيع أن يستخدمه مستقبلاً أذا اقتضت الضرورة ذلك ..

وبعد أسابيع رحل جاسر إلى مدينة شاطبة ليطمئن على زوجته ووالديها هناك، ومكث هناك عدة أيام، ثم عاد إلى بالنسية بطريقة طبيعية، ودون أن يلفت الأنظار، وذلك عن طريق رجال الصيد العاملين معه أثناء عودتهم من صيدهم من بحيرة المدينة وهم حاملين صيدهم لبيعه بالسوق .. حيث ينتظرهم قاسم الأخ الأصغر لجاسر والموجود بالمدينة ليسوق الأسماك كل يوم، كما هو متفق عليه من قبل بين قاسم وأخيه جاسر ..

وفى يوم الخميس فوجئ جاسر بصديقه سالم يبحث عنه بعد صلاة المغرب فى ساحة المسجد بحى الشريعة .. حيث تعانق الصديقان وقال جاسر:

- متى عدت إلى بالنسية يا سالم ..؟

- حضرت منذ يومين فقط، وقد ذهلت لما رأيت الكثير من أهلها قد غادروها، وقد درت حول دارك، ودار حماك، وورشته فعلمت أنكم قد غادرتم المدينة، وأتيت إلى هنا لعلى أجدك كما اتفقنا يوم الخميس من كل إسبوع

- وما الذى يجعلك تثق فى عودتى رغم رحيل أهلى من المدينة ..؟

- هو نفس السبب الذى يدعونى إلى العودة إلى هنا بالرغم من رحيل أهلى عن المدينة

- .. بالحق .. كيف حال نائلة، وابنك عبد الله ..؟

- الحمد لله بخير وعلى أحسن حال، وقد كبر عبد الله، وأصبح يتكلم ولا يكف عن اللعب والمشاغبة وإثارة الضجيج من حوله، فهو لا يهدأ أبداً ..

- أطال الله فى عمرك وعمره .. وماذا عن والدك الشيخ مسعود ..؟

ـ لقد تركته أمس فى المزرعة فى رعاية بهجة زوجة بدران .. وهو راقد فى الفراش، وقد شفى من المرض بعد المحنة التى تعرض لها هو وتجار وأعيان المدينة، على يد المجرم المدعو .. السيد ..

ـ قبح الله وجهه .. هل هناك من جديد نحو القاضى والشيخين أحمد البتى، والتاكرنى

ـ لا جديد حتى الآن .. ومازالوا محبوسين فى سجن القصر بضاحية بلا نوبه

ـ وما العمل إذن ..؟

ـ سوف أذهب إلى البستان فى الريوسة غداً لأكون بجوار والدى، ونلتقى كالعادة فى نفس المكان كل يوم خميس

ـ تصحبك السلامة، ووصل سلامى وتحياتى لوالدك العزيز

وتصافح الصديقان، وغادرا ساحة المسجد على وعد باللقاء فى نفس المكان بعد صلاة المغرب من كل خميس .. فإن غاب أحدهما انتظر الآخرإلى الخميس الذى يليه، وهكذا حتى يلتقيان من جديد ..

وما أن عاد سالم إلى ضاحية الريوسة حتى فوجئ بوفاة والده فى فراشه بسكون وهدوء متأثراً بالضعف والوهن مما لاقاه فى الفترة الماضية على يد رجال .. السيد ..

وسرعان ما أخبر بدران الصيادين التابعين لجاسر والموجودين بالبحيرة لكى يخبروه بنبأ وفاة والد سالم ..

فى مراسم متواضعة وفى حضور نفر كبير من أهل المزرعة والقرى المجاورة لها .. دفن جثمان الشيخ مسعود القيسى فى مقبرة أعدت له على عجل داخل المزرعة بالريوسة بعد أن صلى عليه سالم ومعه صديقه جاسر وبدران، وجميع الحاضرين من أهالى المزرعة والقرى القريبة ..

وبكى سالم بحرقة على والده، وأقسم أن يثأر له ولكل من عانى ظلم.. السيد.. وطغيانه ..

.. نعم هذا الطاغية الآثم هو السبب الأول لوفاة والدى ومعه الكثيرين من أهالى بالنسية ممن لم يتحملوا ممارساته هو وجنده طوال فترة الحصار وما أعقبها من ليال سوداء ما زالت تطل على الجميع بمخالبها تفترس وتحصد الضحايا فى كل يوم وليلة من ليالى بالنسية الحالكة .. "

دارت تلك الأفكار فى رأس سالم وهو شارد بعقله، بينما عيناه تتابعان حركة الناس وقد أهالوا التراب على جثمان أبيه ليغيب عن عينيه، وإن بقيت ذكراه فى قلبه ..

مضت أشهر كئيبة .. عانى فيها أهالى بالنسية معاناة شديدة .. وقلت الأرزاق وانتشر الفقر، واستولى الكثير من المعاهدين(المسيحيون واليهود) على بعض الدور المملوكة للمسلمين الذين غادروا المدينة .. حيث عمل الكثير منهم على كسب ود .. السيد .. وراحوا يطلعونه على أحوال الأهالى الموجودين بالمدينة، ويخبرونه عن أى نشاط مريب يقوم به أى شخص من أهل المدينة .. وتدهورت العلاقة بين الأهالى المسلمين، والأهالى المعاهدين بعد أن كانت على أفضل حال قبل قدوم .. السيد .. للمدينة ونشب الصراع بين الطرفين .. وتمخض ذلك عن سقوط القتلى بينهم بعمليات تتم ليلاً فى المناطق المظلمة بالمدينة أو فى الساعات المتأخرة من الليل ..

طلب الوزير اليهودى لقاء .. السيد .. على عجل لأمر هام .. وبعد نحو ساعة نزل رودريجو (السيد) إلى قاعة الإستقبال ليقابل الوزير، فبادره متسائلاً:

ـ لم طلبت لقائى بصورة عاجلة، وقد كنت سألقاك مساء اليوم كعادتنا كل يوم لمناقشة أحوال المدينة ..؟

ـ لقد جئتك بما يسرك يا سيدى

ـ وما الذى يسرنى يا وزيرى المبجل .... (قالها مستهزأ بالوزير اليهودى)

ـ لقد اعترف الخادم الخاص بالقاضى ابن جحاف على أماكن تواجد الكثير من المال والمجوهرات أسفل بلاطات حجرة النوم فى بيت القاضى ..

وهل بحثتم عنها ..؟

ـ نعم، وقد أحضرتها معى إلى هنا ..

ـ أرنى إياها فوراً

وبعد أن شاهدها .. السيد .. بعناية وجد مجموعة نادرة من المجوهرات، وأكياس من القماش بها آلاف من الدنانير الذهبية .. ثم نظر إلى الوزير وقال له:

ـ حسناً ما فعلت أيها الوزير اللعين .. احضر لى كبار رجال المدينة وأعيانها غداً فى هذا المكان عند الضحى، وأحرص على أن تأتى إلىَّ بكل من حضر استجوابى للقاضى من قبل

ـ سمعاً وطاعة يا سيدى ... وهم الوزير إلى الانصراف فقال له رودريجو:

ـ إسمع أيها الوزير

ـ نعم يا سيدى ..

ـ لقد حذرتك ألا تفتح مخبأ للجواهر والمال من دون أن أكون حاضراً ... ولم تراع تحذيرى لك .. واعلم أن هذه آخر مرة أقول لك فيها ذلك وأحذرك من فتح أى مخبأ إلا بوجودى .. وسوف يكون لى معك حساب إن وجد شىء معك تكون قد احتفظت به لنفسك .. هل فهمت .... فيرد الوزير وهو يرتعش:

ـ سمعاً وطاعة يا سيدى

ـ إذن اذهب وافعل ما أمرتك به

فى نحو العاشرة صباحاً حضر كبار القوم من قضاة وفقهاء وشيوخ، وأعيان، وكبار ملاك الأراضى الزراعية وجلس الجميع فى قاعة الاستقبالات بالقصر فى بلا نوبة .. ثم نزل إليهم .. السيد .. وحياهم ثم جلس على مقعده الوثير، وأمر الوزير بإحضار ابن جحاف ليمثل أمامه فى حضور كبار القوم .. ثم بادره بالسؤال قائلاً له:

ـ لقد أقسمت أمامى و أمام هؤلاء الرجال .. بأنه ليس لديك ما تحتفظ به من أموال ومجوهرات تخص الملك القتيل القادر .. أليس كذلك

ـ أنا لا أقسم إلا أمام الله تعالى .. وهو وحده الذى يستطيع أن يحاسبنى، ولا أحد سواه .... فتجاهل رودريجو رده ووجه كلامه لرجال المدينة

- ما رأيكم فيمن استأمنتوه على أنفسكم وأموالكم .؟. ثم اتضح لكم أنه كان يستولى على أموال الشعب، ويحتفظ بها فى داره ..؟ ... فصمت الجميع ولم ينطق أى منهم ببنت شفة، فتابع قوله:

- ليس هذا فقط .. بل كان يحتفظ بهذه الأموال والجواهر تحت بلاط الأرض فى غرفة نومه .. انظروا ....

ثم طرح أمامهم ما عثر عليه من أموال وجواهر، فشهق الكثير منهم إعجاباً بما تم العثور عليه، فقال لهم:

- ها قد ثبتت لكم خيانته .. ها قد ثبت لكم أنه لص سارق .. ما قتل الملك إلا لكى يستولى على أمواله، وليس كما ادعى أمامكم لكى يحرر البلاد من الطغيان والفساد ... إنما هو رمز لهذا الطغيان والفساد ... ثم قام من مقعده وسألهم وهو يصيح فيهم وقد انتفخت أوداجه، واحمر وجهه، وتصبب العرق من جبينه فقال:

- ماذا تحكمون على القاتل الذى يقتل مولاه لكى يسلبه ماله ... ثم ينظر إلى القاضى أبو الوليد الوقشى، فينظر القاضى إلى الأرض ويتحاشى النظر فى وجه .. السيد .. فيقول رودريجو:

- إن من يخن مولاه فى عرفنا جزاؤه الحرق .... فيهمهم الرجال بكلمات غير مفهومة فيتابع رودريجو:

- نعم فسوف تصادر كل أملاك هذا اللص،وسوف يقتل هو وكل تابعيه

ثم نهض من مجلسه وترك القاعة بمن فيها وقد بهتوا لما قرره غير مصدقين أنه يمكن أن يحرق الرجل الأول فى المدينة، والذى أجْبِرَ يوماً على التوقيع معه على وثيقة التسليم بشرط الأمان فى النفس والمال ..

لم يكتف .. السيد .. بما فعله بأهل المدينة، ومن تنصله من العهود التى قطعها على نفسه أمام رجال جماعة الحكم .. فسرعان ما استقدم مُطرانا إلى المدينة .. ولم يجد كاتدرائية مناسبة لإقامة قداس الأحد كما يحدث فى الممالك الإسبانية الكبيرة .. ولأن طموحاته لا تقف عند حد، فقد قرر الاستيلاء على

أحد المساجد فى الحى القديم ليقيم كنيسة كبيرة ليعقد بها قداس الأحد برعاية المطران الكاثوليكى دون خرونيمو ..

كما أوقف .. السيد .. الصلاة بالمسجد الجامع فى الحى الجديد لأسباب مجهولة رغم معارضة إمام المسجد الشيخ ابن المعلم لهذا القرار، واحتج عليه، ومعه الكثير من الناس، ولكن .. السيد لم يأبه لهم ، واستمر فى منعه للناس من الصلاة فى الجامع ..

وبعد أسابيع قرر الشيخ أبو بكر حمدون (ابن المعلم) أن يكون مسجد رحبة القاضى هو المسجد البديل الذى يأم الناس فيه للصلاة، وسط ترحيب أهالى الحى القديم بذلك ..

تم إغلاق كل الطرق المؤدية إلى الساحة الكبرى أمام المسجد الجامع فى الحى الجديد بالمتاريس، ووقف عليها جنود .. السيد .. ليمنعوا الناس من الوصول إليها .. وقام العمال على مدى أسبوع بحفر حفرة كبيرة فى منتصف الميدان، وأحيطت الحفرة، بكميات كبيرة من الحطب جلبت من الجبال القريبة من المدينة، وتم غرس عامود خشبى كبير من خشب أشجار الصنوبر العملاقة فى منتصف الحفرة وتم تثبيته بقعر الحفرة بعد الردم عليه بالتراب والحجارة إلى أن أصبح عمق الحفرة متران من سطح الأرض فى وسط ساحة الميدان الكبير ..

تحت لهيب الشمس الحارقة من شهر مايو ١٠٩٥ميلادية (٤٨٨ هجرية) تجمع الناس فى الميدان الكبير، ووقفوا تحت المظلات الكبيرة التى أعدت لهم، وذلك ليقدم لهم .. السيد .. هدايا قَيِّمَة كما قال المنادى الذى سار بشوارع المدينة يدعوهم للمجئ إلى الساحة الكبرى أمام المسجد الجامع ..

وقف الناس بالميدان فى صفوف متراصة، وقد أخذهم الفضول للحضور إلى الساحة ليروا ماذا يقدمه .. السيد .. لهم .. ومرت ساعتان، وحضر .. السيد .. بعد صلاة الظهر، وجلس فى منصة أعدت له ولكبار رجال المدينة، وعلى رأسهم القاضى أبو الوليد الوقشى، وابن عبدوس، والوزير موسى، وكبار القادة فى جيش رودريجو وعلى رأسهم ألبير هانيس، وبدرو برمودث ..

فوجئ الناس بعربتين تجرهما البغال تقفان بالساحة، حيث نزل من الأولى القاضى ابن جحاف وقد قيدت يداه بحبل .. وقام رجال رودريجو (السيد) الأشداء بجذب القاضى من الحبل تجاه الحفرة الموجودة بمنتصف الميدان ..

وأنزل القاضى فى الحفرة، وبدأ الرجلان يهيلان الرمال والحجارة على قدمى القاضى بعد أن ربطا جسده من خصره فى العامود الخشبى الذى توسط الحفرة..

واستمر الرجلان فى عملية الردم لمدة نصف ساعة حيث تساوى خصر القاضى بمستوى أرض ساحة الميدان، وأصبح جسده من منطقة الخصر حتى قدميه مردوم عليها بالرمال والحجارة ..

وقف .. السيد يخطب فى الناس .. وقال ما جزاء من يسرق وَلِيُه، ويقتله فى شريعتكم يا أهل بالنسية ..؟ .. ... فعم السكون بالمكان، ولم ينطق أحد من الحاضرين بحرف واحد ... ثم تابع رودريجو حديثه فقال « .. نحن فى شريعتنا نحرق من يفعل ذلك .. وهذا هو الجزاء الذى سيلقاه اللص ابن جحاف» ثم جلس رودريجو على كرسيه الذى يتوسط المنصة، وأعطى الإشارة للجلاد الموجود بالساحة .. بينما شَكَل الجند التابعون لـ رودريجو (السيد) كردوناً مربعاً ووقفوا حول مكان الحفرة بمسافة تبعد نحو خمسة عشر متراً من مكان الحطب .. بينما كان الحطب يحيط بمكان الحفرة وعلى مسافة نحو مترين منها ..

تقدم الجلاد وأشعل شعلته الكبيرة الملطخة بالقطران من الموقد الصغير الموجود بالمكان، فتوهجت الشعلة فجأة بكرة من اللهب اللافح .. صاح على أثر ذلك الكثير من الرجال، وهمهم آخرون، وسُمعت أصوات التكبير خافتة متعددة من هنا وهناك ..

فى هذه الأثناء عَلم جاسر بما يدبره .. السيد .. ضد القاضى فقرر مقاتلة جند .. السيد .. فى ساحة الميدان وحده دون معاونة من أحد مهما كان الثمن، وخرج من منزل عمة رضوى زوجته بعد أن اتخذه مقراً له .. متوجهاً إلى الساحة وهو شاهر سيفه ..

وصل سالم إلى مكان البيت الذى يقطنه جاسر، وعثر عليه وهو خارج للتو للذهاب إلى الساحة الكبرى فقال له سالم:

- جاسر .. الحمد لله إنى قد عثرت عليك .. فلقد بحثت عنك لكى ألقاك لنذهب إلى الساحة الكبرى .... ثم نظر إلى يده وقد حمل جاسر سيفاً فقال له سالم:

- ما هذا يا جاسر هل جننت ..؟

- ألا تعلم ما سيفعلوه بالقاضى هؤلاء الأنجاس الكفرة ..؟

- وماذا بيدك كى تمنعهم ..؟

- سوف أقاتلهم مهما كان الثمن (يقولها وهو مندفع إلى مكان الساحة) .... فيوقفه سالم وقد أحاطه بذراعيه وقال له:

- أستحلفك بالله .. أستحلفك بالله يا جاسر توقف لنتكلم ... فيقول له جاسر:

- وهل تركوا لنا عقلا لنفكر به ... فيقول له سالم:

- لا تدعهم يوقعوك فى الفخ، وينالوا منك فى الساحة، وقد فشلوا من قبل أن يوقفوك أنت ومن معنا من رجال جند الله ... فلنختار نحن الوقت والمكان الذى ننتقم منهم فيه وليس هكذا تفقد عقلك ورشدك فى لحظة ... فيهدأ جاسر للحظات ويقول لـ سالم:

- وهل نترك القاضى ليحرقوه ..؟

- لا يكلف الله نفساً إلا وسعها .. فليكن قتالك لهم قتال المناضلين الشجعان، ولا تنس أنهم قد قتلوا أبى بتعذيبهم له .. فأنا لى ثأر معهم .. فلنتدبر أمرنا ولنعد الكرة عليهم، ولا نزال نقاتلهم حتى نخرجهم من ديارنا ونطهرها منهم ..

فيهدأ جاسر وتخور قواه، ويأخذ سالم منه السيف، ويعيداه معاً إلى المخبأ بالدار، ويسرعا إلى الساحة ليشاهدا ما يجرى فيها ..

رفع الجلاد يده الحاملة للشعلة من اثر اللهب اللافح وقد لسع لهيبها وجهه، ومضى إلى الحطب المحيط بالحفرة وأخذ يشعل أجزاء منه فى كل جانب، ثم يعود ليلتف من جديد ليشعل أجزاء أخرى منه .. مرات ومرات ..

وسرعان ما تصاعدت ألسنة اللهب بشدة وراحت الصرخات تدوى بالمكان وقد آختلطت بالتكبيرات الهادرة من حناجر الرجال بينما النيران المتقدة من الحطب تثير أصوات فرقعة وطقطقة عالية من أثر اشتعال الحطب وتكسر أغصانه الغليظة المتوهجة ..

لم يتمالك القاضى ابن جحاف نفسه أمام ألسنة النيران بمزيجها البرتقالى والأزرق المتوهجه والمتصاعدة من خلال الأبخرة السوداء للحطب المشتعل .. فأخذ يصيح الله أكبر .. الله أكبر، ولما تناثرت أعواد من الحطب المشتعل بالقرب منه أمسك ببعضها بكلتا يديه المقيدتان أمامه وراح يجذبها نحوه، وهو يقول بسم الله .. بسم الله

تراجع الناس للخلف، وقد بلغ اللهب عنان السماء، وراحت النيران تقذف بشظاياها لمسافة بعيدة .. وعلا صوت اللهب المتصاعد بازيز وزئير وشهيق ابتلع معه كل الأصوات، وأولها صوت القاضى الشهيد ..

وما أن خفتت النيران بعد أن أطفأها رجال .. السيد .. حتى اقتيد الشيخ التاكرنى، والشيخ أحمد البتى الشاعر والأديب الكبير .. وهما من أتباع القاضى، حيث أنزلوا من العربة الأولى المغطاة، التى كان بها القاضى الشهيد، وتم دفعهم إلى موقع الحفرة .. وتكرر مشهد الإحراق .. فحُرقت الأجساد، واشتعلت القلوب ألماً وحزناً مما يلقاه رجال المدينة من الطاغية المتكبر رودريجو ..

ثم عاد رجال .. السيد .. ليطفئوا النيران مرة اخرى، وفى هذه المرة أنزلوا من العربة الثانية المغطاه .. أهل القاضى ابن جحاف من النساء والأطفال والرجال ..

ووسط صرخات النساء وثورة الرجال من الجماهير المحتشدة بالميدان الكبير وهياجها .. اضطر .. السيد .. أن يترك النساء والأطفال ويخرجهم من الحفرة المعدة للحرق، ولكنه أصر على حرق الرجال وعلى رأسهم ابن القاضى ورجال آل الحديدى ..

وتكرر مشهد الإحراق للمرة الثالثة على التوالى أمام الجماهير المحتشدة التى صمتت وسكنت حناجرها بعد أن أعياها الألم والتعب، وأنهكها الظلم المتجسد أمامهم وهم يشاهدون رجال المدينة الأقوياء يساقون إلى النيران بلا رحمة أو شفقة ..

وما أن انتهى مشهد الإحراق حتيانطلقت الحناجر بالتكبير فى صوت واحد .. بكلمات الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر .. وكأنها تردد دعاء الاعياد، وهى تبتهل إلى الله عز وجل ..

ثم راحت النساء تزغردن، وكأنهن قد شهدن لتوهن عرسا سماويا لشهداء الحق من رجال بالنسية ..

ومع غروب الشمس غربت أجساد شهداء المدينة .. وبقى نور ذكراهم يضئ القلوب .. ولم يرهب الأهالى ما شاهدوه من حقد وغل وتكبر .. بل أدرك حكماء المدينة أن نهاية الظلم والظالم .. قد أضحت قريبة ..

تحت القمم الثلجية لجبال أغمات .. وبسجنه بالصحراء المغربية.. غَرُبَت شمس ملك أشبيلية المقهور.. وأفُل نجمه بعد حياة حافلة بالأحداث والصراعات.. عاشت فيها مملكة أشبيلية فى ظل حكمه الممتد من سنة ١٠٦٩حتى ١٠٩١ ميلادية أزهى عصورها قوة وعظمة.. وشهد بلاطها أبهى ليالى الأدب والثقافة والفن ..

رحل الملك .. المعتمد .. محمد بن عباد ولم يبلغ السابعة والخمسين من عمره بعد مدة قصيرة من وفاة زوجته إعتماد الرميكية .. فقد خارت قواها ولم تستطع الصمود فى وجه الظروف الصعبة التى وجدت نفسها تعيشها فى بلاد الصحراء الغريبة عنها ..

وراحت تعبر بأصدق الكلمات لما تعانيه فقالت لزوجها تحدثه وهى فى الأسر.. لقد أهِنا هنا فى أسرِنا .. بعد أن ذهب مجدنا وجاهنا .. فلم يجد المعتمد ما يعبر به عن كلماتها فقال

قالت لقد هُنَّا هنا   مولاى أين جاهنا ..؟

قلت لها إلـهنا   .. صيرنا هـنا .. !

ولم تعد قادرة على تحمل محنة الحياة التى تعيشها، فذوت نضارتها بسرعة واشتد عليها المرض حتى توفيت فى نهاية الأمر ..

هكذا اختتم المعتمد حياته الباهرة، وهو غارق فى محنته تحيطه ظلمات العدم ورحل المعتمد بعدها وقد أوصى أن تكتب أبيات من الشعر صاغها بنفسه لتوضع على قبره بعد وفاته قال فيها:

قبر الغريب سقاك الرائح الغادى ... حقاً ظفرت بأشلاء إبن عباد
بالحلم بالعلم بالنعمى إذا إتصلت ... بالخصب إن أجدبوا بالرى للصادى
بالطاعن الضارب الرامى إذا إقتتلوا ... بالموت أحمر بالضرغامة العادى
بالدهر فى نقم البحر فى نعم ... بالبدر فى ظلم بالصدر فى النادى
نعم هو الحق حابانى به قدر ... من السماء فوافانى لميعاد ولم إن
ولم أكن قبل ذاك النعش أعلمه ... الجبال تهادى فوق أعواد كفاك
كفاك فأرفق بما أستودعت من كرم ... رواك كل قطوب البرق رعاد

بعد تكفينه والصلاة عليه من نفر قليل من أهالى القرية الصغيرة المهملة .. وورى الجسد النحيل فى الثرى بجوار قبر زوجته .. داخل لحد من الأرض ضيق، ولم يكن بالدنيا العريضة على رحابتها واتساعها راضيا .. وأحيط القبران بجدران متوسطة الارتفاع مبنية من الحجارة المجلوبة من الجبل القريب، وقد تناثرت هنا وهناك غراس أشجارالتين والزيتون ..

اشتدت محنة الأمير عبد الجبار ابن الملك المعتمد بعد أن علم بموت أبيه، بينما كان الأمير يقاتل جيش المرابطين المحاصر له فى قلعته بمدينة أركش، بأرض الجزيرة الخضراء جنوب الأندلس، حيث اتخذها مقراً لثورته ضد المرابطين ..

وبينما الأمير يقاتل المرابطين فى إحدى المعارك أصيب بطعنة رمح قاتلة، فحمل على أكتاف جنده من أرض المعركة وتم إسعافه من الجرح القاتل، ولكنه ظل ملازما للفراش مدة طويلة حتى فارق الحياة وهو حبيس جدران القلعة محاصر من جيش المرابطين ..

وتكتم رجال الأمير خبر وفاته، وتم دفنه سراً، وظل كبار قادة الثورة يقاتلون باسم الأمير حتى لا تخفت نيران التمرد والثورة ..

واستطاع المرابطون أن يشددوا الحصار، ويقتحموا أكثر من موقع وحصن تابع لقيادة التمرد، حتى تمكنوا فى النهاية من اقتحام المدينة والدخول إلى الحصن .. وتم القضاء على التمرد، وأخرجت جثة الأمير عبد الجبار من القبر وعلقت ومعها جثث قادة التمرد والثورة الذين تم قتلهم أثناء اقتحام المدينة على الصوارى فى شوارع أشبيلية ليكونوا عبرة لمن يفكر فى الثورة والتمرد على حكم المرابطين..

وحاصر الأمير سير بن أبى بكر مدينة بطليوس، وطالب الملك عمر المتوكل بالاستسلام حتى يأمن على نفسه وماله وأهله .. إلا أن الملك لم يرض بذلك وظل يقاتل المرابطين حتى الرمق الأخير ..

لم يعد آهالى بطليوس يطيقون استمرار ملكهم فى الحكم بعد أن ثبت لهم أنه قد أسلم بلدات شنترة، وشنترين، وأشبونة إلى الملك الأسبانى الفونسو لكى يتحالف معه لحمايته إذا ما هاجم المرابطون بلاده .. وتلك البلدات التى تنازل عنها الملك عمر هى من كبيرات المدن بالمملكة وتقع على الحدود الشمالية لها، وتشكل حائطا دفاعيا كبيرا لصد جيوش الأسبان الطامعة فى طرد المسلمين من كل الأندلس ..

وقرر أهالى البلاد معاونة جيش أمير المسلمين فى دخول المدينة .. وفى إحدى المعارك وبمساعدة أهالى مدينة بطليوس .. تمكن القائد سير بن أبى بكر من اقتحام الأسوار، والدخول إلى قلب المدينة، وأحكم سيطرته عليها، ولاذ الملك بالقصبة الضخمة (حصنه المنيع) المشيدة داخل قصره المحاط بالأسوار العالية داخل المدينة نفسها وقاوم الجيش المرابطى بضراوة إلى أن تمكنت القوات المرابطية فى النهاية من اقتحام القصر والقصبة، والقبض على الملك وابنيه الأميرين الفضل والعباس، وتم وضعهم فى السجن ..

ولعدة أيام تم استجواب الملك لكى يدلى بمعلومات عن أماكن ثروته ومقتنياته .. وتعرض للضرب والتعذيب والإذلال حتى أخبر قادة المرابطين عن كل الأماكن التى يخبئ فيها أمواله وذخائره ..

بعد أن تم استصفاء ماله وذخائره تم ترحيل الملك لديه إلى مقر القيادة فى الأندلس بمدينة أشبيلية .. وفى الطريق تم إنزالهم من العربة للراحة والمبيت حتى صباح اليوم التالى، وتم فصل الملك عن ولديه ..

وخلال دقائق سَمِع الملك شهيقا وصياحا مكتوما بصوت ولديه الأميرين الفضل والعباس فعلم بمصيرهما .. وطلب الصلاة عليهما قبل دفنهما، وسمح له بذلك .. وما هى إلا دقائق حتى لحق بهما الملك ذبيحاً فى منطقة الوادى المؤدى إلى بلاد أشبيلية ..

وهكذا سقطت مملكة بطليوس بعد أن عاشت فى ظل بنى الأفطس خمسة وسبعين عاماً، .. وتم للمرابطين فتح غربى الأندلس كله، كما تمكنوا من قبل فتح معظم بلاد شرق الأندلس حتى التخوم الجنوبية لمملكة بالنسية ..

وعاشت شعوب غرب الأندلس محنة جديدة بذهاب مملكة بطليوس ورحيل مُلك بنو الأفطس .. وعادت ذكريات مأساة بنو عباد بشجونها وآلامها .. ونظم الشعراء فى رثائهم ورثاء دولة بنو الأفطس وأيامهم أعظم القصائد وكانت اجملها وأبدعها للشاعر المبدع عبد المجيد بن عبدون بمرثيته الشهيرة التى قال فى مطلعها

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور

أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة ... عن نومة بين ناب الليث والظفر

ومنها أيضاً :

فلا تغرنك من دنياك نومتها ... فما صناعة عينها سوى السهر

ما لليالى اقال الله عثرتنا ... عن الليالى وخانتها يد العبر

فى كل حين لها فى كل جارحةٍ ... منا جراح وإن زاغت عن النظر

تسر بالشىء، ولكن كى تغريه ... كالأيم ثار إلى الجانى من الزهر

كم دولة وليت بالنصر خدمتها ... لم تبق منها رسل ذكراك من خبر

ومنها فى رثاء بنى الأفطس:

أين الجلال الذى غضت مهابته ... قلوبنا وعيون الأنجم الزهـر

أبن الإباء الذين أرسـوا قواعده ... على دعائم من عز ومن ظفر

وبعد الاستيلاء على بطليوس، واصل المرابطون حملتهم لاسترداد المدن التى تنازل عنها الملك المتوكل .. فسار الجيش إلى ثغر أشبونة، وكانت تحتلة حامية قشتالية تابعة للملك الفونسو بقيادة الكونت ريمون الريجونى (صهر الفونسو) ..

واقتحمت القوات المرابطية المدينة، وقتلت وأسرت معظم من كان بها من الحامية القشتالية، ومن بعده أعيدت مدينة شنترين، ومدينة شنترة جميعها إلى حظيرة المملكة الإسلامية ..

وانتهى عصر ممالك غرب الأندلس أشبيلية، وبطليوس .. وعبر الشاعر ابن الحاج اللورقى عن سقوط هذه الممالك وأفول نجمها بأبيات قال فيها:

كـم بالمغارب من أشلاء مختـرم ... وعاثر الجد مصبور على الهون

أبنــاء معـن، وعـباد، ومـسلمة ... والحميريين باديس، وذى النون

راحوا لهم فى هضاب العز أبنيةً ... واصبحوا بين مقهور، ومسجون[1]

طغت على رودريجو مشاعر الفرحة والسعادة وقد أصبح السيد المطلق فى كل مملكة بالنسية بكل ولاياتها ..

وسرعان ما أرسل الكثير من الأموال والهدايا من الخيل والدروع والسيوف إلى الملك الفونسو وقد حملها معه ألبير هانيس ومجموعة من رفاقه .. حيث استقبلهم الفونسو أفضل استقبال، ودعاهم إلى حفل عشاء يقام على شرفهم ..

وفى أجواء احتفالية أقام الملك الفونسو مأدبة عشاء على شرف ألبير هانيس ورفاقه مندوبو رودريجو .. وجلس على المائدة الكبرى ضمن الضيوف المدعويين

١ـ من كتاب «الحلة السيراء» ج٢صفحة١٠١، ١٠٢ أبيات للشاعر المعاصر لعصر دول الطوائف أبو الحسن جعفر بن إبراهيم والمعروف باسم ابن الحاج اللورقى،

.. دييجو الابن الأكبر لروردريجو، والملتحق ببلاط الملك الفونسو لتهيئته كأحد الفرسان المقربين من حاشية الملك ..

وانتهز الكونت جنثالو أنسوريث المقرب من الملك .. كونت مقاطعة كاريون القشتالية الفرصة، ليطلب من الملك راعى البلاد .. أن يبارك طلب ابنيه فرناندو، ودييجو فى الاقتران بابنتى رودريجو دونيا ألبيرة، ودونيا سول ..

افتتح الملك المأدبة بكلمة ألقاها إلى ألبير هانيس ورفاقه فقال:

.. أشكر الرب الخالق، والقديس سان إسبدرو، على هدية رودريجو إلىّ، وهى المائتى جواد، وفاخر الثياب والهدايا ..

وإننى أتوقع منه أن يقدم للملكة العديد من الخدمات فى المستقبل ..

ثم نظر الملك إلى ألبير هانيس ورفاقه فقال:

.. أما أنت يا ألبير، ويا بدرو برمودث، وقد جئتم إلى هنا .. آمر بأن تقدم لكم كسوة من غالى الثياب، وبوسعكم أن تأخذوا ما تحتاجونه من سلاح، .. كما تنازلت لكم عن ثلاثة من الخيول، فخذوها من هنا ..

إننى لدىّ إحساس بداخلى وفى أعماقى صوت يصيح .. كل هذه الأحداث سوف تنتهى إلى غاية سعيدة ..

وفى اليوم التالى دعى الملك الفونسو كل من ألبير هانيس، وبدرو برمودث للقائه حيث قال لهما:

ـ اسمعنى ياألبير، وأنت يا بدرو .. لقد خدمنى القنبيطور بإخلاص، وهو أهل للتقدير ...، وقد عفوت عنه من قبل .. والآن فإننى أدعوه للقائى .. حيث جد جديد فى البلاط، فقد طلب منى الكونت فرنادو، والكونت دييجو إبنى الكونت جنثالو أنسوريث أن يتزوجا من ابنتى القنبيطور .. وطلبا منى أن أكون راعياً لهذا الزواج .. وقد قبلت ذلك .. فتحدثا إلى القنبيطور .. فإذا رأى أن فى نسبه بالكونتين أميرى كاريون ما يشرفه فإن ذلك يسعدنى كثيراً .... فقال ألبير:

ـ سوف نرجوه بما طلبتم يا مولاى

إذن فقولا له إننى مستعد للقائه فى المكان الذى يريده .. فإذا ما اختار المكان سوف نرفع له الأعلام، ونخطط له الحدود .. وسوف يسعدنى أن أمد يد العون إلى القنبيطور ..

عاد ألبير والوفد المرافق له إلى بالنسية بعد أن قضوا وقتاً طيباً فى قشتالة لقوا فيه كل الترحيب من الملك الفونسو طوال فترة إقامتهم، وذلك ليبلغوا القنبيطور بما تم فى هذه الزيارة السارة ..

استمع .. السيد .. بعناية لحديث ألبير ورفاقه عن رحلتهم إلى قشتالة لمقابلة الملك الفونسو وتقديم الهدايا له .. وأخذ يسألهم عن كيفية استقبال الملك لهم .. وعن وقع هداياه على الملك الفونسو .. وهل تركوه سعيداً وهم عائدين إلى بالنسية ..؟

واستمر الحديث دائراً بينهم لساعات طويلة ثم سأل .. السيد .. ألبير فقال له:

ـ أحمد الرب على رضاء الملك عنى .. وها هو يتقدم كراع للزواج من ابنتى لأميرى كاريون .. ولكن قل لى يا ألبير .. ما رأيك أنت وبدرو فى هذا الزواج ..؟ ... فقالا له:

ـ ما تراه أنت ويسعدك، نراه نحن ونسعد به

ـ حسناً إن أميرى كاريون نبيلان، ولدا من أصل نبيل .. وهما مزهوان بنفسيهما .. وهما كذلك من كبراء حاشية الملك .. وما ينصح به الملك فهو واجب النفاذ .. وعلى كل حال ندعو إله السماء أن يوفقنا إلى ما هو خير وحق ..

ـ إذن ما موعد ومكان اللقاء الذى تختاره يا سيدى

ـ ليكن على ضفاف نهر التاجو بطليطلة .. فهذا المكان .. وهذه البلدة أعشقهما كثيراً .. وهما خالدان كخلود النهر فى هذه البقعة الجميلة .. ابعث برسالة إلى الملك بذلك، وسوف نلقاه فور الرد علينا

ـ سمعاً وطاعة يا سيدى القنبيطور

اجتمع رودريجو فى قصره مع كبار رجاله بعد أن وصله رد الملك الفونسو على رسالته، وقد حدد فيها موعد اللقاء بعد ثلاثة أسابيع على ضفاف نهر التاجو فى منطقة الكورة حيث الأراضى المنبسطة الفسيحة، بتلاله وروابيه الخضراء المجاورة لأسوار مدينة طليطلة ..

أراد .. السيد .. أن يسير بقافلة عظيمة إلى طليطلة .. بحيث يدل موكبه على مكانته التى بلغها، ولكى يرى جميع أكابر الممالك الأسبانية ما وصل إليه من سؤدد وعظمة .. تضاهى عظمة ومكانة الملوك المتوجين .

أخبر .. السيد .. رجاله بأنه قرر أن يُبقى فى بالنسيه البار سلفادوريث كنائب عنه أثناء غيابه، ويساعده جاليندو الأرجونى، وقرر أن يرافقه فى رحلته باقى القادة وهم ابن أخيه ألبير هانيس، وبدرو برموديث ابن أخيه الثانى وحامل العلم .. والمطران دون خرونيمو والكونت مارتن أنتولينييث الحاكم السابق لقلعة مونت ميور، والمنضم حديثاً لجيش .. السيد .. كتابع ومخلص له ..

وتحدث رودريجو إلى ألبار سلفادوريث الذى سيكون حاكماً لبالنسية أثناء غيابه وطالبه بأن تبقى زوجته وابنتاه داخل القصر لا يغادرنه لأى سبب من الأسباب طوال فترة غيابه عن بالنسية ..

وترك له كل قواته المترجلة، وأكثر من نصف قوة الفرسان .. بينما غادر المدينة ومعه قوة كبيرة من الفرسان القشتاليين فقط ممن جاءوا معه من المنفى إلى بالنسية لتكون الرحلة فرصة لهم للقاء عائلاتهم ..

وفى قشتاله بعث الملك الفونسو يدعو كبار رجال دولته فى مختلف الولايات ليحضروا إلى طليطلة قبل الموعد المتفق عليه بثلاثة أيام ليكونوا إلى جواره كرعايا طائعين من حاشيته الكبيرة ..

وفى نفس الوقت أمر الملك بإقامة سرادق عملاق يتسع لجمع كبير من رجال الدولة من مختلف الأنحاء من كونتات، وقادة، وفرسان، ورجال الدين من القساوسة والرهبان ..

تحرك الموكب الكبير لـ .. السيد .. حيث سار على مقدمة القافلة ومن حوله كبار القادة المرافقين له، ومن خلفهم سارت فرق الفرسان المحاربين، ومن خلفهم مئات من البغال المحملة.. منها ما يحمل المتاع ومنها ما يحمل الشراب والطعام، ومنها ما يحمل الهدايا من الثياب والحرائر الفاخرة .. ومنها ما يحمل كل ما يحتاجه موكب السيد ذهاباً وعودة .. دون الحاجة إلى التوقف للتبضع والتزود بالطعام أو الشراب .. وسارت فرقة من الفرسان فى الخلف للحراسة ..

وصل الملك إلى طليطلة قبل موعد اللقاء بيوم واحد بينما سبقه بيومين فى الوصول إلى المدينة كبار رجال الحاشية .. وفى اليوم التالى عادت مجموعة الاستطلاع من فرسان المملكة لتنبئ الملك بوصول قافلة القنبيطور ..

فتحرك الملك بحاشيته إلى حيث السرادق المقام فى أرض الوادى .. حيث أحيط السرادق بفرق الفرسان من الحرس الملكى للمملكة الأسبانية .. حيث اصطف فصيل من ثلاثين فارسا على يمين السرادق .. وآخر بنفس العدد على يسار السرادق، ووقفت الخيل المسرجة تختال بنفسها، وهى تحرك وتهُز رءوسها يميناً ويساراً ..

ومن فوقها انتصبت قامة الفرسان بسترات التشريفة الحمراء الموشاة بالحلية المذهبة، وياقات كحلية اللون وقد حمل الحرس السيوف والخوذات المذهبة والمحلاة بالنقوش المحفورة بدقة ومهارة ..

ورفعت أعلام المملكة الأسبانية فوق السرادق .. بينما أحيط مدخل السرادق بحرس الشرف على يمين المدخل ويساره وقد وضع رجاله أيديهم اليسرى على مقابض السيوف، ومدت اليمنى بمحاذاة الساق .. وقد ارتدوا بزة حمراء وسراويل سوداء بخطين حمراوين على امتداد جانبى كل سروال .. وعلى رءوسهم قبعات من الجوخ الأسود ..

جلس الفونسو فى المنصة المعدة له ومن حوله كبار رجال البلاط يتسامرون فى انتظار وصول القنبيطور .. فتراءت لهم طلائع موكب القنبيطور تظهر من بعيد على خط الأفق، وهى تعتلى الروابى الخضراء بالخيل القوية، وقد لمعت البيارق الملونة بعرض الأفق فى صفوف متراصة على اليمين واليسار بيارق عليها

شعارات فرق الفرسان، وفى المنتصف علم كبير يحمل شعار جيش القنبيطور نسجت رسومه بخيوط من الذهب والفضة، وزينت أطرافه بأطر وخطوط بالألوان الزرقاء والبيضاء والحمراء ..

ومن خلف صفوف حاملى الأعلام والبيارق تقدم .. السيد .. فى منتصف قوة الفرسان الأمامية وعن يمينه ويساره كبار قادة جيشه بكامل زيهم الحربى وقد وضعوا على صدورهم الأنواط والنياشين التى منحت لهم فى حروبهم التى انتصروا فيها وتدلت من خلفهم العباءات الملونة من الحرير الأسكندرانى النفيس .. بينما وضعت الدروع على مؤخرة خيولهم، وتدلت سيوفهم من خصورهم ..

واقترب الموكب .. فرقة يتلوها فرقة من بعدها فرقة .. فى استعراض ضخم بهر الملك وكل رجال الحاشية، وعلى مدى نصف الساعة استمر تقدم الموكب دون أن تظهر للجالسين بالمنصة نهايته ..

فبينما تنزل الفرق الأمامية على منحدرات الروابى الخضراء للوادى .. كان يتلوها فرق أخرى تعتلى قممها من بعدها بتدفق متواصل .. حتى امتلأ الوادى بكل روابيه بفرق الجيش المصاحبة للقنبيطور .. وعلى مسافة تبعد نحو ثلاثمائة متر توقف الجيش بكامله بنداء واحد خرج كصيحة مدوية من القائد القنبيطور..

انشقت الصفوف الأولى لحملة البيارق إلى نصفين اتخذ كل منهما جانبا .. وتقدم رودريجو للأمام ببطء وزهو .. وبرفقته خمسة عشر فارساً وقائداً من أنصاره المقربين، وساروا ومن أمامهم تقدم حامل العلم الرئيسى للجيش بخيوطه الذهبية والفضية البراقة وبالوانه ورسومه الزاهية ..

غادر الفونسو المنصة بمفرده واتجه نحو رودريجو .. وفى الحال صاح قائد الحرس فى قواته فسحبوا سيوفهم لأعلى وفى وقت واحد .. ونصبت أمام صدورهم بمسافة نصف ذراع بحيث لا تعلو أطرافها قمة الرأس .. ووقفوا منتصبين فى أماكنهم

وما أن عبر رودريجو مدخل المنصة حتى ترجل ومن معه، ونزلوا من على ظهور الخيل، وساروا فى صمت خلف رودريجو حتى رفع يده اليمنى فتوقفوا فى أماكنهم، بينما تابع هو المسير حتى أصبح على مسافة خمسة أمتار من الملك ..

وفجأة خر رودريجو على ركبتيه ووضع كفاه على الأرض، وانحنى على حشائش الأرض يلتهمها بفمه، ويقضمها .. وسار على ركبتيه مطأطأ الرأس، وهو يبكى بحرقة حتى وصل إلى موضع قدمى الملك .. فانحنى يقبلهما بفمه معبراً عن خضوعه الكامل وولائه له ..

لم يتوقع الملك الفونسو هذا المشهد المذهل من رودريجو .. فانحنى محاولاً أن يرفع رأسه من الأرض وهو مستمر فى البكاء وتقبيل قدمى الملك فقال له الفونسو، وقد خجل من هذا المشهد:

ـ انهض أيها القنبيطور وخذ يدى فقبلها، وكفى ذلك، وهذا يكفينى أيها القائد المخلص .. انهض من مكانك .... واستمر رودريجو على حاله إلى أن قال له الملك

ـ إننى أعفيك من تقبيل القدمين .. وإذا لم تكف فلن أكون راضياً عنك ..

فتابع رودريجو زحفه وهو جاثياً على ركبتيه فقال للملك الفونسو، وهو مازال يبكى

ـ يا مولاى الشرعى الفونسو .. أطلب منكم معروفاً .. فكما أنا جاث على ركبتى، هبنى عفوك الكامل علانية .. كى يسمعه كل من حولى أجمعين .... فقال له الملك:

ـ لك ما طلبت ايها القنبيطور .. من كل أعماق القلب والروح .. الآن حالاً قد عفوت عنكم ولكم رددت رضاى، وعبر كل مملكتى تستطيع أن تتجول منذ اليوم ... فرد عليه رودريجو

ـ وأنا قد قبلت عفوكم عنى سيدى الملك .. وأشكر السماء على ذلك (١)

ثم وقف رودريجو على قدميه وقبل الملك وعانقه .... وعمت الفرحة كل الأرجاء وصفق جميع الحاضرين من حاشية الملك فى المنصة، وكذا أعوان القنبيطور الكبار .. بينما بقى الكونت جرسيه أوردنيث حزيناً لما يجرى أمامه، بعد أن عاد الصفاء والوئام بين الملك وتابعه القنبيطور ... ثم قال رودريجو للملك الفونسو:

---

(١) «ملحمة السيد» ـ د . الطاهر أحمد مكى ـ دار المعارف طبعة ١٩٩٥ص ٢١٧، ٢١٨ .

- سيدى الملك أرجو أن تقبل دعوتى لكم كضيف فى معسكرى إذا كان هذا يسرك ... فقال له الفونسو :

- ليس هذا هو العدل، أنت وصلت اليوم فقط ..، بينما وصلت أنا إلى هنا قبلك .. وعلى ذلك فأنت ضيفى أيها السيد القنبيطور ..

فقبل رودريجو يد الملك شاكراً له دعوته ... فقال الملك وهو يدعو الكونت جنثالو وابنيه الأميرين فرناندو، ودييجو

- هيا حيوا السيد القنبيطور إيها الأميران ... فتقدم الأميران نحو السيد وقالا له:

- تحيتنا لك يا سيد .. نحن على استعداد لمساعدتك ونحن معك فى كل ما تريد ... فرد عليهما القنبيطور:

- هذا يسعدنى .. وتلك هى إرادة الخالق

وأمضى رودريجو يوماً كاملاً فى ضيافة الملك .. وفى اليوم التالى لبى الملك دعوة رودريجو هو وكبار القوم، حيث أعد لهم القنبيطور احتفالاً كبيراً، وأعد للضيوف وليمة عظيمة أقسم الجميع بعدها بأنهم لم يروا مثيلاً لها منذ أكثر من ثلاث سنوات ..

فى يوم الأحد رتل المطران دون خرونيمو قداس الصباح، وبعده التقى الجميع الملك وحاشيته بالقنبيطور وكبار رجاله وقادة جيشه .. وسار الملك وقد أمسك بذراع القنبيطور، وهو يتحدث له فى ود ظاهر فقال لرودريجو على مسمع من الجميع

- اسمعونى أيها الكونات، ورجال الجيش، والأمراء .. أود أن أتوجه إلى القنبيطور .. وهى إرادة المسيح، ولتكن فى صالحه .. لأطلب يدى بنتيكم دونيا ألبيرة، ودونيا سول لتكونا زوجتين لأميرى كاريون .. وفيما أرى فهو زواج مشرف ولفائدة الطرفين .. الأميران يطلبانهما منكم .. وأنا آمركم به .. والجميع هنا من الحاضرين شاهدون، وهم يرجون ذلك أيضاً .. فاقبل تزويجهن يا سيد، وفى حراسة الخالق تكون .... فرد القنبيطور فقال:

- ليس لدى بنات للزواج ..! .. إنهما طفلتان لم تكبرا بعد، وهما صغيرتان على الزواج .. وإن كنت أنا والدهما وهن من صلبى .. فأنت أيها الملك من ربيتهن، وأنا وابنتاى تحت أمركم، وطوع بنانكم .. وسأكون سعيداً بقبول طلبكم يا سيدى الملك..

- شكراً لك يا قنبيطور، وشكراً لكل الحاضرين

فتقدم أميرا كاريون وقبلا يد .. السيد .. وتبادل الجميع السيوف رمزاً للتقارب والتفانى فى العائلة الواحدة ... ثم تحدث الملك كسيد صالح للمجتمع الملكى الأسبانى فقال:

- شكراً أيها القنبيطور .. فانت طيب ومختار من الخالق .. زوج ابنتيك من أميرى كاريون، وسوف أقدمهما للأميرين، وقد وهبت البنتين ثلاثمائة مارك من الفضة كاملة تنفقانها فى زواجهما، أو حيث ترغبان .. وتقبل أيها القنبيطور هذين الأميرين لتكون لهما بمثابة الأب .. وتحميهما كسيد شريف ..

- أشكرك يا مولاى وبكل سعادة أقبل هديتك .. والرب فى السماء سوف يكافئكم على ذلك [1] .. ولكنى أطلب منكم معروفاً فكما قبلت رغبتكم يا مولاى فى تزوج ابنتى فأنا أطلب منكم أن تتخير ممثلاً لك يتلقاهن ويصحبهن باسمك.. ولن أكون أنا الذى أقدمهن بيدى للزواج .. فعن طريق ممثلك الذى يزوجهن نيابة عنك أكون بذلك قد منحت الشرف الكبير .... فقال له الفونسو:

- حسناً فليكن ألبير هانيس هو من يمثلنى عند الزواج .. (ثم يدير الملك وجهه ناحية ألبير هانيس ويقول له)

- ستكون أنت الوكيل عنهن فى كل حفلات القران والزفاف... فيرد ألبير على الملك

- سيدى الملك سأعمل كل ما يجعلكم مسرورين ..

ومضى رودريجو إلى قشتالة ليزور البلدات والقرى هناك وليلتقى بالأهل والأقارب، واصطحب معه ابنه دييجو الذى يتدرب ويتعلم ضمن رجال بلاط الملك الفونسو ..

١ - ملحمة السيد - د . الطاهر أحمد مكى ص ٣٢٢ .

الدوائر.. الدوائر..!

غادر سالم مزرعته ورحل إلى مرسية إلى حيث تقيم زوجته نائلة وأهلها ليقضى أسابيع هناك بعد يوم إحراق القاضى ابن جحاف ليستريح مما عاناه من جراء ما شاهده بعينه فى ذلك اليوم الرهيب ..

واتفق مع ساعده الأيمن فى المزرعة بدران على أن يرعى المزرعة طوال فترة غيابه هو ومن معه من أهل المزرعة العاملين بها ..

شعر الكثير من جند .. السيد .. المقيمون فى مدينة بالنسية أو فى ضواحيها بالكثير من الحرية بعد مغادرته بالنسية ..

فقد كان فارضاً على الجميع نظاماً صارماً من الطاعة والولاء .. يعاقب من يخرج عن الحدود والقواعد التى سنها عليهم بأشد العقوبات .. منها الحبس أو الجلد بالسوط، والصلب على الأشجار .. وأحياناً تكون العقوبة هى القتل عند ارتكاب أى من منهم جريمة من الجرائم الكبرى..

أخذ الكثير من الجند يستغلون فرصة غياب.. السيد.. وذلك بالخروج من معسكراتهم ليلاً وهم يحتسون الخمر، ويتجولون فى ضواحى الرصافة والريوسة الموجودتين إلى الجنوب من مدينة بالنسية .. ويمضون الوقت فى الغناء والتسلية والمزاح وقطف الثمار من على الأشجار من دون استئذان أصحاب المزارع والبساتين..

مضى أسبوع منذ رحل .. السيد .. فبدأ بعض الجند يخطط لأعمال يقومون بها فى تلك الضواحى الجنوبية دون أن يعلم بها أحد ..

وفكر بعضهم فى نهب المحاصيل والبضائع أو الاستيلاء على الماشية والدواب، وفكر آخرون فيما هو أكثر من ذلك مستغلين جبن الأهالى وخوفهم على أنفسهم .. فكلما اقترب أحد الجند من قراهم فروا أمامهم وأغلقوا الأبواب على أنفسهم حتى صباح اليوم التالى ..

قامت مجموعة من الجند بإخفاء وجوههم بالقماش القاتم بحيث لا تظهر من وجوههم إلا الأعين حتى لا يتعرف عليهم أحد من زملائهم أو من الأهالى، ثم قاموا بالسطو على بعض الماشية فى قرية تابعة لضاحية الرصافة ..

علم الكثيرون من الجند المرتزقة بنجاح زملائهم فى هذه التجربة فقاموا بعمليات أخرى مماثلة وفى قرى أخرى، وفى ضاحية الريوسة أيضاً .. حيث كانوا يحاصرون المكان المراد السطو عليه من كل جهة، ويقوم بعضهم بالسطو بينما يقوم الآخرون بحمايتهم حتى يتموا عملهم ثم يلوذ الجميع بالفرار ..

اتسع نطاق الاعتداءات على القرى والأهالى وأصبحت العمليات الإجرامية التى يقوم بها جند .. السيد .. تتم يومياً .. حيث يمارس هؤلاء المرتزقة اعتداءاتهم فى مجموعات تحاصر كل منها المكان المراد السطو عليه فى شكل دائرة، ويتعرض كل من يقاوم من الأهالى هذه العمليات الإجرامية للضرب المبرح والاعتداء بالسلاح ..

الدوائر .. ! الدوائر .. ! عصابات الدوائر .. ! اهربوا .. تحصنوا .. قاوموا ..! .. أصبحت تلك هى النداءات التى تنطلق من الأهالى لبعضهم البعض عندما تقترب منهم عصابات السطو والنهب، فيقاوم بعضهم هذه العصابات .. ويهرب آخرون ممن يؤثرون السلامة .. وتفاقمت الأحوال فى الضواحى، وامتدت هذه الأعمال لداخل مدينة بالنسية نفسها ..

تعرضت مزرعة سالم القيسى أكثر من مرة لعمليات من السطو المتكرر، ووقع بدران فى حيرة من أمره ..

فقد خشى بدران فى حال تصديه ومن معه من الأهالى لهذه الاعتداءات فى عدم وجود سيده سالم، أن يتعرض رجال المزرعة للإيذاء أو القتل .. فحاول أن يرجئ ذلك حتى عودة سيده من سفره إلا أنه كان يعلم أن عودة سالم ستطول لأنه غادر المزرعة منذ عشرة أيام فقط، ولا يتوقع أن يعود قبل ثلاثة أسابيع أخرى ..

ولأنه رجل من رجال جند الله المدربين جيداً على القتال قرر بدران ألا ينتظر حتى عودة سيده سالم .. وكون مجموعة صغيرة من أهالى القرية ممن بقى من الشباب والرجال، والتربص لهذه العصابات ليلاً ..

قبل الفجر بساعتين فى ليلة خريفية من شهر سبتمبر، راحت الأعين المتخفية بين أغصان الشجر تترقب فى صمت حركة نحو عشرة من الخيل تسير فى الدروب الضيقة للبستان وعلى ظهورها رجال عصبوا وجوههم بقطع من القماش الداكن، وراحوا يتسللون بخفة نحو مخزن الغلال بالقرية وبجواره حظيرة المواشى..

اقتربت الخيل من ممر ضيق يفضى إلى حيث مخزن الغلال .. وعبر ثلاثة منها نهاية الممر وبدأت تتخذ شكل القوس لتشكل دائرة مع باقى الخيل لتحاصر المخزن .. فى تلك اللحظات خرج من بين أغصان الأشجار أشباح انقضت على الخيل التى بالممر الضيق، وأثخنت هذه الأشباح فى الرجال المتلصصين قتلاً بالسيوف والرماح ..

أصيب الثلاثة الذين فى المقدمة بالذعر، ولم يستطيعوا العودة إلى رفاقهم ممن حوصروا فى الممر الضيق لإنقاذهم، فتركوهم يلقوا مصيرهم، وانطلقوا بالخيل مسرعين من الاتجاه الآخر بعيداً عن الكمين الذى وقع فيه رفاقهم اللصوص ..

حاول الرجال المحاصرون الدفاع عن أنفسهم، ولكن صيحات الله أكبر المنطلقة من الأفواه والحناجر، والبريق المخيف لأعين الفهود القانصة للرجال الواثبين عليهم قد اشل حركتهم، وتخبط بعضهم فى بعض ..

وتعثرت أقدام الخيل، وتعالت الصرخات من أفواههم بصيحات الاستغاثة .. وصار القتل وسفك الدماء على حاله لدقائق قل فيها الصراخ تباعاً بمرور الوقت حتى خفتت الصيحات وسكنت الأجساد وقد صرعوا جميعاً تحت سنابك [1] الخيل..

---

١ ـ السنبك : هو طرف الحافر وجانباه من قُدُمٍ ، وجمعه سنَابِكُ.

خارج المزرعة انتظر الرجال الثلاثة الهاربون عودة زملائهم وهم يتلفتون حول أنفسهم خوفاً ورعباً .. ومرت دقائق قليلة، لم يستطيعوا الانتظار بعدها .. فلما لم يأت بعدها أحد منهم لاذوا بالفرار من حيث أتوا ..

تخلص بدران ومساعدوه من الجثث بسرعة، وأطلقوا الجياد من المزرعة لتعود من حيث أتت، وبعد شروق الشمس بساعة استطاعوا أن يخفوا أثر القتلى ومعالم القتال الذى دار منذ سويعات قليلة ..

استمر الترقب والحذر لأيام طويلة من بدران ورفاقه، وهم ينتظرون ردة فعل الجند المرتزقة، إلا أن أحداً لم يقترب من المزرعة طوال هذه الفترة ..

سارت الأحاديث فى المزرعة عن بسالة الرجال وعلى رأسهم بدران، ولكن سرعان ما كان بدران يطالب الجميع بالتكتم وعدم الحديث عن تلك الواقعة، حتى لا تتناقل الأفواه أسماء القائمين بها فيتعقبهم هؤلاء القتلة فيما بعد ..

اختفى القمر تحت أديم السماء .. واشتدت ظلمة الليل، وهطلت الأمطار بغزارة، وعلى الرغم من أن بدران ورجاله قد اطمأنوا لعدم عودة عصابات الليل مرة أخرى للمزرعة، وقد أيقن اللصوص قوة رجالها، وما قد يلحقوه بهم من أذى إذا ما عاودوا الكرة، وحاولوا السطو على المزرعة مرة أخرى .. إلا أن بدران ورجاله ظلوا يترقبون مجئ اللصوص إلى القرية فى أى وقت، وظلوا يقومون بأعمال الحراسة والمراقبة ليلاً لتأمين المزرعه ..

ومع اقتراب الليل من منتصفه، وازدياد هطول الأمطار .. عاد بدران ورجاله الواحد تلو الآخر كل إلى داره ..

حاصرت الخيل الطرق المؤدية إلى المزرعة وتقدمت عبر الدروب الضيقة من عدة اتجاهات إلى المنطقة المكتظة بالسكان، حيث الكثير من الأكواخ الصغيرة، ومخازن الغلال وحظائر الماشية ..

سارت مجموعات عديدة من الرجال وأخذت تشكل العديد من الدوائر، ولكن هذه المرة حول الأكواخ الصغيرة والمساكن الأكبر لأهالى المزرعة .. كل مجموعة شكلت حلقة مستقلة عن الأخرى، وبلغ عددها نحو خمس عشرة حلقة، أحاطت بأكثر من نحو عشرين كوخا ودارا متجاورة بعضها بجانب بعض ..

ترجل الرجال الغرباء وطرقوا بشدة على الأبواب، فلما فتحت بعضها لهم، فوجئ أصحابها بوابل من الضرب والتنكيل انهال به الرجال الغرباء عليهم، وتم اقتيادهم إلى داخل الحلقات الدائرية المشكلة بالخيل ..

إمتنعت بعض الأكواخ والمساكن عن فتح الأبواب فقام الرجال الغرباء بكسر الأبواب عنوة، واقتحام البيوت، حيث اقتيد أصحابها إلى داخل الدوائر المغلقة للخيل بينما ظلت النسوة تتخفين داخل البيوت ..

خلال دقائق بدأ رجال عصابات الدوائر أعمال التعذيب لرجال المزرعة كباراً وصغاراً من دون تفريق، حيث تم ضربهم بالسياط والعصى الغليظة، بينما ترجل بعضهم داخل البيوت للبحث عن النسوة ..

وقف بدران مع بعض جيرانه وسط أحد الدوائر لا يعنيه شيئاً مما يتعرض له من ضرب وتنكيل وقد تعلقت عيناه بما يدور داخل داره، بعد أن تسلل إليه أحدهم وقد اختفى داخله وغاب من دون أن يسمع له صوت ..

قلق بدران على بهجة، وكان قد علمها كيفية التخفى داخل الدار من دون أن يعثر عليها أحد .. ولكن مباغتة اللصوص للمزرعة لم يمهلها أن تتخفى عن الأعين بالسرعة المطلوبة .. وسرعان ما بدأت تظهر بعض الصرخات من بعض الدور من النسوة والفتيات، وحتى المسنات منهن، حيث شرع بعض اللصوص فى الاعتداء عليهن ..

فى هذه اللحظات انتفض الرجال والشباب متحدين الغرباء وما يحملوه من سلاح وسياط وعصى والتحموا معهم فى صراع غير متكافئ، وصارعت النسوة الرجال المعتدين عليهن وبدأ رجال المزرعة يكيلون الضرب لرجال العصابات .. وأمام نخوتهم وتحديهم لم يجد الغرباء إلا استخدام السيوف والخناجر لإخماد ثورتهم ..

استمر الصراع والضرب من الطرفين، ولم تمض دقائق حتى تساقط رجال المزرعة الواحد تلو الآخر بعضهم مصاباً والبعض الآخر تلقى طعنات قاتلة غادرة من اللصوص القتلة ..

صارع بدران رجلاً من الغرباء، وببراعة استطاع أن يخطف سيفه وسرعان ما طعنه، ثم قاتل رجلاً آخر وأصابه بطعنة قاتلة أخرى، فتنبه رجال العصابة له، وابتعد عنه بعضهم، لما وجدوه على دراية بفنون القتال، واستغل بدران الفرصة فقفز من بين الخيل، وفر هارباً بين الأشجار داخل بستان المزرعة، وخشى اللصوص ملاحقته فى الظلام وتركوه يفر بينما انشغلوا بضرب رجال المزرعة ..

فى داخل الكوخ الصغير لبدران، كان هناك رجل قد أمسك بطرف الثوب الذى ترتديه بهجة وقد نزلت إلى حيث سرداب صغير بغرفة مخدعها، حيث علق طرف الثوب بالضلفة الخشبية التى تغلق فتحة السرداب ، فأمسك الرجل بطرف الثوب وفتح الضلفة وحاول أن يسحب بهجة إلى خارجه ..

شعر اللصوص بضرورة مغادرة المكان على وجه السرعة وقد علا الضجيج والصراخ فى كل مكان، وأخذ الرجال الراكبون فوق ظهور الخيل يحثون رفاقهم ممن دخلوا إلى البيوت للمسارعة إلى مغادرتها، وقد سقط الكثير من أهل القرية مضرجين فى دمائهم ..

كان الصراع محتدماً بين بهجة واللص الراغب فى اغتصابها بعد أن تمكن من إخراجها من السرداب بمشقة بالغة ..

امتدت يداه البيضاوان الغليظتان، فأمسك باليمنى بشعرها الملاصق للرأس ليشل حركتها، بينما امتدت يسراه لتنزع عنها ثيابها، بينما تنتفض بهجة من تحته بقوة ..

تعالت صيحات رفاقه لاستدعائه بينما انشغل هو بقرب تحقيق مأربه وقد تكشف له جسدها، فازدادت رغبته فيها ..

سكنت مقاومة بهجة قليلاً .. فأغراه ذلك لترك شعر رأسها، واطمأن من استسلامها له ومد يداه هاتكاً لجسدها من أسفل خصرها، وتعلقت عيناه بمفاتن جسدها وهم باغتصابها ..

وبينما هو على ذلك لمع بريق السكين من أمام عينيه وفى لمح البصر، ليمضى نصلها على وجهه قاطعا لغطائه، وكذا محدثاً قطعاً غائراً بطول وجنته حتى أعلى الحاجب فوق العين اليسرى ..

فقد استطاعت بهجة أن تستل السكين المخبأ فى ضلفة فتحة السرداب الأرضى وسددت له طعنة فى وجهه، بينما كان منشغلاً فى محاولة اغتصابها ..

وسرعان ما لمحت عيناه الخضراوان، بينما هو يصرخ وقد أمسك بوجهه، وتدفقت منه الدماء بغزارة، وراح يلملم الغطاء تارة، ويضع يده على الجرح تارة، وهرول خارجاً من الكوخ حيث سحبه رفاقه فوق فرسه ومضوا جميعاً مسرعين ليغادروا المزرعة مهرولين..

تدفق الناس من البيوت التى لم تتعرض للهجوم الوحشى والاقتحام، وكذا من القرى المجاورة لتضميد الجراح وإسعاف أهالى القرية ..

ولم يكترث الأهالى للقتلى والجرحى بقدر البحث عن النساء والفتيات اللاتى تعرضن للاغتصاب وكن خمسة من بينهن بهجة زوجة بدران .. حيث استطاعت الأخريات من التخفى فى الظلام والبعض الآخر كن قد غادرن المزرعة ورحلن للبلدات البعيدة عن أحداث بالنسية ومكثن عند أقاربهن، وذلك بعد دخول .. السيد .. للمدينة

ولم تغتصب واحدة من الخمسة اللاتى تعرضن لمحاولات الاغتصاب، فلم يفلح اللصوص فى إكمال جرائم الاغتصاب لمقاومة النساء لهم، ولضيق الوقت المتيسر بعد ان نشب القتال بين رجال القرية والمعتدين من عصابات الدوائر، مما أدى إلى فشل محاولتهم التى جاءوا من أجل تحقيقها .. حيث أراد رجال العصابات الثأر لقتلاهم السبعة، وذلك بالتنكيل بأهل المزرعة واغتصاب نسائهم لإذلالهم إلى الأبد ..

شيع أهالى المزرعة والقرى المجاورة لهم جنازة الشهداء من أهالى المزرعة، وكانوا ثلاثة، وتم دفنهم بالمقابر القريبة .. بينما كان الجرحى نحو عشرين من الرجال والنساء ..

وسرعان ما تحرك الأهالى إلى المدينة رافعين شكوى إلى الوزير اليهودى موسى، والذى وعدهم برفع التظلم إلى الحاكم العام الذى عينه رودريجو نائباً عنه أثناء غيابه .. ومضت الأيام، ولم يحرك أحد من المسئولين ساكناً بل بدأ أهالى بالنسية أنفسهم يتعرضون لهجمات عصابات الدوائر ..

اعتزل الوزير عبيد الله صهر الأمير أبو مروان عبد الملك وحاكم أزكون من إمارة شنتمرية .. عن لقاء الناس وعن ممارسة أعماله الرسمية بما فيها لقاء الأمير حاكم الإمارة وذلك منذ هزيمة جيش المرابطين، والقوات التابعة له أثناء محاصرتها مدينة بالنسية بهجوم قوات السيد عليها وتدمير معسكر الجيش المرابطى مما أدى إلى فشل حملة إنقاذ المدينة ..

كان شعور الوزير عبيد الله بالصدمة كبيراً وقد كان على رأس قوة الفرسان الممثلة للإمارة، وبعد أن ضاعت على جيش المسلمين فرصة ملاقاة جيش السيد وجهاً لوجه .. شعر عبيد الله أنه قد خُدع هو ومن معه وكل من لم يشاركوا فى القتال، وقد وصموا بعار الهزيمة وحُسبت عليهم، وعلى جميع من شاركوا فى حصار بالنسية، وإن لم يشاركوا فى قتال حقيقى مع قوات السيد ..

وبعد أشهر طويلة من العزلة، لم يلتق فيها عبيد الله إلا بصديقه الوزير أبو عيسى بن لوبون الحاكم السابق لولاية مربيطر شمال بالنسية، حيث اعتاد على لقائه من آن لآخر، وأخذ أبو عيسى فى كل لقاء يجمعه بـ عبيد الله يحضه على الخروج من العزلة ..

وشيئاً فشيئاً نجح فى ذلك .. وعاد الوزير عبيد الله يمارس مهامه كحاكم لولاية أذكون، وعاد يلتقى بالأمير أبو مروان حاكم الولاية من جديد ..

كان عبيد الله يشعر فى قرارة نفسه أن الأمير حاكم الإمارة مثله مثل باقى حكام شرق الأندلس الحاليين أو السابقين لهم فى العقود الخمسة الأخيرة .. كانوا من أهم أسباب الكوارث التى تحيق بأمة الإسلام فى هذا الزمان .. وقد تفشت فيهم عوامل الترهل والفساد بكل أشكالها .. وأصبح هدف البقاء فى الحكم، والمحافظة على ما يمتلكوه من ثروات، أهم لديهم من المحافظة على بناء مجتمعات إسلامية قوية فى بلادهم، وبقاء شعوبهم موحدة تجاه الأخطار المحدقة بها من كل حَدَبٍ [1] وصوب..

---

(١) الحدب : غليظ الأرض ومرتفعها .. يقال «وهم من كل حَدَبٍ ينسلون» المقصود يظهرون من غليظ الأرض ومرتفعها .. وَالحَدَبُ .. هو خروج الظهر .

لهذا السبب زهد الوزير فى لقاء أمير البلاد، وكره الحديث معه، وإن لم يظهر ذلك .. واعتبر أن تحالف الأمير سراً مع .. السيد .. يظهر الدرجة التى وصل إليها الأمير من الخسة والوضاعة تجاه الأمانة التى يعلقها عليه شعبه تجاه الإسلام والمسلمين..

استضاف الوزير أبو عيسى بن لوبون الوزير عبيد الله فى أمسية تجاذبا فيها الحديث عن أوضاع البلاد، فقال أبو عيسى لـ عبيد الله:

ـ هل تعلم آن جيش المرابطين تحرك مرة أخرى مقترياً من بالنسية ..؟

ـ نعم علمت ذلك ..

ـ ولماذا لم يرسل لكم أمير المسلمين ليستدعى قواتكم، وباقى قوات البلدات فى شرق الأندلس..؟

ـ فى الحقيقة لا أدرى .. وإن كنت أعتقد أن المرابطين قد فضلوا هذه المرة أن يعتمدوا على أنفسهم .. وأحسب أن قائد جيش المرابطين السابق هو السبب فى ذلك .. ولعله قد أرسل لأمير المسلمين فى المرة السابقة يخبره أن سبب الهزيمة يرجع إلى التسيب والاستهتار فى معسكر قوات فرق الدعم من شرق الأندلس المصاحبة لجيش المرابطين

ـ تعنى أنه أراد أن يلقى بتبعة الهزيمة على قوات شرق الأندلس من دون قوات جيش المرابطين ..؟

ـ هو ما تقول .. وإن كنت أعتقد أن السبب الرئيسى لتلك الهزيمة لا يتعلق بالقوات المحاربة بقدر مسئولية القادة فى الميدان، وعلى رأسهم محمد بن تاشفين نفسه (ابن أخ أمير المسلمين) قائد جيش المرابطين .. فقد تخاذل، وترك معسكر الجيش، وأقام خيامه بعيداً عنها .. وترك معسكرات الجيش بدون حماية كافية .. وغير ذلك من الأسباب، وهى كثيرة ..

ـ هل صدّق أمير المسلمين إدعاءات قائده محمد بن تاشفين

ـ لا طبعاً والدليل على ذلك أنه قد استدعاه إلى المغرب، وعهد للأمير أبو بكر بقيادة الجيش بدلاً منه، وهو الآن على رأس الجيش الذى يعسكر جنوب مدينة شاطبة ... إنما قل لى ماذا فعلت مع الأمير بشأن مالك الذى يحتجزه لديه ..؟

ـ لقد واظبت على الذهاب إليه بقصر بالإمارة أكثر من مرة للقائه فكان حاجبه يعتذر لى بانشغال الأمير، وعدم توفر الوقت للقائى.. ولكن باستمرار إزعاجى له بكثرة الذهاب إليه بقصره كما نصحتنى أنت بذلك.. فقد فلحت فى النهاية بأن ألتقى به وأعطانى جزءا من الدين الذى عليه

ـ هل المتبقى أصبح قليلاً ..؟

ـ لا أبداً فالمتبقى لى يساوى نصف المبلغ المتفق عليه بيننا تقريباً

ـ وماذا تنوى أن تفعل ..؟

ـ والله لا أدرى ..

ـ كان الله فى عونك يا أبا عيسى، فلم تكن فطناً، المعذرة لصراحتى .. لم تكن فطناً معه بالقدر الكافى

ـ وماذا كان علىّ أن أتصرف وقد كان يعاملنى افضل معاملة، وكان يكرمنى حين يلقانى

ـ على كل حال يجب عليك أن تتابع ملاحقته ومطالبتك إياه لما تبقى لك من مال، وكان الله فى عونك

ـ لا.. لا أستطيع أن أمضى هكذا وكأنى كلب سوء يرضيه ملجأ وعظم يلقى إليه.. لا هذا لا يليق بى أنا عيسى بن لويون.. والأكرم لى أن أرحل عن هذه البلاد..

ـ ترحل عن هذه البلاد.. ما هذا الذى تقول يا أبا عيسى

ـ لقد زهدت من قبل بما يطالبنى به من أموال، ذلك الكلب المسعور رودريجو.. وهأنذا قد زهدت من مطاردتى للأمير أبو مروان والأفضل أن أرحل ولو لفترة قليلة .. وأجد نفسى أقول

ذرونى أجب شرقَ البـــلاد وغربــَها ... لأشـفـىَ نفسى أو أمــوتَ بــدائى

فلست ككلب السوء يرضيه مريض ... وعـــظمٌ، ولكـنى عُقابُ ســـماء

تحُوم لكيما يدرك الخِصبَ حومها ... أمـــــامَ أمــامى أو وراءَ ورائــــى

وكنت إذا ما بلـــدةٌ لــى تـنـكـــرت ... شددتُ إلى أخـــرى مَـطىً إبـائى

وســـرِتُ لا ألـوى علـى متـــعذرٍ ... وصَمَّمْتُ لا أصغى إلى النصحاء

كشـمس تـبدَّتْ للعـــيون بمشرقٍ ... صباحاً، وفى غربِ أصـــيلَ مساء (١)

ـ أرجوك لا تغب عنا كثيراً يا أبا عيسى

ـ نعم .. سأرحل قريباً.. وفى أقرب وقت .. وعندما تهدأ نفسى أعود إن شاء الله

ـ وتابع الرجلان الحديث والنقاش والسمر فى مجلسهما حتى غادر عبيد الله القصر بعد انتصاف الليل بقليل عائداً إلى قصره ومقر إقامته بالولاية..

عاد سالم إلى مزرعته بضاحية الريوسة، وحكى له بدران ما حدث بالمزرعة منذ سفره إلى زوجته فى مرسيه وحتى عودته ..

وتعجب سالم لتزايد الجرائم فى المدينة والضواحى المجاورة لها، وقرر أن يذهب للقاء جاسر يوم الخميس بالمسجد فى حى الشريعة ليتدبرا أمرهما ويقررا ما يجب فعله ازاء الجرائم التى ترتكب من عصابات الدوائر ..

بعد صلاة المغرب من يوم الخميس بحث سالم عن جاسر فوجده يتفحص فى أوجه الناس، فأدرك سالم أنه يبحث عنه كما يبحث هو عنه .. والتقت عيناهما، واتجها إلى بعضهما وتعانقا فقال سالم:

ـ أراك كنت تبحث عنى

ـ فعلاً .. فقد افتقدتك كثيراً أثناء غيابك فى مرسية

ـ هل بقيت فى بالنسية ولم تغادرها طوال هذه الفترة ..؟

---

(١) الحلة السيراء (ابن الآبار) – ج ٢ ص ١٦٨ ـ دار المعارف الطبعة الثانية ١٩٨٥ .

- لا .. طبعاً غادرت المدينة، وذهبت إلى رضوى بمدينة شاطبة .. ومكثت أسبوعاً عدت بعده إلى المدينة، وانتظرت لقاءك لعدة أسابيع ولكنك لم تأت.. فلماذا تأخرت ..؟

- منذ حادث إحراق القاضى لم أستطع أن أتحمل البقاء وحدى بالمزرعة، وشعرت برغبة جارفة فى السفر للقاء زوجتى نائلة، لكى أنعم ببعض الهدوء والسكينة، ولكنى عدت لأجد وأسمع أسوأ الأخبار

- تقصد عصابات الدوائر ..

نعم .. ألا تعرف ما أحدثوه بالمزرعة ..؟

- للأسف جاء بدران ليبحث عنى فلم يجدنى، ولما عدت.. التقى بى وقص علىّ ما حدث

- وهل سنقف مكتوفى الأيدى ازاء ما يحدث لنا ..؟

- لا طبعاً .. ولهذا بحثت عنك، لنقرر معاً ما يجب علينا فعله

- لابد أن نجلس بمكان لنتحدث فيه بحرية

- إذن فلنذهب إلى حيث أقيم فى دار عمة رضوى

- هيا بنا

وغادر سالم وجاسر المكان، وذهبا إلى دار عمة رضوى، حيث يقيم جاسر ليبحثا معاً خطة تجميع عناصر جند الله التى مازالت موجودة بالمدينة أو الضواحى القريبة ليعاد تشكيلها لمجموعات صغيرة للعمل كمتطوعين بدون أجر، لإنقاذ أهالى بالنسية والضواحى المجاورة لها من اعتداءات عصابات الدوائر ..

فى اليوم التالى وعلى مدى ثلاثة أيام تالية .. دار سالم وجاسر سراً، على بيوت من تبقوا من رجال جند الله بالمدينة .. للاتفاق مع من يقبل منهم على العمل متطوعاً .. وأعقب ذلك خروجهما من المدينة إلى الضواحى المحيطة بها للبحث عن رجال جند الله المتواجدين فى هذه الضواحى لإعادة تجميعهم أو الاتفاق مع من يقبل منهم للعمل ضد عصابات الدوائر ..

بعد نحو عشرة أيام تمكن سالم وجاسر من الاتفاق مع أربعة عشر رجلاً بالإضافة لهما وبدران (مساعد سالم فى المزرعة) .. حيث تم تقسيمهم إلى مجموعتين.. الأولى داخل بالنسية بقيادة جاسر، وعددها تسعة بما فيهم جاسر..

والثانية خارج المدينة بقيادة سالم وعددها ثمانية بما فيهم سالم وبدران .. وتعمل كل مجموعة منهما منفصلة عن الأخرى لظروف الإقامة لأفراد كل مجموعة .. والمجموعتان يقودهما جاسر فى حالة إذا ما اقتضت الظروف لانضمامهما للعمل معاً ..

واستمر سالم وجاسر يلتقيان معاً فى الخفاء كل يوم ليدرسا معاً تفاصيل العمل فى الفترة القادمة، بعد أن ازدادت شكوى الأهالى من مهاجمة العصابات لبعض الدور المنعزلة والقصور التى على أطراف الضواحى داخل المدينة سواء كانت فى الحى القديم أو فى الحى الجديد ..

قضى رودريجو فترة طويلة فى زيارة الأهل والأقارب والأصدقاء فى مدن وقرى وضياع قشتالة، ودُعى للكثير من مآدب الغداء والعشاء التى أعدها له الأمراء والكونتات، وحرص على أن يقدم الهدايا من الخيول الملكية، والبغال المحملة بالبضائع .. والملابس والأقمشة الفاخرة لجميع من استضافوه، وغيرهم كثيرون، وشعر الجميع بالغبطة والسعادة ..

وذهب رودريجو إلى الملك الفونسو بعد أن قرر العودة إلى بالنسية، مصطحباً معه أميرى كاريون وبعض الأمراء والكونتات لحضور الاحتفالات بزواج ابنتيه هناك..

وداخل القصر الملكى بطليطلة قابل رودريجو الملك حيث قال له:

ـ أيها الملك دون الفونسو أنت سيد شريف .. كتذكار لهذا اللقاء الذى يجمعنا، وأنا راحل إلى بالنسية تقبل منى هذه الهدايا .. لقد جلبت معى اليوم ثلاثين جواداً أصيلة كلها رائعة الإعداد .. وثلاثين أخرى للسباق، وهى جيدة التسريج .. وهى جميعاً أمام القصر الآن .. فتقبلها منى كهدايا لكم يا مولاى

ـ لقد قدمت لى الكثير من الهدايا .. وإننى أتقبل منك هذه الهدايا .. داعياً الخالق، ومعه كل القديسين، أن يكافئك على ما أهديتنى وقدمت لى .. وقد

بالغت فى تشريفى، وخدمتنى بإخلاص .. وبقى أن أرد لك الجميل فى المستقبل القريب .. اذهب آمناً فى رعاية إله السماء

وامتطى القنبيطور فرسه الأبيض بيبكيا ثم قال للملك الفونسو الذى وقف أمام مدخل القصر ليودعه:

ـ أستأذنك يا مولاى أن تسمح لمن يريد من الأمراء والكونتات والفرسان أن يأتى معى ليحضر زواج ابنتى، ولكى يتلقون هداياى لهذه المناسبة السعيدة

ـ بكل سرور من يرد أن يذهب معك فليذهب فى رعاية الله

ـ هيا أيها الأمراء والكونتات والفرسان قبلوا يد الملك الذى سمح لكم بذلك

فتقدم الكثير منهم إلى الملك ممن يودون الرحيل برفقة القنبيطور، وقبلوا يد الملك، ثم انضموا إلى قافلة القنبيطور .. وبعد أن احتضن رودريجو ابنه دييجو وودعه .. سار موكبه عائداً إلى بالنسية ..

وصلت القافلة إلى بالنسية بعد عدة أيام، وقُرعت الطبول، وانطلقت الأبواق النحاسية من على أسوار المدينة تعلن وصول .. السيد .. إلى المدينة عائداً إليها بعد أن غاب عنها لفترة طويلة ..

كلف القنبيطور بدرو، ومونيو جوستيوث ليعدا داراً فخمة لإقامة أميرى كاريون دون فرناندو، ودون دييجو تليق بمقامهما كأميرين من حاشية الملك الفونسو ..

داخل القصر عانق رودريجو زوجته خامينا بحرارة، وابنتيه دونيا ألبيرة، ودونيا سول، وراح يقص لهما كل ما حدث فى الرحلة، وما قرره الملك من زواج البنتين .. وغمرت السعادة الجميع، وسعدت الفتاتان لما قرره الملك لهما بالقران من أميرى كاريون الشابين الوسيمين ... وقال لهما رودريجو:

اعلما يا ابنتاى أننا بهذا الزواج سوف نزداد شرفاً ونعلو مقاماً ولكن اعلمن قبل كل شىء أنه لم يكن من إعدادى، فقد طلبكما وألح فى الرجاء سيدى الملك الفونسو .. وقد رجانى بإصرار، وراغباً فيه من أعماق القلب .. وإننى أعترف لكما فى شجاعة بأننى لم أستطع أن أقول له .. لا .. فالذى زوجكما هو الملك ولست أنا .. هذا فقط لتعلما كل شىء بصراحة ..

ولم يغير كلام رودريجو من الأمر شيئاً فلقد كانت الفتاتان صغيرتين فى السن، وقد علمتا أن الأميرين شابان وسيمان، وينتسبان إلى كبريات الأسر فى قشتالة .. فماذا يمكن أن تتمنيا أكثر من ذلك .. وبدأت الأسرة فى التفكير والترتيب لإجراءات الزواج الذى سيحضره ضيوف القنبيطور من الأمراء، والكونتات، والفرسان ..

فى اليوم التالى تحولت ضاحية بلا نوبه التى يقع فى جزء منها القصر الملكى لمدينة بالنسبة إلى خلية نحل .. فالكل يعمل على قدم وساق من أجل الإعداد لزواج الأميرين من ابنتى القنبيطور ..

رفعت الرايات على القصر من كل جانب .. وفرشت الأبسطة الحمراء الطويلة على مدخل القصر ولمسافة بعيدة عن مدخله .. بينما علقت الستائر الحريرية على الجدران بألوان زاهية متناسقة ..

ومع غروب الشمس لليوم الخامس، توافد الضيوف إلى القصر حيث سيقام الاحتفال .. وبدأوا فى الدخول معاً فى مجموعات، حيث احتشدوا وهم فى كامل أناقتهم داخل الردهة الواسعة للقصر ..

وطاف الخدم بقمصانهم البيضاء وسراويلهم الزرقاء الفضفاضة وقد شدت فوق خصورهم أحزمة من قماش عريض لامع بلون أحمر .. وراحوا يقدمون المشروبات من النبيذ المُعَتَّق للضيوف الذين انشغلوا بالحديث والثرثرة انتظاراً لحضور الأميرين

وصل الأميران كل منهما يمتطى جواداً رائعاً .. وسارا متجاورين إلى أن وقفا أمام باب القصر حيث عزفت الأبواق ترنيمات الاحتفال .. فخرج الضيوف من ردهة القصر إلى حيث وقف رودريجو وزوجته خامينا وقد أحيطا بالأمراء والكونتات والفرسان الملكيين ..

وترجل الأميران ووقفا أمام درجات السلم وهما يلمعان فى ملابسهما الزاهية الأنيقة المحلاة بالأنواط والنياشين الملكية، وصعدا درجات السلم المؤدى لمدخل القصر فى وقار وتؤدة .. ثم قاما بتحية رودريجو وزوجته خامينا، وساروا داخلين

إلى القصر، فانفرج حشد الضيوف إلى نصفين شكلا ممراً للأميرين .. فدخل القنبيطور رودريجو وزوجته ومن خلفهما الأميران ثم باقى الضيوف ..

وفى صدر الردهة جلس الأميران على مقعدين فخيمين .. ووقف الضيوف هنا وهناك وامتلأت بهم الردهة الواسعة .. وتطلعت أعينهم ترقب الأميرتين دونيا ألبيرة، ودونيا سول حيث وقفتا على حافة قمة سلالم القصر المفضية إلى الردهة، وقد ارتدت كل منهما رداء أبيض ناصعا، مزينا بفصوص من الماس المتلألئ، وقد ترصعت كل منهما بتاج رقيق يتوسط الطرحة البيضاء من قماش الحرير الشفاف، وتدلى شعرهما الذهبى من تحتها، وقد ارتديتا قفازات بيضاء طويلة ..

وسرعان ما صعد رودريجو إلى حيث تقفان ووقف بينهما وقد أمسكت كل واحدة منهما بذراع، وبدأ رودريجو النزول معهما على درجات السلم المغطى بالبساط السميك الفاخر، وسط تصفيق كل الضيوف الحاضرين ..

وما أن حطت أقدامهم أرض الردهة الواسعة .. حتى تقدم ألبير هانيس فى لباس التشريفة الملكية كمندوب عن الملك الفونسو، وأمسكت الفتاتان بذراعيه وتقدم بهما إلى حيث وقف الأميران ..

وما أن اقتربتا حتى تقدم إليهما الأميران، وقد علت شفتاهما بسمة مبهجة .. وتلاقت الأعين لأول مرة، ووثبت القلوب تعانق بعضها البعض من فرط السعادة الطاغية .. «يا لهما من فتاتين رائعتين وكأنهن درتان مكنونتان» هكذا سرح خيال الأميرين .. «يا لهما من شابين وسيمين وكأنهما ملكان بعثت بهما السماء» هكذا دار الخيال بالأميرتين .. وما زال الضيوف على صخبهم وفرحتهم بالعرس الأسطورى ..

وسرعان ما انتقلت المراسم إلى حيث كنيسة مريم المقدسة بالمدينة .. حيث وقف المطران دون خرونيمو بملابس المطارنة المميزة، واستقبل العرسان، حيث أقام لهم القداس، ومنحهم بركاته ..

ولعدة أيام امتدت الاحتفالات من سباقات، ومبارزات، ومباريات .. ومآدب عامرة بأجود الأطعمة وألذها .. وعاش الجميع أياماً تملأها الفرحة والسعادة ..

كان من عادة سالم أن يمر على دار عائلته بالقرب من مسجد رحبة القاضى بالضاحية القديمة للمدينة، وكان يمر أيضاً على منزل عائلة حماه الشيخ أبو عمر، ليطمئن على سلامة الأبواب والشرفات والنوافذ ليتأكد من عدم تعرضها لأى عبث، وليطمئن على ما بالدارين من أثاث ومتاع تركته العائلتان هناك ..

وكثيراً ما كان يبعث بمساعده بدران لينوب عنه فى ذلك إذا ما انشغل هو لأى سبب من الأسباب، فإذا ما التقيا يطمئنه بدران على سلامة الدارين ..

مر بدران على دار عائلة سالم أولاً ثم تابع المسير إلى حيث دار عائلة الشيخ أبو عمر حمى سالم، فى الطرف الآخر من الحيز السكنى لدار سالم ..

وقام بدران بفحص الأبواب والشرفات للدار حينما لمحت عيناه رجلاً يقف على الناصية يراقب البيت المقابل لدار الشيخ عمر ..

كان الرجل يحمل سيفاً يتدلى من خصره، ويلبس زيا يشابه زى الرجال الملتحقين بجيش السيد، والمعروفين أنهم ليسوا أسباناً من قشتالة أو من أى الممالك والإمارات الأسبانية فى الشمال ..

فالرجال الملتحقون بجيش السيد من بلاد وقرى شرق الأندلس لا يرتدوا زى الفرسان الأسبان، ولكن يُستدل عليهم مما يرتدونه من الدروع والجلود التى يستخدمونها لربط السيوف والخناجر، ومن الأحذية الجلدية الخاصة بالمقاتلين..

تفحص بدران وجه الرجل ضخم الجثة أحمر الشعر والشارب والذقن .. ولكن ما أثار انتباهه تلك الندبة الطويلة على وجنته، والتى تمتد إلى أعلى الحاجب حتى منتصف الجبين ..

.. هذا الرجل سبق لى أن رأيته من قبل .. أين رأيته ..؟ .. وما هذه الندبة الطويلة على وجهه ..؟ إنها ولا شك من أثر طعنة أو ما شابه .. !

طعنة .. ربما طعنة خنجر أو سكين .. سكين .. سكين ... نعم هو .. نعم هو .. ذاك الرجل الذى حاول اغتصاب بهجة فى المزرعة .. نعم هو .. كما وصفت لى وجهه الأبيض وشاربه الأحمر، وعينيه الزرقاوين .. ولكن ماذا يفعل هنا ..؟ .. لابد لى أن أراقبه .. ومنذ هذه اللحظة لن أتركه ليفلت منى ..

بهذه الكلمات حدث بدران نفسه وهو يراقب الرجل من بعيد دون أن يثير انتباهه ..

خرجت ماتيلدا الفتاة الأسبانية صديقة رضوى ونائلة، من منزلها حيث كان يقف الرجل الغريب على الناصية المقابلة .. وسارت فى الشارع متجهة إلى السوق .. وسار من خلفها الرجل يتابعها من بعيد، بينما سار من خلفهما بدران ليراقب ما يحدث ..

مضت ساعة أمضتها ماتيلدا فى السوق، وعادت فى النهاية إلى منزلها، ومن خلفها الرجل الغريب، وراقبهما بدران دون أن يعرف سبب مراقبة الرجل لها ..

استمر الرجل يراقب منزل ماتيلدا، ثم بدأ يتفقد المنازل المجاورة لمنزلها، ومنها دار الشيخ أبو عمر ..

وبعد ساعة مكث فيها الرجل الغريب بالمنطقة حاول أثناءها الاقتراب من النوافذ الخاصة بالمنازل التى يراقبها، ومنزل ماتيلدا على وجه الخصوص، ثم غادر الرجل المكان، ومن خلفه بدران يراقبه ..

ومضى إلى حيث ثكنات العسكر المسلمين والنصارى واليهود المتطوعين فى جيش السيد، والمقيمين داخل خيام معدة لهم على أطراف الضاحية التى بها منزل عَمة رضوى زوجة جاسر، حيث يقيم فيه جاسر متخفياً ..

التقى بدران بسالم كما اتفقا من قبل، وحكى له ما رآه، ومضيا معاً إلى حيث يقيم جاسر، وأطلعاه على الأمر .. واتفقوا جميعاً على أن هذا الرجل الغريب، وراءه أمر مريب وأنه قد يكون أحد أفراد عصابات الدوائر .. وإن كان كذلك، فإنهم يكونوا قد وضعوا أيديهم على أحد الأماكن التى ينطلق منها بعض رجال تلك العصابات ..

فكر سالم وجاسر وبدران فيما يجب عليهم فعله فقال جاسر لهما:

ـ لابد أن هذا الرجل كان يراقب المكان ليقوم بمهاجمته هو ورفاقه للسطو على المنازل بتلك المنطقة .. وسوف ينتهزون فرصة انشغال الجميع بالاحتفالات التى يقيمها السيد لبنتيه، حيث يتواجد معظم الجند والعسكر فى منطقة ضاحية بلا نويه

ـ ولكن لماذا يراقب ماتيلدا ..؟

ـ هذا شىء محير فعلاً ولابد أنه يريد بها شراً

ـ ولماذا هى بالذات ..؟

ـ هذا ما لا نعرفه الآن .. وفى كل الأحوال يجب مراقبة المكان عن كثب، ونبقى على مجموعة منا تكون مستعدة لقتالهم إذا ما أتوا ليلاً ..

ـ إذن لابد لى أن أكون أحد أفرادها لأنى أعرف المكان جيداً وبه دار حماى الشيخ أبو عمر

ـ إذن فلتكن أنت وبدران ومعكما خمسة آخرون فى داخل دار حماك وحولها .. متخفين، وتكونوا مستعدين لقتالهم منذ الليلة .. وكما تعلم فلا ينقصك شىء من لباس أو عدة القتال، فقد سبق وأخبأنا الكثير من السلاح والعتاد والملابس فى دار حماك منذ أن رحل عن المدينة بعد رفع الحصار .. أما أنا فلدى مهمة خارج بالنسية، عند حى الرصافة فقد أعلمنى أحد رجالنا ممن يراقبون تحركات رجال السيد خارج المدينة .. أنه قد اكتشف أحد المعسكرات البعيدة عن بالنسية، إلى الجنوب من الرصافة يقومون بالإغارة من آن لآخر على الضاحية، وسوف نكمن لهم خارج المعسكر فإذا ما خرجوا ليلاً ليقوموا بأعمال السطو .. نقاتلهم، ونقضى عليهم بإذن الله.

ـ إذن علينا بتجهيز أنفسنا من الآن، وسوف نلتقى مع باقى زملائنا فى ساحة المسجد بحى الشريعة بعد صلاة المغرب، وبعد غد نلتقى فى مسجد حى الشريعة، وهو يوم الخميس على كل حال

ـ إلى اللقاء ..

ظل سالم ورفاقه متربصين لمجىء اللصوص من بعد العشاء حتى صلاة الفجر، فلم يأت أحد إلى المكان، وغادرت المجموعة المكان بعد شروق الشمس على وعد باللقاء فى مساء اليوم بعد العشاء لتكرار المراقبة على المكان فى صبر، حتى يظفروا باللصوص ..

تعالى صدى الصرخات والضحكات والأناشيد والأهازيج والغناء .. قادمة من ضاحية بلا نوبه حيث كان السيد وضيوفه غارقون فى النشوة والسعادة والمرح، بينما نامت المدينة فى حزن وصمت، كصمت القبور ..

ومزق السكون أصوات سنابك الخيل التى كانت تتهادى بتؤدة قاطعة الميدان الصغير أمام مسجد رحبة القاضى متجهة إلى حيث الحى السكنى فى الضاحية القديمة ..

ترجل بعض الرجال من على ظهور الخيل وقد غطوا وجوههم بقطع من القماش الداكن، وأغلقوا مدخل الشارع ومخرجه من الجهتين .. بينما قام آخرون بكسر أبواب المنازل التى لا يقطنها أحد ليقوموا بنهب ما فيها .. بينما قامت مجموعة ثالثة باقتحام منزل ماتيلدا الفتاة الأسبانية على من فيه ..

خرج الصراخ من دار الفتاة الأسبانية، بينما اللصوص ينهبون المساكن .. ولاذ أهالى المنطقة بالصمت خوفاً من التعرض للنهب والقتل إذا ما خرجوا من ديارهم..

لمعت أعين الفهود السوداء الملثمة، وهى متربصة داخل دار الشيخ أبو عمر حين دخلها اللصوص .. ولمعت الصفاح البيض رغم السواد الحالك، وهوت النصال تحصد اللصوص القتلة، فقضت على الثلاثة المقتحمين للدار، وقد علا صريخهم واستغاثتهم بزملائهم الذين تلهى بعضهم بأعمال النهب فى الدور الأخرى، وانشغل الآخرون بالصراخ الصادر من دار الفتاة الأسبانية ..

بعد القضاء على اللصوص الثلاثة خرجت الفهود السوداء من الدار حيث تنبهوا للصراخ القادم من دار ماتيلدا ..

واقتحم أصحاب البرابس السوداء الدار وهم شاهرين السيوف، وقد أمسك أحد القتلة بوالد ماتيلدا تاجر الأقمشة، والأخر بأمها، بينما الفتاة ممددة على الأرض وفوقها رجل ضخم مزق ملابسها، وراح يهتك جسدها محاولاً اغتصابها..

إلتقى إثنان من أصحاب البرانس مع الرجلين الممسكين بوالدى الفتاة بعد أن تركاهما ليقاتلا الملثمين ..

بينما هوى ثالثهم على الرجل فوق الفتاة، فضربه بمقبض السيف على رأسه ضربة لم يترك بعدها الفتاة وواصل هتكها، فتلاها بضربة أخرى قوية، ترنح على أثرها، وقام يحاول أن يواجه الملثم ..

شد الفهد الأسود الغطاء من على وجه الرجل، فإذا به الرجل ذو الندبة، والشارب الأحمر .. فقال له الملثم .. أهو أنت تعال أيها الحقير الوضيع .. وبينما تلملم الفتاة نفسها مبتعدة عن القتال الدائر فى باحة الدار، حتى صاحت وقالت وهى تنظر إلى من كان يغتصبها قائلة .. .. شقوان .. شقوان .. أأنت شقوان خادم والدى .. يالك من وضيع وخسيس ..

صُرِع اللصان الآخران، بينما قاتل شقوان الرجل الملثم، وسرعان ما سدد الملثم بسيفه ضربه سريعة على يده اليمنى فبترتها على الفور، وراح يتلوى فى مكانه وهو ممسك بالسيف يدافع عن نفسه .. حينئذ تقدم أحد الملثمين الآخرين قائلاً اتركه لى .. فقد حان وقت القصاص.

خلع بدران اللثام، وتقدم إلى الرجل، فانهال عليه بضربة من سيفه بتر بها يده اليسرى، فراح يتلوى شقوان وهو يصرخ .. وحاول بعض رجال العصابة إنقاذ زملائهم فاقتربوا من الدار فخرج لهم الرجال الملثمون ودار القتال فى الشارع الضيق، فلما حاول باقى رجال العصابة الذين يُؤَمِنّون مدخل الشارع ومخرجه التدخل فى القتال هاجمهم نفران من كل جهة، وانهالوا عليهم بالطعن والقتل حتى سفكت دماؤهم وأريقت على الأرض ..

وسرعان ما هرول رجلان من رجال العصابة إلى خيولهما وانطلقوا بها، تاركين المكان ولاذوا بالفرار .. بينما حاول اللحاق بهما رجلان آخران قد ابتعدا

عن خيلهما خوفاً وهلعاً .. فلاحقهما رجال جند الله، وانهالوا عليهم طعناً وقتلاً، حتى خرا صريعين فى مكانهما عند مفترق الطرق بالحى السكنى ..

سحب بدران الرجل الذى يدعى شقوان من خلف عنقه، وأمسك بسترته من الخلف، وساعده سالم وسحباه على الأرض إلى حيث مفترق الطريق .. ثم انهال بدران على سروال شقوان ومزقه من الأمام، ثم استل خنجراً وبرك بركبتيه فوق الرجل الطريح فى الطريق، وأمسك بخصيتيه وفصلهما عن جسده، وهو يقول .. ها قد أصبحت خصياً للأبد أيها الزانى الحقير ..

وراح شقوان يترنح ويصرخ، بينما الأهالى بدأوا يتلصصون من النوافذ بعد أن شاهدوا رجال جند الله، فخرج بعضهم، تلاهم آخرون، حتى امتلأت الشرفات بالأهالى، وراحوا يحيون رجال جند الله وهم يكبرون لهم، بينما انسحبت الفهود السوداء بسرعة من المكان مخلفين وراءهم سبعة من القتلى، وخَصِى يصارع الموت، وآخران لاذا بالفرار من مجموع العشرة الذين هاجموا الحى..

وخارج المدينة إلى الجنوب من حى الرصافة وفى نفس الليلة، تصادف خروج مجموعة أخرى من معسكر السيد هناك، للسطو على الضاحية مرة أخرى .. وما أن ابتعدت العصابة عن معسكرها وسارت بين الأشجار مقتربة من الضاحية حتى قفز عليهم أصحاب البرانس السوداء المتربصون لهم من بين الأشجار ومن فوقها، وأثخنوا فيهم قتلاً .. وفر خمسة من رجال العصابة وقتل سبعة متأثرين بجراحهم فى الحال ..

علم السيد بالأحداث التى وقعت فى مساء الليلة الماضية، وغضب لما قام به رجاله من أعمال نهب وقتل أثناء فترة غيابه، ومن دون علمه .. حيث حكى له موسى الوزير اليهودى عما دار خلال الفترة السابقة لمجيئه من طليطلة، وكان السيد قد قرر أن يحاسب جنده على ما جرى من جرائم وأن يجرى تحقيقاً فى هذا الشأن ..

فلما علم بأحداث الليلة الماضية اعتبر أن ما لحق بجنده المجرمين بمثابة قصاص عادل .. وذلك لشدة الجرائم التى ارتكبها هؤلاء الجند من دون علمه، لذا فقد قرر ألا يبحث، ويتحرى عن الرجال الذين قاموا بهذه الهجمات ..

وسرعان ما أصدر تعليماته إلى كل الجند بتوقيع الجزاءات والخصومات عليهم جميعاً من الأموال التى يتقاضونها منه، عقاباً على ما حدث من جرائم فى الآونة الأخيرة، وحدد مكافأة لمن يدلى بمعلومات عن منفذى هذه الجرائم ..

شاب المعسكرات الهدوء والرعب فى آن واحد .. الهدوء خوفاً من تعرف السيد على مرتكبى الجرائم، والرعب من أصحاب البرانس السوداء الذين شاعت شهرتهم بينهم، وما يحدثوه من قتل وفتك لأفراد هذه العصابات ..

وعلى الرغم من هذه الأحداث إلا أن السيد أراد أن يعزل ضيوفه عن المشاكل التى تعيشها المدينة .. واستمرت الأجواء الاحتفالية بلا انقطاع لمدة بلغت خمسة عشر يوماً متتالية .. عاد بعدها الضيوف إلى قشتالة وليون وجليقية محملين بالهدايا من الأموال والملابس، والأقمشة، والجياد .. عاد الجميع بعد أن عاشوا أياماً من السعادة والبهجة وقد حضرت فى أذهانهم أجمل الذكريات وأمتعها ..

وداعاً بالنسيه

بعد رحيل ضيوف المملكة الأسبانية بدأ رودريجو يخطط لإجهاض حملة جيش المرابطين الجديدة التى تستعد للتحرك، وبعدد أكبر من الفرسان والجند الراجلة، لضرب الحصار حول بالنسية، وقد تمركزت قواتها فى منطقة تسمى غاندية على ساحل البحر جنوب شرق المدينة ..

فى قاعة الاجتماعات بالقصر جمع رودريجو قادة جيشه وطالبهم بالاستعداد للتحرك، ومباغتة الجيش المرابطى هناك .. وقال لهم:

«أيها القادة الشجعان .. لقد عاد الجيش المرابطى مرة أخرى ليحاول حصار المدينة، ولم يدخر جهداً فحشد الفرسان والجند الراجلة، وبأعداد أكبر .. كما تم تغيير قائده ليكون الأمير المراكشى أبو بكر .. وهو من أمهر قادة جيشهم .. وإننى على ثقة مطلقة بقدرتكم على تحقيق النصر الحاسم على أعدائنا .. »

وبينما يلقى القائد تلقين الحرب على قادته .. تململ الأميران فرناندو، ودييجو مما يسمعاه، ومال فرناندو على أذن أخيه وقال له فى صوت خافت:

ـ أترى ما يقوله القنبيطور .. ! لقد سعينا إلى هنا من أجل الحصول على الثروة والمكانة الرفيعة لا من أجل أن نموت فى ساحة الحرب من هؤلاء المسلمين الذين لا يكلون ولا يملون من خوض الحرب تلو الأخرى .... فقال له دييجو:

ـ أنا شخصياً لن أخوض قتالاً وسأبقى هنا فى القصر .. وإن أراد القنبيطور قتالاً فليخوضه هو وقادته ..

استرق السمع مونيو جوستيوث أحد أتباع رودريجو، وعلم ما يقوله الشقيقان بعضهما إلى بعض، فأفضى بما سمعه إلى رودريجو بعد أن انتهى الاجتماع وقال له:

ـ هناك صهراك يا لهما من شجاعين ..! قبل أن يخوضا المعركة فهما يحنان لبلادهما كاريون .. فاذهب لهما، لتواسيهما، وتُثَبِت قلبيهما لخوض القتال ..

فى القصر قال رودريجو لصهراه وهو مبتسماً

ـ «يا صهراى .. يحميكما الله، فبين يديكما بنتاى، وهما بيضاوان كالشمس، وإنى أفكر أن تبقيا فى بالنسيه، لتستمتعا بهما بدلاً من أن تفكرا فى السفر والحنين إلى كاريون .. أما المسلمون فأنا أعَرَف منكم بهم..»

فى هذه الأثناء وصلت رسالة من الأمير أبو بكر بن يوسف قائد جيش المرابطين (ابن أخ أمير المسلمين) يدعو فيها القنبيطور للدخول فى الإسلام هو وجيشه أو يسلم المدينة ويرحل .. وإلا فهى الحرب ..

قرأ القنبيطور الرسالة عدة مرات، ثم قال لحامل الرسالة «قل للأمير قبل ثلاثة أيام سوف أعطيه ما يأمرنى به .. »

امتدت على مدى البصر نحو خمسين ألف خيمة شيدها جيش المرابطين داخل المعسكر بجوار ساحل البحر، وانتظر القائد المرابطى ما وعده به القنبيطور فى الرد الذى بعثه مع حامل الرسالة، وبعث القائد المرابطى بفرق من الفرسان تجوب الحدود الخارجية للمعسكر من الجهة الشرقية تجاه البحر، وترك الجهة الغربية بلا حراسة ..

تقدم رودريجو الجيش خارجاً من بالنسيه قبل الفجر كعادته وتحرك نحو معسكر جيش المرابطين .. وتقدمت طلائع جيشه بحذر مقتربة من حدود معسكر الجيش لمباغتته، وسرعان ما تعالت صيحات الفرسان القشتاليين وهم يهاجمون معسكر الجيش الذى بدا أنه بدون حراسة، وتقدم الفرسان إلى الخيام ليقتلوا من بداخلها، ويستولوا على ما فيها ..

ضُربَت قوائم الخيام، وسقطت متهاوية، ولكن فوجئ المهاجمون بخلو الخيام المتواجدة على الحدود الخارجية للمعسكر من الجند ومن المهمات والأغراض،

وبدا أن الجيش المرابطى يدبر كميناً لحصار القوة الأساسية لجيش السيد داخل المعسكر ..

وسرعان ما فطن رودريجو لهذه الخدعة، وصاح فى فرسان الجيش للانسحاب من المعسكر حتى لا يقعوا فى الحصار ..

ودار القتال على أطراف المعسكر، حاول فيه المرابطون القضاء على القوات التى وقعت فى الفخ وتوغلت فى المعسكر ، بينما السيد قاد قوة الدعم لإنقاذ القوات المُحاصرة ليساعدها على الانسحاب ..

وتقدمت عدة فرق من قوات المرابطين لتحاصر القنبيطور نفسه، ومعه قوات الدعم التى يقودها وبعد قتال دام أكثر من ساعة .. انسحب جيش السيد ونجا رودريجو بإعجوبة، بينما كانت تطارده بعض الفرق من جيش المرابطين .. وفشل هجوم جيش السيد على معسكر الجيش المرابطى ..

توالت جولات القتال بين الجيشين وقامت مبارزات بين فرسان الجيشين قبل اندلاع كل قتال ..

تقدم الأمير فرناندو ليواجه أحد قادة الجيش المرابطى ..، فوثب الفارس المرابطى تجاه الأمير، فامتلأ قلبه رعباً من الفارس المرابطى، فتراجع مذعوراً وولى هارباً، وخشى بدرو برمودث (ابن أخ رورديجو) من الفضيحة، فتصدى للفارس المرابطى، ودام القتال دقائق، سقط بعدها الفارس المرابطى مضرجاً فى دمائه، وغنم بدرو فرسه، وأسرع خلف فرناندو الأمير الهارب حتى لحق به فأهداه الفرس وقال له:

ـ خذ هذا الجواد وقل للجميع إنك قد قتلت الفارس المسلم، وسوف أشهد لك أنا بذلك

ـ شكراً يا بدرو لن أنسى لك هذا الجميل مدى الحياة .. ولعلنى أستطيع أن أرد لك الجميل مضاعفاً

ثم انطلقا يقاتلان بين الفرسان بعد نشوب القتال، وانسحب الجيشان من ميدان القتال قبل غروب الشمس ..

فى أيام الراحة بين القتال طلب رودريجو من ابن أخيه بدرو برمودث أن يرعى الأميرين فى كل قتال ينشب فى أرض المعركة، وعين ثلة من الفرسان المخلصين التابعين له .. فهو لا يريد أن يتعرضا للأذى ..

عادت الطبول تقرع من جديد معلنة جولة جديدة من القتال، احتدم فيها العراك بين الجيشين، واستطاع السيد ومعه الفرسان الأشداء من حوله أن يخترقوا الصفوف، ويلتحموا مع قائد الجيش المرابطى ومن معه من فرسان ..

وانشغل كل فارس بقتال فارس من الجيش الآخر، وتقابل رودريجو مع أبى بكر وجهاً لوجه فى قتال فيه كر وفر على شاطىء البحر ..

القائد المرابطى يحمل سيفه «تيفون» ذا المقبض الذهبى الرائع والنصل المقوس الطويل المميز، وأخذ يوجه الطعنات إلى رودريجو، فتدمى الطعنات ذراعه، ويتحملها بدروعه الحديدية التى تستر جسده ..

ثم رد رودريجو على الطعنات بطعنات من سيفه الطويل ذو المقبض الصليبى الذهبى «كولادا» وأطاح بخوذة القائد المرابطى، فسال الدم من جبينه .. فلاحقه رودريجو بضربة أخرى تصدى لها أبو بكر بسيفه، فسقط السيف من يده، وسالت الدماء من ذراعه، فرَمَح بجواده مبتعداً عن موقع القتال، وحاول رودريجو أن يلاحقه، فتصدى له مجموعة من حرس القائد المرابطى، لتمنعه من ملاحقته ..

ويعود ردريجو إلى معسكره قبل غروب الشمس، بعد أن غنم سيف القائد المرابطى أبو بكر والمسمى «تيفون» .. بعد أن كان قد ربح من قبل السيف كولادا من أمير برشلونة فى المواجهة التى جرت بينهما منذ بضع سنوات ..

تقهقر الجيش المرابطى إلى جنوب مدينة شاطبة لإعادة تجميع القوات، والاستعداد لقتال جديد مع جيش القنبيطور، الذى لم يستطع أن يهزم الجيش المرابطى، ولكنه استطاع أن يفشل الحصار الذى كان يهدف الجيش المرابطى لضربه حول مدينة بالنسيه ..

أقيمت الاحتفالات فى مدينة بالنسيه، بمناسبة انسحاب جيش المرابطين، وفشل مشروع الحصار الذى كان سيطوق به المدينة .. واعتبر رودريجو وقادته أن

الجيش المرابطى قد هُزم .. ولم لا، وقد غنم رودريجو سيف القائد المرابطى، وهو رمز الجيش المرابطى الكبير ..

وكانت سعادة رودريجو بأميرى كاريون أكبر، وقد استطاع فرناندو أن يكسب النزال أمام أحد قادة الفرسان فى الجيش المرابطى حسب شهادة بدرو برمودث كما قاتل الأميران خلال المعارك فى صفوف الفرسان بجسارة كما قالوا له ..

وبدأ رودريجو فى توزيع غنائم الحرب، فكان نصيبه الخمس، وكان نصيب الأميرين أكثر من خمسمائة مثقال لكل منهما بخلاف الغنائم الأخرى من جياد وبغال وجمال وحراب وسيوف وغيرها الكثير والكثير ..

مضت أسابيع هادئة فى بالنسية .. وبينما ينام رودريجو على أريكة فى الحديقة الغناء للقصر الملكى، حيث وضعت على أطرافها أقفاص بها أنواع من القردة، والشمبانزى، والنمور، والأسود وحيوانات أخرى نادرة .. وبينما هو مسترخ فى ثبات عميق، اقتحم الأسد باب القفص المخصص له أثناء إعطائه وجبة الغذاء، وأنطلق يجوب الحديقة، والرجال والجند تفر من أمامه ..

كان أميرا كاريون قد غادرا المكان منذ دقائق حيث كانا يتحدثان مع رودريجو قبل أن يغفو لتوه، وما أن عادا إلى حيث يجلس القنبيطور فوجئا بالأسد يمرح وراء الرجال من الحرس والفرسان، فانطلق فرناندو مرتمياً تحت الأريكة التى غفا عليها القنبيطور، بينما انطلق دييجو ليبحث عن ملجأ يلوذ به، فلم يجد إلا سور معصرة النبيذ الملحقة بالحديقة ..

وسرعان ما أحاط الحراس بأريكة رودريجو ليحموه من الأسد .. فاستيقظ رودريجو على الضوضاء التى أحدثها الرجال من حوله .. وما أن أدرك السبب حتى تحرك نحو الأسد الذى ما أن وقعت عيناه على صاحبه حتى طأطأ الراس، فأمسكه رودريجو من الطوق الذى يحيط رقبته، وأدخله إلى القفص بهدوء ..

تعالت الضحكات بين الفرسان والحراس، وهم يشاهدون الأميرين أحدهما يخرج من تحت الأريكة .. والآخر ينزل من فوق سور المعصرة، وقد اتسخت ثيابهما وأخذا يعيدان الهندام لملابسهما .. ولكن السيد سرعان ما رد الجميع إلى الهيبة والاحترام ..

انتهز بدرو برمودث فرصة اختلائه بعمه رودريجو فقال له:

- أيها العم العزيز أنت تعرف مقدار حبى لك، وأننى لا أستطيع أن أرفض لك أمراً ولكن بالنسبة لما طلبته منى أثناء الحرب من رعاية الأميرين، وحمايتهما فقد كادا أن يتسببا فى قتلى عدة مرات فى ميدان القتال .. واعفنى من قول الأسباب.. ولكن برجاء أن تعفينى من هذه المهمة مرة أخرى .. أرجوك

- لك ما تطلب يا بدرو .. وإننى أدرك جيداً ما تعرضت له من مخاطر بسببهما .. على كل حال فأنا أعفيك من هذا الأمر مستقبلاً

- شكراً أيها القائد العطوف

وعلى النقيض من ذلك صدق الأميران نفسيهما، وتحدثا أمام الجميع عن بسالتهما فى ميدان القتال، وفى مأدبة للعشاء أعدها رودريجو لقادته المقربين، وحضرها الأميران .. تحدث الأمير فرناندو عن القتال فقال:

لقد تشرفنا كثيراً بالانتساب إلى القنبيطور ..، ولذلك لم ندخر جهداً من أجل القتال فى سبيله، وانتصرنا على المسلمين .... ثم وجه حديثه إلى القنبيطور وقال له فى ثقة:

فكر لنا فى قتال آخر، فنحن فى أمان مادمنا نقاتل المسلمين الذين لابد أنهم يخشوننا كثيراً.

تهامس الفرسان المقربين للقنبيطور، وأخذوا يتهامزون ويتلامزون على حديث فرناندو وأخيه، وهم (أى الفرسان) أدرى الناس بما فعله الأميران فى الحرب ..

وصارت الضحكات تنهال عليهما من كل جانب وأصبحا مجالا للسخرية من كل جانب، وبمرور الوقت شعرا أنهما منعزلان عن كل من هم حولهم .. ليس فقط لجبنهما فى ميدان القتال .. وما أبدياه من خوف وذعر فى حديقة القصر .. ولكن أيضاً لما يبديانة من صلف وغرور فى كل تصرفاتهما مع الجميع .. مما زاد من سخرية الناس منهما .. ولولا مكانة السيد وهيبته وحب القادة والفرسان له.. لكنا بمثابة عدوان للجميع ..

أثناء قتال رودريجو وجيشه لقوات المرابطين .. عاد الحماس والنخوة للأهالى فى مدينة بالنسية .. وعاد الجميع ليجهروا باقتراب النصر، وعودة بالنسية فى ظل دولة الإسلام من جديد ..

وقرر السيد الانتقام من الأهالى بفرض المزيد من القيود على المسلمين فى المدينة، وبعد أن انسحب الجيش المرابطى إلى الجنوب من شاطبة .. فتح السيد أبواب المدينة لمن يرغب من الأهالى فى الرحيل منها ..

وسمح للمغادرين أن يحملوا القليل من المال على أقل قدر ممكن، يستطيعون به السفر، وشراء الطعام .. ولم يسمح لمن بقى فى المدينة أن يحتفظ بأى سلاح سواء كان سكينا كبيرا أو خنجرا أو سيفا أو مطرقة .. كان هذا محظوراً ومن يضبط بحوزته شيئ من ذلك يتعرض لأشد العقاب ..

وكان السيد قد استولى على عدد أكبر من المساجد داخل المدينة ليحولها لكنائس على حجة ضيق المدينة بالمبانى التى بها .. وبحجة أنه لم يعد هناك مكان لائق لإقامة كنائس فيها، ولأن عدد المساجد كبير بينما عدد الكنائس قليل .. وبدأ فى تحويل المسجد الجامع الكبير فى الميدان الكبير فى المدينة بالحى الجديد إلى كاتدرائية مسيحية كبيرة ..

غادر الشيخ أبو بكر حمدون (ابن المعلم) المدينة مع المغادرين، ومعه الكثيرون الذين عاشوا على أمل عودة المرابطين .. فلما غادر جيشهم إلى جنوب شاطبة، قرر الكثير من الأهالى المغادرة، حتى ولو كان الثمن مصادرة بيته أو الحانوت الذى يملكه أو ارضه التى يزرعها ..

وفى آخر خطبة جمعة، للشيخ أبو بكر حمدون بمسجد رحبة القاضى قال:

الحرية فى ظل الإسلام أهم وأقدس وأكبر من أى منصب أو ثروة أو جاه فى ظل حكم أولياء من دون المسلمين لا يعرفون عهداً ولا ميثاقاً، ولا ذمة.. فإن الذين يسعون إلى المال، والجاه، وفى ظل السكينة مع الذل والخضوع.. هؤلاء قال الله تعالى فيهم ﴿الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة﴾.. فأولائك الذين باعوا دينهم بعرض قليل من الدنيا، وما ذلك إلا لكفرهم وعدم إيمانهم..

وقال الشيخ متابعاً حديثه:

كيف يستطيع المسلم أن يجيب على سؤال ربه له إذ قال وقوله الحق ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ (١)..

قرر سالم وجاسر أن يكونا أول الخارجين من المدينة، ليعاودا تنظيم أنفسهم، والانخراط فى جيش المرابطين، ضمن فرق المتطوعين من رجال الأندلس، التى تم تشكيلها من الرجال والشباب المتطوعين للقتال فى جيش المرابطين ..

وما كانا ليغادرا المدينة إلا بعد أن اطمأنا لانتهاء أعمال السلب و النهب والقتل، والاغتصاب التى كانت تحدث فى المدينة، والضواحى التى حولها .. وما كان انتهاؤها إلا خوفاً من رجال جند الله، وأيضاً خوفاً من عقاب السيد لكل من يرتكب هذه الجرائم من دون علمه ..

وغادر المدينة أيضاً الأمير الشيخ أبو عبد الرحمن بن طاهر أمير مرسيه السابق .. وخرج أهالى المدينة زرافات، وقد فاضت أعينهم بالدمع ألماً وآسى على فراق المدينة التى عشقوا ترابها، وهواءها، وسماءها.. ونهرها الخالد.. وسارت ألسنتهم تردد قول الشاعر أبو إسحاق بن خفاجة

عاثت بساحتك العــدا يـا دار ــــــ ومحا محاسنك البلى والنار

فإذا تــردد فى جــنابك ناظــر ــــــ طال إعــتبار فيك وإستعبار

أرض تقــاذفت الخطوب بأهلها ــــــ وتمـحصت بخـرابها الأقـدار (٢)

اكتظت مدينة شاطبة بالمئات من أهالى مدينة بالنسية، بعد أن هاجروا خوفاً على دينهم، ومن تعرضهم للقهر والذل على أيدى الفجرة والفاسدين من رجال السيد .. وقام الحاكم المرابطى لمدينة شاطبة، بتوفير معسكر للأسر غير القادرة على الإنفاق ..

---

(١) سورة النساء –الآية ٩٧ .

(٢) الأبيات للشاعر المعاصر أبو إسحاق بن خفاجة ـ من كتاب «دولة الإسلام فى الأندلس» د. محمد عبد الله عنان ج٢ .

وقدم لهم الطعام والشراب .. وحث أهل المدينة الأصليين ليقدموا لهؤلاء المهاجرين العمل، والملجأ، والطعام والشراب كل على قدر طاقته ..

ومضت الأيام صعبة على أهل بالنسية المهاجرين، وكثرت شكواهم، وأحسوا اليأس والخوف من البقاء على هذا الحال من الغربة، والتشتت ..

وفى المسجد الجامع بالمدينة، وقف الشيخ أبو محمد عبد الرحمن إمام المسجد ليخطب فى الناس عن محنة أهل مدينة بالنسية، وشرق الأندلس كله فقال:

أيها المسلمون فى شاطبة، وفى بالنسية، وفى كل بلاد الإسلام بشرق الأندلس.. إن الله قد ابتلانا .. وما الابتلاء منه إلا اختبار لنا ..

فإن كان منا والعياذ بالله، اليأس والضجر وعدم الرضى، والبقاء على ما نحن فيه من المعاصى .. فلن ننتصر أبداً .. بل ستَعُم علينا النكبات، وسنُبتَلى بالمِحَن والمآسى بما هو أشد وأعظم ..

أما إن كان منا الرضى والتُقى، والصبر .. فإنى أبشركم بنصر قريب ..

وهناك شروط يطلبها الله منا لكى يمنحنا العزة والنصر على أعدائنا، فيرضى عنا ويثبت أقدامنا، وينصرنا على القوم الكافرين، ويهدينا إلى طريق الرفعة والرشاد ..

يقول سبحانه وتعالى **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** (١) .

فشروط النصر أربعة .. أولها الصبر .. حيث أمر الله المؤمنين أن يصبروا على دينهم الذى ارتضاه الله لهم وهو الإسلام ، فلا يدعوه لسراء ولا لضراء ولا لشدة ولا لرخاء، حتى يموتوا مسلمين ..

وأن يصابروا .. إنها تعنى عدم اليأس .. ودوام زجر النفس عن الشهوات .. وانتظار الفرج بالصبر ..

---

(١) سورة آل عمران الآية ٢٠٠ .

ورابطوا .. والمرابطة هنا مرابطة الغزو فى نحور العدو، وحفظ ثغور الإسلام وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين، وقد وردت الأخبار بالترغيب فى ذلك وذكر كثرة الثواب فيه، وفى ذلك يقول الرسول ﷺ رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها.

وقال ..ﷺ كل ميت يختم على عمله إلا الذى مات مرابطاً فى سبيل الله، فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ويأمن فتنة القبر.

وآخرها تقوى الله .. وتقوى الله تكون فى جميع أموركم وأحوالكم، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم لمعاذ حين بعثه إلى اليمن اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن.

ثم تابع الشيخ فقال:

.. والابتلاء الذى نحن فيه ليس أول ابتلاء يبتلى به المسلمون .. ولن يكون الأخير .. بل لقد ابتلى الله من قبل الرسول والمؤمنين معه فى كثير من المواقف .. وكان الابتلاء شديداً .. ففى واقعة الخندق .. امتُحنوا امتحَاناً عظيماً .. وقال سبحانه وتعالى فى ذلك **﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾** (1).

وقد نجح الرسول صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون معه فى هذه الابتلاءات، فأعزهم الله بالنصر ..

فنصر الله قريب .. إن صدقت النوايا .. وأخلصت القلوب لله عز وجل .. وتحققت شروط النصر التى بيناها لكم .. إدعوا معى الله أن يلهمنا الصبر والتقى .. ويمنحنا النصر .. **﴿رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾** .. ولا قوة إلا بالله العلى القدير.

---

(1) سورة البقرة الآية ٢١٤ .

فخرج الناس يتفكرون فيما قاله لهم الإمام.. ويسترجعون معاً ماذا قدموا من أعمال.. وما لم يعملوه، لكى يتداركوا ما فاتهم لعلهم يفوزون برحمة الله ومغفرته..

فاض الحنين والشوق عند اللقاء، وتعانق الحبيبان بعد طول غياب .. وتكلمت الدمعات المتساقطات بدلاً من الشفاة الصامتات .. لتصف لوعة الفراق .. وطول البعاد .. ولهفة اللقاء ..

فما أن وصل جاسر إلى شاطبة حتى التقى برضوى زوجته بعد أن غاب عنها لوقت طويل، منشغلاً بما يحدث فى بالنسية، بعد أن قرر الرحيل منها نهائياً والذهاب إلى شاطبة وذلك إلى حين عودته إليها مستقبلاً ضمن جيش المرابطين.. كجندى فى صفوف الفرق المتطوعة من رجال الأندلس ..

عاشت رضوى أياماً من السعادة والراحة، فى ظل زوجها الذى بقى إلى جوارها حينا .. إلى أن يرحل مرة أخرى لينضم هذه المرة إلى صفوف جيش المرابطين كمتطوع ضمن حملة الجيش القادمة لتحرير بالنسية .. وأمضى أوقاتاً طويلة يداعب أبنه جهاد، الذى ولدته رضوى فى أول شهر يناير من العام الماضى، وقد أصبح سنه أكثر من عام ..

وبينما يتحدث جاسر عما يفكر فيه .. لاحظ شرود رضوى كثيراً وهى جالسة معه فقال لها:

- لماذا أراك شاردة الفكر .. سارحة بعيداً، وقد كثر صمتك وأنت معى ..؟

- ألا يهدأ رجال الجيش المرابطى قليلاً ليلتقط الناس أنفاسهم .. ألا يهدأوا قليلاً لترتاح الأنفس .. وتبرأ الجراح الغائرة التى تدمى القلوب ..؟ (هكذا تحدثت رضوى إلى زوجها، وهو يحدثها عن رحيله قريباً للتطوع فى جيش المرابطين) .؟... فقال لها:

- لا يا رضوى .. يجب أن نحمد الله أنهم لا يهدأ لهم بال حتى يخرجوا المجرمين من أمثال السيد وأتباعه من بالنسية.. ونحن أهل المدينة أولى بالغيرة عليها والسعى لاستعادتها..

ـ هـذا لا شك فيه .. ولـكنى كـزوجـة أرى نـفسـى مـحـرومـة من زوجـى شـهـوراً طويلة .. وأرى سنين العمر تمضى سدى .. وما ضاع من العمر لا يستعاد .... ثم صمتت للحظات قطعها جاسر بسؤالها:

ـ بماذا شرد فكرك الآن وأنا أحدثك..؟

ـ إننى لأسـأل نفسـى كثيـراً وقد تحيـرت فى أمرنـا معـاً فـأقول لهـا " مـاذا عن الزمن الماضى الذى ذهب سدى ..؟ .. لم أهنأ فيه أنا وزوجى بالسعادة التى كنت أو كنا نبغاها .. إن للحياة قيمة مفقودة عندما لا نعيشها كما كنا نبتغى .. "

ثم أعود لأسأل نفسى .. ولكن هل تنفع الكلمات ..؟ أو ينفع الشِعر لكى يعبر عما يجيش بصدورنا .. فإن كانت الكلمات أو الشعر يجدى فياليت الكلمات .. بل يا ليت الشعر يعيد الوعود التى قطعناها على أنفسنا يوماً ونحن نتطلع إلى المستقبل .. تُرى هل أصبحت الأمانى ممكنة وقد تدنى ما بقى من سنين العمر .. تُرى هل مازال هناك أمل فى أن نحقق ما تمنيناه يوماً من أمان .. أم أن المتاح من الوقت والعمر لا يسمح بتحقيق هذه الأمانى ..؟ ..

ـ يـاآآه .. ما هذا اليأس الذى يعتريك .. من يسمع حديثك يعتقد أنك قد تعديت الستين من عمرك لا خمسة وعشرين عاماً فقط .. ثم أين الأمل الذى لم يخل منه حديثك فى يوم من الأيام .. وأنت من تتحدثين دائماً عن الغد .. الغد المشرق هل نسيت ..؟

ـ لو كنت تعرف معاناتى وآلامى .. آه لأشواقى إليك، وأنت بعيداً عنى، وبين جوانحى الوقود والنار

ـ اعلمى أننى مثلك تماما .. بل ربما أكثر منك لهفة وشوقاً .. ولكن ما أحلاها كلماتك التى تعبر عن حنينك وشوقك إلىّ

ـ خواطر وكلمات، ومشاعر تنتابنى من حين إلى آخر .. ولكن سرعان ما أعود إلى صوابى فأقول .. ربما يوما تصالحنا الأيام .. وتمحو أثر إساءتها لنا.. بالإحسان .. ولا أجد لنفسى إلا أن أبقيها على أمل نيل المنى والآمال ..

- صبراً جميلاً .. إن الله مع الصابرين ..

- وماذا عندك لكى تقوله لى أيضاً ... تقولها وقد تورد وجهها بابتسامة جميلة

- مازال عندى أحلى وأجمل الكلمات .. لأحلى وأجمل زوجة وآم

- آه لقد نسينا طفلنا .... وهَمّت بالنهوض لتأتى بطفلها جهاد فأمسك بذراعها وجذبها إليه وقال لها

لم ننسه .. ولكننا نسينا أننا معاً ولا يجب أن تضيع اللحظات الجميلة سدى.. ألم تقولى ذلك منذ لحظات ... فتضحك وتقول:

- بلى ..!

وإلى الجنوب من مدينة شاطبة راحت السماء تخلع جلبابها، وتنفض عن نفسها غمام السحاب، فوق مدينة مرسية وقد أحاطها السور الحصين بأبراجه العالية المنيعة بينما تغرب الأيام الأخيرة من شهر مارس١٠٩٧ (٤٩٢ هجرية) ..

كان سالم قد اتخذ مسكناً مستقلاً لأسرته فى الحى الراقى بالمدينة، بالقرب من القصر الكبير إلى الجنوب الشرقى منها، وقد تجمع شتات الأسرة، فضم البيت بالإضافة لزوجته وابنه عبد الله ذى السنوات الخمس .. كلا من حماه الشيخ أبو عمر، وليلى الأخت الصغيرة لنائلة ..

امضى سالم أيام راحته بالمدينة بين أحضان نائلة وقد رمى خلف ظهره ذكريات أيام المعاناة واليأس والظلام فى مدينة بالنسيه ..

وما أن حطت الشمس خمارها فى يوم صاف بديع .. حتى استنارت بيوت المدينة بشعاعات كخيوط الذهب .. فقرر سالم أن يصطحب الجميع فى رحلة بمتنزهات المدينة خارج الأسوار حيث قصد منتزه جبل إيل الخصيب على ضفاف النهر ..

وطالعت الأعين جنات الله فى أرضه عبر البساتين الخضراء وقد تحلت بثوب النضارة، وكانها عروس تبتهج بيوم عرسها ..

وفى أجواء من السعادة أمضت الأسرة نهارها على شاطئ النهر الصافى بصفحته الفضية، وقد افترش الجميع الأرض بعُشبها الناعم الرطب، تحت القباب الخضراء لأغصان الشجر وقد بدت وكأنها غلائل من حرير سندسى ..

سار سالم مع زوجته على ضفاف النهر يستعيدا معا ذكريات الأيام السعيدة حينما كانا يسعدا بحياتهما قبل أن تحل النكبة بمدينة بالنسية .. حيث تحدث سالم لنائلة فقال لها:

- ما أجمل هذا المكان وأروعه .. فأنا أشعر وكأن ماء النهر يغسل صدرى من هموم وأحزان راسية فى النفس لا تمحها الأيام .. وهأنذا .. أشعر فى هذه الأيام بعودة الدماء تجرى فى جسدى من جديد .. لتروى قلبى الظمآن الذى لطالما عاش لحظات الحرمان وأنا بعيد عنك أنت وابنى .. بعد أن كان يجمعنا بيت واحد..

- الحمد لله الذى قد مَنّ علينا بعودتك لنا سالماً، وقد أخذت منى الظنون وألقت .. بينما أصارع نزغات السوء، التى ينزع بها الشيطان إلى فكرى .. ولكن سرعان ما يذهب الروع والخوف من نفسى، وأنا أقرأ فى القرآن، وأدعو الله أن يُمن علينا بعودتك سالماً وعلى أفضل حال .. وما هى إلا لحظات، ويطمئن بعدها القلب .. وتهدأ النفس، فتصبح كلمات القرآن وكأنها بلسم يطفئ نار الخوف فى قلبى .. وحقاً قوله تعالى ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ ..

- الحمد لله إننى قد اطمأننت عليكم، وما يحزننى أننى لم أستمتع بمشاعر الأبوة، وقد حرمت من رؤية عبد الله وهو ينمو ويكبر بين ذراعى .. ولكن ماذا عسانا أن نفعل، وقد ابتلينا بما حدث فى بالنسية .. ولعلها تعود إلينا على المدى القريب

- هل هناك حرب قريبة سوف يخوضها جيش المرابطين..؟

- أظن ذلك، فمعسكرهم القريب من المدينة يعج بالعسكر القادمين من مراكش .. وقد سمعت أن أمير المسلمين يوسف يدعم الحملة الجديدة بجيش هائل لم ير الأندلس مثيلا له من قبل ..

- وهل ستكون معهم..؟

- كما قلت لك .. ما إن أستعيد عافيتى حتى أتقدم للتطوع ضمن فرق المتطوعين من رجال الأندلس

- إذن ستفارقنا من جديد

- هذا قدرنا .. وليس من المعقول أن اتخلف عن نجدة بلادى

- وكم ستبقى معنا ..؟

- لن أرحل قبل شهر من الآن

- الحمد لله أننا سنستمتع بك لشهر آخر ...

ووضع سالم ذراعه حول خصرها، وسارا بجوار النهر، وهما صامتين، يستمتعان معاً بزقزقة العصافير تحت ظلال الأشجار، ونسمات هواء الربيع المنعشة، بينما تتراءى لهما الزهور المتفتحة هنا وهناك تهتز وترتجف على أغصانها، وكأنها ترقص وتطرب لشدو الطيور ..

مجلس البلاط

ضاق الأميران فرناندو، ودييجو من عزلتهما فى بالنسية حيث يقيمان مع زوجتيهما بنتا السيد فى دار فخمة بضاحية بلا نويه ..

وزهدالأميران فى التواجد بالمناسبات التى تجمعهما مع قادة جيش السيد، الذين كانوا يلاحقوهما بنظرات السخرية والازدراء، وينعتاهما بالجبن والخسة ..

بل زاد الطين بلة .. أن ابنتى السيد كانتا تنعتاهما بهذه الصفات كلما دب الشجار بين أحدهما وزوجته .. وبمضى الوقت، حل البغض والكراهية مكان الحب والوئام بين كل أمير وزوجته .. وضمر الأميران فى نفسيهما ما لم يطلعا به أحدا ..

بينما رودريجو يجلس على مائدة العشاء مع الأميرين وابنتيه بالقصر الملكى حيث يقيم .. تحدث دييجو إليه فقال:

سيدى القنبيطور .. لقد قررت أنا وفرناندو أن نعود إلى ديارنا فى كاريون حيث ضياعنا الفسيحة بما فيها من مزارع، وبساتين، وخيل وماشية، وكل ذلك بحاجة لرعايتنا، وتواجدنا هناك .. ونرجو أن تسمح لنا بمغادرة بالنسية، وبرفقتنا زوجتينا .. لكى تنعما بما لدينا من خير وأموال هناك .. وكل ذلك يعود بالمنفعة على الجميع .. وهناك فرصة ليتعرف عليهما أهالى البلاد هناك .. فهما أميرتان سوف تحظيان بالرفعة والمكانة الرفيعة اللتان هما أهل لها ..

سعد رودريجو بما سمعه من حديث دييجو .. وعلى الرغم من معارضته لرحيل ابنتيه من بالنسية، إلا أنه قنع بضرورة تواجدهما مع زوجيهما أينما كانوا كزوجتين وفيتين لهما .. فقال:

- اسمع يا دييجو، وفرناندو .. إذا كانت هذه هى رغبتكما الأكيدة .. فلا مانع لدى .. وسوف ترحلان من بالنسية ومعكما زوجتيكما كأميرتين وفيتين لزوجيهما .. ولكنى أوصيكما بهما خيراً .. وأنتما مسئولان عنهما كزوجين مخلصين لزوجتيهما، يوفران لهما الحماية والعناية، ويذودان عنهما بروحيهما ضد أى مخاطر أو صعاب ... فيرد عليه فرناندو

- لهما كل ما قلت يا سيدى القنبيطور، وأكثر من ذلك

- إذن بارك فيكما الرب

انتشر خبر رحيل الأميرين إلى كاريون، فإحتشد الفرسان والقادة بأزهى الملابس، واصطفوا لوداع الأميرين والأميرتين ابنتى السيد .. وفى أزهى رداء تقدمت الأميرتان لتحية والديهما، حيث جثتا على ركبتيهما أمام السيد وزوجته خامينا وقالتا:

«نطلب رضاك يا أبانا.. يحفظك الخالق .. فمن صلبك جئنا .. ومن رحم أمنا ولدنا .. فأنتما أمامنا سيدتنا، وسيدنا .. لكما علينا الوفاء بكل ما تأمران به»

فردت عليهما أمهما خامينا فقالت:

«اذهبا يا بنتى .. فى حراسة الخالق .. ومعكما رضا أبيكما، ورضائى .. ارحلا إلى كاريون، حيث توجد ضياعكما .. إنى أحس فى أعماقى بأنكما سعيدتين فى زواجكما ..»

فقبلت الأميرتان يدا أبيهما وأمهما من بعد .. فباركهما السيد ومنحهما رضاه

ثم تقدم السيد ومنح الأميرين السيفين «تيفون»، «وكولادا» هدية لهما .. كما منحهما ثلاثة آلاف مارك، وخيلا وبغالا محملة بالهدايا والملابس وعباءات وأقمشة حريرية وغيرها الكثير ..

وقام السيد بتكليف ابن أخيه .. فيلث مونيوث وهو من أتباعه من الفرسان المخلصين ليرافق الأميرين والأميرتين حتى كاريون، ومعهم فرقة من الفرسان الشجعان والأتباع للحماية والرعاية ..

سار الموكب مودعاً بالنسيه.. ووقف رودريجو وأتباعه وكبار رجال بالنسية فى وداع الأميرتين والأميرين .. والجميع يدعون لهم بحياة تملأها السعادة والهناء ..

حطت القافلة أولاً فى إمارة شنتمرية وبات الجميع فى ضيافة الأمير أبو مروان عبد الملك، ثم تابع الموكب الرحيل حتى وصلوا إلى بلدة وحصن مولينا على الحدود الغربية لملكة سرقسطة حيث استضافهم للمبيت .. القائد المسلم ابن غلبون، وأكرم وفادتهم على الوجه الأكمل ..

وفى صباح اليوم التالى رافقهم إلى مدينة سالم حيث حدود المملكة الإسبانية، وودعهم عائداً إلى بلدته ..

رحلت القافلة عن منطقة أنسريرا حيث مضت تقطع الليل والنهار، ثم خلفوا وراءهم جبال مييدس .. وبعدها تجاوزوا مدينة سان أستبان ..، ثم دخلت القافلة غابات كوربس بوحوشها الضارية الطليقة تغدو وتجئ، ومن حولها الجبال الشاهقة، والأشجار العالية، وكأن أغصانها تنبش فى قلب السحاب ..

وما أن وصلوا إلى بستان يتوسطه نبع صاف من المياه حتى أمر أميرا كاريون القافلة بالنزول لنصب الخيام .. وأخلد الجميع إلى الراحة

وداخل خيمة كل منهما احتضن كل أمير زوجته بين ذراعيه يبادلها الحب والغرام .. ولا يبدى كل منهما لزوجته إلا العطف والمحبة ..

ما أن أشرقت الشمس حتى أمر أميرا كاريون القافلة برفع الخيام والمضى قدماً إلى حيث مقاطعة كاريون، على أن يلحقا بالقافلة هما وزوجتيهما ..

وبعد ساعة من رحيل القافلة، قال فرناندو للأميرتين

الآن جاء وقت الانتقام منكما .. ومن أبيكما الذى يظن نفسه ملكاً .. وما هو إلا سليل عائلة ليس لها مجد أو شرف مثل عائلتنا .. الآن جاء وقت حسابكما على ما أبديتما من سخرية لنا يوم واقعة الأسد الطليق .. وما بعدها .. الآن وقت الحساب ..

ثم سرعان ما قام الأميران بخلع ملابس الأميرتين إلا من قمصان خفيفة لكل منهما، وقاما بإحكام وثاقهما فى الأشجار، وقاما بجلدهما بالسياط حتى خارت

قوى الأميرين من التعب، وتشققت قمصان الأميرتين من وقع الجلد بالسياط، ونزفت منهما الدماء بغزارة، وغابتا عن الوعى ..

وسرعان ما نهض الأميران ليصعدا على ظهرى جواديهما، وينطلقا ليلحقا بالقافلة، وقد علت وجهيهما الابتسامة ..

فى هذه الأثناء .. شعر فيلث مونيوث بالقلق الشديد، وهو يسير بالقافلة مرغماً بعد أن أجبره الأميران على ذلك .. وقرر أن ينتهز الفرصة، ويهرب عائداً ليتلصص على الأميرين، وفى رفقتهما الأميرتين ليطمئن عليهما ..

بين الأشجار تخفى فيلث، بعد أن رأى الأميرين قادمين من بعيد ليس معهما الأميرتين، وراح يسترق السمع، بعد أن اقتربا من مكان تخفيه على الدرب المؤدى إلى القافلة فأنصت وهما يتحدثان إلى بعضهما فقال فرناندو:

ـ ها قد تخلصنا منهما للأبد .. فإن عاشتا بعد جلدهما بالسياط فلن تفلتا من أنياب ومخالب الوحوش الضارية بالغابة وستصبحان طُعماً لها .. وعلى كل حال فلم تكونا لتصلحان أبداً كأميرتين ... فقال دييجو:

ـ حقاً لقد نالتا ما تستحقانه من عذاب بعد أبدت كل منهما السخرية منا فى الكثير من المناسبات دون أى اعتبار لمشاعرنا، وكأنهما تقصدان إهانتنا أمام الجميع .. ولن يستطع القنبيطور المساس بنا وقد عدنا لديارنا وأصبحنا بين أهلنا ورفاقنا ..

ـ حقاً ما تقول .. هيا بنا فقد اقتربنا من الديار .. هيا

وما آن ابتعد الأميران عن مكان فيلث مونيوث حتى تقدم بفرسه منطلقاً إلى حيث الموقع الذى كانت تعسكر فيه القافلة .. وسرعان ما وصل إليه، فوجد الأميرتين فاقدتا الوعى .. فأحضر الماء مسرعاً وغطى جسديهما بعباءته وحاول بكل ما أوتى من قوة أن يعيدهما إلى الوعى ..

وبدأتا تستعيدان وعيهما بصعوبة بالغة .. بينما فيلث يتلفت حوله خوفاً وفزعاً من أن يعود الأميران وأتباعهما فيفتكا به وبالأميرتين دون تردد ..

ما إن استفاقت الأميرتان بعد أن قدم لهما فيلث الماء .. حتى حملهما على فرسه القوى، ومضى بهما مسرعاً إلى مدينة سان أستبان ..

بعد ساعات وصل فيلث إلى المدينة وسريعاً ذهب إلى صديقه القديم دييجو تييث، وقص عليه ما حدث، وسرعان ما قدم له صديقه كل ما تحتاجه الأميرتين من الرعاية والملبس والغطاء ..

وعلم أهل مدينة سان استبان بما تعرضت له الأميرتان، فتوافد الأهالى يقدمون ما يستطيعونه من طعام ورعاية، وبدأت الأميرتان تتماثلا للشفاء ..

وما أن وصل الأميران إلى بلدتهما، حتى لاحقهما فى المقاطعة خبر الأميرتين وما تعرضتا له ..

وانتشر الخبر يوما بعد يوم فى كل أرجاء قشتالة .. وعلم الملك الفونسو بما جرى، حيث صدم لما حدث وتألم كثيراً لذلك، وتأكد له فشل الزواج الذى كان راعياً له ..

وأصبح موقف الملك محرجاً للغاية، فهو من جانب على صداقة وطيدة مع آل أنسورث فى كاريون وهم من كبار رجال البلاط الملكى، ولهم أعوان وأتباع كثيرون .. ومن جهة أخرى فهو كراع للزواج أصبح مسئولاً أمام القنبيطور رودريجو، وأمام الأمراء والكونتات فى كل المملكة الأسبانية، وسوف يراقب الجميع ما سوف يُقدم عليه الملك، وما يستتبع ذلك من آثار لا يعلم أحد مداها ..

راح رودريجو يمشط لحيته الطويلة بأصابعه بينما يفكر فيما جرى لابنتيه ..

شكراً للمسيح سيد العالم .. أما وقد ارتكب أميرا كاريون هذا الجرم .. فبحق هذه اللحية التى لم يستطع مخلوق أن يمسها أبداً لن يستطيعا أن يحققا ما أراداه من إهانتى .. وسوف أزوج ابنتى مما هما أفضل منهما .. وسوف ينالا عقابى قريبًا .... هكذا تحدث رودريجو إلى نفسه، وقد عزم الانتقام ..

أصدر رودريجو أوامره على وجه السرعة إلى ابن أخيه ألبير هانيس، وبدرو برمودث، ومرتين أنتولينييث، وطالبهم بالتحرك فوراً إلى سان استبان لمرافقة ابنتيه فى طريق العودة إلى بالنسية، ودعمهم بمائتى فارس من خيرة الفرسان ..

استقبل الأهالى فرسان السيد أفضل استقبال، وعبر لهم ألبير ورفاقة عن سعادة القنبيطور لما قدمه أهل المدينة من رعاية وعطف للأميرتين، ووعدوا الأهالى بالخير الوفير حيث لا ينسى القنبيطور من يساعده فى محنة ابنتيه أبداً..

وودع أهالى المدينة الفرسان العائدين إلى بالنسية، وحيوا الأميرتين وقد اغرورقت عيناهما حباً لأهل المدينة، وعرفناً بفضلهم عليهما .. وانطلق الفرسان عائدين إلى بالنسية ..

وقفت خامينا وزوجها فى استقبال فرقة الفرسان العائدة، وبقلوب تملأها الفرحة راحت الأم وزوجها يحتضنان الأميرتين العائدتين، وأقام السيد احتفالاً كبيراً بعودة ابنتيه إلى أحضانه من جديد بعد المحنة التى تعرضتا لها ..

بحث مونيو جوستيوث عن الملك الفونسو حتى عثر عليه فى بلدة سهاجون، ثم توجه إلى قصره للقائه كرسول قادم من قبل القنبيطور حاملاً رسالة إليه ..

دخل مونيو جوستيوث وبرفقته فارسان من رجال القنبيطور إلى حيث يجلس الملك، ومن حوله كبار رجال البلاط، فجثا مونيو على ركبتيه وقبل يد الملك وقال له:

لكم الجلال مولاى الملك .. وإن سيدى القنبيطور يقبل يديكم، معترفاً بكم كسيد لمملكة أسبانيا العظيمة .. لقد زوجتما بنتيه من أميرى كاريون .. وكان زواجاً مشرفاً كما أردتموه يا مولاى .. ولكن ها أنتم ترون جلالتكم كيف أساءا بشدة إلى بنتى القنبيطور، وأقدم لجلالتكم رسالة القنبيطور يصف لكم بالتفصيل ما تعرضت له الأميرتان من تعذيب وإهانة .. وسيدى القنبيطور يطلب منكم دعوة أميرى كاريون إلى مواجهة قضائية، أو فى البلاط .. فلقد أهنا فى شرفنا، وإهانتكم أشد .. وسيدى يطلب من جلالتكم أن تشاركوه آلامه، وأن تمكنوه من أخذ حقه منهما ..

فكر الملك عميقاً وهو صامت لا يتكلم ثم قال:

أقول لك الحق .. إننى قد حزنت من القلب .. وما تـعَـرَّضَت له الأميرتان يجعلنى أتمنى لو أن هذا الزواج لم يحدث أبداً .. سوف أعاون القنبيطور لكى يأخذ حقه، وليساعدنى الخالق فى ذلك .. سوف يمضى رُسلى عبر كل مملكتى

ينادون باجتماع مجلس البلاط فى طليطلة .. وسيدعى كل الأمراء والكونتات، وسوف يحضر أميرا كاريون المجلس لكى يردا على مطالب القنبيطور .. قل له إننى سأراقب الأمر باهتمام بالغ .. وليستعد ومعه من يشاء من تابعيه منذ الآن وحتى سبعة أسابيع ليأت إلى طليطلة فى الأجل المحدد.

حيا مونيو جوستيوث الملك، وشكره على اهتمامه، ثم قفلَ عائداً إلى بالنسية ليخبر القنبيطور برد الملك على رسالته، وتحديد موعد له ليلقاه فى طليطلة بعد سبعة أسابيع ..

وأرسل الملك الفونسو من فوره عدة رسائل إلى الأمراء والكونتات فى كل أنحاء المملكة الأسبانية .. فى ليون، وقشتالة، وجليقيه، والبرتغال، وشانت ياقب .. وغيرها وأخبر الجميع بانعقاد مجلس البلاط فى طليطلة بعد ستة أسابيع .. وجاء فى كل رسالة تحذير من عدم الحضور وذلك بالحرمان من رعاية الملك، وما يتبع ذلك من آثار ..

واستلم الأمراء والكونتات، والفرسان الدعوات بالحضور ، وأخذ كل منهم يجهز نفسه، حتى لا يتأخر عن دعوة الملك ..

وفى كاريون أحس الأميران بالخوف والهلع .. وشعرا بما قد يلقيانه فى مجلس البلاط من ذل وإهانة، وكان خوفهما أشد لتواجد القنبيطور فى الاجتماع .. وعقد الأميران جلسات تشاور مع أسرتيهما للبحث فى هذه القضية الهامة، وما قد ينتج عن الاجتماع من آثار قد تهدد حياة ومصير الأميرين بصورة خطيرة..

وقرر مجلس الأسرة أن يرسل إلى الملك الفونسو يطلب منه إعفاء الأميرين من حضور اجتماع مجلس البلاط .. إلا أن الملك رفض ذلك بصورة قاطعة للمحافظة على قيام العدالة بالمملكة بصفته المنوط بها بالحفاظ عليها وحمايتها .. وهدد الملك الأميرين بالنفى خارج المملكة، ورفع الحصانة والحماية عنهما ..

وعادت أسرة الأميرين للاجتماع لتدارس الموقف، ودعى للاجتماع الأقارب والأتباع، والحلفاء .. وكان الكونت جرسيه أوردنيث الخصم اللدود للقنبيطور رودريجو أحد حاضرى هذا الإجتماع كحليف رئيسى لأسرة أنسورث أمراء كاريون

.. وقدم نصائحه للأميرين اللذين استمعا إليه باهتمام بالغ، ووعيا ما قاله لهما، واستعدا للذهاب إلى مجلس البلاط فى الموعد الذى حدده الملك ..

ومع اقتراب موعد عقد اجتماع مجلس البلاط توافد المدعوين إلى مقر الملك بقصره بطليطلة .. حيث حضر أولاً الكونت فرويلا دياث (شقيق خامينا زوجة القنبيطور، وهو كونت مقاطعة ليون وأشتورياش) .. ثم تبعه الكونت جرسية حاكم مقاطعة الريوخا .. والكونت ألبار دياث حاكم مدينة اوكا .. ثم حضر خبراء القانون من كافة أنحاء المملكة ..

كما حضر رجال آل أنسورث أمراء مقاطعة كاريون .. جنثالبو (والد الأميران) .. وبدرو (عم الأميران) حاكم مدينة الوليد ..

وتوافد الفرسان من كافة أنحاء المملكة .. وأخيراً حضر الأميران فرناندو، ودييجو أميرا كاريون ومعهما ثلة من الفرسان والأتباع وهم فى حالة تحفز وترقب وتوتر .. وانتظر الجميع حضور القنبيطور رودريجو ..

حل موعد الإجتماع، ولم يحضر القنبيطور، وشعر الملك الفونسو بالحرج، وبدأت تظهر عليه العصبية والغضب إلى أن جاء ألبير هانيس إلى قصر الملك وقدم التحية للملك وأخطره بوصول القنبيطور إلى حدود المملكة بالقرب من طليطلة ..

وعلت وجه الفونسو علامات البشر، وانفرجت أساريره وغمرت الفرحة وجهه بإكتمال حضور جميع المدعوين لمجلس البلاط دون تخلف أحد ..

وطفق الملك خارجاً من القصر ليستقبل رودريجو، الذى ما أن رأى الملك حتى جثا على ركبتيه وقَبَل قدمه .. فرفعه الملك مطالباً إياه أن يكف عن ذلك، ويكفى أنه (أى رودريجو) قد قَبَل يده .. ورفعه إلى أعلى واحتضنه إلى صدره، فقبله رودريجو على فمه .. وأمضيا وقتاً طيباً معاً، ثم عاد الملك إلى القصر على وعد باللقاء فى مجلس البلاط .. بينما بقى القنبيطور فى معسكره الذى شيده على ضفة نهر التاجو ..

مع أتباعه المخلصين ألبير هانيس ساعده القوى، والمطران دون خرونيمو .. والفرسان الشجعان بدرو برمودث، ومونيو جستيوث، ومرتين أنتولينيث، وإلبار

الباروث، وجليندو جرسيه .. ورجل القانون مال أندا وغيرهم حيث اكتمل عددهم مائة جلس القنبيطور يتحدث إليهم بالمعسكر فقال لهم:

.. انصتوا إلى جيداً .. حينما نذهب لمجلس البلاط يجب أن ترتدوا ملابس مريحة تحت دروعكم كى لا تشعروا بوطأة الحديد .. وعلى الدروع صديرى أبيض ناصع، ومن فوقه الفراء الفاخر، والعباءات الزاهية .. ثم خبئوا السيوف تحت العباءات .. وعلى هذا النحو ندخل مجلس البلاط لنطالب الملك بحقنا .. فإن أراد آل أنسورث قتالاً نكون مستعدين لذلك .. وسوف أقود القتال بفرسانى المائة..

وسرعان ما رد الفرسان على القنبيطور فى صوت واحد نحن ننتظر ذلك بفارغ الصبر ثم انصرفوا ليعدوا أنفسهم على الهيئة التى طالبهم القنبيطور أن يكونوا عليها ..

حضر الجميع مجلس البلاط فى اليوم الذى حدده الملك بعد أن اكتمل الحضور .. وبالقصر الملكى جلس الملك ومن حوله الأمراء والكونتات والفرسان بترتيب أقدميتهم، وبقى الجميع ينتظرون قدوم القنبيطور ..

على الهيئة المتفق عليها تقدم القنبيطور برجاله المائة، حيث لبس درعًا خفيفا وفوقه الصديرى الأبيض، ومن فوقه الفراء، وحول الرقبة كوفية من الحرير أخفت لحيته الطويلة، ومن فوق الفراء عباءة فخمة، وقد تدلى السيف من خصره، وعن يمينه ويساره، ومن خلفه رجاله الأقوياء ..

دخل القنبيطور القاعة .. فانبهر الحضور لمظهره هو وأتباعه، وقام الملك الفونسو يدعوه للجلوس بجانبه على الأريكة إلا أن السيد حيا الملك وقبل يده، وطلب أن يجلس على أريكة مستديرة وسط رجاله وأتباعه ..

قام الملك من مجلسه وتحدث للجميع فقال:

اسمعونى أيها الفرسان حفظكم الخالق .. لقد دعوت مجلس البلاط مرتين منذ توليت الملك .. كانت المرة الأولى فى مدينة برغش .. والثانية فى كاريون .. أما الثالثة فنعقدها الآن فى طليطلة وأنتم شهودها ..

والمناسبة التى ينعقد فيها المجلس اليوم هى لكى يأخذ القنبيطور حقه الذى يقرره المجلس مما قد لحق به من آذى من أميرى كاريون فرناندو، ودييجو .. وقد عينت كل من الكونت دون آنريك .. والكونت دون رامون ليكونا القاضيين لهذا المجلس .. ويساعدهما عدد آخر من الكونتات ..

اصغوا إلىّ جميعكم جيداً .. نحن نريد أن نحكم بالقانون .. ولا أود أن يلحق الظلم بأى مخلوق .. سنلزم الخصمين بالسلام اليوم .. وإننى أقسم بالقديس سان إيسدورو أن من يشهر السلاح فى بلاطى سوف أنفيه من مملكتى، وأحرمه من أفضالى ..

سيتقدم القنبيطور رودريجو يطلب حقه، وكما نعرف يجب أن يرد عليه أميرا كاريون .. هيا فلتبدأ الجلسة ..

نهض القنبيطور رودريجو وقبل يد الملك ثم قال:

«أشكر سيدى الملك على دعوته مجلس البلاط ... وحقوقى التى أطالب بها أميرى كاريون هى أن ينفصلا عن بنتاى .. وأنتم يا مولاى من زوجتهما .. وقد ودعت الأميرين وهما يتركان بالنسية على أفضل وأجمل وأليق تشريف .. وقد منحتهما سيفاى تيفون .. وكولادا .. وهما على قدر كبير من القيمة والأهمية .. وما قدمته لهما والمكانة التى كانا عليها فى بالنسية تثبتان القدر الذى عاملت به الأميرين .. ولكن فى المقابل تركا الأميرتين فريسة للجوع والمرض والضوارى فى الغابة بعد أن قاما بتجريدهما من الثياب .. ثم جلداهما بالسياط من دون رحمة أو شفقة .. »

ثم واصل القنبيطور حديثه فقال:

«إن الأميرين وما أقدما عليه من فعل إجرامى قد قطعا أواصر ما بيننا من ود وفقدا ما كانا يتمتعان به من حب فى قلبى .. فليردا لى إذن سيفاى فلم يعودا صهرى بعد ..»

حينئذ رد القضاه فقالوا: معك كل الحق فى ذلك «فرد الكونت جرسيه وقال: سنعطى رآينا فيما قاله القنبيطور .. عندئذ انتحى الأميران جانباً ليتشاورا ومعهم أقاربهما والعصبة التى جاءت معهما، ثم عادا ليتكلم مندوباً عنهما فقال:

«بالرغم من الجمائل الكثيرة التى خصنا بها القنبيطور .. إذ لم يطالبنا إلا بالسيفين .. وأن الأميرين مستعدان أن يردا له السيفين، وبذلك تنتهى القضية، ويودع القنبيطور مجلس البلاط، ويرحل عائداً لبالنسية .. ولا يحق له أن يطالب بأى شىء من بعد .. »

وفى هذه اللحظات قام الأميران وتقدما ناحية الملك وكل منهما يحمل سيفا ويضعه على المائدة أمام الملك ..

ثم نادى الملك الفونسو القنبيطور، وقدم له السيفين وسط إنبهار الفرسان الحاضرين بالمجلس .. لمظهرهما وقد أخرجا من غمديهما، وبدا تألق بريقهما، وبراعة صنعهما للجميع .. وقبل القنبيطور يد الملك واستلم السيفين وعاد إلى أريكته

ومن مكانه على الأريكة أخذ القنبيطور يداعب لحيته بأصابعه ثم نادى على ابن أخيه بدرو ومد يده بالسيف تيفون، وقدمه له وهو يقول له «خذه يا ابن أخى، معك سيكون فى يد سيد يليق به» ..

ثم نادى مرتين أنتولينيث، ومد يده حاملاً السيف كولادا، وقدمه إليه وهو يقول له «خذه يا تابعى المخلص .. وإننى أعطيه لك لتعتنى به، وتحافظ عليه .. وما من مناسبة تستعمله فيها فستعرف كيف تنتصر به شريفاً وشجاعاً .. » فقبل مرتين يد القنبيطور وتلقى منه السيف ..

ثم وقف السيد قائلاً:

- سيدى الملك .. أما وقد ردا لى السيفان .. فإنه لى شكوى منهما .. فقد أعطيت كل منهما يوم غادرا بالنسية فى آخر لقاء بينى وبينهم ثلاثة آلاف مارك من الذهب والفضة الخالصة .. ولأنهما قد قطعا أواصر الصلة التى بينى وبينهما، فأطالب بأموالى التى أعطيتهما إياها كاملة

وما أن فرغ القنبيطور من كلامه حتى هاج الأميران وماجا، وراحا يشتكيان ويقولان:

- لقد أعدنا السيفين للقنبيطور، ولم يطالبنا بشىء آخر .. ولا يحق له ذلك

عندئذ رد القاضى دون رامون قائلاً لهما:

- ردا .. نعم أولاً ... فيرد الأميران

بعد أن استعاد السيفان لا يحق له أن يطالب بالمزيد... فيرد القاضى دون رامون موجهاً حديثه للملك فقال:

- لو سمحت لى يا مولاى .. إن ردّنا على ما يطلبه القنبيطور .. هو أننا لا نعارض طلبه.... فقال الملك:

- وأنا أوافق على ما تقول

فقام القنبيطور فقال للقاضى:

- هل سترد لى الأموال التى أعطيتها لهما، أم أن كل ما هنالك أنك أعطيتنى الحق فيها

قام الأميران من مكانهما ليتشاوروا مع أعوانهما " ماذا يمكن أن نفعل إزاء ذلك.. إن ما يطلبه القنبيطور مبلغًا باهظًا.. لا نستطيع أن ندفعه له .. لقد أنفقنا المبلغ كله فى أغراض كثيرة ولم يعد متبقى منه شىء هكذا تحدث الأميران إلى مستشاريهم وأعوانهم .. وبعد حديث قصير يعود الأميران إلى المجلس ليقولا:

لقد أنفق علينا القنبيطور بسخاء لأنه كان يطمع فى الحصول على ثرواتنا، وينظر إليها فى غيرة، ولإرواء نهمه، سوف نقطعه جزءا من أراضينا فى كاريون

وهنا تدخل القضاة وقالوا:

- إذا أرضى ذلك القنبيطور فلن نعارضه نحن .. أما رأينا الذى نحكم به أن تعطوه الأموال التى أعطاها لكما .. ولكن يمكن أن تقدما أشياء تقايضون بها بعض هذه الأموال .. بشرط أن يقبلها القنبيطور

لم يجد الأميران مفراً من سداد المبلغ، فبعثا إلى المجلس الخيل والبغال المحملة بالبضائع والأقمشة، والغلال وغيرها من السيوف والدروع، وكلها يتم تسليمها للسيد وأتباعه الذين قاموا بفحصها وحراستها ..

ولم يكف ما استلموه للوفاء بقيمة الدين، فاقترض الأميران من أتباعهم وأعوانهم ليسددوا ما بقى من المبلغ الباهظ ..

ثم وقف القنبيطور أمام الملك قائلاً له:

ـ مولاى الملك .. رضاك هو ما أبغى .. وأنت تعلم أنهما قد أهانانى ولا أستطيع أن أنسى ذلك .. وليسمع المجلس ويشاركنى آلامى .. لقد أهان الأميران شرفى بقوة، فلا أقل من أن تتاح لى الفرصة كى أتحداهما .... ثم وجه حديثه إلى الأميرين قائلاً:

ـ قولا لى أيها الأميران لما مزقتما شغاف قلبى ..؟ .. عندما خرجتما من بالنسية سلمتكما ابنتى بيدى .. ومعهما أعطيتكما أموالاً طائلة، وأجريت لكما مراسم التشريف .. فإذا كنتما لا تحبانهما أيها الكلبان الخائنان لماذا رحلتما بهما من بالنسية ومعهما الشرف والمال .. لماذا أوثقتماهما، وجلدتماهما بالسياط..؟.. إن العار الذى ارتكبتماه هناك، ذهب بكل ما لكما من قيمة، فليحكم مجلس البلاط فى القضية إذا لم يردا اعتبارى ... عندئذ نهض أسور جنثالث من أتباع أمراء كاريون فقال:

ـ فلتذهب أيها القنبيطور إلى طواحينك عند نهر أوبيرنا لتقبض ثمن عرقك حفنات من الدقيق .. فمن ذا الذى يستطيع أن يخلط دمه بدماء أمراء كاريون .. فبنتاك لم تكونا تليقان بهما وقد استعملا حقهما فى التخلص منهما ... فوقف مونيو جوستيوث من أتباع السيد قائلاً:

ـ اسكت أيها الغدار .. فأنت شرير وخائن فأنت لا خلاق لك وسوف أريك قدرك .... ويتدخل الملك الفونسو فى النقاش قائلاً:

ـ دعوا النقاش .. إننى قد أجبت طلب القنبيطور للتحدى، وليعين لنا من يقوم بالتحدى بالمبارزة أمام أميرى كاريون ... فيقوم كل من بدرو برمودث، ومرتين أنتولينييث ويقولا :

ـ نحن نتحدى الأميرين ... فيقول الملك:

ـ بدرو مقابل فرناندو .. ومرتين مقابل دييجو ... فيقوم مونيو ويقول للملك، وأنا أتحدى أسور ... فيرد الملك:

وأقرر أيضاً أن يكون أسور مقابل مونيو جوستيوث .. الجميع بالمبارزة

وما أن انتهى كل طرف من عرض وجهة نظره حتى دخل القاعة مجلس البلاط الفارسان أوخرا .. وأنييجو خمينيث .. الأول رسول عن ملك نافار .. والثانى رسولاً عن أمير أرجون، وتقدم الفارسان وقبلا يد الملك طالبين منه الموافقة على زواج ابنتى القنبيطور من سيديهما لتصبحا زوجتين شرعيتين لهما بعقد وشرف ..

وأمام الجميع تقدما بطلبيهما فى مجلس البلاط وهو منعقد قال ألفونسو للقنبيطور:

- ها قد عوضك الخالق .. إن لم يكن لديك مانع فأنا أوافق على هذا الزواج... فقال القنبيطور

- لقد وضعتهما فى حماك وبين يديك .. وبدون أمر منك لا أقدم على شىء

- حسناً .. هأنذا أعلن أمام الجميع فى مجلس البلاط موافقتى على هذا الزواج المشرف .. وساكون أنا من يقدم يدى بنتى القنبيطور إلى ملك نافار وأمير أرجون

عندئذ تقدم الرسولان وقبلاً يد الملك .. ثم فعلا نفس الشىء مع القنبيطور، وتمت الخطبة فى مجلس البلاط، وأقسم الجميع اليمين

ثم أعلن الملك آن المبارزة بين الخصوم تكون غداً عندما تشرق الشمس ثلاثة ضد ثلاثة .. وهم الذين تحدوا فى مجلس البلاط .. إلا أن أميرى كاريون طلبا من الملك التأجيل حيث أن سلاحهما وخيلهما قد قدماها للقنبيطور .. وبعد مناقشة الملك للقنبيطور يتفق الخصوم على أن تكون المبارزة بعد ثلاثة أسابيع فى سهول كاريون، وتحت إشراف الملك بنفسه .. ثم يقول الملك:

- «ستتم المبارزة بإشرافى، فى محضرى، ومن لا يفى بالموعد يخسر كل حق ويمكن اعتباره مهزوماً، وينسحب كخائن»

ثم تقدم القنبيطور وقبل يد الملك وقال له:

- الأفضل لى أن أعود إلى بالنسية من أن أذهب إلى كاريون .. وسوف أترك فرسانى الثلاثة فى أمان، وأرجو أن تشملهم برعايتك وحمايتك

- هم فى حمايتى ورعايتى .. ولا تقلق من ذلك.

المبارزة .. !

أمضى القنبيطور يومين فى معسكره مع فرسانه وقدم النصح للفرسان الثلاثة الذين سيخوضون المبارزة فقال لهم:

ـ أنت يا مرتين أنتولينييث، وأنت يا بدرو برمودث، ومعكما مونيو جوستيوث تابعى الأوفياء.. عليكم بالثبات جميعاً ساعة اللقاء .. بارزوا كرجال، سأبقى فى بالنسية متلهفاً لأخباركم الطيبة... فيرد عليه مرتين

ـ لم تقول هذا يا سيدى..؟ لقد عرفنا مهمتنا، وعلى استعداد لنؤدى واجبنا، كأفضل ما يكون.. ربما يقال لك أننا قتلنا..! أما هُزمنا فلا ..

سعد رودريجو مما سمعه من مرتين ثم ودعهم، والتقى بالملك ليودعه قبل الرحيل ثم غادر طليطلة عائداً إلى بالنسية..

حل الموعد المتفق عليه، حيث بات الفرسان الثلاثة التابعين للقنبيطور فى حماية الملك الفونسو بمعسكره الذى شيده على ربوة متوسطة الارتفاع، بمكان المبارزة فى سهل فسيح بمقاطعة كاريون، تكسوه الأعشاب الخضراء على مدى البصر، وبدت الروابى الخضراء متناثرة هنا وهناك على مسافات متباعدة.. بينما تلبدت السماء بالغيوم الرمادية التى حجبت شعاعات الشمس الأولى عند الشروق..

تحت رخات خفيفة من المطر .. تحرك الملك بحرسه الملكى وقد ارتدى حلة حمراء، ومن فوقها عباءة سوداء موشاة من عند الأكمام وعلى ظهرها رسم صليب كبير بلون فضى، وعلى صدره تدلت سلسلة غليظة بها صليب من الذهب الخالص ..

ووصل إلى حيث مكان المبارزة .. وبقى على ظهر فرسه الأدهم فى منتصف المسافة للأرض المخططة التى ستجرى عليها المبارزة، وقد حددت أركانها بالبيارق الملكية .. واصطف إلى يمينه ويساره كبار الكونتات الذين عينهم الملك كمُحَكِمين، وجمع من رجال البلاط والفرسان من كافة أركان المملكة الأسبانية ليكونوا شهداء على المبارزة وما جرى فيها ..

تحرك فرسان القنبيطور إلى جهة اليمين من الملك .. ووقف ثلاثتهم على صف واحد وعلى مسافة عشرة أمتار من الحد الأمامى للجانب الأيمن وقد امتشقوا رماحهم، وفى قمة كل رمح يرفرف بيرق صغير .. وتدلت السيوف من آجنابهم، وعلى صدورهم تدلت شعاراتهم المذهبة ..

ومن بعيد قدم الأميران على فرسيهما المسرجان على أفخم هيئة ومعهم أسور جنثالث، وقد رفع أتباعهم الرماح التى يعلوها شعار المقاطعة الملكية .. ووقف الثلاثة على الجانب الأيسر من الساحة وعلى نفس المسافة من الحد الأمامى للجانب الأيسر ومن خلفهم وقف أقاربهم وأتباعهم وحلفاؤهم من أمراء وكونتات وفرسان وعلى رأسهم جرسيه أوردنيث ..

خرجت الأبخرة من مناخر الخيل وهى تهز رءوسها لأعلى وأسفل فى قلق .. لتقطع السكون الذى خيم على المكان للحظات، بعد أن اصطف الجميع كل فى مكانه .. وتقدم الملك بفرسه بضع خطوات ووقف ليقول:

ليسمعنى الجميع .. نحن هنا لنحكم فى التحدى الذى طالب به القنبيطور لرد شرفه، إزاء ما تعرض له من إهانة ..

وهنا فى سهول كاريون تجرى المبارزة .. قبلت أنا ذلك، وقبل القنبيطور ذلك آيضاً .. ولأننا فى أرض كاريون .. فأود أن يعلم الجميع أن الصراع سيكون داخل الساحة المخططة بعناية .. ولن أسمح لأى شخص مهما كان أن يتدخل فى المبارزة، أو يقوم بأى عمل أحمق .. فرجال القنبيطور أنا مسئول عن حمايتهم، ومن يخالف ما أقوله سأقف ضده أنفذ فيه القانون .. ففى أرض مملكتى لن يصيبه إلا الامتهان والتحقير

ثم تابع الملك يقول:

فليعلم الرجال الستة المتبارزون بما يجب عليه أن يتبعوه ..

يعتبر مهزوماً من يتجاوز الحد المقرر له على الأرض ..

تخلى ساحة المبارزة من جميع المتواجدين، ويبقوا حولها بمسافة لا تقل عن طول ستة رماح من كل جانب ..

المبارزة الأولى ستكون بين الأمير فرناندو، والفارس بدرو برمودث

المبارزة الثانية ستكون بين الأمير دييجو، والفارس مرتين أنتولينييث

المبارزة الثالثة ستكون بين الفارس أسور جنثالث، والفارس مونيو جستيوث

هكذا كما أعلنت الآن وبالترتيب ..

الآن يتخذ المتبارزان الأولان مكانيهما على حافة الجانب المخصص لكل منهما ..

تحرك الملك بفرسه عائداً للمكان الذى كان واقفاً فيه .. بينما يتخذ المتبارزان الأولان مكانيهما عند ساحة المبارزة ..

وقف المتبارزان وجهاً لوجه وقد أنزلت الرماح ووجهت للأمام، وبقيت الرايات ترفرف فى الهواء، واتكأ كل منهما على حافة سرجه، وهما ينظران لبعضهما البعض فى حذر وتحفز .. منتظران شارة البدء من الملك .. بينما الفرسان يصهلان، وقد اشتما رائحة الصراع الذى على وشك أن يبدأ ..

أعطى الملك إشارة البدء فهمز كل مبارز جواده فاندفع واثباً للأمام، بخطى قوية متسارعة فاضطربت الأرض وارتجت من تحت أقدام الخيل وهى تعدو بسرعة البرق ..

اقترب رأسا الرمحان من هدفيهما .. احتكاك .. تصادم .. ضرب .. فرقعة.. انكسار .. انفصال .. تباعد ..

بعد التحام الخصمين إنكسر رمح فرناندو بعد أن رشقه فى كتف بدرو .. فاحتك بالدرع، ومزق جزءاً منه، ولكن لم تصل الإصابة لجسد بدرو الذى تلقى الضربة وثبت على جواده ممسكاً برمحه موجهاً إلى فرناندو ..

تقدم فرناندو وقد شهر سيفه بدلاً من رمحه المكسور، بينما بدرو يناوشه بالرمح وقد صوبه نحو جسده ..

يكر فرناندو ليتفادى رأس الرمح الطويل، ويعدو خلفه بدرو يلاحقه ..

فرناندو يحاول ألا يتخطى حد الساحة، ويناور للعودة إلى داخلها .. بدرو يحاصره فى ركن الساحة .. فرناندو يهرب من حد الرمح، ليعود إلى داخل الساحة .. وبدرو يضرب برمحه فيصيب الأمير فى صدره فيقع من حصانه على الأرض .. ومن بعده يقع الحصان على ذيله ولا يقوم من مكانه ..

الطعنة لا تخترق صدر الأمير حيث اخترق الرمح طبقتان من الثلاث طبقات التى يتكون منها الدرع .. لم تقتل الطعنه الأمير .. ولكن غرزت الملابس والدروع الممزقة فى الجسم من تحت الدرع .. فسالت الدماء بغزاره من فم الأمير ..

الأمير يحاول النهوض .. والرمح مرشوق فى الدرع وعلق به، ويتقدم بدرو نحو الأمير وقد استل سيفه تيفون من غمده وتوجه ناحية الأمير الملقى على الأرض ..

الأمير يصيح بأعلى صوته وقد رفع يده .. أنا مهزوم .. أنا مهزوم

القضاه يوقفون المبارزة، ويعلنون فوز بدرو ..

يقف الأمير دييجو مضطرباً وقد وجه رمحه للفارس مرتين

الفَرَسَان وجها لوجه .. والرمحان مصوبان كلٍ إلى هدفه، بينما الرايات تخفق مع نسمات الهواء البارد

تمر اللحظات وكأنها الدهر .. ثم تنطلق إشارة البدء ..

تعدو الخيل وكأنها سهام قد غادرت أقواسها .. وتقترب الرماح وتتشابك .. تهتز الأيدى .. النصال على النصال .. طرقعة شديدة .. انكسار .. وشظايا صغيرة تتناثر ..

انكسر الرمحان وقد اصطدما بالدروع .. وكلٍ يسارع بسحب السيف من غمده

يا إلهى .. كولادا يلمع متألقاً، وكأن ملك الموت راقد على حده المصقول ..

الخيل تتواجه من جديد .. الأمير يتعلق بصره بنصل السيف كولادا .. بينما مرتين يتهيأ للضرب بالسيف الرهيب ..

الأمير يحبس أنفاسه .. ويصمم على ألا يمسه حد كولادا ..

تعدو الخيل .. تقترب .. السيوف تضرب .. النصل بالنصل .. تليها ضربتان أخريان ..

السيفان تشتاقان للدم المراق .. وكل نصل يهوى على جسد غريمه فيوقفه حد السيف الآخر

مرتين يسدد ضربة تطيح بخوذة الأمير، فينكشف من تحتها غطاء الرأس، والكوفية الرقيقة ..

الأمير يُلقى بغطاء الرأس والكوفية بسرعة حتى لا يدركه مارتين بضربة أخرى ..

الأمير يمد يده للأمام بسيفه ليطعن مرتين .. ولكن اليد تتراخى ولا تجرؤ على الطعان .. وقد تعلقت العينِ مرة أخرى بحد سيف كولادا ..

الخيل تقترب من جديد .. الأمير يخشى على نفسه ..

.. انقذنى يا إلهى .. صاح الأمير .. انقذنى يا إلهى المجيد .. يا سيدى .. احمنى من هذا السيف ..

الأمير يعدو مسرعاً بفرسه خارج حدود الحلبة ..! وقد أطلق العنان لفرسه ناجياً من كولادا

وبقى مرتين وحده بالحلبة .. حيث ناداه الملك «تعال إلىّ بلا تأخير .. نضالك بالحلبة يجعل منك المنتصر الوحيد .. »

القضاة تتفق على أن الملك قد قال الحقيقة ..

أسور جنثالث الفارس المتهور الجسور، وحليف أميرا كاريون يقف وقد هيأ نفسه للقتال حتى الموت

أسور يأخذ مكانه متحفزاً، ومصمماً على النصر ..

مونيو جستيوث الفارس المغوار أكثر تهوراً وأشد تصميماً .. يأخذ مكانه وقد مد رمحه للأمام

تنطلق الإشارة، ومعها تعدو الخيل بلا تأخير، وكأنها تهفو لعناق قاتل، وعراك دام لطالما دُربت عليه .. فعشقته وأحبته كلما دعيت إليه ..

اقترب المتبارزان .. الحراب تضرب .. الدروع تصد .. الفارسان صامدان

حد الرمح أصاب شارة مونيو فوق صدره .. وتَحَمل الدرع الطعنه وقد التف معها جسد مونيو حتى لا تخرقه ..

المتبارزان يتواجهان من جديد، والرماح مسددة .. تنطلق الخيل فيسدد مونيو رمحه إلى صدر أسور فيضرب الدرع .. بينما تطيش ضربه أسور بعد أن احتكت بدرع مونيو دون أن تخرقه ..

درع أسور تفدغ وسقطت شارته من صدره، وترنح أسور على فرسه بفعل الضربة .. ثم سرعان ما يستعيد توازنه ..

مونيو يتابع الهجوم بسرعة ويسدد الرمح من بعيد فيخترق الدرع عند الصدر..

أسور يسقط بفعل الضربة .. والدماء تسيل من فمه ..

مونيو يسارع بسيفه ليضرب عنق أسور الممدد على الأرض، وأسور يرفع سيفه ليتلقى ضربة مونيو ..

الكونت جنثالبو يصيح .. «لا تمسه بحق السماء إنه مهزوم .. إنه مهزوم .. كل شيء انتهى الآن .. »

الطعنة لم تنفذ إلى اللحم .. وأسور ينجو من الموت ..

القضاة يقولون «لقد سمعنا ما قلته يا جنثالبو .. »

الملك يعلن نهاية المبارزة

أتباع القنبيطور جميعهم فازوا فى المبارزات .. يا له من مجد

فرسان القنبيطور الثلاثة، انسحبوا من أرض المبارزة برفقه الملك .. وفى ظلمة الليل يسارعون بمغادرة المقاطعة التى تتأجج فيها نار الغضب فى صدور الرجال بعد ما لحق العار والخزى بأميرى المقاطعة .. ويتابع الفرسان المسير ليلاً ونهاراً بلا توقف حتى يخرجوا بسرعة إلى خارج حدود الولاية الجنوبية الغربية للمملكة الأسبانية ..

وقف القنبيطور يستقبل فرسانه الشجعان وهم عائدون من طليطلة .. وعلت وجهه ابتسامة عريضة، بعد أن حققوا له ما أراد، وأعادوا له هيبته وقد لحق العار والذل بأمراء كاريون .. يا له من مجد ويا له من شرف ورفعة ..

أسبانيا كلها تتحدث عن ذلك .. آسبانيا كلها تتغنى بمجد السيد وفرسانه .. أسبانيا كلها لن تنسى هذا التحدى المثير ..

وقف رودريجو فى الحفل الكبير الذى أعده للحفاوة بفرسانه الشجعان وقال:

الآن وقد قدمتم لى الشرف والرفعة فى أسبانيا كلها .. فإنى فخور بكم .. فأنتم مثال للشهامة والإخلاص المتفانى .. لقد منحتونى حياة جديدة بهذا النصر الكبير ..

لا تستطيع الكلمات أن تعبر عما يجيش بصدرى .. ولكنى وإن كنت أقدم لكم هذه الهدايا .. فما هى إلا تعبير متواضع عن مدى حبى وامتنانى بكم ..

فيتقدم بدرو ويقول :

« سيدى .. هذا غير منصف .. لقد أغدقت علينا من قبل حباً وإخلاصاً ورعاية .. رعاية قد لا يلقاها أى منا من أبيه أو أمه .. فليس ما قمنا به إلا واجب كان علينا أن نؤديه نحو قائدنا وصديقنا، وحبيبنا .. السيد القنبيطور .. »

وتكتمل الفرحة بزفاف ابنتى السيد .. الأميرتين دونيا ألبيرة على الكونت رامون بيرانجه الثالث أمير أرجون .. ودونيا سول على الأمير راميرو ولى عهد مملكة نافار .. ويعقد القران المطران دون خيرونيمو بالكاتدرائية فى بالنسية، وتستمر الأفراح بضاحية بلا نوبه لعدة أيام ..

وفى هذه الأثناء قام القائد ابن عائشة قائد القوات المرابطية فى مرسيه بتجهيز القوات للتحرك غرباً للاستيلاء على الحصون فى منطقة كونكة وسهول كونسيجرا على الحدود الجنوبية الشرقية لمملكة طليطلة الخاضعة لحكم الملك الفونسو، وذلك لتأمين المناطق المتاخمة لحدود مملكة بالنسية، لإخضاعها لسيطرة المرابطين لمنع وصول إى إمدادات من جهة الغرب لمملكة بالنسية عند التقدم لحصارها ..

وكان سالم قد انضم إلى إحدى فرق المتطوعين من رجال شرق الأندلس التى شُكلت لتكون ضمن فرق الجيش المرابطى فى كل من معسكرى الجيش المرابطى بالقرب من مدينة مرسية .. وشمالاً بالقرب من مدينة شاطبة ..

وسرعان ما تم اختيار سالم كقائد سرية فى الفرقة المُشكلة حديثاً نظراً لما يتمتع به من خبرة وقدرة قتالية ميزته عن الكثير من أقرانه .. وانضمت هذه الفرقة إلى القوات المتجهة غرباً ..

وتقدم الجيش المرابطى بقيادة ابن عائشة واقترب من سهول كونسيجرا .. وسرعان ما تحرك الجيش الأسبانى بقيادة القائد ألبير هانيس .. ابن أخ القنبيطور حيث كان الملك الفونسو قد استبقاه لديه بالمملكة الأسبانية ليستعين به فى قيادة الجيش الأسبانى ..

وكان الجيش يضم خيرة الفرسانِ الأسبان الشجعان، ومنهم الفارس الشاب دييجو .. ابن القنبيطور الذى تربى فى بلاط الملك الفونسو كأحد أبرز الفرسان المقربين منه، وتعتبر ساحة القتال فى أرض المعركة هى الطريق السريع للفوز بالألقاب الرفيعة لفرسان البلاط الملكى وكذا لاحتلال المكانة المرموقة التى تمهد لحيازة الألقاب الملكية ..

تقدم الجيش الأسبانى للقاء الجيش المرابطى الذى اخترق الحدود الجنوبية لمملكة طليطلة وحاصر الحصون هناك، وأصبح الجيشان وجهاً لوجه ..

اختار أمير المسلمين يوسف بن تاشفين القائد ابن عائشة ليتولى قيادة الجيش المرابطى المعد إعداداً جيداً ليحقق النصر على الجيش الأسبانى، بعد أن منى

الجيش المرابطى بعدة هزائم بسبب عدم كفاءة قادته واستهتارهم بخصومهم فى ميدان القتال ..

مع شروق الشمس نشب القتال ضارياً بين الجيشين، واستطاع الجيش الأسبانى أن يتقدم فى قلب الميدان حيث حشدت فرق متطوعى الأندلس فى المنتصف .. وتقهقرت فرقة المتطوعين قليلاً أمام تقدم الأسبان ولكن سرعان ما تماسكت من جديد وتصدت للهجوم الأسبانى ..

حرك القائد ابن عائشة قوات على يمين ويسار الجيش الأسبانى لتشتت القوة المحتشدة فى قلب ميدان القتال .. فسحب القائد الأسبانى بعض قواته لصد هجوم الجيش المرابطى على الأجناب ..

لاحظ سالم وجود ثلة من القادة الفرسان بالجيش الأسبانى مميزين بالشارات والأعلام تقود القتال فى منتصف تشكيل الهجوم، ويآزرها الكثير من الفرسان الذين يبدون اهتماماً بالمجموعة المتقدمة فى الأمام ..

وأدرك سالم أن تحقيق النصر على هذه المجموعة من الفرسان من شأنه أن يحسم المعركة فى قلب الميدان، فقرر سالم أن يتقدم بسريته فى منطقة القلب والتصدى لهذه الفرقة فقام بمحاصرة فرقة الفرسان الأسبان فى القلب .. وتقدم سالم ليواجه أحدهم ومن حوله ثلة الفرسان الأقوياء ..

استمر القتال بين الفريقين رهيباً سالت فيه الدماء بغزارة، واستطاع سالم أن يسدد طعنة قاتلة إلى قلب دييجو، سقط على أثرها مضرجاً فى دمائه ..

لم يكد الفارس يسقط فى الميدان حتى سمع سالم همهمات وصياح من الفرسان الأسبان .. وسرعان ما دب بينهم الاضطراب، وحاصره مجموعة منهم لمنعه من مواصلة القتال مع الفارس الذى سقط أمامه فى الميدان ..

واجه سالم الفرسان الأسبان الذين أحاطوه ببسالة نادرة .. إلا أن الفزع الذى تملكهم ولكثرة عددهم من حوله، جعله فى مأزق شديد .. وسرعان ما تقدم رجال سالم من حوله لإنقاذه إلا أن أحد فرسان الجيش الأسبانى حاول أن يضربه فوق عنقه فتصدى سالم للضربة، ولكن انزلق السيف فأصاب كتفه، حيث تمزق

الواقى وتقطعت الأربطة التى تثبته على الكتف، وسالت الدماء بغزارة وسقط فى ميدان القتال ..

انشغل الأسبان بمحاولة إخلاء الفارس دييجو من أرض المعركة مما مكن رجال الجيش المرابطى من سحب سالم إلى خارج ساحة القتال ..

وفى نفس الوقت، استغل رجال الجيش المرابطى حالة الاضطراب فى قلب الميدان، وراح الفرسان ينهالون ضرباً بالرماح والسيوف، حيث تساقط معها الكثير من رجال الجيش الأسبانى ..

وفى هذه الأثناء كان الجيش المرابطى قد حقق نجاحا كبيرا بالهجوم على آجناب الجيش الأسبانى .. وسرعان ما تمزقت جموعه .. وبدأت مقاومة الجيش الأسبانى تنهار مما أدى إلى تبعثره إلى فرق صغيرة حاصرها الجيش المرابطى، وألحق بها خسائر فادحة ..

ومع غروب الشمس فر الجند الأسبان من الميدان نحو التلال القريبة، ولاحقهم رجال الجيش المرابطى لمسافات بعيدة، ثم عادوا بعدها إلى ميدان القتال ليحتفلوا بالنصر الكبير على الجيش الأسبانى ..

كعادة الجيوش المرابطية .. تم جمع جثث قتلى الجيش الأسبانى على هيئة أكوام .. صعد على كل منها جندى مرابطى، وراحوا يؤذنون ويكبرون من فوقها للنصر الكبير على جيش الأعداء ..

انسحب ألبير من ميدان القتال، وقام بتجميع فلول جيشه وتقدم بها نحو قلعة وحصن كونكة ليمنع جيش المرابطين من الاستيلاء عليه .. إلا أن الجيش المرابطى كان هدفه الرئيسى الاستيلاء على هذا الحصن الكبير ..

تقدم الجيش المرابطى، وحاصر القلعة لعدة أيام، وقاد ابن عائشة الهجوم بلا هوادة تمكن بعد أسبوع من تحقيق النصر الحاسم على الجيش الأسبانى والحامية القشتالية بالحصن .. وفر ألبير هانيس عائداً إلى طليطلة يجر أذيال الخيبة والعار ..

مكث الجيش المرابطى فترة عاث فيها بكل أراضى مملكة طليطلة فى الجنوب، واستولى على الكثير من الحصون الهامة هناك وقام بتعيين حاميات مرابطية

فيها كقواعد أمامية للجيش المرابطى لتأمين الحدود الغربية لشرق الأندلس مع حدود المملكة الأسبانية ..

وبعد أن استقر الوضع هناك غادر ابن عائشة بالجيش متجهاً إلى جنوب شاطبة حيث معسكر الجيش الأمامى هناك للإعداد للتقدم نحو بالنسية ..

راحت الأجواء الاحتفالية التى لطالما سادت فيما مضى بالأمسيات المبهجة بضاحية بلا نوبة بمدينة بالنسية .. حينما عاشها رودريجو محلقاً فى سماء الزهو والسعادة والغبطة .. راحت تتحول إلى كابوس ومأتم كبير ..

فقد نزل خبر مقتل دييجو الابن الأوحد لردريجو .. كوقع الصاعقة المهلكة .. أخذ رودريجو يتخبط على أثر الخبر المفجع فى جنبات القصر، يسقط أرضاً ثم يقوم .. يزحف على بطنه تارة، وأخرى يرقد على جنبه ممدداً على البلاط الرخامى للقصر ..

بينما صرخت خامينا ملتاعة من هول الخبر الأسود .. وراحت تحدث نفسها فتقول:

أرجوكم لا تقولوا لى أنه قد مات .. أرجوكم لا تنطقوا بهذه الكلمة من أفواهكم .. إستحلفكم بالله أن تكفوا .. دييجو لم يمت .. دييجو حى .. دييجو هذا الشاب اليافع اقترب من المكانة الرفيعة التى عشت حياتى لكى أراه فيها ..

لا .. لا تقولوا لى أن ولدى حبيبى .. وقرة عينى .. قد أصبح ذكرى وخبراً .. بعد أن كان يملأ الدنيا طولاً وعرضاً ..

لا تقولوا أناالقمر المضئ فى ظلمة النفس .. قد أصبح سواداً مُحاقاً (١) يحرق القلب ويمزق الضلوع ..

أين أنت يا شمس أشرقت لتسطع فى سماء وجودى ..

أين أنت يا بلسم الروح، وأكسير الخلود ..

لا .. لا تقولوا إنه لن يعود .. لن يعود .. لـ ن .. يـ عـ و .. د ..

---

(١) سمى المُحاقُ مُحاقا لأنه طلع من الشمس فمحقه فلم يره أحد .. وامتحاق القمر احتراقه وهو أن يطلع قبل طلوع الشمس فلا يرى ، يفعل ذلك ليلتين من آخر الشهر .

فيتهاوى جسدها على الأرض .. وتروح فى غيبوبة طويلة .. ويبقى جسدها نحيلاً ممدداً على الفراش، وقد تمنت صاحبته أن يكون بمثابة القبر، لتبتعد عن واقع مؤلم لا تريد أن تعيشه ..

ويعود رودريجو يحدث نفسه من جديد فيقول وقد اضطرم قلبه بالحقد والغضب.

آآه منكم أيها الأوغاد القتلة .. آآه منكم أيها المرابطون الملعونون .. ألا تستكينوا أبداً .. ألا تهدأوا .. ألم يكفيكم ما ألحقته بكم من هزائم أيها العنيدون.. قسماً بالرب لأذيقنكم ويلات لم تروها من قبل .. سألحق بكم الخزى والعار .. وأسقيكم مرارة الهزائم الواحدة تلو الأخرى حينما تأتون سوف تروا من هو رودريجو ..

لا .. لا .. لن أنتظر حتى تأتوا إلىّ لن أنتظر بل سآتى أنا إليكم .. وسأسفك دماءكم وأشرب منها لأروى غليلى .. ولن تكفنى لآخذ ثأر ابنى .. ولكن ترويع نسائكم، وترمُلهن .. ويُتْم أولادكم وقد فقدوا آباءهم .. ودماؤكم المسالة فى ساحات القتال قد يكون فيها بعض الشفاء .. بعض الشفاء ..

أشرقت شمس الربيع لسنة (١٠٩٨ ميلادية) (٤٩١هجرية) بينما يسير رودريجو فى شرفة القصروهو يمشط لحيته بأصابعه كعادته وأخذ يفكر فى كيفية الانتقام من جيش المرابطين .. وبينما هو منشغل بذلك طالعته الروابى الخضراء لقلعة مربيطر من بعيد على مدى البصر فقال يحدث نفسه ..

«هاه .. مربيطر .. أبو عيسى ابن لوبون .. لا لم يعد هناك .. آآه تذكرتك يا عبد الملك .. لقد نسيتك طويلاً .. وبعد أن كنت أثق فيك .. فإذا بك تغدر بى وتتحالف مع الملاعين المرابطين يوم أن حاولوا حصارى فى بالنسيه .. آه .. يا الصدفة السعيدة .. لتكن أنت بداية انتقامى لتفتح شهيتى كى أضرب المرابطين من بعدك .. إذن فأنت البداية ..»

وقف جيش السيد على أعتاب المدينة منتظراً الأمير يحيى ابن الأمير أبو مروان عبد الملك أمير شنتمرية الشرق ..

استقبل رودريجو الأمير ببرود ثم أجلسه بجواره فى خيمته فقال له رودريجو:

ـ أهكذا تردون الجميل على أصدقائكم، وتشاركون المرابطين فى حصارهم لنا ببالنسية ..

ـ يآه هذا منذ سنوات أيها القنبيطور .. ولم نشاركهم فى الحصار

ـ بل شاركتموهم

ـ ربما كان هذا على سبيل المجاملة لجيش المرابطين .. وأظن آن ما أرسل من قوات لم يتعد مائة فارس لا أكثر .. وأنت تدرك آن هذا العدد لا يقدم ولا يؤخر شيئاً

ـ لا يهمنى إن كان يقدم أو يؤخر .. انا أتحدث عن المشاركة

ـ سيدى القنبيطور هذا من أجل درء شر المرابطين .. وأنت تعلم ماذا فعلوا فى آمراء وملوك الأندلس من قبل

ـ مهما يكن .. لم يكن باستطاعتهم أنم يفعلوا شيئًا .. وها هم قابعون كالفئران داخل خيامهم فى شاطبة لا يجرأون على التقدم لحصارى فى بالنسية وقد لقنتهم درساً استوعبوه ولم يعاودوا الهجوم مرة أخرى

ـ ولكنهم لا يفتأون يستعدون، ويجهزون الجيوش للغزو ... يصمت رودريجو قليلاً ثم يتابع فيقول:

ـ اسمع أيها الأمير .. لن أنتقم من والدك .. ولكن لابد لكم من أن تدفعوا الثمن..

ـ ماذا تقصد أيها القنبيطور ..؟

ـ أقصد آن تسلموا لى مدينة وحصن مُربيطر مقابل عدم تعرض بلادكم شنتمرية للغزو من قِبل قواتى ..

ـ أهذا معقول .. لا يمكن لك أن تتخلى عن صداقتنا بهذه السهولة .. !

ـ لقد سبق لكم أن تخليتم أنتم عنها

ـ قلت لك إن هذا لظروف خارجة عن إرادتنا

ـ قلت لك لابد من تسليم المدينة ... يسكت الأمير يحيى قليلاً ثم يقول:

ـ هل تسمح لى بزيارة والدى الأمير للتشاور

ـ لا بأس ويجب أن تجيب على طلبى خلال إسبوع واحد

ـ لك ما تريد ..

عاد الأمير إلى مُربيطر وقابل كبار رجال المدينة وشاورهم فيما يطلبه السيد، فما كان منهم إلا أن رفضوا مطالب السيد وقرروا الصمود أمام الحصار، والدفاع عن المدينة الحصينة وحصنها المنيع ..

غادر الأمير يحيى المدينة على اتفاق بالعودة إليها بعد التشاور مع أمير شنتمرية الذى كان قد اشترى الولاية من حاكمها الوزير أبو عيسى بن لوبون من قبل دون أن يسدد له كامل ثمنها ..

فى قصر الإمارة جلس الأمير يحيى مع والده الأمير أبو مروان عبد الملك، فى حضور كبار رجال المدينة ومنهم عبيد الله حاكم مقاطعة أذكون، وابنه محمد .. فقال الأمير أبو مروان موجهاً حديثه إلى ابنه ولى العهد الأمير يحيى:

آرى أن تبقى هنا ولا تعد ثانية إلى مربيطر .. فأهلها عازمون على التحدى .. والقنبيطور عنيد ولن يتركها لهم أبداً ... فيتدخل عبيد الله فى الحديث ويقول:

ـ وهل نترك المدينة بلا قائد تواجه هذا اللعين المسعور رودريجو ... الأمير أبو مروان يتجاهل حديث عبيد الله ويستمر فى التحدث لابنه فيقول:

ـ رجال مدينة مربيطر عنيدون .. ولن تستطيع أن تتعامل معهم إذا ما قررنا الصمود للحصار، وقد تتعرض لمؤامرة هناك .. وتصبح بين شقى الرحى .. السيد من خارج الأسوار .. ورجال المدينة من خلفها وحولك .... فيتدخل الوزيرعبيد الله مرة آخرى فيقول:

ـ الخيانة لا تقع أبداً بين الأخوة رفاق السلاح عندما تكون النوايا صادقة .. وخير لنا أن نموت ونحن ندافع عن بلادنا من أن نموت ومن حولنا الجوارى القينات ... الأمير ينظر شزراً إلى عبيد الله ويقول له:

ـ كف عن هُرائك الذى تتفوه به .. والله لو كنت حاكما على قرية صغيرة ما بَقيِت تحت ولايتك شهراً واحداً .. هل تريد أن نتحدى السيد ..؟ حتى تهل علينا جيوشه لتحاصر القصر الذى نجلس فيه

ـ والله لو كنتم قد أنفقتم أموالكم من أجل شراء العسكر والعتاد بدلاً من القينات الفاتنات لكان لكم أكبر جيش فى سائر الأندلس، وما استطاع هذا العربيد المسعور من أن يبتزكم أنتم معشر أمراء وملوك الأندلس ..

ـ عبيد الله إن لم تكف سوف يكون لى معك شأن آخر .. ولن تقيدنى عرى المصاهرة بيننا إذا لم تحفظ لسانك ... فيقول له عبيد الله:

ـ حسناً فلتسمح لى أن أقود المدينة هناك ضد حصار السيد لها .. فإن نجحنا فتكون قد استبقيت المدينة لك فلا تفقدها .. وإن فشلت أنا فلن تخسر شيئًا، وعلى الأقل تتخلص منى إلى الأبد

ـ حتى هذا الذى تقوله .. هراء .. فإن وجودك هناك يجعلكَ وكأنك ممثل لى، وسوف يضمر ذلك رودريجو، ويأتى إلينا ليهاجمنا هنا فى عقر دارنا

ـ وهل نترك المدينة لتلقى مصيرها، وتصبح داراً للكفر كما حدث فى بالنسية..

ـ المجلس انتهى ولا تعليق على ما قلته الآن .. ولينفذ الجميع ما أمرت به دون تردد

وينهض الأمير أبو مروان من مجلسه ويغادر القاعة، بينما عبيد الله يضرب كفا بكف وهو يردد.. لا قوة إلا بالله العلى القدير ... لا قوة إلا بالله العلى القدير..

داخل المعسكر الكبير بجوار جبال الوادى الجبلى القريب من مدينة شاطبة .. سار قائد فرقة شرق الأندلس بجيش المرابطين ومن حوله مساعدوه يتفقد الجرحى بالمرستان المقام بالمعسكر ..

«هؤلاء هم مصابو معركة كونسيجرا وواقعة حصن كونكة» .. يقول المساعد للقائد وهو يمر على المصابين .. ثم يتوقف القائد أمام أحد الأسرة ويقول:

ـ من .. ؟ سالم .. غير معقول

ـ آه شئ لا يصدق .. جاسر

ـ ماذا أصابك يا سالم .. ياه الجرح كبير .. حمداً لله على سلامتك ... ثم يلتفت إلى مساعديه ويقول:

ـ أكملوا المرور على المصابين والمرضى وسوف ألحق بكم .... فينصرفوا ليتركوا القائد جاسر بن جابر بن حسن الفهرى يتحدث إلى القائد المصاب .. فيتابع جاسر حديثه فيقول:

ـ ماذا حدث لك

ـ الحمد لله .. فقد أصبت بضربة سيف، ولكن الله ستر ..

ـ وكيف حالك يا سالم .. ؟ .. ومتى انضممت للجيش .. ؟

ـ التحقت بفرقة المتطوعين بمعسكر مدينة مرسية منذ نحو أكثر من سنة

ـ انه نفس وقت التحاقى بالمعسكر هنا .. وقد تعرف علىّ بعض القادة هنا من أعوان القائد ابن عائشة حينما كنت أقوم بالاتصال بين القاضى بن جحاف رحمه الله وبين جيش المرابطين، فتم تعيينى قائد سرية ثم قائد لعموم الفرقة الأندلسية بعد أشهر قليلة .. فأنا الأقدم بين كل متطوعى الأندلس .. وأنت ما هى درجتك..؟

ـ أقود سرية فى الفرقة القادمة من مرسيه

ـ حسناً إذا سنعمل معاً من جديد

ـ ما هى أخبار رضوى ووالدها الشيخ أبو عبد الله مروان

ـ لقد ولدت لى طفلاً آخر منذ نحو عام أو أكثر وقد سميته عبد الرحمن .. وأبوها فتح حانوتا هنا يلقى رواجاً كبيراً للحدادة وبيع السلاح

ـ آه يا أبا جهاد وعبد الرحمن .. لقد ولدت لى نائلة طفلة سميتها سلمى .. ووالدها يعيش معنا فى مرسية ويتاجر كعادته فى الفاكهة والخضراوات حيث يشتريها من الحقول والبساتين ويعيد بيعها بالأسواق بمدينة مرسية

- إذن ابنتك تحمل اسم أبيها

- لقد اختارته نائلة ..

- إذن سوف نلتقى هنا كثيراً لنسترجع معاً ذكريات الماضى الجميلة

- الحمد لله أنك بخير يا جاسر

وقضى جاسر مع سالم ساعة يتجاذبون فيها الأحاديث .. بعد أن افترقا منذ أكثر من عام ورحل كل منهما إلى أسرته، وقد باعدت بينهما المسافات بعد تركهما لمدينة بالنسية ..

أعاد القائد المرابطى ابن عائشة ترتيب أوضاع القوات فى معسكر الجيش بمدينة شاطبة .. وأعاد تنظيم الحراسات والدوريات المراقبة لأحوال القوات الأجنبية على مختلف الجبهات حتى لا يفاجأ بهجوم مباغت من أى قوة موجودة بالقرب من معسكر الجيش ..

وقرر القائد المرابطى إرسال عيون له تتعمق داخل الأراضى المجاورة لتأتى له بكل جديد يجرى فى معسكرات الأعداء .. وركز جهوده على أحوال مدينة بالنسية وما يجرى حولها ..

وعَيَّن ثُلث القوة الإجمالية للقوات الموجودة بالمعسكر لتكون جاهزة فى لباس القتال لمدة ثمانى ساعات بالتناوب .. فإذا ما انقضت الساعات الثمانى تُسَلَّم المهام القتالية للثلث التالى، وبعدها بثمانى ساعات تالية تُسَلَّم المهام إلى الثلث الأخير من القوات، وهكذا ..

وصلت رسالة بعث بها القائد المسئول عن المراقبة الأمامية بالقرب من مدينة بالنسية يخبر القائد المرابطى بقدوم جيش السيد متسللاً تحت جنح الليل لكى يهاجم الجيش المرابطى فى معسكره بالوادى عند مدينة شاطبة ..

تقدم القائد بن عائشة بثلث القوات ليلتقى بجيش السيد المتسلل ليلاً .. وأعد له كميناً على ضفاف النهر عند جزيرة شقر حيث القنطرة التى سيعبر منها جيش السيد للوصول إلى معسكر الجيش المرابطى ..

أعطى القائد المرابطى أوامره لكى ترابط ثلث القوات لحماية المعسكر .. بينما يتقدم الثلث الثالث ليلحق به عند القنطرة ليواجه جيش السيد المتقدم ..

استمر عبور قوات جيش السيد للقنطرة فى هدوء وحذر .. بينما القوات المرابطية بقيادة ابن عائشة تكمن لها على ضفتى النهر ..

وما أن عبر ثلثى جيش السيد القنطرة حتى أعطى ابن عائشة إشارة الهجوم .. فتقدم بقواته مهاجماً مؤخرة القوات التى تحاول العبور .. بينما قامت قوات أخرى بالهجوم بالمواجهة على القوات التى أكملت العبور ..

لدقائق سادت الفوضى فى موقع الكمين .. وفوجئ جيش السيد بالهجوم الهادر للجيش المرابطى واندحرت قوات المؤخرة ولم تجد مفراً إلا الاندفاع للأمام على القنطرة للهروب من الهجوم الكاسح القادم من الخلف ..

وتساقط الفرسان من فوق القنطرة إلى النهر، وانكفأت القوات الأمامية من وقع اندفاع القوات من الخلف .. بينما قامت قوات المواجهة للجيش المرابطى بهجوم شامل على مقدمة جيش القنبيطور، وقد عمت به الفوضى والهرج ..

مع شروق الشمس كشف المكان عن مذبحة مروعة تعرض لها جيش السيد، وقام من بقى منه من رجال وفرسان بالهروب إلى النهر ليبتعدوا عن سيوف ورماح وسهام الجيش المرابطى التى راحت تحصدهم وتزيقهم مرارة الهزيمة المروعة ..

لم يكن السيد على رأس القوات التى تحركت للهجوم على جيش المرابطين .. فقد كان مقتل ابنه قد أنهك جسده ولم يعد قادرا على حمل السلاح والقتال كعادته فى ميدان القتال .. وبقى فى بالنسية ينتظر نتيجة المعركة لكى يرتوى ظمأه ويشفى غليله مع أنباء الانتصار المنتظر .. ولكن الفجيعة كانت أكبر .. والصدمة كانت أشد ..

وقف السيد بشرفة البرج العالى لسور مدينة بالنسية المطل على ناحية الجنوب، فإذا به يشاهد فلول جيشه تترنح وتسير فى جماعات مشتتة .. والوحل يعلق بالأقدام بعد أن غاصت فى قاع النهر، وخاضت فى الأراضى المبتلة فزادتها إنهاكاً وتشرذمًا .. وفُتِحَت أبواب المدينة لفلول الجيش المهزوم المدحور ..

وقف السيد على أبواب مدينة بالنسية ليسأل القادة والجند عما حدث، فلم تجبه إلا نظرات الذهول والحسرة والحزن داخل أعينهم .. ثم التقى بقائد قواته العائد من ميدان القتال، فقص عليه بما قام به الجيش المرابطى، وما أعده من كمين كبير عند قنطرة الجزيرة لنهر شقر ..

لم يتعود السيد الهزيمة من جيش المرابطين، ولم يدر بخلده أن تُمْنَى قواته بهزيمة مفجعة مثل التى منى بها جيشه عند جزيرة شقر ..

وراح يتساءل فى حيرة وحسرة .. ماذا فعلت يا إلهى لكى تنصر عدوى علىَّ.؟ .. لماذا تُمنَى قواتى بمثل هذه الهزيمة المروعة من المرابطين، وقد كنت دائما تمنحنى النصر عليهم ..

لقد قتل ابنى منذ أشهر، وانفطر قلبى غماً وحزناً .. وحينما أردت الثأر له .. فإذا الهزيمة تلحق بى وبجيشى ..

ماذا اقول لقادتى وجندى بعد أن تعودوا النصر على المرابطين ..؟

هل ولت أيام النصر بغير رجعة ..؟ أم أن هذا عقاب منك يا إله السماء ..؟

امنحنى الصبر يارب السماء .. لقد احترق قلبى .. وانهار جسدى .. أمنحنى الصبر لكى أنتقم من أعدائى العنيدين .. أريد أن أنتصر عليهم من جديد .. فهل تمنحنى هذا الشرف ..؟

أرجوك امنحنى النصر ..

وعن انتصار المسلمين على جيش السيد عند جزيرة شقر .. تحدث إمام المسجد الجامع بشاطبة فى صلاة الجمعة يخطب فى الناس فقال:

تحدثنا من قبل عن شروط النصر على الأعداء .. وإنى والله لأرى بعينى اجتهاد الناس من أجل مصالحة الله تعالى والعمل من أجل توفير أسباب النصر .. متبعين أمره .. وتاركين لزجره ..

ولأن المؤمنين لا ييأسوا من رحمة الله .. واثقين فيه عز وجل .. فقد منحنا الله منحة لعلها تكون الأولى لتعقبها منن وعطايا أكثر وأكبر بإذن الله .. وهاهى قد بدت لنا بشائر النصر على أعدائنا عند جزيرة شقر ..

يقول الله سبحانه وتعالى **﴿أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾** ..

فلا يستوى من اتبع رضوان الله فيما شرعه فاستحق رضوان الله وجزيل ثوابه، وأجير من ويل عقابه، ومن استحق غضب الله وألزم به فلا محيد له عنه، ومأواه يوم القيامة جهنم وبئس المصير ..

فاتباع رضوان الله جزاؤه نصر من عند الله .. حيث يقول سبحانه وتعالى ..

﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِى يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) .

ومن نصر الله لكم .. أن يُعينكم على عدوكم، ويمنعكم منه .. فلا تُغْلَبوا إبداً

يا معشر المسلمين .. أوصيكم بالصبر والصلاة .. والتُّقى والعفاف .. والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .. وأبشركم بعدها بنصر حاسم قريب ..

انتظر رجال مدينة وحصن مُربيطر من الشيوخ والأعيان والوجهاء .. عودة الأمير يحيى بن أبى مروان عبد الملك حاكم المدينة، من سفره إلى شنتمرية ليشاركهم قرار مواجهة حصار السيد للمدينة، ولكن مضت أسابيع دون أن يعود الأمير ..

قام رجال المدينة بانتخاب مجلس لحكم المدينة والحصن وتسيير أمور الولاية.. وقرر الجميع رفض طلب السيد بتسليم المدينة، ومقاومة الحصار ..

قرر السيد بتشديد الحصار على المدينة، ومنع الخروج أو الدخول منها وإليها لفترة امتدت لأشهر ..

ثم خرج وجهاء المدينة وشيوخها للتحدث إلى السيد والاتفاق معه على فك الحصار .. واتفق الجانبان على أن يعطيهم السيد مهلة مدتها شهر يخرج فيه ممثلون عن المدينة للذهاب إلى أى وجهة يرونها للاستنجاد بجيش المسلمين ..

---

(١) سورة آل عمران –الآية ١٦٠ .

فإن انتهت المدة من دون وصول إلى نجدة للمدينة تسلم المدينة والحصن إلى السيد وجيشه ..

انتهت المهلة من دون أن تصل إلى نجدة لأهل الولاية .. إلا أن رجال المدينة طلبوا من السيد إعطاءهم مهلة أخرى مدتها اثنى عشر يوماً .. وعلى مضض وافق السيد على طلبهم ولكنه حذرهم من أنهم إن لم يفتحوا الأبواب بعد نهاية الأجل الأخير الذى وافقهم عليه، فإنه سوف يقتحم المدينه بالقوة، وسوف يقتل كل من فيها، ثم يحرقها بالنار ..

مع نهاية الأجل الأخير .. فتحت أبواب المدينة والحصن فى يوم الخميس ٢٤يونيو ١٠٩٨ ميلادية (٢٢ رجب ٤٩١ هجرية) .. حيث دخلها السيد بجيشه لعل ذلك النصر يعيد إليه هيبته التى سقطت وتهاوت مع توالى انتصارات المرابطين فى مختلف الجبهات ..

وسرعان ما وصلت للسيد أخبار تحرك حشود ضخمة من قوات المرابطين من ميناء سبته فى المغرب إلى منطقة الجزيرة الخضراء فى جنوب الأندلس ومنها إلى معسكر مدينة مرسيه ثم معسكر مدينة شاطبة ..

وتحرك السيد عائداً إلى بالنسية، لينظم شئونها استعداداً لمواجهة حصار المرابطين الذى قد يطول لسنوات .. بعد أن وفر المياه والطعام والغلال بكميات هائلة داخل مخازن المدينة .. وزاد فى تحصين الأسوار المحيطة بالمدينة .. كما قام جنوده بتجميع الكثير من الأهالى المسلمين الذين يشك فى ولائهم له وأخرجهم من المدينة بعد أن استولى على أموالهم وكل ما يمتلكوه ..

الجوارى الفاتنات .. !

استقبل الوزير عبيد الله بقصره فى أذكون .. الوزير أبو عيسى بن لويون بعد عودته من سفره الطويل، بعد أن تجول بعدة بلاد آخرها كان فى سرقسطة، ولم يشعر أبو عيسى بالراحة فى أى منها، فقرر العودة إلى حيث الدار التى اتخذها لنفسه فى مقاطعة أذكون ..

كالعادة استقبل عبيد الله الوزير أبو عيسى ابن لوبون بالود والترحاب وتحدث إليه فقال:

- مرحباً بك فى دارك يا أبا عيسى .. ونحمد الله على سلامة عودتك إلينا

- بارك الله فيك يا عبيد الله .. لقد اشتقت لمجالستك والحديث معك، فلا صديق لى فى هذه الدنيا إلا أنت ..

- الكل يحبك يا أبا عيسى، ولست أنا وحدى الذى يجلك ويعتز بصداقتك ..

- هذا فى الماضى يا عبيد الله .. ولكن من بعد أن تنازلت طوعاً عن ولاية مربيطر .. وحرمنى من حقى فيها أميركم .. من بعدها لا ينظر الناس إلىّ كما تعودت فى السابق .. فالناس لا يملأ أحداقها إلا المال والجاه فقط يا عزيزى عبيد الله ..

- من كان لا يملأ عينه إلا المال .. فلن يشبع أبداً .. فلا يملأها إلا التراب ..

- حقاً والله ما تقول يا عبيد الله ... ثم يقول له الوزير عبيد الله

- حقاً قل لى هل ستطالب الأمير بباقى أموالك عن ولاية مربيطر

- كيف يكون لى ذلك وقد امتنع عن سداد مالى وهى بحوزته .. فكيف لى آن أستكمل مالى منه وقد ضاعت منه ..؟

- ولكنك لا ذنب لك فيما حدث

- يدى على يدك .. هل تستطيع أن تعيد لى مالى منه ..؟ .... فيسكت عبيد الله قليلاً ثم يقول:

- قريباً يكون هناك شيئ جديد .. فإن تحقق أعدت لك ما سلب منك

- وما هو الجديد الذى قد يتحقق، فإذا تحقق تعيد لى أموالى .. إنه لغز يصعب علىّ فهمه ألا توضحه لى ..

- ليس الآن يا أبا عيسى .. ولكن أريدك أن تعيننى على شىء ..

- على الرحب والسعة يا عبيد الله .. ماذا تطلب منى

- كل ما أطلبه منك أن تشاركنى الذهاب إلى الأمير بقصره، وكأنك عائد من سرقسطة لتسلم عليه بعد عودتك .. ثم اترك لى الأمر من بعد ذلك

- ولكنى لا أحب أن أذهب إليه .. فلم أعد أطيق النظر إلى وجهه

- أعلم ذلك .. وكلِ ما أطلبه منك أن تتحمل الذهاب معى إليه وكأنه واجب أنت مكره عليه ..

- وماذا بعد ذلك .. ؟

- سوف أشرح لك لاحقاً فى حينه

- كما ترغب يا عبيد الله .. ولا أرفض لك طلباً

- بارك الله فيك ..

استقبل الأمير أبو مروان عبد الملك حاكم إمارة شنتمرية كل من عبيد الله حاكم أذكون .. والوزير أبو عيسى بن لوبون الحاكم السابق لولاية مربيطر التى إستولى عليها السيد القنبيطور أخيراً .. واستهل الأمير الحديث قائلاً لـ الوزير أبو عيسى:

- قل لى أبا عيسى متى عدتَ من سرقسطة

ـ منذ أسبوع على الأكثر ..

ـ وماذا عن رحلتك ..؟

ـ الحمد لله على كل حال .. ولكن لم أجد مكانا أرتاح فيه إلا حيث الدار التى اتخذتها فى مقاطعة أذكون

ـ آه عند رفيقك وحبيبك عبيد الله ... يضحك أبو عيسى والأمير، ويتدخل فى الحديث عبيد الله قائلاً:

ـ لقد انتهزت فرصة عودة أبو عيسى إلى الإمارة هنا فى شنتمرية .. ووجدت أنها فرصة لنا جميعاً لأن نسرى عن أنفسنا ونزيح الهموم عن صدورنا ولو لساعات نقضيها معاً يا مولاى فى أمسية مرحة تحييها الجوارى بالغناء والرقصْ .. وأرجو أن تشرفنا بالحضور إلى أذكون حيث أعددت حفلا خاصا للترحيب بعودة الوزير أبو عيسى للإمارة .. وهى فرصة لكى أريك يا مولاى ثلاثة من الجوارى الفاتنات لم تر عينى مثيلاً لهن منذ سنوات بعيدة

ـ ومن أين حصلت عليهن ..؟

لم أشتر منهن أى واحدة .. ولكنهن عرضن علىّ لكى أشترى ما تروق لى منهن .. والحقيقة أنهن جميعهن بديعات فاتنات .. وإن رغبت فى أى منهن فسوف تكون لك يا مولاى ..

ـ حسناً ومتى ستكون الأمسية ..؟

ـ بعد غد الخميس يا مولاى

ـ حسناً سوف آتى إليك هناك ..

واستمر لقاء الأمير بالوزيرين أبو عيسى وعبيد الله لمدة ساعة .. إنصرفا بعدها عائدين إلى أذكون .. وفى الطريق قال أبو عيسى لـ عبيد الله:

ـ هل طلبت مجيئى للأمير من أجل دعوته ..؟

ـ نعم

وهل كان لا يقبلها أن دعوته وحدك ..؟

ـ العلاقة بيننا ليست على ما يرام .. ولم يكن ليأتى لزيارتى إلا إن كانت هناك مناسبة قوية تستدعى حضوره

ـ وهل أنا السبب الذى من أجله سيأتى الأمير ..؟

ـ فى الحقيقة .. لا .. ولكنه سيبرر حضوره للأمسيه على أنه ترحيب بك وفى الحقيقة أنه سيأتى ليشبع رغبته فى مشاهدة القينات الجديدات الفاتنات ..

ـ حقاً .. ما هى حكاية القينات التى تتحدث عنهن ..؟ .. هل هن جميلات فعلاً ..؟

ـ يا لروعتهن وجمالهن ..

ـ لقد اشتقت لكى أراهن

ـ لا تتعجل إن غداً لناظره قريب

ـ بل بعد غد ..

ويتضاحكان وهما يستأنفان الرحلة إلى مقاطعة أذكون ..

جلست النسوة، زوجات الأمير أبو مروان (أخت عبيد الله حاكم أذكون)، والوزير أبو عيسى بن لوبون، وزوجة صاحب القصر الوزير عبيد الله فى مجلس الحريم الفخم بالدور العلوى وقد مُدت الأرائك المريحة، وبسطت الطنافس الفخيمة، والوسائد المزركشة الناعمة، ووضعت الطسوس النحاسية والفضية وعليها صنوف الفاكهة الطازجة، وأكواب وأباريق العصائر المنعشة، وأخذت النسوة ينظرن من الشرفة وحجبهن عن قاعة القصر .. ستار من النوافذ الخشبية المصنوعة على هيئة تربيعات وأشكال منتظمة تسمح بالرؤية من خلفها فترى النسوة كل من بالقاعة ولا يراهن أحد ..

وفى القاعة الفسيحة كانت هناك نافورة بديعة، تتدفق المياه المسالة منها إلى حوضها الواسع، حيث تتجمع المياه فى قعره المكسو بالفسيفساء الزرقاء والبيضاء، وقد اتخذت رسوم بديعة على جدران الحوض الذى لا يزيدارتفاعه على قدمين عن الأرض ..

ورصت الأرائك والوسائد والطسوس على هيئة دائرة كبيرة، وجلس الأمير أبو مروان حاكم الإمارة وعن يمينه الوزير عبيد الله، وعن يساره الوزير المحتفى به أبو عيسى بن لوبون .. كما تواجد معهم خاصة الضيوف ومنهم حاجب الأمير .. ومحمد الابن الأكبر للوزير عبيد الله ..

وقف حرس الأمير خارج القصر .. بينما أحاط حرس الوزير عبيد الله بالقاعة ولكن من خلف الستائر التى تحيط بالمكان ..

وتألق المكان بروعة الثريات المضيئة والقناديل المتدلية على أركانه .. بينما يطوف الغلمان على الضيوف بأصناف العصائر، والنبيذ الفاخر المعتق .. وراحت الجوارى يشدون بكلمات من نفائس الشعر فَشَدَوْن ..

ولـيلةٍ طـَلقةٍ قضتنى	مـن موعـد باللـقاء دَيـنا
بتنا نجر الذيـول فيـها	والخمر تمشى بنا الهوينا
يدير أجفانَ مستميتٍ	يوسـع كـلَّ الأنـامِ حـَينا (١)

وبعد ساعات قضاها الضيوف فى السمر والضحك والاستماع للغناء ومشاهدة الجوارى وهن يرقصن ويتمايلن على وقع النغمات .. سأل الأمير صهره عبيد الله فقال له وقد لعبت الخمر برأسه:

ـ أين الجوارى الفاتنات .. البديعات .. يا عبيد الله ..؟

ـ سوف آتى بهن بعد إنتهاء هذه الرقصة ... ثم أشار لابنه محمد بأن يقوم ليعد الجوارى للعرض على الأمير ..

تم إخلاء القاعة من الجوارى والعازفين والغلمان .. وما هى إلا دقائق حتى دخلت إلى الرواق ثلاثة من الجوارى وقد ارتدت كل منهن جلبابا ملونا وموشيا وقد غطى الجلباب الرأس ولم تظهر من وجوههن إلا الأعين من تحت الجلباب ..

اصطفت الجوارى ووقفن أما الأمير ليطلع عليهن .. فقال الأمير لعبيد الله:

---

(١) أبيات للشاعر الأندلسى الشهير أبو اسحق بن خفاجه الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة» ج٢ .

- لماذا يغطين وجوههن يا عبيد الله .. أهن خجلات منى .. هاها .. هاها ....
فقال له عبيد الله وقد قام ووقف خلف الجوارى إلى جانب ابنه محمد :

لا .. هن سوف يطلعنك الآن على جمالهن الفتان .. فالآن العرض لك وحدك يا مولاى .. أيها الحاجب (يقصد حاجب الملك الجالس بالقاعة) وأنت يا أبا عيسى برجاء أن تغادرا الرواق لدقائق فالمشاهدة الآن لمولاى فقط ..

فقام كلٍ من الحاجب وأبو عيسى بن لوبون من مجلسهما لا يعرفان ما يقصده الوزير عبيد الله .. وخرجا من القاعة واعتقدا أنه يريد أن يعرض الجوارى وهن عاريات على الأمير ..

استعد الأمير لكى يملى عينيه بمشاهدة الجوارى اللاتى يبدو أن عبيد الله يريد أن يعرضهن عليه وهن عرايا .. «فلماذا لا يوجد أحد بالقاعة إلا عبيد الله وابنه وأنا والجوارى الفاتنات ..» هكذا حدثته نفسه ..

وقف عبيد الله وقال للجوارى:

هيا .. أيتها الجوارى الفاتنات اكشفن عن مفاتنكن للأمير عاشق الجمال والفتنة ..

فقامت ثلاثتهن بخلع جلابيبهن .. ومن بعده الخمار ليكشفن عن وجوههن .. فإذا بالأمير يرى شوارب كثيفة وعيون محمرة الأحداق، ووجوه شرسة لرجال مفتولى العضلات وقد حملوا الخناجر بأيديهم ..

فوثبوا على الأمير، وإنهالوا عليه طعناً فى كل أجزاء جسده .. فأخذ الأمير يصرخ ويستغيث، يضرب قاتليه وقد انتفض رعباً وصرعاً .. لا .. لا .. النجدة .. النجدة .. يا حراس .. النجدة

- أقتلوا هذا العربيد الخائن .. إقتلوه

وفى هذه الأثناء حاول حرس الإمارة الدخول لنجدة الأمير وقد سكر جميعهم بعد أن أغدق عليهم الغلمان بالكؤوس طوال الأمسية .. إلا أن حرس القصر التابعين لعبيد الله تصدوا لهم وقبضوا عليهم وأبعدوهم عن المكان ..

سمعت النسوة الجالسات فى المتكأ الذى يجلسن فيه بالطابق العلوى بالهرج والصياح وكن جميعهن سكيرات .. إلا أن زوجة الأمير (أخت عبيد الله) فاقت من السكر، وقد شاهدت زوجها طريحا على الأرض يقاوم قاتليه وقد استمروا فى تسديد الطعنات إليه .. فصاحت بأعلى صوتها ... واقتيلاه .. واقتيلاه .. واقتيلاه

هرب الرجال الثلاثة المتخفين فى هيئة الجوارى من المكان بعد أن تعالت صرخات النساء .. واقتحم حرس الأمير الواقفون خارج القصرالمكان بعد قتال مع حرس القصر .. وسرعان ما فر أبو عيسى بن لوبون وحاجب الملك من القصر بعد أن أصيبوا بالهلع والرعب ..

بينما أحاط حرس الأمير به لمحاولة إنقاذه، وقد أدرك الجميع أنه لا أمل فى نجاته، وقد تمدد على الأرض، والدماء تنزف بغزارة من بطنه وصدره ووجهه .. بينما هو يصيح قبل أن ينقطع صوته .. الخونة الخونة الخـ و .. نـ وإنقطع صوته..

بعد أن سيطر حرس الأمير على الموقف نادى عليهم الحاجب من خارج القصر بأن يحملوا الجثة إلى العربة الملكية مع زوجة الأمير حيث جلست بجانبه ووضعت كفيها على جراحه تحاول أن توقف نزيف الدماء المسالة من جسد زوجها .. بينما انطلقت العربة للفرار من موقع الحادث للوصول إلى قصر الإمارة ..

توافد الأطباء إلى قصر الإمارة بعد أن علموا أن الأمير مازال يتنفس، وقاموا بتطهير وسد الجراح النازفة من كل أجزاء جسده .. وتوقف النزيف بأعجوبة ..

وجد الأطباء أن معظم الطعنات النافذة بالجسم كانت بعيدة عن القلب والكبد والطحال .. حيث أن مقاومة الأمير لقاتليه لم تمكنهم من تسديد الطعنات للقلب والأحشاء .. بينما تعرض وجه الأمير لطعنات فى الوجه واليدين والظهر، بالإضافة لطعنات عديدة سطحية بالبطن والصدر ..

تحرك الأمير يحيى بن الأمير أبو مروان ولى عهد الإمارة على رأس قوة من الفرسان وحاصر قصر عبيد الله .. وتم القبض عليه وكان يعد نفسه للهرب مع ابنه محمد بعد أن علما أن الأمير مازال على قيد الحياة يصارع من أجل البقاء..

سيطر الأمير يحيى ولى العهد، على الأوضاع بالإمارة، واقتيد الوزير عبيد الله، وابنه محمد إلى السجن، وتم تكثيف الحراسة حولهم لمنعهم من الفرار ..

كما أرسل ولى العهد من فوره إلى بلاد سرقسطة وطليطلة ليستعين بأمهر الأطباء لتقديم أفضل العلاج لتطهير الجراح الغائرة بجسد الأمير حاكم الإمارة لمنع تعفنها لإنقاذ حياته ..

مرت أحداث الليلة الدامية وكأنها كابوس مزعج .. فالأميرة زوجة حاكم الإمارة .. لم يدر بخلدها يوماً أن يكون أخيها هو قاتل زوجها .. وها هى تجد نفسها حائرة بين زوجها وأبو ولدها .. طريح الفراش يصارع الموت، وبين أخيها الذى تم الزج به فى السجن، وأصبح مصيره لا يعلمه إلا الله ..

وفى داره مكث الوزير أبو عيسى بن لوبون يضرب كفا بكف عجباً من الوضع الذى وجد نفسه فيه .. وها هو صديقه الوحيد قد أصبح سجيناً مطلوب القصاص منه .. ويا له من قصاص .. من يدرى .. هل سيكون الخصم هو الحكم .. أم سيكون القصاص كما شرعه الله .. فى كل الأحوال فلن ينعم بأيام وليال بصحبة صديقه القديم عبيد الله ..

وداخل جدران السجن .. ظل عبيد الله شارد الذهن، صامتاً .. بينما ينظر إليه ابنه محمد، وقد أحاطته الأسئلة من كل اتجاه يريد أن يجد لها جوابا لتطمئن نفسه، ويستريح فؤاده ..

تحدث عبيد الله إلى إبنه فقال له:

- تريد أن تسألنى .. ولا يطاوعك لسانك .. هل أنا نادم على ما فعلت .. ؟ .. وأقولها لك بلا تردد .. لا .. لست نادماً على شىء .. لم أقدم على ذلك طمعاً فى جاه أو سلطان .. لو كنت كذلك لأعددت نفسى للاستيلاء على السلطة والقبض على ولى العهد بعد الحادث مباشرة .. ولكنى بقيت فى مكانى لأواجه مصيرى مهما كانت العواقب ..

نعم مهما كانت العواقب .. فلقد أعددت نفسى لهذا اليوم منذ مدة طويلة .. وكم نهيت نفسى لكى لا أقدم على قتله .. فلما تعود السكينة إلى نفسى يستفزنى

هو .. بعمل جديد يغضبنى، فيتأكد عندى ما اقتنعت به منذ سنوات بأن مخاطر بقاء هذا الرجل فى السلطة أخطر بكثير من مخاطر التخلص منه .. !

كم من الليالى لم تر فيها عيناى طعم النوم أو الراحة وأنا أرى ما تعانيه بلادى من ذل وهوان على يد هذا الحاكم الظالم وغيره من حكام الأندلس .. هؤلاء الحكام الفاسدون قد ارتضوا لأنفسهم حياة الذل والخضوع عن حياة الشرف والكرامة.. لا لشىء سوى أن تمتلئ خزائنهم بالأموال والنفائس، حتى ولو كان ثمن ذلك.. أن تظل بلادهم وشعوبهم مستعبدة .. مستذلة لأعدائها ..

لقد كان ثمن بقائهم فى السلطة يرتبط بالمدى الذى يمكن به أن يفرطوا فى حق شعوبهم فى الحرية والعيش بكرامة وشرف..

كان عليهم أن يختاروا بين طريق العمل الجاد من أجل رفاهية شعوبهم ورقيها.. وبين أن يرفلوا فى حياة الدعة، والراحة، والاسترخاء، والقناعة بما يفرضه عليهم أعداؤنا من جزية حتى يتهربوا من عبء القتال والدفاع عن حقوق شعوبهم .. فاختاروا الطريق السهل، وما يترتب على ذلك من عواقب خطيرة تهدد حياة الشعوب المسلمة فى سائر الأندلس وتؤثر على مصيرها ومستقبلها .. " .. ثم يتابع عبيد الله حديثه إلى ابنه فيقول فى نهايته " والله .. إن كان الموت هو الثمن للخلاص من هؤلاء الحكام .. فما أهونه من ثمن .. ! "

عكف الأطباء على تكثيف العلاج للأمير .. وشيئاً فشيئاً بدأ يستعيد وعيه وقواه على مدى أسابيع .. إلى أن استطاع أخيراً أن ينهض بمهام الحكم فى الإمارة، ولكن ظهرت آثار الجروح على وجهه وأصبح مشوها .. وبدأ وقت الحساب ..

عقد الأمير جلسة لمحاكمة الوزير وإبنه .. و ناقشه فى أسباب ما أقدم عليه .. ووجد تصميما من عبيد الله على ما قام به.. بل وجده راضياً مطمئناً ..

فقرر الأمير أبو مروان عبد الملك .. أن يحمى على عينيه بالنار حتى تسملا .. وأن تقطع يداه وقدماه من خلاف .. وأن يعلق جسده وهو حى على صارى أمام بوابة مدخل المدينة حتى الموت .. ليكون عبرة لغيره ..

كما ثبت للحاكم أن محمد بن عبيد الله لم يخطط للجريمة، ولم يكن على علم بموعدها إلا وقت تنفيذها فعاون أبيه على تنفيذها .. وقد حكم عليه بأن تقطع رجله اليسرى، وأن يتم عزله من كافة مناصبه فى الإمارة، ويطلق سراحه ..

الغد المشرق ..

عاش السيد بين جدران قصر الحكم فى ضاحية بلا نوبه بمدينة بالنسية، فى عزلة واكتئاب .. بعد أن عاد يفكر فى فقدانه لابنه الأوحد دييجو .. وهو فى مهد شبابه ..

وتطلع حوله فوجد نفسه وجيشه محاصرين خلف أسوار المدينة متأهبين لقتال جديد مع جيش المرابطين، وقد حشد فرقا عسكرية كثيرة قادمة من أرض المغرب ..

أخذ رودريجو يتأمل أحواله، وما آلت إليه حياته بعد هذه السنين الطويلة فحدث نفسه قائلاً:

دييجو .. ابنى الحبيب .. أين أنت .. ؟

برحيلك فقدت كل شىء .. بعد أن كنت قد حزت كل شىء ..

بفراقك انطفأ النور فى عينى

بفراقك انعدم الأمل فى صدرى .. فعيناى لاتراك .. وقلبى لا ينبض دونك .. ولم تعد روحى تحلق من حولك ..

برحيلك صار كل شىء عدما .. وفراغا .. وسوادا حالكا

ماذا حل بى .. ؟ لا أعرف

يا جسدى النحيل كيف ابتليت .. وقد كنت يوما بنياناً مفتولاً

يا أيتها النفس كيف اعتللت .. وقد كنت بك فخوراً مغروراً ..

يا أيتها الروح كيف ضقت بالجسد .. وقد كنت يوماً تحلقى تحت أديم السماء وكأنك نسراً جسورا ..

أحقاً يضيع عمرى .. وتخور قواى .. وتتأرجح روحى فى حلقى ..

ماذا عن حياتى التى مضت ..؟ وماذا عن حياتى الآتية .. ماذا أردت أن أكون .. وإلى ما انتهيت ..؟

لماذا أنا حزين ..؟ والباقى فى العمر قليل ..

ألم يأن لك أن تبتعد أيها الحزن ..

مالك ومالى أيها الحزن .. ألم يكفك ذلك الماضى الأليم عند خروجى من بلادى منفياً طريداً .. أما زلت أيها الحزن نائماً بين ضلوعى ..

عشت سنوات نسيتك فيها، وبدا لى أنك لن تعود .. وهأندا أراك متأصلا فى نفسى

رباه .. هل أنا نجحت فى حياتى .. أم فشلت ..؟

لا أعرف.. حقاً لا أعرف.. لو كنت قد نجحت لأطلت هذه الإجابة من فورها.. ولكنى لا أحسها .. ولا أشعر بها .. لماذا .. ؟

إننى أتطلع لما حولى فأجد نفسى غريباً مع كل ما أعيشه من مظاهر السلطة والنفوذ .. فمهما كانت لى الزعامة والقيادة .. فإنها تبدو لى دائماً منقوصة .. لأنها مثل الزعامة والقيادة الزائفة .. طالما كانتا بعيداً عن أهلى وعشيرتى وأقاربى .. طالما كانتا بعيداً عن تراب بلادى، وسمائها ونسمات الهواء فى ربوعها..

أين هذه الزعامة وتلك القيادة .. وأنا محاصر هنا وسط أناس غرباء عنى وغريب أنا عنهم .. مهما تظاهرت أنا .. أو تظاهروا هم بغير ذلك .. فيبقى الواقع الذى هو أقوى من أى زيف أو خداع ..

هذا الواقع الذى يؤكد أننى غريب .. غريب عن الأرض، وغريب عن الناس ..

أين راحة النفس .. أين راحة الضمير ..

لقد عشت أحفر فى الصخور، وآكل العشب بحثاً عن السلام والهدوء فى آخر أيام حياتى .. وهأنذا أجد نفسى مرة أخرى فى الصف الأمامى أواجه أعدائى الذين لن تفتر عزيمتهم أبداً حتى يطردونى من المجد الذى حققته فى بالنسية .. هذا المجد الذى لا يقوى بدنى .. ولا تقوى نفسى على القيام بأعبائه التى لا تنتهى ..

آه .. أين أنت أيها الهدوء .. بل أين أنت أيتها السعادة ..؟ ..

عاشت خامينا إلى جوار زوجها القنبيطور تقوم على تمريضه والعناية به، وقد اعتلت صحته، وساءت حالته .. وقضى معظم وقته طريح الفراش، بينما تقوم خامينا بتصريف أمور المملكة، وهى بجواره تساعده على التوقيع على الأوامر والنواهى، وتختم على الوثائق بخاتمه وبإذن منه ..

واستدعى السيد كبار قادته المخلصين له، وأمرهم ألا يتخلوا عن الدفاع عن مدينة بالنسية مهما كان الثمن .. فهى الشىء الوحيد الذى يؤكد له (أى للسيد) أنه استطاع أن يقدم شيئًا له قيمة لبنى جلدته ..

وأمر السيد كبار قادته بمعاونة خامينا زوجته فى قيادة المملكة بعد رحيله.. وأن يقدموا لها نفس الوفاء والإخلاص الذى عهده منهم فى حياته .. وطالبهم بأن يستمروا على عهدهم معها كما كانوا معه ..

وفى ١٠ يوليو ١٠٩٩ ميلادية صعدت روح القنبيطور إلى السماء وهو لم يتجاوز السادسة والخمسين من عمره .. والتف من حوله الجميع، زوجته خامينا وكبار قادته .. وراحوا يبكونه فى لوعة وأسى .. وقرر جميعهم أن يبقوا على جسده محنطاً على حالته ولا يدفنوه ليبقى جسده فى الكاتدرائية بالنسبة إليهم.. نوراً هادياً ومُلهماً ..

وأقيم القداس الكبير بالكاتدرائية التى شيدت على موقع المسجد الجامع الكبير فى الحى الجديد بمدينة بالنسية .. وحضره قادة الجيش، وكبار رجال وأعيان مدينة بالنسية ..

بعد انتهاء مراسم الجنازة وفترة الحداد على وفاة السيد .. جمعت خامينا كبار رجال الدولة فى بالنسية وكبار قادة الجيش، وأخذت منهم يمين الطاعة والولاء .. وتولت كافة مناصب القيادة التى كانت لزوجها قبل وفاته ..

وكان الكثير من قادة الجيش تربطهم صلة القرابة مع عائلة زوجة القنبيطور خامينا فى قشتالة، مما ساعد على التفافهم حولها وطاعتهم لأوامرها .. وكانوا صادقين فى عزمهم على الدفاع عن مملكة بالنسية ضد جيش المرابطين الذى تحركت قواته لحصار المدينة ..

تحرك الجيش المرابطى الضخم إلى الشمال من مدينة شاطبة، وسارت القوات بمحاذاه ساحل البحر، وعسكرت فى منطقة كوليرا فى منتصف المسافة بين شاطبة وبالنسية .. وبدأت القوات المرابطية فى شن الهجمات على المدينة لتقدير مدى قدرة القوات المدافعة عنها على الصمود لهذه الهجمات ..

أبدت خامينا قدرة على الصمود فى مواجهة هجمات المرابطين .. واستمرت قوات المرابطين تشن الهجمات من آن لآخر على المدينة، وبدأت خامينا يفتر حماسها فى الاستمرار وحدها فى التصدى لهجمات المرابطين، وقد أدركت أنهم لن يغادروا حتى يتم لهم الاستيلاء على المدينة ..

استدعت خامينا الأسقف دون خيرونيمو أسقف الكاتدرائية فى بالنسية، وطلبت منه الذهاب إلى الملك الفونسو لكى يرسل لها جيشاً كبيراً يعينها على طرد المرابطين من معسكرهم فى منطقة كوليرا .. حيث تفتقد خامينا القدرة على الخروج لملاقاة المرابطين فى معركة خارج المدينة .. كما أن كثافة القوات المرابطية لا تسمح لها بذلك ..

وفى معسكر المرابطين قرر قادته عدم فرض حصار على المدينة وبها الكثير من العائلات المسلمة .. وقرر القادة أن أفضل سبيل لتحرير المدينة هو مداومة الهجمات عليها وإنهاك قوى القوات المدافعة عن الأسوار ..

بعد رحلة سفر إلى قشتالة .. اجتمع الأسقف دون خيرونيمو بالملك الفونسو الذى تربطه به علاقة طيبة .. وشرح الأسقف الوضع هناك للملك .. واستطاع أن يقنعه بأن يعد جيشاً كبيراً للذهاب لمحاربة المرابطين هناك، وإنقاذ المدينة من حرب الاستنزاف التى يمارسها عليهم الجيش المرابطى ..

بعد أشهر من التجهيز .. تحرك الملك الفونسو بنفسه على رأس جيش كبير متجهاً إلى بالنسية لمواجهة الجيش المرابطى .. وفى شهر مارس سنة

١١٠٢ميلادية قوبل الجيش بالترحاب الشديد من قبل خامينا زوجة القنبيطور وكبار قادة جيش السيد .. وأقيم معسكر كبير للجيش الأسبانى بالقرب من ضاحية الكدية، وضاحية بلا نوبه ..

امتد معسكر القوات الأسبانية مدة شهر دون أن يتقدم لمواجهة المرابطين وفى نفس الوقت تجنب المرابطون مواجهة جيش الفونسو، وترقب الموقف بحذر ..

خرج الملك الفونسو بجزء من جيشه وهاجم منطقة المزارع فى كوليبرا القريبة من معسكر جيش المرابطين، ومن هناك استطلع حجم الجيش المرابطى، فأصيب بالدهشة والخوف وقفل عائداً إلى معسكره بضواحى المدينة ..

عقد الفونسو اجتماعا مع خامينا وقادة جيشه وقادة جيش السيد وتحدث إليهم فقال.

.. «لقد دعوتكم للاجتماع لكى أحذركم مما أنتم فيه هنا فى بالنسية»..

لقد خرجت بجزء من جيشى بالأمس للإغارة على المناطق القريبة من معسكر جيش المرابطين .. وذلك لكى أشاهد عن قرب مدى حشد قواتهم واستعدادها .. وقد خرجت بالنتيجة الآتية ..

أولاً من حيث الاستعداد أبدى الجيش المرابطى أنه جاهز للقتال فى أى وقت .. فعلى الرغم من مفاجأتى لهم بالهجوم المباغت إلا أننى وجدت قوات لهم فى كل مكان .. تقوم بأعمال الحراسة والمراقبة .. وقد سارعوا بالإبلاغ عن هجومنا .. وخلال نصف ساعة تحرك ناحيتنا حشد غير قليل من القوات فى كامل لباس الحرب، وكانوا مستعدين للمواجهة إلا أننى آثرت الابتعاد بالقوات .. فالمهمة التى خرجت إليها كانت للاستطلاع لا أكثر ..

الشىء الثانى .. أن حشد قواتهم حشد هائل لم أكن لأتوقعه .. ولم أر لهم حشدا بهذا الحجم، وبمثل هذا العتاد الذى يتوفر لديهم .. فهم لم يأتوا لمجرد المناوشة .. ولكنهم عازمون على مهاجمة المدينة إن عاجلاً أو آجلاً ..

الشىء الأخير الذى أريد أن أنبهكم إليه .. أن استمرار تواجد جيش المرابطين لمدة طويلة هو فى صالحهم، وليس فى صالح كل من هو موجود بالمدينة .. فكلما مضى الوقت نقصت المؤن .. وضعفت الهمم .. وما هو موجود بالمخازن لن يكفى

لأكثر من ستة أشهر أخرى .. وبعدها سوف يزيد حجم المعاناة .. وتقل الإمكانيات اللازمة للجيش المدافع عن المدينة ..

أما بالنسبة لإمكانية أن نخرج لمواجهتهم فى حرب مفتوحة على الوضع الذى نحن فيه الآن .. فأنا لا أستطيع أن أخوض معركة بهذا الحجم الكبير وأنا بعيد بقواتى عن بلادى .. وإن انتظرنا حتى تأتى لنا إمدادات من فرنسا وبلاد أوربا فهذا سوف يستغرق وقتا كبير ا .. وقد تأتى بعد أن تكون القوات هنا قد منيت بهزيمة نكراء .. وفى ذلك مغامرة خطيرة ...

ثم سكت الفونسو للحظات ساد فيها صمت مطبق ... ثم قالت له خامينا:

- وماذا تقترح أن نفعل ..؟

- للأسف .. ليس أمامكم إلا أن تنسحبوا بما لديكم، وتخروجوا سالمين من المدينة وتعودوا إلى المملكة الأسبانية

تصدر همهمات وتعليقات خافته من هنا وهناك .. لا .. لا يمكن أن نتركها لهم بعد كل هذا الجهد ..؟ .. لا .. لم يوصنا القنبيطور بذلك .... ثم يتابع الفونسو حديثه قائلاً:

- بالنسبة لى فأنا أعرف جيداً ما يجب علىّ أن أفعله .. وسوف أصدر قرارى لقواتى للاستعداد للرحيل خلال يومين على الأكثر ...

تحدث بلبلة .. وهمهمات مرة أخرى ما بين مؤيد ومعارض ... ثم تقول خامينا للملك الفونسو:

- هل يوجد حل آخر غير الانسحاب ..؟

- هذه هى رؤيتى لما شاهدته على أرض الواقع

- إذن لابد لنا أن ننسحب دون أن تلحق بنا أضرار

- إذا قررتم الانسحاب ففى هذه الحالة لن أعطى أوامر لقواتى بالرحيل إلا بعد تأمين الانسحاب للجميع

- نشكرك يا مولاى على نصيحتك

إذن لنجلس فى المساء للإعداد لخطة الرحيل من المملكة

ألقت خامينا على كبار رجال مدينة بالنسية من الأعيان والوجهاء والشيوخ خطاب الوداع، قبل أن تغادر المدينة ..

وبعد شروق الشمس من يوم الأحد ٤ مايو ١١٠٢ميلادية (١٥ رجب ٤٩٥هجرية) دقت الطبول، وفتحت أبواب المدينة .. ووقفت قوات الجيش الأسبانى على اليمين واليسار فى حالة استعداد قصوى وفى رداء الحرب ..

تقدمت الفرقة الأسبانية للفرسان الموكب وفيها الملك الفونسو إلى الخارج من المدينة وسارت فى الأمام فى نحو خمسمائة فارس ..

ومن بعدها سارت فرقة الفرسان من جيش السيد بقيادة بدرو حامل العلم .. شعار جيش القنبيطور .. فى قوة تقدر بنحو خمسمائة فارس من كبار قادته وفرسانه المقربين ..

تلى ذلك المئات من البغال والخيل المحملة بالأثقال والأحمال والصناديق المملوءة بالمتاع وحولها أربعمائة من قوة الفرسان .. وبعدها بمسافة سار الحصان بيبيكا .. وهو حصان السيد الخاص .. ووضع عليه جثمان القنبيطور وهو محنط تحنيطاً جيداً وقد وضع الدرع معلق على عنقه .. والسيف تيفون فى يده .. والآخر كولادا على جانب الفرس ..

وسار المطران دون خيرونيمو إلى اليمين من الفرس .. والقائد مونيو جوستيوث إلى يساره ومعهما مائة فارس ..

ثم سارت خامينا ومعها نساء القصر من مساعدات ووصيفات وخادمات ومعهن ستمائة فارس ..

وتلاهم أهالى المدينة من النصارى، وقد خافوا البقاء فيها بعد رحيل جيش السيد وكافة القوات الأجنبية (١) ..

---

(١) «الحلل السندسية» ـ الأمير شكيب ارسلان المجلد الثالث ص ـ ٤٤ دار الكتب العلمية بيروت – طبعة ١٩٩٧.

ثم انتظم الجيش الأسبانى من خلفهم فرقة تتلوها أخرى تنضم إلى الموكب كلما ابتعد لمسافة من مدينة بالنسية ..

وبينما تتباعد فرق الموكب بعيداً .. كانت تتصاعد الأدخنة السوداء من قلب المدينة .. وشيئاً فشيئاً تزايدت الأبخرة الرمادية والسوداء، وتحولت إلى ألسنة من اللهب المتصاعد المتوهج ..

فلقد قامت فرق من الجيش الأسبانى وجيش السيد، بحرق المخازن وما فيها من غلال .. والمبانى والأبراج التى على الأسوار .. وكل الحدائق .. ومبانى الدواوين، ودار الوثائق، وكل الأشياء التى قد تعود بالنفع على أهل المدينة المنكوبة..

تعلقت عينا ماتيلدا المرأة الأسبانية .. صديقة الطفولة لكل من رضوى ونائلة.. بجدران المدينة وبيوتها وأسوارها، وهى تغادر المدينة مع زوجها وعائلتها.. وراحت الدموع تتساقط من مقلتيها، وتهدج صوتها وهى تبكى بحرقة، ومعها الكثير من أهالى المدينة من النصارى واليهود .. المغادرين لها كرهاً .. وتعالى البكاء .. وتحول إلى صراخ وعويل ولوعة، كلما تزايدت النيران، واشتعلت الحرائق لتمزق المدينة التى كانت جميلة .. وراحت ماتيلدا تحدث نفسها قائلة..

ما هذا الدخان ..؟ من أين يأتى اللهب ..؟ آآه .. لا أصدق عينى .. بالنسية تحترق .. لا ..لا .. ارفعوا أيديكم عن مدينى .. لا تحرقوا بلادى .. لا تحرقوا طفولتى وشبابى .. لا تحرقوا مدينة الحب والجمال .. أرجوكم ابتعدوا عن بلادى .. لا تحرقوا ذكرياتى .. آآه يا مهد الطفولة وأرض الذكريات .. .. يا روضة الفؤاد وعطر النسمات .. يا حبى القديم وأملى العريض .. يا أنشودة الحب، وترنيمة العشق .. يا مدينتى الغالية ..

لا تحرقوها .. آه لو أحرقونى أنا .. آه لو مزقونى أنا .. آه لو قتلونى أنا ..

فاتركوها ليبقى ترابها .. وتبقى ديارها .. وتبقى سماؤها صافية نقية ..

بأبى أنت وأمى يا بلادى .. أفديك بروحى وحياتى .. لتبقى البيوت .. وتبقى الكنائس والمآذن .. لتبقى التلال، وتبقى السهول والوديان .. ليبقى نهرك الدافق نبع الحياة .. وهبة السماء .. لتبقى أسوارك وأبراجك عالية عاتية .. تستعصى على أعدائك .. يا بلادى الحبيبة الغالية ..

لتبقى خالدة خلود الدهر .. ولتذهب أرواحنا وأجسادنا .. وتبقى أنت خالدة يا مدينتى .. يا بالنسية

فلتقطع أياديكم الآثمة.. ولتحرق قلوبكم الغادرة.. ولتبقى بلادى.. عشت يا بلادى.. عشت يا ديارى.. لن يطول الزمان.. ولن يطول البعاد.. سأعود إلى بلادى.. سأعود إلى أحبائى..

وقف الجيش المرابطى على مسافة يترقب الجيش الأسبانى وهو ينسحب من المدينة.. ولم يشأ قائده محمد مزدلى أن يتدخل بقواته، وقد تحقق له ما أراد وخرجت الجيوش الأجنبية من المدينة..

وفى اليوم التالى الأثنين ٥ مايو دخل الجيش المرابطى إلى المدينة، وتوافد الأهالى الأصليين عائدين إليها من كل الضواحى والقرى والمدن التى كانوا قد هاجروا إليها منذ الحصار حتى دخول الجيش المرابطى للمدينة ..

توافد الناس تباعاً إلى المدينة وهى تحترق، وراحت الأهالى تحاول فى استماتة أن تطفئ نيران الحقد التى أشعلها الجيش الأسبانى فى أرجاء المدينة قبل أن يغادرها، بعد أن فشل فى إبقاء بالنسية فى حظيرة المملكة الأسبانية .. وعادت المدينة إلى أصحابها ..

لم تتأخر عودة رضوى وأسرتها من شاطبة إلى بالنسية .. كما راحت نائلة وهى بمدينة مرسية .. تلح على والدها ليعيدها إلى بالنسية، وجاش صدرها بمشاعر الفرحة، وضاقت جدران المكان عليها، فخرجت إلى شرفة الدار، وقد فاضت الدمعات من مقلتيها، وهزها نبأ تحرير المدينة .. فراحت تغنى وكأنها تحلق فى السماء

«ردنى إلى بلادى .. عند شاطىء ووادى..

ونهر يطوف بكل روض.. وروض يرف [1] بكل وادى

.. ردنى.. ردنى.. ردنى إلى بلادى..»

---

(١) رف النبات يرف رفيفا إذا اهتز.. وثوب رَفيفٌ وشجر رفيفٌ إذا تندى.. ويقال يرف إذا تلألأ... (معجم لسان العرب).

عاد جاسر إلى منزله وقال لرضوى :

- لقد عادوا .. لقد عادوا

- من عادوا يا جاسر

- سالم ونائلة ... فتصرخ رضوى وتقول:

- نائلة .. لا أصدق .. نائلة .. أين هم ..؟ أين هم

- فى منزل العائلة بالمدينة

- هيا إليهم يا جاسر هيا ... تتقدم رضوى نحو باب الدار وهى بملابسها العادية وبلا حجاب على الرأس فيقول لها وهو يضحك:

- انتظرى يا رضوى .. انتظرى لم ترتدى ثيابك ولا خمارك بعد

- آه .. يالى من حمقاء .. انتظر قليلاً لأرتدى ثيابى، ونذهب معاً

راح سالم ونائلة والأسرة .. يتفقدون المنزل وقد تهدمت بعض جدرانه، وتبعثر ما بقى فيه من الأثاث والمقتنيات وأخذوا يتحسرون على ما ضاع .. ويفتشون على ما يمكن أن يكون صالحاً من المتاع أو الأثاث ..

وفى أثناء ذلك طرق باب الدار، ففتحه سالم ليجد بدران مساعده بالمزرعة ومعه بهجة زوجته وطفلهما الأكبر سعيد .. فيصيح وهو يقترب منه ليحتضنه

بدران .. يا الله .. أهلاً اهلاً .. ادخلوا .. ادخلوا .. ولكن اعذرونا على الحالة السيئة التى عليها الأثاث، والفرش

كل شىء سيعود أحسن وأفضل يا سيدى .. حمدا لله على سلامتك أنت والسيدة نائلة

وفى هذه الأثناء ترتمى بهجة فى أحضان سيدتها نائلة، وراحت تقبلها على جبينها، ويدها بينما تشدها نائلة وترفعها وتحتضنها وتقول:

- بهجة .. يا حبيبة القلب .. كم افتقدتك يا غالية

- سيدتى .. لقد عدت لنا بسلامة الله .. ما شاء الله .. ما أجمل أولادك يا سيدتى وكأنهم زهور متفتحة تضىء سماء الأسرة ... ثم تصمت قليلاً وقد فاضت الدمعات من عينيها فتقول:

- ببعادك سيدتى حرمت من الحياة .. وبعودتك سيدتى عادت لى روحى وقلبى، واستعدت نفسى وكيانى ..

- ما أحلى كلماتك التى لطالما حرمت منها وأنا بعيدة عنك .. وكم تمنيت أن تكونى جوارى كلما تذكرت بالنسية وأهلها .. ألم يكن من الأفضل لك ولى أن تأتوا معنا حينما غادرنا بالنسية يا بهجة .. ؟ ..

- ما كان قد كان يا سيدتى .. ونحن لا نكتب أقدارنا ..

- معك كل الحق يا بهجة .. معك كل الحق

ويطرق الباب من جديد، وتدخل رضوى وزوجها جاسر وهى تصرخ ..

- نائلة .. نائلة ... وتجرى نحوها وتحتضنها بشوق ولهفة، فتقول لها نائلة وهى تعانقها وتبادلها العناق والتقبيل:

- رضوى حبيبة عمرى .. رضوى يا رفيقة طفولتى، وأحلى ذكريات صباى ..آه لكم افتقدتك يا حبيبتى ... تجهش رضوى بالبكاء من فرطا السعادة والحنين إلى الماضى المفقود

- نائلة .. لقد فرق القدر بيننا، ولن نفترق أبداً بعد ذلك ... آه كم كان الفراق قاسيا .. وكم كانت الأيام ثقيلة، مريرة ..

- الحمد لله أننا قد تلاقينا، وقد مَن الله علينا بنعمة العودة لديارنا لنلتقى بأحبائنا من جديد ..

تجرى دموع الفرحة فى العيون .. ويتعانق سالم وجاسر .. وتوسط جميعهم ركام الدار والأثاث المبعثر، وقد بدت على الجدران البقع السوداء من آثار الحرائق .. بينما انشغل الجميع بحديث الشجون والذكريات .. وراح الأطفال يمرحون بسعادة .. ونسى الجميع الواقع المؤلم الذى يتجسد على جدران البيوت وعلى الطرقات والحدائق والمبانى والقصور ..

بقلوب تملأها سعادة العودة إلى الديار.. وسواعد مشتاقة إلى العمل والبناء .. وبعيون تلمع ببريق الأمل فى الغد .. راح الجميع يتحدثون عن الغد .. الغد المشرق ..

ومادامت الأحلام متجددة .. فلن يضيع نور .. ولن يخفت أمل ..

وبعد الليل الحالك .. يأتى الغد المشرق ..

دارت عينا نائلة تطالع الوجوه التى من حولها فى المكان .. واهتز وجدانها .. وإمتلأ صدرها بنسمات هواء بالنسية .. وسرحت بخيالها بعيداً .. وراحت تخطو برفق بعيد إلى حيث شرفة المنزل .. وانطلق لسانها يغنى .. وراحت شفتاها تغرد ..

«ردنى إلى بلادى .. عند شاطىء ووادى..

ونهر يطوف بكل روض.. وروض يرف (1) بكل وادى

.. ردنى.. ردنى.. ردنى إلى بلادى..»

وصمتت الأفواه عن الحديث .. وتوقف الأطفال عن اللعب .. وتحركت الأقدام نحو الشرفة من خلف نائلة، وقد تراءت لهم البيوت والطرقات والبساتين على مدى البصر .. وقد هزت الكلمات وجدانهم .. ووجدوا أنفسهم يَشدُون معها .. بينما العَبرات تتدحرج على وجنتى رضوى وبهجة .. وإرتسمت ملامح الإصرار على وجوه الرجال .. وراح الجميع يرددون معها ترنيمة العودة ... ردنى إلى بلادى

«انتهت»

* ذهبت خامينا إلى قشتالة بالمملكة الأسبانية ومعها جثمان السيد حيث دفن فى كنيسة **«سان بطرس»** بـ كاردينا، قريباً من برغش .. وفى سنة ١١٠٤ توفيت خامينا، واستولى الفونسو على جزء كبير من ثروة السيد .

* استولى المرابطون على إمارة ألبونت ومن بعدها إمارة شنتمرية فى أبريل ١١٠٤ ميلادية (رجب ٤٩٧ هجرية) وكان يحكمها الأمير يحيى، وذلك بعد وفاة أبيه الأمير أبو مروان عبد الملك بن رزين سنة ١١٠٣ميلادية .

* توفى يوسف بن تاشفين أمير المسلمين فى قصره بمراكش فى ٢ سبتمبر ١١٠٧ميلادية بعد عمر ناهز المائة عام، قضى منها خمسين عاماً فى الزعامة والكفاح وقد حرر شرق الأندلس كله، وحكم الأمبراطورية المغربية الأندلسية الموحدة زهاء خمسة عشر عاماً .

* تولى على بن يوسف قيادة المرابطين، وبعث الجيش المرابطى لمحاربة الجيش الأسبانى بقيادة الملك الفونسو بالقرب من سهول كونسيجرا سنة ١١٠٧ ميلادية .. وهزم الجيش الأسبانى هزيمة ساحقة، وفر الفونسو مع فلول جيشه عائداً إلى طليطلة .. ثم عاد الجيش المرابطى وحارب الجيش الأسبانى عند قلعة أقليش فى مايو سنة ١١٠٨ وسحق الجيش الأسبانى وعلى رأسه القائد ألبير هانيس، وقُتلٌ بذرة الشيطان .. سانشو (ابن الملك الفونسو من الأميرة سيدة) فى المعركة، وقد حاول كبار الفرسان والقادة حمايته وإنقاذه من الموت .. دون جدوى..

* مات الملك الفونسو السادس ملك المملكة الأسبانية فى ٢٩ يونيو سنة ١١٠٩ ميلادية .. حزناً وكمداً على الصدمة المؤلمة لمقتل ابنه الأوحد وولى عهده سانشو ..

المراجع الهامة

* القرآن الكريم
* دولة الإسلام فى الأندلس (د. محمد عبد الله عنان)
* الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة (ابن بسام الشنتريني)
* الحلل السندسية (الأمير أحمد شكيب أرسلان)
* ملحمة السيد (د. الطاهر أحمد مكى)
* الحلة السيراء (ابن الآبار)
* نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (المقرى)
* البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب (ابن عذارى المراكشى)
* المسلمون فى الأندلس (رينهرت دوزى)
* تاريخ المرابطين والموحدين فى الأندلس (أشباخ)
* قلائد العقيان (الفتح بن خاقان)
* الإسلام فى الأندلس والمغرب (ليفى بروفنسال)
* الروض المعطار فى خبر الأقطار (الحميرى)
* أعمال الأعلام (ابن الخطيب)
* دور المرابطين فى الجهاد بالأندلس
* ابن زيدون .. شاعر الحب المعذب (د. فوزى خضر)

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www. egyptianbook org.eg
E - mail : info@egyptian.org.eg



" هذه القصة "

راح الإسبان يتغنون بشخصية " السيد " الأسطورية وخلدوها فى قصائدهم كرمز للقائد الإسبانى الذى استطاع الانتصار على العرب وحصارهم فى شرق الأندلس .. إلا أن المرابطين جاءوا بجيوشهم لينفضوا غبار الهزيمة ويعيدوا المجد والفخر لشعب الأندلس ، بعد أن أنهوا عصر الضعف والانحلال لأمراء وملوك الطوائف فى ملحمة ضارية تسلط الضوء على طبيعة الصراع الدائر بين الإسبان والمرابطين فى كل أنحاء الأندلس ..

ISBN# 9789774213332
6 221149 017924

٢٠ جنيهًا